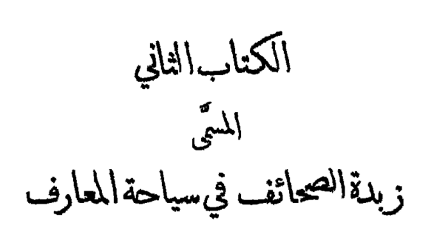
فهرست

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٣٠	"	٤٢٣	٤٣٠
٤٣١	"	٤٢٣	٤٣١
٤٣٢	"	٤٢٤	٤٣٢
٤٤٧	"	مدة القرن الثامن عشر	مدة القرن التاسع عشر
٤٥١	١٣	باديه	باويا
٤٥٥	الترويس	مدة القرن الثامن عشر	مدة القرن التاسع عشر
		في الفصل الثاني من	في الفصل الخامس من البحث
٤٦٤	١٩	البحث المذكور	الثاني صحيفة ٢٤٠
٤٦٦	١٣	افتتاح القرن الثامن	نهاية القرن الثامن
٤٧٥	١٧	(٢٧٥٥٧١)	(٢٨٥٥٧١)
		المعارف في بلاد الدولة	المعارف في بلاد الدولة العلية
		العلية العثمانية	العثمانية منذ الفتوح الى القرن
٥١٩	٢		التاسع عشر
٥٢٤	١	نتغلق	نتعلق
٥٢٩	١٨	النصب	القصب



الكتاب الثاني

المسمّى

زبدة الصحائف في سياحة المعارف

تاليف

نوفل افندي بن نعمة الله بن جرجس

نوفل الطرابلسي

يا أيها القوم الذين تعشقوا — في ضبط كرّات الحروب وفرّها
هيّا اشربوا نِعَمَ اليراع وحسبكم — ان ترووا عن نِعَم القِراع وشرّها

بيروت ١٨٧٩

المقدمة

في اقسام التاريخ

يقسم الافرنج التاريخ الى ثلثة اقسام الاول يسمونهُ القرون الاولى وهو تاريخ الزمان القديم المجهول ويبتدي من بدء الخليقة الى الزمن الذي فيهِ اغار البربر على المملكة الرومانية فمزقوها واستولوا على اقاليمها في سنة ٣٩٥ م فيكون محتويًا على وقائع ٤٤٠٠ سنة حسب التوراة العبرانية وتحتهُ ثلثة فصول الاول من بدء الخليقة الى زمن قورش ملك العجم موسس الحكومة الملكية سنة ٥٥١ ق م واكثر وقائع هذا الزمن ماخوذة من الكتاب المقدس. والفصل الثاني من زمن قورش المذكور الى زمن اغسطوس قيصر الروماني الذي نقل الحكومة الرومانية من المشيخة الى الامبراطورية وهو يتضمن وقائع ٥٠٠ سنة من سنة ٣٤٥٣ الى سنة ٣٩٥٣ سنة للعالم (سنة ٥١ قبل الميلاد) والفصل الثالث من عصر القيصر المذكور الى زمن ثاودوسيوس الاكبر قيصر القسطنطينية الذي تولى المملكة في سنة ٣٧٩ ب م وقسمها بين ولديهِ في حال حياتهِ الى قيصرتين شرقية وغربية فهو يحتوي على وقائع ٤٣٠ سنة

والقسم الثاني يسمونهُ القرون الوسطى وهو يتضمن وقائع نحو ١١٠٠ سنة ويقسمونهُ ايضًا الى ثلثة فصول الاول من عهد ثاودوسيوس الاكبر المذكور الى زمن شرلمانيا او كرلوس مانوس اعني كرلوس الاكبر موسس الامبراطورية

الغربية في فرانسا سنة ٨٠٠ ب م والثاني من عهد هذا الامبراطور الى نهاية الحروب الصليبية وابتداء التمدن في بلاد اوربا وذلك نحو ١٣٠٠ ب م والثالث من نهاية الحروب المذكورة الى الزمن الذي فيهِ اكتشف خرستوفورس كولمبوس الدنيا الجديدة المسماة باميركا سنة ١٤٩٢ ب م

والقسم الثالث يسمونهُ القرون الاخيرة ويشمل ايضًا على ثلثة فصول الاول يحتوي على وقائع ١٥٦ سنة منذ كُشفت اميركا الى الزمن الذي فيهِ صارت مصالحة وستفاليا ووضعت النظامات والقوانين الجديدة في اصول الادارات الدولية سنة ١٦٤٨ ب م والثاني من هذه المصالحة الى الزمن الذي فيهِ حصلت الفتن العظيمة في فرانسا سنة ١٧٩٨ ب م والثالث من ابتداء الزمن المذكور الى سنة ١٨٥٣ ب م

ومن ثم لا يخفى بانهُ لابد من ان تكون الناس في كلّ قسمٍ من اقسام التاريخ المذكور على طبقات متفاوتة في التمدن الناتج من وسائط المعاشرة والائتلاف وكلّ ما يتسبب عنهُ اتساع دائرة العلوم والمعارف بمقدار ما يكونون مطبوعين عليهِ من الجراءة والاقدام او الوساوس والاوهام وهذا ايضًا ينشأ طبعًا من كيفية التصرّف في استعمال العقل الموهوب من الله سبحانهُ وتعالى خاصةً يمتازبها الانسانَ عن باقي الحيوانات التي تشاركهُ في الطبيعة والسكن واشتغالهِ بالبحث عن حقائق الامور الواقعة تحت حواسهِ مهما كانت من الدقائق الخفيّة فان حسن هذا الاستعمال عند قومٍ او قبيلةٍ نمت فيهم القوى العقلية فكثرت عندهم المعارف وزادت الاختراعات وظهرت الاكتشافات ذات الفوائد الجليلة فترتقي تلك الامة الى اوج المعالي في مقام المدنية واما ان ساء هذا الاستعمال في اي شعبٍ او ملةٍ من الشعوب والملل فانهُ يهبط بهِ الى حضيض التوحش والبربرية وفي الحالة الاولى يبقى الذكر جميلاً مخلدًا على الدوام. واما في الثانية فانهُ يكون حطيطاً خاملاً بين الانام غير انهُ في الحالتين قد قضى الله بعدم الامكان على الخوض في ادراك حقيقة ذاتهِ الالهية وكنه صفاتهِ

الازلية وغاية مقاصدهِ الربانية فليس للناس دليل على ذلك الاّ اعلاناته الروحية ولا مرشد اليه غير ما جاء بهِ عليهم من الكتب المقدسة السماوية فلا ينبغي اذن ان نأنف من معارف قومٍ وان وُجِد في اعتقاداتهم الدينية اعظم الخرافات ولا نثق باراء اخرين في مثل هذه المباحث لكونهم من صحة العقيدة في اعلى الدرجات بل اينما تظهر لنا اثمار العقول ينبغي ان نتلقاها بعين الاعتبار والقبول

القسم الاول

من التاريخ وهو القرون الاولى

قد ذكرنا في ما مرّ بان اكثر وقائع هذا الزمن ماخوذ عن الكتاب المقدس ولذلك لا يمكننا ان نتكلم عنهُ هنا شيئًا باكثر واوضح ما بسطناهُ في صدر الفصل الثامن من المقالة الاولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف وخصوصًا ما كان من هذه الوقائع مختصًا بالعالم القديم الذي كان قبل الطوفان الذي يخبرنا الكتاب المقدس بحدوثهِ بعد خلق آدم اوّل البشر بنحو ١٦٥٦ سنة اعني سنة ٢٣٤٨ قبل الميلاد وعلى مقتضى الاصطلاح الشائع المعوّل عليهِ الان وهو ان ميلاد المسيح كان بعد خلق آدم بنحو ٤٠٠٤ سنين حسب سلسلة تواريخ الآباء القدماء المستخرجة من التوراة العبرانية

اما ما كان بعد الطوفان المذكور فقد ذكرهُ المورخون بتفاصيل اجمالية منها ما هو موسس على ما ورد في الكتاب المقدس ايضًا ومنها ما هو متحصل اما مما وصل بالنقل الشفاهي الى اوائل المورخين واما مما نتج عن الفحص في الآثار القديمة بواسطة جهد مدققي المتاخرين وخلاصة ما قالهُ القوم المحققون بالنظر الى احوال اهل هذا القسم التاريخي الذي نحن بصددهِ هو انهُ ليس كل امةٍ قديمة تستحق ان يبحث عنها بخلاف اهل مصر والعبرانيين والصين والهند والعجم والسريان واليونانيين فانهم كانوا دون غيرهم في القرون الاولى يستحقون البحث عن احوالهم نظرًا لما في ممالكهم من الآثار الشهيرة المرغوبة التي تدلُّ

الباحث عنها على ما كانت عليهِ في وقتها غيران الاختلاف واقع بين المورخين في تعيين الشعب الذي ابتدي قبل غيرهِ من هذه الطوائف في مارسة العلوم والفنون فمنهم من قال المصريون وايّد ذلك بقولهِ لكونهم كانوا اصلاً لكثيرين من القبائل والشعوب المتمدنة ومنهم من يقول الكلدانيون ويوّيد ذلك بما يقولهُ ستانليوس بان سحرة العجم المعدودين بين العلماء اخذوا معارفهم عن الكلدان الذين هم اقدم جدًّا من المصريين وبما قالهُ شيشرون او فيقرون اوّل فلاسفة الرومانيين ومورخيهم ان شعب الكلدان شعب العلماء الكلي القدمية اه لكن اذا التفتنا للمبادي الماخوذة من الكتاب المقدس ايضًا نرى بانهُ بعد اندراس العالم القديم بمياه الطوفان انطلق بنو نوح بعد خروجهم من الفلك الذي بهِ نجا نوح واولادهُ من الغرق دون سائراهل الارض الى ارض شنعار الواقعة في جنوب جبل اراراط وبعد ان استوطنوا هناك وصاروا شعبًا عظيمًا اجمع رايهم على بناء برجٍ عظيم لكي يلتجئوا اليهِ وقت الحاجة ويتخلصوا بهِ من الهلاك والغرق اذا حدث طوفان آخر فشرعوا في بناء ذلك البرج ولازالوا يرتفعون بهِ عن وجه الارض الى ان بلبل الله السنتهم سنة ٢٢٤٧ ق م فكفوا حينئذٍ عن العمل وتفرقوا على سطح الكرة ولعل كل فرقة منهم كانت تتكلم بلغةٍ واحدة تجمعت وانضمت الى بعضها وذهبت الى جهةٍ معلومة منها ودُعي اسم ذلك البرج برج بابل الى يومنا هذا ولذلك كان لايبعد عن العقل في كونهم هم اول من مارس العلوم والفنون في ارض شنعار المعروفة بارض الكلدانيين التي قصبتها كانت مدينة بابل عينها التي نُسب اليها البرج المذكور وبناء على هذا جميعهِ نجعل بداءة الكلام هنا على سكان هذه الارض فنقول

المعارف في بلاد الكلدان

الكلدانيون يقال لهم السريان والبابليون ايضًا وهم قدماء العراق

والاكراد يسكنون في الجزيرة التي بين نهري دجلة والفرات باقليم اسما ويسميها اليونان ميزوبوتاميا وهي من اعظم اقطار الارض

قال ابن خلدون المغربي ان معنى الكلدانيين موحدون ومعنى سريانيين مشركون وقال اخرون ان الكلدان هم الذين يسكنون كالديا قسمًا من مملكة بابل وقد اخذوا هذه التسمية من كاسديم او كوسديم بن حام وهو كوش (تك ١٠: ١-١١) وانهُ حسب تواريخ القدماء هم اول من ابتدأ بالعلوم ولئن كان المصريون قد ارادوا ان يخصصوا هذا المجد لذواتهم فادّعوا ان الكلدان عائلة من عائلاتهم

ولم يعلم المورخون شيئًا من امورٍ غريبة وقعت في تلك النواحي حتى ينصوا عليهِ غيران بعضهم يذكر بان مدينة بابل الموضوعة على نهر الفرات قصبة بلاد الكلدانيين ونينوى الموضوعة على نهر دجلة قصبة بلاد الاشوريين كانتا اعظم مدن هاتين المملكتين ثم بعد قليل من الزمان صار الكلدانيون والاشوريون امةً واحدة وصار الاسمان يتواردان على مُسمى واحد

اما مدينة بابل المذكورة قصبة بلاد الكلدان فقد بناها نمرود حفيد حام بن نوح سنة ٢٢٠٠ ق م وزادتها قوةً ونظامًا سميراميس الملكة زوجة نينوس ملك الاشوريين والملوك المتداولة بعدها حتى قام بختنصّر وابنة نتوكريس سنة ٦٢٤ ق م فجعلاها في اعلى درجات العظمة والجلال بحيث صارت تُعدُّ من غرائب الدنيا فان هذه المدينة كانت قائمةً في وسط سهلٍ فسيح وارضٍ مخصبة جدًّا وكان نهر الفرات يخرقها جاريًا من الشمال الى الجنوب وهي محصّنة بسورٍ مربع يبلغ محيطهُ ٦٠ ميلاً وعرضهُ ٨٧ قدمًا بحيث تجري فوقهُ ٦ عربات صفًّا واحدًا وارتفاعهُ ٣٠٠ قدم وكان على جانب النهر من الناحيتين في وسطها رصيف وسور رفيع متين في الغاية وفوق النهر قنطرة عجيبة من حجرٍ يُعبر عليها من احد الجانبين الى الاخر وكان للمدينة ١٠٠ باب من نحاس عظيمة جدًّا وكان خارج المدينة ترعتان تجتمع اليهما ماه النهر عند فيضهِ وينصرف منها

الى دجلة فلا يطفح على المدينة وداخلها سدود عظيمة تمنع فيض النهر من جانبيهِ وكانوا يقطعون الحجارة لتلك الابنية من غربي المدينة فحدث من ذلك هناك حفرة عمقها ٣٥ قدماً ودائرتها ٤٥ ميلاً وعلى طرفي القنطرة القائمة فوق النهر قصران عظيمان بينهما قبة تصل احدهما بالاخر تحت النهر ودائرة الشرقي منهما ٤ اميال وحوله ٣ اسوار حصينة وهو اقدم القصرين ودائرة الغربي ٨ اميال وفي داخلهِ بساتين معلقة واحداً فوق واحد على هيئة درجات السلّم الى مساواة اسوار المدينة وفيها اشجار كبيرة

وبقرب القصر القديم هيكل بعل او بلوس او بيلوس الذي بنتهُ سميراميس الملكة التي تقدم ذكرها لدفن ابيها بيلوس الآتي ذكرهُ وهو مربع البناء ودائرتهُ ٣ اميال وفي وسط هذا الهيكل برج عظيم ارتفاعهُ ٦٠٠ قدم وكان هذا البناء العجيب مركبًا من ٨ ابراج علو كل واحدٍ منها ٧٥ قدمًا وكان يُترَل منها بسلالم مستديرة بها من خارج وفوق الهيكل تمثال من ذهب علوهُ ٤٠ قدماً وتماثيل اخر غيرهُ كثيرة وامتعة ثمينة لاستعمال العبادة الوثنية مما لا يحصى ثمنهُ ومن ذلك يتضح عظم غنى السلطنة البابلية وقوتها ولذلك كانت تدعى بابل المدينة الذهبية ومملكتها سيدة الممالك وقال فريق اخر من المورخين في كلامهم على بابل ومن غرائبها هيكل بلوس الذي ارتفاعهُ ٤٠ قدمًا (يريدون حالتهُ الحاضرة بعد ان خرب) وهو احد عجائب الدنيا السبع[1] ويسمّى الان صومعة

---

(١) غرائب الدنيا السبع التي يتعجب منها الناس في عصرنا هذا هي مذكورة في كثير من كتب القدماء غير انهُ يوجد اختلاف في تعدادها اذ منهم من قال بانها ١ هي هيكل بلوس الذي نحن بصددهِ ٢ اهرام الجيزة ٣ منارة فاروس ببلاد مصر ٤ هيكل ديانة في افسس ٥ ضريح الملك موزول في اناطولي وهو قبر عظيم بنتهُ لهُ زوجتهُ الملكة ارطميزة بمدينة تسمى هاليكرناس وهي وطن هردوتوس اول مورخي اليونان وكانت دار اقامة ملوك كاريا في شبه جزيرة صغيرة جهة جزيرة قوس المسماة الان استانكوي ٦ التمثال المشهور في رودس ٧ تمثال جوبتير في اولمبة ومنهم من قال بانها هي ١ صنم رودس ٢ الاهرام المصرية ٣ القنوات التي يجري فيها الماء الى مدينة رومية ٤

بابل او برج بابل وفي الكتب العربية يسمونهُ برج نمرود وعدّوهُ من غرائب الدنيا لعظمهِ واستحكام بنائهِ العجيب وقد اندرس الان ولم يبقَ منهُ غير اسوارٍ متهدمة في شكلٍ مربع وهو البرج الذي شرع في بنائهِ بنو نوح ليتقوا بهِ من طوفانٍ اخر يحدث في الارض فبلبل الله السنتهم واما تسميتهُ بهيكل بعل او بلوس فهولكون بعض السواح زعموا نظرًا لاعتبارهم ما كانت عليهِ هذه المدينة من الاتساع العظيم بانهُ هو هيكل بلوس اله الواقيين وهو الشمس لكن لا يبعد الاجماع بين الرايين لانهُ يحتمل بانهُ بعد ان شرع بنو نوح في بنائهِ للغاية المذكورة حولهُ سكان البلاد هيكلاً لمعبودهم المذكور وقد بقي هذا الهيكل منتصبًا بعد ابتداء التاريخ المسيحي وهو لم يزل متماسكًا الى الآن ومع انهُ صار تلةَ خراب لم ينقص ارتفاعهُ عن ٣٥ قدمًا وعليهِ قطع عمارات من الطوب ترنُّ كالزجاج دليلاً على انها لقيت حرًّا شديدًا

ثم لما استولى قورش ملك مادي وفارس موسس السلطة الملوكية الذي سبق ذكرهُ على هذه المدينة في سنة ٥٥١ ق م اخذت وقتئذٍ في الانحطاط فتهدمت اسوارها الشامخة حتى انتهت الى ربع ارتفاعها القديم وكذلك احد خلفاء هذا الملك اخذ كنوز هياكلها واباد تماثيل الذهب والفضة فلما استولى عليها الاسكندر المكدوني سنة ٣٣٠ ق م اراد ان يعيدها الى عظمتها الاولى ويجعلها عاصمة البلاد لكنهُ في اثناء ذلك توفي فبطل العمل وفي سنة ١٣٠ ق م قام جبار اخر بارثياني وخرب اعظم ما وجد منها وما زالت اخذةً في الخراب الى القرن الرابع من الميلاد فتمَّ خرابها وصارت تلالاً لكن السواح في هذه الازمنة الاخيرة قد عرفوا مكانها وهم يتفقدون آثارها وخرائبها اذ انها بعد ان كانت

اللابرنث في مصر ٥ منارة الاسكندرية المعروفة بمنارة فاروس ٦ سور بابل ٧ هيكل ديانة في افسس وزعم اخرون انها ١ تمثال رودس ٢ اهرام مصر ٣ هيكل افسس ٤ جنائن بابل المعلقة ٥ قبر الملك موزول او هو ماوسوليوس ٦ كهف جزيرة اتي باتروس ٧ لغز كريت

اعظم المدائن صارت اعظم الخرائب وطفي ذكرها فاندرست بقاياها

واما مدينة نينوى التي هي قصبة بلاد اشور فان الذي بناها هو اشور بن سام بن نوح وفي بعض الكتب العربية نينوس بن نمرود باني مدينة بابل الذي مرَّ ذكرهُ وهي نظير مدينة بابل بكونها من اقدم مدن العالم واشهرها وكان بناؤها سنة ٢٠٢٦ ق م والمورخون الوثنيون يصفونها بان ارتفاع اسوارها كان ١٠٠ قدم تجري فوقها ثلاث مركبات صفًّا واحدًا ودائرتها ٦٠ ميلاً وهي محصنة بالف وخمس مئة قلعة طول الواحدة منها ٢٠٠ قدم ويؤيد ذلك قول يونان النبي بان امتدادها كان مسيرة ٣ ايام قيل ان بناء اسوار المدينة وقلاعها تم بنحو ٨ سنين وكان عدد الذين اشتغلوا بذلك نحو مليون واربع مئة الف نفس وقيل ايضًا ان اهلها كانوا يبلغون في العدد ٦٠٠ الف نفس ثم ان خلفاء نمرود على هذه المدينة واظبوا على تحسينها واتساع بنائها الى ان جاء بختنصرّ الاول الذي جعل مملكة بابل مستقلة وخرب مدينة نينوى المذكورة ومن ذلك الوقت اخذت في الدثار حتى ان مكانها بقي مجهولاً عند الاجيال المتاخرة زمانًا طويلاً غير انهُ منذ بعض سنوات ذهب اليها ايضًا جماعة من اهل السياحة وكان بينهم رجل انكليزي مشهورًا بالنظر في مثل ذلك فصرف زمانًا في التفتيش على خراباتها الكثيرة الاشكال وبعد الحفر في التلال والروابي انكشف هناك عن ابنيةٍ وصور ونقوش وغير ذلك من الآثار القديمة من ذلك صورة سنحاريب الملك وقد أُخذت الى بلاد الانكليز مع بعض تماثيل وصور اخرى غيرها وهي الان محفوظة في بيت الآثار القديمة في مدينة لندن

وكان اوَّل من اشتهر بالعلوم بين اهالي هذه البلاد زرواسترة يُقال بانهُ كان في زمن النمرود ويليهِ المعلم بيلوس معلم الملك الذي كان سنة ٢١٢٠ ق م فوُضع بعد موتهِ في صف الالهة وبنت لهُ بنتهُ سمراميس قبرًا في بابل الوسطى وهو هيكل بعل على ما سبقت الاشارة الى ذلك في محلهِ واخيرًا ظهر المعلم بدروسوس الذي اشتهر بالتاريخ الذي قدمهُ الى بطليموس فيلادلف ملك

مصر سنة ٢٨٤٢ ق م وهو اوّل من استخرج العلوم الكلدانية الى اليونانية فكافاهُ اهل اثينا بان البسوا تمثالهُ عندهم ذهبًا وكان من المرمر

وكان العلماء الكلدانيون حكماء بابل يتقنون رصد الكواكب بغاية التدقيق واخترعوا لها المزاول ونقدموا جدًّا في هذا العلم وكانت الفنون والصنائع عندهم عظيمة جدًّا واكثروا فيها من التفاخر والتزين حتى وفي الاطعمة ايضًا وكانت ابنيتهم عظيمة كابنية المصريين مزخرفة بانواع النقش والحفر والتصوير وكان لهم في علم الطبّ ايضًا باع طويل فكانوا ياتون بالمرضى ويضعونهم في الازقة ومعابر الطرق بقصد انهُ اذا مرّ عليهم احد ممن قد اصيب بذلك الداء المصاب بهِ المريض براهُ فيعلمهم سبب شفائهِ من تلك العلة وبهذه الواسطة مارسوا علم الطبّ جيدًا حتى برعوا فيهِ واتقنوهُ غاية الاتقان وكانوا يكتبون اسماء العلاجات المفيدة على الواحٍ ويعلقونها في هيكل اله الطب

ثم آل امرهم اخيرًا للتعلق بامور كاذبة فزعموا معرفة الحوادث المستقبلة من رصد الكواكب الذي يسمونهُ علم التنجيم حتى انهم عبدوا هذه الكواكب مع معرفتهم الاله الحق فكانوا بذلك هم اول من ابتدع هذه الضلالة واستمالت جميع علومهم الى الخرافات كتآليف باطلة عن المزمعات وتفسير الاحلام والسحر وتقسمت علومهم هذه على بعض عائلاتهم حتى صار راس كل عائلةٍ يفرغ جهدهُ في تقوية علمهِ وان يمتدّ الى بيتهِ والذين يخلفون بعدهُ وكانت هذه العائلات تتخذ اوّل الكراسي في الاقاليم وتكون معافاةً من التكاليف العامة ومن الخراج

وزعم بعض المولفين ايضًا بان نينوس باني مدينة نينوي الذي مرّ ذكرهُ كان صنع صنمًا لابيهِ سنة ٢٠٥٩ ق م واظهرهُ للناس وامر بعبادتهِ فاقتدى بهِ الناس وصاروا يعبدون ملوكهم وامراءهم وشجعانهم بعد ان كانوا تاهوا قبل ذلك عن عبادة الخالق وصاروا يعبدون الشمس والقمر وسائر الكواكب فكانوا بذلك اوّل من انشأ مذهب الصابئة ايضًا يعني عبادة الاوثان وتاليهِ

الاسلاف اي الاعتقاد بالوهية بعض افراد الرجال اذ قد اتخذوا اولاً لكل كوكب صنماً وبالتالي صنم بعل الذي اشرنا في ما مرّ بانه بيلوس معلم الفلك وهو من اعظم معبوداتهم وسموهُ اله الارض الاكبر لانهم رمزوا به عن الشمس وكان من جملة آلهتهم نسروخ ومعناهُ نسرٌ عظيم ومنها ايضاً ما هو على صورة السمك وكانوا يعبدون الملكة سمراميس المقدم ذكرها واقاموا لها تماثيل منقوشة بهيئة حمامة لزعمهم انها تحولت الى هذا النوع من الطيور بعد موتها وبسبب ضلالهم هذا امر الله ابرهيم الاب الاول للشعب الاسرائيلي ان يخرج من تلك الارض ليحفظ هو ونسلهُ من بعدهِ عبادة الله الحقيقية في ارض كنعان اما هم فاستمروا على ما هم عليهِ الى ان فشت بينهم الرذائل وكثرت المفاسد سيما حين كان قورش ملكاً على بابل قال بعض المؤلفين ولا غرابة في ذلك لان الاعتقادات الفاسدة تولّد المفاسد فان مفاسد الجهل المركب اشنع من مفاسد البسيط ولذلك ذهبت عفة نسائهم وحياء رجالهم

وكانت قد امتدت علوم هولاء القوم بمدة قصيرة الى بلاد فارس وفينيقية العربية ووصلت اليها مصحوبةً بما ذكرناهُ من تلك الاضاليل والخرافات ايضاً غير انهُ ينبغي قبل الشروع في تفاصيل ذلك ان نتم حديث ما جرى لابرهيم الذي ذكرنا بان الله امرهُ ان يخرج من تلك الارض ليحفظ هو ونسلهُ عبادة الله الحقيقية في ارض كنعان

المعارف عند العبرانيين

لا يخفى بان ابرهيم المشار اليهِ في ما تقدم هو ابن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن قينان بن ارفكشاد بن سام بن نوح ولد لتارح المذكور بعد الطوفان بنحو ٣٠٠ سنة في بلاد الكلدانيين الواقعة في الجهة

الجنوبية من مملكة اشور وكانت تابعة لها على ما سبق ايضاحهُ في الكلام على الكلدانيين ومع ان اهالي تلك البلاد كانوا وقتئذٍ مشهورين بالمعارف والفنون وبارعين في علم الهيئة والنجوم المزايا التي اوجبت اخيرًا الرومانيين ان يستدعوهم ويستخدموهم في الامور المهمة قد تركوا عبادة الله الحقيقية وضلوا بعبادة الكواكب اولاً ثم اردفوها باتخاذ الاوثان كما سبقت تفاصيل ذلك ايضًا اما ابرهيم فكان باقيًا على عبادة الله الحقيقية وكان في اول امرهِ يرعى الغنم في سهول تلك البلاد الى ان توفي ابوهُ ولما امرهُ الله بالخروج من وطنهِ والذهاب الى الارض التي وعدهُ ان يعطيها في المستقبل ملكًا لنسلهِ امتثل ما امرهُ بهِ سبحانهُ وتعالى وتوطن اولاً في حاران وهي مدينة بين نهري دجلة والفرات وكان ذلك سنة ١٩٢١ ق م ثم لا زال يجول هو وخدامهُ ومواشيهِ من مكان الى مكان ساكنين في الخيام التي فيها رزق ايضًا ولدهُ اسماعيل من هاجر واسحق من سارة الى سنة ١٧٠٦ ق م حينما نزل سبطهُ يعقوب وجميع اهل بيتهِ الى مصر بعد وفاتهِ هو وزوجتهُ اذ كان وقتئذٍ يوسف بن يعقوب المشار اليهِ متسلطًا على جميع هذه المملكة من قبل فرعون طوطميس الثالث احد ملوك الدولة الثامنة عشرة على ما حققهُ المحققون خلافًا لما قالهُ ماريبت بك ناظر الانتيقة خانة المصرية في مولفهِ من ان فرعون يوسف كان من ملوك رعاة العرب الذين سوف ياتي ذكرهم في الكلام على المصريين ولا زال نسلهُ مقيمًا هناك الى سنة ١٤٩١ ق م عند ما اخرجهُ الله تعالى منها الى ارض كنعان بقوة الايات والعجائب التي اصطنعها عن يد موسى النبي على عهد الملك منيفتا ابن رمسيس الثاني وخليفتهُ على مملكة مصر من العائلة الملوكية التاسعة عشرة فتكون مدة اقامة هذا الشعب المسمى بالعبرانيين من نسل ابرهيم المشار اليهِ منذ خروجهِ هو نفسهُ من ارض الكلدانيين الى تلك السنة التي خرجوا فيها من مصر ٤٣٠ سنةً وكان اهل بيت يعقوب المدعو اسرائيل حين دخلوا الى مصر ٧٠ نفسًا (تك ٤٦: ٢٧) وخرجوا من هناك ٦٠٠ الف ماشٍ عدا الاولاد (خر ١٢: ٣٧) ثم بعد ان اقاموا

تائهين في البرية ٤٠ سنة ازالت البداوة بها عنهم جبانة الذل والعبودية التي كانوا الفوها مدة اقامتهم في مصر افتتحوا الاراضي التي وعد الله ابرهيم جدهم الاعلى ان يعطيها لنسله واقتسموها بينهم بمساحة الحبل عن يد يشوع بن نون خليفة موسى سنة ١٤٥٠ ق م قال احد المولفين ان العبرانيين كانوا وقتئذٍ يبلغون نحو مليون ونصف من النفوس ويخبرنا الكتاب المقدس ايضًا بانهم لم يحتاجوا في مدة هذا التيه الى سعيٍ في الحصول على المطاعم والملابس لانه جلت قدرته كان يقيتهم بالمن والسلوى ويسقيهم من صخرةٍ تابعة كانت تتبعهم حيثما حلوا واحذيتهم التي خرجوا بها من مصر لم تبلَ وكذلك اثوابهم لم تهرّ ويقيهم حرّ الشمس نهارًا بسحابةٍ من الغمام ويضيء عليهم في الليل بعمودٍ من نار الى ان دخلوا ارض كنعان كما ذكرنا

وكان يقضي بينهم موسى النبي المشار اليه بحسبما يامره الله جلّ شانه مدة حياته الى ان توفي قبل ان دخلوا ارض الميعاد وبعد ذلك خلفه يشوع بن نون وهو الذي قادهم في افتتاح البلاد وقسمها بينهم بمساحة الحبل كما تقدم ثم بعد وفاة يشوع بن نون كان يتولى امرهم القواد الذين كان يختارهم الله لنصرتهم في حروبهم مع جيرانهم اهالي فلسطين وكانوا يسمّون بالقضاة حيث لم تكن لهم سلطة كسلطة الحكام الذين ينظمون الاحكام ويضعون القوانين بل كانوا يحامون عن الشرائع الالهية المنزلة على موسى النبي ويحافظون على حقوق الشعب وينظرون لكليات مصالحه وينتقمون من المجرمين ولاسيما الذين يتوغلون في العبادة الاصنامية وكان عدد هولاء القضاة ١٤ رجلًا دامت احكامهم نحو ٤١٠ سنين من بعد موت يشوع بعشرين سنة الى ان تملك اول ملكٍ في اسرائيل ومن ثم طلب الشعب من صموئيل النبي وكان يومئذٍ قاضيًا ورئيسًا عليهم ان يمسح لهم ملكًا كسائر شعوب الارض والحوا عليه بذلك حيث كان يبين لهم حقوق الملوك ليكفوا عن طلبهم هذا واخيرًا استجاب سوالهم ومسح لهم رجلًا يقال له شاول بن قيس من بني بنيامين احد الاسباط وهم قبائل اليهود الآتي

ذكرهم وكان جميل المنظر لكن لما لم يكن مستقيم القلب في الطاعة لاحكام الله لم يثبت الملك لبنيهِ من بعدهِ بل بعد موتهِ اختار الشعب رجلاً كان اعدَّهُ الله لهذه الوظيفة ومسحهُ صموئيل النبي ملكًا يرث شاول في حياة شاول المذكور وهو داود بن يسى من قبيلة يهوذا فتولى المملكة ١٠٥٥ ق م وكان نبيًّا جليلاً وملكًا مهابًا معًا وشاعرًا فصيحًا وهو صاحب كتاب الزبور الذي لا يزال اكثر الناس يسبحون الله بنشائدهِ الروحية ولما تقرر ملكهُ جعل كرسي مملكتهِ مدينة اورشليم المعروفة في الكتب العربية ببيت المقدس وهي مبنية على جبل يسمى موريا الذي كاد ابرهيم الخليل المقدم ذكرهُ ان يقرب عليهِ ابنهُ اسحق ضحيةً لله سنة ١٧٨١ ق م والقصة مشهورة (تك ٢٢: ١٤) وكان بناء هذه المدينة عند خروج هذا الشعب من ارض مصر بناها سكان البلاد الاولين وكان قبلها هذا الجبل قفرًا ثم لما اقترع اليهود ارض كنعان عندما امتلكوها واقتسموها على ما ذكرنا اصابت قرعتها لسبط يهوذا وبنيامين لكنها بعد ذلك احترقت ثم اعاد اليابوسيون بناءها وحصنوها تحصينًا متينًا جدًّا حتى ظنوا ان العرج والعميان يقدرون ان يحموها من داود المشار اليهِ لكنهُ امتلكها اخيرًا وجعلها كرسي المملكة على ما ذكرنا وفي مدة ملكهِ وملك سليمان ابنهِ الآتي ذكرهُ كانت في عز فخرها وفاضت بالخيرات والاموال ولم يكن للفضة فيها اعتبار يزيد عن اعتبار حجارة الارض ثم اخذ داود في اصلاح احوال المملكة فهذبها وشيدها حتى صارت على جانب عظيم من العظمة والفخار والشوكة والاقتدار واعدَّ بعد ذلك فيها كل ما يلزم من الادوات لبناء بيتٍ لله اذ كان قد مضى على اليهود نحو ٤٨٠ سنةً منذ خروجهم من مصر ولم يكن لهم مسجدٌ يقيمون فيهِ فرائض ديانتهم لكن لم يتم هذا العمل العظيم الا في ايام ابنهِ سليمان على ما ياتي اما داود فانهُ لما سار امام الله بقلب سليم وعدهُ الله بان يعطي الملك لنسلهِ من بعدهِ وان المسيح ياتي من ذريتهِ وبعد ان توفي قام ابنهُ سليمان المقدم ذكرهُ مكانهُ وكان لهُ من الحكمة التي اعطاهُ اياها الله ما لم يكن لاحدٍ قبلهُ ولا يكون بعدهُ فاعتني ببناء هذا

البيت المقدم ذكرهُ فكان هيكلاً عجيبًا في العالم اشتهر باسم هيكل سليمان بناهُ في ٧ سنين واكمل عمارتهُ سنة ١٠٠٤ ق م طولهُ ٦٠ ذراعًا وعرضهُ ٢٠ ذراعًا وسمكهُ اي ارتفاعهُ ٣٠ ذراعًا والرواق قدام الهيكل طولهُ ٢٠ ذراعًا حسب عرض البيت وعرضهُ ١٠ اذرع ولهُ غرفات على الدائر وكان بناؤهُ بحجارة صحيحة مقتلعة ولم يسمع في بنائهِ نحت ولا معول ولا اداة من حديد (وان صنعت لي مذبحًا من حجارةٍ فلا تبنهِ منها منحوتةً اذا رفعت عليها ازميلك تدنسها خر ٢٠: ٢٥) وبنى ٢٠ ذراعًا من موخر البيت والهيكل الذي امامهُ ٤٠ ذراعًا لتتمة الستين وكان يسخّر في كل شهر ١٠ آلاف رجل يرسلهم الى لبنان لاجل قطع خشب الارز والسرو ماعدا من كان معهم من قِبَل ملك صور و ٧٠ الفًا يحملون الاحمال و ٨٠ الفًا يقطعون حجارةً من الجبل وكانت وكلاؤهُ على هذا العمل ٣٣٠٠ رجل ثم انهُ زين هذا الهيكل من داخلهِ بانواع النقوش والتماثيل الملبسة بالذهب بحيث لا يستطيع لسان القلم ان يصفهُ ويحصي قيمة نفقتهِ وبنى ايضًا قصر بيت الملك في اورشليم وقصرًا في بعلبك لزوجتهِ ابنة فرعون ملك مصر ومدينة تدمر الى غير ذلك من الابنية والعمارات المشيدة وخصوصًا في اورشليم مدينة ملكهِ وجلب اليها الماء ثم بعد وفاتهِ انقسمت المملكة الى قسمين في ايام تملك ابنهِ رحبعام سنة ٩٧٥ ق م القسم الاول مملكة يهوذا وكان كرسيهُ اورشليم المذكورة وبقي تحت تسلط سلالة داود واما القسم الثاني فسمي مملكة اسرائيل وكان كرسيهُ السامرة وقد تعاقب على هذا القسم الثاني ١٩ ملكًا اولهم يربعام بن نباط وكان تحت تسلطهِ ١٠ اسباط من بني اسرائيل فازاغهم عن عبادة الله حيث بنى لهم بيتًا على جبل سامرة ونصب لهم فيهِ عجلين ليعبدوهما وبذلك صرف قلوب اكثر رعاياهُ عن الصعود في كل سنة الى بيت الله في اورشليم كعادة اليهود لئلا تميل بذلك قلوبهم الى مملكة يهوذا وعلى هذا المنوال كان اكثر ملوك هذا القسم عبدة اوثان استمر ملكهم ٢٥٠ سنة الى ان زحف اليهم شلمناصر ملك اشور سنة ٧٢١ ق م وحاصر السامرة وافتتحها واسر الاسباط

العشرة مع ملكهم ونقلهم الى بلاده واسكن عوضهم اقوامًا من رعاياه الاصليين فكانوا هم اصل فرقة السمرة كما اوضحنا تفاصيل ذلك في القسم الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف وعلى هذه الصورة انقرضت مملكة الاسباط العشرة وتلاشى ذكر شعوبها حتى لم يسمع لهم خبر بعد ذلك واما مملكة يهوذا فكان ملوكها كذلك ١٩ ملكًا على التعاقب من ذرية داود وكان بعضهم من اهل التقوى والصلاح الى ان كان صدقيا اخر ملوكهم زحف نبوخذنصر ملك بابل بجيوشه وحاصر اورشليم وافتتحها واسر صدقيا المذكور وقلع عينيه واحرق المدينة والهيكل بالنار وسبى كل شعب يهوذا ما عدا المساكين والفقراء الى بلاده وهكذا انقرضت هذه المملكة ايضًا سنة ٥٨٨ ق م وكانت مدتها ٣٨٧ سنة بعد انفصال مملكة اسرائيل عنها ولا زال اليهود المذكورون في هذا السبي الى ان استولى قورش ملك بابل فاذن لهم في اواخر حكمه ان يرجعوا الى بلادهم بعد ان اخذ عليهم العهود والمواثيق ان يبقوا في طاعته والانقياد الى اوامر من يخلفه فرجعوا وبنوا الهيكل تحت رياسة عزرا الكاتب ومارسوا طقوس عباداتهم وبقوا خاضعين الى الفرس الى ان استولى على البلاد الاسكندر المكدوني وطرد الفرس منها سنة ٣٣٠ ق م قال يوسيفوس المورخ اليهودي ان الاسكندر الكبير لما قدم بجيوشه نحو الفرس ليفتتحها انتقامًا لامدادهم اهل صور بالذخائر والعلوفات عند ما كان محاصرًا المدينة ظهر له ملاك في الطريق وتهدده على ما كان قصده من خراب اورشليم فخاف الاسكندر وعدل عما كان مصممًا عليه وعلى رواية اخرى انه ابصر فيها الاسقف الكبير الذي كان يراه في منامه قبل ذلك يبشره بفتح اسيا فلما رآه خرّ ساجدًا لما راى اسم الله تعالى مكتوبًا على الحلة الكهنوتية التي كانت عليه وعلى اية صورة كان الحال فان هذا الفاتح عند وصوله الى المدينة دخلها كزائر وسجد لاله اسرائيل في الهيكل واتحف الكهنة بهدايا فاخرة ثم تحول عنها قاصدًا داريوس ملك الفرس ثم بعد موت الاسكندر تغلب المصريون واستمرت شعوب اليهود

تحت تسلطهم مدة طويلة الى ان اتى انتيوخوس الرابع من ملوك الدولة السلوقدية وافتتح البلاد واسر الاهالي واذل امة اليهود وقتل منهم خلقًا كثيرًا ولما رجع الى بلادهِ استناب عليهم رجلاً يقال لهُ فيلكس وامرهُ بان يلزمهم كرهًا على اكل لحم الخنزير والسجود للاصنام والامتناع عن الختان وعن حفظ السبت والاَّ فيقتل كل من خالف امرهُ فكان من جملة من قتل وقتئذٍ الشهداء المكابيون السبعة المشهورون وفي سنة ١٦٦ ق م قام بين اليهود رجل جبار من المكابيين المذكورين يدعى متثيا بن يوحانان الكاهن فطرد السوريين من البلاد واستبدّ بالمملكة ثم جرت بينهُ وبين نيكيروس احد قواد الرومانيين وقعة قتل فيها وبعد موته استولت ذريتهُ على اليهودية وصاروا ملوكًا الى ان جاء بومبي القائد الروماني وافتتح البلاد سنة ٤٠ ق م واستناب عليها رجلاً من بلاد ادوم يسمى انتيباتروس وكان من عظماء اليهود واشرافهم وسنة ٣٧ ق م عزلهُ الرومانيون عن الولاية واقاموا عوضهُ هيرودس الكبير الذي في ايامهِ ولد المسيح في بيت لحم اليهودية ومن ثم دامت ملوك اليهود على الخضوع الى الرومانيين تارة والعصاوة اخرى الى سنة ٧٠ ب م حينما افتتح تيطس اورشليم بعد حصار شديد مات بهِ نحو ١١٠٠ الف من اليهود داخل الحصار واشتد الجوع على الاهالى المحصورين فاكلوا الجلود ولحوم الكلاب حتى اضطرت بعض نسائهم ان تاكل ابنها واحترق الهيكل والمدينة بالنار وسبي منهم ٩٧ الفًا استصحبهم تيطس معهُ عند رجوعهِ الى بلادهِ وكان يلقي منهم في كل منزلةٍ للسباع والوحوش الضارية التي كانت معهُ فتمزقهم والباقون بيعوا عبيدًا في رومية وكان قد بقي جانب من اليهود في اورشليم فاخذوا يرممون المدينة بعد رحيل الرومانيين عنها واقاموا منها جانبًا عظيمًا ولما بلغ ذلك القيصر ادريانوس الروماني ادركهم حالاً وهدم ما كانوا قد جددوهُ من اسوار المدينة وبيوتها وجعلها مساحة واحدة على الارض وفلحها وزرعها ملحًا وبذلك انتهت مملكة يهوذا وتم خراب اورشليم وتشتت ما بقي من اليهود في اقطار الارض

ويطلق على هذا الشعب عدة القاب منها عبرانيون وقد أُطلق هذا اللقب على ابرهيم الاب الاول الذي سبق ذكرهُ لما عبر وتعدّى نهر الفرات ليسكن ارض كنعان فقيل لهُ ابرهيم العبراني اما معنى ابرهيم فهو اب عائلة كبيرة ومنها اسرائيليون نسبةً الى اسرائيل وهو اسم سمي الله بهِ يعقوب حفيد ابرهيم وابا الاسباط (تك ٣٢: ٢٨) ومعناهُ امير مع الله ومنها ايضًا يهود نسبةً الى يهوذا بن يعقوب وكانوا يقسمون الى ١٢ سبطًا بعدد اولاد يعقوب المشار اليهِ وهكذا قسم يشوع بن نون ارض كنعان ووزعها على ١٢ سبطًا غير انهُ لما خصص الله سبط لاوي لخدمة الكهنوت ورتب لهُ العشور والنذور على شعب اليهود وان يعيش من خدمة الهيكل منعهُ عن الاشتراك مع باقي الشعب في امتلاك قسمٍ مخصوص وانما عين لهُ بعض القرى لسكنهِ فقط فقام مقامهُ في تكملة العدد نسل يوسف حيث قسم الى سبطين وهما افرايم ومنسى بحسب ما طلب يعقوب الى ابنهِ يوسف المشار اليهِ عند ما زارهُ وهو مريض مرض الموت (انظر تك ٤٨: ٥) ثم لما انقرضت مملكة اسرائيل على ما ذكرنا في ما مر تلاشي بانقراضها ١٠ اسباط من الاسباط المذكورة ولم يبقَ غير سبطي يهوذا وبنيامين

وبعد ان اسر بختنصر ملك بابل هذه البقية ايضًا في سنة ٥٨٨ ق م واقامت في بلادهِ ٧٠ سنة ورجعت الى اورشليم حسب ما تقدم وشرعت في بناء الهيكل انقسمت الى فرقتين احداها تمسكت بالكتب المقدسة فقط وسميت صاديكيم اي الصديقين ويقال الصدوقيون واتفق معها السامريون الذين مرّ ذكرهم والاخرى اضافت الى ذلك تقليدات المشائخ وبسبب ما ظُنّ فيها من القداسة قيل لها خاسيديم اي التقيين ومنها انتسل الفريسيون والاسينيون وصادف ذلك امتداد الفلسفة اليونانية وقتئذٍ فتشعبت اليهود في آرائها الى فرقٍ متعددة وطوائف شتى ذكرناها مفصلاً بقدر الامكان في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا نطيل الكلام عليها هنا

وكانوا في مبدا امرهم يتكلمون بلغةٍ خاصة بهم تسمى عبرانية نسبةً لهم وهي لم تزل معتبرة ليس عندهم فقط بل وعند كل العلماء وخاصةً احبار الديانة المسيحية حيث بها كتبت كتب العهد العتيق الآتي ذكرها وهي احدى اللغات السامية من لغات اسيا وشهرتها تغني عن وصفها ويكتبونها بحروفٍ مخصوصة يبتدئون بها من اليمين الى الشمال كالخط العربي الذي يفضلها بعدة حروف لا توجد فيها

اما قواعد دياناتهم فهي معروفة ومفصلة بقدر الامكان في القسم الرابع من كتابنا زبدة الصحائف الذي مرّ ذكره وهي الاساس الاصلي للديانات الكتابية وخاصةً الديانة المسيحية

وعلماء هذه الامة هم اول علماء الارض واشهرهم فان موسى النبي الذي اخرج بني اسرائيل من ارض مصر كان تهذب قبل بعثتهِ بكل حكمة المصريين ومنهُ تفقه جميع شعب اليهود بهذه العلوم والكتب التي كتبها هذا النبي العظيم بوحيٍ من الله خمسة هي الاساس الوحيد الذي يبنى عليهِ اهمّ الامور من العلوم التاريخية والجغرافية وغير ذلك من المعارف العظيمة بالرغم عن كل مقاوميها بل هم ذواتهم يلتزمون غالبًا مع كل مكابراتهم الى الانقياد لما تضمنتهُ من القضايا التي ذكرها مع انهُ لم يكن قصد هذا النبي تاليفًا من هذا القبيل وانما جاء ما جاء من ذلك معهُ بالعرَض لقصد اظهار عظمة القدرة الالهية وكيفية اعتنائها بخلق آدم اول البشر وسبب سقطة اول انسان وجد على الارض والوسيلة التي اعدها الله عزّ وجلّ حالاً لمغفرة ذنبهِ والتكفير عن سيئات نسلهِ الذي فسد بفساد طبيعة آدم المشار اليهِ الى ان يتصل لافراز الشعب الاسرائيلي الذي نحن بصددهِ لاتمام ذلك القصد الالهي وكتبهُ هذه هي اقدم كتابٍ يوجد في العالم وتتضمن ما عدا التعاليم الروحية اعجب تاريخٍ عن خلق السماوات والارض سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد بنص التوراة العبرانية وعليهِ يعتمد الرومانيون والفئة اقلام المورخين ايضًا او سنة ٥٥٠٨ بنص التوراة السبعينية كما هو المعوّل عليهِ

عند الروم وغيرهم من الطوائف الشرقية ثم وترتيب ما ابدعهُ الباري تعالى في الستة
ايام او هي الادوار العظيمة المُعبر عنها بالايام حسب ما يرتئيهِ الجيولوجيون في هذه
الازمنة الاخيرة واخبار الطوفان الذي وقع سنة ٢٣٤٨ ق م وبلبلة الالسن
سنة ٢٢٢٤ ق م وكيفية توزيع الجنس البشري على سطح الارض وهذه الاخبار التي
لا ريب في صحتها قد عرفها هذا النبي ليس من مجرد الوحي الذي قادهُ الى كتابتها
وصان قلمهُ في ضبطها فقط بل يستدلُّ من نفس هذه الاسفار بانها ربما وصلت اليهِ
بالنقل الشفاهي ايضًا عن خمسة اشخاص وجدوا بينهُ وبين آدم وهولاء الاشخاص
كانوا من المعتبرين الذين لا بدَّ من انهُ بواسطتهم قد تسلسل الخبر من آدم اليهِ
بكل امانةٍ فالاول منهم كان متوشالح وهو قد عاش معاصرًا لآدم ٢٤٣ سنة
والثاني سام وهو قد عاش معاصرًا لمتوشالح ٩٨ سنة والثالث اسحق وهو قد
عاش معاصرًا لسام ٥٠ سنة والرابع لاوي وهو قد عاش معاصرًا لاسحق ٢٤ سنة
والخامس قهات بن لاوي وابو عمرام الذي كانت سنو حياتهِ ١٣٣ سنة ويحتمل
انهُ عاصر موسى او ان اباهُ لاوي قد عاصر ابنهُ عمرام الذي قد عاصر موسى
(انظر خر ٦: ١٦-٣٦) لانهُ كان من موت لاوي الى ولادة موسى ٤٣ سنة
وكان بينهما شخصان من طوال الاعمار وهما قهات المذكور الذي عاش ١٣٣
سنة وعمرام ابنهُ الذي عاش ١٣٧ سنة قال بعض المولفين في كلامهِ على اول
سفرٍ من هذه الاسفار الخمسة المسمى سفر التكوين انهُ من هذا الخبر الالهي والعناية
الربانية اللتين هما اجل الاشياء واعظمها اتخذ اكثر القدماء من الفلاسفة
والمنجمين والمورخين رواياتهم التي كتبوها وجميع التعاليم المتاخرة وابداع
الصناعات والفنون العظيمة الصحيحة قد افادت اثبات الحوادث التي كتبها
وشرحها موسى النبي فان واقعة الطوفان العظمى ونترك كل ما عداها لم تُحقق
بواسطة بواقي الحيوانات الحفرية الكائنة في كل جزء من الكرة فقط بل يثبتها
ايضًا مورخون كثيرون من الوثنيين القدماء والحاصل انهُ لو لم يوجد هذا
التاريخ المحوي في العهد العتيق لكان العالم في اشد ظلمةٍ لا يعرف من اين اتى

ولا الى ابن يذهب وربما ان الانسان يتعلم من اول صفحة منهُ في برهة ساعةٍ اكثر مما تعلمتهُ بدونهِ كل الفلاسفة بمدة ٤٠٠٠ سنةٍ وكذلك تتضح صحتها بنوع فائقٍ من مطابقتها كل المطابقة الحقائق المعروفة والاكتشافات الطبيعية والجيولوجية المستجدة فاذا نظرنا مثلاً الى علم الجيولوجيا نرى بانهُ يجب ان نتقهقر اجيالاً شتى لنصل الى بدء تاريخ خلق العالم ونجد هذه الاسفار لا تمنعنا عن ان نغوص في هذا البحر مهما اردنا اذ تخبرنا عن هذه الخليقة بانها قد حدثت في البدء وتترك ذلك البدء سرًّا مجهولاً ثم قد تقرر عند علماء هذا الفن انهُ بعد ايجاد مادة الارض توالت ٦ مدات حصلت فيها تغييرات معلومة استعدادًا لخلق الانسان وتوطئةً لجعل هذا العالم مسكنًا مناسبًا لهُ وهذه الاسفار كذلك لا يوجد فيها ما يناقض هذه الحقيقة المقررة في هذا الفن البتة بل بالعكس اي يوجد بها ما يؤيد ذلك ويثبتهُ واما ما اعترض عليهِ بعضهم في قضية خلق الله النور في اليوم الاول والكواكب في اليوم الرابع لما فيهِ من التناقض فقد رد عليهِ كثيرون من العلماء منهم المعلم بوبيه الجيولوجي الفرنساوي بجوابٍ من نفس هذا الفن ادرجناهُ في القسم الثالث من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف واما ما زعموهُ بخصوص عدم وجود الادمي قبل الطوفان حيث لا توجد آثار من اعضائهِ ولا من صنائعهِ بين الرواسب الطوفانية فالالتفات اليهِ يتوقف على اثبات كون الباحثين في مثل هذه الاثار بحثوا في كل اجزاء الكرة الارضية ولم يبقَ منها ولا جزء واحد لم يعرفوا خباياهُ وكذلك البحور التي يمكن انها حدثت بعد الطوفان وغمرت تلك المحلات التي كانت مجمعًا لنفيف البشر الذي كان موجودًا قبل الطوفان اذ ان الكتاب المقدس نفسهُ الذي منهُ وحدهُ عرفت هذه الحقائق قبل ان يتكلم عليها حكماء العالم لا يخبرنا بان العالم انتشر على وجه الارض قبل ظهور هذه الحادثة واما ما يرونهُ من ان الطوفان لم يكن كليًّا بل كان جزئيًّا يعني انهُ لم يكن شاملاً وجه الارض كلها فانهُ وان لم تكن جزئيتهُ على فرض صحتها منافيةً كل المنافاة لاتمام الغاية

المطلوبة منهُ التي هي غرض الجنس البشري المنحصر وجودهُ وقتئذٍ ربما في ذلك المركز فقط ما عدا نوح وحدهُ الاان اسنادهم دعواهم هذه بما يميلون الى تصديقهِ من قدمية بعض الشعوب التي نتهفر تاريخها الى ما قبل آدم بالوف سنين لا يمكن اتفاقهُ مع ما يراهُ غالب الجيولوجيين بشان قرب عهد الدور الرابع الذي فيهِ وجد الادمي حسب رايهم على سطح الارض فضلاً عن تقاليد نفس الشعوب المذكورة التي يمكن اتخاذها دليلاً على ان الطوفان المذكور كان عمومياً وليس خصوصياً كما يزعمون وهي مدروجة في الجمف الرابع من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلتراجع هناك واما ما ظنهُ غيرهم من عريضي الدعوى بعدم لياقة بلبلة الله السن بني نوح بسبب يزعمونهُ ركيكاً وهو شروعهم في بناء البرج للوقاية من طوفان اخر يحدث على الارض والحال ان هذا السبب الذي يزعمونهُ ركيكاً لم يكن كما زعموا بل هو من اعظم الاسباب التي يلتفت اليها مليّر القوم لئلا يصرفوا اوقاتهم بالباطل واتعابهم بما لا طائل تحتهُ اذ لا ريب انهُ بواسطة بلبلة السنتهم ينصرفون عن هذا العمل المسبب عن اوهامٍ فاسدة ولا نفع لهم فيهِ الى التفرق على سطح الارض للغاية التي خلقهم الله اليها كما جرى ذلك بالوقت نفسهِ حسبما يخبرنا الكتاب عنهُ وهناك بعض اعتراضات اخرى يعترضونها منها ان الطوفان وقع بسبب حادثةٍ طبيعية اصابت الكرة الارضية وان قوس قُزَح كذلك هو ناشئٌ عن انعكاس اشعة الشمس وانفلاق البحر لموسى كان بسبب المدّ والجزر فلم يكن شيءٌ من هذه الامور ما يدل على معجزة خصوصية من الله ولا نعلم ما هي البواعث العلمية التي تلجئهم الى مثل هذه الاعتراضات الا مقاصد شخصية لتكذيب الكتاب مع ان الكتاب لا يعلمنا بان نحكم على وجوب انفاذ مقاصدهِ الالهية بدون ان يستخدم لها الوسائط الطبيعية فهل اذا كان وقوع الطوفان مثلاً بحادث من الحوادث التي يظنونها يبطل كون وقوع ذلك كان بامر الله سبحانهُ لغاية ابادة الجنس البشري الذي كان موجوداً وقتئذٍ كما نعلم من كتاب الله وهل يمنع تسبُّبُ قوس قزح عن انعكاس

الاشعة الشمسية صلاحية استخدام الله هذا القوس علامةً على ميثاقهِ بعدم وقوع طوفان اخر مع كونهِ ربما كان ظهورهُ يتوقف طبعًا على عدم وقوع خلل يخشى منهُ في النواميس الطبيعية ثم نفرض ان عبور الاسرائيليين البحر الاحمر كان في وقت الجزر وتعقيب فرعون وجنودهِ اياهم بدخولهِ هذا البحر كان وقت المدّ فهل يُحمَل ذلك على معارف موسى وبجهل فرعون وقومهِ بحالة هذا البحر او يُسند ذلك الى الصدفة ولا تكون على اية حالةٍ ارادوها يد الله القوية في هذا الامر حتى انها اما اعمت قلب فرعون وحكمائهِ واما حكمت بوقوع هذه الصدفة في ذات الوقت المناسب لاتمام ما حصل واما دعواهم بوجود قبر نفس الملك الذي في عصرهِ خرج الاسرائيليون من ارض مصريين القبور الملوكية الموجودة حتى الان بالصعيد في الجهة المعروفة بباب الملوك فجوابهُ سوف ياتي عند ذكر منفطا الثاني الذي تقرر الراي اخيرًا على ان خروجهم كان في مدة سلطنتهِ فليراجع في الكلام على ملوك المصريين وكاني بهاتفٍ في ضميري يقول أانت مشتغل في حوادث ادبية او في مناقشاتٍ دينية ولكن بعد ان راجعت ما قد كتبت وجدت ذاتي لم اكتب الا ما ذكرهُ الا القليل منهُ الافاضل خالو الغرض من المورخين لاثبات ما عرفوهُ وحققوهُ من فضل هذا النبي العظيم. ثم اشتهر بعدهُ ايضًا سليمان الملك الحكيم الذي تقدم ذكرهُ وقد تولى المملكة بعد داود ابيهِ سنة ١٠١٥ ق م ذكر في التوراة (١مل ٤: ٣٠) انهُ فاق في الحكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر وكان صيتهُ في جميع الامم حواليهِ وتكلم بثلاثة الاف مثل وكانت نشائدهُ ١٠٠٥ وتكلم عن الاشجار من الارز الذي في لبنان الى الزوفا النابت في الحائط وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك وكانوا ياتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمتهُ ويقول بعض العلماء من اليهود ان كتب هذا الحكيم المذكورة في ما يختص بالنباتات وغيرها قد اهملها احبار اليهود الى ان تلاشت نظرًا لما فيها من الفوائد الفعالة في مداواة الامراض حذرًا من ان يتكل اليهود عليها ويهملوا الاتكال على الله كما فعلوا في

الحية النحاسية التي كسرها حزقيا الملك

اما معارف هذه الامة وعلومها الاصلية فكانت منحصرة في فرائضها الدينية وشرائعها السياسية والادبية وكانوا يحسنون الموسيقى ونظم الشعر حتى ان كثيرًا من الاسفار المقدسة وجدت نظمًا كسفر ايوب والزبور والامثال والجامعة ونشيد الانشاد ومراثي ارميا واقسام اخر من اسفار الانبياء وكان الفريسيون منهم لا يخلون من علم الطبيعيات والهندسة واغلب حكماء السنة والكتبة الذين وظيفتهم نساخة الكتب المقدسة ويميلون الى مطالعة العلوم والفنون ويفسرون الشريعة ويهذبون الشعب كانوا منهم والاسينيون وهم فرقة تنتسب الى الفيثاغورسيين او الى الكلبيين كانوا يجتهدون بدرس الادب وعلم الطب وتعليمه وفي الفحص عن القوة المولدة للنباتات والجمادات

اما صنائعهم فكانت منحصرة في زرع الحبوب وغرس الكرم والزيتون والتين وسائر الفواكه ويعرفون صناعة البناء والنجارة والخياطة والتطريز والنساجة وصياغة الحلى من الذهب والفضة والظاهر انهم كانوا يتعاملون بهذين المعدنين وزنًا ولا يعرفون سك المسكوكات الى ان حكمهم الاجانب وقال بعض الكتبة ان الاسرائيليين كانوا يصورون على عملتهم ازهارًا واشجارًا وغير ذلك لما ان دينهم كان لا يسوغ لهم تصوير الاشخاص وكانت آلات حروبهم السيوف والرماح والمقاليع ويتعممون بالعمائم وسائر ملبوساتهم تشابه ملابس العرب

واما انبياؤهم فكانوا رتبة من رجال الله قد قاموا خصوصًا بينهم وكانوا يخبرونهم بالوحي عن مقاصده تعالى في الازمنة المستقبلة ويعلنون لهم ارادته من جهة الواجبات المطلوبة منهم والحوادث المشهورة التي ستجري بينهم فكانوا بهذا الاعتبار كسفراء الله لدى البشر وهم كانوا علماء هذه الامة واول من وضع التاريخ كان موسى النبي على ما سبقت تفاصيله وهم ايضًا دونوا اغلب التواريخ اليهودية المنضمة الى الكتاب وكانوا يدرسون الشعب في اللاهوت ويهذبونهم في الدين

والفضيلة وكانوا معينين للكهنة واللاويين بتعليم الديانة وخصوصاً في مملكة اسرائيل ويساعدون الملوك في الامور الشائعة التي تاول الى ازدياد التقوى والفضائل ولهم مدارس اوّل ذكرها كان في ايام صموئيل النبي وهي مقامة في بعض مدنهم كجبعة ونايوت وبيت ايل والجلجال واريحا حيث كان الشبان يجتمعون لكي يتعلموا الامور الدينية ويستعدوا لتعليم الشعب وكان تلامذتها يُسمَّون بني الانبياء هذا ما كان من ذلك قبل المسيح واما بعد انقراض دولة اليهود وتلاشيها فكان بقي لهم مدرسة في طبريا وكان من معلميها حاخام يقال له يهوذا جمع تقليدات هذه الامة في كتابٍ سماهُ المشنة وذلك بين سنة ١٩٠ وسنة ٢٢٠ للتاريخ المسيحي وفي هذه المدرسة وضعت الحركات المستعملة الان في اللغة العبرانية وضبطت اسفار العهد القديم وأُبتدي في المعتقدات حسب التفاسير التلمودية والتلمود عند اليهود اشبه باقوال الاباء عند النصارى وفي مراجعة الكلام على اليهود في القسم الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف ما بهِ الكفاية للوقوف على تفاصيل شرائع وآداب واحكام هذه الامة وما آل اليهِ امرها

المعارف في بلاد الفرس

ويقال لهم العجم واذربيجان يسكنون وراء نهر دجلة فالعجم في الجنوب واذربيجان في الشمال وكانت مملكتهم في القديم منقسمة الى ثلثة اقسام فكان القسم المسمى بخوزستان جزءًا من مملكة بابل والقسم المسمى بفارس الذي به تسمت مملكة ايران مستقلاً واما الاجزاء الشمالية المسماة باذربيجان المذكورة فكانت تابعة لمملكة اشور ثم استقلت بذاتها في ايام الملك سردانبال الذي اضاعها بانهماكهِ في اللذات وتسمت بمملكة مادي

وبعد ان استقلت اذربيجان بخلعها نير سردنبال المذكور اقام اهاليها مدةً بلا رئيس لهم ولا حكم عليهم حتى كان قبل الميلاد بنحو ٦٠٠ سنةٍ جعلوا لهم ملوكًا يسمى اولهم ديجوسيس فحكمهم في البداءة بما يقتضيهِ العدل والانصاف لكن لما عظم شانهُ اراد ان يخوف رعيتهُ فاحتجب في قصرٍ منيع لا يدع احدًا يدخل عليهِ الا امراء دولتهِ وكان الضحك بحضرتهِ او البصاق يُعدّ ذنبًا يستوجب فاعلهُ الموت

وهذا الملك هو الذي بنى مدينة همدان ليتخذها دار مملكتهِ وجعل لها ٧ اسوار بعضها داخل بعض بنوع ان كل سور من هذه الاسوار لا يعلو عن الثاني الا بمقدار شراريفهِ فقط وكانت هذه الشراريف تختلف في الالوان ما بين ابيض واسود وازرق واحمر وارجواني وكان السادس من فضة والسابع من ذهب وداخل السور السابع كانت سراية الملك وقد صنع لها محلاً حصينًا لحفظ خزائنهِ وكنوزهِ واما الشعب فكان يسكن بين الاسوار ومن كان لهُ دعوى كان يعرضها على الملك بالورق فكان يقضيها ويرسلها بأثنا الحكم عليها وكان لهُ جواسيس في كل اطراف المملكة يلاحظون اعمال الرعايا ويقررون لهُ عن احوالهم

ثم لم تطل المدة حتى صارت بلاد اذربيجان المذكورة رعيةً للاعاجم الذين بقوا محافظين على اخلاقهم القديمة لان الزهو الشرقي كان صير ملوك اذربيجان ورعاياهم الى الرخاوة كما ان تربية اولاد الامراء التي كانت موكولةً الى النساء والخصيان افشت فيهم التكسر بدلاً عن اخلاق الرجولية ولا زال الحال على هذا المنوال الى ان تزوج ملك فارس بابنة ملك مادي يعني اذربيجان التي نحن بصددها وولد لهُ ابن نحو سنة ٥٨٠ ق م تسمى بقورش وهو الملك المشهور الذي استبد بالسلطة المستقلة وبتوليتهِ يبتدي المورخون بالفصل الثاني من قسم التاريخ الاول المسمى بالقرون الاولى كما سبقت الاشارة الى ذلك في مقدمة هذا الكتاب

فجعل هذا الملك فارس ومادي مملكة واحدة وصيرها مشهورة جدًّا

بالعظمة والشوكة لكن كثرة غزواته وفتوحاته انتجت اخيرًا للاهالي المصائب بدلاً عن السعادة حيث سرت احوال اذربيجان الى فارس ايضًا وصار العجم ذوي رخاوة وتكسر بسبب الراحة والاموال بل ولحق الفساد الملك نفسهُ بسبب مبالغته في رفاهية اطعمته وملابسه الاذربيجانية واهمل تربية اولاده وكان يتلقى خضوع الرعية بكبرٍ وهو الذي اسس في هذه المملكة الحكم المطلق الذي هو عبارة عن عمل الملك بارادته ورايه لا بشريعةٍ وقانون حيث كان يرى انهُ يستحق التصرف بحكمهِ في اموال رعيتهِ واعمارهم حسب هواهُ فيعاملهم معاملة العبيد الحقيقيين وقد كمل الفساد لكل شيء على يد اوائل خلفائه حتى صار لاراذل الخصيان والعبيد كلمة نافذة في ديوانهم وكانت المرزبانات وحكام الاقاليم تكلف الاهالي فوق الطاقة ولا تقاصّهم الملوك لاشتغالهم عن ذلك بشهواتهم

ومن جملة ما يحكى من الحوادث الدالة على رذائل ذلك العصر هو ان كمبيز بن قورش المقدم ذكرهُ كان متوحشًا في سلطنتهِ وحملته غيرته على قتل اخيه سمرديس ونابذ القوانين ايضًا بزواجهِ لاختهِ شقيقتهِ ولما استشار القضاة في هذا الزواج الفاحش اجابوهُ من الجبن بان القانون يرخص للملوك جميع ما يريدونهُ

ومما لا باس بذكرهِ هنا لكونهِ ينبي عن عوائد القوم واصطلاحاتهم ايضًا وهو انهُ لما تولى السلطنة دارا الذي حاربهُ الاسكندر المكدوني وظفر بهِ وببلادهِ كان قصد الهجوم على بلاد التتار فارسلوا لهُ طائرًا وفارًا وضفدعة وخمسة اسهم ففسرّ لهُ ذلك بعض امرائهِ بان معناهُ اذا كان العجم لا يفرّون مثل الطير ولا يختفون في الارض كالفار ولا يغطسون في الماء كالضفدع فلا سلامة لهم من سهام التتار قال بعض المولفين وان تكن بلاد المشرق من عادتها استعمال الكناية لكن الظاهر ان مثل هذا اختراع لا اصل لهُ اخترع لشحن التواريخ بالامور المستحسنة

وبقيت بلاد فارس ومادي على ما هي عليه من الاتحاد الى سنة ٣٣٠ ق م لما انتصر الاسكندر المكدوني على دار المذكور ثم بعد وفاة الاسكندر صارت هذه البلاد لسلوقوس الى ان قامت قبيلة الفرثيين وطردت الروم واحدثت دولة اخرى في بلاد مادي وفارس الى سنة ٢٦٠ م فابتدأت دولة فارسية اصلية تُعرَف بالساسانية نسبةً الى ساسان وهي محلة بمرو من بلاد خراسان وملوك هذه الدولة هم آكاسرة العجم

ثم تغلب عليها المسلمون وكانت الواقعة الاولى بقرب قادسية الكوفة في غربي العراق العربي وادخلوا فيها الدين الاسلامي على مذهب الشيعة قال ابن خلدون المغربي انه بعد ما فتحت بلاد فارس بالاسلام في زمن خلافة عثمان بن عفان وكانت الفرس تزعم وتفتخر انهم هم الاحرار والاسياد ويعدون سائر الناس عبيدًا لهم رام البعض منهم كيد المسلمين بالحيلة فاظهروا التدين بدينهم وكان رجل منهم يقال له عمار ويُلقب بخداش وابو مسلم الخراساني وشنفاد واشنيس والمقنع وبابك وغيرهم فاستمالوا اهل الشيع باظهار محبة اهل البيت واستبشاع ظلم علي بن ابي طالب الى ان احتالوا على انقياد الناس الى مذهب الشيعة والقول بالحلول وسقوط الشرائع وبهم تاسست هذه العقائد في بلاد العجم

واستمرت هذه البلاد تحت ولاية الخلفاء الى ان قامت الدولة السلجوقية بعد ان انقرضت الدولة السامانية التي كانت اختلست ما وراء النهر وقويت الدولة الاسماعيلية في العراق العجمي ثم تسلط التتار على تلك البلاد في سنة ١٢٥٨ م (سنة ٦٥٦ للهجرة)

وكان لهلاكو اول ملوك التتار المذكور مرصد سلطاني في مراغة من اذربيجان اقام عليه العالم الشهير نصير الدين الطوسي وهناك صنع الزيج المعروف بالزيج الخاني وكان يستعين بمويد الدين العرضي ومحي الدين المغربي والطوسي نسبة الى طوس وهي قرية من بخارا

والدولة المسئولية الان هي من التتار المذكورين وملوكها يحاولون الان ان يقووا ويشيعوا لغة العرب والاتراك والفرس وعلوم البلاغة والعروض والعلوم الشرعية والطب والنجوم وارباب المعرفة هم الذين يحظون بالمناصب المهمة وعلى الخصوص ملكها الحالي نصر الدين شاه الذي تولى المملكة في سنة ١٨٤٨ م فانهُ يوصف بحسن السياسة والتدبير والمحبة لرعاياهُ وقد انشا عدة مدارس كلية لدرس العلوم والفنون واكتساب المعارف والآداب لنجاح الاهالي وفي سنة ١٨٦٣ م اذن بادخال الشريط البرقي اي التلغراف الى اقطار بلادهِ وقد زار منذ بضعة شهور بعض عواصم اوربا بقصد ملاحظة احوالها وادخال تمدنها الى بلادهِ وحيث كان ذلك مما يوجب تغيير في الاخلاق والعوائد القديمة نفر البعض من اعضاء العائلة الملوكية وكثيرون من عظماء البلاد واضطروهُ الى عزل وزيرهِ الاعظم لكونهِ هو الذي حسن لهُ هذا الامر المنافي لارادتهم ولكنهُ اعادهُ بعد مدةٍ جزئية وهو مصمم على انفاذ مقاصدهِ مع سنوح الفرص المناسبة

واما ديانة اهالي البلاد القدماء فكانت الديانة المجوسية وحيث قد ذكرت مفصلة بقدر الامكان في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا حاجة الى تكرار ذلك هنا ويقال بانهُ الى الان يوجد منهم بقايا على هذا المذهب وهم نحو ٤٠٠ عائلة في نواحي يزد من جنوبي خراسان ولهم هيكل على راس جبل في تلك البلاد ويحفظون فيهِ النار المقدسة ويقال بان واضعهُ زرداشت المشهور كان ظهورهُ بمدينةٍ يقال لها ارمية من مدن هذه المملكة

وذكر ملطبرون ان في القرن التاسع من الميلاد (الثالث من الهجرة) ظهر نصابري وهو رجل خارجي رئيس فرقة خوارج في خوزستان تدعي الاسلامية وتسمى الزابئة وهي غير الصابئة عبدة النجوم وكتب عبادتهِ مولفة بعبارة لغةٍ من اللسان السرياني تشبه لغة اهل بلاد الجليل وهي اقليم صفد ببلاد فلسطين وقواعد هذا المذهب تقرب من قواعد الاسماعيلية ويشوبها شيء من عقائد

المجوس واصحابه يسمون انفسهم اصحاب يوحنس ومعنى هذا الاسم على ما قالة علماء اللغات الشرقية النور وهم يتبركون بالصليب ويستعملون شيئاً يقرب من العماد ويتقربون بذبح الدجاج والغنم

وذكر العلامة الفاضل كرنيليوس فان ديك الاميركاني في جغرافيتو انه يوجد في مكران احدى اقسام بلوخستان طائفة تسمى اللودية من عقائدهم ان الانسان لا غاية في خلقهِ الاان يعيش ويموت ويُنسى ذكرهُ فان كان في لذة عيشٍ فلهُ ان يطلب طول الحياة وان كان في ضيقٍ فلهُ ان يطلب الموت لذاتو بل ان يقتل نفسهُ ايضاً ومتى مات احدهم يدفنون معهُ كل ما يختص بهِ حتى يُنسى ذكرهُ ولا يتزوجون بل يعيشون في الزنا والفسق

وقال ايضاً ان في جبال هند كوش قسم يُعرف ببلاد كافرستان يسكنهُ قوم كانوا قبلاً في بلاد قندهار ثم طردهم المسلمون من هناك فجاءت فرقة منهم وسكنت في هذه البقعة واستمروا على عباداتهم الوثنية وهم يغزون البلاد المجاورة لهم ويقتلون المسلمين وفي اعيادهم يضع الرجل منهم ريش الطير في عمامتهِ دليلاً على عدد المسلمين الذين قتلهم لكل قتيلٍ ريشة

ثم في ايامنا هذه ظهر عندهم الرجل المسمى بباب الله ولعلهُ يدعي الالوهية وتبعهُ قوم يسمون ذواتهم البابية يبلغ عددهم على ما قيل ٢٠٠ الف منهم من يظهر الاعتقاد بهِ ومنهم من يبطنهُ ولما اخذ مذهبهُ في الامتداد طردهُ الملك من البلاد فجاء ببعض جماعتهِ الى البلاد العثمانية ثم آل امرهُ الان الى الاقامة في عكا تحت الحفظ وفي ما ذكرناهُ عنهُ في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف ما بهِ الكفاية فليراجعهُ من شاء

والظاهر انهُ كان يحصل في هذه المملكة اضطهاد على سائر المذاهب وخاصة النصرانية حيث ذكر في بعض النشرات المطبوعة في سنة ١٨٦٧ م (سنة ١٢٨٤ للهجرة) ان شاه ايران اصدر امرهُ برفع الاضطهاد عن شعب النساطرة وهم فرقة من النصارى وانعم عليهم بمبلغ من الدراهم لاجل عمار كنيسة ونصب

عليهم واليًا من اهل مذهبهم فقدمت له دولة الانكليز تحرير شكر على ذلك

واما لغات العجم فان اقدمها على ما قاله ملطبرون لغة يقال لها زند وهو لسان كتب دين الفرس المسماة زنداوستا وهي تشتمل على اخبار قديمة جدًّا مجردة عما يوثق به واما اللغة البهلوية اي لغة المقاتلين والشجعان فكانت مستعملة في العراق العجمي وفي ميديا الكبرى وعند البرثة وقيل انهم كانوا لا يستعملون غيرها في ديوان الملوك من نسل قورش وترجمت كتب المجوس اليها وفي سنة ٢١٠ م ابتدأ الملوك الساسانية الذين مرّ ذكرهم ان يرفضوا اللغة البهلوية المذكورة وادخلوا الى بلاد العجم لغة اقليم فارس الذي هو اقليم بلاد العجم الحقيقية لكن لما فتحت بلاد العجم بالاسلام في القرن الاول من الهجرة (السابع من الميلاد) بطل اللسان الفارسي من ديوان ملوك العجم وبقي الى سنة ٣٦٧ للهجرة (سنة ٩٧٧ م) فشرع حينئذٍ الديلمية في ان يعيدوا لهذا اللسان قوته القديمة ومن ثم انتخب الشعراء العظام وارباب الخطابات والانشا منه لغة كثيرة الالفاظ والكلمات عذبة الاصوات والنغمات وسموها باللغة الفارسية الجديدة والان قامت مقام هذا اللسان اللغة التركية في شمال بلاد العجم بل في طهران دار المملكة فلسان الفارسي الجديد والحالة هذه لا يلقب بلقب الدري يعني لغة ديوان الملك الا مجازًا

وكانوا يربون اولادهم تربيةً عامة يؤهلونهم بها للشجاعة والفهم ومتى تم عمر الولد ١٧ سنة سلموهُ لارباب المعارف ليحسنوا تربيته بالتعليمات والآداب خصوصًا ما يجب بالوطن وكان لا يتمكن احد منهم من وظيفة قبل تغذيه بمعارف هذه المدرسة وكذلك اولاد ملوكهم ايضًا كانوا يستفيدون بحسن التربية المعارف والآداب

وكان من قوانينهم المعاقبة على الرذائل والخيانة والحث على العدل وبغض البطالة والكذب وتشريف الزراعة حتى ان الامير منهم كان ياكل مع الحراثين مرةً في كل سنة وكان الكذب عارًا كبيرًا عندهم

وكانوا يعاقبون اصحاب الجنايات بعقوبات خشنية فكانوا يسلخون عصاة امر الدولة وهم احياء او يقطعون بدن العاصي نصفين وينفأُون اعين من يخشون منهُ فتنةً في الدولة واما قطع الاذان والانوف والايدي فهو من مسرات ملوكهم المتقدمين والمتاخرين ومن جُلِد بامر الملك لا بد لهُ من ان ياتي ويسجد امامهُ على ركبتيهِ ويثني عليهِ خيرًا حيث انهُ تذكرهُ والقى البال منهُ

ومن عادة ملوكهم ان ياكلوا على صوت المغاني والالات ورقص الراقصات وكانت ولاة الاقاليم على عهد ملوك الفرثيين او البرثة وقد تقدم ذكرهم تنام تحت الموائد الملوكية ليتلقوا مع غاية الاحترام والتعظيم ما يفضل من الطعام ويُرمى لهم وكانت الرعايا تحيّي ملوكها بالسجود ويلقبونهم باخي الشمس والقمر ويفتخرون بانهم هم اوّل من ابتدع خصي الادميين ليجعلوا لحريمهم حراسًا جبابرة ليس في قلوبهم رافة وكان هولاء الخصيان في سراية ملوك اصطخر اكثر عددًا وشوكةً من ديوان ملوك العجم المتاخرين وهم الذين كانوا يربون اولاد الملوك في الزمن القديم كما ذكرنا في ما تقدم وقد مدح افلاطون هذه التربية عندهم

ولا زال من العوائد القديمة الموسم المسمى كلروز (يوم الورد) الذي ينثرون فيهِ الزهور

ومن آدابهم القديمة اتخاذ الشمسيات والكراسي المنقولة والسجاجيد الصغيرة التي تُفرَش تحت الكراسي ومنهم اتصل ذلك بالافرنج

وقد ذكرنا في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف البعض من علمائهم القدم كماني الثنوي وزرداشت اللذين وضعا لهم اصول العبادات والمعلم ايستاييوس ولعلهُ الذي سماهُ ابن خلدون المغربي كيستاسف والمعلم لستانوس الذي نقل العلوم الفارسية الى اليونانيين وكذلك بعد الخلفاء العباسيين زهت ايضًا بينهم العلوم والمعارف وكانت ذات رونق وبهجة في زمن دولة صوفية العجم فان قصائد الفردوسي وسعدي وحافظ تُرجمت الى لغات الافرنج واعجبت اهالي

اوربا قال المطربون انها مع كونها خالية من المعاني كان ما اشتملت عليهِ من التقيل الحماسي اليانع الزهور لا تشم منهُ الأَّ رائحة الورد والمنثور ولا يسمع من الفاظها الأَّ تغريد الهزار والشحرور

وقد تقدم ذكر المرصد السلطاني الذي كان للسلطان هلاكو المشهور الذي اخرب بغداد واقام عليهِ نصير الدين الطوسي وطوس قرية من بخارا خرج منها الامام الغزالي هذا وقد خرج من بلاد العجم ايضاً كثيرون من اكابر علماء اللغة العربية وايمتها وادبائها وشعرائها حتى انهُ لا يمكن حصرهم منهم الامام ابو زكريا يحيي التبريزي شارح ديوان الحماسة وابن خلوف الهمداني الشاعر والشيخ احمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان الهمداني صاحب المقامات التي عارضها الحريري والشيخ محمد القزويني صاحب كتاب عجائب المخلوقات وكتاب آثار البلدان وكتاب تلخيص المفتاح في البيان والشيخ مجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط وسيبويه المشهور امام البصريين في النحو وابو اسحق الاصطخري صاحب المصنفات في الجغرافية

ومن مدينة مروشاهجان التي قتل بها يزدجرد اخر ملوك الفرس ظهرت دولة بني العباس وكانت مقام المامون العباسي لما كان بخراسان وفي دار رجل منها يُعرَف بابي النجم المعيطي صبغ اول سوادٍ لبسته المسوّدة وسوف ياتي توضيح ذلك في كتابنا صناجة الطرب في تقدمات العرب وخرج من هذه المدينة ايضاً كتّاب الخلافة وجماعة من الايمة

ويوجد في مدينة فرسپوليس التي هي مدينة الفرس الاصلية وكانت من اعظم مدن العالم كثير من النقوش والاعمدة والهياكل والقبور المنحوتة في الصخور وتقول اليهود ان في مدينة همدان قبر الملكة استير ومردخاي الشهيرين في الكتاب المقدس

ويوجد الآن في مدينة تبريز التي كانت اعظم مدن بلاد العجم في الغنى والتجارة وكان فيها نحو ٢٥٠ جامعاً كثير من المدارس والمكاتب

اما ابنيتهم فانها وان تكن فاخرة ولهم قصور عظيمة شاهقة من جملتها قصر عظيم في مدينة اصبهان يقال له (فرق ستون) يعني قصر الاربعين عمودًا وكل عمود منها قائم على اربعة سباع من نفس المرمر وفيه من النقش البديع وانواع التحف والتصاوير المزخرفة ما يدهش النظر ويذهل الفكر ولكنها مع ذلك جميعه لا تقاس بتلك العمائر والابنية الهائلة التي كانت في ايام الملك زركسيس بن داريوس الذي هو خامس ملك من ملوك مادي وفارس

ويقال بان معامل هذه البلاد قد وصلت منذ القرن السابع عشر للميلاد (الحادي عشر للهجرة) الى درجة كمال بالنسبة للتطريز على القماش والحرير والجلد وصناعة آنية الفخار العجمي وفخار زرنج يساوي آنية الصين في الدقة والصفا والشفافية وكانوا يشتغلون منه آنية جيدة تقاوم حرّ النار والصيني الكرماني المشهور بخفته ولازالت معامل الجلود والصاغري والسختيان منذ زمن قورش الى الان زاهية زاهرة وهم يحسنون شغل النحاس ايضًا وكانت القسي الفارسية اعظم الاقواس ببلاد المشرق ولايمكن لارباب الصناعة ببلاد اوربا ان يقلدوا السيوف العجمية المصطنعة من الحديد والبولاد على منوال السيوف الدمشقية القديمة المسماة بالطبانات والموسى وباقي ادوات الفولاذ عندهم جيدة الصناعة ولازال الى هذا الوقت تشتغل سيوف عظيمة في قزوين وخراسان وتُعرف صنعة الفولاذ الجيد المصطنعة منه تلك السيوف اذا وجد عليها عروق متموجة تكون على شكل خيوط الحرير ويسقطون فولاذها بالذهب وهذه السيوف لا تنثني ابدًا ويقال ان تيمورلنك الشهير اخذ الصناعية من دمشق وذهب بهم الى بلاد العجم وكانت سيوف دمشق من صفائح دقيقة مستطيلة تُصبُّ على التعاقب من الحديد والفولاذ ولهذا كانت لينة مرنة بحيث ان السيف ينثني الى مقبضه ويقطع في اصلب الاجسام وقد ذهب سرّ هذه الصناعة الان واما اقمشة العجم القطنية والصوفية التي يصطنعونها من شعر المعز ووبر الابل كشالات الكشمير والبسط والطنافس وكذلك حريرهم الذي يصطنعون

منهُ المخمل وغيرهُ وقماشهم المخيش والمشجر فهذه كلها قد بلغت درجة عالية في الجودة ويعرفون الآن تبييض المراة وصقل الالماس وشغلهِ وخلاصة الامر انهم لم يفقدوا فنًّا من الفنون التي كانت مستعملة في عنفوان تقدمهم بل اضافوا اليها امورًا جديدة كتنصيص الزجاج والمينا فانهم يعرفون ذلك الآن ويحسنون صناعتهُ

المعارف في فينيقية

الفينيقيون هم سكان سواحل البحر الابيض الشامي غربي سوريا وارضهم تمتدّ من قرب جبل الكرمل جنوبًا الى قرب مصب نهر العاصي شمالاً وكان تملكهم في ساحل البحر وبعض الجبال والسهول بين الجبل الشرقي والجبل الغربي ولكل مدينةٍ شهيرة من مدنهم ملك مستقلٌّ

وقيل لهم الفينيقيون نسبةً الى فينيقية قال بعضهم ان معناها الارض الواطئة المنخفضة فكانهُ قيل بلاد الغور والغور ما قابل النجد وذهب اخرون الى انها سميت بذلك نسبةً الى فينكس اخي قدموس الصوري الآتي ذكرهُ وقال المحققون ان فينكس التي نسبوا اليها هي اسم للنخل في اليونانية او بالحري للثمر وهي تدل في الاصل على اللون لا على الجوهر اي على لون اسمر مائل الى الحمرة كلون ثمر النخل وهي ايضًا اسم لرداء ارجواني كان الفينيقيون يلبسونهُ وكان النخل في تلك الايام كثيرًا في فينيقية حتى صارت صورة هذه الشجرة رمزًا على اهالي البلاد فكانوا يصورونها على مسكوكاتهم فسماهم بذلك اليونانيون وقد يسمون ايضًا بالصوريين نسبةً الى صور احدى مدنهم العظيمة وسياتي ذكرها وليس لكونهم من ولاية سوريا التي تسمت بهذا الاسم نسبةً الى اقليم من

اقاليها الثلاثة التي هي سوريا وفينيقية وفلسطين وكانوا يسمون ايضاً كنعانيين وبلادهم ارض كنعان لان اهلها القدماء هم اولاد كنعان بن حام بن نوح ويقال ان الصيدونيين سكان صيدا هم اولاد صيدون بكر كنعان والعرقيين سكان عرقا اولاد العرقي سادس ابنائهِ والسينيين سكان معاملة بالقرب من طرابلس لعلّها الضنية هم اولاد السيني سابع ابنائهِ والارواديين سكان ارواد اولاد الاروادي ثامن ابنائهِ (تك ١٠: ١٩) وذهب قوم بان سكان فينيقية الاولين هم من ذرية آرام الخامس من ابناء سام (تك ١٠: ٢٢) وان الكنعانيين المذكورين اختلطوا معهم وقيل غير ذلك

ويقال ان اول مدينة عمرها الفينيقيون هي مدينة صيدا اسسوها سنة ١٨٠٤ ق م نسبةً الى صيدون بكر كنعان على ما تقدم ايرادهُ وثانيها مدينة صور التي صارت اشهر مدن فينيقية بالغنى والعظمة وسعة التجارة ومعرفة اهاليها بسلوك البحار ومهارتهم في الصنائع قال بعض المولفين ان البعض من اهالي صيدون بنوا هذه المدينة قبل بناء هيكل سليمان في اورشليم بنحو ٢٤٠ سنة فيكون ذلك سنة ١٢٥٠ ق م وصارت قاعدةً للدنيا كثيرة الاهل والزائرين جزيلة العَدَد والعُدَد واما الان فلا يوجد من آثار عظمتها القديمة الاّ عدّة اعمدة مكسرة منبثة في المدينة وآثار كنيسةٍ فسيحةٍ وبقايا قنطرة ماء كان يجري فيها الماء من راس العين على ما يُظَن الى المدينة واما طرابلس فيقال بانهُ رحل في تلك الايام القديمة من المدينتين المذكورتين اي صيدا وصور اناس معهم جماعة من رواد وبنى كل فريقٍ منهم محلة في الموقع الذي فيهِ الآن الاسكلة ثم انضمت تلك الابنية الى واحدة ودعيت باسم طرابلس لان معناهُ في اللغة اليونانية المدن الثلاث (واظن ان ذلك وقع عند ما حارب الاسكندر المكدوني مدينتي صور وصيدا فهرب منها قوم اخنشاءً من الحرب وجاءوا الى هذه البقعة وبنوا المحلات المذكورة وتوطنوا فيها لِما انهُ لم يُعثر لها على ذكر ولا اسم قبل هذا الاسم اليوناني ولئن قال اخرون غير ذلك) وقال بعض المولفين ان

هذه المدينة اشتهرت في الزمن القديم كسائر مدن فينيقية وكان فيها ديوان للفينيقيين يتفاوضون فيهِ في الامور الاكثر اهمية في مملكتهم

وبعد ان عمر الفينيقيون المذكورون اول مدنهم التي هي صيدا على ما ذكرنا باكثر من ٣ قرون اعني نحو سنة ١٥٠٠ ق م افتتح بلادهم سيزوستريس ملك مصر وكتب تاريخ فتوحه هذا على بعض الصخور عند نهر الكلب وكان ذلك قبل خروج الاسرائيليين من ارض مصر ودخولهم في سنة ١٤٥٠ ق م الى ارض الميعاد

ثم في سنة ٧٢٠ ق م استولى عليها سنحاريب ويقال لهُ شلمناصر ملك اثور وهم الاشوريون ونقش كذلك صورتهُ وكتب اعمالهُ ايضًا على الصخور عند نهر الكلب المذكور

ولما افتتحها الاسكندر المكدوني سنة ٣٢٤ ق م بنى في عرقا هيكلاً للزهرة جاء اليهِ تيطس القيصر الروماني بعد ان افتتح مدينة اورشليم وقدم فيهِ ذبائح شكرًا لمعبوداتهِ على انتصاراتهِ وظفرهِ بشعب اليهود. وفيهِ ولد اسكندر سفيروس احد القياصرة الرومانيين ايضًا

ولما انتقلت الى الرومانيين في سنة ٦٥ ق م عمروا بلادها وساقوا اليها المياه وجلبوا اليها الاعمدة العظيمة من مصر وزينوها بهياكل عظيمة محكمة البناء ومهدوا الطرق والى الآن يوجد على صخور نهر الكلب صخران احدهما مؤرَّخ باللغة اليونانية والاخر باللغة اللاتينية يخبران بان عساكر هذه الامة اصلحوا الطريق المذكورة التي لم تزل الى الان تُعرَف بالطريق الانطونيني نسبة الى انطونيوس قيصر الروماني الذي افتتحها ويقال ان هذا الملك وقلوبترة واغسطوس ونيرون وتريانوس سكوا في طرابلس عملةً ووضعوا اسمها عليها ولم يبقَ منها شيء للان واما بيروت فان اغسطوس قيصر اعطاها حقوق المدن الرومانية الاصلية وسماها على اسم بنتهِ جوليا فيلكس وزينها الملك اغريفوس الاكبر وبنى فيها ملاعب واروقة وحمامات الى ان اشتهرت في الجيل الثاني

بعد المسيح بمدرسة علم الفقه واتاها تلاميذ من بلاد اليونان والديار المصرية وكانت تلقب بمدينة العلماء وبمرضعة الفقه ايضًا

ولا زالت هذه البلاد بيد الرومانيين المذكورين الى ان انقسمت المملكة الرومانية الى شرقية وغربية ومن ثم صارت تابعة القيصرية الشرقية

ولما افتتحها المسلمون في سنة ١١ للهجرة (سنة ٦٣٢ م) جمع في طرابلس القاضي ابو طالب حسن مكتبةً عظيمة اوصل بعضهم عدد كتبها الى ٣٠٠ الف مجلد واستكثرهُ اخرون فقالوا لا انما هي ١٠٠ الف مجلد في اللغة العربية والفارسية واليونانية

ولما جاء الصليبيون في سنة ٤٩٢ للهجرة (١٠٩٩ م) وتملكوا جميع شاطئ البحر وبعض الاماكن في شرقي الجبل الغربي وشرقي بحر لوط احترقت المكتبة المذكورة في اثناء افتتاحهم لتلك المدينة ثم بنى ريموند من تولس الذي تولى عليها قلعتها واقام فيها الايطاليانيون حارة مخصوصة لتجاراتهم ممتازة يحكمون فيها بمقتضى قوانينهم كما فعلوا في عكا وصور وغيرها ونقلوا منها زراعة قصب السكر الى اوربا ثم رتبوا في جميع البلاد التي استولوا عليها الترتيب الذي كان وقتئذٍ جاريًا في بلادهم وجعلوا الفلاحين كالعبيد يبيعونهم ويشترونهم مع الارض وصالحوا الطائفة المارونية مع الكنيسة الرومانية وبقيت البلاد في ايديهم الى ان رجعت الى المسلمين في سنة ١٢٧٠ للميلاد (سنة ٦٦٩ للهجرة)

وفي سنة ٩٢٢ للهجرة (سنة ١٥١٦ م) اخذها السلطان سليم العثماني من يد الغوري ملك مصر ويوجد كذلك صخر اخر من صخور نهر الكلب محرر عليهِ باللغة العربية قيل انهُ تذكارًا لما فعلهُ السلطان المشار اليهِ في هذه البلاد التي هي والحالة هذه من جملة ايالات الدولة العلية

وكانت ديانة اهالي فينيقية في الازمنة القديمة صابئة نظير ديانات مجاوريهم من الامم اي انهم يعبدون النجوم والكواكب السماوية على ما ذكرنا في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف وكانوا

يقدمون لبعل ويقال له مولوك ايضاً وهو احد معبوداتهم ذبائح بشرية من الاولاد الصغار يطرحونهم احياء على ذراعيهِ المحاتين بالنار وكان ذلك التمثال مصنوعًا من نحاس وله راس عجل مكللاً بتاجٍ ملكي وذراعاهُ ممدودتان كانهُ مستعد لاحتضان ما يقدم له فكانوا يضرمون تحتهُ نارًا الى ان يحتمي ثم يلقون الولد الذي يقدمونهُ الهُ على ذراعيهِ فيموت حالاً لشدة الحرارة (يقول مولفهُ جرت عادة الناس ان يقدموا القرابين وينذروا النذور لآلهتهم رجاء بان يحفظوهم هم وعيالهم واولادهم من المصائب والبلايا التي من اعظمها المصاب في الولد فاذا كان هولاء يستعطفون آلهتهم بحرق اطفالهم احياء فما الذي يرجونهُ اذًا من شفقة تلك الالهة اما اذا كانوا يفعلون ذلك تكفيرًا لسيئاتهم فيا لها من حكمةٍ غريبة بها يداوون الامراض بذات العلل عينها ويا له من الهٍ ايضاً ياخذ البريء بجريرة المذنب ولا يعفو الا بعد ان يتشفى)

اما لغتهم فكانت على ما قيل كاللغة العبرانية قال بعض كتبة الافرنج انهُ لم يبقَ لها اثر الاَّ في خواتم جمع بعضها احد علماء جرمانيا وتعلم منها هذه اللغة المائتة

وحيث ان اراضي صور عقيمة اضطر اهاليها القدماء الى تعليم الصنائع فافادتهم التجارب والتفكرات والاتفاقيات معرفة امور كثيرة المنافع منها انهم استنبطوا عمل الزجاج واشتهروا في حسن الصباغ ولاسيما الصباغ باللون الارجواني ويقال بانهم استدلوا عليهِ من كلب لاحد الرعاة كسر محارةً واكلها وتلون حنكهُ بهذا اللون فاستخرجوا هذه الصبغة وقتئذٍ من المحار الى ان صار هذا اللون زينةً للملوك وزاد مجدهم ايضاً باختراع حروف الهجاء عند ما كان المصريون يصورون صورة الاشياء او يصطنعون لها علامات فاستنبطوا هم الطريق الاسهل الدارجة وجعلوا علامةً لكلِّ صوتٍ اصلي تسمى حرفًا وحروفهم هذه صارت منشأً للحروف الافرنجية فان اليونانيين اخذوا حروفهم منها ومن حروف اليونانيين استخرج اللاتينيون حروفهم التي هي حروف اهل اوربا

الآن[1] . ثم بواسطة اسفارهم البحرية اخترعوا قسماً من علم الاوسترونومية اي الفلك او الهيئة وهو معرفة الاسفار البحرية وانتخبوا النجمة الشمالية المدعوة بالمسمار لتكون قائداً للنوتية في اسفارهم وجميع الامم اقتدوا بهم في ذلك حيث كان لا زال ما ظهرت الابرة وكانوا يسافرون حول افريقية في الزمن الذي كان فيه سير السفن في وسط البحار من الامور المستحيلة والذي سهل عليهم ركوب البحر غابات جبل لبنان التي كانوا يقطعون منها الاخشاب لانشاء سفنهم

وكانوا يشتغلون بانواع كثيرة من الصنائع ايضاً كانواع الحلى من الذهب والفضة وغير ذلك من انواع النقوش والزينة والمعادن والعاج واجناس الاقمشة فان الانسجة الفينيقية كانت ذات شهرة ورواج في كل العالم غير انهم كانوا يحبون الخفخفة والترفه ويحتقرون الغرباء

واتسعت تجارتهم على وجه عجيب في الهند وفرانسا واسبانيا وانكلترة التي سموها مدينة القصدير ومنها اوصلوا تجارتهم الى الاوقيانوس الغربي حتى ان

(1) يوجد اختلاف كلي بين المولفين في هذا المعنى ولذلك قال احد المدققين بانه لا يعلم يقيناً من هو الذي اخترع هذا الفن قبل غيره لان البعض ينسبونه الى مهنون المصري نحو سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد والبعض قالوا ان ظهور القراءة والكتابة كان سنة ١٧٢٢ قبل الميلاد وفي تواريخ الصينيين ان فوهي موسس مملكتهم سنة ٢٦٥٠ ق م علم الاهالي عدة امور من جملتها الكتابة لكن ربما كان ذلك بالنسبة الى الكتابة القديمة المعروفة عند المصريين بالهيروغليفية ونظيرها عند الصينيين ايضاً غير ان الكتابة بالحروف الابجدية يقول المعلم اسحق نيوتون بانها من مخترعات الادوميين واكد آخرون بانها من مخترعات الفينيقيين ثم يصعب ايضاً تعيين الزمن الذي انتشرت فيه اذ بعض المورخين يقول بان قدموس الصوري الذي بنى مدينة طيوه ببلاد اليونان سنة ١٥٥٠ ق م علمهم ايضاً الكتابة بهذه الحروف والبعض يقولون ان اليونان كانوا لا يعرفون الكتابة حين محاصرة بلاد تروادة وان اشعار اوميروس المتعلقة بهذه المحاصرة وكان المداحون يشدونها من غير ان تكون مدونة ومن المعلوم بان ظهور هذا الشاعر كان في سنة ٨٨٥ ق م ولذلك قال اخرون ان دخول الكتابة الى بلاد اليونان كان في سنة ٧٥٤ ق م واما استعمالها في مصر فكان في سنة ٦٦٠ ق م وعلى ذلك اتفق الاكثرون

اهل ارلاندة التابعة لانكلترة لا زالوا يدّعوا الى الان بانهم من نسل الفينيقيين ولذلك دعوا انفسهم في هذه الايام بالفنيان ووصل الفينيقيون الى بلاد الاندلس وكانوا جعلوا مدينة فارس ايضاً مركزاً لتجارتهم وكانوا يستخرجون من اقليم اتيكا ببلاد اليونان مكاسب عظيمة الى ان صار عندهم جميع خيرات الدنيا وكثرت في اياديهم الفضة حتى انهم استثقلوا حملها في بعض الاسفار فاتخذوها هلوباً للمراكب عوض الرصاص

وليس انهم عمروا بلادهم فقط بل عمرت نزلاتهم مدناً اخرى في غيرها ايضاً لان منهم خرج قدموس الصوري الذي ذهب الى اقليم بيوتيا من بلاد اليونان وعمر هناك مدينة طيوة وعلم اهلها زراعة العنب وعمل المعادن وحروف الهجاء وذكر بعضهم ان قدموس المذكور مضى باقربائه واحزابه الى هناك بعد محاربة يشوع بن نون وافتتاحه عليه مدينة موطنه التي يُظن انها كانت في نواحي حرمون الذي هو جبل الشيخ ثم خرجت ايضاً ديدون اخت بغماليون ملك صور لما قتل اخوها المذكور زوجها لياخذ امواله فجمعت امراته المذكورة تلك الاموال وهربت بها الى افريقية وعمرت مدينة قرطاجنة ببلاد المغرب بالقرب من المحل الذي فيه تونس الآن وكان ذلك في سنة ٨٩٠ ق م وقبل تاسيس مدينة رومية بنحو ١٢٠ سنة ثم بعد ذلك صارت قرينتها وفي رتبتها وخصيمتها بالعداوة والحروب ولما عمرت هذه المدينة وما حولها بقبائل من ارض كنعان فبل وقتئذٍ لولا رومية لكانت قرطاجنة اول مدن العالم ولولا الاسكندرية لكانت ثاني مدينةٍ من مدن الدنيا وصارت بحسب وضعها مركزاً للتجارة وكان اهلها ارباب صنائع وفنون خصوصاً علم الزراعة وركوب البحار لكنها اخيراً خربت بحروب الرومانيين المتواصلة معها وذلك سنة ١٤٦ ق م ثم بني على آثارها مدينة اخرى سميت بهذا الاسم لم تشتهر الا في زمن اغسطس قيصر الروماني وصارت ثاني مدينة لرومية في العظم ثم خربت ايضاً بحروب العرب في صدر الاسلام حتى لم يبقَ لها اثر وعمر الفينيقيون ايضاً في جنوبي اسبانيا

مدينة الغذير التي تسمى كاذير وعمروا مدنًا اخرى في الارض المجاورة بحر الروم والجزائر المتفرقة في ذلك البحر كرودس وقبرص ومالطة وغيرها وعمروا في بلادهم عمائر اخرى حصينة ولما شرع سليمان ملك اسرائيل ببناء هيكل الله في اورشليم استحضر لذلك بنائين من صور وهم الذين اسسوا مدينة بعلبك حيث توجد حجارة طولها نحو ٣٠ ذراعًا وارتفاعها ٧ اذرع

ولا نرى حاجةً الى ذكر مشاهير علماء الصوريين هنا اذ قد تكلمنا بقدر ما وصل الينا من ذلك في كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف ولم يفتنا ممَّن وصلنا اخبارهُ منهم هناك الأسيانكونياتون الذي يقال بانهُ ولد في بيروت وهو مورخ شهير ولهُ مولفات في ديانة الفينيقيين والمصريين ورسائل نافعة في الطبيعيات وغيرها وقد ترجم بعضها الى اللغة اليونانية في الجيل الثاني بعد المسيح ولم يبقَ الان منها الَّا بعض حواشٍ طبعت على حدتها في سنة ١٨٣٦ م وقد ظن البعض ان هذا المورخ كان معاصرًا للملكة سميراميس التي مرَّ ذكرها في الكلام على الكلدانيين وقال اخرون انهُ كان في عهد موسى النبي ومنهم من جعله سنة ١٢٠٠ ق م وقيل بل قبل الميلاد بنحو ٦٠٠ سنة فقط وكان الذي ترجم ما ترجم من كتبهِ هذه رجل من اهالي فينيقية ايضًا يقال لهُ فيلون الجبيلي فزعم بعضهم بان فيلون المذكور هو الذي الفها وليس بمترجمها

المعارف في مصر

جرت عادة اكثر المولفين ان يبتدئوا بذكر المصريين قبل غيرهم لظنهم بانهم كانوا اصلاً لكثير من الشعوب والقبائل لكن البعض من المدققين يقول بانهُ في العصر الذي ذهب فيهِ قدموس الصوري الى بلاد اليونان يجب ان نعتبر مصر بانها دعيت امًّا للعلوم حيث ان العلوم امتدت اليها من فينيقية

وسميت مصر بهذا الاسم نسبةً الى بانيها مينس او مينوس المسمى في الكتاب المقدس مصرايم بن حام بن نوح (تك ١٠ :٦) ويظنّ بانهُ هو اول ملوكها وكان ذلك سنة ٢١٨٤ ق م وأما ماريت بك ناظر الانتيقه خانه المصرية وغيرهُ من الباحثين في الاثار القديمة فيزعمون بان انتشاء الحكومة الملكية فيها كان سنة ٥٠٠٤ ق م متعللين في ذلك بما عدّوهُ من العائلات الملوكية التي تسلطت عليها من ذلك الوقت الى ان استولى عليها المسلمون وعدد تلك السلطات ٣٤ فرقة كبيرة ترجع كل منها الى عائلة ملوكية تنسب الى المدينة التي كانت تخت مملكتها وهم يستندون في ذلك على ما فهموهُ من الاثار القديمة التي لم تزل فيها الى الان وبالتالي على مولفات مورخين سوف نذكرهم واما تسمية اهاليها بالقبطة فهي نسبةٌ الى مدينةٍ قديمة في الصعيد تسمى قفط قال بعض المولفين ان ساحلها كان المدينة التي يقال لها الان قنا ويُنسب اليها الفخار المشهور بالقناوي يشربون بهِ الماء لكونهِ خفيفًا ومتى قرب من بخار الماء فقد حرارتهُ وقال ماريت بك ان المصريين اخذوا هذا الاسم اي قبطة منذ تركوا ديانتهم الوثنية وتدينوا بالديانة المسيحية عند ما صدر امر القيصر ثيودوسيوس الاكبر بمحو عبادة الاصنام وخراب الهياكل المصرية (سنة ٣٨١م كما يتضح ذلك مما ياتي في محلهِ)

وفي خرافات اهلها المتقدمين ان اول من حكمها كان الالهة وان اولهم يسمى بركان حكمها ٩٠٠٠ سنة وان كوكب الشمس المسمى ارزيس وزوجتهُ القمر المسماة ازيس واخاها عطارد المسمى هرمس آلهة اخترعوا اصول الشرائع والفنون والعلوم وهذا لزعمهم الوهية كل من اخترع امرًا غريبًا كارباب التصانيف العجيبة وامثالهم وهو احد الاسباب الاصلية في التمسك بعبادة الاوثان فان هرمسا المذكور هو اشهر علمائهم ومنار علم فلسفتهم قال صاحب تذكرة الحكم ان هرمسا هذا كان يسكن في صعيد مصر ويسمى عند العبرانيين اخنوخ وهو عند العرب ادريس وهو اول من تكلم على الجواهر العلوية والحركات النجومية وعلّم الفلسفة للناس

وبنى الهياكل وعرف خواص الاشياء في المنافع الطبية ونظم قصيدة في الامور السماوية والارضية واخبر عن طوفان نوح انتهى كلامهُ لكن ما يعول عليهِ من جهة تقلبات الاحكام فيها حسب رواية بعض المورخين هو انهُ بعد انقضاء مدة مينس المذكور مضت عدة قرون مجهولة تملك فيها على مصر ملوك كثيرون من اهلها ذكر عن واحدٍ منهم يقال لهُ اسومندياس او اوسياندروس انهُ كان لهُ اخزانة كتب نقش على بابها حروف معناها هنا دواء الروح وقد ذكر في بعض المولفات ملك من ملوك مصر بهذا الاسم وانهُ تولى المملكة سنة ١٩٠٤ ق م ثم بعد الملوك المذكورين تولى عليها ملوك من رعاة العرب اولي المواشي واما ماريبت بك وغيرهُ فيقولون لم تكن ملوك مصر جميعها متتابعة الواحد بعد الاخر بل كان منها كثيرون معاصرين بعضهم بعضاً منهم من كان مستقلاً باقليم ومنهم مَن كان منفرداً بمقاطعةٍ اخرى ودعوا جميعهم فراعنة جمع فرعون وهي كلمة مصرية اصلها فاراه ومعناها نور الشمس وان مينس او هو منتزاول ملوكها كان معتبراً بين شعبهِ ومهيباً عندهم حتى انهم قدموا لهُ العبادة كالهٍ وهو الذي بنى مدينة منفيس وحوّل النيل عن مجراهُ الاصلي واصلح احوال الرعية بتحسين الزراعة ونظم القوانين والاحكام وكانت مدة حكمهِ ٦٢ سنة ثم في ايام ابنهِ اثوثيس شُرِعَ بتزيين مدينة منفيس المذكورة وبني فيها الهياكل والقصور المشيدة وفي ايام حكم فرعون فيخس الملك الثاني من الدولة الثانية تعين الثورابيس الهًا في منفيس وفي ايام خليفتهِ بوسيريس بنيت مدينة ثيبة في بلاد الصعيد وهي المدعوة الان بقصر ابي الحجاج وجعلها تخت الملك اما الدولة الرابعة فكان سرير ملكها في منفيس وثاني ملوكها كان منفاري الذي بنى الهرم الثالث اي الاصغر في ارض الجيزة وخامس ملوكها شوفو واخوهُ نوشوفو اللذان كانا يملكان معاً وبنيا الهرم الاول اي الاكبر في ارض الجيزة ايضاً اما الهرم الثاني اي الاوسط فقد بناهُ الملك شافري الذي هو من ملوك الدولة الخامسة ولكنهُ نُسبَ الى سوفيس الثاني غلطاً وظن بعضهم من بعض ملاحظات فلكية ان

هذه الاهرام بنيت في الجيزة سنة ٣١٢٣ ق م لما كان التبين هو نجم القطب وفي ايام الملك اوسيرطاسن الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة تاسست مدينة الكرنك في بلاد الصعيد ثم خلفه عامونتهي الثالث الذي اقام الابنية العظيمة في اقليم الفيوم ورسم عليها اسمه وفي ايام الملك طياوس اخر ملوك الدولة السادسة عشرة كانت اغارة الملوك الرعاة الذين مرّ ذكرهم على مملكة مصر قال بعض المولفين انهم طوائف مختلفة جاءوا اليها من جهة اسيا ودخلوها من الجهة البحرية المساة دلتا واستولوا على جميع جهات مصر السفلى تحت راية الوليد بن دوفع وهو الذي يسمى عند اليونان باسم سلاطيس ولما استقر بالولاية احرق المعابد والهياكل وبنى القلع والحصون وشحنها بالعساكر ومهمات الحرب خوفًا من هجوم المصريين وجعل مدينة منفيس تخت المملكة وكان المصريون يكرهون هولاء الرعاة وينفرون منهم لقساوتهم وكثرة جورهم واحتقارهم الديانة المصرية واستمرت احكام البلاد في اياديهم نحو ٢٦٠ سنة وقيل ٥١١ سنة ولعلّ الاول هو الاصح الى ان استخلصها منهم فرعون اموسيس بعد حروب شديدة ثم بعد اموسيس المذكور تولى ابنه امنوفيس الاول نحو ١٨٠٠ ق م وهو راس الدولة الثامنة عشرة وفي ايامه وجد كثير من صور الخيول منقوشة ومرسومة على الحجارة والصخور ولذلك يُظنّ ان هذه الحيوانات لم يكن لها وجود قبل دخول الرعاة المذكورين الى مصر ولكن هم الذين ادخلوها لانها لو كانت موجودة قديمًا لكان لابد من نقشها مع باقي الحيوانات التي كانت الاهالي تعتني برسمها وقد كثر هذا النوع من الحيوان في تلك البلاد حتى صارت التجار تستجلبه من الديار المصرية الى الاقطار الشامية في ايام سليمان بن داود ملك اسرائيل ومن اثار هذا الملك ايضًا الرواق الشهير الموجود في هيكل الكرنك وهو من ابدع الابنية القديمة ولم يزل الى الان اسمه مرسومًا على القناطر القرميدية التي بنواحي ثيبة وصورته في قاعة التصاوير الملكية بالصعيد والى جانبه ملكة حبشية فاستدلوا من ذلك على ان المصريين كانوا يتزوجون بالسودان وفي ايام

فرعون طوطميس الثالث الذي تولى المملكة سنة ١٧٥١ ق م نُقلت المسلَّة المسماة بمسلة فرعون الى الاسكندرية ومن آثارهِ ايضًا مسلة اخرى موجودة الان في القسطنطينية واخرى ثالثة في رومية مكتوب عليها اسمهُ ومنها الرواق الملكي الموجود في الكرنك حيث توجد صورتهُ ايضًا ويظنّ انهُ في ايام هذا الملك بيع يوسف الى مصر وفسر لهُ احلامهُ فتقدم في بابهِ وصار مسلطًا على ارض مصر كلها ولئن كان يوجد اختلاف في ذلك بين المورخين ومن ملوك هذه الدولة الثامنة عشر ايضًا امنوفيس الثالث الملقب عند اليونان بالممنون وكان قد ادَّعى لنفسهِ الالوهية وانشا هيكلاً على ميسرة النيل تجاه ناحية ثيبة وقد تخرب الآن وانهدم ولم يبقَ من اثرهِ الا الصنم الكبير وهو عبارة عن صورة هذا الملك وكان المصريون يعبدونهُ ويعتقدون انهُ كلما اشرقت الشمس يسمع منهُ صوت فكان الناس يتاثرون من ذلك لعدم معرفتهم سببهُ ولا زال السبب مجهولاً الى ان اتى السار كردنر ويلكنسون الانكليزي وشاهد هذا الصنم فوجد في جوفهِ حجرًا اذا ضرب بهِ سمع لهُ طنين وتكتكة ثم ظهر اخيرًا الملك رمسيس الثاني ثالث فراعنة الدولة التاسعة عشرة المشهور عند اليونان باسم سيزوستريس وبعد ان تولى المملكة في سنة ١٥٦٣ ق م اشتهر بالفتوحات واخترع القوانين يحكي عنهُ انهُ عبر البحر الاحمر وتوصل الى الهند وجهز عمارة في بحر الروم وكانت سفينتهُ التي ركبها وقتئذٍ اوّل سفينة ظهرت في بلاد اليونان واستولى على بلاد الشام وزعموا انهُ هو اول ملكٍ عزم ان يوصل البحر الاحمر بالبحر الابيض وكانت جنودهُ نحو ٦٠٠ الف مقاتل مشاة و٢٤ الفًا خيالة و٢٧ الف عربة حربية وغزا الحبشة وانتصر عليهم ودخل ما وراء نهر الكنك (في الهند) ووصل الى البحر المحيط الاكبر وفتح بلاد اناطولي والتتار وكان كلما فتح قطرًا شيد فيهِ هياكل وآثارًا تدل على نصرتهِ فلذلك كان يوجد في عدة مواضع مكتوبًا ما معناهُ سيزوستريس ملك الملوك وسيد السادات فتح هذه الارض بسلاحهِ وزعم بعضهم ان سيزوستريس هذا كان يسمى سبساق ايضًا وخالف فيهِ اخرون حيث لم

تثبت حقيقة ذلك لان تاريخ مصر لم يظهر للوضوح الأ من سنة ٦٧٠ ق م منذ عصر الملك ابزمبتكوس الذي فتح ابواب مصر للغرباء وتعاشر المصريون مع اليونان وغيرهم كما يتضح ذلك مما ياتي غيران ما كان من امثال هذه المزعومات ما ابقت لهُ محلاً التحقيقات الجديدة وما ربما نذكرهُ منهُ هنا انما نذكرهُ كيلا يخلو المقام من الاستحاطة بما قالهُ المولفون بشانهِ ثم ان سيزوستريس المذكور اقام في مصر هياكل عديدة من اموال الغنائم التي سلبها من الامم حتى لايكاد يوجد في وادي النيل اثر من الابنية القديمة الأ وعليهِ اسمهُ ورسمهُ وشيد ما يلزم من الجسور والقناطر والترع والخلجان لمنفعة البلاد ورفع الاراضي المنخفضة التي يفسدها فيضان النيل وبالجملة قد وصلت مصر في ايامهِ الى اقصى درجات الرفعة والمجد وزهت ايضاً بالعلوم والفنون وهو الذي قسم المملكة الى ٣٦ اقليمًا واقام على كل اقليم نوابًا لاجل جمع الاتاوة وهو الذي رسم صورة الخارتة على ما قيل وصور فيها صورة المدن التي افتتحها ليبين لاهل مصر عظم مملكتهِ وفي ايام ابنهِ منفطا الثاني الذي حكم مصر سنة ١٥٠٠ ق م خرج بنواسرائيل من مصر تحت رياسة موسى النبي سنة ١٤٩١ ق م ولئن انكر على ذلك بعضهم لزعمهم بان فرعون الذي خرج هذا الشعب في ايامهِ ذكر عنهُ في التوراة بانهُ غرق في البحر الاحمر وهذا الملك يوجد لهُ قبر بين قبور الملوك الباقية بالصعيد في الجهة المعروفة بباب الملوك لان ذلك ليس ببرهان قاطع لتائيد الاعتراض اذ من المحتمل ان يكون المصريون الذين يجتهدون في كتم هذه الواقعة المخلة في شان ديانتهم وعظمة ملوكهم بنوا قبرًا لهذا الملك بدون ان يدفن احد فيهِ ليزيلوا بواسطتهِ هذا العار عنهم ومما يويد ذلك تولية بنتهُ طوسير على تخت المملكة بعدهُ قبل اخيها الصغير لقصورهِ وزواجها برجلٍ ليس من بيت الملك يقال لهُ صفطا منفطا ومعناهُ عبد النار على ان جدّها سيزوستريس المقدم ذكرهُ كان لهُ نحو ٣٠ ولدًا من الذكور فلو لم تكن وقعت تلك الحادثة الهائلة التي انقرضت بها ذكورهم لما تمكنت هذه البنت من الجلوس على سرير المملكة ولا تزوجت

برجل ليس من بيت الملك على ما ذكرنا اما سيسق الذي كان يُظنُّ بانهُ هو سيزوستريس على ما ذكرنا في ما مرَّ فقد تحقق امرهُ بانهُ راس الدولة الثانية والعشرين تملك نحو سنة ٩٩٠ ق م وتاريخ فتوحهِ مدن يهوذا ونهبهِ خزائن الهيكل وخزائن بيت الملك الى اخرهِ لم يزل مصورًا على حيطان هيكل الكرنك العظيم ومكتوبًا عليهِ يهوذا ملكي اي مملكة يهوذا تحت قبضة يديّ ثم لما ملك طهراق احد ملوك الدولة الخامسة والعشرين وهي دولة حبشية زاد في تحسين الهيكل الذي بنواحي جبل البركل في بلاد الحبشة وزخرفهُ واضاف ايضًا قاعة عظيمة الى هيكل مدينة آبو في ثيبة وبهذا الملك انتهت الدولة الحبشية المذكورة من بلاد مصر وقامت الدولة السادسة والعشرين وكان راسها الملك ابساماتيكوس الاول الذي يسميهِ هيرودوتوس ابساميس وفي بعض المولفات ابزمبتكوس وقد سبق ذكرهُ بانهُ هو الذي فتح ابواب مصر للغرباء وكان تملكهُ سنة ٦٦٤ ق م فجمع هذا الملك بلاد مصر تحت سلطتهِ بعد ان كانت قد انقسمت قبلهُ بين ١٢ قائدًا من عظمائها وكان رجلًا حاذقًا محمود السيرة وتعتبر مدة ملكهِ مهمة للغاية اذ في ايامهِ انتهى الايهام والالتباس التاريخي حيث درج استعمال الكتابة بالحروف الابجدية وتركت الكتابة ذات النقوش والصور وجعل مدينة منفيس كرسيًّا لمملكتهِ وفي ايامهِ تقدمت بلاد مصر الى درجةٍ سامية في التمدن والمعارف والغنى لانهُ اعتنى بتحسينها وتنظيمها وبنى فيها اللبرنث على شاطئ النيل وهو بناءٌ عظيم يعدهُ البعض من عجائب الدنيا السبع فكان يشتمل على ٣٠٠٠ مخدع و١٢ قصرًا ملوكيًّا داخل باب واحد وكلها مسقوفة بالرخام المرمر بناهُ سنة ٦٥٠ ق م وجدد معاهدات تجارية بينهُ وبين اليونان واهل صور وسهل اسباب الاخذ والعطاء حتى صارت مصر مركزًا لتجارة الامم ولما تولى بعدهُ ابنهُ نخو ويقال نخوس اونيكوس سنة ٦١٠ وفي بعض المواضع سنة ٦٢٦ ق م كان كابيهِ لهُ عناية واهتمام بتحسين احوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة فشرع في ايصال نهر النيل بالبحر الاحمر

بواسطة ترعة طولها ٩٦ ميلاً لكنه لم ينجح اما ماريت بك فيقول ان اوّل من حفر هذا الخليج هو الملك سنيوس الأوّل من ملوك الدولة التاسعة عشرة الذي خلفهُ على المملكة سيزوستريس المقدم ذكرهُ ثم ان نخوس المذكور امر جماعةً من الفينيقيين ان يكشفوا لهُ حدود افريقية باسرها فساروا في البحر ثلاث سنوات من جهة بحر القلزم وبعد ان جازوا راس الرجاء الصالح عبروا بوغاز جبل طارق وعادوا في اخر الثالثة الى مصب النيل ولما عصى امزيس او اماسيس الذي كان استخلفهُ نبوخذ نصر ملك فارس على مصر بعد ان حاربها وانزل بن نخوس المذكور عن كرسيها استقلّ هذا الخليفة بملك مصر سنة ٥٨٩ ق م وساعد التجارة فلذلك انجذب اليونانيون الى مملكتهِ حتى جاء اليها الفلاسفة ايضًا مثل سولون وفيثاغورس ليتعلموا فيها بعض العلوم وهو كان اخر ملوك الدول المصرية الوطنية (فتمت بذلك نبوة حزقيال ص ٣٠: ١٣) حيث قد تسلط عليها بعدهُ اكثر الدول القديمة ولم يعد يملك عليها ملك منها واوّل من استفتحها من الغرباء كان بختنصرّ ملك بابل ثم اضيفت الى مملكة فارس ومادي في عصر كمبيز بن كورش وذلك سنة ٥٢٥ ق م وهو الذي استخلصها من يد اماسيس الذي مرّ ذكرهُ واستمرت خاضعةً للفرس الى ان استفتحها اسكندر بن فيلبس المكدوني سنة ٣٣٢ ق م وبنى فيها مدينة الاسكندرية وسماها باسمهِ وجعلها على نسق المباني المكدونية واذن لكثيرٍ من اهالي بلاد اليونان واهالي المشرق ان يستوطنوا بها وفتح ابوابها لجميع الناس واعدّها مركزًا لتجارة اهل العالم كما هي الى يومنا هذا

ثم بعد وفاة الاسكندر تولى زمام مصر الدولة البطليموسية وكان اول ملوكها سوطير بن لاغوس تولى سلطنتها سنة ٣٢٣ ق م ويعرف ببطليموس الاوّل وكان حاذقًا عادلاً محبًا للعلوم اتخذ الاسكندرية دارًا لاقامتهِ مع ابقاء منفيس على حالها اعني دارًا للسلطنة رسمًا ومقر سائر الاحتفالات الملكية لا يُلبَس التاج الملكي الا بها وجدد مدنًا كثيرة وفتح الترع المردومة واعتنى باتساع التجارة

واصلاح امور الفلاحة والزراعة وشرع في تتميم الهياكل والقصور والمباني العظيمة ومنها ضريح للاسكندر المكدوني المذكور لا يعرف الان محل وجوده ومنارة الاسكندرية المعروفة بالفاروس وسوف ياتي الكلام عليها

وهو الذي اسس مكتبة الاسكندرية التي جمع له كتبها النفيسة رجل يقال له ديمتريوس دوفاليرقال بعضهم ان هذا الملك جمع في تلك الخزانة ما ينوف عن ٤٠ الف مجلد سماها بالام ثم جمع اخرى وسماها بالبنت ولا زالت تتزايد تلك الكتب حتى وصلت في العدد الى ٧٠٠ الف مجلد وقيل ٤٠٠ الف فامتلأ كل من هيكل بروشيون وهيكل سربيس كتبًا لها اعتبار عظيم من كتب اليونانيين والمصريين والحبشة والكلدانيين والهنديين والفرس والسوريين والعبرانيين وكانت هذه المكتبة مشتملة على العلوم واللغات والاديان المختلفة

وبهذه المكتبة تاسست تلك المدرسة العظيمة المشهورة التي عرفت عند العرب برواق الحكمة وصارت مقصدًا لطلبة العلوم من سائر الاقطار حيثما رتب لها النفقات واحضر اليها المعلمين من كل الجهات ومن ثم صارت مدينة الاسكندرية مجمعًا للمذاهب والعلماء فتولد من هذا الاختلاط القول بالحلول اذ جلب اليها اليونان نظريات حكمائهم ودقائق سفسطيتهم وعلم فيها كهنة منف بعضًا من عقائدهم وعلم فيها اليهود ايضًا حقائق الكتب المقدسة وجاء اليها المجوس ليعلموا فيها علم التنجيم وعلمهم الكاذب المسمى باسمهم قال بعض المولفين ان اشهر مدارس علم الفلك عند القدماء مدرسة الاسكندرية التي انشاها الملوك البطليموسية فان فيها ابتدي باستعمال الالات الفلكية سنة ٣٠٠ ق م وهناك اخترعت اولاً آلات لقياس الزوايا ومن اشهر معلميها الفيلسوف هبرخوس نحو سنة ١٥٠ ق م وبطليموس نحو سنة ١٤٠ ق م الف كتابًا في هذا الفن سماهُ المجسطي وكان عليهِ الاعتماد الى القرن الخامس عشر والسادس عشر بعد المسيح الى ان قام كوبرنيكوس من بروسيا وغيرهُ فابطلوا احكامهُ (وسوف ياتي الكلام على ذلك في محلهِ) وقال اخرون انهُ لما تولى المملكة بطليموس

فيلادلف بن بطليموس سوطير المقدم ذكرهُ في سنة ٢٨٣ ق م التفت الى توسيع دائرة العلوم والفنون وانواع الصنائع واكثر من تحصيل الكتب التي اضافها الى مكتبة ابيهِ وحيث كان ماهرًا في علم الفلك والهندسة اظهر حركة القمر والف كتابًا في الجغرافيا وامر بترجمة التوراة من اللغة العبرانية الى اليونانية لمنفعة اليهود الذين كان ابوهُ قد جلاهم من بلادهم واسكنهم مصر فترجمها له ٧٠ نفرًا من اليهود ولذلك قيل لها الترجمة السبعينية يُقال ان من جملتهم كان سمعان الشيخ الذي حمل المسيح على ذراعيهِ في هيكل اورشليم ويُظنّ ايضًا بانهُ هو جدّ غمالائيل معلم الناموس (اع ٥: ٣٤) ثم امر هذا الملك ايضًا مانيتون الكاهن المصري ان يكتب له تاريخ مصر باللغة اليونانية فجمع هذا الكاهن لها تاريخًا من الدفاتر الرسمية والاوراق والاثار والرسوم القديمة الموجودة يومئذٍ في ارض مصر وبعدهُ ولعلهُ في القرن الثاني قبل الميلاد اخترع اكتزيبوس في هذه المدرسة ايضًا طلونبةً او آلةً لرمي السهام بواسطة قوة مرونة الهواء المتكاثفة وساعةً تدلُّ على مرور الوقت بمرور كميةٍ من الماء في انبوبةٍ على قطرٍ معلوم ثم في القرن الخامس بعد الميلاد اخترع هيرون الالة المعروفة بالجرو ويسميها المصريون بالعيّار تُرفَع بها الاثقال من الاحجار ونحوها وتكلم على تمدد الهواء من الحرارة وهو صاحب النافورة الشهيرة بنافورة هيرون وهي آلة ينضغط بها الهواء من نفس تركيب الآلة وفيها ايضًا ابتدأ هروفيلوس وفيلبوس من الاطباء بتشريح الاجسام البشرية

ثم انعكف هذا الملك على عملياتٍ ومشروعاتٍ ذات منافع وفوائد كاستكشاف طريق البحر بالاسفار والوقوف على حقيقة منابع النيل وارسل سفنًا لاستكشاف سواحل الحبشة والبلاد السودانية وبالجملة قد زادت في ايام هذا الملك المعارف والتجارات في ذلك القسم بخلاف غيرهِ من الاقسام الاخر التي تولاها خلفاء الاسكندر وزادت تجارة الاسكندرية على بلاد قورنثة وسيراقوسة ببلاد اليونانيين وكان فيها خليج مبداهُ من اكيتوس ونهايتهُ الى البحر

الاحمر وكان مجعولاً على شاطئيه خانات وفنادق يوضع فيها البضائع الآتية من اسيا الجنوبية وقال ابن خلدون المغربي ان بطليموس الارنبا (لا اعلم من هو الذي اراده بهذا اللقب من اعضاء هذه العائلة الملوكية) بنى ملعبًا للخيل شهيرًا في الاسكندرية احترق في زمن القيصر زينون (الذي تولى الامبراطورية الشرقية سنة ٤٧٤م) وفي ايام بطليموس الثالث ابن بطليموس الثاني الملقب بالكريم الذي تولى الحكومة في سنة ٢٤٦ ق م سُرق من هيكل الزهرة شعر الملكة برنيقي زوجة هذا الملك وكانت قد نذرته لذلك الهيكل لينتصر زوجها في حروبه التي كانت جارية بينه وبين انطيوخوس ملك سوريا فبلغ خبرهُ الى الملك فغضب واراد قتل الحراس فدخل عليه بعض المنجمين وكان متقدمًا في بابه واخبرهُ بان الزهرة هي التي اخذت الشعر ونقلته الى السماء ووضعته بين النجوم فسرّ الملك بذلك ومن ثم سُمي شعر الملكة برنيقي بين الناس من جملة مجاميع النجوم

وبعد انقضاء الدولة البطليموسية بموت كليوباترا اخر ملوكها نحو سنة ٢٩٤ ق م دخلت مصر تحت سلطة القيصرية الرومانية قال بعض المولفين ان الاسكندرية صارت حينئذٍ مصدرًا جديدًا الى الفلسفة في عصر اغسطوس قيصر الذي افتتحها فكانت جميع طلبة العلم في ذلك الزمان يتقاطرون الى هذه المدينة من كل جنسٍ رغبةً في تلك المكتبة التي لم يكن لها نظير في غيرها وكان المعلم بوتامون قد وضع فيها اصول الفلسفة المنتخبة التي تسمت اصحابها اكليسنيكيين وهي انهُ لا يجب ان يتوقف الطالب على تحصيل العلم من معلم مخصوص بل ينبغي تحصيل الحقائق من تعاليم جميع الفلاسفة بشرط موافقتها للعقل والصواب وقبولها بعد البحث المستطيل ثم بعد ان خرب هذه المدرسة ثيودوسيوس الاكبر قيصر القسطنطينية بجملة هياكل الوثنيين باسباب معارضة امينوس سكاس واصحابهِ الديانة المسيحية على وجه التعنت والعناد وحرقت المكتبة ايضًا باغراء البطريرك ثيوفيلوس سنة ٢٩٠م جدّد هناك هذه الفلسفة المنتخبة جماعة من

الفلاسفة المسيحيين الذين كانوا قد تخرجوا فيها كما ذكر ذلك بتفاصيله في كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف ولازالوا يمارسونها ما امكن الى ان فُتحت الاسكندرية وبلاد مصر بالاسلام سنة ٢٠ للهجرة (سنة ٦٤٠ م) قال العلامة رفاعة بك الطهطاوي نقلاً عن ابي الفداء ان عمرو بن العاص استشار وقتئذٍ الخليفة عمر بن الخطاب بشان ما كان باقيًا من الكتب فيها فامرهُ بحرقها وكانت نحو ٤٠٠ الف مجلد قائلاً ان كانت موافقة للقرآن فنحن في غنيةٍ عنها وان كانت مخالفة فهي مضرة لاحاجة لنا بها فاوقد بها المسلمون الحمامات ٦ اشهر وكانوا نحو ٤٠٠٠ حمام وتقول الافرنج اذا كان هذا صحيحًا فيالها من خسارةٍ فاحشة لايمكن جبرها وهنا ينبغي ان نلاحظ بانهُ نظرًا الى عدد الكتب ونسبتها للحمامات يستبين بانهم جعلوا لكلِّ حمام منها نصف كتابٍ تقريبًا في كل يوم وليتهم ابانوا لنا عن مقدار جرم الكتاب لنعرف ان كان يكفي ذلك الحمام اولا يكفيهِ وهنا لايخلو الامر من وقوع الغلط اما في مقدار الكتب واما في عدد الحمامات واما في كلّ الحكايه من اصلها

ولما اتصلت سلطنة مصر بالخلفاء الفاطميين وكان استخلصها من العباسيين المعز لدين الله ثالث الخلفاء المذكورين بعد موت كافور الاخشيدي على يد قائد جيوشهِ جوهر بنى هذا القائد مدينة القاهرة واسس مدرستها الكبرى الشهيرة بالجامع الازهر فنقل اليها المعز المذكور ما كان في قصرهِ بالمهدية من الاموال والامتعة وسار اليها في سنة ٣٦٢ للهجرة (سنة ٩٧٣ م) وجعل هذه المدينة دار خلافتهِ ولما تولى الخلافة بعدهُ حفيدهُ الحاكم بامر الله ابو علي منصور العبيدي صاحب ديانة الدروز التي تكلمنا عليها في اخر كتابنا المسمى بسوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان بما فيهِ الكفاءة عن الاعادة هنا بنى في هذه المدينة مدرسةً سماها دار الحكمة واجلس فيها القرا وحملت اليها الكتب من الخزائن والقصور ودخل اليها الناس وجلس فيها الفقهاء والمنجمون والنحاة واصحاب اللغة والاطباء وحصل فيها من الكتب في سائر العلوم واجرى

على ما فيها من الخدام والفقهاء الارزاق وجعل فيها ما يحتاج اليه من الحبر والورق والاقلام والمحابر وذلك في سنة ٣٩٥ للهجرة (سنة ١٠٠٤ م) لكنه ابطلها في ما بعد المامون وزير الخليفة المستنصر العبيدي بسبب حميد بن مكي الاطفيحي القصار وغيره ممن تخرجوا فيها وادّعوا الربوبية وقتل حميد المذكور وذلك سنة ٥١٧ للهجرة (١١٢٣ م) ومن اراد الاطلاع على هذه الحكاية بالتفصيل فعليه بمراجعتها في كتابنا الثالث المسمى بصناجة الطرب في تقدمات العرب

وبعد ان انقرضت الخلافة الفاطمية المذكورة وتولى سلطنة مصر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب راس الدولة الكردية سنة ٥٦٧ للهجرة (سنة ١١٧١ م) بنى في القاهرة المذكورة قلعة الجبل والبئر المشهورة بها المعروفة ببئر يوسف وعمقها نحو ٣٠٠ قدم ومع ذلك يمكن النزول فيها الى العمق ولو لمن نزل راكبًا على حمار لما فيها من الدرج الدوار واقام لهذه المدينة سورًا ايضًا وكان في زمن الخلفاء الفاطميين مبنيًا باللبن

ثم بعد ان قرض السلطان سليم الاول العثماني الدولة الجركسية التي كانت خلفت الدولة الكردية المذكورة واستولى على هذه البلاد سنة ٩٢٣ للهجرة (سنة ١٥١٧ م) قويت فيها شوكة المماليك الذين اضرّوا بها كثيرًا بسبب عدم انقيادهم التام الى اوامر السلاطين العثمانية ولا زال الحال على هذا المنوال الى ان تولى وزارتها محمد علي باشا سنة ١٢١٩ للهجرة (سنة ١٨٠٤ م) فجلب اليها هذا الوزير الضباط الفرنساوية لاجل تعليم العساكر النظامية وبنى السفن الحربية وانشأ فيها المدارس لتعليم العلوم والفنون واللغات الاجنبية وادخل اليها معامل القطن والحرير والاصواف وغير ذلك من الصناعات الاوربية وانشأ قلمًا مخصوصًا لترجمة الكتب ومطابع لطبع ما يترجمه المترجمون من اللغات الافرنجية وامر باشهار جريدة رسمية تسمى الوقائع المصرية وارسل عددًا وافرًا من اهالي مصر الى اوربا لاجل تحصيل اللغات واتقان العلوم ونشرها في وطنهم ووضع

سلك الاشارة للمخابرة بين مصر والاسكندرية وبنى عمارات وشيّد قصورًا وانشأ حدائق جميلة منها جنينة شبرا الشهيرة ومهد الاراضي وفتح الخلجان والترع واقام سدودًا لمنع اضرار زيادة فيضان ماء النيل وانشأ المعامل والورش لصبّ المدافع وعمل الباروت وغير ذلك من الادوات الحربية ثم حصل اخيرًا على سماح الدولة العلية بان تكون حكومة مصر له ولخلفائهِ بطريق التوارث خلفًا عن سلف مع اعتبار هذه الولاية حصةً من المملكة العثمانية وخاضعةً من كل الوجوه لاوامرها العلية وبعد ان توفي هذا الوزير وانتقلت الحكومة من بعد خليفتهِ الاول الى حفيدهِ عباس باشا وذلك في سنة ١٢٦٥ للهجرة (سنة ١٨٤٨م) شرع هذا الوزير ايضًا بانشاء التلغراف والطريق الحديدية من مصر الى الاسكندرية ثم تولى بعدهُ عمهُ محمد سعيد باشا في سنة ١٢٧١ للهجرة (سنة ١٨٥٤م) وانشا طريق المنشية بالاسكندرية وغرس فيها الاشجار وجعلها من احسن المتنزهات وكان قد شرع بوصل البحر الابيض بالبحر الاحمر ولذلك تسمت المدينة التي تاسست على معبر هذا الخليج ببورت سعيد اسي باب سعيد نسبةً اليهِ غير ان هذا العمل لم ينجز في ايامهِ بل تم في ايام خليفتهِ وهو ابن اخيهِ اسماعيل باشا الذي تولى الحكومة في سنة ١٢٨٠ للهجرة (سنة ١٨٦٣م) وسمحت له الدولة العلية العثمانية ان يُلقب رسمًا بالخديوي وهو لفظ فارسي يشير الى استقلال صاحبهِ من بعض الوجوه في الحكم وقد كان هذا اللقب يطلق قبل الان في البلاد المصرية رسمًا ايضًا على جدهِ محمد علي باشا المشار اليهِ في ما تقدم لكن بدون ان تقررهُ له الدولة او تجيزهُ عليهِ

اما ديانة قدماء المصريين فكانت من اشنع العبادات الوثنية لانهُ كما تغلبت العلوم والسلطة في بلادهم كذلك كانت عبادة الاصنام ايضًا وفي مطالعة ما كتبناهُ عنها في كتاب سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان غنىً عن الاعادة غير انه لا باس من ايراد بعض ما نقلهُ الرواة من خرافاتهم المتعلقة في هذه العبادة الاصنامية

قال ابن خلدون المغربي في كلامهِ على المصريين بانهُ كانت لهم اليد الطولى في صناعة السحر وكان لملوك مصر عناية شديدة بذلك حتى كان من مباهاتهم موسى النبي وحشر السحرة لهُ ما كان (يشير الى ما ذكر في التوراة سفر ٧:١٣) وبقايا الآثار السحرية في برابي اخميم من صعيد مصر مما يشهد لذلك ايضاً وقال صاحب تذكرة الحكم ان المصريين كانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة وكانوا يسمون من تعبد لها جميعاً ٧ سنين بالماهر وكل من تعبد لكل واحدةٍ منها ٧ سنين الى ان ينتهي في ذلك مدة ٤٩ سنةً بالفاطر ويجلس الى جانب الملك فلا يعمل الملك عملاً الا بعد مشاورتهِ لهُ فيهِ وكان معيناً لكل واحدة من هذه النجوم السبعة كاهن ياتي في كل يومٍ صباحاً الى الملك فيسالهُ الفاطر المذكور اين صاحبك فيجيبهُ في البرج الفلاني وفي كذا درجة وكذا ثانية وهكذا الى ان يسال السبعة وبعد ذلك يعمل الملك بحسب ما تقتضيهِ احكام هذه الكواكب في ذلك اليوم وعند ما يحدث امر من الامور المهمة يجلس الملك في قصرهِ ويستدعي الكهنة جميعاً فكانت اهالي مصر تجتمع في الاسواق للفرجة عليهم لان كل واحدٍ من الكهنة المدعوين كان يجيب دعوة الملك ويحضر اليهِ راكباً على شيء يناسب الكوكب الذي يكون متعبداً له والطبول تضرب قدامهُ وغير ذلك من انواع الملاهي فمنهم من يكون مستغرقاً في الانوار لا يستطاع بسببها النظر اليهِ ومنهم من يكون راكباً اسداً يسوقهُ بثعبان عوض السوط ومن هولاء الكهنة ظهر ٧ ملوك حكموا البلاد المصرية احدهم يقال لهُ صيلم وهو اوّل من اتخذ مقياساً لزيادة ماء النيل فعمل بركة من نحاس وعليها عقابان ذكر وانثى وفيها قليل من الماء وفي اوان زيادة النيل بكل سنةٍ كانت تجتمع الكهنة وتتكلم بكلامٍ فيصفر احد العقابين فان كان الذكر كان النيل زائداً وان كان الانثى فيكون ناقصاً والكاهن الثاني اسمهُ عشامش عمل ميزاناً في هيكل الشمس وكتب على كفة منهُ حقاً وعلى الثانية بطلاً ووضع الى جانبهِ حجارة فاذا حضر متخاصمان في قضيةٍ من القضايا اخذ كل منهما حجراً ووضعهُ في كفة فتثقل كفة

المحق وتخف كفة المبطل والثالث عمل مرآة من ٧ معادن وجعل في وسطها صورة امراة جالسة وفي حجرها طفل فكان من نظر في تلك المرآة راى الاقليم الذي اراده ووقف على ما هو جارٍ فيهِ من الحوادث واذا اصاب امراة وجع في جسمها مسحت بهِ موضعهُ من جسد تلك الصورة فتبرا من ساعتها والرابع عمل شجرةً اغصانها من حديد عليها طيور متى قرب منها ظالم تمسكت بهِ تلك الطيور فلا يتركوهُ حتى يقر بما فعل من المظالم وعمل صنمًا من التراب سماهُ عبد زحل فكانوا يتحاكمون اليهِ فمن كان زائغًا عن الحق ثبت مكانهُ فلا يمكنهُ ان يتحرك ما لم يعترف بما عليهِ والخامس عمل شجرةً من النحاس فكان كل وحش او طيرٍ اقترب اليها بقي مكانهُ غير متحرك الى ان يوخذ وعمل على باب المدينة صنمين الواحد عن يمين الباب والاخر عن اليسار فاذا دخل احد وكان من اهل الخير ضحك الصنم الذي عن يمين الباب وان كان من اهل الشرّ صرخ الصنم الذي عن يسارهِ والكاهن السادس عمل وزنةً فكان اذا باع احد شيئًا وقبض ثمنهُ من اي نوع كان من المعاملة وضع الدراهم المقبوضة في كفةٍ من الميزان ووضع تلك الوزنة في الكفة الثانية فاذا قابلتها كانت تامة العدد وصحيحة العيار والاَّ فتكون ناقصة من اي نوع كانت من الدراهم او القطع او الفضة او الذهب والكاهن السابع عمل اعمالاً عجيبة يطوّل شرحها واخيرًا غاب مدةً اقام فيها المصريون بلا ملك الى ان كانت الشمس في برج الحمل ظهر اليهم في السحاب وخاطبهم قائلاً لا تطمعوا في عودتي فاني لست براجعٍ اليكم وانما اقيموا فلانًا ليكون عليكم سلطانًا عوضي. انتهى

والظاهر انهم لم يتقنوا صناعة التصوير كما اتقنها اليونان حيث ان ايدي اصنامهم كانت ملتصقة باجسامها وكذلك افخاذها وارجلها ملتصقة ببعضها غير متحركة ولذلك كانت غير مالوفة لعدم اتقانها ولطفها وكانوا يصورون اوزريس الههم بصورٍ مختلفة على حسب الاوقات فكانت اشكالهُ متنوعة عند غروب الشمس وعند الشفق وعند طلوع الفجر وشروق الشمس وفي وقت الظهر وزمن

السحاب والصيف والشتاء اذ تارةً كانوا يصورونهُ على هيئة شاب لابس خرقة قماش ساترة لجميع بدنهِ اخذ بصليب الى جهة صدرهِ وعلى راسهِ كرة سماوية وتارةً على شكل احد رعاة فريجيا وعلى راسهِ قلنسوة ايضًا وهو قابض على عصا والى جانبهِ كبش وطورًا يجعلون تمثالهُ عند غروب الشمس على شكل سائق عربة بيده سوط جالسًا على زهرة شجر السدر وكانوا يصورون ايزيس وهي اشهر معبوداتهم بعد اوزريس المذكور حاملةً على راسها اوراقًا كبيرة او قدرًا او دواليب او شرافات جدران او كرة او صورة هلال وكثيرًا ما كانوا يصورونها ايضًا واضعة طفلاً في حجرها ترضعهُ ثديها وفي راسها قرون كقرون شاة او ثور او تيس او يصورونها قابضة بيدها على منجل وكانوا يصورون هورس احد الهتهم ايضًا على نحو تسعة او عشرة تماثيل اشهرها ما كان على شكل شخص قابض على راس بازي وبيدهِ صليب مربوط فيهِ حمار او على صورة طفل صغير بين اوزريس وايزيس لكونهم يعتقدون بانهُ ولدهما وتارةً يصورونهُ وراسهُ مطوق بشعاعين من ذهب امام بيدر وبيدهِ مدرة وهي الالة التي يذرون بها القمح وكانوا يصورون انوبيس على شكل شخص راسهُ كراس الكلب معلقًا في ذراعهِ اناء ذو حلقة وبيدهِ اليمنى يراع والهُ اجنحة في رجليهِ وخلفهُ صورة نجم وسلحفاة وكانوا يصورون كانوب بصورة اناء كبير عليهِ صورة راس امراة وبازي مرسوم عليهِ حروف هيروغليفية وكانوا يصورون ابيس بصورة عجل اسود على ظهرهِ صورة حدأة (نوع من الطيور) وعلى لسانهِ صورة خنفساة (نوع من الحشرات) وشعر ذنبهِ على نوعين وفي اضلاعهِ شكل هلال وكانوا يصورون سيرابيس بصورٍ متعددة وسموا كل صورةٍ منها باسمٍ اما اسمهُ هو واما اسم اوزريس او ابيس اللذين تقدم ذكرهما لكونهم يعتقدونهم واحدًا وشوهد على بعض عماراتهم تمثالهُ على صورة شخص هرم في راسهِ ٦ ضفائر مثل قرون السانة وهي انثى الذئاب مستورًا بخرقة قماش طويلة عريضة منقوشة ببعض علامات من علامات منطقة البروج وقابضًا بيدهِ اليسرى المطلقة دون غيرها من سائر اجزاء جسمهِ على ثعبان

محيط بجميع جسده واما اقنيف الذي كانوا يعتقدونه الخالق للدنيا وحده فكانوا يصورونه على شكل شخص خارج من فمه بيضة لان البيضة كانت عندهم علامةً على العالم ويستبين من الآثار القديمة الموجودة في اراضي مصر الواسعة بان هذه الامة المصرية كانت تعتني بتصوير كل شيء من انواع الحيوانات والالات الصناعية بل وعاداتهم المحلية ايضًا قال العلامة الفاضل رفاعة بك الطهطاوي انهُ يوجد في ردوم قرية يقال لها انسانة كثير من التماثيل والصور تعتقد العامة بمصر الان انها صور بشر حلَّ بهم المسخ وان الكهوف القريبة من مدينة اسيوط تحتوى على تصاوير قديمة عجيبة محفوظة الى الان لم تذهب بهجتها وكان في قرية يقال لها دندرة صورة منطقة البروج وهي حجر فيه صورة الفلك اخذهُ الفرنساويون الى باريس ووضعوهُ في التحفخانة الملكية كما جرت عادتهم وعادة غيرهم من الافرنج الذين يعرّون هذه البلاد وغيرها من مدن المشرق وقد سلبوا آثارًا كثيرة كانت زينةً لها وما ذاك الا لعدم اعتناء اهالي البلاد وقلة معارفهم فلا يجدون لها مزية ولا يدركون لها قدرًا يوجب اعتبارها والمحافظة عليها (بل سوف يرد عليك هنا وفي كتاب صناجة الطرب في تقدمات العرب كيف كان البعض من الحكام والاهلين يفعلون بما هو منفور لديهم منها) وهذه المنطقة التي نحن بصددها تولع بها علماء امور الاقدمين في فرانسا واستخرجوا منها نتائج كثيرة وكذلك يوجد بالقرب من قرية ارمنت هيكل فيه كثير من الصور ومن جملتها صورة الزرافة التي هي الآن ليست من الحيوانات الموجودة في هذا الاقليم ثم هيكل اخر في مدينة اسنا وتصاوير كثيرة ايضًا في كهفين بقرب قرية يقال لها الطيبة يُفهم منها كيف كان قدماء المصريين يصرفون زمنهم ويشغلونه وكيف كانت آدابهم ومن جملتها صور آلات الفلاحة المستعملة عندهم من قديم الزمان ولعل هذا هو الهيكل الذي اكتشف عليه المعلم ماريات فقال ان هيكل الحديقة المصرية هو مشيد لثلثة آلهة وهم (حسب الاصل) هاثور وهورس وهورسمتو وهو على شكل غرفة ناووسية وهندسته

منافية اصول هندسة الهياكل لان كثرة نوافذهُ ترسل كميةً وافرة من النور الى داخلهِ ليظهر ما فيهِ من الزخرفة ووجود هذا الاثر الناووسي صار باعثًا على الدلالة عن ثلاثة اعصار مختلفة فانهُ دل اولاً على عادة اتخاذ الغرفات الناووسية ثانيًا على كيفية دفن الموتى فيها ثالثًا وضع آثارٍ قديمة على حدةٍ من المدفون تكشف عن غوامض تاريخ المصريين القدماء وجدران هذا الهيكل من داخل مزينة بتصاوير منقورة في الصخر وكلها تنبي عن عوائد وتصرفات تلك الامة المصرية فيشاهد على تلك الجدران صور مَن يستحضر الخمر ومن يصطاد الوحش ومن يقتنص الطيور بالاشباك ومن يصطاد الاسماك ومن جهة اخرى تشاهد تصاوير ملاحين يتصارعون على الماء ومنهم من يمارس التروض بالعابٍ مختلفة ومن يعتني في اتقان عمل الاواني ومنهم من هو حامل على عاتقهِ احمالاً ثقيلة ومنهم من ينقر في الصخور ومن ينحت التماثيل ومن يبني السفن ومن يتعاطى في اصناف التجارة ومن يعقد الابنية ومن يتروض في صناعة سفر البحار ومنهم من يصطاد فرس البحر والتمساح ومنهم من يستحضر طعام الاسمكة ومنهم من يصطاد السمك بالصنارة ومنهم من يرعى المواشي ومنهم من يحرث الاراضي ويلقي البذار ويعتني في نصب الكروم وبالجملة يُرى تاريخ مصر كلهُ مسطرًا على جدران هذا الهيكل وفي آثار مدينةٍ كانت تسمى سابقًا امبوس يوجد هيكل فيهِ عدَّة تصاوير غير كاملة تدل على ان القدماء من اهل مصر كانوا يستعملون في الرسم طريقة المتاخرين المستعملة الان عند الافرنج بالهندسة المعتادة

وكانت لغة المصريين القديمة مجهولة جدًّا للمتاخرين وكان الظن بانها من اللغات المائتة ولم يبقَ لها اثر ولاسيما ان كل ما وجد من الكتابات على تلك الاثار الباقية من المباني القديمة كالاعمدة وحيطان الهياكل او مرسومًا على اللفائف التي كانوا يلفون بها الموتى المحنطين كان من نوع الرسم والنقوش ايضًا وتسمى الهيروغليفية وهي عبارة عن اشاراتٍ مستعارة من صور الاشباح الطبيعية

وكانت على ما ثم اخيرًا نوعين الاول يشير الى اصوات نطقية يدل عليها بعض النقوش المصاحبة لتلك التصاوير المختلفة والثاني تحت هيئة اشباح تدل على جمل مختصرة ولم تدرج عندهم الكتابة بالحروف الابجدية الا في زمن تملك الملك ابساما تيكوس الاول راس الدولة السادسة والعشرين كما سبقت الاشارة اليه في ما تقدم وذلك سنة ٦٦٠ ق م ومن ثم انحصرت الكتابة الهيروغليفية المذكورة في الكهنة فقط حيث داوموا استعمالها لاجل اخفاء علومهم عن العامة الى ان دخلت بينهم الديانة المسيحية ومن ثم ابطلوها لكونها كانت تذكرهم باحوالهم الجاهلية وعباداتهم الوثنية واتخذوا بدلها طريقة الكتابة اليونانية فمع مرور الازمنة تناسى امرها بالكلية وكان كل ما يتكلمه المتاخرون عما يبحثون فيه من تلك الاثار يتكلمونه اما بطريق الحدس والتخمين واما اخذًا عن مورخين اقدمهم لم يتجاوز ٤٥٠ سنة قبل التاريخ المسيحي كهيرودوتوس المورخ اليوناني الذي كان زار هذه البلاد ووصفها في تاريخه ثم فعل نظيره ثيودور الصقلي وكان وفد عليها سنة ٨ ق م واسترابون احد علماء الجغرافيا اليونانيين وكان معاصرًا لثيودور المذكور وبلوتاركة الذي الف سنة ٩٠ ب م رسالة باللغة اليونانية في ما كان يعبده المصريون من الالهين اللذين هما اكبر آلهتهم المعروفين بايزيس واوزريس وقد تقدم ذكرهما وغير ذلك مما يتعلق بديانة المصريين القديمة بحسب ما كان يتناقله المصريون جيلاً بعد جيل من الاحاديث واما التاريخ الذي كان كتبه مايتون الكاهن المصري بامر بطليموس فيلادلف في سنة ٢٥٠ ق م على ما اشرنا اليه في ما تقدم فقد صالت عليه يد الدهر واغتالته الغوائل ولم يصل الى عصرنا منه الا بعض قطع رواها بعض المورخين لكن لما اهتدى الى فك ذلك القلم الهيروغليفي المقدم ذكره احد حذاق الفرنساويين وهو المحقق الشهير المعلم شمبوليون وكان ذلك في سنة ١٨٢٢ م تحقق الامر وظهر بان لغة المصريين القدماء لم تعدم بالكلية وليست هي الا اللغة التي لا تزال الى الان يستعملها قبطة مصر في كتبهم الدينية ولم يمازجها من الالفاظ الاجنبية

غير بعض كلمات من اللغة اليونانية احتاجوا الى اضافتها منذ اعتنقوا الديانة المسيحية .

والذي ابقى تلك الآثار العظيمة التي اتخذها المتاخرون ولا سيما الان مصدرًا لكثيرٍ من معرفة حقائق امور مصر التاريخية على ما ذكرنا هو اعتناء اهاليها الاعتناء التام بالامور التي يخلد ذكرهم بواسطتها كالابنية المتينة الشامخة العجيبة وغير ذلك من الاشياء المهولة لا الظريفة بحيث لا يمكن للدهر ان يتغلب عليها كل التغلب ومبلغ فضلهم فيها انما هو اقتحام المشاق ومصادمة الموانع التي تعترضهم في عملها كالاهرام الثلاثة الموجودة في ارض الجيزة وهي تبعد اميالاً قليلة عن القاهرة وتُعدّ من عجائب الدنيا السبع اعظمها مربع الشكل وكل ناحيةٍ من نواحي قاعدته ٧٤٦ قدمًا فيكون محيطهُ ٢٩٨٤ قدمًا وهي تغطي ١٤ جريبًا من الارض (الجريب يحصل من ضرب ٦٠ ذراعًا في مثلها فيكون الخارج ٣٦٠٠ ذراع مربع ويكون مقدار الاربعة عشر جريبًا المذكورة ٥٠٤٠٠ ذراع مربع) وارتفاعهُ ٥٦٠ قدمًا وقد اختلفت فيها آراء المورخين السالفين فمنهم من قال ان احد الملوك بناها واعدّ الاول لدفنهِ والثاني لدفن زوجتهِ والثالث لدفن ابنتهِ وان زوجتهُ وابنتهُ دُفنتا في ما أُعدّ لهما واما هو فلم يدفن في ما اعدّهُ لنفسهِ وبقي مفتوحًا الى الان لكن ابن خلدون المغربي يقول ان المنفذ الموجود الان في احد الاهرام الثلاثة حدث في زمن المأمون الخليفة السابع من بني العباس لما اراد هدم هذه الاهرام والسبب الذي اوردهُ في ذلك سوف نذكرهُ في كتاب صناجة الطرب في تقدمات العرب وآخرون قالوا ان هذه الاهرام كانت هياكل لعبادة الشمس المسماة عندهم اوزريس وانهُ لو عُرفت الرسوم المنقوشة عليها بالخط القديم لامكن منها معرفة سبب بنائها وانهُ لم يتكلم عليها احد من علماء اليونانيين الا هيرودوتوس وحدهُ وان سواح الافرنج المتاخرين لا زالوا لم يعرفوا هل هذا القلم هو القلم المصري القديم ذو التصاوير او قلم آخر لان القلم الاول هو قلم الاسرار والثاني قلم معتاد ذو حروفٍ هجائية

وقال بعض العلماء النمساويين ان هذه الاهرام كانت نامية في كل الارض فاصطنعها اهل مصر وقالوا ايضًا انه وجد اهرام تشاكلها في الرسم باقليم المكسيك من بلاد اميركا ومنها استدلوا على تقدم اهل تلك البلاد لكونها مثل اهرام مصر عظيمة البناء ولذلك ظن بعض المشتغلين بآثار القدماء وان كان هذا من قبيل الشذوذ ان اصل اهل اميركا من قبائل المصريين جاءوا اليها في زمن الملك سيزوستريس صاحب الفتوحات العظيمة وقد مر ذكرهُ لكنهُ لما لم يفهم صراحة من كلام المورخين ان هذا الملك ذهب الى بلاد اميركا كان قول من قال ذلك هو بمجرد الفرض والتقدير وحيث كان يوجد ايضًا كثير من هذه الاهرام على جهة منابع النيل بعضها من الآجرّ وهي منشورة على خطٍ طوله ٤ فراسخ تسمّى اهرام ابي صير ترجح راي قوم بان هذه الاهرام كانت مدافن للملوك مصر او للثيران المقدسة التي كانوا يعبدونها تحت اسم ابيس لوجودها غالبًا في المحلات التي توجد بها قبور موتاهم وقد مر عليك في تقدم ما عوّل عليهِ المحققون بعد ان فك المعلم شمبوليون المقدم ذكرهُ ذلك القلم الهيروغليفي على ما اشرنا في ما سبق وهو ان الهرم الاكبر بناهُ شوفو واخوهُ نوشوفو مدفنًا لهما وقد تحقق عندهم ذلك من كتابة اسميهما المنقوشة على بعض حجارة الهرم المذكور واما الهرم الاوسط فقد بناهُ الملك شافري والثالث الاصغر بناهُ الملك منقاري لكون اسمهِ وجد كذلك محررًا فيهِ ويقال ان تابوتهُ الان بين الآثار القديمة في مدينة لوندرا وقد ايد ذلك ما كتبهُ ماريت بك الفرنساوي ناظر الانتيقة خانه المصرية في مولفهِ ونصهُ ان الملك كيوبس من ملوك الدولة الرابعة ويسمى في القيودات المسطرة على الآثار بذلك العصر خوفو كان مشغوفًا بحب ابتناء المباني وتشييد العمارات فان اعظم الاهرام الموجودة في الديار المصرية كان قبر هذا الملك وعلى ما قيل ان ١٠٠ الف عامل كانوا يتناوبون العمل في عمارتهِ وكل ٣ اشهر يستبدلون بغيرهم مدة ٣٠ سنة وانهُ في الحقيقة ليس فوق طاقة ارباب الصناعة المتاخرين ان يعملوا نظيرها وانما الذي يصعب ولو في ايامنا

هذه هو ان يبني في داخلها حجرات بطرقات تصل بعضها ببعض ومع ما هو محمول عليها من الاثقال الجسيمة تمكث مدة ٦٠ قرنًا من الزمن على اتم حال بدون ان يعتريها ادنى اختلال اه وكانما قد ضمن مقالتنا هذه كلها القاضي عبد الوهاب المصري بهذه الابيات اذ يقول

امبانيَ الاهرام كم من واعظٍ | صدع القلوب ولم يفه بلسانهِ
اذكرتني قولاً تقادم عهدهُ | اين الذي الهرمان من بنيانهِ
هنَّ الجبال الشامخات تكاد ان | تمتدَّ فوق الارض من كيوانهِ
لو ان كسرى جالسٌ في سفحها | لاجل مجلسهُ على ايوانهِ
ثبتت على حرّ الزمان وبردهِ | مددًا ولم تاسف على حدثانهِ
والشمس في احراقها والريح عنـ | ـد هبوبها والسيل في جريانهِ
هل عابدٌ قد خصها بعبادةٍ | حتى سمت في الجو فوق عنانهِ
او قائلٌ يقضي برجعة نفسهِ | من بعد فرقتهِ الى جثمانهِ
فاختارها لكنوزهِ ولجسمهِ | قبرًا ليامن من اذى طوفانهِ
او انها للسائرات مراصدٌ | يختار راصدها اعز مكانهِ
اوانها وصفت بشوب كواكبٍ | احكام فرس الدهر او يونانهِ
او انهم نقشوا على حيطانها | اعلا بحار الفكر في بنيانهِ
في قلب رائيها ليعلم نفسهُ | فكرٌ يعض عليهِ طرف بنانهِ

يشير بقولهِ اين الذي الى اخر البيت الى قول ابي الطيب المتنبي

اين الذي الهرمان من بنيانهِ | ما قومهُ ما يومهُ ما المصرعُ
تتخلف الآثار عن اصحابها | حينًا فيصرعها الزمان فتتبعُ

هذا ولا باس ان نذكر هنا ما وصل الينا من اخبار بعض ما كان من هذا القبيل من تلك الآثار ولئن طال الكلام في هذا المقام فمن ذلك ما يوجد

بالقرب من اهرام الجيزة المذكورة ويسميهِ الافرنج بالسفنكس واما المصريون الان فيسمونهُ ابا الهول وهو تمثال كبير لهُ راس انسان على جثة حيوان من ذوات الاربع طولهُ نحو ١٢٥ قدمًا واليهِ اشار بعضهم بقولهِ

تامل هيئة الهرمين وانظر وبينهما ابو الهول العجيبُ
كعماريتين على رحيلٍ بمحبوبين بينهما رقيبُ
وفيض البحر عندهما دموعٌ وصوتُ الريح بينهما نحيبُ
وظاهر سجن يوسف مثل صبٍّ تخلّف فهو محزونٌ كئيبُ

ومنها ايضًا المسلات الغريبة وهي حجارة عظيمة ارتفاع احدها ١٩٠ قدمًا قطعة واحدة ويوجد منها الآن واحدة في الاسكندرية ارتفاعها ٦٤ قدمًا والعرب يسمونها مسلة الاسكندرية ومسلة كليوباترا والعامة تقول مسلة فرعون وعليها كثير من الكتابة بالقلم القديم وقد ذكرنا في ما مرّ بانها نُقلت في زمن فرعون طوطميس الثالث سنة ١٧٥١ ق م وقد نقل منها ايضًا واحدة الى رومية مكتوب عليها اسم هذا الملك وهي اعظم من المسلة التي كانت موجودة هناك وتوجد كذلك واحدة ثالثة في القسطنطينية ومنذ مدةٍ نُقلت واحدة رابعة الى انكلترة ايضًا فوصلت الى المحل الذي عينوهُ لها في سنة ١٨٧٨ م

واما عمود السواري الموجود في الاسكندرية (السواري جمع سارية وهي الاسطوانة) فقد قال الامام المقريزي عنهُ بانهُ لم يكن وحدهُ بل كان حولهُ نحو ٤٠٠ عمود كسرها قراجا والي الاسكندرية في ايام السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ورماها بشاطي البحر ليوعر على العدوّ سلوكهُ وان هذه الاعمدة كانت تحمل رواقًا فيهِ خزانة كتب وان ارسطاليس كان اقام في هذا الرواق يعلم الفلسفة ومنهُ اتخذ تلامذتهُ اسم الرواقيين وذكر ايضًا ان طول هذا العمود مع قاعدتهِ ٧٠ ذراعًا وقطرهُ ٥ اذرع وقال آخرون ان طولهُ ٦٢ ذرعًا وكسر وذكرهُ الفاضل العلامة رفاعة بك الطهطاوي فقال انهُ مرتفع نحو ٨٨ قدمًا وانهُ كان من زينة هيكل قديم ثم نُقل هذا الهيكل وصنعوهُ مدرسة كان فيها

خزانة كتب الاسكندرية لان الظاهر ان المدارس وميادين الرياضات كانت بحواشي المدينة الخارجة عن سورها ونقل آخرون عن المسعودي انه راى في جبل اسوان اخا هذا العمود وقد هندس ونقر ولم ينفصل من الجبل وقال ابن خلدون ان الاسكندر المكدوني هو الذي اقام هذا العمود وبنى رواق الحكمة المذكور وقال المحققون من المتاخرين بان هذا العمود يسمى عمود بونبيوس وهو قائد من القواد الرومانيين اقامهُ في سنة ٢٩٦ ب م تذكارًا للملك ديوكليتيان القيصر الروماني الذي كان حاصر الاسكندرية بهذه السنة كما يتضح ذلك في محلهِ

اما منارة الاسكندرية التي ذكرنا في ما تقدم بان بانيها كان بطليموس ستير خليفة الاسكندر المكدوني على مصر نقلاً عمّا رواهُ بعض المورخين فقد يرى اخرون بان بانيها هو بطليموس فيلادلف ابن بطليموس المذكور وذلك في سنة ٢٨٢ قبل المسيح وقد اكثر مورخو العرب ايضًا من ذكرها وجميعهم يتفقون مع الاقدمين بانها معدودة من عجائب الدنيا السبع أُقيمت للاضاءة على البحريين فكان ينظر نورها على بعدٍ عظيم لان ارتفاعها كان ٥٠٠ قدم لكنهم يختلفون كذلك في من هو الذي بناها فمنهم من قال هو الاسكندر المكدوني وبعضهم يزعمون أنّ ملكة يقال لها دلوكة جعلتها مرقبًا لمن يرد بلاد مصر من العدوّ وقال ابن خلدون المغربي ان دلوكة هذه ملكها القبط عليهم بعد غرق فرعون موسى لخوفهم من ملوك الشام وكانت من بيت الملك (لعلها طوسير ابنة منفطا الثاني التي تقدم ذكرها في الكلام على فراعنة مصر) وهي التي بنت على ارض مصر الحائط الشهير بحائط العجوز لان عمرها طال وكبرت جدًّا واتخذت البرابي ومقاييس النيل وقال ايضًا نقلاً عن ابن العميد وغيرهِ من المورخين المسيحيين ان كليوباترا بنت بطليموس ديونيسيوس ومعنى كليوباترا الساكنة على الصخرة وهي اخر الملوك البطليموسية بمصر هي التي حفرت خليج الاسكندرية وبنت بالاسكندرية هيكل زحل وبنت مقياسًا باخميم واخر

بانصتا وبنت ايضاً الفاروس بالاسكندرية وهي المنارة التي نحن بصددها وقد اشار اخرون الى تناصيها فقالوا ان طولها كان ١٠٠٠ ذراع في الهواء وان الوليد احد ملوك بني أمية بعث جيشاً هدم نصفها طمعاً في اموال يجدها فيها وذكر المقريزي ان بعضهم قاس هذا المنار فكان علوهُ ٢٣٣ ذراعاً وهو ثلاث طبقات الاولى مربعة والثانية مثمنة والثالثة مدورة وان ابن جبير يقول ان هذا المنار يظهر من مسافة ٧٠ ميلاً وانهُ لما استولى احمد بن طولون على الاسكندرية بنى عليهِ قبةً من الخشب فاخذتها الرياح وفي ايام الظاهر بيبرس سقط بعض اركان هذا المنار فامر ببناء ما انهدم منهُ في سنة ٦٧٣ للهجرة (سنة ١٢٧٤ م) وبني مكان القبة مسجداً ثم هدم المسجد بحدوث زلزلة في سنة ٧٠١ للهجره (سنة ١٣٠١ م) ثم بني في سنة ٧٠٢ للهجرة (سنة ١٣٠٢ م) وبقي على حالهِ (ولم نقف بعد ذلك في تاريخ من التواريخ على شيء من اخبارها)

وقد بقي علينا ان نذكر اثراً آخر ذكرهُ الفاضل العلامة رفاعة بك الطهطاوي منهُ يُعلم محل قطع هذه الحجارة العظيمة وما كان يكابدهُ المصريون في قطعها ونقلها نظراً لبعدهِ الشاسع ليس عن محلات تلك الآثار التي ذكرناها في الاقليم المصري نفسهِ بل الى ما هو اعظم منها بعداً مع فوائد اخرى غير ذلك وهو انهُ في محل اصوان القديمة توجد آثار هذه المدينة من أعمدة الصوان وبناء مربع مفتوح الاعلا قال بعضهم ان بها كان مراصد الهيئة في قديم الزمان وانهُ ببذل الجهد في البحث يمكن الكشف عن البئر المشهورة التي كانوا يرون في قعرها الشمس يوم الانقلاب الصيفي وبعض الافرنج اثبت عدم امكان ذلك الامر وبما ان هذه المدينة كانت مثل مقدمة الجيش للمصريين في عدّة ازمنة مختلفة نجدها مشتملة على آثار حكام مصر في الزمن القديم والحديث فترى بها هياكل الفراعنة والبطليموسية وقصورهم المخفية في الرمال وقلاع الروم والعرب واسوارهم وفوق هذه الآثار نجد كتابة فرانساوية دالة على ان عساكر متاخري الافرنج وحكماءهم جاءوا اليها وضربوا بها خيامهم ووضعوا فيها خطوطهم ورسومهم

وارصادهم وغير ذلك توجد بها العلالي الصوانية المرتفعة ذوات اللون الاحمر المغبّر المقطوعة كالمسلات ومن هذه المقاطع الحجرية اخذ المصريون احجار برابيهم وهياكلهم وتماثيلهم العجيبة وانتشرت الاعمدة العظيمة في جميع بر مصر وبلاد الشام وغيرها ولم يزل حتى الآن هناك تلك المسلة او البربة التي اشار اليها المسعودي نائمةً في مقطعها ماسكةً فيه تدل على بذل جهد القدماء وصبرهم وتجلدهم في شغل هذه الاشياء

ولنكتفِ بما ذكرناهُ والاَّ لواردنا ان نستوفي ذكر كل ما يوجد في اراضي مصر من الآثار الشهيرة لاحتاج الامر الى مجلدات مخصوصة فان ما ذكرهُ المورخون من ذلك يكاد يفوق التصديق اذ ان كل اراضيها مشحونة من الآثار العجيبة وخراب الهياكل والابنية القديمة التي صارت تلالاً بعد ان كانت مشحونةً باعمدة عظيمة شامخة مرصوفة بكتابات ونقوش وصور . قال بعض السواح ان الانسان اذا مشى بين خرائبها يلهيهِ التامل في الماضي عن ملاحظة الحاضر وتلهيهِ قوة اهلها عن التفكر في فواحشهم اه. ومن اراد التوسع في معرفة ما احتوتهُ هذه الآثار والكنوز من الاشارات والرموز التي تدل على ما كانت عليهِ هذه البلاد من الاحوال في ما مرَّ من سالف الاعصار والاجيال فعليهِ بالكتاب المسمى بقناصة اهل العصر من خلاصة تاريخ مصر تاليف اوغسطوس مارييت بك احد علماء الفرنساويين وناظر مصلحة الانتيقه خانة المصرية المطبوع في بولاق سنة ١٢٨١ هجرية (سنة ١٨٦٤ م)

غير انهُ لا باس من ختم الكلام في هذا المقام بذكر ما ابداهُ اصحاب التدقيق من العرب والافرنج من الملاحظات على ما هو من قبيل هذه الابنية العظيمة التي اعدها المصريون لمقاومة الدهر ونوال مآربهم بواسطتها من تخليد الذكر. قال ابن خلدون المغربي انظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني امية بقرطبة والقنطرة التي على واديها وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء الى قرطاجنة في القناة الراكبة عليها واثار شرشال بالمغرب واهرام مصر وكثير من هذه الآثار

المماثلة للعيان تعلم منهُ اختلاف الدول في القوة والضعف واعلم ان تلك الافعال للاقدمين انما كانت بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الايدي عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع ولا تتوهم ما تتوهمهُ العامة ان ذلك لعظم اجسام الاقدمين عن اجسامنا الى ان قال ولقد ولَع في ذلك القصاص (اي في عظم اجسام الاقدمين الذي اشار اليهِ) وتغالوا فيهِ وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك اخبارًا عريقة في الكذب ومن اغربها ما يحكون عن عوج بن عناق رجل من العمالقة الذين قاتلهم بنو اسرائيل في الشام زعموا انهُ كان لطولهِ يتناول السمك من البحر ويشويهِ الى الشمس الى ان قال انما مثار غلطهم في هذا انهم استعظموا آثار الامم ولم يعلموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوهُ الى قوة الاجسام واما ما ذكرهُ المسعودي نقلاً عن الفلاسفة مزعمًا لامستند لهُ الى ان قال ونحن نشاهد مساكن الاولين وابوابهم وطرقهم في ما احدثوهُ من البنيان والهياكل والديار كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيوتًا صغارًا وابوابها ضيقة لاتزيد في جوّها ومساحتها على المتعاهد الان وقال غيرهُ من العرب ايضًا في ملاحظاتهِ على منارة الاسكندرية التي مر ذكرها يمكن ان يكون هذا المنار بيتًا لرصد النجوم مبني على اسلوبٍ غريب وطرز عجيب بواسطة قوةٍ جبْرية على العُمّال كما يحكم على نظائرهِ من الاعمال وقال وولتير المولف الفرنساوي المشهور في بعض مولفاتهِ ويلتزم ان يعترف الانسان بان تكاليف بناء اهرام مصر لم يتكلف على ملوكها سوى ما كان ياكلهُ العملة من البصل

ومما يترجح في الفكر حملهُ على الغاية المذكورة ايضًا قضية تحنيط الاموات ولئن قال بعض المولفين ان المصريين كانوا يعتقدون ان حفظ رمة الميت تكون سببًا في سعادتهم ونشأ من ذلك اعتناؤهم بتصبير الاموات وتحنيطهم على وجهٍ عجيب حتى انهُ الى الان يوجد في مصر رمم القدماء ومن العجيب انهم كانوا ينفرون من تلك الرمم بعد تصبيرها. قال ابن خلدون وصورة هذا العمل انهم

كانوا يدهنون الجثة بالبلسان ويدفنونها في الكهوف والسراديب المنحوتة في الصخور على شاطي النيل فمتى مات شخص سلموا جثتهُ للمحنطين فكانوا يخرجون احشاء الميت ودماغهُ على وجهٍ محكم وينقعون الجسد في موادٍ مصطكائية بها خاصة حفظ الجسم قرونًا متعاقبة ثم يلفونها في عصائب فتسمى موميا ويدفنونها مع تابوتٍ مزين او صندوق على صورة الموميا واما قبور الملوك والاكابر فانها تكون في سراديب مخصوصة منحوتة في الحجر منقوشة الظاهر بنقشٍ يدل على مرتبة الميت وعبادتهِ وقد يلتقي في بعض هذه المقابر اصنام موضوعة بقرب الميت وقد يُطّلع في بعض الاحيان في كفن الموميات على قراطيس من ورق شجرة اوراق الكتابة مكتوب فيها تماثيل وصور دالة على معنى قيل ان فيها نبذة مختصرة متضمنة حياة الميت وما عملهُ فيها ولكن لا احد الى الان يصل الى فهمها ويوجد في هذه الموامي ايضًا صورة خنافس مصنوعة من حجر اليشب او الصوان والرخام الاحمر وفيها ايضًا فواكه ودواب مصبرة واذا كان الميت انثى غنية زينوها بحليها والبسوها شيئًا تنعزل فيهِ مفاصلها فلا يدرجونها في ثوبٍ سادج بل على صورة الاحياء وصندوق الميت يكون من خشب الجميز ويزينونهُ داخلًا وخارجًا ويضعون على القبر رخامة معنونة باسم الميت ورتبتهِ. انتهى كلامهُ.

وذكر بعض الافرنج صناعة التحنيط هذه فقالوا انها كانت باخراج دماغ القحف من المنخرين واخراج الامعاء الا القلب والكليتين من ثقبٍ في الخاصرة ثم يغسلونها بخمر النخل ويردونها الى اجوافها ويملأُون الراس واجواف الامعاء بالمر والقرفة وكل انواع الاطياب والعطور ويدهنون الجسد بالزيوت العطرية مدة ٣٠ يومًا ثم يوضع في ماء ناترون ٤٠ يومًا ثم يلف بلفائف مغموسة بالمر وتدهن اللفائف من خارج بماء الصمغ للوقاية من الهواء ثم يوضع في تابوت من خشب او من حجر ويدفع لاهلهِ الذين يقنونهُ في بيوتهم او يضعونهُ في مدفن ومن هذه الاجسام ما هو باقٍ الى ايامنا هذه فان اهالي المنوفية يستخرجون هذه الاجسام من المدافن الكائنة نواحي الاهرام المسماة اهرام ابي صير ويبيعونها

للاطباء فهي المعروفة بالمومية الادمية (يقول مولف هذا الكتاب انني لما رجعت من القاهرة الى طرابلس الشام وطني الاصلي في سنة ١٣٤٧ للهجرة (سنة ١٨٣١ م) مررت في طريقي على الاسكندرية واقمت فيها مدة سنة دخلت في اثنائها احد المخازن وكان مملوًا من هذه المومي بجميع انواعها فكان من جملة ما رايتهُ امراة شابة موضوعة ضمن صناديق بعضها داخل بعض وقد برح من ذاكرتي ان كانت تلك الصناديق اثنين او ثلاثة وكل صندوق من تلك الصناديق كان نظير الآخر في صناعتهِ وما هو مرسوم عليهِ من النقوش وعلى غطاء الصندوق صورة تلك الامراة التي كانت ضمن الصندوق الداخلي الاان الصندوق الخارجي كان قد اسودَّ وتهرَّأ اما الصندوق الداخلي المذكور فكان كانهُ مصنوعٌ لوقتهِ نظرًا لبياض اخشابهِ وحسن ما عليها من الصورة والنقش والصقال وكانت المراة كالنائمة ولون وجهها لم يتغير ذو بياضٍ مشوب بحمرة غير متاثر من ذبول المرض والموت وكان هدب عينيها مسبلاً على اجفانها المطبقة كانطباقها للنوم وشعر راسها وحواجبها لم تتلف منهُ واحدة وكانت اعضاؤُها تستبين كانها عريانة لشدة اندماج العصائب عليها واتقان لفها حتى ان اظفارها وثنيات عقد اصابعها الدقيقة كانت تلوح ظاهرة ظهورًا بينًا تحت هذه اللفائف المتقنة التي خرق طرفها احد اصحابي وكان متفرجًا معي فسمع لها صوت وظهر منها غبار كما لو كانت ماخوذة لوقتها من حانوت بائعها)

وكما ان ما ذكرهُ المورخون عن كثرة مدن مصر وابنيتها يكاد يكون من المبالغات لولا تلك الآثار الباقية فيها الى الآن كذلك اهاليها الذين هم الان نحو مليونين من البشر فانهُ يقال بانهم كانوا في الزمن السابق ٢٨ مليونًا ولكن مع ذلك قد حقق بعضهم انهم لم يزيدوا اصلاً على ٦ ملايين حدًّا وسطًا

واراضي هذه البلاد كلها مروية بنهر النيل الذي يجري في واديها ولا يوجد بها ماء يصلح للشرب غيرهُ والى الان حتى عُرف مخرجهُ وقبل دخولهِ الى مصر يتعرض لجريانهِ صخور فتحدث نوع من الشلالات تسمى جنادل النيل وهي

ثلاثة الاول منها في بلاد دنكلة والثاني في بلاد النوبة والثالث عند دخول النيل الى مصر وهو يبتدي في الزيادة عند الانقلاب الصيفي ويصل الى اعلا درجة الارتفاع عند الاعتدال الخريفي فيستمر على ذلك عدة ايام ثم ياخذ في التناقص الى الانقلاب الشتوي قال بعض الجغرافيين ان علة فيضهِ في ذلك الوقت هي وقوع الامطار الغزيرة في الجبال المجاورة لمخارجهِ وقد اشار الى ذلك الامير تميم بن المعز بقوله

اما ترى الرعد بكى واشتكى　　والبرق قد اومض واستضحكا
فانظر الى غيمٍ كصبغ الدجى　　اضحك وجه الارض لما بكى
وانظر لماء النيل في مدِّهِ　　كانهُ الصندل قد مسكا

ثم ان لم تفق زيادة هذا النهر ٨ اذرع او فاقت ٢٤ ذراعًا فان مصر تقاسي القحط ولذلك يقال عن بركة قارون او بحيرة قارون وتسمى بحيرة موريس ايضًا وهي في الفيوم بالقرب من الترعة التي يقال لها خليج يوسف انها محتفرة بالايادي في الزمن القديم وان مياهها حُفظت بواسطة سدٍّ في طرفها واستعملت لسقي الارض المجاورة لها . ومنهُ استظهر بعضهم بان المصريين هم الذين اخترعوا عمل البحيرات وانهم عملوا هذه البحيرة واعدوها لصرف مياه النيل الزائدة عن اللزوم واطلاقها عندْ الحاجة اليها وهي اعظم ما يستحق مخترعهُ ان يستمرّ ذكرهُ ويدوم فخرهُ . وعين بعضهم من عملها بانهُ كان في ايام ملوك العرب اولي المواشي الذين سبق ذكرهم ولما كانت اخبار القدماء ليست بمتفقة على ما يتعلق بها . قال بعض المدققين من الافرنج انها مجمع مياه عظيمة وجدهُ سيَّاح هذه الازمنة بين الجبال جهة الجنوب على غربي النيل غير ان ماريت بك يقول الان ان الذي عملها هو الملك امونمحي الثالث من ملوك العائلة الملوكية الثانية عشرة وقد مر ذكرهُ انتهى وهيَ بحيرة متسعة جدًّا طولها نحو ٢٠ ميلاً وعرضها نحو ٦ اميال وقد ذكرت في الجزء الاول من تاريخ نابوليون الاول المترجم من اللغة الفرنساوية الى التركية بمصر ولم يذكر فيهِ اسم المولف الاصلي

وخلاصة ما قالهُ فيها مترجمًا انهُ يوجد في وسطها جزيرة صغيرة كانت اهالي مدينة ازسينوه وتدعى الآن فوة يدفنون فيها موتاهم ولهم فيها مقابر معدة لكلٍّ بقدر حالهِ وفي وسط الجزيرة هيكل للعبادة لازال موجودًا الى الان وهذه الجزيرة المجهولة مدينة للاموات هي اشبه بالمدن المسكونة بالاحياء غير انهُ لايمكن العبور اليها من جهةٍ لاحاطتها بالماء وكان خازن هذه الجزيرة رجل يقال لهُ قارون فاذا مات رجل من الكبراء شيعهُ اهلهُ باحتفال عظيم بعد تحنيطهِ (على الوجه المقدم ذكرهُ) الى محلٍ مبني على شاطي البحيرة معدًّا لهذا الامر ويتركونهُ هناك بعد ان يجعلوا فوقهُ اعلانًا باسمهِ ودراهم ياخذها قارون اجرةً لهُ فياتي قارون وينقلهُ في فلكهِ الى الجزيرة ويدفنهُ في المحل المعين لهُ انتهى

وبعد انحدار ماء النيل من الاراضي تراها مكتسية بالطين الذي يرسب عليها منهُ وهو يدملها ويقويها على تغذية النبات والزروع وكلما زاد فيض النيل زاد الخصب وفي ذلك يقول ابو الحسين المعروف بابن الوزير

اری ابدًا كثيرًا من قليلٍ ... وبدرًا في الحقيقة من هلالِ
فلا عجب فكل خليج ماء ... بمصر مسببٌ لخليج مالِ
زيادة اصبعٍ في كل يومٍ ... زيادة اذرعٍ في حسن حالِ

ولذلك جرت العادة الى يومنا هذا بان يكون لكلِّ صقعٍ من اصقاع مصر وحاراتها منادٍ يطوف صباحًا على كل بيتٍ من البيوت بمفردهِ وبعد ان يحيي بتحية الصباح كل ذكرٍ يوجد في ذلك البيت باسمهِ يبشرهم اجمالاً بمقدار الزيادة الحاصلة في النيل ذلك اليوم ولايزال على هذا مدة الفيضان حتى تنتهي فيجمع منهم جوائزهُ

وحيث ان هذا الفيضان لابد ان يتسبب عنهُ اختلاط الحقول والمزارع والاراضي في كل سنةٍ كما لا يخفى كان هذا الامر بخصوصهِ داعيًا الى تقدم المصريين في علم الهندسة وبنوعٍ اخص المساحة والزامهم ان يبذلوا جهدهم الى

ان صاروا يمسحون الارض مساحةً صحيحة ويقيسون زيادة ماء النيل ويعرفون مقدارها وكانوا تلقنوا هذين العلمين من رجل يقال له ابونيس وهو هرمس الذي سبق ذكرهُ فنظموهُ في سلك الالهة على ما اشرنا هناك

وكما علمهم ابونيس المذكور ذينك العلمين علمهم كذلك معرفة سير الكواكب باستعمال الالات الهندسية الى ان صارت الجغرافيا وعلم النجوم مقصدهم الاعظم فقسموا سنتهم الى ١٢ شهرًا قمريًا لان سنتهم كانت ٣٥٤ يومًا على حساب القمر ثم جعلوها ٣٦٥ يومًا وبعض ساعات على حساب الشمس وقيل انهم كانوا يتركون هذه الساعات الى ان يجتمع منها في كل ١٤٦٠ سنةً سنةٌ كاملة فيكبسونها دفعةً واحدة وكانت اسماء شهورهم في الزمن القديم تختلف عن الاسماء المستعملة عندهم الآن فكانت على ما رواهُ الامام المقريزي تسمى توت بوني اتور سواق طوبي ماكير فامينوث برموتي باحون باوني افيعي ايفا فلما استعملوا الكبس ابدلوها فقالوا توت بابه هاتور كيهك طوبي امشير برمهات برموده بشنس باؤونة ابيب مسرى وحيث انهم جعلوا كل شهر منها ٣٠ يومًا فجعلوا الخمسة ايام التي تبقى من السنة البسيطة او الستة من السنة الكبيسة نظير شهر مستقل وسموها ايام النسي ويسمون اول يوم من توت وهو راس سنتهم يوم النيروز (والظاهر انهم اخذوا ذلك عن الفرس بعد ان استولوا على مصر ومعناهُ بلغة فارس اليوم الجديد) وهو يقع دائمًا في ٣٠ من شهر آب الرومي فمتى عرفت ذلك عرفت مواقع اوائل شهور القبط كلها ويقال ايضًا انهم كانوا مثل اهل فارس لا يستعملون الاسابيع من الايام في الشهر واول من استعملها هم اهالي برّ الشام وما حواليهِ نقلاً عن اليهود الذين اخذوا ذلك من الكتاب المقدس حيث ذُكر في سفر الخليقة ان الله خلق السماوات والارض في ستة ايام واستراح في اليوم السابع وانما كان المصريون يستعملون لكل يوم من الشهر اسمًا كما هو العمل في تواريخ الفرس وداموا على ذلك الى ان اضطرهم القيصر يوليوس اغسطوس الروماني على كبس يومٍ في كل اربع سنين فترك المصريون حينئذٍ

استعمال اسماء الايام الثلثين لاحتياجهم في يوم الكبس الى اسم مخصوص له واستعملوا الاسابيع . قال بعض المولفين ان هذين العلمين (اي الجغرافيا وعلم النجوم) قد سببا الفساد في علوم المصريين حتى الطب ايضًا

وكان هناك رجل اخرابنة اوزرليس نظمهُ المصريون في سلك الالهة ايضًا لكونهِ اخترع آلة الحراثة وبالاجمال يقال ان المصريين هم اوّل من استعمل الحديد والنار وكان ذلك مجهولاً لغيرهم واخترعوا الخبز للطعام وصبغ الزجاج بالوان متنوعة كلون الزمرد والعقيق وغيرها

وكانوا يتقنون الطب اتقانًا جيدًا بحيث ان الطبيب كان لا يتفرغ عندهم الا لمعالجة مرضٍ واحد من الامراض وهم اوّل من استعمل الضمادات في سنة ١٤٩٤ ق م غيران تعلقهم في علم الفلك وصناعة السحر قد افسد هذه الصناعة فزعموا ان للاجرام السماوية دخلاً في امراض البشر وكانوا يتخابرون مع الارواح في تطبيب المرضى كما يفعل السبيرتزميون الآن في اوربا

وكانت الحرف والصنائع تتوارث بينهم فلا يوذن لاحدٍ في غير حرفة ابيهِ وكانوا يعرفون الفنون العظيمة قبل اجتماع العبرانيين وصيرورتهم شعبًا فكانت ترى في مصر الاقمشة الرفيعة واواني النقش البديعة ولهم اليد الطولى في صياغة الذهب والفضة وكانوا يصطنعون منها خواتم نفيسة وقلائد ثمينة يبيعون ويشترون بها ويحسنون عمل كل شيء مليح غيران غيرتهم كانت قليلة ولذلك كان تقدمهم بطيئًا ولم يبلغ عندهم اتقان الاشياء الغاية

واما تجارتهم فكانت مخصرة في غلاتهم ومحصولاتهم وكان لهم اتصال مع الهند بواسطة بلاد العرب فكانوا يرسلون الى تلك النواحي ما راج عندهم من الحبوب والمواشي والفخار والزجاج ويستبدلون بذلك منهم العطر والبهار والياقوت وغيرهُ

والظاهر انهم ارتشدوا بذات الطريقة التي ارشدت الصينيين الآتي ذكرهم الى الانقياد للحكم الملوكي المسمى سلطنة وهي حكم الاباء على ابنائهم فكما ان لكل

عشيرةٍ رئيساً يحكمها وحده' انتخبوا لسائر الاهالي عندهم رئيساً يكون حاكماً عليهم بحكم الاب وهو الملك

وكانت القوانين هي التي ترشد ملوك مصر الى الاحكام اما وضعها فكان مختصاً بالكهنة فقط ولذلك لما قسم سيزوستريس الملك اراضي مصر الى ٣٦ اقليماً على ما سبقت الاشارة اليهِ في محلهِ قسم هذه الاراضي ايضاً بين الملك والكهنة والعساكر وترك الرعية يتعيشون من اشغالهم فنشأ من ذلك قوة الكهنة حتى صاروا وحدهم يمارسون العلوم وزادت شوكتهم الى ان استقلوا بوضع القوانين على ما ذكرنا وكان من وظائفهم ايضاً مسح الاراضي وتقسيط الخراج على الناس اما هم فلا يدفعون شيئاً عن املاكهم وكان لكلٍ منهم كل يوم قسم من اللحوم المقدسة ومن لحم البقر والاوز غيرانهُ لم يسمح لهم ان ياكلوا سمكاً وكانوا يحافظون جداً على نظافة اجسادهم وملابسهم وكانوا يحلقون شعر اجسادهم كل ٣ ايام ولا يلبسون الا ثوباً من كتان وكانوا يغتسلون بماء بارد مرتين في النهار ومرتين في الليل ايضاً وكان كبير الكهنة ياتي كل يومٍ الى الملك ليحثهُ على استعمال الفضائل الملوكية ويلعن من صرفهُ عنها وكانت الرعية تشهر احوال الملك بعد موتهِ كسائر افراد الرعية فمن كان من الملوك سلوكهُ سلوك جورٍ لا يدفنون جثتهُ وقد جرى ذلك لكثيرين من الفراعنة الذين حرموا لقبائحهم من واجبات الدفن الاحتفالية في قبورهم التي كانوا يصرفون زمناً طويلاً في تزيينها داخل الاهرام ولذلك كان انتخب الملك سيزوستريس المذكور من تخوت مصر الثلاثة ٣٠ قاضياً تكونت بهم محكمة لها غاية الاحترام وجعل مصاريف المحكمة عليهِ نفسهِ وحلفهم ان لا يطيعوهُ اذا امرهم بشيءٍ فيهِ ظلم وكانت مذاكرة القضايا تجري بينهم بالكتابة خوفاً من ان الفصاحة تستر الحق وكان لهم صورة يسمونها تمثال الحقيقة متى ظهر الحق بيد انسان امسكها رئيس القضاة وامر المحق ان يلمسها

وكان لهم احكام غريبة وعوائد عجيبة تدونت في تواريخهم ودفاتر شرائعهم منها انهُ اذا احتاج انسانٍ الى اقتراض مبلغ يجوز لهُ ان يقترض ويرهن في

نظير دينهِ جثة والدهِ المدفون فيكون قبر ابي المديون تحت يد الدائن الى وقت استحقاق المال فاذا لم يفِ المديون دينهُ ومات حُرِم من دفنهِ في مقابر والديهِ وتحرم اولادهُ ايضاً ما لم يوفوا دين والدهم واما فيما عدا ذلك فيكون محل توفية الدين اموال المدين فلا تسلط للدائن على ذات المدين وكانوا يضربون الزاني الف عصاً واما الزانية فيقطعون انفها ويوسمون العسكري الذي يجبن في الحرب بعلامة ظاهرة ومن كان يمكنهُ تخليص مقتول من يد قاتلهِ ولم يخلصهُ عوقب بالموت والقتيل الذي يوجد بين البلاد يلزم اقرب المدن لمحل وجودهِ عمل جنازةٍ عظيمة لهُ ذات مصاريف كثيرة وكانوا في كل سنةٍ يسالون كل انسانٍ عن كسبهِ فان ظهر لهم انهُ تعيش على خلاف الجائز عوقب بالموت وكانوا يبغضون الاجانب بغضاً عظيماً فلا يجالسونهم ولا يتناولون معهم طعاماً حتى ولا ياكلون طعاماً قُطع بسكاكين الغرباء واذا مات احد من الاشراف تمرّغ نساء بيتهِ واقاربهِ وجوههنَّ بالوحل ثم يقرعنَ صدورهنَّ ويطفنَ في المدينة صارخات باكيات وهكذا يفعل الرجال ايضاً وبعد ذلك يأتون بالجسد الى المحنطين ثم بعد التحنيط يصير القضاء على الميت وهو انهم يأتون بالجثة الى امام كرسي القضاة فان كان الميت من اهل الصلاح والتقوى وجاء من شهد بذلك برز القضاء بدفنهِ مكرماً وان كان ذميماً قبيحاً دُفن على خلاف اللائق ولو كان من اعظم الاشراف

وخلاصة ما قيل بحقهم على وجه الاجمال هو ان مملكتهم من اقدم الممالك واقواها سطوةً وان كانت ليست منشأً للعلوم لكنها كانت حافظة لها حتى فاقت اهل الازمنة القديمة ويمدحون بكونهم كانوا ذوي معارف عظيمة وخصالٍ صلحية وبرٍّ بوالديهم ولا يحبون نقض العوائد الثابتة غير ان علومهم لم تبلغ درجة كمال لكونهم ارباب جبن وبدع ويحتقرون كل ما لم تجرِ بهِ عادتهم واذا صح ما قيل من ان الصينيين هم في الاصل نزلة من نزلات المصريين هاجروا الى الصين وبهم تاسست تلك المملكة فتكون هذه الخصال صاحبتهم الى تلك البلاد ايضاً

نظرًا لما يحكى بمثلها في اخلاق اهل الصين كما يعلم ذلك مما ياتي بخلاف العبرانيين واليونانيين الذين لم يكتسبوا من المصريين الا ما كان نافعًا ومفيدًا

المعارف في الصين

ان هذه المملكة من اقدم ممالك الارض واعظمها لكن تاريخها من اسقم تواريخ الدنيا واظلمها فلا يعتمد عليهِ نظرًا لما يتضمنهُ من الخرافات والحكايات الغريبة البعيدة عن التصديق ولذلك كان في كلام محققي المولفين الذين تكلموا على هذه المملكة اختلاف من جهة تاسيسها اذ منهم من يقول ان اصل الصينيين فرع من المصريين لان هذه المملكة لم تحدث وتصير مملكة الاَّ في سنة ١١٩٧ ق م لما عمرت من اهالي مصر الذين هاجروا اليها ونزلوا بها فاصلهم يكون من قبائل مصر من قدماء القبطة وذهب الاكثرون الى ما هو جدير بالتصديق اكثر من ذلك فقالوا ان تاريخها يمتد من سنة ٢٢٠٠ ق م وان الذين اسسوها هم اولاد نوح وذلك عند تفرقهم تحت تدبير ياهو الذي خلفهُ كون وقيل ان موسسها هو فوهي الذي يظنونهُ بانهُ نوح نفسهُ ولكن يعسر البرهان على ذلك اما اهلها فيزعمون بانهم اقدم من ذلك بكثير

ولم تُعرف عند سكانها باسم الصين الى سنة ٢٥٠ ق م اذ كان ملكها حينئذٍ يدعى تسين وهو من عائلةٍ مشهورة عندهم اما في غير محلات كالهند والعرب والعجم وباقي ممالك اسيا فلم تُعرف الاَّ بهذا الاسم او ما يشبههُ كجن او تشن او سنّ او سينا وهلمَّ جرًّا وربما اخذوا هذا الاسم من نبوة اشعيا ص ٤٩: ١٢ حيث يذكرها ارض سينيم واما اهلها فكانوا يسمونها باسماء كثيرة اشهرها تيان هيًّا اي تحت السماء ومعناها الارض او سزهالي ومعناها الاربعة بحور او تشنّ كوه جن ومعناها المملكة المتوسطة

وهم يحسبونها افضل قسمٍ في الدنيا وهي في الحقيقة اعظم قسمٍ لان مساحتها تبلغ نحو ٧ ملايين ميل مربع وعدد سكانها يبلغ نحو ٣٦٧ مليونًا من النفوس وذلك يساوي ثلث البشر يموت منهم كل شهر نحو مليون واحد قال بعض كتبة الافرنج لو ان اهل الصين مرّوا امامنا صفوفًا خمسة خمسة نهارًا وليلاً بدون انقطاع وهم يمشون حسب المشي الاعتيادي لاحتاجوا الى ٧ سنين لتكميل هذا المرور

وحكومة هذه البلاد التي لها لحد الان اكثر من ٤ آلاف سنةٍ على حالةٍ واحدة لم تتغير وهي دائمًا مملكة حاكمها واحد بالاجماع وقد عدّ المورخون دولها الى هذا اليوم فكانت ٢٢ دولة لكن لا يوجد بين اخبار ملوكها القدماء شيء يستحق الذكر الاّ الى زمن دولة تشين او هي تشاو التي استولت على السلطنة من سنة ١١٠٠ ق م الى سنة ٢٤٩ ق م غير ان بعض المولفين يقول نقلاً عن تواريخ الصينيين بان فوهي موسس مملكتهم في سنة ٢٦٥٠ ق م علم الاهالي تربية المواشي والكتابة وقسّم السنة وقرر الزواج وحيث كانوا يستعملون في كتابتهم الحروف الهيروغليفية فكانوا يرسمون راس انسان مقرونًا بجثة حيّة للدلالة على رئيس امتهم فوهي المذكور لما كان عليهِ من الحكمة والدراية في سياسة المملكة وكانوا يرسمون راس ثور مقرونًا بجثة انسان للدلالة على اول من ادخل صناعة الحراثة والزراعة الى بلادهم ووضع النير على اعناق الثيران ولم تبرح ملوك الصين تتقلد ملكهم فوهي المشار اليهِ الى يومنا هذا ثم في زمن تملك دولة تشين المذكورة ظهر اول فلاسفتهم المعتبرين المسمى كونُ فوتس او كون فوشو وهو معروف عند البعض باسم كونفوسيوس وفي بعض التراجم العربية كنفزة وكانت ولادتهُ في السنة التي ولد فيها قورش ملك مادي وفارس فيكون معاصرًا لعزرا الكاهن الاسرائيلي وهيرودوتوس المورخ اليوناني وكانت وفاتهُ سنة ٤٧٩ ق م فيكون عاش ٧٠ سنة وكتب جملة تآليف في الدين والآداب والسياسة لم تزل موجودة الى هذا اليوم ويعتبرها الصينيون اعتبارًا عظيمًا كاساس ديانتهم

وآدابهم وفي ما ذكرناهُ عنها في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف كفاية عن تلخيص ما تضمنهُ هنا غير انهُ لولا هذه الكتب لما علم عند المتاخرين شيء من تاريخ الصين القديم وهذا الفيلسوف هو اوَّل من انعكف على اصلاح بلادهِ وشرائعها واصطلاحاتها وانمى فيها اسباب التجارة والزراعة وهو وهيرودونوس المذكور بحسبان عند العلماء ابوي التاريخ والاكثرون يفضلونهُ على الثاني لانهُ ما عدا كتاباتهُ التاريخية ترك لبلادهِ تعاليم ادبية اتت بفوائد كثيرة من وقت ماتهِ الى الآن ثم في مدة تملك الدولة الثانية وهي دولة تسن التي خلفت الدولة المقدم ذكرها من سنة ٢٤٩ ق م الى سنة ٢٠٥ ق م شرع في بناء سور الصين المشهور في سنة ٢٢٠ ق م بامر الملك سيهوانكتي وقيل سين شاسي وفي بعض المولفات لم يذكر اسمهُ بل مذكور بانهُ اول ملك من ملوك تسين وانهُ اكملهُ في ١٠ سنين ويوجد في ذلك اختلافات بين المورخين انما المعوَّل عليهِ هو ما ذكرناهُ هنا والعرب تسمي هذا السور بالسد الاكبر او سد الاسكندر وهو مما يتعجب منهُ ومن الناس من يعدهُ من عجائب الدنيا السبع على ما قد ذكرناهُ في الكلام على الكلدانيين وقد ذكروا ان طول هذا السور مع تعاريجهِ نحو ١٥٠٠ ميل وارتفاعهُ ما بين ٢٠ — ٢٥ قدمًا وسمكهُ عند اسفلهِ نحو ٢٥ قدمًا وعند اعلاهُ نحو ٢٠ قدمًا وفي راس هذا السور درابزون على دائرتهِ علوهُ ٥ اقدام وفي مسافة كل ٣٠٠ ذراع برج علوهُ ٤٠ قدمًا وسمكهُ مثل علوهِ وهو مبني من الحجارة المنحوتة من الصوان ومن القرميد المشوي وسطحهُ مصفح بالقرميد الكبير ثم داخل السور الاول سور ثانٍ مثلهُ غير ان طولهُ ٤٠٠ ميل وقد زيد على الاول سور من الاخشاب طولهُ ٥٠٠ ميل لكنهُ ليس بقديم وهو برسم على الخارطات الكبيرة العظيمة ويمر على الجبال المستوعرة ويخترق الاودية العميقة ويمتد من اقليم شنسي الى البحر الاصفر والسبب الذي الجأ هذا الملك الى بنائهِ هو ليرد عن بلادهِ مهاجات التتار انما اراد الله عكس ذلك لان الملوك الذين جلسوا على كرسي الحكومة الصينية منذ ٢٥٠ سنةً الى الان هم من ذات

هولاء التتار الذين اراد منعهم وقال بعض المورخين ان هذا السور لم يبقَ على بنائهِ القديم بل بني وهدم عدّة مرات على حسب اقتضاء سياسة تلك المملكة فاذًا الموجود الآن غير قديم فلا عجب من بقائهِ الى الان ويحكى ايضًا عن هذا الملك الذي بناهُ بانهُ عند فراغهِ من بنائهِ ازداد تعجبًا بنفسهِ وافتخر على من تقدمهُ من الملوك والسلاطين واخذ يعامل الناس بالقساوة والجبروت واذ كان يريد اطفاء خبر الاولين ومن سبقهُ من الملوك ويظهر للتاخرين بانهُ هو اوّل سلاطين الصين لم يرَ سبيلاً الى ذلك الاّ اعدام المورخين واتلاف قيود المملكة فامر احد الايام بدفن ٤٠٠ رجل من العلماء وهم في قيد الحياة ثم امر ايضًا بحرق كل الكتب والتواريخ الموجودة في خزائن المملكة وكذلك بعد انتهاء هذه الدولة قامت دولة اخرى تعرف بدولة هان وذلك من سنة ٢٠١ ق م الى سنة ٢٦٤ ب م وهي التي من ملوكها الامبراطور فاني والبعض يقولون انهُ كوانك الذي كان على غايةٍ من الخفة والطيش وكان يكره الموت ويودّ الحياة فاخذ يبحث ويفتش على طريقة تدفع عنهُ شرب كاس الموت وبعد ان صرف زمانًا طويلاً في الامتحانات المحالية كاستعمال المعاجين المقوية والمشروبات المنعشة ادركتهُ المنية فخاب سعيهُ ثم جلس بعدهُ ملك اخر وكان مغرمًا بمطالعة التواريخ والاخبار ولذلك اهمل مصالح المملكة وانعكف على الدرس والقراءة فبغضهُ وزيرهُ وهيج الشعب لقتلهِ اما هو فبعد ان تحقق ذلك برأي العين عاد الى مكتبتهِ واضرم بها النار فاحترقت وكان عددها نحو ١٤٠ الف مجلد ثم هجم عليهِ الشعب وقتلوهُ وقال بعض المولفين ان في سنة ٥٢ ب م احدث فوّة ملك الصين (وهو ولا بد من ملوك هذه الدولة) مذهبًا مخصوصًا يسمى دين فوّة فاعتقد الصينيون بانهُ اله وبرونهُ منجي الناس من الذنوب وفي سنة ٦١٧ ب م جلس ملك آخر يدعى سيكوبن وبنى لنفسهِ قصرًا عظيمًا من ابهج القصور المزخرفة واتقنهُ اتقانًا خارجًا عن حد العادة وطلى حيطانهُ بماء الذهب وفرشهُ بانواع المفروشات الثمينة والامتعة الفاخرة فلما مات دخل ابنهُ الى هذا القصر فاندهش

من فرط حسنهِ وجمالهِ وقال في نفسهِ ان وجود هذا القصر مما يفسد عقول الملوك ويزيدهم في التكبر والنخفخة ومن ثم امر بحرقهِ فأُحرق وفي سنة ١٠٠٠ ب م جلس على كرسي المملكة رجل شهير بالمعارف والآداب يُدعى شوانكتسون وكان على جانب عظيم من الزهد والوداعة وكمال الاستقامة وكان ذا حكمةٍ وفراسةٍ مطبوعًا على مكارم الاخلاق حريصًا وساهرًا على جلب الراحة للبلاد والعباد فاحبهُ رعاياهُ ومن جملة مزاياهُ الغريبة انهُ كان ينام على بساط الارض بدون فراش ويربط في عنقهِ جرسًا بحيث اذا تحوَّل من جهةٍ الى جهةٍ وهو مستغرق في نومهِ يستيقظ بصوت الجرس معتبرًا ذلك الوقت وقتًا مناسبًا لقيامهِ من النوم ثم في سنة ١٢١٠ ب م زحف جنكيز ملك التتار والمغول بجيوشهِ واستولى على جانب عظيم من هذه المملكة ولما اكمل ابنهُ قوبلاي خان افتتاحها اسس فيها مدينة باكين واستمرت البلاد تحت تسلط ذريتهِ الى سنة ١٣٦٨ ب م حين استخلصتها منهم العائلة المعروفة بدولة مينك التي في ايامها ابتدأ دخول الاجانب الى بلاد الصين واول من دخل اليها كان البورتغاليون وذلك في سنة ١٥١٦ ب م وهم الذين فتحوا الباب لدخول باقي الدول الافرنجية ثم تبعهم الفلمنكيون سنة ١٦٢٤ ب م ثم الانكليز في ذلك القرن ذاتهِ ثم المسكوب ثم الفرنساويون والاميركانيون ولكنهم لم ياخذوا مركزًا ثابتًا في تلك البلاد نظرًا لبغض الاهالي مخالطة الاجانب ومن سلاطين هذه الدولة الامبراطور شنكتا الذي جلس على سرير الملك سنة ١٥٢٢ ب م وفي ايامهِ ظهر معدن من الحجارة الكريمة في تلك البلاد واخذ الاهالي في حفرهِ وتقطيعهِ فلما جاء احد الناس ذات يوم الى هذا الملك ببعض قطع منهُ التفت الى من حولهُ بعد ان اخذها من يدهِ وعاينها وصاح باعلى صوتهِ قائلاً لهم اتظنون ايها الناس ان هذه الحجارة كريمة قالوا نعم انها كريمة ونفيسة قال اذا كان الامر كما تزعمون فلا بد ان يكون لها نتائج مفيدة فاخبروني اذًا ما هي فوائدها اتستطيع ان تشبع جائعًا او تكسو عريانًا ثم امر بتعطيل ذلك المعدن وردمهِ وان يشتغل اولئك الناس في عمل اخراهم

وانفع ثم في سنة ٦٤٥ اب م طردت هذه الدولة قبيلة من التتار المانشو المعروفة بدولة تانسينك وهي الباقية الى ايامنا هذه ومن ملوكها الامبراطور كنكهي الذي في ايامهِ دخلت الديانة النصرانية الى البلاد بواسطة الرهبان اليسوعيين واذ كان يميل اليها اصدر امرًا ملكيًّا في سنة ١٦٩٢ يمنح بهِ معلميها جملة امتيازات ثم قرب اليهِ احد الرهبان المذكورين وجعلهُ مستشارًا لهُ فكان نفوذهُ عظيمًا في البلاد واجتهد اليسوعيون في تهذيب القوم وتعليمهم ونجحوا نجاحًا عظيمًا وهم الذين افادوا العالم معرفة احوال الصين الداخلية اذ كانت قبل ذلك مجهولة لكن لما توفي هذا الملك في سنة ١٧٢٢ وتولى مكانهُ ابنهُ يون شينك مقت اليسوعيين المذكورين ولم يعاملهم معاملة ابيهِ وزاد على ذلك ان نفاهم من العاصمة اولاً الى كنتون ثم الى مكاو وفقدت كل اتعابهم وكان اول مشروع سنهُ وكلاه هذا الملك عند ما تسلم زمام الملك قاصرًا هو منع الخصيان المتولجين بحراسة الحرم الملوكي عن الارتقاء والتوصل الى اية وظيفة كانت من وظائف البلاد مع انهم كانوا يرتقون قبل ذلك الى اعلى المناصب ونقشوا هذه السنة على الواح من حديد وزن كلٍ منها نحو ٤٠٠ اقة فحصل من ذلك الوقت السلام والراحة في كل انحاء السلطنة غير انهُ منذ تولى المملكة تاوكوانك حفيدهُ في سنة ١٨٢٠ الى ان تولى الملك الحالي تشي سيانك ومعناهُ المسعد قامت الحروب على ساق وقدم بين ملوك هذه البلاد والدول الافرنجية وخاصة الانكليز بسبب حجز تجارة الافيون الى ان انتهت بهروب سلفهِ هيان فونك ووفاتهِ بعد ذلك بسنة ومن ثمَّ تمكنت المحبة بين هذا الامبراطور الحالي وسائر الدول وجعلوا بينهم روابط ومعاهدات باقامة السفرا والنواب بين الطرفين ولذلك ترى الآن سفراء الممالك الاوربية ووكلاءها منتشرين في اكثر المدن الصينية ولا سيما في الاساكل البحرية ولم يبقَ مانع لجولان رعاياهم في كل اقطار السلطنة وتخصصت مدن عديدة لتكون موانيها مفتوحة لتجارتهم وان لا يصير اداني تعرض للديانة المسيحية ولا لبناء الكنائس والبيوت وغيرها وكذلك بطلت العادة القديمة التي

كان يحترمها الصينيون جدًا وهي قتل من اراد الخروج من اهالي البلاد الى بلاد الاجانب او على رواية اخرى عدم استطاعة احد منهم ان يخرج من بلاده بغير اذنٍ من الحكم على مدة معينة فان تجاوزها لا يعود يقبل في البلاد وطنيًا بل يحسب غريبًا اجنبيًا وصارت رسلهم الان تتقاطر الى بلاد اوربا وغيرها ومنذ ١٠ سنين ذهب البعض منهم الى بلاد اميركا قاصدين اخراج الذهب من معادن كاليفورنيا قال بعض الكتاب انهُ يوجد الآن منهم نحو ١٥٠ الفًا هناك يفلحون الارض ويزرعون الشاي ويربون دود القزّ ويستاجرون في غير ذلك من الاشغال ايضًا

اما ديانة اهل الصين فهي تتشعب الى عدة فروع كلها وثنية كما لا يخفى لانهم وان كانوا عمومًا يعتقدون بوجود الهٍ غير منظور فهم يتخذون الاوثان ويتقربون بالذبائح للكواكب السماوية ويوجد عندهم من الاديان القديمة ايضًا دين السحرة الذين يعبدون الشياطين ويستعملون السحر والصينيون بالاجمال يشبهون قدماء المصريين وغيرهم من عبدة الاوثان بكونهم يؤلّهون البعض من كبار فلاسفتهم ومشاهير علمائهم فان العلماء الذين يفتخرون بهم كبوداس (وهو بوذه رئيس المتهم) وجيمنوسوفيلس وكونفوسيوس وفوّة (اللذين تقدم ذكرهما) واتلاس هم معبودون عندهم بمنزلة الهة وهنا يقول مولف هذا الكتاب ان اصحاب هذه الاسماء وامثالهم هم مذكورون في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف عند الكلام على اديان اهل الصين وانما حيث كان لا يخلو الامر من وجود الاختلاف في صيغة بعض الاسماء سواءٌ كانت هذه او غيرها في الكتب التي نقلنا عنها عبارات هذا الكتاب وغيرهُ وذلك اما من تصحيف اقلام الكتبة او من المترجمين الذين يتصرفون كما شاءوا في ما يقوم مقام الاحرف الغريبة عن اللغة التي يترجمون اليها او في الاصطلاحات المخصوصة في الاصل المنقول عنهُ للاسماء الاعلام فاما ان يحذفوها واما ان يبقوها بحسب ما ترشدهم اليهِ فطنتهم كما انهُ يوجد ايضًا خلاف ربما كان يعتد بهِ في تعيين سني

تاريخ بعض الحوادث فقد يعثر في كتبنا هذه على شيء من هذين النوعين لالتزامنا غالبًا الاصل المنقول عنهُ عند ذكرما يلزم تكرار الكلام عليهِ في بعض المواضع اذ لا يمكنا البحث عن حقيقة الاصل في الاسماء لعدم معرفتنا اللغات الاجنبية ولا عن حقيقة سني التاريخ اذ يتشكى كثيرون من اعظم المولفين من صعوبة ادراكها بالتمام ثم قد كان يلزمنا هنا ايضًا ان نرجع الى ما كنا بصددهِ من الكلام على اديان اهل الصين التي اعظمها الديانة البوذية نسبةً الى رئيسها بوذاس الذي تقدم ذكرهُ ويسمى كوتاما بوذه المولود في سنة ٦٢٤ ق م لو لم تكن تفاصيل هذه الديانة وغيرها من الاديان الشائعة هناك مذكورة في البحث الذي تقدم ذكرهُ من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف مع باقي فروع الديانات الوثنية الحاضرة ولذلك نعدل عنها الى ما لا باس من الوقوف عليهِ من تاثير مساداة دعاة الديانة المسيحية هناك

لا يخفى بانهُ منذ القديم كان ممنوعًا على الاطلاق دخول اي اجنبي كان الى هذه البلاد وكانت حياة كل من دخل اليها منهم تحت خطر شديد واشدة محافظة ملوكها واهاليها على ذلك بنوا السور العظيم الذي سبقت تفاصيلهُ في ما مرّ وذلك قبل التاريخ المسيحي بنحو ٣ قرون لكن كما انهُ لم يمنع هذا السور مهاجمة التتار واستيلاءهم على كرسي السلطنة كذلك لم تمنع ايضًا تلك الصرامة والتشديدات على الاجانب من دخول بعض السياح خفيةً الى بعض اقسام هذه المملكة بل ان دعاة الدين المسيحي ايضًا كانوا يبشرون هناك بالديانة المسيحية في القرن الاول للميلاد وحسبك انهُ في سنة ١٦٨٥ م عثر بعض الاهالي بالقرب من مدينة سنفنفو وهي بعد باكين عاصمة المملكة في الاتساع والحسن على لوحٍ من المرمر تحت الارض مكتوب عليهِ بالخط الصيني كلمات سريانية فوقها صليب فاجتهد العلماء في البحث عن معرفة هذه الكلمات فوجدوها مشتملة على ٦٣ علامةً منقوشة بالحروف الصينية فتاملوها فاذا هي عبارة عن رسالة تتضمن اصول دين النصرانية وعدة مسائل تتعلق بقوانين القسوس واسماء

الملوك الذين كانوا سببًا في نشر هذه الديانة التي اظهرها في تلك الجهة دعاة من قسوس النساطرة سنة ٦٣٤م وكانوا قد قصدوا هذه المملكة من بلاد العجم والشام ولمن المحقق بانهُ كان لهولاء الرعاة في بلاد الصين عدّة كنائس كما هو محقق ايضًا بانهُ في سنة ٥٠٠ وقيل سنة ٥٢٣ م نقل راهبان من الرهبان اللاتينيين الذين كانوا موجودين وقتئذٍ هناك دود القزّ الى القسطنطينية وكانا قد خبآهُ في عكازيهما حذرًا من شريعة الصين لانها كانت تمنع اخراج مثل هذا الصنف من البلاد ثم من القسطنطينية نقل الى غيرها من بلاد اوربا واسيا واميركا وقال بعض المولفين في كلامهِ على صرامة هذه البلاد انهُ لم يكن هناك الا مينا واحدة مفتوحة للافرنج تسمى كنتون ومع ذلك كانوا لا يدخلونها الاّ بشروط صعبة ولا يعرف ذلك الا قسوس الافرنج في هذه البلاد التي كانوا ينشرون الدين المسيحي فيها لكنهم طردوا منها اخيرًا فلم يبقَ منهم الا القليل بوظائف معلمين للعلوم تحت حماية الدولة الصينية والظاهر انهُ اراد بذلك ما مرَّ عليك ذكرهُ من تقدم هذه الطائفة في ايام الامبراطور ككهي سنة ١٦٩٢م ونفيهم في ايام ابنهِ يون شينك في سنة ١٧٢٣م ثم في بعض النشرات المطبوعة في اثناء تاليف هذا الكتاب ذكران في سنة ١٨٤٨م قام رجل يقال لهُ تِيْ بنْ أُوْن قيل انهُ عرف الديانة المسيحة من معاشرة بعض المبشرين وادّعى بان لهُ نوعًا من الالوهية وهيج حركة عجيبة غريبة في تلك المملكة واخذ ينتقل من مدينةٍ الى اخرى ومن قرية الى غيرها ويحرك اصحابهُ بحميةٍ عجيبة لمقاومة عبادة الاصنام ويظهر لهم فضل الديانة المسيحية فانضم اليهِ عدد غفير واشهروا ديانتهم التي هي ان الله الحي الحقيقي هو موضوع عبادتهم وسجودهم واليهِ يلتجئون في الضيق ومنهُ وحدهُ يطلبون المعونة ويعلمون الذين يخازون اليهم حفظ السبت بكل تدقيق واتخاذ الوصايا العشر قاعدةً لايمانهم والتوبة عن الخطايا والايمان بالمسيح ومنع الافيون والدخان مطلقًا الا انهم لم يقتصروا على هذه القواعد بل مزجوها ببعض قواعد وثنية فلما سمع الملك باخبارهم غضب جدًا وحبس كثيرين منهم الى ان مات

البعض في الحبوس ومن جرى ذلك هاج الذين لم يقعوا في يد الملك تحت رياسة تي بن اون المذكور وضربوا الدولة واقتصروا عليها وجعلوا يتقدمون من بلدٍ الى اخرى فكل بلدٍ اطاعتهم امنوها وضموا رجالها اليهم واكتفوا بكسر اصنامها والاَّ قتلوا رجالها ونساءها واولادها بدون شفقة وكسروا الاصنام وطرحوها في الاسواق وهكذا تملكوا على اكثر البلاد وشيعوا كتابات كثيرة ضد الحكومة حتى جعلوا الاهالي يكرهونها للغاية وفي نشرةٍ اخرى مطبوعة في سنة ١٨٦٩ ذكر بان الصينيين قاموا على الاكليروس الروماني في ايالة سزخان وقتلوا منهم ٣٠ نفرًا لكون الحكم الصيني اصدر امرهُ بترجيع الاملاك التي كانت للرهبان اليسوعيين المقدم ذكرهم وخسروها عند ما طُردوا من البلاد بامر الملك منذ ٢٠٠ سنة لانهُ لما تمت شروط المصالحة بين المملكتين الصينية والفرنساوية (وذلك في اثناء الحروب التي ذكرنا بانها كانت قائمة ساق على قدم بين هذه الدولة الصينية ودول اوربا من سنة ١٨٣٠ م الى ايام الملك الحالي) وعد ملك الصين اليسوعيين بترجيع املاكهم على شرط ان يبرهنوا حقهم ويانوا بصكوكهم فارسلوا حالاً الى رومية واستحضروا رزمًا من الصكوك القديمة التي اثبتت حقهم باملاكٍ عظيمة في اكثر مدن الصين وامتد هذا الامر الى كل اقطار المملكة واخيرًا اشاعت الجرائد ايضًا بان المبشرين بالانجيل الان يتواردون من كل الجمعيات الى هذه البلاد بكل همةٍ ونشاط ويفتحون مدارس ومطابع ويبنون كنائس وتيسر لهم الدخول الى كل اقطار المملكة بعد ان كان لا يؤْذن لهم ان يسكنوا الاَّ في بعض المدن على شط البحر وزيادة على ذلك اصدرت الحكومة من تلقاء ذاتها اوامر تنهى عن مقاومتهم واضطهاد تلاميذهم وتمنع ايضًا تصليح او ترميم الهياكل الوثنية التي خربت في المملكة الاَّ ما يختص بالفيلسوف كُن فُوشو وفي احدى المقاطعات منعت الحكومة دوران الاصنام جهرًا بالاحتفال حسب العادة القديمة وقدمت النصيحة للاهالي بتقليل مصاريفهم على الذبائح والاوثان

اما ما قيل في حكم هذه البلاد فهو على ما رواهُ بعضهم كان قبل تمليك الملوك سياسةً جمهورية لان كل ابي عائلة كان يجب ان يطاع بكل تدقيق لكونهِ كان حاكمًا مطلقًا على عائلتهِ ولهُ الحق بان يقاصّ باسيهِ قصاص شاءهُ ما عدا الموت ودام الحال على هذا المنوال الى ان تملك اول ملوكهم سنة ٢٢٠٧ ق م (وهو التملك الاول لعائلة ايتساه) ومن ثم صارت الاحكام بين الحكم الملكي المطلق والمقيد حيث صار لهم شرائع وقوانين مكتتبة وان يكن الملك لهُ استطاعة ان يغير شيئًا منها غير انهُ لا يتجاسر في الغالب على خرق العوائد القديمة ويتحاشى نقض ما كان منها اصليًا جرت عليهِ الاحكام زمانًا طويلاً وانما يعزل ويولي كما يشا ويعين الخليفة بعدهُ على المملكة وقال اخرون ان الملك الحالي اصلهُ من التتار ولهُ السلطان المطلق على رعاياهُ وعلى املاكهم حتى لو اراد قتل احدٍ منهم ظلمًا او سلب اموالهِ او عمل شيء ردي بدون حق لا يوجد شريعة ولا قانون يمنعهُ عن ذلك وشعبهُ يسجدون لهُ ويلقبونهُ بحاكم الانفس على الارض وابن السماء وحرسهُ السلطاني يبلغ ٤٠ الفًا وعند مقابلتهِ او وصول امر منهُ الى رعاياهُ يخرّون جميعًا سجودًا لهُ ماسين الارض ٩ مرات بجباههم وتاج الملك عندهم يوخذ بالارث فربما تولى تخت الملك ولد صغير يكون تحت تدبير الاوصياء الى ان يبلغ

وهذه المملكة مملوة من السكان فيها اكثر من ٤ الاف مدينةٍ محصنة على شطوطها البحرية باكثر من ٤٤٠ قلعة وقرى وقصبات لا تحصى ومدنها غاصة بالناس فان مدينة باكين قصبة المملكة يوجد بها نحو مليونين من النفوس وهي على شكلٍ مربع مستطيل يحيطها سور ارتفاعهُ نحو ١٠٠ قدم وعرضهُ ٣٠ قدمًا بحيث تدور فوقهُ الحراس وهم راكبون خيولهم وفي جوانب هذا السور ١٣ بابًا تعلوها ابراج لاقامة الحراس والمحافظين وتنقسم هذه المدينة الى قسمين جنوبي وشمالي فالجنوبي فيهِ اكثر مساكن العامة واما الشمالي ففيهِ سراية الملك وبساتينها وجنائنها التي هي في غاية البهجة والظرف وفي هذا القسم ايضًا كثير من البحيرات

المصنعة والزهور البهية والاشجار المختلفة وخلاصة الامر ان هذه المدينة بالاجمال هي في غاية البهجة وحسن النظام وتحتوي على كثير من القصور الملوكية والمدارس والقشلات والهياكل المزخرفة والابنية الفاخرة ويليها مدينة صوشو واهلها مليون ونصف وكنتون واهلها مليون واحد ونانكين التي كانت قصبة المملكة قبل بكين المذكورة واهلها نحو نصف مليون وفيها الهيكل المشهور الذي تكلمنا عليه بجملة هياكل الصين في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف. قال بعض المولفين ان اظرف الاماكن واشرفها عندهم ثلاث مدن وهي صوشو وكنتون ولايوشو ويقولون بان السعيد منهم هو من ولد في صوشو وسكن في كنتون ومات في لايوشو لانهم يزعمون بان في الاولى يوجد اظرف البشر وفي الثانية اغنى البشر وفي الثالثة احسن التوابيت

ولا عجب في كون مدنهم هذه التي ذكرناها غاصة بهذا المقدار من النفوس لانهم لا يطلبون محلاً واسعًا للسكن بل يبنون بيوتهم من الخشب وتكون غالبًا طبقة واحدة مقسومة الى عدة مساكن صغيرة وربما وجد اولاد وابوهم وجدهم وابو جدهم الى ثلاثة اجيال يسكنون في بيت واحد ويوجد قسم عظيم نحو ١٠٠ الف نفس يسكنون في القوارب في محل يقال له قرية القوارب حيث يوجد منها نحو ١٤٠ الفًا مرتبة في النهر صفوفًا متحاذية وبين كل صفين شبه سوق عظيمة فكانها مدينة كبيرة سابحة على وجه الماء وشريعة المملكة لا تسمح لسكانها بالخروج للسكنى في البر وكل قارب يحتوي على عائلة مشتملة على جدود واولاد واولاد اولاد كما ذكرنا

والغالب في اخلاق اهالي هذه البلاد الغش والخداع لكن يُضرب بهم المثل في اكرام الوالدين ويروى عنهم احاديث كثيرة في ذلك منها ان ولدًا صغيرًا كان ابواهُ فقيرين وبيتهم صغيرًا ووسخًا في الغاية حتى كثر فيه البرغش جدًّا فلكي يمنع اذى البرغش عن والديهِ خلع كل ثيابهُ ونام بلا غطاء لكي يهجم عليهِ البرغش ويُلهى عن والديهِ اما الوالدين فليس عندهم من الحنو والشفقة

على اولادهم ما يقابل ذلك لانهُ اذا كان احد الوالدين لهُ عدة اولاد لا يقدران يقومان بمعاشهم يجوز له ان يلقيهم في النهر ليتخلص منهم ولا يعارضهُ احد

واما طرق الزواج وشرائعهُ عندهم التي منها سواغية زواج كل الاخوة بامراةٍ واحدة تقوم بحقوق الزوجية لهم جميعًا مهما كان عددهم فهي مفصلة في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف وهم على ما يوصفون قصار القامة قليلاً صفر الالوان مختلفو الاشكال بحسب اقاليمهم ومع ذلك فان ضخم الجسم عندهم من احسن الظرف واكابرهم يربون اظافر اياديهم حتى تطول كثيرًا ومتى طالت يعملون لها سنادات لكي لا تنكسر ويستظرفون صغر ارجل النساء ولذلك يعملون قوالب من حديد يضعون فيها ارجل البنات في صغرهن حتى متى كبرنَ تكون ارجلهنَّ صغيرة كارجل المعزى فلا يقدرون على المشي كثيرًا ولا على العمل ومن ثم كان ذلك محصورًا في بنات الاكابر الذين يخصصون بنتًا من كل عائلة ليكسبوها هذا الحسن الغريب ومن اعظم المحاسن عندهم صغر العينين وضخامة الشفتين ومن عوائدهم ان يحلقوا شعر رؤوسهم ويتركوا منهُ خصلةً في اعلى الراس حتى تطول فيجدلونها ويرخونها على ظهورهم

واكثرهم يلبسون اقمصةً طويلةً شبيهة بالمراويل ويتمنطقون باحزمة حريرية وينقلون سكاكين او خناجر في احزمتهم ومن عاداتهم ان لا يسمح لاحدٍ منهم ان يلبس اللون الاصفر لان هذا اللون مختص بالعائلة الملوكية واما بقية الالوان فيلبسون ما شاءُوا منها

ولا يانفون من اكل حشرات الارض كالفار والجرذان بل يبيعون الكلاب الفاطسة جهرًا في الاسواق وفي ما ذكرناهُ من ولائمهم ومادبهم في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف ما هو كافٍ في هذا الباب

اما لغتهم فهي من اقدم اللغات وقلما تغيرت عن حالتها القديمة كما يحدث

في اكثر اللغات قال بعض الكتبة من المسيحيين ان دعاة الانجيل وجدوا صعوبات كلية عند ما ارادوا ان يشرحوا للاهالي حقائق الديانة المسيحية في هذه اللغة لانهُ من حيث لا توجد عندهم افكار صحيحة في قلوبهم من جهة الدين فكذلك لا توجد كلمات موافقة للتعبير عنها في لغتهم

وكتابتهم هي من اعلى الى اسفل ويستعملون عوض الحروف علامات واشارات منها اصلية ومنها فرعية وقد أُحصي عدد هذه العلامات الدالة على كلمات لغتهم فكانت نحو ٣٥ الفًا اما اذا حسبت العلامات القديمة التي هي الان مهملة عندهم الا نادرًا فيكون عددها ٤٤٤٤٩ علامة ولذلك يعسر جدًّا علم القراءة والكتابة عندهم وقال بعض المولفين ان هذه العلامات والاشارات يبلغ عددها ٨٠ الفًا وكل علامة تشير الى كلمةٍ او الى جملة كاملة والدارج منها الان ١٠ الاف علامة منقسمة الى ١٨ فرعًا وكل قسمٍ يتكلم بفرعٍ دون الاخر

وفي الازمنة التي كانت فيها اوربا بربرية وعامة سكانها يلبسون الجلود او عراة كانت بلاد الصين بالنسبة اليها متمدنة وتمتاز من القديم بصنعة الفغفوري وقد تحقق الان انهُ ما عدا هذا الفخار الظريف الذي في كل العالم لم يزل يسمى بالصيني لمحل استنباطهِ ينسب اليها اختراع القبله نامة اي بيت الابرة المغناطيسية المعروفة بالحك وصناعة الطبع وعمل البارود وزاد اخرون صناعة الزجاج وذلك قبل التاريخ المسيحي ولكن بقيت مخترعاتهم هذه ناقصة للغاية لانهم وصلوا الى درجة معلومة ووقفوا هناك وحسبك ان طريقة الطباعة عندهم هي بحفر الكتابة التي يريدون طبعها في الواحٍ من الخشب كل لوحٍ على قياس جرم الكتاب الذي يختارونهُ طولاً وعرضًا فيكون عدد الالواح اللازمة لطبع الكتاب كعدد صحائفهِ ومع هذا قد كثرت عندهم الكتب ورخصت وصار اكثر الناس يقدر على اقتنائها لكن اكثرها قصص واشعار وتواريخ قلما يوثق بها

وهم يحسنون صناعة النقوش والتصاوير ويصنعون ورق الكتابة او

القرطاس من قشر شجر التوت ومن شرائق الحرير والقطن والقنب والتبن ولهم اليد الطولى في بعض الصنائع ولاسيما الحفر في العاج ويصطنعون من الصيني الذي مرّ ذكرهُ تماثيل لآلهتهم في معامل مخصوصة ومن صنائعهم ايضاً اقمشة الحرير والقطن والكتان والجوخ والبسط

ولا يحتاجون الى شيء من محصولات البلاد الاجنبية لان بلادهم واسعة حسبما ذكرنا في ما مرّ وهي مخصبة جدًّا ولكونهم اصحاب اجتهاد ونشاط يمكنهم ان يحصلوا فيها كل ما يحتاجون اليهِ وكل اراضيهم تقريبًا هي عامرة بالفلاحة والزراعة حتى ان الجبال العالية صارت سهولاً معتبرة مصلحة باهتمام عظيم وقد بنوا حولها حيطانًا عظامًا لحفظ ترابها ومن عادة ملكهم انهُ بعد ان يخرج الى الخارج كل سنة ليسجد لبوذه الههِ ياتون اليهِ بثورين مزينين فيخلع عنهُ ابسة الملوكي ويحرث عليهما في الارض بعض اتلام تشريفًا لحرفة الزراعة ولكثرة المياه عندهم اصطنعوا طلمبات يستخدمونها عند الحاجة لرش الارض بالماء كالمطر

وتجارتهم متسعة جدًّا حتى انهُ يوجد في بعض مين مدنهم احيانًا الوف من المراكب التجارية من ممالك مختلفة ترى للناظر كغابات ملتفة سابحة على متن المياه ومن آثار همتهم ونشاطهم ايضًا ترعة عظيمة حفروها في بلادهم لكي بواسطتها مع الانهر التي تتصل بها تجري الزوارق في البلاد من كنتون الى باكين طولها نحو ٦٥٠ ميلاً لكنها لم تُصنع دفعة واحدة بل حفر بعضها في الجيل السابع وبعضها في الجيل الثالث عشر بعد المسيح وفي البلاد ترع اخرى غير هذه يسهل بها نقل بضائع التجارة من مكانٍ الى اخر ولاجل ذلك قل اعتناؤهم بتمهيد الطرق في البر الا انهم قطعوا مناهج في بعض الجبال الواقعة في طريق القوافل بين المدن الكبار

واعظم تجارتهم في الشاي الذي هو من النباتات المعتبرة عندهم ويزعمون ان اصل بذارهِ كان من اهداب جفون احد آلهتهم تقطع اغصانهُ وتوخذ اوراقهُ وتجفف قليلاً على نارٍ لينة ثم تلفّ كل ورقةٍ باليد وبوضع في صناديق مبطنة

بالرصاص ويرسل الى الجهات ويقطفون ورقهُ في السنة ٣ مرات يخرج منهُ في كل سنةٍ نحو ٤٠٠ الف اقة وفي كنتون ديوان للتجارة مولف من ١٣ عضواً من اعظم التجار تتوقف على تدابيرهم جميع صوالح المتجر

ولنختم كلامنا هنا بما اتفق عليهِ اكثر المولفين وهو ان اهالي الصين كانوا ذوي معارف عظيمة لكن حيث اشبهوا المصريين بكونهم لا يحبون نقض العوائد الثابتة ويحتقرون كل ما لم تجرِ بهِ عادتهم وما ذاك الا لكونهم اصحاب جبن وبدع فلم تبلغ علومهم درجة كمال ومما يزيد الأسف انهم مع كون معرفتهم والحالة هذه بالعلوم قليلة جدًّا بالنسبة لِما عند اهالي اوربا قد تسبب عن قلة مخالطتهم بقية الشعوب واطلاعهم على ما عند غيرهم غرورهم بانفسهم انهم احكم الناس وانهم قد بلغوا الغاية القصوى في المعرفة والهيئة الاجتماعية ويسمون ما عداهم برابرة

المعارف في الهند

يظهر ان بلاد الهند التي هي جزء اسيا الجنوبي كانت معمورة قبل غيرها بالسكان والآداب وتشتمل على قبائل عديدة منتشرة في كل اقطارها ولكل قبيلةٍ ولاة وحكام مستقلة بذاتها اشبه بدول اوربا غير ان اخبارها في الايام القديمة كاخبار الصين سقيمة جدًّا وتاريخها مشحون بالخرافات والاقاويل البعيدة عن التصديق ما لا يهم القاري معرفتهُ

وقد اختلف المعلمون من جهة تسميتها هندًا فزعم البعض انها تسمت هكذا نسبةً الى نهر الهند والسند وهما كلمتان معناهما باللغة السنسكريتية الازرق نسبةً الى لون مياهه وقال اخرون ان اسم هند ماخوذ من كلمة ايندو ومعناها قمر وذهب بعضهم ان هذه التسمية مقتبسة من كلمة هندو بالفارسية ومعناها الاسود

نسبةً الى سواد اهلها ولكن قلما يوثق في صحة هذا الاقتباس لانهُ يصعب التصديق بان امة من الامم تخذ لنفسها اسمًا او لقبًا اجنبيًّا والاجدر بها ان تطلق على ذاتها لقبًا ماخوذًا من نفس لغتها والجغرافيون يقسمون هذه البلاد الى قسمين وهما هندستان والهند الصينية اما الاول فهو الاعظم والاشهر وعليهِ مدار كلامنا هنا واما الثاني فهو ما كان مجاورًا بلاد الصين ويتضمن ثلاث ممالك صغيرة وهي بورما وسيام وكوشين او كوشينصين

واشهر ما يروى عنها من الحوادث هو ان سيزوستريس ملك مصر كان غزاها ولا يعلم بالتحقيق ماذا جرى عند ذلك وكانت غزتها قبلهُ الملكة سميراميس ونحو سنة ١٣٠٠ ق م اشتدت الحروب بين الاهالي في شان بعض الهتهم واخيرًا استملكت الفرس بعضها في عصر داريوس بن هستاسب سنة ٥٠٠ ق م ثم اتاها الاسكندر المكدوني بمئة وعشرين الف مقاتل واستولى على جانب عظيم منها ولما لم ترضَ عساكرهُ ان تبعد عن بلادها اكثر مما بعدت عاد الى بلاد فارس ثم انعقدت شروط الصلح بين الملك سلوقس احد خلفائهِ الذي تولى قسم سوريا وملك قسمًا من الهند نحو سنة ٣٠٠ ق م وبعدهُ غزاها الملك انطيوخوس ايضًا ورتب على بعضها الجزية وبعد وفاتهِ عادت الى حالتها الاولى واستولى عليها ملوك من اهلها فانقسمت الى عدة ممالك مستقلة على ما تقدم الى زمن خلافة الوليد بن يزيد الاموي وحينئذٍ استفتح المسلمون بعض السند وفي ايام بعض الخلفاء قطعوا نهر الهند ونهبوا نواحي البلاد الشمالية ولكن لم يملك فيها احد منهم ولما قام السلطان محمود الغزنوي استفتح جانبًا من الهند واضافهُ الى مملكتهِ فلما انقرضت الدولة الغزنوية انقسمت املاكها في الهند الى عدة اقسام واستولى عليها من استطاع ودامت الحروب قائمةً بين ممالكها عدة قرون وكان من اشهر ملوكها الملك اوزرنيب فانهُ ملك من سنة ١٦٦٠ الى سنة ١٧٠٧ م وانتصر على اكثر ممالك الهند وجعلها مملكة واحدة لكن بعد وفاتهِ انقسمت املاكهُ بين بنيهِ وانقرضت دولتهم بعد مضي نحو ٥٠ سنة ونحو سنة

١٧٣٩ م غزا الجهات الشمالية نادر شاه ايران ونهبها وعاد بغنيمةٍ وافرة وفي اثناء تلك المدات كان اهل البورتغال قد كشفوا طريقًا الى الهند من جنوبي افريقية سنة ١٤٩٨ م باكتشافهم الراس الذي سموهُ راس الرجاء الصالح فكانوا بهذه الواسطة هم اول من دخل من الافرنج الى هذه البلاد وبقيت التجارة بين الهند واوربا في ايديهم الى انهُ في اقل من ٥٠ سنة صار لهم املاك واسعة ومدائن كثيرة في الهند ثم امتدوا الى اطراف السند وصار لهم عدة مراكز تجارية غير انهُ حيث لم يحسنوا السلوك مع الاهالي خسروا ذلك جميعهُ تدريجًا وفي بداية القرن السابع عشر للبلاد دخلها الفلمنكيون واستخلصوا منهم عدة مدائن لكنهم التزموا اخيرًا ان يتنازلوا عنها هم ايضًا للانكليز الذين ابتدأوا في التجارة مع اهالي الهند في سنة ١٦١٤ م بواسطة شركةٍ تجارية شكلوها لهذه الغاية وكانت اول اقامتهم في مدينة سورات وفي سنة ١٦٤٠ م سمح لهم احد الولاة بقطعة ارض تبلغ مساحتها ٥ اميال فابتنوا فيها لهم مركزًا ثم اشتروا من والٍ اخر بعض اراضٍ واقاموا فيها عدة مراكز وكانت هذه المراكز اشبه بخانات لوضع بضائعهم التجارية وذخائرهم الحربية لانهم كانوا دائمًا على حذرٍ من بطش الاهالي وغزوات الافرنج الاجانب ثم حدث في اواسط الجيل السابع عشر ان احترقت ابنة الشاه جهان في مدينة دلهي وهي قريبة من نارٍ كانت موقودة فارسل الشاه المذكور يطلب طبيبًا من الانكليز فارسلوا لهُ جراحًا ماهرًا عالجها حتى برئت فطلب اليهِ ابوها ان يقترح عليهِ ما اراد ليكافئهُ بهِ على خدمتهِ فالتمس منهُ امرًا باعطاء الرخصة للشركة المذكورة ان توصل تجارتها الى كل اقطار السلطنة بدون ان تدفع عليها رسمًا ثانيًا خلاف المدفوع في سورات وان ياذن لها ايضًا بانشاء مراكز جديدة فصادف التماسهُ هذا مزيد القبول وصدرت الاوامر باجرائهِ من ذلك اليوم وسنة ١٦٦٢ م وهب الشاه جهان المذكور لكارلوس الثاني مالك انكلترة جزيرة بومبي فتنازل عنها هذا الملك الى الشراكة تحت مبلغ معلوم فنقلوا اليها من سورات وجعلوها مركزهم الاكبر

بعد ان اقاموا فيها حاكمًا انكليزيًا وكذلك كانت اهل فرانسا وهولاندا تتجر في جهات اخرى من البلاد الى ان تمكنت قوة الفرنساويين وزادت شوكتهم وقهروا الانكليز اكثر من مرة واخذوا منهم بعض املاكهم واستمر الحال على ذلك مدةً الى ان انتصر عليهم الانكليز اخيرًا في ١٧٦١ م واسروا حكمدارهم موسيو لالي ومن ذلك الوقت اخذت شوكة الشراكة الانكليزية ان تقوى شيئًا فشيئًا حتى استولت على الجانب الاكبر من بلاد الهند وتعوضت بذلك عمّا اضاعته وقتئذٍ من املاكها في اميركا واستمرت حكومة البلاد في ايدي الشراكة الانكليزية المذكورة الى ١٨٦٠ م ومن ثم تنازلت عنها باسباب الى نفس الحكومة الانكليزية وهي الآن تحت تصرف احكامها وايرادها السنوي يعادل ايراد انكلترة الذي يجاوز ٧٠ مليونًا من الليرات الانكليزية

ثم ان اهالي هذه البلاد الاصليين المعروفين بالهنود يقسمون الى اربعة اقسام الاول البراهمة ويقال لهم الكهنة ايضًا والثاني الجند ومن هذا القسم تكون الملوك والحكام والثالث التجار والفلاحون والرابع اصحاب الصنائع والعُمَّال من كل نوع وهذا القسم الاخير ينقسم ايضًا الى اقسام شتّى باعتبار الصنائع والعمل وجميع هذه الاقسام لا تختلط ببعضها اصلاً ولا يمكن لمن وُلد في احدها ان ينتقل الى الآخر قال بعض المولفين ان الهنود منقسمون من قديم الزمن الى عدة طوائف متميزة عن بعضها شرفًا وخسةً ادناها طائفة الباريا وهي تعيش منعزلة وحدها مبغوضة لغيرها

وديانتهم وثنية على المذهب البرهمي وهي تعلم بوجود اله ضابط الكل اقام ثلثة آلهة نوابًا عن نفسه وهم بَرهَمة وَوِشنُو وسِيوَى والظاهر انها اسماء لبعض العلماء الذين اشتهروا بينهم في الزمان القديم وتحت هولاء آلهة اخر كثيرة ذكر بعضهم انه حسب عددها ٤٠٠ الف وقال اخرون انها اكثر كثيرًا جدًّا وبما ان هذه الديانة لم تزل الى الآن متغلبة على جزء عظيم من الارض وهي فرع من فروع الديانة الوثنية التي والحالة هذه ينقاد اليها نحو ثلثي البشر ولذلك

تحسب من اصل الديانات الموجودة في العالم فقد تكلمنا عليها بتفاصيلها وكيفية طرق العبادة المستعملة عند اهاليها وكل ما يتعلق بذلك بقدر ما وصل الينا في البحث الرابع من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف

اما لغاتهم فهي نحو عشر لغات متفرعة من اصل واحد يقال له السنسكريت وهذه اللغة الاصلية لا يتكلمون بها الان ولكن كتب علومهم الروحية مكتوبة بها وفيها مشابهة غريبة لبعض لغات اوربا دالة على اشتقاق اللغات من اصل واحد واما اللغة الهندية الشائعة الآن في اكثر البلاد فهي ممتزجة من لغات الهند والفارسية القديمة والعربية وغالبًا تكتب بالخط العربي على شكل الخط الفارسي

والبراهمة او الكهنة الذين سبقت الاشارة اليهم هم امناء الدين واوائل طوائف هذه البلاد واشراف الشعب الهندي ويعلو شانهم على الجميع لاشتغالهم بالشرائع وسموا براهمة باسم براهمي الذي يعتقدونه الهًا او عقلاً عاليًا وكان تسلطهم ونفوذ كلمتهم كمجوس العجم وكهنة المصريين وبعضهم يتعاطون اشق الاحوال لاجل تعذيب انفسهم فكانوا يرون في الشمس الحارة جدًا ويعرضون اجسامهم للمولمات حتى ان كثيرًا منهم من قتل نفسهُ ومنهم من لا ملبس له اصلاً ولذلك يسمونهم فلاسفة متقشفين

وقال بعض المولفين انهُ كان من طوائف الهند ايضًا طائفة معدَّة لاخبار الملك بسلوك رعيته اما طائفة الزراع فكانت تتمتع من حرفة الزراعة براحة عظيمة بينهم فما كان احد يقدر ان يخرج الفلاح عن اشغاله لكي يستعملهُ في غيرها ولا يمس التعدي اموالهم ولا اجسامهم

وكان لهم علوم كثيرة منها انهم كانوا يعرفون الفلك ويعتقدون ان الارض سطح بسيط في وسطهِ جبل تدور حولهُ الكواكب ويتكلمون على ذلك بخرافات جميعها مفصلة في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف لتعلقها بامور ديانتهم وانما لهم حسابات دقيقة في حركات

الاجسام السماوية واصابات زيجية لا تخلوٌ عن الصحة الا نادرًا وكانوا يعتنون بالفلسفة والشعر وقد اجتهد بعض ملوك الفرس في نقل شيءٍ من كتبهم الى الفارسية ثم انتقلت من الفارسية الى العربية وكانت الفلاسفة اليونانيون ايضًا يقصدونهم ليستفيدوا من علومهم ومعارفهم

واليهم يُنسب اختراع الارقام الهندية الحسابية وعنهم اخذها العرب الذين اوصلوها الى الافرنج ايضًا ولعب الشطرنج قال ابن خلّكان وغيرهُ من مورخي الاسلام ان رجلاً من حكماء الهند يقال لهُ صصّه بن داهر اخترع لعب الشطرنج (وهو لعب تعتبرهُ الامم المتمدنة فوق الالعاب بكثير ودون العلوم بيسير) وانهُ وضعهُ للملك من ملوك الهند يقال لهُ شهرام فلما اعرضهُ عليهِ اعجبهُ وفرح بهِ كثيرًا وامر ان تكون آلتهُ في بيوت الديانة ورآها افضل ما علم لانها آلة للحرب وقال لصصه المذكور اقترح عليّ ما تشتهي فاقترح ان يُعطى على اول بيت من بيوت رقعة الشطرنج حبة واحدة من الحنطة وبعد ذلك يضاعف لهُ في كل بيت يليهِ القدر الذي يكون في البيت الذي قبلهُ الى النهاية وطريقة هذا التضعيف ان يكون في البيت الاول حبة واحدة وفي البيت الثاني حبتان والثالث اربع حبات والرابع ثماني حبات والخامس ست عشرة والسادس اثنتان وثلاثون حبةً هكذا الى نهاية الاربعة وستين بيتًا فاستصغر الملك ذلك وامر ارباب الديوان لحسبوهُ وقالوا ما عندنا قمح يفي بهذا فاستنكر الملك هذه المقالة واحضر ارباب الديوان وسالهم فقالوا لو جمع كل قمحٍ في الدنيا ما بلغ هذا القدر فطالبهم باقامة البرهان فقعدوا وحسبوهُ امامهُ فلما ظهر لهُ صدقهم قال لصصه انت في اقتراحك ما اقترحت اعظم حالاً من صنعك الشطرنج. انتهى

يقول مولفهُ ان حساب ذلك ينتهي الى سبعة وعشرين الف الف وخمسماية خمسة وسبعين الف وتسعماية واربعين مخزنًا وكسور لكل مخزن الف الف اقة وكل اقة اربع ماية درهم وكل درهم اربعة وستون قمحة وزعموا ان السبب في

وضعهِ ان ازد شير بن بابك وقيل ارد شير ومعناهُ بالعربية دقيق وحليب لأنَّ معني ارد دقيق ومعني شير حليب او حلاوة وهو اوَّل ملك من ملوك الفرس الاخيرة قد وضع النرد فسموهُ نرد شير نسبةً الى واضعهِ المذكور وجعلهُ مثلاً للدنيا واهلها فرتب الرقعة ١٢ بيتًا بعدد شهور السنة وجعل القطع ٣٠ قطعة بعدد ايام الشهر نصفها ابيض والنصف الثاني اسود اشارةً الى الليل والنهار وجعل الفصوص (الزهر) مثل القدَر وتقلبهِ باهل الدنيا فافتخرت الفرس بوضع هذا النرد وكان ملك الهند يومئذٍ يقال لهُ بَلهيت فوضع لهُ صصه الشطرنج كما ذكر فقضت حكماء ذلك العصر بترجيحهِ على النرد والنرد هو المعروف في زماننا بالطاولة وهو نوع من الالعاب مقيد بحكم الزهر المرموز بهِ الى القضاء والقدر او الدهر والشطرنج يخالفهُ في ذلك لانهُ منوط بتدبير العقل ووصل لعبهُ الى بلاد الافرنج بعد القرن العاشر من الميلاد وكان من العاب الرومانيين في القرون الوسطى وقد قال فيهِ بعض حكمائهم موريًا بحال الدنيا يخرج الشاه والفارس والفلاح من كيس واحد يحظي كل بنصيبهِ ويمشي مع صاحبهِ على حسب قوتهِ فاذا فرغ اللعب يرجع الكل الى ذلك الكيس

وكان عند الهنود البارود وبعض اسلحتهِ قبل اكتشافهِ في اوربا ولهم اليد الطولى في بعض الصنائع ولاسيما في عمل الموائد والعلب والاسرة المرصعة بالعاج وعرق اللؤلوء وفي مدينة كشمير قاعدة بلاد كشمير تصطنع الشالات المنسوبة اليها ينسجونها من زغب المعزى الذي ينبت عند اصول شعرها في ايام البرد وينتثر منهُ في ايام الحرّ وفي مدينة الملتان يصطنع كثير من اقمشة الحرير والبسط والطنافس وفي مدينة بنارس تصطنع حلى الذهب والفضة وهم يحسنون ذلك للغاية وكذلك يحسنون ترصيع وتقطيع الحجارة الكريمة وفي مدينة مدرس معامل القطن والزجاج وفي دكا او هي دوكا ورش الحرير والشاش والقماش المصبوغ

وتجارة هذه البلاد رائجة جدًّا خصوصًا في ملح البارود والافيون والحرير

والقطن والقطيفة والصوف الحبر والمسك والراوند الذي باقي من بلاد المغول وفي ما يخرج من الارض وما يصطاد من اللآلى على السواحل خصوصًا جهة جزيرة سيلان وفي الماس الذي يوجد خصوصًا في اقليم غلكندة وشيلان الكشمير والشاش وغيرهُ من الاقمشة والاخشاب الظريفة اللون والطيبة الرائحة

وسكان هذه البلاد الان هم ثلثة اصناف هنود ومسلمون وفرس اما الهنود فقد مرّ ذكرهم واما الفرس فهم من اصلٍ فارسي طُردت اسلافهم من بلاد فارس وما زالوا على دينهم القديم اي عبادة النار واما المسلمون فمن اصلٍ عربي وربما اختلط هذان الصنفان بالسكان الاصليين وذكر بعض الجغرافيين ان الهنود يبلغون ٢٠٠ مليون منهم ١٥٩ مليونًا تحت تسلط الانكليز و٤١ مليونًا في حالة الاستقلال وربما كان في هذا العدد شيء من المبالغة اذ ان بعض المحققين يقول في كتابهِ الذي الفهُ قبل ذلك بمدةٍ قريبة لا يتفق معها ان يزيد عدد اهالي الهند بهذا المقدار ان الهنود الاصليين يبلغون ١١٠ ملايين من الانفس والاسلام ١٦ مليونًا والسيكة الذين عباداتهم مخلوطة بالاسلام والبراهمة ٤ ملايين وهناك يوجد ايضًا نحو مليون ونصف نصارى من طائفة النساطرة لما اتى اهل البورتغال الى تلك البلاد على ما ذكرنا في ما تقدم الزموا جانبًا منهم ان يدخلوا في مذهب الكنيسة الرومانية فعلى هذا المعدل يكون عدد الجميع ١٣١ مليونًا ونصفًا

وقصبة هذه البلاد مدينة كلكتة وهي مقرّ الحاكم الانكليزي تحتوي من السكان ٢٢٠ وقيل ٢٥٠ الفًا من النفوس وبها جمعية علماء شهيرة ومدرسة علوم اسلامية ومن المدن الشهيرة التابعة لها مدينة دَلِّي فيها كثير من الابنية الفاخرة والجوامع والمساجد ومنارة عظيمة ارتفاعها ٢٤٢ قدمًا ومدينة اغره فيها مسجد عظيم يسمى تاج المحل وهو مبني على قبر امراة السلطان جهان شاه وقد بالغ السوّاح في وصف محاسنهِ

المعارف في بلاد اليونان

وفيه مقدمة واربعة فصول وخاتمة

المقدمة

لا يخفى ان المعارف كانت في من ذكرنا من الشعوب كانها طفلة لم تحصل على الشبيبة الا عند هذه الامة اليونانية ذات الشجاعة العجيبة والحمية الغريبة التي كلٌّ من حريتها وعظم شانها واتقان سياستها وهندسة هياكلها اوجب لها الاعتبار والشهرة العظيمة حتى صار الجهل بما فعلته ونتائجه يعدُّ عارًا بين الناس

وقدمية هذا الجزء اليوناني صاعدة جدًّا جهة الاولية فلم تكن معروفة وقلما يوثق بكل ما رواهُ المورخون في شانها انما ما يقال من ان اصل اليونانيين من نسل ياوان بن يافث بن نوح فهو يقرب مما ذكرهُ هيرودوتوس اوّل مورخيهم في هذا المعنى وكانوا في مبدأ امرهم متوحشين عادمي التمدن يرعون المواشي ويعملون الارض ويسكنون في الكهوف ثم تعلموا عمل الاخصاص ولبس الجلود فكان ذلك اول اختراعاتهم وكانوا يقتاتون بالبقول والجذور. قيل انهُ لما علمهم فلاسغوس اكل البلوط وضعوهُ في مصاف الالهة والسبب في ذلك هو انهُ بالقرب من عصر ابرهيم الاب الاول لبني اسرائيل كان هاجر الى بلادهم قوم من الفينيقيين يقال لهم التيتانيون واختلطوا بهم فاخذ عنهم الاهالي جملة معارف اخرجتهم نوعًا عن حالتهم البربرية ومن ذلك عبادة الهة الفينيقيين كاورانوس

وساتورنوس ويقال ساترن وهو زحل عند العرب وزفس اوجوبيتير وهو المشتري ومن المعلوم بان اصل هولاء الالهة اناس من البشر لكنهم اشتهروا في بعض الامور فوضعهم شعوبهم في صف الآلهة كما سبق القول عن امثال ذلك وحينئذٍ ادخل اليونانيون فلاسفوس المذكور بجملة هولاء التيتانيين في مصاف الهتهم ايضًا اذ كانوا يقدمون لكل من اشتهر منهم اكرامًا عظيمًا بعد موتهِ اقتداء بما تعلموهُ منهم وهذا هو اصل خرافات اليونانيين من جهة دياناتهم التي تكلما عنها تفصيلاً بقدر الممكن في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا حاجة الى اعادتها غير انهُ لابد لنا من ان نذكر شيئًا مما قالهُ بعض المدققين من المولفين بشانها نظرًا لتوقف معرفة الاداب اليونانية بل واكثر الافرنجية الحاضرة ايضًا على مطالعتها وتسمى عند الافرنج علم الميثولوجيا وخلاصة ما قالوهُ هو انهُ منذ اخذت بلاد اليونانيين ان تتلقى الغرباء تولعت بسماع الخرافات حتى نظمتها في سلك الالهيات وادعوا ان اختراعها ليس الاّ من منصب الالوهية . الاّ انهُ قد يعثر الانسان من هذه الخرافات على امورٍ حقيقية ومهمة فانها حكايات ابتدعها المتقدمون لتشريف ارباب العقول عندهم وتأليه روسائهم او نظمهم في حيز الاعوان والعتاة وهم ليسوا في الحقيقة الاّ اشخاصًا ارباب عقول كاملة او شجاعة فاضلة وبعض ما يحكى عنهم هو من باب صحيح التاريخ او هو من قبيل الرموز والاشارات التي ظاهرها من قبيل الكفريات الصريحة لمن ياخذ بظاهرها ويترك باطنها ولكن المقصود منها مجرد الحقائق الباطنة لا الظواهر الباطلة بل منها ما يدل على كناياتٍ ادبية ونكاتٍ فلسفية ومنها ما هو محض اختراع شعراء جاهليتهم لاجل تحسين اشعارهم كاختراع شعراء العرب في زمن جاهليتهم امورًا كثيرة لا اصل لها يبنون عليها نظمهم فان ساترن مثلاً يريدون بهِ في خرافاتهم الدهر يقولون ان الدهر هو ابن السماء والارض واول حكاياتهم هو ان القَدَر اخبر الدهر المذكور ان احد ابنائهِ ينزلهُ عن كرسي مملكتهِ فكان الدهر ياكل اولادهُ حين وضع امهم لهم فهذه حكاية

رمزية عن تكوين الزمن يفتك دائمًا بابنائهِ ثم يقولون ان زوجة الدهر ولدت ذات يوم وخشيت على مولودها من افتراس ابيهِ فقمطت حجرًا مثلما يقمط الطفل واعطتهُ لزوجها فابتلعهُ حالاً ثم انها فعلت ذلك لخلاص عدة لولادٍ منهم واحد يقال لهُ جوبيتير يعنون عنهُ بانهُ اله الالهة والظاهر انهُ كان ملكًا بجزيرة اكريت طرد اباهُ من المملكة وقسمها بينهُ وبين اخويهِ وكان يقال لاحدهما نبطون والثاني ابلوطون فابقى لنفسهِ جهة الشرق من الجزيرة واعطى ابلوطون جهة الغرب منها واخذ نبطون شاطي البحر ومباشرة الصناعة البحرية ولذلك قالوا ان جوبيتير كان اله السماء اي الجزء الاعلى من الجزيرة ونبطون اله البحار وابلوطون اله النيران التي معناها الجزء الاسفل ثم لما علم ساترن بحيلة زوجتهِ ووجود اولاد لهُ منها خاف على نفسهِ وهرب الى بلاد ايطاليا في زمن الملك يانوس وهو ملك من ملوك ايطاليا عبدوهُ بعد موتهِ كانهُ اله يعتقدون انهُ ذو وجهين ينظر باحدهما المستقبل وبالاخر الماضي والمعنى الاشاري الى ذلك انهُ ملك عظيم كان يعرف ما مضى وينظر في عواقب ما ياتي ويصورونهُ بصورة شخص في احدى يديهِ مفتاح والاخرى قضيب اما المفتاح فلانهم كانوا يعتقدون انهُ مخترع الابواب والاقفال واما القضيب فلانهُ يحكم بهِ في الطريق ليامن بهِ اهل السياحة وكانت ايامهُ تسمى ايام الهنا لان حكمهُ كان خاليًا من المكدرات وكانت رعيتهُ في غاية الراحة وخلو البال فعلم الدهر هذا الملك علم الفلاحة وتقويم السنين ثم انهم كانوا يصورون ساترن المذكور ايضًا بصورة شيخ هرم باحدى يديهِ مسمار وفي الاخرى منكاب او ساعة رملية اشارةً الى ان الدهر يفني كل شيء وانهُ يخرج ما عندهُ من المخبئات كحبوب الرمل وقد سمى اليونان باسم ساترن هذا نجمة زحل وسموا باسم جوبيتير نجمة المشتري على ما تقدم وعليهِ فقس باقي القسم الاول من آلهتهم الذي جعلوهُ رتبتين الاولى تحتوي على آلهةٍ علويين كجوبيتير المذكور ونبطون ويونون وغيرهم وعلى آلهةٍ سفليين وهم آلهة الارض والليل والنوم والالعاب كبان وفونة والساتيرية وغيرهم وقد

ذكرناهم جميعًا في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف الذي مرّ ذكرهُ واما آلهة القسم الثاني الذي تركنا الكلام عليها الى هذا الكتاب وفيهِ انصاف الالهة يعني فحول الرجال الذين لعظم شجاعتهم اعتقد اليونانيون بانهم متولدون بين الباقي والفاني اي بين الهٍ وبشر فان منها برشاوش الذي يزعمون انهُ ابن جوبيتير مولود لهُ من اينا بنت اكرزيوس ملك ارغوس بدعواهم انهُ ركب فرسًا ذا جناحين يسمى بيغازة وآل امرهُ ان جوبيتير نظمهُ هو وهذا الفرس في سلك صور الكواكب فان من جملة الكواكب المعروفة الان برشاوش والفرس ذا الجناحين ومن المعلوم ان الفلكيين استنبطوا اسماء الكواكب من هذه الخرافات ومنها هرقول وهو اشهر فحول رجال القدماء يزعمون انهُ ولد لجوبيتير ايضًا من الكمينة زوجة انفتريون ملك طيوه وانهُ قطع الثعبانين اللذين ارسلتهما يونون زوجة ابيهِ جوبيتير لاهلاكهِ ثم لما تصالحت معهُ اخيرًا ارضعتهُ فطار من لبنها شيء في السماء وانتشر فحدثت عنهُ طريق اللبانة وهي المجرة ثم قتل ايضًا اسدًا كان يخرب البلاد ويفترس اهلها في اجمة نيما وصار يلبس جلدهُ علامةً على اول نصرانهِ وقتل تنينًا ذا ٧١٤ روؤس كان في بحيرة لرنة وقبض على خنزير وحشي كان بجبال اريمنثة وقتل بقرةً وحشية كانت تخرب البلاد التي حول جبل مينا وكانت رجلاها من نحاس وقرونها من ذهب وطرد طيورًا ذات قوةٍ خارجة عن العادة كانت ببحيرة استنفالة باقليم اركاديا تقطع المارة بمخالبها وهزم النساء الحربيات المسترجلات المسماة امازونات بقرب نهر ترمدون وكذلك قتل ديوميد وبوزريس وكانا مشهورين بالظلم وقتل جريون ملك اسبانيا وكان ظالمًا ولهُ ٣ اجسام ومسح اصطبلات اوجياس ملك اليدة وبهندستهِ الفائقة نظفها من الروائح الرديئة التي كانت تجلب الطاعون وقتل ثورًا وحشيًا كان سلطهُ نبطون اله البحار ليفترس اليونانيين لما غضب عليهم. ودخل بستان هسبردية بعد ان نوم الافعي التي كانت تحرسهُ وكان اطلس يمنع عنهُ السماء بكتفيهِ واتى من ذلك البستان

بتفاح الذهب (قيل هو البرتقال وقيل البطاطا) ونزل النار السفليات فاستنقذ منها سربيرة واخرج معها حبيبة طيسة وانقذ ايطاليا من ظلم قاقوس بن بركان وقطع السلاسل التي كانت ابروميثة وهي المسماة عند الفلكيين بالمراة المسلسلة مربوطة بها في جبال قاف وانتصر على انته بن الارض في محاربته اياهُ وقتل ليفوس لكونهِ بعد ان تغلب على مدينة طيوه قتل ملكها الذي هو زوج امهِ وادخل اوقيانوس (البحر المحيط) في الجزء الذي يفصل اوربا من افريقية عند ما فتح بوغاز جبل قادس المسمى الآن جبل طارق وذكر العلماء ان هذه الامور المنسوبة الى هرقول هي تشير الى حوادث اغلبها لم تكن لهُ وحدهُ بل كان هناك اناس غيرهُ مسمون بهذا الاسم ايضًا ولكلٍ منهم فعل فنسبت جميع افعالهم لهُ ومنها طيسة بن ايجة ملك الاثينيين الذي كان معاصرًا هرقول وكان من اقاربهِ واحب الناس اليهِ كما ذكرنا في ما مرَّ وكان مولعًا بقتل الظلمة الذين منهم سيرون الذي كان يرمي المارة في البحر وبروكستة الذي كان يمدد الغرباء النازلين عندهُ على فراشهِ فان زادت اقدامهم عنهُ قطعها او جرَّهم باربع خيول وقتل ثورًا عظيمًا كان يخرب ارياف مرثون وخنزيرًا وحشيًا كانت بعثتهُ ديانة (احدى آلهتهم) الى اقليم ايطوليا حين غضبت على مدينة خلكيدونيا لاهمالهم في عبادتها وقتل منيطور الذي كان حيوانًا نصفهُ على صورة رجل والنصف الاخر على شكل ثور ولدتهُ بازيفا بنت الشمس من زوجها مينوس ملك اكريت وسوف ياتي ذكرهُ وكان ابوهُ وضعهُ في مهواة وكان يغذيهِ لحوم الآدميين ولذلك كان اهل اثينا ملتزمين ان يرسلوا لهُ في كل سنةٍ ٧ صبيان بالقرعة لاجل غذائهِ واختطف هيلانة التي خلصها بعد ذلك اخواها كستور وبولكس وسياتي ذكرها وذلك بعد خراب ترواده بثمانين سنةً وكان معهُ في ذلك بيروتوس ثم شرعا في اخذ بروزربينة بنت ملك المولوسيين وكان يحرسها كلب عقور يسمى سربيرا او قربيرا فقطَّع بيروتوس ذلك الكلب وقيل بل نزل طيسة المذكور مع بيروتوس الى النار لاخراج بروزربينة المذكورة منها فقبض عليهِ

ابلوطون (اله النيران) وكبله بالسلاسل فقطع الكلب المذكور بيروتيوس. واما طيسة فانقذهُ هرقول المقدم ذكرهُ فكافاهُ على صنيعه هذا بذهابه معهُ في محاربة النساء المسترجلات وانتصاره عليهنَّ على ما تقدم. ومنهما كستور وبولكس المذكوران هنا ويُعبَّر عنهما عند الفلكيين بالجوزاء او التوَّامين فاما كستور فكانت لهُ اخت تسمى آكليتمنسترة وكلاهما اولاد تندار ملك ايباليا ببلاد اليونان واما بولكس فكانت لهُ اخت تسمى هيلانة وكانا كلاهما مولود بن على ما زعموا لجوبيتير من ليدا زوجة الملك المذكور لكن جوبيتير تبنى اخيرًا كستور محبة في اخيه بولكس وامران كلاً منهما يعيش مدةً ويموت اخرى لكونه قسم الازلية التي لبولكس ابنه بينهُ وبين اخيه كستور ثم صار كل منهما معدودًا في جملة الكواكب السماوية وكانا في المنزلة الثالثة من منطقة البروج وسميا برج الجوزاء ولم ينالا هذه المنزلة الا بكونهما خدما الناس لاسيما بقطع دابر لصوص البحر فلذا كان البحريون يحترمونهما. ومنها يازون بن ايزون ملك تساليا الذي نهب صوف الذهب من بلاد خلكيدونيا وهو صوف خروف يزعمون بان الالهة اهدينه الى اثماس ملك طيوه فذبحهُ ولدهُ افركسوس لجوبيتير واعطى الصوف الى امير من تلك البلاد يسمى ايتا وضعهُ في اجمةٍ منذورة للمريخ وحرسهُ بثعبانٍ لا ينام اصلاً وباثوارٍ تخرج من انوفها النار وكان يساعد يازون على قصده هذا هرقول وطيسة وكستور وبولكس واورفة ولنصة وتيفيس وغيرهم فتوجهوا جميعًا راكبين سفينةً رئيسها الذي كان يقبض على دفتها تيفيس وكان لنصة لحدَّة بصره يكشف ما تحت الماء من الافات البحرية وكان اورفة[1] يسليهم بالغنا والالحان

---

(١) اورفة المذكور بسمونهُ عقل العود ايضًا لانهُ لما كان في خرافاتهم لكل شيءٍ عقل يعظمونهُ كالهٍ كانت العقول عندهم اكثر عددًا من العقول العشرة التي يذكرها الفلاسفة وبما انهُ كان آلاتيًا كان اذا ضرب العود هامت الاشجار والاحجار وتزحزحت عن محلها ووقفت مياه الانهار عن جريانها وانجذبت اليه الوحوش طربًا ويزعمون انهُ لما ماتت زوجتهُ من لدغة افعى في يوم ابتنائهِ بها دخلت النار فهوى اليها لياخذها بعد ان ادهش

في الاورغونوطية يسيّرون السفينة بالمجاذيف وهرقول يعوقهم عن السفر اما لضخامتهِ وثقل جسمهِ على السفينة او لكونهِ كان يأكل كثيرًا وخلاصة الامر انهم وصلوا الى خلكيدونيا واخذ يازون صوف الذهب وذكر علماء الازمنة ان هذه غزوة كانت سنة ٦٤ بعد تاسيس مدينة تروادة وقبل اخذها بتسع وسبعين سنة. ومنها اوديب بن ليوس ملك طيوه وولداهُ ايتيوكل وبولينس ومن حديثهِ انهُ كان يوجد بقرب المدينة المذكورة السفنكس وهو غول ماهر راسهُ كراس المرأة وجسمهُ على هيئة كلب وذنبهُ كالثعبان واجنحتهُ وصورة مخالبهِ ورجليهِ كالاسد وكان يلغز على كل من مرّ عليهِ فان اجابهُ والاّ افترسهُ الى ان صارت تلك المدينة كالصحراء الموحشة فامر حينئذٍ اكريون خال اوديب المذكور وكان يومئذٍ ملكًا عوض ليوس بانهُ كل من حلّ اللغز يعطيهِ المملكة ويزوجهُ باختهِ يوكستة وكان لغز الغول المذكور هو هذا ما هو الحيوان الذي يمشي في الصباح على اربع وفي الظهيرة على اثنين وفي المساء على ثلاث ففسر اوديب هذا اللغز وقال هو الانسان فعند ذلك غضب السفنكس لكونهِ صار كالمغلوب والقى نفسهُ في البحر واما اوديب فانهُ تزوج يوكستة واستولى على المملكة وكانت يوكستة التي تزوجها امهُ ارملة ليوس ابيهِ فلما عرف ذلك اخيرًا فقا عيني نفسهِ وترك المملكة لولديهِ منها وهم ايتيوكل وبولينس فتقاسم هذان الاخوان المملكة واتفقا على ان كلاًّ منهما يحكمها سنةً فكان اولهما في الحكم ايتيوكل فلما مضت سنتهُ لم يمكن اخاهُ منها فكان ذلك سببًا في حرب طيوه المشهور الذي اصيبت بهِ هذه العائلة الملكية. وكذلك كانت عائلة طنطال ملك فريجيا مثل عائلة اوديب في سوء الحظ والمسكنة وكان طنطال المذكور من نسل جوبيتير الاّ انهُ كان كافرًا فانهُ ذبح ولدهُ بيلوبس ليمتحن بذلك جماعةً من

بالحانهِ خازن النار فاتفق معهُ هذا الخازن على انهُ يسلمها لهُ بشرط ان لا يلتفت الى خلف وهو خارج لكنهُ لما لم يحافظ على هذا الشرط والتفت اليها غابت عن بصرهِ فمن قهرهِ عليها لم يطق بعد ذلك رؤية النساء ابدًا فلم يخالط مدة حياتهِ الا الرجال

الالهة اضافوهُ فلم يأكلوا منهُ شيئًا بل احبوهُ وانما كانت السنبلة لشرهها اكلت كتفهُ فعوضوهُ عنهُ بكتفٍ من العاج والقوا اباهُ طنطال المذكور في جهنم ليعذب بالجوع والظماء والمياه تجري حولهُ والاثمار دانية منهُ وكان من اولادهِ نيوبا زوجة ايفنون التي مسخت صخرةً بعد ان قتل ابولون وديانة اولادها لكونها كانت كافرة مثل ابيها . واما ابنهُ بيلوبس فانهُ غلب اينوميوس ملك ايلاذة واستولى على مملكتهِ وتزوج ببنتهِ هيبودايا وولد لهُ منها ولدان وهما اطرة وطستة اللذان حيث لم تتفق كلمتها وقع بينهما شقاق آل امرهُ اخيرًا الى ان نشأ عنهُ حرب ترواده المشهور. وكان باريس بن بريام احد ملوك ترواده ويسمى ايضًا اسكندر وولد لهُ من امراتهِ التي تسمى هيكوبة وكانت امهُ رات قبل ذلك في المنام وكانت حاملة بهِ كانهُ خرج منها مصباح اضرم النار في المدينة فاولوهُ انها تلد ولدًا يخرب الوطن (قال بعضهم ان مثل هذه الاحلام كانت الجاهلية يخترعونها بعد حصول الشيء والاَّ فاسي رابطة وعلاقة بين ما يقع وبين ما يتخيلهُ النائم اوليس ان الحوادث التي تحصل في المستقبل انما تتعلق باحوالٍ لا رابطة بينها وبين حركات النائم وهي منصورة في التوقف على اسبابها والتاريخ الخرافي مشحون من امثال تلك الاحلام) فلما بلغت اباهُ بريام تلك الرويا امر بقتلهِ لكن امهُ بعثتهُ الى اثنين من الرعاة ربياهُ سرًّا فكان في حال تلك التربية الدنية تلوح عليهِ الصفات الملوكية حتى ان يونون (زوجة جوبيتير) ومنيروه (الهة الحكمة) وونوس (الهة العشق) جعلتهُ حكمًا في المشاجرة التي وقعت بينهنَّ حين كنَّ في وليمة عرس طيطيس وبيلا التي لم تُدعَ اليها الهة الفتنة فحصلت لها الغيرة من ذلك ورمت بينهنَّ رمانةً من ذهب مكتوبًا عليها تحف بها الاجمل منكنَّ فحكم باريس بانها للزهرة فصار هو وعيلتهُ مبغوضين ليونون ومنيروه ثم انهُ تسابق مع اخيهِ هيقطور فغلبهُ فغضب هيقطور من ذلك وعزم على قتلهِ لكن لما ظهر لهُ من القرائن انهُ اخوهُ وتحقق ذلك من الجواهر التي كانت معلقةً عليهِ وكانت امهُ اعطتها للراعي وامرتهُ بتعليقها عليهِ فعرفها هيقطور فنسي تعبير الرويا واعتنقهُ

واواهُ اليهِ. ومنها ايضًا اوليس اوهو عولوس الذي كان ملكًا على جزيرتي ايتاكه ودولكليوم التي تسمى الآن طياكي وهو ابو تلماكوس صاحب القصة المشهورة المؤلفة من الاديب فنلون الفرنساوي وسوف يأتي ذكرهُ في محلهِ وقد ترجمها من اللغة الفرنساوية الى العربية العلامة الفاضل رفاعة بك الطهطاوي في مصر والآن تطبع في اخر صحائف حديقة الاخبار في بيروت. ومنها دردانوس بن جوبيتير من امرأته المسماة ايلقتراحا وكان لهُ اخ يحكم معهُ اقليم توسكانا ببلاد ايطاليا فقتلهُ وذهب الى اقليم تروادة وتزوج ببنت حاكم هذا الاقليم واسس معهُ مدينة تروادة المذكورة وكان ذلك قبل تاسيس مدينة رومية بنحو ٧٠٠ سنة اي سنة ١٤٥٠ ق م وفي بعض التواريخ سنة ١٣٢٤ ق م ولما كان هرقول وقد تقدم ذكرهُ اختطف هزيونة بنت بريام المذكور في ما مر واعطاها لبعض روساء عساكر اليونان في وقتما كان مشغولاً بتخريب بلاد تروادة فعزم باريس على تخليصها لكونها عمتهُ ولذلك توجه الى منيلاس بن اطرة بن بيلوبس بن طنطال وهو اخو اغاممنون فالفت مينوس محبتهُ في قلب هيلانة زوجة منيلاس المذكور فتولعت بهِ وذهبت معهُ الى تروادة ففرح والدهُ بذلك رجاء ان يفتدي اليونان هيلانة هذه ببنتهِ فيردوها اليهِ لكن خاب املهُ لان اليونان امتنعوا عن رد هزيونة وتحزبوا جميعًا وذهبوا الى تروادة في طلب هيلانة فحاصروا هذه المدينة عشر سنوات حتى اضمحلت[1] بالكلية وكان سبب طول مدة الحصار عدة امور اولها ان اهل اسيا جميعًا ذهبوا الى معاونة الترواديين ثانيها شجاعة هيقطور ثالثها مشاجرة وقعت بين اغاممنون المذكور واشيل وانتهى

---

(١) حيث ان اخبار هذه الحرب مستنبطة من اشعار اوميروس كان الاعتقاد عند الاكثرين بانها من جملة الخرافات اليونانية ودام ذلك الى ان ظهر العلامة هنري شليمن الجرماني وايدها بواسطة كشفهِ في سنة ١٨٧٦ م الكنوز الثمينة من غنائمها المدفونة بمدينة مسيني في قبر اغاممنون وغيرهِ من الابطال الذين كانوا في هذه الحرابة كما سوف يرد في محلهِ من هذا الكتاب

الحال بخراب هذه المدينة سنة ١١٨٤ ق م. وكان ونية بن وينوس وابوهُ انكيزة احد امراء مدينة تروادة المذكورة فخلصتهُ وينوس امهُ من هذا الحرب وذهبت بهِ الى المحل الذي اسست بهِ ديدون (التي سبق ذكرها في الكلام على الفينيقيين) مدينة قرطاجنة ومكث عند ديدون المذكورة عدة اشهر ثم ذهب بامر جوبيتير الى ايطاليا وتزوج لوينيا بنت الملك لاتينوس وخلفهُ على مملكتهِ لكونها حق زوجتهِ واسس فيها مدينة رومية قال بعض المولفين ان حوادث اينية وديدون هي محض اشاعات عند العوام ومحض تخيلات باطلة عند الشعراء (نظير اوميروس وغيرهِ اذ لا يخفى بان اشهر هذه الحوادث وغيرها من الوقائع والحروب في زمن جاهلية اليونان هي ماخوذة عنهم ولا ريب ان كثيرًا منها لا يوثق بصحتهِ وخصوصًا ما نحن بصددهِ من اخبار فحول شجعانهم المعتبرين عندهم انصاف الهة او الهة من القسم الثاني على ما سبقت الاشارة اليهِ) والاَّ فقد ذكر علماء الازمنة ان اينة كان قبل ديدون بثلثماية سنةٍ ولكن الشعراء لم ينظروا الى ترتيب الازمان بل نظموا اشعارهم في هذين الشخصين على مقتضى تخيلاتهم الباطلة وقد ذكر المورخون بان هذين الشخصين احدهما اول موسس رومية والاخر اول موسس قرطاجنة وكانت كل واحدة من هاتين المدينتين معاصرةً للاخرى وخصيمتها بحيث لم تكن مشتغلة الا بالبحث عن تدمير عدوتها ثم انتهى الامر ان صارت احداها (قرطاجنة) تحت طاعة الاخرى (رومية) ومن مراجعة حديث قرطاجنة المدرج في الكلام على الفينيقيين تعلم كيفية ذلك انتهى

الفصل الاول

في كيفية تقدمات اليونانيين الى وقوع الانقسام بين اسبرطة واثينا

قد كان السبب في ايراد ما ذكرناهُ من اخبار انصاف الالهة المذكورين التيتانيون الذين جاءوا من فينيقية وعلموا اليونانيين جملة معارف منها اصول عبادة آلهتهم ثم بعد ان انشاوا عندهم جملة مدائن صارت فيما بعد ممالك صغيرة من اقدمها مدينة سيسيوم عند خليج ليبانتو وكان وضع اساساتها في عصر ناحور جدّ ابرهيم الخليل الاب الاول للاسرائيليين اي نحو سنة ٢٠٨٩ ق م ومدينة ارغوس ايضًا في اواخر ايام ابرهيم المشار اليهِ اعني سنة ١٨٥٦ ق م كثرت غزواتهم وحروبهم فتلاشوا وانقرضوا ومن ثم رجع اليونانيون الى حالتهم القديمة وبقوا على ذلك نحو ٣٠٠ سنة الى ان وافى الى بلادهم رجل مصري يقال لهُ ققروبس وبمعيتهِ قوم من بلادهِ فاسسوا مدينة اثينا التي صارت اخيرًا وطنًا للمعارف والعلوم وذلك في سنة ١٥٥٦ ق م وسموها ققروبيا نسبةً لهُ ثم بنوا ارغوس وسبارطة واسس ققروبس المذكور في اثينا محكمة اريوس باغوس ومعناها تل المريخ نسبةً الى التل الذي بناها عليهِ واعدها لمقاصة القاتلين وهذه المحكمة هي التي استضاءت شهرتها في ما بعد (وكان من اعضائها ديونيسيوس الاريوباغي المذكور في اعمال الرسل ص ١٧: ٣٤ وهو من اشهر علمائهم واول مسيحي تنصر عن يد بولس الرسول الذي ادخل الديانة المسيحية بينهم سنة ٥٢ م) ثم اظهر لهم ققروبس المذكور ايضًا الدين وسن لهم الزواج بعد ان كانوا لا يعرفونهُ كما ان رجلًا مصريًا اخر يقال لهُ دانيوس كان اول من ادخل عندهم علم الفلاحة

في مملكة ارغوس مع غيرها من الفنون وفي سنة ١٥٥٠ ق م اتى الى قسمٍ من بلاد اليونان يدعى بيوتيا رجل من اهالي فينيقية يقال لهُ قدموس وبنى قلعة عظيمة سماها كادمه حيث بني بعد حين مدينة طيوة اوثيبة اليونانية وادخل معهُ فن الكتابة بحروفٍ هجائية كانت مستنبطة في بلادهِ قال بعض المولفين انهُ وضع منها ١٦ حرفًا ثم اكملها اخيرًا بلاميدس وسيمونيدس وكان اليونانيون اولاً يكتبون سطرًا من اليسار الى اليمين ثم سطرًا من اليمين الى اليسار وعلمهم ايضًا زراعة العنب وعمل المعادن فانتشرت هذه الفنون في بلاد اليونان ومنها الى سائر بلاد المغرب وفي خرافاتهم ما ملخصهُ ان قدموس بن اجنور ملك الصوريين بعد ان حكم طيوة مدةً اصيب بمصائب منها احتراق بنتهِ سميلة حيث احبت ان ترى جوبيتير على صورتهِ الاصلية وكان ذلك باغراء يونون زوجة جوبيتير لغيرتها منها فتشكلت لها في شكل عجوز واقنعتها ان تطلب منهُ ان ياتي لزيارتها على شكلهِ الاصلي كما ياتي ليونون فلما جاء اليها اقترحت عليهِ ذلك وحلفتهُ بنهرٍ في الجنة يقال لهُ الستكس فاجاب سوالها حرمةً لهذا اليمين وظهر لها كما يظهر ليونون فاحترقت بصواعقهِ وكانت حبلى منهُ فاخذ جوبيتير الجنين من بطنها لخوفهِ عليهِ ووضعهُ في فخذهِ الى ان جاء اوان وضعهِ فكان هو بخوس الآتي ذكرهُ الذي علمهم زراعة العنب واما جمهور المولفين فيعتقدون ان المراد بخوس المذكور هو نوح الاب الثاني للبشر لانهُ هو اول من غرس الكرم بعد الطوفان العام واعتصر النبيذ تك ٩: ٢٠ وزعم اخرون انهُ هو النمرود المذكور في التوراة لان كلمة نمرود معناها باللغة العبرانية بكوس يعني بن كوش ومن مصائب قدموس المذكور ايضًا غرق ابنتهِ هينو عند ما هربت من زوجها اطماس ومنها ان ابنتهُ اغاوة قتلت ولدها المسما بنثا حين سخر من مواسم الميناوية ومنها طرد انيفون لهُ من مملكتهِ فذهب هو وزوجتهُ هرميون الى ايليريا واقاما بها مدةً طويلة كئيبين حزينين الى ان رثى لحالهما الآلهة فغيروهما الى صورة ثعبانين . انتهى . وهناك رجل آخر يقال لهُ اطر بطوليمس خاطر بتقطيع نفسهِ

اوربا حيث علَّمهم صناعة الحراثة كما خاطر بخوس الذي مرّ ذكرهُ لما علّمهم زراعة العنب

ولما كانت حروب هذه الامة قبل ان تفتح بلاد ترُوادة التي مرّ ذكرها كثيرة جدًّا واضعفتهم عن مقاومة الاعداء قام بينهم رجل يقال لهُ امفكتيون او امفقطيون واضطرهم الى التحالف مع بعضهم فتعاهد اهل ١٢ مدينةً من اعظم مدنهم وتحالفوا على الاتفاق وكانت رسل هذه المدن تحضر كلَّ سنةٍ مرتين الى مدينة ترموبوليس للمذاكرة بمجلس رتبوهُ هناك للحكم في فصل الخصومات وسموهُ امفكتيون باسم واضعهِ المذكور

ثم بعد ان استولوا على مدينة ترُوادة المذكورة في التاريخ الذي اشرنا اليهِ وخربوها بعد ان كانت شهيرة في بلاد اسيا بالقرب من بوغاز كاليوبولي ولازالت اثارها باقية الى الان اسسوا هناك عوضها مدينة ثانية سموها باسمها ونزلت قبائل منهم بالجزائر التي بالقرب من شطوط بلاد اسيا الصغرى المسماة الان اناطولي ولكثرة راحتهم هناك مارسوا العلوم والفنون وكثرت عندهم المعارف والف لهم مينوس ملك كريد الذي سماهُ شعراؤُهم قاضي النيران وقد مرّ ذكرهُ قوانين اغلبها الحث على الحرب ادَّعى انهُ أُلهم بها

وفي سنة ٩٢٣ ق م ظهر بينهم اول شاعر وكان اسمهُ هسيودور ولعلهُ هزيودرس الذي ذكرهُ بعضهم فقال انهُ كان معاصرًا لاوميروس نشأ في ضيعةٍ من ضيع بيوتيا ولم يصل للمتاخرين من شعرهِ الاّ قصيدتان احداهما سميت نسبة الالهة موضوعها الميثولوجية التي مرّ ذكرها وما فصلناه منها هنا وفي كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف لجهة توليد الهتهم وما جرى بينهم من الحوادث والثانية سميت الاشغال اليومية وموضوعها الزراعة ومتعلقاتها ولهُ ايضًا قصيدة اخرى تعرف بترس هيراكليس (هرقول) وشعرهُ جيد ومقبول لكنهُ لم يضاهِ شعر اوميروس الذي عُرف بانهُ هو اول شعراء اليونان ظهر في سنة ٨٨٥ ق م وكان صاحب قريحة بديعة وعقل فائق نشأ بمدينة ازميراى

بجزيرة ساقص المسماة جزيرة المصطكي وساح في جميع بلاد اليونان وبلاد اناطولي وبجزائر البحر الرومي وبر مصر وغيرها من البلدان فبرع في علم الجغرافيا والاداب والاخلاق والعوائد وشرّف اليونانيين بقصيدتين حماسيتين تسمى احدهما الالياذة والثانية لودوسيا وهما تتعلقان بمدح حروب اليونانيين وخرافاتهم خصوصًا حرب تروادة الذي مرّ ذكرهُ ولشعرهِ حماسة عظيمة شهيرة في كتب العلوم الادبية الافرنجية ومعروفة عند العرب ايضًا والبهِ اشار ابن الصائغ بقولهِ «كأني اوميروس لدى ابن محمدٍ» ويقال بانهُ فقد بصرهُ عندما ذهب من المورة الى كولوفون ببلاد اليونان ومن ثم لقب بالاعمى وكان يطوف متسولاً وهو ينشد اشعارهُ قطعةً فقطعةً في اثناء تطوفهِ وبعدهُ اعتنى بجمعها بيزستراتوس المشهور خليفة سولون وسوف يأتي ذكرهُ وزعم بعض المتاخرين ان اوميروس المذكور ليس هو الاّ شخصًا موهومًا متخيلاً نُسِبَت اليهِ اشعار اليونان المتفرقة كما تقول العرب في مجنون ليلى والظاهر ان الذي الجاهم الى هذا الزعم هو عين ما الجأ غيرهم الى قول ما قالوهُ بشان لغة اليونان وسوف نوردهُ في الكلام على كلٍّ من اللغة والشعر في محلهِ

وكانوا قبل كل شيء اعدّوا مواضع لانواع اللعب المختلفة كركض الخيل والمصارعة والجري والمقاتلة والملاكزة وسائر انواع الرياضات التي تصلح البدن وتفيدهُ النشاط والخفة والعافية وتجعلهُ مستعدًا للاشغال الحربية ولئن كان شملها الفساد بعد مدةٍ حتى صارت كانها من السخريات حيث انحصرت خاصةً بالمصارعين او بفخر الرجل منهم بسبق فرسهِ لهُ وان كان راكبها غيرهُ وفقدوا بسببها الاعتناء بالمصالح العامة الى غير ذلك من الامور المضرّة وكانوا يقيمونها في مواسم مخصوصة لالهتهم لانذكر منها هنا الاّ الملاعب الاولمبيقية التي كانوا يشهرونها اكرامًا لجوبتير في كلّ اربع سنوات مرةً بالقرب من مدينة لمبية ببلاد المورة ولذلك سميت الاولمبيقية وكان اعظم ما فيها رماحة الخيل وكانت المسافة ما بين اللعبين تسمى بالاولمبياد وبهِ كانوا يورخون وكان اول

اولمبياد عدهم سنة ٧٧٦ ق م واما باقي هذه المواسم فهو مذكور في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا يلزم ان نكرر تعداده هنا وكانوا في البعض منها كالمواسم الساترنالية اي المختصة بساترن يغلقون الدواوين والمدارس العامة ويتهادون ويوخرون عقاب المذنبين ويتقاعدون عن الحروب وكان السادات يخدمون خدمهم على الموائد وكان الرجل الغالب في هذه الملاعب التي يلعبونها فيها يلبسونه اكليلاً من اغصان الزيتون الاخضر ويتلقونه بالتصفيق ويكرمونه اكرامًا لا مزيد عليهِ وكان من اراد الدخول بجملة اللاعبين لابد له من ان يعدّ نفسه لذلك بامتناعهِ عن الاطعمة الغليظة وانواع المسكرات وعن كل ما يضعف الجسم ليتمكن من نوال الغلبة والى هذا اشار بولس الرسول في رسالته الى اهل كورنثوس (ص٩: ٢٤ و٢٧) وفي هذا العصر ايضاً بنوا الهيكل المشهور لابولون في المورة

ثم انقسمت هذه الامة اليونانية الى فرقتين الاولى اهالي اسبرطة وهي مدينة شهيرة من بلاد المورة كانت كرسي مملكة لاقونيا بينها وبين البحر مسافة قريبة وتسمى ايضًا لقدمونة وقد عدمت مع الزمان فلا يوجد الان الاّ اثارها والثانية اهالي اثينا كرسي ولاية اتيكة وذهب كل منهما مذهبًا خاصًّا بهِ كما يُعلم ذلك من التفاصيل الآتية

الفصل الثاني

في كيفية سلوك اهالي اسبرطة

اما اسبرطة فيزعمون ان اول ملوكها كان هرقول وقد مرّ ذكرهُ وانها بقيت مدة ٩٠٠ سنة تحت حكم ملكين من ذريتهِ ثم في سنة ٨٨٤ ق م

ظهرت اسباب اوجبت لكورغة بن الملك اونومة ان يسافر من بلاد اسبرطة الى بلاد اليونانيين وبلاد ايوتيا وبر مصر لكيما يتعلم شرائع تلك البلاد فبعد رجوعه شرع في تنظيم الحكومة واقيمت لهم مشورة تسمّى بالسنت وهي مركبة من ٢٨ رجلاً غيرانهٔ لما قويت شوكة ارباب هذه المشورة لكونهم كانوا مستمرين لا يتغيرون صارت اهالي البلاد تنتخب كل سنةٍ ٥ قضاة لاجل منع ارباب المشورة من تجاوز الحدّ وصار لهولاء القضاة كلمة نافذة حتى انهم يعاقبون ارباب المشورة ويجرون جزاءهم ولو بالموت وتنفذ احكامهم على نفس الملك ايضًا وكانوا يسمون ايفوريس وذهب بعض المورخين ان هذه المشورة ترتبت بعد لكورغة المذكور بنحو ١٢٠ سنةً ثم مزج لكورغة الاحكام بالاداب وجعل اهل اسبرطة كعيلةٍ واحدة متحدين في المصلحة العامة مقبلين على اصلاح اوطانهم فلزم من ذلك استواء الناس غنىً وفقرًا حيث انهٔ قسم الارض بينهم بالسوية وابطل معاملة الذهب والفضة وكل زينةٍ لا تتوقف عليها المعيشة وجعل المعاملة بينهم بقطعٍ ثقيلة من الحديد وصار الملوك واهل البلاد ياكلون على مائدةٍ واحدة وزهدوا في المآكل والمشارب وكانوا لا يتحادثون الاّ في الاشياء المفيدة النافعة مع بعض نكاتٍ دقيقة وملح ادبية للتسلية ويراعون في ذلك الادب لتهذيب الاخلاق ايضًا ثم يتنقلون للمخاطبات الجدّية وللتريضات العسكرية والحركات البدنية والالعاب التي تقوي ابدانهم وتجلب لهم الفخار وكانوا ممتنعين من العلوم الدنيوية ومن الصنائع المزخرفة وانما يميلون الى الشعر لكونهٖ يهيج النفوس ويزيدها شجاعةً وحماسةً

وكان من اعظم الاسباب التي نشأ عنها فحول الرجال وكبراء الابطال فيهم احكام تربية الاطفال فانهم كانوا يربونهم على طرف الجمهورية وكانوا يعودونهم على الشجاعة والقوة وكانت المرضعات لا تجعلن لهم قماطًا ويعودنهم على عدم الخوف من ظلام الليل وعلى عدم التشكي الاّ لحاجةٍ لازمة ومتى بلغ الطفل ٧ سنين سلموهُ الى المعلم ليعلمهُ الاشغال والتجلد على المشاق والتعب

والاسراع بالطاعة . وكان المعلمون يسوون بين الاولاد في التعاليم بالمكاتب العمومية بلا تمييز لاحدٍ في تعليم شيء وتقديمهِ على اخر بل يعلمون الكل مع بعضهم بطريقةٍ واحدة وكانوا يجعلون كل مَن ظهرت نجابتهُ في التعلم حاكمًا على من عداه ممن لم تظهر لهُ نجابة وكانوا يحضرون اولادهم معهم على الموائد العمومية ليغتنموا فائدة تلك المجالس ويسالونهم عن الاشياء المهمة ويطلبون رأيهم ويحملونهم على سرعة المجاوبة مع الاختصار والبلاغة . وانما كانوا يأمرونهم باختلاس مؤونتهم ويعاقبون من يُطَّلع عليهِ في هذا الامر ليعلموهم على الحيل والمكايد الحربية وعلى شدَّة التيقظ والاحتراس واقتحام الاخطار وليس في ذلك شيء من رائحة السرقة لوجود الاذن المسوّغ لهُ شرعًا في احكامهم وكانوا اذا راوا في اولادهم مَن هو زمن لا ينفع في الخِدَم المعتادة قتلوهُ وكانوا يضربون الاصحاء منهم بالقضبان ضربًا مبرحًا ربما افضى بهم الى الموت عند هيكل ديانة (احدى الهتهم) ليعودوهم على تحمل الآلام وبذلك وامثالهِ من العوائد الخشنية يستدلّ على انهم كانوا لا يعرفون في امورهم الرفق الدالّ على الحكمة والعقل

واول ما أسسهُ لكورغة في شرائعهِ هو تشجيع اهالي اسبرطة وتصييرهم محاربين لا ينغلبون فكانوا دائمًا مستعدين للحرب كانهم في معسكر وكانوا يقدمون على الحرب فرحين مستبشرين وكان يعلمهم ان الحرب لا يُقصَد بهِ الّا الذب عن النفس فلا يؤخذ من قتيلٍ سلبهُ وان لا يتخذوا سفنًا بحرية مخافة ان يجرهم ذلك للاسفار البعيدة والفتوحات وكانوا يكسون اصنامهم ولاسيما صنم الزهرة بالزرديات تشجيعًا لانفسهم لانهم اذا راوا الهتهم مكسوة باثواب الحرب حصل لهم من ذلك حماسة واشتاقوا اليها واذا قدموا لهذه الالهة هدايا او قرابين قدموا ما قيمتهُ قليلة خوفًا من التبذير وكانت صلواتهم قليلة ولا يهتمون بشأن الجنائز دليلاً على عدم انزعاجهم من الموت وكانوا يمتازون عن غيرهم بحب الفخار والوطن والشجاعة والانقياد للشرائع الى ان صاروا بذلك محترمين عند مَن جاورهم ومحكمين في فصل الخصومات بسائر بلاد اليونان وبلغ من خصالهم

الممدوحة ان رجلاً منهم يسمى بداريطس كان صاحب معارف ومع ذلك ابوا ان يجعلوهُ من اهل مشورتهم التي كانت تحتوي على ٣٠٠ نفر فلم يتأثر من ذلك بل اظهر الفرح قائلاً يحق لي الفرح والشكر حيث ان سبارطة وجدت لها ٣٠٠ رجل خيراً مني

ونظم ايضاً لكورغة النساء في سلك تربيتهِ حيث لهنّ اليدُ العلياء على قلوب الرجال فاكتسبنَ من التعليم فضائل الرجال وصحة الابدان واورثنَ ذلك لاولادهنّ حيث اوجب عليهنّ معاناة الرياضات الشاقّة وكانت البنات ايضاً مستمرات على اللعب والمصارعة ولذلك حصل من النساء عندهم عجائب مدةً طويلة واحترمهنّ الرجال حتى ان احداهنّ قالت لابنها وكان قد جُرِح جرحاً بليغاً صار بهِ اعرج يا بُنيّ لا باس عليك بذلك فانك لم تسر بعد الان خطوةً الاَّ وذُكِرَتْ شجاعتك وقالت اخرى لابنها وقد ناولتهُ ترسهُ عند ما كان ذاهباً الى الحرب عُدْ اما بهِ واما عليهِ تعني بذلك اغلب وارجع اليّ بهِ او مت كريماً فياتيني بك قومك محمولاً عليهِ وعلى هذا المنوال تشيدت جمهورية اسبارطة وقويت جدًّا وتعاظمت واوقعت الرعب في قلوب جميع مما لك اليونان التي امست تخاف سطوتها مدة ٥٠٠ سنةٍ

الفصل الثالث

في كيفية سلوك اهالي اثينا

واما اهالي اثينا التي هي من الاقطار المجذبة وزال عنها الجذب بسبب نجابة اهلها حتى صارت معمورة فانهم كانوا يكثرون من زراعة شجر الزيتون ويهتمون بهِ لانهُ اصل رزقهم ويعتقدون انهُ هدية اهدتها لهم الحكمة الالهية ثم بعد ان

مكثوا مدةً منقسمين الى ١٢ قرية على ما ذكرنا في ما سبق وجاء زمن حرب تروادة الذي سبقت الاشارة اليهِ جمعهم رجل يقال لهُ تيزه وجعلهم جمهورية واحدة وكان كرسي مملكتهم اثينا وقسمهم الى ٣ مراتب الاولى اهل الشرف والثانية الفلاحون والثالثة اهل الحِرَف وكان حكمهم اولاً من نوع الملكي حتى زمان احد ملوكهم المسمى قودروس الذي كان معاصراً لشاول ملك اسرائيل وفي ايام هذا الملك اعني بعد فتح طروادة بنحو ٨٠ سنة رجع الهيراكلدية وهم من نسل هرقول الى بلادهم المورة وكان قبل ذلك طردهم منها رجل يقال لهُ اوريستي جدّ اغا ممنون الذي تقدم ذكرهُ

ثم لما اتوا لمحاربة اثينا ايضاً استشاروا في هيكل ابولون الفال فانباهم انهم يفوزون بالغلبة على الاثينيين ان لم يقتل ملكهم قودوروس المذكور في الحرب واذ كانوا يرضخون لمثل هذه الاوهام احترسوا جدًّا من قتلهِ اما قودروس فلما علم بذلك تزيّا بلباس العامة ودخل بين صفوف الجنود الهيراكلدية وقتل في المعمعة حبًّا بانقاذ وطنهِ ولما شعر الهيراكلدية بما فعل وراوا جثتهُ مجندلة على الثرى بين صفوفهم يئسوا من الغلبة وانقلبوا راجعين وكان ذلك في سنة ١٠٨٣ ق م اما الاثينيون فلم يحبوا ان يولوا بعد قودروس المذكور ملكًا عليهم بل جعلوا جوبيتير الههم ملكًا عليهم وقلدوا الحكم الى ٢٠٠ شخصٍ من الاراكنة واول من تولى هذا المنصب كان ابن قودروس وخلفهُ بنوهُ من بعدهِ واستمر الحكم في يد ذريتهِ نحو ٣١٢ سنةً كان منصب الاراخنة فيها متوارثًا من الاب الى الابن واخيرًا جعلوا للقاضي مدة ١٠ سنوات ثم جعلوها سنة واحدة ثم جعلوا الحكم الى ٩ منهم فقط وقسموا الحكم بينهم لتقلّ هيبتهم بعد ان كانوا جميعهم يشتركون في مهام الدولة لزعمهم بانهُ متى كثرت الحكام قلّت هيبة الحكومة وحيث لم تكن لهم وقتئذٍ شرائع انتخبوا رجلاً يقال لهُ ادركون قيل انهُ كان رئيس الاراكنة المذكورين ليرتب لهم شرائع فرتب لهم شرائع بغاية التشديد حتى انهُ جعل الموت عقابًا لكلّ من ارتكب ذنبًا ولذلك أُهملت هذه الشرائع المبنية على سفك

الدماء وطلب فقراؤهم الحكومة الديموقراطية واغنياؤهم الارستوقراطية ومعنى الديموقراطية الجمهورية التي يحكمها اهلها من غير ان يكون لهم ملك سواء كان ذلك بمشورة منها او من اعيانها الموكلين عنها فان الحكومة التي يحكمها ملك يسمونها مونرشيكية واما الارستوقراطية فهي حكومة الاشراف والاعيان والاصل في هذا الاسم هو الجيِّد القوي وقد ذكرنا ذلك هنا تبعًا للاصل والاَّ في ذلك الوقت لم يكونوا عرفوا هذه القواعد بعد وانما حقيقة الامر هي ان اهل الجبال كانت تريد بان الرعية هي التي تتكلم في المصالح لان اهل المدينة ليس مثلهم في العدد واما اهل السهول فقالوا ينبغي ان توكل المصالح الى اهل الاعتبار واما البحريون فقالوا ينبغي ان يكون الحكم من الاهالي واهل الاعتبار واخيرًا استقرَّ رايهم على ان يطلبوا من رجلٍ يقال له سولون وكان من ذرية ملكهم قدروس ان يرتب لهم شرائع وكان سولون فيلسوفًا معاصرًا الى تاليس الملطي الذي هو اوَّل فلاسفتهم حسبما يتضح ذلك من مراجعة الفصل الاول من المقالة الاولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف وكان مولدهُ في الاولمبياد الخامس والثلثين اي نحو سنة ٦٤٠ ق م بمدينة اثينا وتوفي وعمرهُ ٧٨ سنة وكان ذا عقلٍ عظيم وقوة عظيمة مع صدقٍ وثبات وكان شاعرًا ماهرًا وخطيبًا فقيهًا بالقوانين شجاعًا في الحرب شديد الغيرة على حماية حرّية وطنه وعدوًّا كبيرًا للظلمة وقليل الاعتناء في علو مراتب اهلهِ ولم يكن يعتني بالبحث في الاسباب الطبيعية بل كان يصرف همتهُ بالكلية في علم الاخلاق والسياسة وانهُ هذه الحكمة العظيمة وهي خير الامور اوسطها وكان صرف بعض زمان صباهُ في السفر الى برّ مصر ليتعلم فيها قوانين الحكم وجميع ما يلزم للشرائع وعوائد البلاد وصادف رجوعهُ الى اثينا هذه الاحوال فوضع لاهلها الشرائع التي طلبوها منهُ على ما ذكرنا وكان ذلك في سنة ٥٩٤ ق م وكانت تلك الشرائع التي وضعها شرائع عادلة مناسبة لروح ذلك العصر واحوال البلاد وجعل السلطة الاجرائيَّة في جمعيةٍ من الشعب لا يدخلها الاَّ من كان قد اتى عليهِ ٣٠ سنةً ذكرها

بعض المولفين فقال انهُ كان لاهل اثينا ديوان مشورة عمومية تتذاكر في الامور المهمَّة حتى ان اعضاءها كانوا يقيمون الدعاوي على ديوان السنت الذي كان مركبًا من ٤٠٠ شخص ثم تزايد بعد ذلك الى ٥٠٠ وقيل ٦٠٠ وكانت هذه المشورة تجتمع كل ٨ ايام مرةً وكان كل من كان عمرهُ ٥٠ سنةً يبدي رايهُ فيها وربما كانت فصاحة واحد من هولاء الخطباء ارباب الفتن تغلب حكمة ارباب السنت ولذلك قال انخرسيس الاتوثي الى سولون المقدم ذكرهُ اني لاتعجب مما عندكم فان العقلاء لهم حق التشاور والمجانين هم الذين يحكمون . وكان انخرسيس المذكور معدودًا من الفلاسفة اليونانيين السبعة الكبار المذكورة اسماؤُهم في المقالة الاولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف وهو تتاري الاصل واخو قدويداس ملك بلاد التتار لكن أُمَّهُ يونانية جاء الى اثينا في الاولمبياد ٤٧ اعني سنة ٥٨٨ ق م وقتل بعد ان رجع الى بلدهِ بمدةٍ جزئية وكان فيلسوفًا محترمًا بين الحكماء غاية الاحترام جامعًا بين اللغتين اي لغتهِ الاصلية ولغة اليونان وكان فصيحًا ذا نشاطٍ في كل شيء يعانيهِ ويتعلق بهِ وكان سريعًا في خطبهِ مع الاختصار دقيقًا في الفاظهِ وعباراتهِ بليغًا سريعًا في الكلام حتى كان اذا ماثلهُ احد في النطق يُقال ان فلانًا يتكلم بعبارةٍ تاتارية وكان يحبُّ نظم الاشعار ولذلك نظم جميع قوانين بلاد التتار وضمَّ الى ذلك منظومةً في علم الحرب وهو الذي اخترع طريقة عمل اواني الفخار بالدولاب وكان سبب قدومهِ الى بلاد اليونان لكي يتعلم اللغة والاخلاق وعوائد البلاد فلما رجع الى بلادهِ قتلهُ اخوهُ لكونهِ اراد ان يعمل عيدًا لأُم الآلهة كما تعملهُ اليونان

ثم ان سولون جدد ايضًا محكمة اريوس باغوس وجعل اربابها من قدماء الاراكنة وكان يقيد فيها الامور العامة وتعليم الاولاد لمعرفتهِ ان بقاء عز المملكة يكون بتربيتهم وكان من قوانينهِ التي وضعها لهم بان كل انسان ثبت عليهِ انهُ لم يشتغل بحرفةٍ ولا صنعةٍ وأُتهم بذلك ٣ مرات فانهُ يُفضح على رووس الاشهاد وكذلك من يبذر في اموالهِ ويحرم ابويهِ من القوت الاَّ اذا كانا لم يعلماهُ صنعةً

واما الوالد اذا بخل بالانفاق على ولده فلا يُعاقب وانهُ لا يجب ان تجهز المرأة الى زوجها باكثر من ٣ اثواب وامتعة قليلة الثمن وان كل من اجتمع بالنساء الزواني لا يكون من ارباب مشورة الوعظ وان كل من سكر من ارباب المشورة يعاقب بالقتل وقسم الشعب الى ٤ رتب بحسب وجاهتهم وغناهم وانتخب ارباب الوظائف من الثلث الرتب الاولى واما الرتبة الرابعة فهي عامة الشعب وكانوا يمنعون من حبس المديون ومن لم يكن له ذرية فله ان يوصي بجميع مالهِ ومن مات في الحرب وله ذرية فتربية ذريتهِ تكون على الجمهورية واذا حصلت بينهم فتنة عظيمة كانت جميع الاهالي مامورين باشهار السلاح وحملهِ لاخماد نار الفتنة ثم انهم ضيقوا المصاريف التي كانوا يعطونها لنسائهم في ذهابهنَّ للجنائز والاحتفالات الدينية وكانوا يقبلون جميع الغربا غير انهم لا يمكنونهم من الحكومة وفي القانون المسمى استراسيمه ان كل من أُتهم بنفوذ الكلمة والشوكة وانحط عليهِ راي ٦٠٠ الف من الاهالي فانهُ يُنفى ١٠ سنوات واما السارق فجزاؤهُ القتل واهتم سولون ايضًا بتوسيع دائرة المتجر وترقية اسباب المعامل والصنائع والفنون وتكثيرها والزم كل انسان ان يباشر عملاً ما من الاعمال لتحصيل ضروريات المعيشة على ما ذكرنا وحرض الناس على العفة وطهارة السيرة والاقلاع عن استعمال الكلام المخلّ في الاداب او غير اللائق ومَن خالف ذلك عوقب اشدَّ العقاب

وبعد ان مهد هذا الرجل العظيم الامور واشهر شرائعهُ واخرجها من حيز القوة الى الفعل على ما ذكرنا قصد السياحة خارج بلادهِ فسافر واتى منازل اليونان في اسيا الصغرى ثم ليديا التي كان ملكها كريسوس المشهور بالغنى واختلفت الاقوال بعد رجوعهِ الى بلادهِ فمنهم من قال ان اهل اثينا ارادوا ان يصيروهُ ملكًا فلم يقبل ومنهم من قال انهُ وجد جميع ما كان نظمهُ ورتبهُ قد فقد نظامهُ ورأى عوضهُ فتنًا قائمة لم يستطع اخماد نارها وذلك لان رجلاً يدعى بيزستراتوس كان قد اختلس الحكم من الاراكنة فبذل سولون جهدهُ

عبثًا لتخليص بلادهِ من يد هذا المغتصب ولم ينجح وخلاصة الامر تولى المملكة بيزستراتوس المذكور في سنة ٥٨٠ ق م اما سولون فبعد موتهِ رسم الاثينيون صورتهُ من نحاس اصفر وجعلوهُ ماسكًا كتاب القانون الذي الفهُ بيدهِ وعليهِ ثياب مثل ثياب امير الرعية واما اهل مدينة سلامينا فصوروهُ مثل خطيبٍ يتكلم ويامر وينهى العالم ويداهُ موضوعتان في طي ثيابهِ واما بيزستراتوس المذكور فنجح باستمالة الشعب اليهِ وبمعاملتهِ اهل اثينا باللطف والاحسان ثم عيّن سكان القرى لزراعة الارض ليتباعدوا عن المخاصمات والتعصبات لِما كان عند اهل اثينا المذكورين من الطيش والخفة فكانوا اذا وجدوا شخصًا منهم صاحب معارف وفضائل حملتهم الغيرة منهُ على نفيهِ ثم بعد ذلك يشتاقون اليهِ فيردونهُ ويعطون لهُ منصبًا او وظيفةً ثم بعد قليلٍ يرجعون لِما كانوا عليهِ فيعاملونهُ بالظلم وينفونهُ فلما عيّن بيزستراتوس سكان القرى لزراعة الارض كما ذكرنا احيوا موات الاراضي وكان الفلاح منهم يدفع العشر الى بيت المال وسهّل عليهم هذا الامر بما حصلوا عليهِ من الراحة وحمل اهالي المملكة على الرغبة والميل للعلوم والفنون ورتب لهم خزانة كتب وكان يحيط بهِ اشهر حكماء ذلك العصر وكان بلاطهُ كمدرسةٍ للعلماء وهو اول من اعتنى بجمع اشعار اوميروس كما سبقت الاشارة الى ذلك وامرهم ان يتعلموها واقام لهم بنيانًا عظيمًا في المدينة

الفصل الرابع

في خلاصة ما اشتهر بهِ الفريقان من الحرف والصنائع والفنون والآداب واسباب ذلك

ثم لمّا وقعت اخيرًا بعض اسبابٍ سياسية اوجبت الخصام بين اهل

سبارطة واهل اثينا وتمكنت العداوة بين الفريقين شرع كل من جمهورية اثينا وجمهورية اسبارطة في اكتساب الشهرة العجيبة مخافة ان يفوق بعضهم بعضاً فيها مع كون ان كلاًّ منهما يخالف الاخر في الطباع والاداب بحيث لا يمكن تصادقهما في الالفة والاجتماع ومن ثم حصلت من كلٍّ منهما اشيا عجيبة وامور غريبة فكان من شان اهالي سبارطة ان لا يهتموا بشيء سوى الحرب ولا يشتغلوا في مدينتهم الاّ بصنائع الاسلحة العامة وكانوا فقراء الحال بخلاف اهالي اثينا فانهم كانوا يشتغلون في مدينتهم بالصنائع والحِرَف ومولعين باكتساب المعارف حتى صاروا اغنيا وكانوا يحبون الفخر والوطن واذا احتاجت الجمهورية للحرب تركوا اشغالهم وصاروا كلهم عساكر وكانت عقولهم كاملة بقدر ما فيهم من الشجاعة وما زالت هذه الاوصاف في هاتين الجمهوريتين حتى اشتهرتا ببلاد اليونان وشاع ذكرها ولو اتفقتا على العمل بالقوانين لكانتا اصلاً نافعاً لجميع العالم وانما كانت اهالي سبارطة هي التي تعمل بها دون اثينا وهاك خلاصة ما قد اشتهرتا به من الحِرَف والصنائع والفنون والاداب على وجه الاجمال وهي

كان اليونانيون في مبادي امرهم وزمان توحشهم يكرهون الفلاحة والزراعة فلما اشتغلوا بالمعارف تعلموها حتى انه اعتنى بها الملوك والفلاسفة وكانت اهالي اثينا تزرع الزيتون خاصةً لان اراضيهم لا تقبل زراعة غيرهُ وياخذون الحبوب التي يقتاتون بها من قبائلهم

ثم عرفوا ايضا بان التجارة ربما اغنت عن الزراعة اذا وقع تبادل جيّد فلذلك نصّ اغزنيفون المورخ اليوناني في هذا الباب على هذه الحرفة في بعض مؤلفاتهِ السياسية قائلاً انه ينبغي معاملة ارباب التجارة باللين والرفق ودفع الاثمان لهم قبل المبيع واعطاهم سفناً يجعلون فيها عروض التجارة اذا عُلمت امانتهم سواء كانوا من اهالي الوطن او غربا اجانب ومن المعلوم انه كلما زادت اموال احاد الناس كثرت اموال المملكة فصارت بلاد قورنثية وسيراقوسة عامرةً بسبب التجارة

ثم لما تولى مملكة اثينا بيركليس الخطيب اليوناني تلميذ انكسغوراس الفيلسوف في سنة ٨٨٦ ق م وكان ذا فصاحةٍ وفراسةٍ بحيث لم يكن احد من معاصريهِ مساويًا لهُ حمل اليونانيين على الاشتغال بالحِرَف المهمَّة والصنائع العظيمة فاشتغلوا بها مدة ٣٠٠ سنةٍ كانت عمارات اليونان فيها على ٣ انواع نوع يُنسَب الى دريد والثاني الى ايونيا والثالث الى قورنثية ولم تزل هذه الانواع موجودة بصفتها لم تتغير وكانوا كلما حسنوا ابنيتهم وزادوا في اتقان البنا اشبهوا الاقدمين في عدم التزين وقد نصَّ بعض قوانين افسس المشهورة في الكتب العربية بمدينة اهل الكهف(١) على منع الاسراف في بناء الميادين العامَّة وترك المغالاة في ذلك وانهُ ينبغي ان المهندس يعيّن مقدار ما يلزم صرفهُ من الاموال في العمارة التي يريدون انشاها ويرهن اموالهُ على ذلك فان لم يزد ما صرف فيها على ما عينهُ انعموا عليهِ باعطاء جائزة وان زاد مقدار الربع دفعوهُ فاذا كثرت الزيادة عن ذلك اخذوا الزائد من اموالهِ وفي هذه المدينة التي لم يبقَ منها للآن الاَّ بعض اثار بني اليونانيون سكان اسيا الصغرى هيكل ديانة وتسمَّى ايضًا ارطاميس وهي الالاهة التي كان يعبدها اهالي البلاد وهو معدود من عجائب الدنيا السبع طولهُ ٤٥٠ قدمًا وعرضهُ ٢٠٠ قدم وكان مشتملاً على ١٢٦ عمودًا ارتفاع الواحد ٧٠ قدمًا واشتركوا في ما انفقوهُ عليهِ واهدوهُ لهذه الصنمة ثم بعد ان استمرَّ ٢٢٠ سنةً عامرًا أُحرق يوم ولادة الاسكندر المكدوني فزعم الافسسيون ان النار لم تتمكن من احراقهِ الاَّ لكون ديانة المذكورة كانت

(١) سميت مدينة افسس بهذا الاسم في الكتب العربية لان اهل الكهف عند المسلمين هم الفتية السبعة المشهورون عند بعض طوائف النصارى بهذه الاسماء وهي مكسيميليانوس وبمفلخس ومرتينيانوس وديونيسيوس وانطونيوس واكسكوستديانوس وقسطنطينس ويعتقدون انهم رقدوا في مغارةٍ من هذه المدينة على عهد داكيوس الملك سنة ٢٥٠ ب م فناموا ١٨٤ سنةً الى ان تملك القيصر ثاودوسيوس الصغير فاستيقظوا ثم خامرهم النعاس ثانيةً فماتوا سنة ٤٢٤ ب م واما عند المسلمين فاسماؤهم يمليخا مكشلينا مثلينا وبرنوش شاذنوش مرتونش طفشطيطو قطمير ومدة نومهم كانت ٣٠٠ سنة شمسية

مشغولةً في ذلك اليوم بولادة اوليمباس ام الاسكندر والذي احرقهُ رجل يقال له ارستراط كان خامل الذكر فاراد ان يجعل له شهرةً بحرقهِ ولذلك نهى اهل افسس عن ان ينطق احد باسمهِ جزاء له وعقاباً لكن ضرب المثل عندهم بقولهم ان الاحمق الذي لا يقدر على اصطناع قفص حقير قدر على خراب هيكل عظيم ولم يبقَ من هذا الهيكل للآن الاَّ بعض القناطر التي كان مبنيًا عليها ولم تزل اصحاب السياحة يبحثون عن اثارهِ في محلهِ مع ان هذه المدينة كانت عامرةً في الزمن القديم بالعلوم والفنون وغاصة بالاهل والسكان حتى وفي مبادي القرن الاول للتاريخ المسيحي وفيها كانت واقعة بولس الرسول مع ديمتريوس الصائغ واهل حرفتهِ المذكورة في اعمال الرسل (ص١٩: ٢٤–٤١)

وكانت اصنام اليونانيين على هيئة اصنام المصريين اياديها ملتصقة باجسامها وكذلك افخاذها وارجلها ملتصقة ببعضها غير متحركة ولا مالوفة لعدم اتقانها ولطفها الى ان ظهر رجل يقال له فدياس فبالغ في اتقانها وحسن صنعتها على حسب علومهِ ومعارفهِ وكان هذا الرجل صور صنماً يوضع على عمود فضاهاهُ رجل مخاصم له يقال له الكامين وصور صنمًا مثله فنظر الناس لكلٍّ منهما فوجدوا صنم فدياس قبيح المنظر وصنم الكامين بالعكس فعرف فدياس علة ذلك وهي عدم وضع الصنم في محلهِ فامرهم ان يجعلوهُ في الموضع الذي عيَّنهُ له فلما وضعوهُ في محلهِ وجدوا الامر بخلاف ما نظروهُ قبلاً واقروا بالخطا في ما كانوا اعتقدوهُ ثم اشتهر غيرهُ من الذين يصنعون الاوثان منهم ميرون وليزيب وابركستيل وشاع ذكرهم بحسن صناعتهم ومن جملة ما اتفق لاحدهم ابركستيل المذكور ومُدح عليهِ هو انه صور صنمين على صورة الزهرة ثم اعطاها لاهل بلاد كوس ليختاروا منها واحدًا فاختاروا واحدًا لا يعادل الاخر في الحسن وذلك لان الذي لم يختاروهُ كان مستورًا ببراقع واما الذي اختاروهُ فكان مكشوفًا مع انه لم يكن عند اليونانيين وقتئذٍ من الالوان الاَّ اربعة فقط ثم اشتهر ايضًا في هذه الصناعة بوليغنوت وابولدوز وزكسيس

وپرهسبوز وتيمنت وابل وبرنجين وغيرهم

وكان اهم ما عند اليونانيين من الاشياء العظيمة العزف بالآلات الموسيقية فكان اكثر تعلقهم واهتمامهم به وكانت الحانهم واغانيهم ظريفة ونشأ عن ذلك رقة مزاجهم وحسن طباعهم وتحملهم اقتحام المهالك في القتال وكانوا يدخلون منها في تربية الاطفال ما هو ضروري لكن كانت قوانين اهل سبارطة تمنع الاختراع والزيادة فيها والظاهر ان الموسيقى لم يكمل حسنها وظرافتها الآ في زمن المتأخرين

وكانوا في زمن اوميروس يجهلون العلوم الحربيَّة والقوانين العسكرية فلما جربوا امور القتال اشتغلوا بالعلوم المتعلقة بالحروب حتى تعلموها وتمهروا فيها فصاروا ينصبون عراضيهم على وجهٍ عظيم ويرتبون العساكر ترتيبًا حسنًا ومن اطلع على تاريخ محاصرتهم سراقوسة وصور عرف مقدار درجتهم في ذلك وكان اكثر عساكرهم مشاة وخيالتهم يركبون من غير ركابات وسروج وكانوا يقاتلون في المركبات ايضًا ثم تركوها لعدم نفعها وكانوا اذا نزلوا للقتال تلبس اهالي سبارطة ثيابًا حمرًا الوانها كلون الدم لئلأ يظهر مَن جُرح منهم وكانوا ينعمون على شجعان عساكرهم ويعاقبون الجبان وكان من قوانينهم ان كلّ واحدٍ من الاهالي عليه ان يحمل السلاح ما لم يبلغ عمرهُ ٦٠ سنة •

وكانوا يوصفون بالاداب العظيمة كالذوق السليم وقوة الادراك واتساع اللغة وحسنها بحيث تالفها الاسماع ولا تمجها فسادوا بعلومهم الادبية على من سواهم من الامم وصاروا قدوة لغيرهم في المعارف وكانت لغتهم لا نظير لها في الفصاحة والحسن في كلّ شيء ولاسيما في زمن اوميروس فكانت جامعة اللطف والظرافة والحماسة والقوة ولذلك استدلّ بعض المتاخرين على ان هذه الاوصاف الجميلة والمحاسن العظيمة كانت موجودة قبل اوميروس ناشيةً من كتب مولفة في علوم الادب لانهُ لا يمكن استنباطها وانتشارها الاّ من الكتب المولفة في تلك العلوم وقال اخرون غير ذلك وعدّ بعض الوعاظ من المسيحيين من جملة

اسباب تاخير مجي المسيح الى العالم مدة هذا مقدارها من بدء الخليقة الى الزمن الذي جاء به استكمال لغة اليونان هذه الصفات التي ذكرناها لتقدر ان تقوم بخدمة بشرى الانجيل الذي لم تكن في تلك الاعصر لغة تقدر ان تقوم بتبليغ مقاصده نظيرها

وكان لهم اعتناء عظيم في الشعر حتى ان الخشنين منهم كانوا يشعرون وكانوا يميلون بالطبع الى جعل حظوظهم واغانيهم متعلقة بالآلهة التي يعبدونها وبالشجعان الذين يمدحونهم وبالوقائع التي يعانون حفظها وقصيدة اوميروس المسماة اليادة حث فيها اليونانيين على ترك الفتن بينهم وعلى الشجاعة والحماسة ولم يتعرّض فيها لذكر الفضائل ومكارم الاخلاق لقلّتها في ذلك الوقت وقصائد هذا الشاعر هي التي نشأ على منوالها القصائد الحزنيّة وكان من عادتهم ان يلعبوا في الميادين العامّة العابًا مسلّية يحكون فيها السير والقصص والوقائع فلما كانت قصائد اشيلس المعاصر للملك اكزرسيس الذي تولى مملكة فارس سنة ٤٨٥ ق م نشأ عن انشادها والاطلاع عليها بعض الظلم اخترع شاعر اخر يقال له اسففلوس ابدع منها وكان في زمن هذا الشاعر شاعر آخر يسمّى اوريبدس فنظم القصائد الحزنيّة المقدّم ذكرها التي كانت تؤثر في القلوب لما فيها من النكات الادبيّة وكان في عصر الحكيم سولون اخترع شاعر يقال له طسبيس فن القصائد الالعابيّة المسماة درماتيقية وهذه القصائد كانت هزليات قبيحة ولم يكن لها فائدة الا التهيئة لطرق العقل وتحسين القريحة ثم بعد ان كانوا معتادين على مواعظ الاشعار الحزنية استحسنوا تلك الاشعار المشتملة على السخرية والمجون الفاقدة للحيا التي نظمها الشاعر ارسطوفان ولا يُعلم كيف كانوا يرخصون له في العابهم الاستهزاء بالالوهية وارباب الدولة والحكام واصحاب سقراط احد الفلاسفة ومن خلال هذه الالعاب انهم كانوا يوذون الناس بها بالمبالغة في ذمهم وهجوهم ثم في زمن حكم الثلاثين ظالمًا الذين حكموا سنة ٤٠٤ ق م وكانت مدتهم نحو ٣ سنوات أُزيلت تلك الالعاب القديمة وحدثت العاب مشتملة على

ذم الناس وهجوهم لكن من غير تصريح باسمائهم كالسابقة ثم في زمن الاسكندر المكدوني زالت هذه القصائد بابطالها اياها وتجددت ألعاب اخر مشتملة على ذكر اوصاف الناس من غير ان يتأذوا منها واعتنى بها الشاعر ميناندر حتى جعلها تفوق ما قبلها لكنها لم تدم بل ذهبت ايضًا قال بعض المولفين انه يحق التأسف والحزن على تعبه الذي ضاع وحسن افعاله التي نفعت المورخ ترنس الروماني وسوف ياتي ذكرهُ في تاسيس تواريخهِ عليها ثم بعد ذلك اشتهر جماعة من الشعراء وشاع ذكرهم حيث ابتدعوا في قصائدهم انواعًا شعرية وهم هزيود المولود في مدينة كومة وهو اوّل من نظم في علم الزراعة وكان معاصرًا الى فيفرون فانهُ اشار عليهِ بان يامر تلامذتهُ بحفظ تلك المنظومة ولهُ عدة تآليف نفيسة والفيه وسافة وبندار وسميند وانقريون وتيغريد وغيرهم وكانت قصائدهم مشتملة على اشعار الاغاني واشعار الرعاة والشعر التعليمي والهجو فتلقاها الافرنج عنهم وزاد الرومانيون في تحسين تلك الاشعار وبالغوا في تنقيحها

واشتهر هيرودوتوس ويقال هردوط الهاليكرناسي بانهُ اقدم المورخين ولُقب بابي التاريخ وكان مولدهُ بعد غزوة اكزرسيس ملك العجم بسنين قلائل وكان يعتني بالامور العجيبة والاوهام الخرافية وقد الف كتابًا في الالعاب الاولمبيقية وغيرها من المواسم والاعياد فاكتسب عندهم الرفعة والشرف بذلك وكان توسيديد وقتئذٍ صغير السنّ فلما سمع ما في هذا الكتاب سالت دموعهُ حتى كانهُ سمع اشعارًا حزنيّة فبشر هردوتوس اهلهُ بان هذا الشاب مولود مع غاية الاستعداد للعلوم والمعارف ثم لما انضم هذا الشاب بجملة المحاربين في غزوة المورة جمع فيها تذكرات صحيحة الّف منها كتابهُ المتعلق بهذه الغزوة وهو كتاب عظيم من كتب التاريخ ثم بعد هذا المورّخ بيسير ظهر المورّخ زنفون او هو اغزنيفون الذي كان من الفلاسفة تخرّج على سقراط واخذ عنهُ علم السياسة ايضًا وكان في ابتداء امرهِ مشتغلاً بالعسكرية واعان قورش ملك العجم في محاربتهِ اخاهُ ارتكزرسيس وبعد ان مات قورش في هذه الحرابة عاد اغزنيفون

الى بوغاز كاليبوبولي وارّخ تلك الواقعة ثم تعلق باجيلاس ملك لقدمونة وبعد ان اظهر شجاعتهُ في معاونة اهل سبارطة ذهب الى قورنثية واشتغل فيها بالامور العقلية النفيسة وكان مولدهُ بمدينة اثينا سنة ٤٥٠ ق م وتوفي نحو سنة ٣٦٠ ق م ولهُ عدّة مولفات سياسية لكنهُ امتاز في صناعة التاريخ بسبب كتاب الفهُ يسمّى قوروبوديا وهو في الحقيقة حكايات ادبية وحكم سياسية اغلبها واقعي فلا ينبغي نظمهُ في سلك التاريخ ثم ان اشهر مورخي اليونانيين بعد من ذكروا هم بوليب ودانوس الهاليكرناسي وثيودور الصقلي وبلوتاركة

واما اختراع الفصاحة الحقيقية التي تضمّ قوة العقل الى قوة الاحساسات فينسبونهُ الى بيركليس الخطيب لانهُ قبل هذا الخطيب الفصيح لم يكن عندهم الاّ خطباء لافصاحة عندهم ولا بلاغة وهناك رجل اخر يقال لهُ دمستين كان مستوليًا على عقول الناس بمعارفهِ العجيبة حتى ان ايشين الذي كان معاصرًا لهُ وكان من البلغاء لم يمكنهُ ان يقاومهُ وغلب بشدة فصاحتهِ حكمة فوسيو الحكيم وكان ايزقراط ايضًا فصيحًا بارعًا في الخطابة لكن دمستين المذكور لم يتعلم عليهِ لكونهِ كان على ما قيل فقيرًا وكان ايزقراط ياخذ على التعليم اموالاً عظيمة ولذلك تلقن دمستين على معلم اخر وكان اغلب فصحاء ذلك العصر سوفسطائية يقيمون الادلة على الشيء حقًّا كان او باطلاً وكانوا يعطون الشيء الباطل صورة الحقيقة ويكسون الكذب ثوب الصدق فلذا كانت قواعدهم واصولهم وادابهم لا تساوي اداب مدح دمستين المقدم ذكرهُ في الملك فيلبس فان الفصيح عظيم الخطابة انما هو من حاز المعارف والرياضة والتمرن والاشتغال والانموذجات العظيمة

وبمجرد ما حملت الرغبة والتشوق والمسابقة وغير ذلك من الاسباب الامة اليونانية على التفكر والمطالعة للحين دخلت عندهم الفلسفة فكان اوائل الفلاسفة هم حكماء هذه الامة الذين استقلوا اصالةً باصول البوليتيقة والتدابير والواجبات الجمعية وقد كانوا وقتئذٍ لا يعرفون التدقيق في الكلمات ولا المجادلة

في الالفاظ ولم يكن لم مذاهب مضادة لبعضها ولم يضلوا في الاراء الخرافية والمذاهب الهذرية كما حصل اخيرًا منذ ظهور تاليس المليطي الذي كان معاصرًا للحكيم سولون الذي مرّ ذكرهُ حيث انهم صاروا يتعقلون ويبرهنون على اصل العالم ومبدئهِ وعلى العلل الاولية وعلى جميع الاشياء التي يعسر على العقل معرفتها. يحكى ان تاليس المذكور كان ذات يوم برصد النجوم فوقع في هوةٍ فقالت لهُ عجوز كيف تعرف السماء مع انك لا تنظر ما تحت رجليك قال بعض المولفين في الواقع ان سير النجوم وان امكنت معرفتهُ الاّ ان كلام هذه المرأة معقول لان معناهُ انهُ لا ينبغي للانسان ان يتامّل في ما هو فوق طاقتهِ ومعرفتهِ وكان مولد هذا الفيلسوف سنة ٦٤٠ ق م وهو اول الفلاسفة الذين اخذوا في التعقل والبرهنة على ما اشرنا وكان رئيس القسم الاول منهم المعروف باليوناني ومن اشهر تعاليمهِ ان الماء هو اول الكائنات وعنهُ وجدت سائر الصور والمواد وان الله اوجد كل شيء من الماء وهو راي قديم ذهب اليهِ قدماء المصريين وعنهم اخذهُ هذا الفيلسوف لانهُ تتلمذ في مصر وهو ما زال مقبولاً ومعولاً عليهِ عند كثيرين من علماء هذا العصر ثم اخترع نظم الاشعار المسدّسة وهو اوّل من اخبر عن كسوفات الشمس والقمر قبل وقوعها واظهر الكهربائيَّة بالحك وعرف طريقة مقياس ارتفاع الاهرام والقلاع ونحوها من ظلها الجنوبي حين تكون الشمس في زمن الاعتدال وهو الذي قال ان السنة ٣٦٥ يومًا ورتب قواعد الفصول وحدّد الشهور ورصد الدب الاصغر اي بنات نعش . والثاني فيثاغورس رئيس القسم الثاني المسمّى بالايطالياني وكان ظهورهُ سنة ٥٢٦ ق م وهو اول من تلقّب بالفيلسوف وكان يعتقد تناسخ الارواح واول من علَّم عن استدارة الارض وقال بوجود المتقاطرين ووضع جدول الضرب للارقام الحسابيَّة واخترع اصول الالحان والانغام ومن تلامذتهِ ارخيتاس او اركيانس تاريتينبوس الذي اخترع البكرة والبرمة فكان بذلك هو المؤسس الاول للعلم الطبيعي الميكانيكي ومن ثم تشعب هذان القسمان الى فرق متعددة

يضادّ بعضها بعضاً كالفرقة السقراطية التي كان رئيسها سقراط ومن تعاليمها المعقولات وروحانية الله والفرقة القيروانية التي وضعها ارستيب تلميذ سقراط وزعمت بانهُ لا يوجد فرق اصلاً بين الخير والشر وحصرت سعادة الانسان في اللذات الزمنية فقط والفرقة الاشراقية التي وضعها افلاطون الذي يقال انهُ عثر على كتب موسى النبي واخذ عنها اشياء كثيرة اضافها الى فلسفته وقد سماهُ قيغرون بالفيلسوف الالهي ويصحّ ان يقال عنهُ ما قالهُ بولس الرسول بانهُ كان من الذين لما عرفوا الله لم يمجدوهُ او يشكروهُ كالهٍ (رومية ص ١: ٢١) ومن تلامذته ارسططاليس رئيس جمعية المشائين الذي اشتهرت تعاليمهُ جداً واعتنقها العرب وتشبث بها اهالي اوربا زماناً طويلاً وما زالوا يعولون على بعضها الى الان وهو اول من شرع بتشريح الحيوانات لمعرفة طبائعها وخصوصياتها وكان ذلك بامر الاسكندر المكدوني ونفقته والفرقة الكلبية التي اسسها انتيشينوس وديوجينس اللذان رفضا العلم كانهُ شيء لا نفع فيهِ وابتعدا عن معاشرة الناس ولاماهم والجمعية الرواقية التي وضعها زينون الذي كان يعلّم بان سعادة الانسان تقوم في الفضيلة وحدها . والفرقة الهيرقليسية التي كان رئيسها هيرقليطس الافسسي الذي كان رجلاً متكبراً يحتقر الناس ويعيش في الجبال والفرقة الاليائيكيّة المنسوبة الى اليا او فيليا الايطالياني الذي زعم بان العالم ازلي ولا يمكن ان يكون من العدم ومهد بذلك الطريق الى سبه نوسا الذي انكر الالوهية والفرقة البيرهونية التي الّفها بيرهون منكر الحقيقة والفرقة الابيقورية التي كان رئيسها ابيقور الذي من قواعد تعاليمهِ انكار عناية الله وخلود النفس ووجود الارواح وانهُ يلزم رفض كل شيء غير التمتع باللذات وافراح الدنيا وخلاصة الامر ان الفلسفة صارت اخيراً منبعاً للاوهام الباطلة والجدليات الخطرة واهمال حقيقة الاداب والمواعظ وقواعدها واصولها وعلى هذه الصورة اخذها الرومانيون عن اليونانيين حتى ان كثيراً من تلك القواعد الفاسدة كانت سرت الى العبرانيين ايضاً ومن اراد الاتساع بمعرفة تفاصيل ما ذكرناهُ

باكثر ايضاح فعليهِ بمراجعة المقالة الاولى من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف

وقد اشتغل اليونانيون بعلم الفلك والجغرافيا والهندسة ونجحت امالهم في هذا الفن الاخير كل النجاح وذكر صاحب تذكرة الحكم اقليدس الصوري صاحب الهندسة بجملة فلاسفة اليونان على ان لقبهُ يدل على انهُ كان من الفينيقيين وليس من اليونان وقال ابن خلدون المغربي ان اقليدس صاحب كتاب الاصول في الهندسة كان نجارًا وكذلك ابلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوس وغيرهم

ومن اليونانيين نشأ ايضًا علم الطبّ وكانوا يتداولونهُ لسانًا لا كتابةً حتى ظهر بقراط فكتب عدة فصول فيهِ شرحها ابن القُفّ وكان ظهورهُ سنة ٤٦٠ ق م قال بعض المولفين انهُ ينبغي ان يكون بقراط اول من اخترع الطب الموسس على النظر في احوال المرضى والتجريبات وقد اخترع لذلك المارستانات اعني بيوت الصحة وذكرهُ صاحب تذكرة الحكم فقال انهُ كان يسكن مدينة حمص من بلاد الشام ولهُ تاليف في الطب ترجمت في عهد المامون الخليفة السابع من بني العباس الى اللغة العربيّة وبعدهُ ظهر جالينوس من برغامس وذلك في مبادي القرن الثاني للميلاد ولهُ تآليف كثيرة وتصانيف جليلة فهرسها على ما رونهُ العرب يتجاوز المائة وظهر معهُ روفس وغيرهُ فوسعوا دائرة هذا الفن وكان من اعتقادهم فيهِ هو ان للاجرام السموية دخلًا في امراض البشر وتاثيرًا في اجسامهم ولذلك قال بقراط ان الطبيب الذي لا يعرف علم النجوم لا يعتمد عليهِ لكونهِ ملزومًا ان يتحرى اصلح الاوقات لاعطاء الدوا وكذا قال غالينوس من بعدهِ وكانا يزعمان ان بحران المريض ياتي في اليوم السابع والرابع عشر والحادي والعشرين وهي الايام التي ينتقل فيها القمر من حالٍ الى حال بل جعلا ايضًا جسم الانسان بمنزلة عالم صغير فنزلا القلب فيهِ منزلة الشمس في الافلاك والدماغ بمنزلة القمر وزعما ان المشتري يتولى الرئة والمريخ

يتولى الكبد وزحل يتولى المرة والزهرة تتولى الكليتين وعطارد يتولى الات التناسل والظاهر ان هذه الاوهام سرت اليهم من المصريين الذين اخذوا عنهم كثيرًا من معارفهم ومن الشقاء ان الاطباء اليونانيين كانوا كالفلاسفة ايضًا في تشعبهم الى عدّة مذاهب بعضها عدوّ لبعض واختلافهم في اصول العلوم اوصلهم الى عمليات متناقضة فكان الانسان منهم يشتغل مدة حياته في الردّ على غيره وتاييد مذهبهِ ولذلك حق ان يقال بانهُ نعم لا ينكر فضل هذه الامة اليونانية على المتاخرين في كثيرٍ من انواع العلوم والفنون ولكن المتاخرون فاقوا عليها في اغلب الامور بالطرق المستحسنة والاستكشافات النافعة

غير انهُ ما يستحق الاعتبار في فضائلها ايضًا هو شوكة معارفها التي لم تبرح وقتئذٍ ساطية على دولة التبربر والجهل في حالتي قوة اسلحتها وضعفها لانها لما تسلطت تحت راية الاسكندر المكدوني وتغلبت على كثيرٍ من الممالك في الارض كافأت مصر على ما كان لها عليها من الايادي قديمًا باعادة ما كان لها من رونق العلوم وبهجة المعارف وقد كان ضاع منها ذلك مدة تسلط العجم عليها فانهُ لما كان من عادة هذا الفاتح ان يعمّر مدنًا في المواقع الملايمة للتجارة في شطوط الاقاليم التي يفتحها ويسميها باسمهِ بنى كذلك في اقليم مصر بعد ان انتزعهُ من يد الفرس المذكورين مدينة على شاطي بحر الروم سماها اسكندرية ثم لما خلفهُ بعد موتهِ على مملكة مصر بطليموس ستير احد قواد عساكرهِ اعاد في هذه المدينة ما كان اندرس في تلك البلاد من انواع العلوم والفنون بل زاد عليها امورًا لم تكن تعرفها من قبل فتجددت شهرتها ثانيةً في زمنهِ وزادت رونقًا وبهجةً في زمن خلفائهِ من بعدهِ وكذلك لما آل امر الامة اليونانية ان تدخل تحت حكم اخوتها الرومانيين سنة ١٦٦ ق م نشرت لهم ايضًا علومها ومعارفها وما كانت وقتئذٍ متصفة بهِ من المفاخر التي هي اعظم ما كان متولعًا بهِ اولئك القوم الذين كانوا غير موصوفين الاَّ بالفتوحات فقط نظرًا لكمال عقولها ومعارفها وادابها وتعليمها لهم حقيقة الشعر ومحاسنهِ والبلاغة وعلم التاريخ والادب كما يشهد لها

بذلك تآليف الذين اخذوا هذه العلوم عنها واشتهروا بها من الرومانيين انفسهم كترانس وفيفرون وورجيل وهراس وغيرهم ولم تقتصر معهم في هذا الفعل الحسن على هذه المرة فقط بل امدت به اعقابهم ومن خلفهم في ايطاليا وجاورهم في سائر بلاد اوربا مرةً ثانية ايضًا وهي في حالة الجلاء والالتجاء اليهم لما هجر بعض علمائها مدينة القسطنطينية وقت ما افتتحها آل عثمان كما يُعلم ذلك من التفصيلات الآتية في القرون الاخيرة فكان ذلك داعيًا الى اكرامها وتعظيمها حيث كانت قدوةً لغيرها في الشيم الجميلة والفضايل الجليلة

الخاتمة

ثم لازال اليونانيون تحت حكم الرومانيين من ذلك الزمان الذي اشرنا اليهِ الى سنة ٣٦٤ ب م عندما انقسمت المملكة الرومانية الى قيصريتين شرقية وغربية ومن ثم صارت بلادهم المسماة بهيلاس جزأً من القيصرية الشرقية ولما افتتح آل عثمان المشار اليهم هذه القيصرية في سنة ١٤٥٣ ب م صارت كذلك جزأً من المملكة العثمانية الى سنة ١٨٢١ ب م ثم استقلت وتحرر جانب كبير منها انضمَّ اليهِ في ما بعد الجزائر اليونانية السبع التي كانت باقية تحت تسلط او حماية الانكليز لحد سنة ١٨٦٨ ب م

وكان اوّل من ترأس على هذه المملكة الجديدة رجل يقال لهُ كابودواستريا قتل سنة ١٨٣١ فانتخبت دول اوربا العظام اي انكلترة وروسيا وفرانسا اوتون ثاني اولاد ملك بافاريا ملكًا نودي باسمهِ رسميًا في ١٨ اب سنة ١٨٣٢ وفي سنة ١٨٣٥ نُقل كرسي المملكة من نوبليا الى اثينا ومن هذا الوقت يبتدي تاريخ هذه المدينة كمركزٍ للتمدن الحديث في ذلك القسم

ولما استمرت هذه المملكة تحت سلطةِ الملك المشار اليهِ سلطةً استبدادية لحد

سنة ١٨٤٢ ساء ذلك اهالي البلاد جداً لانهم كانوا يتوقعون حكومة ملكية مقيدة وحينئذٍ قام الجنرال كالرجيس قائد العساكر المقيمة في اثينا بمواطاة الشعب واحاط ليلة ١٤ ايلول بقصر الملك وطلب اقامة جمعية نواب من الأمة لوضع دستور نظامات للبلاد فرضي الملك بذلك وترتبت وزارة جديدة وطُلبت نواب الامة فجرى انتخابهم من احسن رجال البلاد وكان عددهم ٢٢٥ عضوًا وللحين شرعوا في الاعمال وقُبلت النظامات التي وضعوها في ١٦ اذار سنة ١٨٤٤ فكان من اهم قواعدها ضمانة حقوق الاهالي السياسية والشخصية ومساواة جميع التبعة لدى الشريعة وحرية الاديان والمطبعة واقامة مدارس على نفقة الدولة وعدم انتهاك حرمة المراسلات وعدم سجن احدٍ من دون محاكمة وتحويل الدعاوي الى محكمين يُعرفون بالجُوري واستقلال القضاة في احكامهم وتفويض سنّ الشرائع الى الملك ومجلس نواب بنتخبهُ الشعب الى ٣ سنين ومجلس شيوخ (سنا) ينتخبهم الملك الى مدة حياتهم وينتخب ايضًا الوزراء الّا انهم يكونون خاضعين لنظامات البلاد اذا أخلّوا بماموريّاتهم الى غير ذلك من النظامات التي لا محل هنا لذكرها وقد سلكت البلاد بحسب هذه النظامات من حين قبلتها الى الان غير انهُ بقيت هناك اسباب اخرى اوجبت اخيرًا خلع اوثون الاول المشار اليهِ سنة ١٨٦٢ م فتولى المملكة بعدهُ جورج الاول ابن ملك الدانيمارك وبعد جلوسهِ ببرهةٍ جزئية تنزلت ملكة الانكليز عن الجزائر اليونانية السبع التي كانت تحت حكومتها واضافتها الى مملكة هذا الملك الجديد على ما سبقت الاشارة اليهِ

وكان عدد اهالي اثينا لحد الوقت الذي جلس فيهِ هذا الملك على التخت نحو ٣٠ الف نفس ومن ثم اخذت تتقدم في ايامهِ تقدمًا بطيئًا في الثروة وعدد الاهالي الى ان صارت اهاليها في سنة ١٨٧١ (٤٨١٠٧) انفس وهي الآن قصبة مقاطعة اثينا وبيوتيا وعاصمة مملكة اليونان على ما تقدم وهي لا تزال آخذة في استرجاع ما فقدته من سمو المقام بين عواصم العالم اذ شرع الاغنياء

من الاهالي يبنون في القسم الشرقي منها بيوتاً جميلة وترام حيثما توجهوا ينظرون اليها بعين الحبّ والاحترام كعاصمة الامة اليونانية هذا عدا ما بها من الابنية الفاخرة التي لا يوجد مثلها في غيرها وخاصةً البقية الباقية من تلك الهياكل التي كانوا يبنونها لاصنامهم وهي مما يذهل الناظرين واما بيوتها العمومية الحالية فمنها قصر الملك وهو ظريف ذو ثلاث طبقات موقعهُ بالقرب من جبل ليكابتوس ومجلس النواب ومنازل العساكر والمرسح وبناءٌ عظيم أُقيم لاجتماع اكاديمية الامة ولمعرض الاثار وللمدرسة السياسية ونحو ١٠٠ كنيسة بعضها من افخر الابنية واعظمها كنيسة القديس نيقوديموس بُنيت في القرون المتوسطة على نسق بيزنطي وفيها ايضاً شوارع كثيرة متسعة وساحات مرتبة نظيفة وما يدلّ على ذلك دكاكينها وقهاويها ومنازل الغربا فيها وغير ذلك

وكانت هذه المملكة في الزمن القديم ام العلوم والفلسفة ومنها ظهرت الفلاسفة المشاهير الذين نشروا العلوم والمعارف في سائر اجزاء القارة على ما سبقت تفاصيلهُ ولا زالت حتى الآن تحذو حذو اسلافها اذ انهُ ما من مدينةٍ فعلت بقدر ما فعلتهُ اثينا بعد ان اخذت حرّيتها فان فيها مدارس حسنة النظام ولها معلمون ماهرون لادارتها والتعليم فيها ومن جملتها مدرسة كبرى معتبرة تشتمل على ٤٣ معلماً و٦٠٠ تلميذ قد حذت في نظامها حذو مدارس المانيا الكبرى وهي تعلّم الطبّ والشرائع واللاهوت ولها مكتبة عظيمة تحتوي على ٩٠ الف مجلد من احسن المولفات وكان انشاء هذه المدرسة في سنة ١٨٣٦ م ولها ١١ مدرسة اعدادية ونحو ٧٠٠ مدرسة للعموم من ذلك مدارس كثيرة لتعليم البنات كل ما يلزمهنّ من المعارف والصنائع

والمطابع حرّة في اثينا كمطابع انكلترة وامريكا يخرج منها سنوياً كتب شتّى وللاهالي عموماً رغبة شديدة في العلوم والفنون واتقانها وترى اليونان في الخارج يفتخرون بمدارسهم ويرسلون اليها المساعدات والامدادات من كل الجهات فان احد اليونان الموسرين تبرّع بمبلغ نصف مليون من الفرنكات

لاقامة مدرسة عالية للصنائع والعلوم ورجلاً اخر من تساليا يُسمى بلانبيس
تبرَّع كذلك بمبلغ ٣٠٠ الف فرنك للمدرسة الكبرى حتى ان محلَّا للسكاكين
خلَّف ٦٠٠ درخمه جمعها من صناعتهِ فتبرع منها بماية درخمه لتلك المدرسة
وفي وقت طبع هذا الكتاب قد نشرت الجرائد خبر وفاة يواكيم الثاني بطريرك
القسطنطينية وتبرعه بمخلفاتهِ النقدية وقدرها ٢٠٠ الف ليرا عثمانية الى
المدارس اليونانية في هذه المملكة ومن هنا نُعلَم رغبة هذه الامة وبذلها الاموال في
سبيل توسيع دائرة المدارس وتقوية المكتبة في بلادها حتى انها تزداد قوةً سنةً
فسنةً وقد أُقيم في اثينا مدرسة للصنايع توذن بالنجاح واخذ اليونان في
الالتفات الى الصنائع المستظرفة والمهارة فيها

واهالي البلاد جميعًا نحو مليون ونصف تقريبًا وهم مشهورون بجمال
الصورة والوانهم في الغالب سمرنقية واعينهم سود كبيرة ولهم نباهة وذكاء وحدَّة
في الطباع ويحبون الحروب والغنائم وكانوا في الزمن القديم يعبدون الاوثان
التي منها صنم رودس المعدود بجملة عجائب الدنيا السبع وكان من نحاس قائمًا
فوق ميناها والسفن تمرّ من بين رجليهِ وقد سبق الكلام عليهِ في محلهِ واما الان
فانهم مسيحيون حسب مذهب كنيسة الروم الارثوذكسية ويوجد بينهم ٧٠ الفًا
كاثوليك وقليلٌ من الارمن واليهود والحرّية مباحة لكلّ الاديان والحكومة
من نوع الملكي المقيَّد والتجارة المحلية في هذه البلاد ذات رواجٍ ونشاط واما
الخارجية فضيقة الدائرة وقليلة الاهمية ولذلك ترى التجار اليونانيين منتشرين في
اكثر المدن الشهيرة بقصد التجارة التي لهم ولع عظيم وبراعة زائدة فيها

المعارف عند الرومانيين

وفيه مقدمة وبحثان في كلٍ منها عدّة فصول

المقدمة

يقال ان ايطاليا عمرت سنة ١٩٠٤ قبل الميلاد وانها كانت تسمى قديمًا ساتورينا ثم غلب عليها اسم ايطاليا نسبةً الى ايطالوس احد ملوكها القدما الذين وفدوا اليها من اركاديا (قسم من المورة ببلاد اليونان) في الجيل الرابع عشر قبل الميلاد وقيل بل كان اول ملوكها يُسمّى بيكوس وانهُ حكمها سنة ١٣٤٩ ق م ولذلك تسمّى يونانية الكبرى ايضًا لكون سكانها المشهورين قديمًا باسم الكيتم هم فرقة من اليونانيين على ما ذكر قال ابن خلدون المغربي ان اليونانيين يتشعبون الى فرقتين احدهما الاغريقيون الذين اختصوا اخيرًا باسم يونانيين (وهم الذين كنا بصدد الكلام عليهم) والثانية لاتينيون الذين اختصوا كذلك اخيرًا باسم رومانيين وقال ايضًا ان يونان هو المذكور في التوراة باسم يافان او ياوان (والاخير اصح على ما تقدم في الكلام على اليونان) من ولد يافث (تكوين ص ١٠ : ١) فعربتهُ العرب يونان وكان لهُ ٣ اولاد احدهم اغريقس ابو الاغريقيين وثانيهم رومي ابو الروم وثالثهم

لاتينوس[1] ابو اللاتينيين (اي الرومانيين الذين نحن بصددهم) وفي بعض المولفات ان لاتينوس الاول اعني المذكور تولى المملكة سنة ١٣٣٦ ق م وهو اول ملوك هذه الامة ولازالت ايطاليا تحت حكم ذريتهِ الى ان بنى رومولوس مدينة رومية واتخذها كرسيًّا له ولذريتهِ من بعدهِ ومن ثم اتخذ اللاتينيون اسم رومانيين نسبةً له او الى عاصمة مملكتهم التي تسمت باسمهِ

وكان روموليوس هذا على ما قيل شيخ جماعةٍ من قطاع الطريق وكان له اخ يسمَّى روموس او ريموس ابتنيا على تلةٍ هناك تسمى البلاتين على نهر تيبر تبعد عن البحر ١٦ ميلاً بعض اكواخٍ واقاما حولها حائطًا لمنع مهاجات الاعداء وكان ذلك سنة ٧٥٣ ق م قيل ان ذلك الحائط كان واطئًا حتى ان روموس اخا رومولوس احتقرهُ لوطوهِ وقال لاخيهِ يومًا انظن هذا السور سور مدينةٍ فغضب رومولوس من كلامهِ وطعنهُ بحربة كانت في يدهِ فاماتهُ وكان ذلك اول دمٍ سفك والتطخت بهِ اسوار هذه المدينة واستقل هو وحدهُ في تلك الاكواخ وكان قد اجتمع اليهِ وقتئذٍ نحو ٣٠٠ نفس مما هبَّ ودبَّ جعل نفسهُ كبيرًا عليهم ولازال يسارع في تكثير رعيتهِ ويأوي اليهِ ارباب الشرور الذين ارتكبوا الذنوب في بلادهم ولم يمكنهم المكث بها وصاروا يهرعون اليهِ من كل جانب لاجل الحماية وهو يحمي كل من التجا اليهِ الى ان تجمَّع عددهُ نحو ٣ آلاف نفر بدون نساء

وكان من جملة القبائل الساكنة بلاد ايطاليا في ذلك الوقت قوم يقال لهم الصابيون او السابيون ساكنين في ولاية قريبة من ولايتهِ فطلب من اهل هذه الولاية ان يزوجوا بناتهم برجال مملكتهِ فابوا ذلك فاحتال عليهم بان صنع عيدًا في بلدهِ مشتملاً على العابٍ ودعاهم للفرجة وللوليمة التي اعدها فجاءوا

---

(1) يظن بعض العلماء من النصارى ان لاتينوس هذا هو المرموز عنهُ بالوحش الذي عدد حروف اسمهِ ٦٦٦ في سفر الرؤيا (ص ١٣: ١٨) لانهم يحسبونهُ هكذا

٦٦٦ جملة ذلك	ς	ο	ν	ι	ε	τ	α	L
	٢٠٠	٧٠	٥٠	١٠	٥	٣٠٠	١	٣٠

مع نسائهم وبناتهم ولما كانوا ملتهين في الفرجة ولذات المآكل وقد الهجهم براعة الرومانيين في الرقص واللعب اظهر رومولوس لاصحابهِ اشارة كان اتفق معهم عليها فسلوا سيوفهم وهجموا على ضيوفهم وقتلوا اكثرهم وبهذه الطريقة سلب بناتهم قهرًا عنهم وزوجهنّ لجنوده فلما بلغ هذا الفعل القبيح سائر طوائف الصابيين غضبوا وانضم بعضهم الى بعض وجاءوا لمحاربة الرومانيين فالتقاهم رومولوس بجماعتهِ لكن قبل ان انتشب القتال بين الفريقين دخلت النساء اللواتي اسرهن الرومانيون الى ساحة الحرب وفرّقنَ بين الطرفين صائحاتٍ باعلى اصواتهنّ ارجعوا ولا تضروا بعضكم بعضًا فاية فرقةٍ مسكما انتصرت على الاخرى لاتجلب علينا سوى الحزن والاسف لاننا بنات الفرقة الاولى ونساء الفرقة الثانية فاثر كلامهنّ في قلوب الفريقين وتصالحا بدون قتال

ومن ثم انتخب القوم رومولوسَ حاكمًا عليهم فساسهم احسن سياسة واخذ في تقوية مملكتهِ بالتدابير المتقنة وتسليح العساكر وقسم جماعة النازلين معهُ على ٣ قبائل وجعل كل قبيلةٍ ١٠ التزامات وقسم الارض التي معهُ ٣ اقسام القسم الاول اوقفهُ على العبادة الدينية والثاني ابقاهُ لمصالح المملكة والثالث وزعهُ على اهالي المملكة فكانت حصة كل واحدٍ منهم نحو فدانين طين لا غير ورتب لهم السنة ايضًا لكنهُ جعلها ٣٠٠ يوم فقط مقسمة على ١٠ شهور كل شهر ٣٠ يومًا

ثم احدث مجلس مشورة مولفًا من قضاةٍ ونواب وجعل اربابهُ نحو ٣٠٠ شخص فكانت وظيفتهم تنظيم احوال البلاد وفض المشاكل وتنفيذ الاحكام والتشاور في الامور ثم يعرضون ما يتشاورون فيهِ الى الرعية ليقووا اراءهم فيهِ او يحكمون بما يقتضيه نظرهم وجعل وظيفتهُ هو نفسهُ رياسة العسكر وقيادتهُ ورتب مجالس مشورة للرعايا اما المشورة العظمى فكانت للدعاوي والوقائع المهمة ورياسة الدين ثم انهُ اذن لكل واحدٍ من العامة ان يتخذ لهُ مولى من ارباب المشورة ليحصل الاتحاد بين ارباب المشورة والرعية حيث تصير الموالي من اهالي المشورة تحامي عن محسوبيهم من الرعية

واقتضت خشونتهم ان جعلوا اول احكامهم انهُ يجوز تطليق الزوجة اذا فعلت ذنبًا ولو بنحو شرب الخمر من غير ان يجوز للمرأة ان تفترق من زوجها باية علةٍ كانت وثانيها ان الأب هو مطلق التصرف بالنسبة الى اولادهِ فلهُ ان يبيع ابنهُ الى ٣ مرات في اي سنٍ كان وان يحكم بقتل ابنهِ. وان يتركهُ في الازقة اذا كان سيء التركيب بشرط ان يستشير ٥ اشخاص من جيرانهِ في امر الذكور واما البنات فلا يحتاج الى مشورة احدٍ فيهنَّ بمثل ذلك

وكانت ايطاليا في ذلك الزمان مثل بلاد اليونان في بدايتها القديمة منقسمةً الى عدة امم وطوائف صغيرة واكثرهم اشبه بالوحوش ولا رابطة بينهم من انواع الائتناس والاتحاد ولا محبة فكانت رومية في حروبٍ دائمة معهم وكان رومولوس في تلك الحروب منصورًا عليهم دائمًا حتى مات وكانت مدة حكمهِ ٣٧ سنة وقد اختلفوا في موتهِ فمنهم من زعم انهُ خُطف بغتةً الى السماء وقال آخرون انهُ كان قد صمم على ان يجعل نفسهُ ملكًا مستقلاً فخلعهُ الشعب ومزقوهُ اربًا وهذا يوافق ما رواهُ بعضهم بانهُ مات قتيلاً في مشورة جمعها سنة ٧١٥ ق م

وبعد موت رومولوس المذكور قام ملك ثانٍ على رومية يدعى توما فمفيليوس وكان رجلاً حازمًا حكيمًا محبًا للسلام فسنَّ شرائع عديدة حسنة وعلم رعاياهُ الزراعة وعدَّة صنائع نافعة وضمَّ الى السنة التي كان رتبها سلفهُ رومولوس على ما ذكرنا في ما مرَّ شهرين اخرين لابلاغها الى ٣٦٠ يومًا وكانت مدَّة تملكهِ ٤٣ سنة ويقال انهُ في مدَّة تملك احد خلفائهِ المسمى تركوين الثاني او المتكبر الذي تولى سنة ٥٥٣ ق م دخلت عليهِ امراة في ذات يوم الى الديوان وفي يدها ٩ مجلدات من الكتب واعرضتها عليهِ للبيع وطلبت في ثمنها مبلغًا فاحشًا واذ كانت الكتب المذكورة مجهولة عندهُ استعظم ثمنها وامتنع عن مشتراها فرجعت المراة بالكتب الى دارها واحرقت منها ٣ ثم قصدتهُ في اليوم الثاني واعرضت عليهِ الستة الباقية بنفس الثمن الاول فامتنع ايضًا فتركتهُ

ورجعت اليهِ في اليوم الثالث ومعها ٣ كتب فقط واعرضتها عليهِ بالثمن الاول فتاثر الملك وتعجب من هذا الامر وصمم على ان يشتري الكتب منها ليرى ما فيها واذا بالمراة القتهم بين يديهِ واختفت في الحال فانذهل الملك وجميع الحاضرين من الاكابر والاعيان ثم فتحوا الكتب وطالعوها فوجدوها رسائل واشارات تتضمن على حكم ونبوات مولفة من بعض النساء (ولعلهنَّ المعروفات بالسيبليات) فاحترمها الرومانيون غاية الاحترام واعتبروها كآياتٍ منزلة وحفظوها في خزائنهم وكانوا يتلونها بكل خشوع واعتبار كلما وقعوا في شدة او ضيق معتقدين بانها تنبئهم بما يحدث في الازمنة المستقبلة

وخلاصة الكلام هي انهُ برومولوس المذكور وجماعتهِ تولدت اخيرًا مملكة عظيمة بعد ان حكمها اولاً خلفاؤُهُ نحو ٢٣٠ سنة وطردوا منها على عهد سيطوبرة التي هي اخر ملوكهم في سنة ٥٢٣ ق م ومن ثم صارت مشورة ديموقراطية الى ان تملك رومية يوليوس الذي صار قيصر ودعي اسمهُ اغسطوس سنة ٥١ ق م وجعلها دار قيصرية الرومانيين وكانت وقتئذٍ صارت اعظم بلاد الدنيا ومزقت اعظم الممالك الكبيرة ثم اخيرًا انقسمت الى قيصريتين شرقية وغربية بعد وفاة القيصر ثيودوسيوس الاكبر سنة ٣٩٥ ب م فصارت قياصرتها ايبراطرة القيصرية الغربية فقط الى ان طردهم منها البربر سنة ٤٩٥ ب م واستولى عليها الملوك الغوطيون ثم بعدهم الملوك اللونجباردبون الذين قرضهم كرلوس مانوس اعني الاكبر وبهم انقرضت منها الشوكة الملوكية غير انها بقيت حافظة استقلالها القديم بكونها صارت مركز شوكة الكنيسة اللاتينية تحت رياسة البابوات الذين ابتداوا بممارسة الحكم الزمني منذ زمن البابا استفانوس الثاني سنة ٧٥٣ ب م ودام الحال على هذا المنوال الى ان استولى على رومية الملك فيكطور عمانوئيل وضمها الى مملكة ايطاليا وجعلها قصبة بلادهِ وذلك في سنة ١٨٧١ ب م

البحث الاول

في حالة العلوم والفنون منذ قيام المشيخة الرومانية الى انقسام المملكة
واستيلاء البربر على القيصرية الغربية في سنة ٤٦٥ ب م
وفيهِ ٧ فصول وخاتمة

الفصل الاول

في تقدمات الرومانيين منذ قيام المشورة الديموقراطية المذكورة وتسمى
المشيخة ايضًا في سنة ٥٤٢ وقبل سنة ٥٠٩ ق م الى ان ظهر
الامبراطور اوغستوس قيصر الذي تولى السلطنة
سنة ٥١ ق م ونقل الحكومة من المشيخة الى
الحكومة الملكية

بعد ان طُرد خلفاء رومولوس وذراريهِ من رومية على ما تقدم استلم زمام الحكومة اثنان من القضاة وتلقب كلّ واحدٍ منهما بلقب قنصل اي منفذ الاحكام وكان الشعب ينتخبون هولاء القناصل في كل سنةٍ واول من تعين لهذه الوظيفة رجلان يقال لاحدهما بروتوس والثاني كولاتيوس وكان بروتوس عادلاً مهيبًا محبًّا للوطن حتى انهُ حكم بالموت على ابنيهِ الاثنين بسبب جنايةٍ ارتكباها ولم يشفق عليهما وكان سكان رومية يومئذٍ منقسمين الى حزبين الاول من

الاشراف والثاني من العامة وكان جميع ارباب المجلس العالي واكثر الاكابر والعمد من القسم الاول وكان انتخاب القناصل منوطًا بهم فقويت شوكتهم وعظمة سطوتهم وصاروا اصحاب الحل والربط فنشأ عن ذلك فتن ومشاجرات بين الطرفين الّا انهُ مع كل ذلك انتظم حال الدولة مع تمادي الزمان وتعاظم امرها وقويت شوكتها في الداخل والخارج وازداد عدد اهاليها وبقيت في زهوها ورونقها الى ان دهمها جيش الغاليين سكان فرانسا سنة ٣٨٩ ق م وافتتحوها تحت قيادة الجنرال برنوس بعد ان دافعت عن نفسها مدةً طويلة لكن اخيرًا فتك بهم كاملوس احد ابطال الرومانيين حتى انهُ لم يرجع منهم احد الى بلاده ومن ثم اخذ الرومانيون في محاربة الدول والممالك الاجنبية فبرعوا في فن الحرب واستولوا على بلاد اليونانيين في سنة ١٦٦ ق م ودمروا قرطاجنة التي كانت الدّ اعدائهم في سنة ١٤٦ ق م على ما سبقت الاشارة اليهِ في محلاتهِ وبعد ان احرق قائدهم المدعو سبيبو مدينة قرطاجنة المذكورة ورجع الى رومية بالغنائم والاموال البسوهُ عند وصولهِ اليها اكاليل الغلبة والانتصار التي هي من اعظم جوائزهم وساروا بهِ الى الكابيتول بموكب عظيم بحسب العادة الجارية عندهم في مثل ذلك وسوف تاتي تفاصيلها في الفصل التالي وما زالوا يفتحون البلاد والممالك الى ان استولوا على اسبانيا ومملكة نوميديا المعروفة الان بجزائر الغرب واخضعوا ولايات ايطاليا وانتصروا على متريداتس ملك بنطس في اسيا الصغرى بعد ان حاربوهُ ٤٠ سنةً واخيرًا ظهر في رومية قائدان احدهما يُدعى بومبي والاخر يوليوس وكان بومبي اكبر سنًّا واشهر لانهُ كان قد افتتح ١٥ مملكة واخذ ٨٠٠ مدينة اما يوليوس فلم يكن اقل همة وشجاعة منهُ فانهُ هو ايضًا اثار حروبًا كثيرة على فرانسا وجرمانيا وبريتانيا ويقال بانهُ انتصر في حروبهِ على ٣ ملايين من الناس وقتل نحو مليون منهم فجرت بين هذين القائدين حروب سببها الحسد آل الامر فيها الى انتصار يوليوس وهرب بومبي الى مصر واخيرًا قتل وجيء برأسهِ الى يوليوس المذكور فحزن عليهِ ولم يرد ان يراهُ ولما بلغ

اعضاء المجلس الروماني هذا الانتصار قدموا تهاليل الفرح لالهتهم ومنحوا يوليوس السلطة المطلقة فكان ذلك بداءة نقل الحكومة الرومانية من المشيخة الى الامبراطورية ويعتبرهُ المورخون فصلاً ثالثًا بهِ ينتهي القسم الاول من اقسام التاريخ

الفصل الثاني

في ما حدث في زمن القياصرة الوثنيين اعني منذ تولية يوليوس قيصر ونقل الحكومة الرومانية من المشيخة الى الامبراطورية الى ان تنصر الملك قسطنطين الكبير ونقل الكرسي القيصري من رومية الى القسطنطينية في سنة ٣٣٠م

ولما منح اعضاء المجلس الروماني السلطة المطلقة الى يوليوس قيصر المذكور على ما اشرنا كان ذلك مقصورًا على مدة حياتهِ فقط ولقبوهُ بقيصر وحكموا له بالقداسة فصنعوا له تمثالاً واقاموهُ بين تماثيل الهتهم وابطالهم في الكابيتول بالقرب من تمثال "جوبيتير وكتبوا عليهِ هذا تمثال قيصر نصف الاله ولما رأى يوليوس ذاته في هذه الرفعة والمكانة عند الشعب لم يبقَ عليهِ مما كان يشتهيهِ الّا ان يسمّي نفسهُ ملكًا فوجه كل افكاره وقواه الى استمالة الناس وارضاء العساكر بواسطة عمل الولائم والضيافات وانواع الافراح والملذات التي كان يعملها لهم ومن ذلك وليمة دُعي اليها الجيش الروماني جميعهُ فكان ممدودًا في اسواق رومية ٢٢ الف مائدة مملوءة بالاطعمة اللذيذة والمشروبات الفاخرة ولم يمنع احد من الجلوس عليها والمناولة منها سواءٌ كان غنيًّا او صعلوكًا فسرُّوا جميعًا بذلك ونسوا حريتهم واقتنعوا بمشاهدتهِ في هذه الولائم العمومية جالسًا على عرشٍ من الذهب وعلى راسهِ اكليل مرصع بالجواهر النفيسة لكن اخيرًا قتلهُ رجل من

محبي الحرية يقال له بروتوس وقال لفيقرون الفيلسوف الروماني الشهير(١) وكان احد ارباب المجلس ومحبًّا لوطنهِ تهلل وافرح يا ابا الوطن لان رومية قد تحررت الآن وكان ذلك في سنة ٤٤ ق م غير انهُ قبل موتهِ بنحو سنةٍ كان احضر من الاسكندرية احد مشاهير الفلكيين يسمّى صوصيجان واصلح حساب السنة الشمسية بزيادتهِ فيها ٦ ساعات وكانوا يحسبونها قبل ذلك ٣٦٥ يومًا فقط فجعلها هو ٣٦٥ يومًا و٦ ساعات ورتب لاجل هذه الزيادة ان تكون كل سنةٍ رابعة كبيسًا اعني ٣٦٦ يومًا ولشدة كبرياه وزيادة جبروتهِ وضع اسمهُ في شهرين هما اعظم شهور السنة نظرًا الى شدّة حرارتها وطول النهار فيها فسمّى شهر تموز يوليوس وشهر اب اوغسطوس وجعل كل واحدٍ منهما ٣١ يومًا ومع ذلك بقي في عملهِ هذا خلل اصلحهُ البابا غريغوريوس الثالث عشر كما يتضح ذلك في ما ياتي . ثم بعد قتل يوليوس المذكور حدث خلل عظيم في رومية حيث كان لهذا القيصر ابن اخت اسمهُ اوكتافيوس كان صغيرًا لما مات ابوهُ فتبناهُ خالهُ المذكور واعتنى بتربيتهِ وارسلهُ الى بلاد اليونان للتعليم والتهذيب ولما قتل خالهُ كان عمرهُ ١٨ سنة فعندما بلغهُ الخبر جاء الى رومية ليستولي على ميراثهِ فاعطاهُ مرقس انطونيوس احد روساء الجمهورية جزءا عظيمًا من الميراث وتزوج باختهِ اوكطاوة واشركهُ معهُ في رياسة الجمهورية واشركا اميرًا ثالثًا معهما يقال لهُ ليبدوس وكانوا جميعًا يكرهون الجمهورية ويميلون الى الملكية فاتفقوا على تشتيت شمل مخالفيهم واخذوا في قتل كل مَن ظنوهُ مقاومًا لهم واغروا الناس بالاموال حتى ان البعض كانوا يقتلون اباءهم وأعزّ الناس اليهم لمخالفتهم اوكتافيوس وشركائهِ ثم في ما بعد آل الامر الى عمل هولاء الثلاثة على

(١) كان فيلسوفًا عظيمًا واديبًا ماهرًا من اعظم مشاهير الرومانيين ولد بمدينة ارينيوم سنة ٦٤٧ بعد تاسيس رومية فيكون ذلك سنة ١٠٧ ق م وتلقن علومهُ بمدينة اثينا الى ان فاق اقرانهُ حتى قال فيهِ احد معلميهِ واحسرتاه على بلاد اليونان قد هزمت بمجد الرومان وكان يمشي الى الاكاديميين ونظرًا لبلاغة خطاباتهِ كان يجذب الكل الى رايهِ بقوة كلامهِ

تدمير بعضهم بعضاً وجرت بينهم امور يطول شرحها اعقبها بقاء اوكتافيوس وحدهُ بدون مناوم ولا منازع فاستقل بنفسهِ في الاحكام ولقّب ذاته بالامبراطور واشتهر باسم قيصر وتسمى ايضاً اوغسطوس ومعناهُ الموقر وهي القاب ثلاثة مترادفة على معنى واحد تطلق عند الرومانيين على كل ملكٍ من ملوكهم وكان المجلس العالي اعطاهُ ايضاً لقب باتر باتريا ومعناهُ ابو وطنهِ وغير ذلك من الالقاب على سبيل التفخيم والتعظيم ومن ذلك الوقت تمَّ تحويل الجمهورية الرومانية الى دولةٍ ملكية

وكان اوغسطوس هذا من افراد الملوك عادلاً حليماً رتب قوانين عادلة لراحة الاهالي وكان يميل الى العلوم والاداب قال بعض المولفين ان هذا القيصر كان من اعظم الخطباء وابرع الكتبة وقد ترك جملة مولفاتٍ نفيسة ولما استولى على بلاد مصر اعاد الى المدرسة البطليموسية التي سبق ذكرها في الكلام على المصريين رونقاً زائداً عمّا كانت عليهِ فكانت جميع طلبة العلم تتقاطر اليها في ايامهِ . وكان مع سطوتهِ وابهتهِ وديعاً انيساً وكانت رومية في مدّة حكمهِ بغاية الهدو والسلام

وفي ايامهِ عاش ورحيل ويقال لهُ فيرجيل ايضاً وهوراس واوفيد وغيرهم من مشاهير الشعراء وحازوا على انعامهِ وشملهم بانظارهِ ولذلك مدحوهُ في اشعارهم واطنبوا في وصفهِ

وكذلك وجد تيتلوهِ الذي اختلف في منشائهِ فقيل مدينة بندو وقيل ابونة ولهُ تآليف مفيدة من اشهرها التاريخ الروماني وهو يبتدي بهِ من تاسيس رومية الى وفاة القصر درصوص في بلاد النمسا وكان ذلك في سنة ٢٣ ق م

وبالجملة والتفصيل ان في ايام هذا القيصر اخذت البلاد الرومانية في

قصيرةٌ اول قنصل مع انطونيوس في رومية ولقبهُ العساكر امبراطوراً ومعناهُ قائد الجيوش ثم غلب هذا اللقب عند الافرنج على سلطان السلاطين وكان متهماً بانهُ لا يعرف ابوهُ مات قتيلاً سنة ٤٣ ق م ويوجد لهُ الان مولفات جسيمة صحيحة

التقدم الى اعظم درجات المعارف والفنون وقد عاش عمرًا طويلاً ثم توفي في سنة ١٤ ب م ولهُ من العمر ٧٦ سنة بعد ان حكم ٤١ سنة حكومة ملكية فضلاً عن مدة رياستهِ الجمهورية وكان العامل على اليهود من قبلهِ في اورشليم هيرودوس وفي مدة حكمهِ صار الاكتتاب العمومي المذكور في لوقا ص ٢: ١ وبسببهِ ذهب يوسف ومريم الى بيت لحم حيث ولد المسيح

وبعد وفاتهِ تولى القيصرية طيباريوس قيصر الذي في ايامهِ صُلب السيد المسيح في اورشليم بامر نائبهِ عليها المدعو بيلاطس البنطي والى هذا القيصر تُنسب مدينة طبرية التي بنواحي القدس بناها هيرودوس انتيباس بن هيرودس الكبير وكان عاملاً لهُ على اليهودية وسمَّاها باسمهِ ثم بعد موت طيباريوس المذكور خلفهُ كليغولا الذي من غريب اعمالهِ انهُ اصطنع اصطبلاً من المرمر لفرسٍ لهُ كان يعزها وعمل لها حوضًا من العاج ورصع سروجها باللؤلؤ والجواهر وقيد اسمها في دفتر الكهنة بزعمهِ انها ستصير ذات يوم حاكمة على الرومانيين

وبعدهُ خلفهُ كلوديوس سنة ٤١ ب م وكانت لهُ مشاركة في الاداب والمعارف فالف تاريخ رومية وقرطاجنة وغير ذلك من الكتب التي فقدت وضاعت

ثم خلفهُ في سنة ٥٤ ب م نيرون الذي كان يبغض المسيحيين وقتل الذين تنصروا من اهالي رومية ثم قتل بولس وبطرس ومرقس الانجيلي الذي كان وقتئذٍ بالاسكندرية وذلك في سنة ١٢ من ملكهِ وقتل ايضًا امرأتهُ واخاهُ ومعلمهُ الفيلسوف سينيكا وامر بحرق جانب عظيم من رومية لمجرد نزاهتهِ وكان ينظر اليها وهو على احد السطوح يعزف بالعود ثم اتهم المسيحيين بذلك واجرى عليهم قصاصات صارمة وبعد موتهِ تخلفهُ ملوك منهم فسباسيانوس الذي تولى المملكة سنة ٦٩ م وكان وقتئذٍ يحارب اليهود في اليهودية فلما بلغهُ موت سالفهِ وكانت العساكر الموجودة معهُ تنادي باسمهِ قيصرًا سار الى رومية واقام ابنهُ

تيطس مكانهُ فافتتح اورشليم واحرق الهيكل وبدد شمل اليهود وازال ملكهم الزوال الاخير وذلك في سنة ٧٠ ب م

وفي ايامهِ وايام ابنهِ تيطس المذكور الذي تولى المملكة بعدهُ في سنة ٧٩ ب م وجد تاسيت المورخ المشهور الذي كان اعظم اهل عصرهِ ولكثرة معارفهِ وصل الى اكبر مناصب الامبراطورية وقد اتحفهُ بذلك هذان القيصران ولهُ تآليف عديدة مفيدة منها كتابهُ الذي اودع فيهِ اخلاق الجرمانيين ومنها تاريخ القياصرة وعدة تواريخ اخرى شهيرة اضاع بعضها صروف الزمان وبعضها باقٍ ومرغوب فيهِ الى الان

ومن القياصرة المذكورين دوميتيانوس الذي خلف اخاهُ تيطس المذكور سنة ٨١ ب م وكان متعظمًا متكبرًا مولعًا بقتل النفوس حتى قتل الذبان بيدهِ ايضًا ولقَّب ذاتهُ الهًا وسيدًا وكان يبغض اليهود والنصارى ويامر بقتلهم وحبس يوحنا الانجيلي في بطمس ومما يحكى عنهُ انهُ استدعى ذات يوم ارباب المجلس وطلب منهم ان يتذاكروا مع بعضهم عن الذّ الاطعمة وافضلها وان يعطوا قرارهم عن احسن الاواني المناسبة لطبخ نوع من انواع السمك

وفي ايامهِ وجد استاس الشاعر الروماني المشهور فاغدق عليهِ بالخيرات ولهذا الشاعر قصائدُ مشهورة احسنها القصيدة المسماة برتيبوس واخرى تسمى تيبائيد ترجمت الى الفرنساوية ترجمت حسنة توفي بمدينة نابلي سنة ١٠٠ ب م

ثم بعد دومتيانوس المذكور خلفهُ نرفا سنة ٩٦ ب م وفي ايامهِ امر برد من كان منفيًا من المسيحيين واباح لهم التمسك بدينهم وارجع يوحنا الانجيلي الى افسس ثم خلفهُ تراجان وكان على جانب عظيم من الحكمة والفطنة وشدَّة الباس فخفف المكوس واهتمَّ بجلب كل ما من شانهِ راحة الرعية فانشأ القناطر واصلح الطرق وجدد المواني البحرية لتكثير التجارات والمعاملات وبنى في رومية ملعبًا لسباق الخيل وجدد مكتبة عظيمة واقام العمود الرخامي الابيض المسمى التراجيان ورسم عليهِ الحروب التي وقعت بين الرومانيين وباقي الدول غير انهُ

كان يضطهد المسيحيين فامر بقتل سمعان بن كلاويا اسقف اورشليم عند زيارته انطاكية سنة ١٠٧ ب م وامر بطرح اغناطيوس اسقف تلك المدينة في جب الاسود

ولما خلفه ابن عمه ادريانوس سنة ١١٧ ب م قتل كذلك خلقًا كثيرًا من اليهود والنصارى ورمم مدينة القدس وبناها بعد ان كانت مهدومةً منذ حصار تيطس على ما ذكرنا في ما مرّ فرجع اليها اليهود وزادوا في تحسينها وتحصينها لكن لما بلغه انهم يريدون الخروج عن طاعته ارسل اليهم العساكر وقتل اكثرهم وخرب المدينة حتى صارت قاعًا صفصفًا وكان هذا الخراب بعد ٥٢ سنة من خراب تيطس ثم خلفه تيطس انطونيوس سنة ١٣٨ ب م وفي ايامه حصل المسيحيون على تمام الراحة حيث رفع عنهم تلك الاضطهادات السابقة واعطاهم حريتهم

ثم خلفه مرقس اوريليوس انطونينوس سنة ١٦١ ب م وكان متمسكًا بمذهب زينون الحكيم احد الفلاسفة اليونانيين وقد تقدم ذكرهُ في ما مرّ فكان هذا القيصر من المتقشفين وانعكف على المطالعات والدروس واكتساب العلوم والفنون

واعقبه ابنه كومودوس سنة ١٨٠ ب م ولما مات استصوب الشعب ان يضعوا المنصب القيصري في المزاد لينالهُ من يدفع فيه مالاً اكثر من غيره فاستقر البيع على يوليانوس لكنه لم يثبت في الملك الا ٦٦ يومًا وقتل ثم بعد وفاة سفيروس الذي قتله ايضًا خلفه ابنه كاراكلا وكان رجلاً دمويًا قتل كثيرين من اكابر الناس وكان يتزيى بزي اسكندر المكدوني في اللبس والعوائد ثم علّق تمثال اسكندر المذكور على الهياكل والمعابد وسمّى نفسه اسكندر لتكون هذه التماثيل رمزًا له وقام بعدهُ كوربسيانوس هليوكوبالوس سنة ٢١٨ ب م وكان غلامًا بديع الحسن والجمال قيل له بسيانوس يعني الشمس لحسنه وجماله وكان في اكثر الاوقات يتزيى بزي النساء فيضع في عنقه قلادة وفي يديه اساور

من الذهب وينشر في قصره انواع الزهور والرياحين فقتلهُ الاهالي

وتولى بعدهُ ابن عمهِ اسكندر سفيروس سنة ٢٢٢ م وهو الذي ولد في هيكل الزهرة بعرقا من اعمال طرابلس الشام على ما ذكر في الكلام على الفينيقيين وكانت امهُ مسيحية يقال لها مامة وهي من بنات الضنية ايضًا وكان يستشيرها في جميع اموره ويعمل برايها ولذلك ابطل عبادة الاوثان واخرج الاصنام من رومية ودعا الناس الى الدين المسيحي وكان كثيرًا ما يجمع الاهالي ويعظهم بخطابات مفيدة ويدارك بحسن ملاحظتهِ ما يقع من الخلل والفساد في اقطار المملكة وكان ينعم على اهل الفنون والصنائع بالجوائز السنيّة لترغيبهم وتنشيطهم ولم يكن يقبل في ديوانهِ احدًا من ارباب الملاهي والآلات من المغنين كسائر اسلافهِ وكان يامر بدفع اجور العساكر في اوقاتها ويزور المرضى من الجند في خيامهم

ثم بعد وفاة هذا القيصر تعاقب على الكرسي القيصري عدّة ملوك وثنيين لم تكن ايامهم الّا ايام حروب وفتن واضطرابات وسرت هذه الاحوال في اكثر الولايات الرومانية وتحرك الغوثيون الذين تسميهم العرب الغوط في سنة ٢٥١ ب م من الاقاليم الشمالية وخرجوا من بلادهم واجتازوا نهر الطونه وحاربوا الولايات الرومانية واستولوا عليها ونهبوها ولازال الحال على هذا المنوال الى ان تولّى القيصرية ديوكلتيان في سنة ٢٨٥ ب م وهو الذي يقال بانهُ في ايامهِ نُصب عمود السواري بالاسكندرية تذكارًا لمحاصرتهِ اياها في سنة ٢٩٦ ب م وكان ذا همةٍ ونشاط ومدة حكمهِ ابتداء نظام جديد أُكمل في حكم قسطنطين الكبير الذي سوف ياتي ذكرهُ في الكلام على القياصرة المسيحيين لكنهُ اثارَ اضطهادًا عظيمًا على النصارى في كل اقاليم سلطنتهِ قصد بهِ ان يمحوا اثرهم عن وجه الارض ومن جملة ذلك انهُ امر يومًا وهو بمدينة نيكوميدية بحرق ٦٠٠ نفس منهم كانوا مجتمعين للصلاة في يوم عيد الميلاد سنة ٣٠٢ ب م وكانت هذه النكبة العاشرة والاخيرة التي اضربها الرومانيون الشعوب المسيحية

الفصل الثالث

في حالة العلوم والمعارف التي كان عليها الرومانيون منذ ابتداء شوكتهم اعني من بداءة المشيخة الى اخر القياصرة الوثنيين الذين مرّ ذكرهم

لايخفى بان ادارة احكام الرومانيين وعلو همتهم قد يسرا لهم ما لم يتيسر لغيرهم من الفتوحات والانتصارات فان السلطة الرومانية في ايام اوكتافيوس قيصر الذي تقدم ذكرهُ كانت في اعظم واعلى درجةٍ من الزهو والغنى وكانت متسلطة على جميع شعوب اوربا ما عدا بعض القبائل في الجهات الشمالية منها استمرّوا محافظين على استقلاليتهم فكان تحت سلطتها انكلترة وفرانسا واسبانيا والمانيا وجميع ولايات ايطاليا واليونان وتركيا في اوربا واسيا واكثر ممالك افريقية كمصر ومراكش والحبشة وغيرها وكان لهم في كل ولايةٍ ومملكة من هذه الممالك المذكورة ولاة وحكام وعساكر رومانية لسياسة الاحكام وادارة الامور ومحافظة البلاد

ومن اعظم الاسباب التي استخدموها لتضحية العساكر نفوسها في سبيل هذه الفتوحات هو تلك العادة التي كانوا يجرونها مكافاةً للقواد المنتصرة عند عودتها ورجوعها الى رومية اذ انهم كانوا يوقفون القائد قليلاً في ساحةٍ يقال لها ميدان كمبيوس مارتيوس خارج المدينة وهناك يلبسونهُ ثوبًا ارجوانيًا منسوجًا بالذهب ويضعون على راسهِ نسرًا من ذهب ثم يدخلونهُ الى المركبة المعدة لهُ محاطةً باصحابهِ واقاربهِ وهم في الملابس البيضاء ووراهم الفاضل وارباب المجلس في ملابسهم الرسمية وكان الجيش المنصور يمشي من ورائهم لابسًا

خوذًا مكللة بغصون الدفل وحاملوا البيارق فهو رافعون في ايديهم نسورًا من الفضة مطلية بالذهب عوضًا عن البيارق ثم ياتون بالثيران التي يكونون قد اعدوها للذبح فيطلون قرونها بالذهب ويضعون على رووسها اكاليل مختلفة الاشكال وبعد ذلك ياتون بالغنيمة المأخوذة من العدوّ مع تاج او اسلحة الملك او القائد المغلوب ويسيرون بها امامهم كما حصل عند دخول تيطس ظافرًا الى رومية بعد غلبتهِ على اورشليم فانهُ حُمِلت امامهُ المنارة الذهبية وتابوت العهد وباقي الغنيمة التي اخذها من الهيكل وفي اثناء الحروب التي أُقيمت على انطيوخوس ومتريدانس وغيرهما من الملوك الشرقيين كانوا يقودون في المواكب جمالاً وافيالاً ونمورًا واسودًا وغيرها من الوحوش الضارية واحيانًا كانوا يأتون بها الى المراسح حيث كانوا يتممون احتفالات الفرح بانواعٍ شتّى من الملاعب ثم بعد الغنائم المذكورة كانت تمشي فرقة من الاسرى وبينهم الملوك والرجال الماسورون والنساء والاولاد وجميعهم مقيدون بالسلاسل الثقيلة وقد كانوا احيانًا يزدرون بهم ويقتلونهم بلا رحمة واحيانًا يبقونهم باقي ايام حياتهم في حالة العبودية ويسلمونهم لبعض الاشخاص ممّن فقدوا اصحابهم في الحروب لينتقموا منهم ويعذبوهم ثم خلف هذه الفرقة كانت تضرب آلاتٌ موسيقية بنغماتٍ مرتفعة كيلا يُسمَع تنهد وصراخ اولئك الاسرى المنكودي الحظ وامامهم جماعة من الرقاصين واصحاب المساخر ينطنطون ويهرولون وهكذا كانوا يتقدمون بالقائد المنتصر مارّين في جميع اسواق رومية الى ان يصلوا بهِ الى الكابيتول.

وقد اجمع المورخون بان هذه الامة لم تخرج من حيز الخشونة الى التمدن الاَّ منذ افتتحت بلاد اليونانيين وسادت عليها ولم يبارحها ظلام الجهل والغباوة الاَّ بواسطة اختلاطها بهم ومع كل ذلك لم تبلغ الى درجتهم لكونها اولاً عندما كانت مشغولة بتلك الفتوحات العظيمة كانت نفوسها تأبى العلوم والمعارف لزعمها بانهُ لا يمكنها ان تحصل بواسطتها على ما تؤمل ان تنالهُ بواسطة الاسلحة ولذلك لم يكن في زمان قدماء الملوك الرومانيين من حاز على شيءٍ منها ثم بعد

هذا الاختلاط ايضًا اعني في زمن القناصل الذي ولئن وجد فيهِ قليلون ممن مارسوا العلوم كان البعض من الرومانيين مثل سيلا وفلامينوس وغيرهما يمنعون ترويض اخلاق الشعب نظرًا لميلهم للحروب وحبهم لاهراق الدماء

ويظهر ان اول شيء رغب الرومانيون فيهِ وقتئذٍ كان ادخال فنّ الالعاب التياترية الى رومية في سنة ٣٦٢ ق م ولم تكن في البداءة الاّ الرقص على انغام الناي اما الروايات فلم تُعرَف عندهم الاّ بعد ذلك بنحو قرن كامل عندما ادخلها بينهم رجل يسمّى بلانوس وقيل ان اوّل مرسحٍ بُني لهذه المناظر كان يسع ٤٠ الف شخص من المتفرجين

ووجد فيهِ كذلك جماعة من المؤلفين ايضًا اشتهر منهم ترنسيوس ويقال له ترنس بدقّة تاليفهِ وفبيوس وبكتور المؤرخ الذي هو اوّل من كتب تاريخ وطنهِ من الرومانيين وكان موجودًا في سنة ٢١٦ ق م

لكن في زمن القياصرة وجد فيهم كثيرون ممّن خدموا العلوم واستحقوا الانتماء اليها حيث ان رومية وقتئذٍ اقتدت في البلاد اليونانية وصارت ترسل شبانها لمكاتب اثينا لتكتسب علوم فلاسفتها

وكان اليونانيون وقتئذٍ معتبرين عند اكثر العلماء في الدرجة الاولى من العلوم والفلسفة وكان بينهم وخاصةً في اثينا اناس فصحاء وحاذقون يعلمون قواعد الفلسفة كما كانت عند الاولين اعني التي اسسها افلاطون وزينون وابيقور او هو ابيكوريوس ويعلّمون ايضًا مبادي الفصاحة والفنون الادبية ولذلك كان يقصد هذه البلاد كلّ طالبي العلم من اية جهةٍ كانوا كما ان كثيرين منهم كانوا يترددون الى اسواق العلم في اسكندرية ومصر ورودس لوجود فلاسفة وعلماء منطق من اليونانيين المذكورين بكثرةٍ فيها وحيثما التجأ العالم الشهير اشين بعد نفيهِ من انيكا

فتهذب الرومانيون قبل دخول القرن الاول من التاريخ المسيحي في كل فرعٍ من العلوم والفنون وكان ابناء العيال المعروفة منذ حداثتهم يدرسون

باعتناءٍ علوم اليونانيين وفصاحتهم ثم يدرسون الفلسفة والشريعة المدنية ثم يذهبون الى بلاد اليونان ليكملوا علومهم ومع ذلك لم يكن الذين ساعدوا وقتئذٍ في توسيع دائرة المعارف في البلاد الرومانية المذكورة الاعيان فقط بل كان بينهم من عامة الشعب ايضًا وضف الى الجميع القائد مريوس الذي كان عظيم الميل للحروب وسفك الدماء لانهُ لما نجح برأيهِ في الحكومة الجمهورية بالاشتراك بين الاعيان واوجه الشعب اراد ان يتم مقصدهُ بنشر المعارف بين العامة ليكونوا قادرين ان يتمموا وظائفهم الدولية ودام الحال على هذا المنوال الى نهاية القرن الاول من التاريخ المسيحي ايضًا

ثم في القرن الثاني وجد اشخاص من ذوي العقول الثاقبة في ما بين اليونانيين والرومانيين كتبوا كتابات جيدة في كل فنٍ راجٍ سوقهُ في ذلك الوقت الذي اشتهر فيهِ بين اليونانيين بنوعٍ خاص بلوتاركه الذي تقدم ذكرهُ في ما بين مورخيهم وكان ذا علوم كثيرة لكنها عديمة الترتيب وكان ايضًا ملطخًا بمبادي الاكديميين وكان يوجد في كل المدن الشهيرة من المملكة الرومانية مدارس للبلغاء والبيانيين والسفسطيين والنحاة يدَّعون بانهم يربون فيها الشبّان ليكونوا اهلاً لترقّي المعارف بواسطة الرياضات والخطب المتنوعة غير ان الذين تعلموا فيها كانوا معجبين بانفسهم ومهاذير ومعارفهم انما هي للظاهر اكثر مما هي للبلاغة والفصاحة والحكمة والاهلية لاتمام ذلك العمل الذي زعموهُ ولذلك ازدرى العقلا الرازنون بتعليم هذه المدارس لكن كان هناك مدرستان كليتان للجمهور احداهما في رومية اسسها ادريانوس قيصر تدرس فيها كل العلوم ولاسيما الفقه والثانية في بيروت من بلاد فينيقية

وكذلك لم يكونوا متفقين في الاراء الفلسفية ايضًا اذ انهم اسسوا لها جمعيات مختلفة مذ اخذوها عن اليونانيين الذين كانوا قدوةً لهم فيها اذ منهم من انقاد الى التعاليم الاكاديمية وهم مكسيموس بروطو الاول ومكسيموس تارنتيوس وفارون ومانيوبيسو ومكسيمس وتوليوس وشيشرون اوهو فيقرون ومنهم من

انتسب الى الجماعة الفيثاغورسية وهم كاد بنوس وبجيد بوس وفيكولوس ومنهم من ذهب المذهب الاسطواني وهم شيبيون الافريقي وموثيوس وتبسفولا وكاتو الاوتيشنسي وتوليثو انئه اوس وسيناكورد وفيتسي معلم تارون وابيكاتوس الايرابولي المولود في فريجيا ومنهم من اتبع اراء المشائين وهم تيرانو واندرونيكوس اللذان في عصرها ظهرت كتب ارسطاليس صاحب هذه الطريق واستخرجت من المغارة التي كانت مدفونةً فيها تحت الارض وكتب ثاوفراستو والكسندو الافروديتي الذي شرح كتب ارسطو وكان اول من علّم في رومية تعليم المشائين بواسيو الذى كتب كتبهُ الخمسة الشهيرة في شرف الفلسفة

ومنهم من انتمى الى تعاليم ابيقور وهم لوكراسيوس الذي نظم هذا التعليم باللغة اللاتينية وبلينوس ولوكيانوس ولاراسيوس ومنهم من اتبع قواعد افلاطون وهم تراسيللوس والشيوس ونوآروس بتريسيوس وابوليوس وانيكوس ونوسينوس مكسيموس بتريوس بلوطرخس القرنتي الذي علم القيصرين تريانوس وادريانوس

ففي القرن الثاني الذي نحن بصدده بزغ كذلك فلاسفة كثيرون من كلّ الشيع الفلسفية المذكورة وقام بين الرواقيين عالِمان ساميان وهم مرقس انطونيوس (وقد تقدم ذكرهُ) وابكتيتوس أنما اكثر الذين مدحوهما كانوا من جماعة الرواقيين فقط اذ انهُ لم يكن في هذا القرن اعتبار زائد لهذه الفرقة بل كان تلاميذ مدارس الافلاطونيين اكثر عددًا لاسبابٍ منها ان الافلاطونيين كانوا اقلّ صرامة من الرواقيين وتعاليمهم اكثر مطابقةً للافكار الشائعة عن معبوداتهم ومع ذلك لم يكونوا في كثرتهم كالابيقوريين الذين كانت تتبعهم وجوه الشعب لكي يتمتعوا بلذات المعيشة بدون خشيةٍ ولا خجل

وكانت بلاد مصر وخاصة مدينة الاسكندرية التي اشتهرت بتلك المدرسة التي اقامت زمانًا طويلاً مركزًا للعلوم والفنون لا زالت في حال زهوها وكان المعلم بوقامون قد وضع فيها اصول الفلسفة المنتخبة التي سبقت الاشارة اليها في

الكلام على المصريين وهي انهُ لا يجب ان يتوقف الطالب على تحصيل العلم من معلم مخصوص بل ينبغي تحصيل الحقائق من تعاليم جميع الفلاسفة وقبولها بعد البحث المستطيل والظاهر ان السبب في ذلك هو استقباح هذا المعلم ذلك النزاع الذي كان يقع في الفلسفة نظرًا الان كل طالب علم كان ملتزما بان يحلف على انهُ يكون امينًا في المحاماة عن قواعد معلمهِ ووافقهُ على ذلك محبو الحق اجمعين

وكان قد تخرج في هذه المدرسة جماعة من الذين قد اعتنقوا الديانة المسيحية تحولت بهم الى ان صارت كانها مدرسة مسيحية فاستحسن هذه المبادي قوم من الذين كانوا يرغبون في ان يضموا الى مسيحيتهم التردي باثواب الفلسفة والتمتع بالقاب اربابها ومراتبهم ومنهم اثيناغورس (وفي بعض المولفات سمي سيديتا الاثيني) وبنتينوس واكليمندوس الاسكندري وغيرهم واعتقدوا ان الفلسفة الحقيقية هي هبة الله العظمى الشافية لكنها منتثرة فيما بين جميع شيع الفلاسفة اذن يجب على كل عاقل ولا سيما المعلم المسيحي ان يجمع هذه النثر من كل الجهات ليحامي بها عن الديانة دحضًا للفجور ومن ثم اختاروا الفلسفة الاسطوانية في قواعد الاداب والذمة وفلسفة ارسطاليس في الجدال والقياس والبراهين وفلسفة افلاطون في ما يختص بالله وبالارواح والنفس الناطقة وباقي الاشياء غير المادّية وجعلوا هذا الفيلسوف في الرتبة الاولى دون غيرهِ لانهم احتسبوا قواعد تعاليمهِ تتفق مع الديانة المسيحية وقواعدها الجوهرية اكثر مما تتفق معها تعاليم غيرهِ من الفلاسفة فكان ذلك سببًا الى ظهور تلك الشيعة الفلسفية التي بنيت على هذا الاساس وظهرت في القرن الثالث بغتةً وانتشرت في جزء عظيم من المملكة الرومانية وكادت تبتلع كل ما عداها من الشيع الاخرى وليس ذلك فقط بل اضرت بالدين المسيحي ضررًا بليغًا ايضًا كما يتضح ذلك مما يأتي

وذلك ان في القرن الثالث المذكور تغيرت هيئة هذه الفلسفة الاكلستيكية

منذ فتح امونيوس سكّاس الذي تقدم ذكرهُ في الكلام على المصريين مدرسةً في الاسكندرية نحو سنة ٢٠٠ م بافتخارٍ عظيم واسس الشيعة التي تسمت بالافلاطونية الجديدة وهذا الانسان ولد من والدين مسيحيين وتهذب مسيحيًا ويحتمل انهُ ادّعى بالمسيحية كل ايام حياتهِ ولئن كان في حقيقة الامر رجع الى ديانة اجدادهِ الوثنية وكان ذا عقلٍ ثاقب وافكارٍ سامية كما انهُ كان فصيحًا ايضًا واخذ يؤلّف بين الفلسفة والدين او بتغيير العبارة اخذ يعلّم فلسفةً بها يتحد ويتأَلّف كل الفلاسفة واصحاب الاديان معًا حتى الدين المسيحي وهنا بنوعٍ خاص تمتاز الشيعة الحديثة عن الفلسفة الاكلستيكية التي ذكرناها قبلاً لان الاكليتيكيين اعتقدوا ان في كل الاصول الفلسفية مزيجًا من الخير والشرّ والحق والبطل فاختاروا منها كل ما ظهر لهم انهُ مطابق العقل ورفضوا البقيّة اما امونيوس المذكور فاعتقد بان كل الشيع اعترفوا بمبدأ واحد من الحق وانما يخالفونهُ قليلاً في التعبير وفي ادراكهم اياهُ فاذا توضّح كما ينبغي يمكنهم ان يتحدوا معهُ بسهولةٍ واعتقد ايضًا بمبدأ اخر جديد غريب وهو ان كل الاديان الشائعة وكذلك المسيحية يجب ان تُفهم وتشرح بموجب هذه الفلسفة المشتركة بين كل الشيع وان خرافات عامة الوثنيين وكهنتهم وكذلك تفاسير رسل المسيح يجب ان تفرز عن ديانة كل منها بمفردها

ان غاية امونيوس العظيمة في ان يؤلّف بين كل الشيع والاديان الجانّة ان يحرّف عبارات كل الاحزاب سواءٌ كانوا فلاسفة او كهنة او مسيحيين وآراءهم وان يزيح كل العثرات الكثيرة التي اعترضتهُ بواسطة التفاسير الاستعارية والتشبيهية واعتقد ايضًا بان غاية المسيح الوحيدة هي ان يضع حدًّا لهذه الخرافات المتسلطة ويصلح الاضاليل التي شابت الديانة وليس ليبطل كلّ الاديان القديمة

ومما زاد اوهامهُ هذه تعاليم المصريين المشتركة وكان قد تربى وتعلّم فيما بينهم على ما ذكرنا وهي ان الكون واللاهوت كلاهما جزآن من كلّ واحدٍ عظيم اي الكلّ هو الله وازلية العالم وطبيعة النفس والعناية وسياسة هذا العالم بالارواح

الى غير ذلك من التعاليم الجارية عندهم فاحتسبها كلها حقيقية لا ينبغي ان يُشك في صحتها

والى هذه الفلسفة الافلاطونية المصرية اضاف هذا الانسان المخترع المتخيل نظامًا ادبيَّ التهذيب يظهر انهُ سامٍ في طهارتهِ وصرامتهِ لانهُ وان يكن سمح فيهِ للعامَّة ان يعيشوا حسب قوانين بلادهم وما تقتضيهِ الطبيعة لكنهُ طلب من الحكماء ان يرفعوا بتأَملاتهم انفسهم التي هي نسل الله فوق كل الاشياء الارضية وان يضعفوا ويهزلوا اجسادهم التي تقاوم حرّية انفسهم بالجوع والعطش والتعب وغير ذلك من المشقات لكي يحصلوا في هذه الحياة على معاشرة الاله الاعظم ويصعدوا بعد الموت متنشطين وغير منهمكين الى الاب العام ويتحدوا معهُ الى الابد وبما ان هذا الانسان ولد وتعلَّم فيما بين المسيحيين قد اعتاد ان يجعل لتعاليمهِ رونقًا وسموًّا باستعمال عبارات مقتبسة من الكتب المقدسة فصار تابعوهُ يذكرونها ايضًا في كتاباتهم واضاف الى هذا التمرين الصارم صناعة تنقية القوة التصورية وتحسينها حتى يمكنها ان ترى الارواح وتصنع بمساعدتها امورًا كثيرة غريبة فسمَّى تابعوهُ هذه الصناعة ثيورجي اي علم الآلهة وكيفية معاشرة الارواح لكن لم يستعملها احد من فلاسفة مدرسة امونيوس المذكور الَّا الراسخون كما يتضح ذلك مما يأْتي

ولئلَّا يأْبى اهل الاديان العامة ولا سيما المسيحيون مبادية هذه حوَّل كل تاريخ المعبودات الوثنية الى تشابيه واستعارات ليثبت بان الذين يكرمهم العامة والكهنة بالقاب آلهة انما هم خدام الله الذين يليق بنا ويجب علينا ان نقدم لهم الوقار حتى لا يبعدوا عن الوقار الاعظم اللائق بالله عزَّ وجلَّ وان المسيح لم يكن الَّا انسانًا خارق العادة وحبيبًا لله وعارفًا بعمل الله بنوعٍ مدهش وانهُ لم يأخذ في ان يلاشي بالكلية عبادة الارواح خدام العناية الالهية بل ان ارادتهُ وطلبهُ هما ازالت ما قد تلطخت بهِ الاديان القديمة فقط انما تلاميذهُ قد افسدوا ودنسوا مبادي معلمهم على ما تقدَّم هذا ما كان من امر الفلسفة عند الرومانيين

خاصةً لحد الزمان الذي تنصر فيهِ القياصرة وغلاقة ماجرياتها سوف تورد في الفصول الآتية

اما الشعوب الباقية من ملحقات تلك المملكة وتوابعها فقال بعض المولفين ان الجرمانيين والسلتيين والبريطانيين لم يكونوا خالين من اناسٍ مشهورين بحذاقتهم ونباهتهم ففي الغال اشتهر سكان مرسيليا بالانتباه الى العلم ولا ريب بانهم وزعوا بعض المعرفة بين القبائل المجاورة لهم وبين السلتيين اذ ان الدرويديون الذين كانوا كهنةً وفلاسفة ومتشرعين اشتهروا بحكمتهم ولكن لم يصل الى الافرنج الاَّ اخبار غير كافية في معرفة حقيقة فلسفتهم واخيرًا ادرج الرومانيون العلوم والفلسفة في كل البلاد التي تغلبوا عليها بقصد ان يلطّفوا اخلاق سكانها الوحشية ويمدنوهم

واما باقي الفنون فقد قال بعض المولفين ايضًا ان معاناتها في مدة تسلط اوغستوس قيصر كان في غاية الاعتبار كالنظم والتصوير والنقش والحفر ولكن بعد موتهِ انصبَّ خلفاؤُهُ على صناعة الحروب اكثر مما على صنائع الصلح والامان فاهملت هذه الدروس

ووصف اخرون ما كانت عليهِ هذه المملكة في الوقت الذي تملك فيهِ هذا القيصر فقال ان في ايام سلطنتهِ كانت تحسنت صنائع البنا والنقش والتصوير وتوصلت الى درجةٍ سامية من الكمال وامتدت في جميع اطراف السلطنة وكانت المدن والبلدان مزينة بالهياكل المبهجة والقصور المرمرية المزخرفة المملوَّة من التماثيل الجميلة والصور الثمينة وأُقيم في جميع البلاد التي افتتحها الرومانيون ابنية عامة كثيرة النفع كتحسين الطرق وقيام الجسور المتينة وبناء الاقنية لجلب المياه والى يومنا هذا يوجد في كثيرٍ من تلك المدن بقايا من اثار تلك المشروعات العظيمة مع انها اقيمت منذ الفي سنةٍ تقريبًا

واما مدينة رومية نفسها فكانت من اعظم مدن العالم وابهجها وكانت دائرتها ٥٠ ميلاً وعدد سكانها ٤ ملايين وكانت محاطة باسوارٍ عالية متينة

البنا نظير باقي المدن القديمة وكان لها ٣٠ بابًا وكانت من عجائب الزمان منظرًا وبهجةً حتى يكاد الواصف يعجز عن وصف زخارفها وحسن رونقها وزينتها لان القواد الذين افتتحوا الممالك الاجنبية كانوا يأتون بجميع الامتعة والتحف النفيسة العجيبة التي يحوزون عليها في مغازيهم ويضعونها في قصور هذه المدينة وهياكلها زينة لها فكان فيها تماثيل جاءوا بها من بلاد اليونان واعمدة من مصر وامتعة مجنسة غريبة عجيبة من اسيا وغير ذلك من الذهب والفضة والحجارة الكريمة التي كانوا يجمعونها من اقطار المسكونة وكان فيها قصور جميلة وهياكل ظريفة اكثرها من المرمر المنقوش نقشًا جميلاً ومراسح ومحلات مدهشة لمن يشاهدها وللملاهي العمومية وغير ذلك من الابنية الفاخرة وكانت مشحونة بغنائم الدنيا باسرها

وتنحصر اسباب هذا الغنى العظيم في الفتوحات التي افتتحوها والغنائم التي اكتسبوها من الممالك التي استولوا عليها بواسطة قساوتهم البربرية وقتل اعدائهم وسلب اموالهم بدون ادنى رحمةٍ ولا شفقة نعم لا ينكر انهم كانوا نظاير الفرس والمصريين واليونانيين وغيرهم من الامم القديمة يتصورون تصوراتٍ من جهة الفضيلة ولذلك كانوا يعملون احيانًا اعمالاً تستحق المدح ولكنهم كانوا نظيرهم ايضًا فاقدين الاداب الحقيقية التي تستدعي معاملة الناس على احسن اسلوب بل تفوقوا عليهم في غرور الكبريا حيث زعموا بان لهم اصلاً سماويًا وانهم سوف يحكمون كل العالم وان كل ما يدخل بايديهم بواسطة السلب والنهب والغارات هو ملك شرعي لهم وانهم هم واليونانيون فقط الناس المتمدنون وما عداهم من سائر الامم برابرة ومتوحشون

وقد ذكرنا في ما سلف بانهم كانوا ينقسمون الى قسمين اشراف وعوام ثم بعد ذلك اضيف الى هذين القسمين قسم ثالث يُعرف بحزب الاسياد وهو في درجةٍ وسطى بين الاشراف والعوام وكان يحدث بينهم من جرى ذلك منازعات ومخاصمات كثيرة

واما رؤساء ديانتهم فكانوا ينتخبون من اعيان الاهالي وكانت وظائف رؤساء الكهنة ذات اهمية سياسية عظيمة لانهم كانوا مولجين بتقديم الذبائح البشرية للآلهة ثم ان اعتناءهم بالطقوس الدينية والتنجيم[1] وغير ذلك من الامور التي كانوا يستندون عليها في تفليكاتهم كتفسير الاحلام وهيئة امعاء الحيوانات والطيور وحرق الموتى[2] والذبائح الحيوانية والبشرية التي كانوا يقدمونها على قبور الاموات فهي مدرجة مع اصول ديانتهم التي اتخذوها عن اليونانيين ايضاً كعبادة جوبيتير وغيره من الآلهة في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا حاجة لتكرار تفاصيل ذلك هنا

وكانت ملابسهم الاعتيادية قميصاً واسعاً من صوف بغير اكمام وثوباً اخر ابيض ضيق يلبسونه تحت القميص وقت الخروج من البيت الى السوق وعند رجوعهم الى بيوتهم ينزعون القميص وكانت الرجال منهم غالباً مكشوفي الرؤوس يلبسون في ارجلهم تارةً احذية مكشوفة مربوطة بالرجل بواسطة شرائط وتارة جزمة قصيرة

اما لغتهم الاصلية فهي اللسان اللاتيني وسوف يرد في مواطن عديدة من هذا الكتاب كلام يتعلق في هذه اللغة يغني عن تفاصيل كثيرة هنا

واما الزواج فكان عندهم من الامور الضرورية وقد عاقبوا من امتنع عنه باشدّ القصاصات الصارمة وفي بعض الاجيال فرض قضاتهم وقتاً مخصوصاً لزواج الشبان يلتزم من بلغ السنّ المعيّن ان يتزوج فيه وجعلوا ذلك فريضة

---

(١) ذكر بعض المؤلفين بان كاتون وقيقرون المعدودين من افراد رجال رومية في العلم وذكاوة العقل كانا من جملة اولئك المنجمين مع انهما لم يكونا يعتدان في تلك الحيل والخرافات الكاذبة اذ يقال بان كاتون المذكور قال يوماً لاحد اصحابه كيف يمكن ان ينظر منجم الى وجه منجم اخر ولا يضحك

(٢) هذه العادة التي طالما شنع عليها اهل الذوق السليم وانكروها على اهل الاديان الوثنية من العالم القديم والجديد قد رجع اليها اهل اوربا الان واخذوا من مدةٍ قريبة في بناء مواقد خصوصية في كثيرٍ من عواصم بلادهم لهذا العمل المكروه

شرعية وكان اوغسطوس قيصر يشدد القصاصات على الذين يتوقفون عن الزيجة ويمنح كثيري النسل عطايا كثيرة وكانوا يخطبون البنات مدةً طويلة قبل عقد الزواج الذي يجرونهُ باحتفالٍ عظيم بحضور الكهنة والمنجمين ويحررون شروط الزيجة بمحضر جمهورٍ من الشهود وكان القرينان يثبتان تلك الشروط بقشةٍ يكسرانها امام الحاضرين وبعد ذلك يهدي العريس عروسهُ خاتمًا تلبسهُ في الوسطى من يدها اليسرى لاعتقادهم انهُ يوجد عرق يمتد من تلك الاصبع الى القلب ثم يختمون احتفالهم بضيافةٍ يقيمها ابو العروس . وعند تمشيط العروس وقت الزفاف كانوا يفرقون شعرها بسنان رمح اشارةً بانها ستكون عن قريب قرينة رجل مقاتل ثم يتوجونها باكليلٍ من زهور ويضعون على رأسها منديلاً يليق بها وعند نهاية لبسها يرافقها الى بيت العريس ٣ صبيان ممن كان والدوهم احيا ويُحمل امامها ٥ مشاعل ومردن ومغزل وعند وصولها الى البيت تربط جوانب الباب بحبالٍ من صوف مغمسة في شحمٍ مذوب لاجل منع قوة السِحر وبعد ذلك يحملونها ويدخلون بها الى الغرفة اذ لم يكن يسمح لها ان تدوس العتبة برجليها ثم يتقدم العريس ويهديها مفاتيح البيت مع اناءين فيهما ماء ونار ثم يصنع ضيافةً عظيمة لجميع اهل العرس مصحوبةً بآلات الطرب والرقص وكان المدعوون ينشدون مدائح للعريسين

وكانت صنائع قدماء الرومانيين منحصرةً في حراثة الارض وبعض مهن بسيطة متعلقة بها وكانوا يعتبرون امهر الحراثين كافضل الناس وكان الحراثون يميلون الى الخرافات فكانوا يمتنعون عن الاشغال كافة في خامس يوم من الهلال وفي السابع والعاشر منهُ كانوا يزرعون الدوالي ويضعون النير على صغار البقر لاجل التطبيع وفي العاشر منهُ يباشرون في السفر وكانوا يأتون بجمجمة حمار ويعلقونها على حدود الحقول لاعتقادهم بان ذلك مما يحسّن تربتها ويمنع عنها المحل . وفي زمان المشيخة الاولى لم يكن في بساتين الرومانيين سوى قليلٍ من انواع البقول واشجار الفاكهة واما التفاح والكرز وغيرها من الاثمار اللذيذة

والزهور الجميلة فقد استجلبوها من بلاد العجم واسيا الصغرى بعد مدةٍ طويلة وكانت العادة عندهم ان يظللوا مصاطب جنائنهم ومماشيها باغصان الدوالي ويعلقون فيها التماثيل ويحيطونها بسياجات مرتفعة من الشوك والعليق والمرج ان الرومانيين اكتسبوا معرفة زرع الكروم واستخراج الخمر من اليونانيين ايضاً فكانوا وقت استخراجهِ يبتهجون ويفرحون ويصبون من الخمر الجديد على الارض اكراماً للمشتري والزهرة

وكانت لهم اليد الطولى في الابنية والنقش على الحجر والمرمر وفي اقامة الجنائن المستظرفة ومن اشهر ابنيتهم في تلك الاعصار قصر الفيلسوف يليني صاحب الثروة العظيمة وكان لهُ املاك عديدة من جملتها القصر المذكور الذي لشهرة هندستهِ ورونق بنائهِ تخلد ذكرهُ في بطون التواريخ قال بعض المولفين ان الصنائع اللطيفة والرياضية لم تُعرف عند الرومانيين الاَّ بعد الجيل السادس من تأسيس رومية اي نحو ١٥٠ سنةً قبل الميلاد حيث اكتسبها وقتئذٍ جنودهم من الامم الذين افتتحوا بلادهم وادخلوها الى رومية وعندها ابتدا الاغنيا ان يتفننوا دورهم ويزينوها بانواع التصاوير والنقوش

وكانَ في مساكن الاشراف مخادع جميلة فيها مكاتب مباحةٌ لمن يرغب في الاطلاع عليها من الادباء والعلماء وكانت الكتب نادرة الوجود لسبب كلفتها وصعوبة نسخها اذ كانوا يكتبونها على الرقوق وبعضها على الورق المصنوع من اوراق النبات المصري المعروف باسم بابيروس فكانوا يصلون اطراف الاوراق بعضها مع بعض ويلفونها درجاً ويحفظونها ضمن لفافة من الجلد او الحرير

وكان جل انتباه اشهر رجال الرومانيين منصرفاً نحو الترتيبات العسكرية والاستعدادات الحربية وقد حكمت شريعتهم وقتئذٍ على كل رجل من احرارهم ان يخدم في العسكرية رغماً عنهُ في اي وقت كان من سنّ ١٧ سنة الى سن ٤٦ وكانت عساكرهم مقسومة الى فرق ومواكب كل فرقةٍ تشتمل على ٣ الاف من المشاة و٣٠٠ من الخيالة ثم زادوا عددها بعد ذلك فجعلوها ٧ الاف وكان

يسبق الفرقة نسرًا من فضة يحمله ضابط من ذوي الرتب على رمح اما الخيالة فكانوا يحملون علامات من شريط منقوش عليها باحرف ذهبية الاحرف الاولى من اسم الامبراطور وعدد الفرقة. ولم يكن عندهم من آلات الموسيقي العسكرية سوى النفير وكان البعض من العساكر يتسلحون بحربات خفيفة والبعض بحربات ثقيلة ويتقلدون الاتراس والبلطات على اليمين ويتدرعون بدروع من نحاس اوفولاذ وتحت الدرع ثوب احمر واصل الى الركبة وعلى رووسهم خوذ من نحاس بشراريب من شعر الخيل واما القواد فكانوا يلبسون قمصانًا مدرعة بخشفات من النحاس اوالفولاذ مصفحة احيانًا بالذهب وتحتها اثواب ضيقة واصلة الى اواسط الساقين وكانوا يركبون الخيل بدون ركابات وكانت سروجهم قطع قماش ملفوفة بحسب رغبة الراكب وكان تدبير العساكر ونظامها متقنًا غاية الانقان وقوانينهم في غاية ما يكون من الصرامة

اما مراكبهم البحرية فكانت شبيهة بمراكب قرطاجنة غليظة وضعيفة البناء عالية الموخر والجوانب ومع انها كبيرة لم تكن تصلح لمصادمة الانواء والارياح العاصفة وكان لها صفان او ٣ صفوف من المجاذيف بحسب عدد طبقاتها واما مقدمها فكان مدرعًا بالحديد على هيئة راس حيوان وعلى ظهرها الاعلى برج غير ثابت تستخدمهُ العساكر كمتراس لاطلاق الاسلحة وفيه جسر يستعملونهُ وقت العبور والهجوم على مراكب الاعداء وقبل اكتشاف الحك اوهو بيت الابرة التي بواسطتها استوّمن السير في وسط البحار كان سير المراكب منحصرًا في الشطوط. وبحسب المركب كبيرًا اذا كان محمولة نحو ٣ الاف كيلة

وكان تجار الولايات البحرية التي على شواطي البحر الرومي يجلبون الى رومية جميع انواع محاصيل الشرق غير ان تلك التجارة انحصرت فيما بعد باهل رومية بعد ان فتح اوغسطوس البلاد المصرية وصارت حينئذٍ مدينة الاسكندرية مركزًا لتلك التجارة

وكان للرومانيين مراسح كثيرة قد شيدوها لاجل الفرجة على الوحوش

الضارية وعلى مصارعة الابطال وانواع اللعب بالسيف وكانوا يحفظون الوحوش البرية في اوجرة حول الفسحة الوسطى من المراسح ويصونون تلك الفسحة تصوينًا متينًا ويحيطونها بقناةٍ من الماء لاجل صيانة المتفرجين وعند اجتماعهم في هذا المرسح يطلقون الوحوش بعضها على بعض فكانت تضر ببعضها ويهلك منها كثير يقال انهُ قتل منها ١١ الفًا في مشاهد الاشهر الاربعة التي أُقيمت فيها الافراح لاجل انتصار الرومانيين على اهل داسيا وقتل ايضًا في حادثةٍ اخرى نظيرها ٥٠٠ اسد في برهةٍ وجيزة وكثيرون ايضًا من المسيحيين الاولين اماتهم الرومانيون بطرحهم اياهم للوحوش في تلك المراسح التي لم يكن تشييدها مقصورًا على مدينة رومية بل وفي اية مدينةٍ ارادوها من البلاد الكائنة تحت سلطتهم ولم يزل حتى الان يوجد في جبلة من توابع لواء طرابلس الشام اثار ملعب من هذه المراسح يعرف بالتياترو وهو على شكل قوس دائرة متاعدهُ صفوف حول الساحة المتوسطة كلّ صف منها مرتفع قليلاً عمَّا تحتهُ ونصف الدائرة نحو ١٥٠ قدمًا والمحيط من خارج نحو ٤٥٠ قدمًا وتحت المقاعد مرابض لوضع الوحوش التي كانوا يستحضرونها لتلك الملاعب. وكان من ملاعبهم التي يفتخرون بها ايضًا المصارعة بالسيف اي لعب الحكم وهذا النوع من اللعب حدث في رومية على ما قيل في اواخر الجيل الخامس من تأسيسها اي نحو سنة ٢٥٠ ق م وكانوا قد استعملوهُ في اول الامر امام جنازةٍ بقصد الاحتفال والتعظيم ومن ثم صار استعمالهُ في الجنائز عمومًا وبعد ذلك حسبوهُ ضروريًا وواجبًا للاحتفالات الرسمية التي كانت تقام في ايام المواسم والاعياد وكانت الاسلحة التي يستعملونها في تلك المصارعات مضرة وقاتلة وكثيرًا ما كان يقع عدد وافر من اولئك المصارعين قتلى على الارض لاجل نزاهة المتفرجين وكانت في اول امرها مخصصة للمجرمين او للاسرى ثم للعبيد فكانوا يتصارعون باسلحةٍ مختلفة تارةً بالاسلحة الكاملة واخرى بحربةٍ ذات ٣ شوكات وشبكة بواسطتها يجتهد احد الخصمين ان يعرقل خصمهُ ويشبكهُ بها فيتمكن من قتلهِ وكان الامبراطور كومودوس

الذي تولى القصرية سنة ١٨٠ ب م وقد مرّ ذكرهُ يشترك احياناً كثيرة في تلك المصارعات متحفظاً على نفسهِ باعتقالهِ الاسلحة الكثيرة واستمرت هذه العادة دارجة ومستعملة عندهم الى الجيل الرابع حينما ابطلها الملك قسطنطين الكبير الآتي ذكرهُ في الفصل التالي واقام عوضاً عنها ملاعب اخرى من شأنها ان تنشط الجسد وتقويهُ لاان تهدمهُ

الفصل الرابع

في ماجريات القياصرة الرومانيين المسيحيين منذ تنصر قسطنطين الكبير المذكور الذي نقل كرسي الامبراطورية من رومية الى القسطنطينية الى ان انقسمت المملكة الى قيصريتين شرقية وغربية في سنة ٣٩٥ ب م

كان الملك قسطنطين الكبير المقدّم ذكرهُ عظيم الهامة صحيح البنية لا يبالي بالمشقات والاخطار ولا يكلّ من الاتعاب والاسفار نودي باسمهِ قيصراً سنة ٣٠٦م وكان مشهوراً بالشفقة والرافة منفرداً بالاوصاف الحميدة والآراء السديدة وقد امتازت ايامهُ عن ايام باقي القياصرة بامرين مهمَّين عظيمين اولهما اعتناقهُ في سنة ٣١٢م الديانة المسيحية وثانيهما نقل كرسي السلطنة من رومية الى مدينة القسطنطينية التي بناها في سنة ٣٣٠م

وقد تمسك هذا الملك بالديانة المسيحية اشدّ تمسكاً حتى انهُ لم يكن احد من الملوك اشدّ حميةً منهُ عليها فجعلها ديانة الولاة والحكام وهدم هياكل الاصنام واذ لم يكن في ذلك الوقت اسقف عام على جميع الكنائس فكان هو في واقع

الامر صاحب القول عليهنّ وفي ايامهِ ظهر الاعتقاد الاريوسي الذي قاومهُ اثناسيوس رئيس اساقفة الاسكندرية فامر قسطنطين بالتآم مجمع اكليريكي في مدينة نيقية ويقال لها نيس في ايطاليا فتقرر بهِ هرطقة اريوس وكان ذلك اول مجمع مسكوني ثم ان هذا القيصر افرز من خزائنهِ مبالغ جسيمة من الاموال لاجل انشاء الكنائس في مدينة اورشليم وسائر الاراضي المقدسة فاتخذت امهُ هيلانة على ذاتها العناية بذلك وسافرت من القسطنطينية في بعض شهور سنة ٣٢٦ م الى اورشليم وكان سفرها هذا علةً لسعادة سكان تلك البلاد الذين كانوا يلتجئون اليها من اغنياء وفقراء وارامل وايتام ومديونين ومرضى ومحبوسين فانها كانت تعولهم وتنقذهم وتوزع عليهم العطايا والاموال الكثيرة وعند وصولها الى اورشليم هدمت معبد الزهرة الذي كان شيدهُ الوثنيون على جبل الجلجلة ثم اعتنت بكشف قبر المسيح ويقال انها وجدت بقايا من الصليب فجاءت بها الى القسطنطينية وكانت هذه الامبراطورة قبل اعتناقها الديانة المسيحية متزوجة بقسطنطينوس كلوروس اي قسطنطين الذي لم يكن وقتئذٍ سوى قائد من القواد الرومانية فلما صار قيصرًا في سنة ٣٠٥ ب م طلّقها بحسب عادة الرومانيين الوثنيين طمعًا بزواجهِ ثيودورة بنت الامبراطور مكسيميانوس الذي كان صار قيصرًا في سنة ٢٩٠ ب م فلما ارتقى ابنها قسطنطين الى كرسي القيصرية بعد وفاة ابيهِ ارسل فاحضرها الى البلاط الملكي ولقبها بلقب اوغسطا اي ملكة ثم عرفها بحقيقة الدين المسيحي الذي كان قد اعتنقهُ فتنصرت من يومها وانعكفت على العبادة وكانت غيورة على اقتناء الفضائل الانجيلية

ويقال بان السبب في تنصر قسطنطين المشار اليهِ هو انهُ ابصر حلمًا في اثناء محاربتهِ مكسنتيوس بن مكسيميانوس المذكور الذي كان ينازعهُ على تاج الملك وهو صورة صليب في السماء من النجوم مكتوبًا تحتهُ بخط من النجوم ايضًا "بهذا تغلب" واما السبب في نقلهِ سرير السلطنة الى القسطنطينية فهو انهُ لما دخل الى مدينة رومية في اول امرهِ مؤيدًا منصورًا على مكسنتيوس المذكور لم

يلقَ من اهلها بشاشةً ولا ترحيب لتمسكهِ بالدين المسيحي فغضب من ذلك وانف ايضًا من انعكاف الاهالي على العبادة الاصنامية وصمم على ان يبني مدينةً غير رومية يجعلها مقر الحكومة ودار السلطنة فاختار قريةً من قرى طراسة التي تسمى الآن روم ايلي كانت تسمى في الزمن القديم ليغوس ثم صارت بعد نزول قبائل اليونان هناك مدينةً تسمَّى بيزنتيه نسبةً الى بيزنس رئيس الماغريين المؤسس الاصلي لها في سنة ١٣٠٦ ق م وذلك لنزاهتها وحسن موقعها بين اوربا واسيا ولكونها مشرفة على ٣ ابحر فرسمها وبنى اسوارها وقصورها على راس مثلث الزاوية منقسمةً الى ٧ تلال وسماها رومية الجديدة وبعد ان اتمها على احسن حال رغب الاهالي فيها لكثرة منافعها وفوائدها وقصدها الناس من جميع الاقطار ثم تغلب عليها اسم القسطنطينية نسبةً الى بانيها المذكور وفي كتب تواريخ المسكوب يسمونها زرغورود يعني المدينة الملكية والبلغار والاولاق يسمونها زرغوراد واهل جزيرة اسلندة والسكندناوية كانوا يسمونها في القرن العاشر من الميلاد مكلاغرد يعني المدينة الكبيرة وبعد ان افتتحها آل عثمان سموها استانبول او اسلامبول وكلتا اللفظتين مركبتان من كلمتين الثانية منها كلمة يونانية وهي بول او بولي ومعناها بلد والاولى في الاولى فارسية ومعناها العتبة فكأنهم يقولون مدينة العتبة يعني عتبة الملك وفي الثانية عربية والمعنى فيها مدينة الاسلام

وبعد وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧ م انقسمت المملكة بين اولادهِ الثلاثة وثارت بينهم حروب ادت الى زعزعة اركان الدولة الرومانية فكانت برابرة الشمال تهجم عليها من جهة المغرب واكاسرة الفرس تتهددها من جهة المشرق ثم اعقب اولاد قسطنطين المذكورين ابن عمهم المسمَّى بوليانوس والافرنج تقول يوليان ويلقبونهُ بالجاحد لانهُ جحد الديانة المسيحية واعاد الديانة الوثنية سنة ٣٦٢ م واخذ يجمع اليهود في اورشليم وابتدا بعمار هيكلهم ليبين بذلك فساد الكتب المقدسة ويكذب نبوة المسيح بهذا الشان قال بعض المولفين نقلاً عن

اميانوس احد المورخين الوثنيين الذي عاش في تلك الايام انهم اذ كانوا يحفرون الاساس خرجت نار من الارض واحرقت الفعلة وسمعوا رعودًا وراوا شرارات نارية تخرج من الصخور فكفوا عن العمل وبعد موتهِ تولى يوفيان امبراطورًا مكانهُ سنة ٣٦٢م وفي ايامهِ تشيدت النصرانية ثانيةً ولم تطل مدتهُ سوى سنة واحدة وبعدهُ اشتغل خلفاؤُهُ بحروب البربر وغيرهم ولازال الحال في تأخر الى ان قام بالملكة ثيودوسيوس الاول ويلقَّب بالاكبر واستقل بالحكومة بمفردهِ فقسم السلطنة الرومانية بين ولديهِ اركاديوس وهونوريوس في حال حياتهِ وتوفي سنة ٣٩٥م وبعد وفاتهِ تولى ابنهُ اركاديوس المملكة الشرقية وابنهُ هونوريوس المملكة الغربية ولكلٍّ من هاتين القيصرتين شان على حدتهِ كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية ومن هذا الوقت يبتدي المورخون بالفصل الاول من القسم الثاني من اقسام تاريخ العالم العمومي حسبما يستبين ذلك مما اوردناهُ في مقدمة هذا الكتاب

م

القسم الثاني

من اقسام التاريخ وهو المعروف بالقرون الوسطى

الفصل الخامس

في امبراطرة القيصرية الرومانية الشرقية منذ انفصالها عن المملكة الغربية سنة ٣٩٥م الى ان افتتحها آل عثمان سنة ١٤٥٣م

ولما تولى اركاديوس بن ثيودوسيوس المقدم ذكرهُ على الامبراطورية الشرقية التي كرسيها مدينة القسطنطينية كانت تحتوي على بلاد فلسطين وفينيقية والشام وقبرص والعرب وكيليكيا والجزيرة وبلاد مصر واسيا الصغرى وبلاد البحر الاسود والروم ايلي ومكدونيا ودافيا وبها تاسست لليونانيين امبراطورية جديدة استمرت مركزًا للعلوم والتمدن بعد هذا الانقسام باكثر من الف سنةٍ

ثم بعد وفاة اركاديوس تولى ابنهُ ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٠٨ وكان كابيهِ في ضعف العقل وقلة الادراك الَّا انهُ في ايامهِ وضعت تلك القوانين الآتي ذكرها التي لم تزل معتبرة من بعض الوجوه في تقليدات الكنيسة اليونانية

ولما تبوَّأَ لاون الاول بعد انقراض العائلة الثيودوسية في سنة ٤٥٧م توجهُ البطريرك القسطنطيني فكان اول امبراطور توَّجهُ بطريرك

وفي ايام انسطاسيوس الذي تولى القيصرية سنة ٤٩١ م ادخل راهبان من رهبان الافرنج الذين كانوا في بلاد الصين دود القز الى القسطنطينية وكانا خبأَاهُ في عكازتيهما خوفًا من شرائع تلك البلاد التي كانت تمنع باشد صرامةٍ اخراج شيء مثل ذلك من اقاليمها

وفي زمن جوسنيانوس ويقال لهُ يوستنيانوس ايضًا الذي تولى السلطنة سنة ٥٢٧ م زهت المملكة الشرقية وعظمت سطوتها بسبب انتصاراتهِ الحربية ووضع ديونيسيوس الانقوثي التاريخ المسيحي المستعمل الآن وذلك في سنة ٥٣٢ ب م وكان المسيحيون لحد ذلك الوقت يورخون بالتاريخ الروماني الذي يبتدي من تأسيس رومية سنة ٧٥٣ ق م[1] واشتهر هذا القيصر باشتغالهِ مع تريبونيان الفقيه في تنقيح السنن والشرائع الرومانية الكثيرة المجموعة منذ اجيالٍ عديدةٍ وفي وضع قوانين وشرائع مدنية تُعرف بالقانون الجوستيناني فكان ذلك من اعظم اعمال عصرهِ وهو الان قاعدة واساس الاحكام المدنية الحاضرة في اوروبا وفي ايام فوكاس ويقال له فوقا ايضًا الذي تولى القيصرية سنة ٦٠٢ م اصدر امرًا الى عاملهِ بمصر يامرهُ برفض جنس المصريين من الوظائف الميرية فحدث من ذلك اضطراب وفتنة في الاسكندرية وكان اكثر هذه الفتنة من

(١) غير ان محققي المتاخرين اثبتوا غلطة في هذا الحساب اذ انهُ جعل ميلاد المسيح في سنة ٧٥٣ من عمارة مدينة رومية مع ان المسيح ولد قبل موت هيرودوس ويوسيفوس المورخ اليهودي يقول ان هيرودوس مات في ربيع سنة ٧٥٠ من تاسيس رومية فاذا كان المسيح ولد في كانون الاول او في فصل الخريف الذي قبل موت هيرودوس فيكون ميلادهُ في سنة ٧٤٩ من تاسيس رومية وهو قبل التاريخ الدارج باربع سنين وكذلك ذكر لوقا في انجيلهِ ان يسوع كان ابن ٣٠ سنة في سنة ١٥ من سلطنة طيباريوس قيصر وطيباريوس هذا صار شريكًا في السلطنة مع اوغسطوس قيصر سنة ٧٦٥ من تاسيس رومية واذا اضفنا الى هذا التاريخ ١٤ سنة تامة من ملكهِ بعد ذلك يكون المجموع ٧٧٩ وهي السنة التي شرع فيها المسيح في خدمتهِ واذا طرحنا من هذا المجموع ٣٠ سنة التي هي عمرهُ في ذلك الوقت فيكون الباقي ٧٤٩ سنةً ايضًا ولذلك رجح اكثر العلماء بان ميلاد المسيح كان قبل التاريخ المستعمل الان باربع سنين على ما ذكرنا

طائفة اليهود هناك فحكم عليهم هذا القيصر ان يتنصروا فتنصروا رغماً عنهم

وخلفهُ بعد ان قتل هيراكليوس ويقال لهُ هرقل ايضاً في سنة ٦١٠ م فاجرى حروباً كثيرة مع الفرس وغيرهم وبعد ان رجع الى القسطنطينية دار مملكتهِ ظافراً مؤيداً على ابرويز خسرو ملك فارس اهمل ادارة الاحكام وانهمك في مجادلات دينية من جهة لاهوت المسيح وفي اثناء ذلك افتتح المسلمون مدينتي القدس والشام واستولوا على جانب كبير من سوريا وكان وقتئذٍ نائبة على مصر رجل من القبط يقال لهُ المقوقس المشهور بانهُ سلم البلاد المصرية مع وجود ١٠٠ الف عسكري من جنود الرومان فيها الى ٤ الاف فارس من العرب تحت راية عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب

ومنذ وفاة هذا القيصر الى قيام جوستنيان الثاني سنه ٦٨٥ م لم يحدث شيء الأ مهاجات المسلمين القسطنطينية ولذلك اخترع رجل يقال لهُ كالينيكوس السوري النار المعروفة بالنار اليونانية وكانت تحرق في وسط الماء للدفاع عن هذه المدينة وذلك سنة ٦٧٣ م

ولما تبوأ سرير السلطنة ليو الثالث ويسمى ايضاً لاون الايسوري او اللوزرياني سنة ٧١٦ انفتح في ايامهِ باب الجدال بين الكنيستين الشرقية والغربية بسبب وضع الصور في الكنائس وكانت الروم تريد ابطال هذه العادة حتى انهم كسروا كثيراً من الايقونات وداسوها في الشوارع والطرق حيث ان المسلمين كانوا يعيرونهم بسببها وينهمونهم بعبادة الاوثان ووقع النفور بين الكنيستين حتى آل الامر بهما الى الانقسام فلما استولت على المملكة زوجة ايريني بعد موتهِ بالنيابة عن ولدها قسطنطين الذي سملت عينيهِ اخيراً لتستبد بالملك اعادت الصور المذكورة الى الكنيسة الشرقية

ثم لما اتصلت ادارة القيصرية ببرداس في ايام ابن اختهِ ميخائيل الثالث الذي تولى السلطنة سنة ٨٤٢ م وكان برداس المذكور محباً للعلوم والفنون فاقام فونيوس الشهير وكان من اعظم اهل العلم في وقتهِ بطريركاً على

القسطنطينية سنة ٨٥٨م

ولما تولى المملكة باسيل المعروف بالمكدوني في سنة ٨٧٦م وكان هذا الملك موصوفًا بالفراسة والذكاء ومحبًا لانتشار المعارف فاصلح نظامات البلاد وشرائعها وألّف كتابًا لابنه ليو (لاون) في فنّ الاحكام طبع في باريس سنة ١٠٨٤م وترجم الى اللغة الفرنساوية سنة ١٠٩٥م وله ايضًا مجموع شرائع تُعرف بالباسيلية في ٦٠ مجلدًا ابتدأ بها هو واكملها ابنه وهي مطبوعة ايضًا في باريس حديثًا

ثم بعد هذا القيصر بنحو قرنين وجد لاليكسيوس كومنينوس الذي تولى القيصرية سنة ١٠٨١م ابنة يقال لها حنة كومنينا ذات عقلٍ وادب وذكاء مفرط وكانت من احسن نساء عصرها وانجبهنّ واعظم من اشتهر من جنس النساء في فن التاريخ كما اشتهر ابوها المذكور بخيانته للصليبيين ومقاومته لهم سرًّا مع انه كان يدعوهم في اوّل الامر من اوربا ويعدهم بالمساعدات قيل ان ذلك كان منه لتدبير سياسي به يوفي سلطنته من مغازي طوائف الافرنج التي كانت طالما تشتاق الى فتح بلادهِ كما يتضح ذلك من الابحاث الآتية عند الكلام على الحروب الصليبية المذكورة

وبعد ذلك بنحو قرن ايضًا لما انزل اليكسيوس انجيلوس اخاهُ اسحق انجيلوس عن التخت بعد ان كان تولى السلطنة سنة ١١٨٥م وسمل عينيهِ ثم سجنهُ هرب ابنهُ اليكسيوس الى رومية واستغاث بالبابا اينوسنت الثالث ووعدهُ بان يضم الكنيسة الشرقية مع الكنيسة الغربية ويجعل السلطنة الشرقية خاضعة لاحكام الباباوات وقوانينهم ولذلك امر البابا قواد التجريدة الصليبية الرابعة ان يساعدوهُ على استيلاء المملكة وينقذوهُ من تعدي عمهِ وظلمهِ ففعلوا وحاصروا القسطنطينية وحرقوا عمارة الروم التي كانت تحافظها وحينئذٍ نادى اهاليها باسم اليكسيوس ابن اسحق المذكور بعد ان هرب عمهُ خوفًا من القتل فاستولى على مملكة ابيهِ لكن لما عرفت الروم بما تعهد بهِ للبابا استعظموا الامر ولاسيما خدش استقلال كنيستهم فعزلوهُ وولوا مكانهُ اليكسيوس دوكاس الملقب

مازوفلوس واذ لم يفِ هذا ايضاً ما وعد بهِ سلفهُ للبابا نهض اللاتينيون وحاصروا المدينة وتملكوها ونهبوا اموالها وهدموا قصورها وابنيتها الظريفة واقاموا عليها قائدهم بودوين امبراطوراً فاستمر حكم اللاتينيين على هذه السلطنة من سنة ١٢٠٦ الى سنة ١٢٦١ وهم في حروب دائمة مع الروم الذين ما برحوا يريدون استخلاصها وكانوا قد أسسوا وقتئذٍ مملكتين روميتين احداهما في نيقية سنة ١٢٢٣ وملكها ثيودورس لاسكاريس والثانية في طرابزون وملكها اليكسيوس كومنينوس ثم في سنة ١٢٦٠م نهض ميخائيل باليولوغوس ملك نيقية مع صاحبهِ يوحنا لاسكاريس وهاجما القسطنطينية واستخلصاها من يد الملك بودوين الثاني واعادا اليها تخت السلطنة وجلس عليهِ ميخائيل باليولوغوس المذكور ثم خلفهُ بعدهُ عدة ملوك الى ان هجم السلطان محمد الفاتح العثماني في سنة ١٤٥٣ على هذه المدينة واستخلصها من يد قسطنطين الباليولوغس الذي هو اخر ملوك الروم فيها وجعلها دار سلطنتهِ ومركز حكومتهِ ولا زالت بيد خلفائهِ الى هذا اليوم

الفصل السادس

في المبادي الفلسفية العمومية منذ تنصّر الملك قسطنطين الكبير باني مدينة القسطنطينية الى ظهور الدولة العباسية في المشرق والامبراطورية الغربية يعني تملك كرلوس الاكبر في المغرب سنة ٨٠٠م

يتضح من التفاصيل الآتية في البحث الثاني كيف ان العلوم والفنون وكل انواع التمدن الذي اكتسبهُ الرومانيون من اليونانيين بظرف ٦ قرون مكثوا

بها متسلطين على اقاليمهم وكانوا ينشرونها في البلاد التي يفتحونها ويستولون عليها قد زال دفعةً واحدةً من جميع اقطار الامبراطورية الغربية منذ استولى البربر على اقاليمها فانعدم التمدن القديم من بلاد المغرب في القرن الخامس من الميلاد ولكنهُ بقي محفوظًا في بلاد المشرق مدّة القرون الوسطى وكان مرتبطًا باحوال امبراطورية القسطنطينية قوةً وضعفًا وذلك ان ما صدر من القيصر قسطنطين الكبير من التدبير في حفظ السلطنة الرومانية بنقلها الى سواحل الخليج القسطنطيني كان وقايةً لاصول التمدن اليوناني ولما خلت ايطاليا من كرسي القياصرة الغربية اغدق القياصرة الشرقيون بالانعام على اصحاب العلوم والمعارف وبثوا صنائعهم السلطانية فيما حول القسطنطينية التي هي دار اقامتهم فكانت الشوكة والثروة اللتان بهما احياء الفنون وامدادها مع حضور القيصر الذي بهِ تكون قوّتها وشرفها وسائر ما تحرك بهِ العقول البشريّة كل ذلك محرضًا للشعوب الشرقيين ذوي البراعة والنشاط على ممارسة العلوم والفنون والاشتغال بها واصبحت جميع الاقاليم وسائر ذوي المعارف يجبون الى القسطنطينية ما يجب عليهم تاديتهُ من العلم والفصاحة وصارت هذه المدينة تجهز لنفسها من التحف والنفائس ما كانت تبعث بهِ اسيا منذ قليل من الزمان الى الكرسي القديم (رومية) ولما دخل ارباب البراعة في الدين المسيحي اكتسبوا ادابًا جديدة كستهم حلّة الرونق والبهجة ثم ما وقع بعد ذلك من تعارض الدين المسيحي والفلسفة الوثنية وتقاومهما ترتب عليهِ ما لا يحصى من ملح الانشا الفصيحة الادبية لان الفلاسفة الوثنيين اليونانيين لما ارادوا تنقيح عبادة الاوثان وتهذيبها وشرع في ذلك امينوس سكّاس الذي سبقت الاشارة اليهِ في الفصل الثالث ليعلو شان تلك العبادة بذل كذلك امناء الدين المسيحي معارفهم وانفسهم لاظهار الحق فتولد عن ذلك علمان جديدان وهما فلسفة افلاطون الجديدة التي تقدمت تفاصيلها في الفصل المذكور والفلسفة السكولاتسيكية التي تسلطت وتشتت على المكاتب المسيحية كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

ان المسيحيين منذ عهد القيصر قسطنطين اعتنوا اعتناء زائدًا في درس الفلسفة والفنون اكثر من قبل والملوك لم يغفلوا عن اية واسطة من الوسائط للبحث عن تقوية العلوم وتنشيطها واقاموا مدارس في كثير من المدن وجمعوا فيها مكاتب ايضًا ونشّطوا العلماء بالمرتبات والانعامات والالقاب السامية وهذا جميعهُ كان لازمًا في ذلك الوقت لمقاومة مضاديهم وابطال الوثنية شيئًا فشيئًا لان ديانة الوثنيين كانت تستمد كلّ اعالتها من علم اصحابها بل اذا كان الشبّان المسيحيون لا يقدرون على ايجاد معلمين من ابناء دينهم كانوا يلتزمون للذهاب الى المعلمين الوثنيين معلمي الفلسفة والبيان ويخشى من ذلك على عقيدتهم ومن ثم كل الذين من اليونانيين او الرومانيين ارادوا الانتظام في سلك العلماء مدّة القرن الرابع اوقفوا ذواتهم خاصةً لفنون الفصاحة والنظم والتاريخ والذين اشتهروا فيها من الامتين المذكورتين لم يكونوا قلائل ولئن كانوا مقصّرين دون الدرجة المطلوبة في مثل هذا المطلب

اما الذين تعلموا الفلسفة في القرن المذكور فكانوا الاّ القليل جدًّا من الشيعة الافلاطونية الجديدة فاذن لا يستغرب وجود بعض آراء افلاطونية في كتب المسيحيين كما في كتب غيرهم لانهُ لما اتسعت في مكتب الاسكندرية دائرة هذه الفلسفة داخلها شيء مما يحرّض على التعمّق في العبادة الوثنية واستعمال ما يستخدم بهِ على زعمهم الجنّ الروحانيات على ما تقدم في ما سبق اذ ان اهل ذلك العصر كانوا يميلون لمثل تلك الاوهام الفاسدة (١)

(١) تخصيصنا هنا اهل ذلك العصر بتلك الاوهام الفاسدة انما هو تبعًا للاصل المنقول عنهُ والآفانهُ معلوم بان الاكثرين من شعوب المشرق لا زالوا حتى الان يعتقدون باستخدام الجنّ وقط ما انكروا على ذلك وقت من الاوقات بل لا زالوا يتعاطونهُ الى يومنا هذا ويبرهنون على صحتهِ ومن سوء الحظ ان اهالي اوربا الذين لهم الفضل بكونهم كانوا علة تزييفهِ والانكار عليهِ منذ قرونٍ قليلة قد اخذوا الان في تجديدهِ ومعاطاة فنّ العرافة واستحضار الارواح ويسمون اصحاب هذا العمل اسبرتيين اي روحيين فهل من لوم اذن على من يخشى بعد هذا ونظائرهِ كتجديدهم حرق الموتى الذي سبقت الاشارة اليهِ في الكلام

والفلاسفة الوثنيون منهم كانوا في المغرب اقلّ مما كانوا في المشرق فكان منهم في سوريا يمبليخس الكلسيسي من عنجر شرح افلاطون او بالحري زور كتابات نسبها الى ذلك الفيلسوف وما كتبهُ يدلّ على انهُ كان ذا خرافاتٍ عبوسًا مذ عانًا وقواه العقلية من الدرجة الوسطى وتبعهُ ايد يسيوس ومكسيموس الافسسي وخلافهما وفي الاسكندرية قامت هيباتيا بنت ثيون الشهيرة واولمبيدورس وسينيسوس الذي كان عبارةً عن نصف مسيحي وغيرهم من الذين هم اقلّ شهرةً منهم واخذوا ينشرون هذه الفلسفة

ولما كثرت معارضة المتعصبين منهم لهذا المذهب مع روساء عبادة الاوثان الى الديانة المسيحية بالمشرق وكان اشهرهم رجل يقال لهُ فلوذيانوس دولبكربوس ويمبليخوس المذكور فسارا الى مدينة رومية التي كان الدين المسيحي وقتئذٍ قد تسلطن على جميع اهلها على اختلاف درجاتهم واخذا معهما رجل يقال لهُ بورفير او بورفيريوس الصوري كان رجلًا حاذقًا ذكيًا عالمًا كتب ٥ ا كتابًا من جملتها كتابًا مطولاً ضد المسيحيين لانهُ كان عندهُ خرافات واوهام اكثر من الاستدلال بالبرهان كما يستدلّ على ذلك من كتبهِ الباقية الى يومنا هذا (لان الملكين ثيودوسيوس الثاني وفالنتيانوس الثالث امرا اخيرًا باحراق كتبهِ الخمسة عشر) فاشتهر بورفير هذا هناك بما ابداهُ من المعارضة للانجيل على وجه التعنت والعناد الذي لا يلايم الفلسفة واخذ هو واصحابهُ في ان يشبهوا حياة المسيح وعجائبهُ واعمالهُ بتاريخ حياة الفلاسفة القدما واجتهدوا في ان يقنعوا السذّج والنساء اولاً بان الفلاسفة لم يكونوا دون المسيح واظهروا لهم ارخيطس من تارنتم وفيثاغورس وابولونيوس تيانيوس الفيلسوف الفيثاغورسي (الذي ولد بعد بداءة القرن الاول ومات قرب نهايتهِ بعد ان سافر الى كل المالك من

على العقائد الرومانية القديمة الماخوذة عن قدماء اليونان ايضاً من قهقرة الدهر بنا الى ان نصل الى عصر مستقبل نظير تلك الاجيال ترام اهلهُ يلهجون فيهِ بالامور التي لا زالوا الان يعتقدونها كاذبة كالتنجيم والسحر وتعبير الاحلام الى غير ذلك من الترّهات

اسبانيا الى الهند واشتهر كثيرًا بملاحظاتهِ الحكمية وادعائهِ بالمعرفة والقوى الفائقة وكان مشعبذًا مكارًا) متزيين بزي المسيح نفسهِ ولذلك صدر امر قسطنطين الملك بغلق مكتبهم الذي فتحوهُ في رومية لمعارضة الديانة المسيحية على هذه الصورة وامر كذلك بغلق مكتب الاسكندرية وذلك في سنة ٣٢٤م ومن ثم اندرست معالم هذا المذهب من رومية ومن الاسكندرية وبقي مركزهُ في اسيا الصغرى من ذلك الوقت الى سنة ٣٥٢م عندما ظهر مكسيموس الافسسي الذي مرَّ ذكرهُ وصاحباهُ كريسنت اللبدياني واوريب المندومي وحمل كريسنت المذكور القيصر يوليانوس الجاحد على التمسك بالفلسفة التي تتعلق بما وراء الطبيعيات التي كان عليها هولاء السفسطائية وترك الديانة المسيحية كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الثالث الذي مرَّ فتقوَّى حينئذٍ مذهبهم تحت حماية هذا القيصر ورجعوا فتحوا مكتب الاسكندرية وجددوا في اثينا مكتبًا اخر وصاروا يعلمون فيها المذاهب المضادَّة للدين المسيحي على رووس الاشهاد حتى انهُ لم يجسر احد من الملوك خلفاء يوليانوس على منع ذلك الى ان ظهر القيصر ثاودوسيوس الاكبر وصدرت اوامرهُ بتخريب هياكل الوثنيين فتخرب هيكل سربيس بالاسكندرية واحرقت المكتبة ايضًا واما مكتب اثينا فاغضى عنهُ القياصرة وبقي يتعلم فيهِ تلك المذاهب المضادَّة بالكلية للديانة المسيحية مدَّة ١٥٠ سنةً الى ان جاء بلوتاركه ويقال لهُ بلوترخس بن نسطور احد اصحاب كريسنت الكاهن الاكبر الى تلك المدينة وعلَّم في ذلك المكتب هذا المذهب الافلاطوني الجديد وبعده تولى التعليم فيهِ تلميذهُ سريانوس ولم يزل كذلك الى سنة ٤٥٠م وألَّف سريانوس المذكور مولفات تصدَّى فيها الى التوفيق بين الآثار الدينية المنقولة عن ارفة وفلسفة فيثاغورس وافلاطون وحمل خلفاءهُ ان يجعلوا لهذا المذهب الجديد قواعد واصولاً يكون مبنيًا عليها وكان لهُ تلميذ يقال لهُ بروكلوس لم يفتهُ شيء من العلوم التي اشتمل عليها هذا المذهب فألَّف في العلوم الرياضية وفي الطبيعيات وعلم الاخلاق وما فوق

الطبيعيات والاداب والميثولوجيا واسرار السحر الوهمية وكان قد اختار معارف افلاطون واصول ارسطاليس وعمل عليها وضمّ الى ذلك ما نتج عن قوة قريحتهِ من المعارف غير انهُ لما الجأتهُ الضرورة الى التوفيق بينهُ وبين جاهلية اليونان لم يمكنهُ ما كان قائمًا بذهنهِ من تهذيب الشرك بجعلهِ طريقًا قانونيًّا لا يُعدل عنهُ فشحن فلسفتهُ باوهام الشرقيين واثار ارفه والكهانة الادعائية والتخيلات التي نشأت عن التعمق في تلك العبادة ثم مات في سنة ٤٨٥ م وتعاقب بعدهُ على مكتب اثينا ٣ من اهالي برّ الشام وهم مارينوس النابلسي واسيدورس الغزّي وداماسيوس الدمشقي واضاف اخرون رجلاً يقال لهُ امونيوس بن هرمياس وهم ايضًا لم يمكنهم ان يرفضوا بالكلية ما كان متسلطنًا في وطنهم من الاوهام الروحانية التي تستعمل لاستخدام الجنّ الاّ ان داماسيوس المذكور اجتهد في ان يعيد تعليم العلوم المضبوطة الى ما كان عليهِ اذ بها يمكن اصلاح طرق هذا المذهب غير ان هذا الفيلسوف كان اخر مفسّري مذهب افلاطون وخاتمة معلمي المكتب المذكور الذي تخرج فيهِ في مبادي القرن السادس هرمياس واولبينيدور وسلطيوس وهيبر وقلز وكان اشهر من تخرج بهِ رجل يقال لهُ سمبليسيوس فانهُ كان ماهرًا في الطبيعيات بارعًا في علم الاخلاق عالمًا بمذاهب افلاطون والاسطوانيين وارسطاليس شديد الكراهة للتعمق والتدقيق في العبادة المعبّر عنهُ بالطرق الباطنية وببغض الرموز والاشارات كحكاية الاشياء على لسان الطيور والعجماوات ثم في سنة ٥٢٩ م صدر امر يوستنيانوس الاول قيصر القسطنطينية بغلق مكتب اثينا المذكور فغلق ولم يبقَ في تلك المدينة الاّ مكاتب الفقه والنحو فالتجا داماسيوس وغيرهُ من الفلاسفة الوثنيين الى الاسكندرية ثم رحلوا منها الى العجم مؤملين ان كسرى انوشروان ياخذ بناصرهم حيث انهُ كان عدوًّا لهذا القيصر وللديانة المسيحية فلم يفدهم شيئًا غير انهُ تشفع فيهم الى القيصر المذكور وكان من جملة المشارطة التي بها انتهى النزاع الذي كان حاصلاً بين هذين الملكين في سنة ٥٣٣ م ان يعود هولاء الفلاسفة الى

السلطنة الرومانية فتحملهم الرومانيون لكن صاروا يراقبون مذهبهم ويضيقون عليهِ حتى اندرس بالكلية مع عبادة الاوثان وهكذا انتهت هذه الشيعة التي اقلقت العالم المسيحي في تلك الاوقات وخلفها مذهب ارسطاليس الذي تسلطن وقتئذٍ في المكاتب والكنائس النصرانية وكان اوّل ما برزت فلسفة هذا الفيلسوف من خدرها انارها يوحنا فيلوبونس بشروحاتهِ واضطر اليونانيون الى معرفتها لان ذوي الطبيعة الواحدة والنساطرة اخذوا يدحضون آراء مجمعي افسس وخلكيدونيه ببراهين مسنودة على هذه الفلسفة وكانوا قد درسوا هذه الفلسفة وترجموا كتبهُ الاصلية من اليونانية الى لغتهم العامة حتى يمكنوا تابعيهم من قوة الجدال وترجم سرجيوس راسانسس الفيلسوف المعتقد بالطبيعة الواحدة مولفات ارسطاليس الى اللغة السريانية واورانيوس السوريّ نشر تعاليمهُ في بلاد فارس حتى طبعها في عقل كسرى ورجل اخر نسطوري ترجمها الى اللغة الفارسية واهداها الى هذا الملك غير انهُ كان البعض منهم رفض فلسفة افلاطون وارسطاليس وتفلسف حسبما يدلهُ عقلهُ ومن جملتهم قزماس النسطوري المصري المشهور بجغرافي الهند وكانت اراؤهُ خصوصية مطابقة لآراء الشرقيين اكثر من ان تطابق آراء اليونانيين والكاتب الذي ابقى فوتيوس لهذه الازمنة بعضّ خلاصات من شرحهِ كتاب الأكسانك ولا زال الحال على هذا المنوال الى ان عادت الفلسفة السكولاستيكية اي المدرسية التي سبقت الاشارة اليها

والاصل في هذه الفلسفة المساة بالسكولاستيكية هوان القيصر قسطنطين الكبير بعد ان بنى مدينة القسطنطينية كان احدث فيها مكتبًا عموميًا يسمّى اوكتوغونه وكانت تعارض فيهِ فلسفة افلاطون بفلسفة ارسطاليس لكن توغل فيهِ الفلاسفة في ارائهم وارخائهم العنان في اهوائهم بالاحكام الشرعية والقوانين الالزامية ثم وسع القيصر ثاودوسيوس الثاني منذ تولى زمام المملكة في سنة ٤٠٢م دائرة التعليم في هذا المكتب المسيحي وزادهُ فخرًا وشرفًا غير انهُ لم يدم على رونقهِ

والحجّو حيث وقع خطب اعدم منهُ مكتبتهُ في سنة ٤٧٦ لكن لما امر القيصر يوستنيانوس الاول بغلق مكتب اثينا على ما ذكر اعاد الى هذا المكتب رونقهُ الى ان سطعت انوارهُ على ظلمات الفقه الروماني حيث حلّ مشكلاته وكشف القناع عن معضلاته

وكان في ذلك الوقت اقتنع اكثر المتعقلين بفائدة العلوم والفنون للجنس البشري واقيم مدارس عمومية في المدن الكبيرة كالقسطنطينية ورومية ومرسيليا وادسًا ونسيس وقرطاجنة وليون وتريفس وتوظف على مصروف الملوك معلمون فيهم الاهلية لتعليم الشبّان كما ان بعض الفلاسفة والرهبان ايضًا في القرن الخامس علوهم ما يعرفونهُ غير ان كلاًّ من حالة العصر السيئة وهجمات الامم البربرية على المملكة الغربية وشدَّة الافتقار الى العقول الذكية منع من اجتناء ثمرات الاهتمام في امتداد العلوم حسب مرغوب المتوظفين لهُ

وكان في الولايات الغربية ولا سيما في فرانسا اهل علم كان ينبغي ان يقتدى بهم منهم مكروبيوس وسالفيانس وفنستيبوس الليرينسي وانوديوس وسيدونيوس ابولينارس وكلوديانوس ماميرتس ودراكونتيوس نعم انهم لم يصلوا الى درجة المولفين اللاتينيين القدماء في كتاباتهم غير انهُ لا يخلو واحد منهم من الطلاوة في حدّ ذاته اذ انهم اشتغلوا في درس الاشياء القديمة وعلوم اخر لكن البرابرة المهاجمين عطّلوا الولايات الرومانية وامتلكوها وخنقوا هذا النبات الذي كان يؤمل جني اثماره في اجيال مستقبلة لان جميع هولاء الامم استخفوا بالعلوم والفنون واعتبروا السلاح والفروسية الاصل الوحيد لكل المجد والفضائل ولهذا كانوا اينما حلوا نبتت البربرة وازدهت وترك طلب العلم بكليته للكهنة والرهبان الذين لما اكتنفتهم القدوة الردية والعيشة في وسط الحروب والاخطار فقدوا رويدًا رويدًا كلّ لذةٍ بالعلم الحقيقي والشهرة واستعاضوا برسم العلم وظلهِ فتعلّم الطلبة في مدارسهم العلوم السبعة التي كانت تتعب الذاكرة اكثر من ان تقوي الذكا وتصلح القوى العقلية كما يتضح ذلك جميعهُ من التفاصيل

الآتية في البحث الثاني وبهذا السبب كادت العلوم ان تتلاشى في ختام هذا القرن ولم يبقَ سوى ظلّها

اما القليلون الذين عرفوا دون غيرهم جودة درس الفلسفة ونفعهُ فلم يتبعوا في هذا القرن منهج ارسطاليس لانهم احتسبوهُ معلمًا صارمًا ويرشد الناس في طريق شائك ولربما كانوا يلتذون بهِ لو كانوا يقدرون على ان يقرأوهُ ويفهموهُ ولكن نظام افلاطون كان معروفًا عندهم منذ اجيال متتابعة اكثر من ذاك وكانوا يظنونهُ ليس اقرب تناولاً فقط بل اكثر مطابقةً لمبادي الديانة وكذلك وجدت عندهم كتب افلاطون الاصلية في ترجمات فكتورينوس اللاتينية ولذلك اقتنع الذين كان عندهم ذوق الفلسفة بقضايا افلاطون على ما ذكرنا

وكانت حالة العلم بين اليونانيين واهل الشرق نظرًا لتثقيفهِ والعلوم الصعبة احسن من ذلك قليلاً حتى انهُ وجد بينهم عدد اعظم من الكتبة الذين اظهروا علامات الذكا والدرس والذين رغبوا في درس الفقه التجأوا الى بيروت حيث كانت مدرسة شهيرة للفقه والى الاسكندرية وتلاميذ الطبّ والكيميا ذهبوا الى الاسكندرية ايضًا ومعلمو الفصاحة والنظم والفلسفة فتحوا مدارس في كل مكان تقريبًا غير ان المعلمين الموجودين في اسكندرية والقسطنطينية واديسّا كانوا يحسبون انهم يفوقون غيرهم في العلم والتعليم

وفي القرن السادس تمكن البربر في المملكة الرومانية الغربيّة فاضرّ ذلك جدًّا بكلّ انواع العلوم والفنون ولو لم تجد العلوم ملجأً بين الرهبان والاساقفة لتلاشت كلّها واهل القرون الاخيرة الحاضرة مديونون لهم في حفظ كل المولفات القديمة التي وصلت اليهم من بقايا تلك الازمنة دينية كانت او دنيوية بغضّ النظر عن كثيرين منهم وخاصة من المتسلطين على الرهبان كانوا غير منتبهين لواجباتهم ومنهم من كانوا ضدّ العلوم والفنون لتوهمهم انها مهلكة للتقوى حتى ان البعض ارادوا ان يحرقوا مولفات الاقدمين وشيدوا عمد الجهل والبربرية واوغلوها بالبساطة المسيحية ولذلك كانت العلوم التي توخذ عن تلك المحابس

الرهبانية محصورةً في دائرةٍ ضيقة جدًّا كما يتضح ذلك جميعهُ من التفاصيل المورَدة في البحث الثاني

اما اليونانيون فكانوا يطالعون العلوم العقلية باكثر غيرةٍ وكان بعض الملوك ينشطون طالبي العلم وخدامهُ من اي نوعٍ كان بالنياشين والجوائز المعتبرةِ غير ان عدد الاذكيا منهم كان اقلّ مما في القرن السابق

ثم في القرن السابع بلغ الجهل الفظيع درجة لا يصدقها الا الذين فحصوا اعمالهُ العلمية والقليل الباقي من العلم كان محصورًا في قلايات الرهبان ولا سيما رهبان الكنيسة الغربية على ما تقدَّم غير ان الذين عرفوا منهم قيمة ما عندهم كانوا قليلين جدًّا اما الاكثرون فكانوا منصبين على درس كتب ومؤلفات لا طائل تحتها ولكن انكلترة كانت ارقى حالاً من بقية بلاد اوربا لان ثيودورس الكيليكي اسقف كنتربري ادخل في هذه البلاد حبَّ القراءة والعلم

اما اليونانيون الذين اخذوا في هذا القرن ان يكتبوا نظمًا ونثرًا فقد اغلقوا على القضايا البسيطة الواضحة بعباراتهم المعقدة الوحشية وما كتبهُ اللاتينيون كان ركيكًا وفاسدًا الا ما ندر وقلب اليونانيون والرومانيون التاريخ وافسدوهُ لان موسكس وصفرونيوس وغيرهما من اليونانيين وبروليو ويوناس الهيبرنيني واديتوس اودادو وادامنوس من الرومانيين ابقوا الى المتاخرين ترجمات بعض القديسين عديمة الذوق وخالية من رائحة الاحتمال ومن طلاوة التركيب وكان اليونانيون سبقوهم في كتابة ما شاع عن الاوقات القديمة بدون تمعُّن ومن هنا اصل بعض الخزعبلات التي استلمها بعد ذلك اللاتينيون وتمسكوا بها ومن ثم انتهت الفلسفة بينهم والذين ابوا تركها بالكلية اكتفوا باستظهار بعض كلماتٍ من بوئيثيوس (لعلهُ بويسه) وقسيودور وزير الملك ثيودوريق الاستروغوطي وسوف يأتي ذكرهما في البحث الثاني لانهم لم يعبأُوا بفحص الامر ولم يقدروا على استشارة اليونانيين لعدم معرفتهم لغتهم اما اليونانيون فانهم منذ تركوا فلسفة افلاطون بقوا متمسكين بفلسفة ارسطاليس حيث لا يمكنهم ان

يستغنوا عنه في منازعتهم مع موحدي الطبيعة على ما تقدم

وفي القرن الثامن كان بين اليونانيين جماعة من اهل العلم قادرون على ابقائهِ لو كان الوقت مساعدًا لهم لكن الفتن الدائمة التي كانت تتهدد ليس الحكومة فقط بل والديانة المسيحية ايضًا منعت من وجود من يقوم بناصرهم ويسعفهم في ذلك ولهذا السبب يكاد ان لا يوجد بينهم في هذا القرن احد اشتهر بحسن الانشاء والذكاء او بغنى الافكار والمعرفة ودقة البحث وما ألّفهُ البعض بقصد الاشتهار انما هو خطابات ركيكة وسير قديسين لاطائل تحتها ومفاوضات خالية من الفائدة وشتائم مغيظة للرومانيين وانتصارًا للايقونات او بالعكس وبعض تواريخ بدون تروّي

غير ان الفلسفة الارسطاليه نجحت في هذا القرن كثيرًا في كلّ مكان وكانت تطالع في المدارس لان الفلسفة الافلاطونية الاكلستيكية كادت تُنفَى رأسًا من المدارس الى خلوات الرهبان بعد ان شجبت عقائد اوريجانس مرارًا عديدة وقامت المنازعات النسطورية والافتيخية واشتهر في الفلسفة الارسطاليه المذكورة القديس يوحنا الدمشقي وفاز في انتشارها بتاليف عدّة نبذ اثر قصد بها فائدة البسطا فصارت نبذاتهُ هذه سببًا لتمسك كثيرين في هذه المبادي ببلاد اليونان وسوريا وكذلك اليعقوبيون كانوا يجتهدون ايضًا في رواجها ليتمكنوا من المجادلة مع اليونانيين على ما تقدم ايضاحهُ قبلاً

اما تاريخ الغربيين في هذا القرن فانهُ مشحون بدلائل كثيرة على الجهل الذي يحق التعجب منهُ اذ لم يبقَ في رومية وبعض مدن ايطاليا الاّ اثار طفيفة من الاداب والفنون وكأنّ العلم وقتئذٍ ترك القارّة وهاجر الى جزائر المجاورين البريطانيين والايرلنديين لان الذين نبغوا في هذا القرن من اللاتينيين واشتهروا بالمولفات العقلية كانوا كلهم تقريبًا من اهل هذه البلاد واشهرهم القوين وبيدا واغبرت واكليمندوس ودنغال واكّا وغيرهم والقوين المذكور هو الذي حرّك كرلوس الاكبر الى تبديد ظلام الجهل من بلاد اوربا وكان ذلك

في اواخر هذا القرن وسوف تأتي تفاصيله في البحث الثاني

الفصل السابع

في حالة الاداب والفنون في القيصرية الشرقية خاصة منذ توطيد الديانة المسيحية واستراحتها الى نهاية القرن الثامن

انهُ من بعد ان هدم الدين المسيحي قواعد الشرك واندرست اثارهُ صارت الامبراطورية الشرقية في امنٍ وطمانينة واستراح امناء هذا الدين وصاروا لا يشتغلون الاَّ بمشاجرات واهية فترتب على ذلك انحطاط الاداب البشرية عن درجتها حيث صارت غير ضرورية في المدافعة عن الدين غير انهُ حوفظ على بعض فروع ضرورية كالتاريخ والفقه ولاسيما بعد تلك النكبات التي اصابت مكاتب انطاكية واسكندرية وبيروت وقيسارية بل ونفس مكتب اوكتوغونه المذكور وهي مفصلة في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا حاجة الى تسويد صحائف اخرى بها هنا •

اما الانشاء والشعر وما شاكلهُ من الفنون فقد طرحوا في زوايا الاهمال لانهُ وان يكن القديس غريغوريوس النازينزي نظم وقتئذٍ قواعد الدين المسيحي في سلك الاشعار بلطف اللسان اللاتيني حتى صار سحر بيانها باخذ الالباب ويستلب العقول غير انهُ مع ذلك ظهر للناس ان الشعر مضادٌّ لهذا الدين حيث انهُ يرفض الخرافات والاكاذيب التي هي حلية الاشعار وكان موضوع اغلب القصائد اليونانية التي نُظمت بعد ظهور الديانة المسيحية وقايع ميثولوجية هي من ذلك القبيل اذ ان نونوس الاخميمي (اخميم قرية من قرى مصر) نظم في عهد القيصر اركاد يوس التقي الذي تولى القيصرية الشرقية

عند انقسام المملكة الرومانية بينهُ وبين اخيهِ بحسبها تقدَّم قصيدةً حماسية ضمنها سطوات بجنوس واحيي بها النظم من البحور المسدّسة الاجزاء التي كانت مهجورةً مدةً طويلة وايضاً مصري اخر نظم قصيدةً باللسان اللاتيني في اختطاف بروزربينة ثم لما تنصر نونوس المذكور ندم على ما فرط منهُ في ما نظمهُ من الاكاذيب الميثولوجية وشرح انجيل القديس يوحنا الانجيلي وفي اخر القرن الذي كان فيهِ هذا الرجل نظم موسى النحوي قصيدة يقال لها هيرو وليآندر وزعم بعضهم انها لموسى عصري اورفه ضمنها جميع الخرافات مع تسلطن الدين المسيحي وقتئذٍ وكذلك كنتوس الازميرـي نظم تكملةً لقصيدة اوميروس المسماة الهادة ذكر فيها ما فات اوميروس الى اخذ مدينة صور غير ان هذه التكملة لم تلحق اصلها في البلاغة واللطف والمحسنات البديعية وانما جاءت على وزنها في البحر ومع ذلك فهي اعلى مما انشي في القرن الخامس ثم لاجل تتميم التاريخ الشعري المتعلق بحرب مدينة صور المذكورة نظم قلوتوس الليكوبولي قصيدة خالية عن الحماسة وحسن الاختراع ضمَّنها اختطاف هيلانة وفي ذلك الوقت ايضاً كان تروفيدور المصري الخامل مشتغلاً بنظم قصيدة في اخذ مدينة صور وبعض وقائع اخرى حماستها في التاريخ اكثر منها في شعرهِ

وقد ظهر للناس بالوقوف على التراكيب الشعرية وقلة اهل تلك الصناعة ان دائرة الشعر في القسطنطينية كانت ضيّقة ولم يظهر في القرن الذي ولد فيهِ تريبونيان وبروكوبيوس من الشعراء الاَّ بعض قصائد وصفيَّة لشاعرٍ يقال لهُ بولس السيلنتيري وهي في البلاغة دون قصائدهِ الهجائيَّة مع انهُ كان يُظنّ في شعراء بليسير قائد جيوش القيصر يوستنيانوس ونرسيس ان يزيدوا في الشعر على مَن تقدمهم في الاعصر الماضية ولكن من ذا الذي كان يمكنهُ في القسطنطينية ان يمدح الخدم كبليسير المذكور واضرابهِ بحضرة السيد الذي هو القيصر. واما الشاعر جرجي اليزيدي حيث شاهد وقائع حربية كان القيصر يوستنيانوس هو صاحب الصولة فيها دون بليسير وغيرهِ فنظم ١٢ قصيدة تاريخية خالية

عن الحماسة ذكر فيها غزوات هذا القيصر مع العجم ولهُ شعر اخر في القسطنطينية حين خلصت من اغارة الآواريين

وكانت اشعار الهجاء والقدح البليغة في تلك المدة هي النافعة الرائجة دون غيرها من انواع الشعر

وقد اشتغل بهذه الصناعة واتخذها تسليةً لهُ غير القديس غريغوريوس المذكور رجل يقال لهُ سنسيوس وكان يليها في ذلك بلداس الشلسبسي الذي كان رجلاً خاملاً في دولة اركاديوس المقدم ذكرهُ ويوجد بعض شعراء اشتهروا ايضًا في ايام يوسنيانوس غير بولس السيلنتيري كالقنصل مكدونيوس والمورخ اغسياس الذي كان منشئًا شديد الحرص على حفظ الاشعار جمع منها جملةً عظيمة ومن الانشاآت وسمّى هذا المجموع سيكل يعني دائرة تشبيهًا لهُ بها في الاحاطة وقسمهُ الى ٧ مقالات لانهُ ينطوي تحت الانشاآت المراسلات والسير ووصف الاشياء والمراثي والمواعظ والهجا والالعاب العشقيّة والخمريات وقد اتخذ قسطنطين كيغلاس وبلاندوس هذا المجموع قدوةً حيث نسجا على منوالهِ وكان احدهما في القرن التاسع والاخر في القرن الرابع عشر فجمع كل منهما مجموعًا ضمّنهُ الاشعار اليونانية وهذان المجموعان لم يزالا بيد الافرنج الى الان

واما الحكايات الموضوعة فقد وضعها بعض الشعراء قبل عصر ثاودوسيوس وهي حكايات اختراعية كحكايات المتاخرين وتأسى بهم جماعة من المولفين وضعوها نثرًا وبرع في ذلك عند اللاتينيين المؤلّف ابوله الذي اخترع حكاية حمار الذهب ونسج على منوالهِ يونان السلطنة الشرقية . وكان اول من وضع هذه الحكايات من اليونان المذكورين هو هليودور الاميسي مخترع حكاية تياچينه وشارقلة قبل ان يتنصر وكان ذلك في سنة ٣٩٠ م وهو تأليف سيرةٍ مرتبة ترتيبًا حسنًا بعباراتٍ واضحة وضوحًا غريبًا لا يضاهيها شيء في ترقيق القلوب وتهييجها ولا يعدل لهُ شيء مما يُعزَى الى لنْغُوسَ من الحكايات اليونانية التي وضعها في شان دفينس وقلويه وقد زاد هذا التاليف شهرةً بترجمة المولف

اموط حيث جعلهٔ نارًا بعبارات سهلة عذبة وكان ذلك باعثًا الى وضع حكايات بولس وورجينا التي هي الطف وارقّ ما يوجد في الاعصر الحاضرة اي الاخيرة من المولفات في هذا المعنى ولا يُدرَى في اي عصرٍ كان لنفوس المذكور واما اشيل تيتوس الذي وضع الحكاية المتعلقة بعشق لوقيب وقليتوفون فانهُ معروف بانهُ من الاسكندرية ويظن بانهُ مسيحي واسقف ايضًا وانهُ وضع الحكاية المذكورة في منتصف القرن الخامس ولولا انهُ شوّه اختراعهُ بما ارتكبهُ من التكلف واغتصاب الالفاظ والتلاعب بالكلمات لكان اعلى درجةٍ من اختراع هليودور. وهناك موضوعات اخرى في هذا المعنى ولا يُعلَم زمن اختراعها وهي ٣ تعزى الى شرتيون الافرودسياسي واوسناسيوس المصري وارستينيت الازنيكي والقصد من ذكر هذه التآليف التي لا حقيقة لها هو ليُعلم ان الحكايات الموضوعة التي كانت مجهولةً في القرون المعتبرة صارت حين اضمحلال الامبراطورية منتظمة في سلك الاداب

واما التاريخ فانهُ من المعلوم ان تاريخ سلطنة القسطنطينية هو خالٍ من المواد المرغوبة التي يستمد منها التاريخ كالحوادث التي ينبغي ان يتخلد ذكرها في بطون الاوراق والمآثر العظيمة التي يجب نشرها في الافاق ويضاف الى ذلك عدم وجود المؤرخين المستكملين لِما يلزم لهذا الفن مع وجود الاستعباد واقامة الرأي عند الحكم ووجود الاوهام المختلفة وسلامة الذوق مع فساد الاداب فمن العجيب ان يُرى في مثل هذا التاريخ الواسع عدة من المولفين العظام والمولفات المعتبرة وقد بنى اونيبوس في القرن الخامس للميلاد على ما كان جمعهُ قبلهُ هرنيوس واكسيبوس من الوقائع السنوية ثم اتى بعدهُ اولمبيودور المصري وبنى على ما كان جمعهُ اونيبوس فكانت وقائع هولاء الثلاثة الوثنيين اصلاً استمدّ منهُ المولف زوزيم الوثني تأليفهُ تاريخ القياصرة وكان قد التزم ان يبين اسباب اضمحلال الامبراطورية الرومانية فجعل سبب ذلك ظهور الدين المسيحي مع ان القياصرة الشرقيين كانوا وقتئذٍ مسيحيين والى الان يُحفظ عند الافرنج

بعض آثار مرغوبة من الارساليتين اللتين ارسلها دبوان القسطنطينية في عهد القيصر ثاودوسيوس الثاني وفي ايام يوستنيانوس فان احدهما بينت لهم كيفية معيشة اتيلا[1] المنزلية ويكاد انها هي التي بقيت عندهم من تاريخ القسطنطينية الذي الفهُ بروسقوس البينومي ولو وصلت اليهم قصة نونيوس[2] بتمامها لعرفوا بواسطة الارسالية الثانية اخبارًا صحيحة تتعلق ببلاد الحبشة والعرب الحميرية في اليمن بالنظر الى حالتها القديمة . ثم الف بروكوبيوس القيساري تاريخ حروب الامبراطورية الشرقية مع الفرس وسرعة اندراس مملكة الوندالبين وفتح ايطاليا حين كان بها الاستروغوطيون وسيرة بليسير الطويلة لكنهُ كان كاتب سرّ بليسير ووزير يوستنيانوس ومحمي الملكة ثيودورة فلذلك مال الى التملق في مواضع من هذا التاريخ الّا انهُ الّف تاريخًا اخر خفيةً ذكر فيهِ ما ابتدعتهُ هذه الدولة من العيوب . ثم بنى اغسياس السكولاستيكي اي الفقيه على ما جمعهُ بروكوبيوس وبعد ذلك بنى ميناندر حارس القيصر على ما جمعهُ اغسياس وقد ذكر اغسياس في تاليفهِ تفاصيل عظيمة في شان الفرس والغوثيين والافرنج واما الذي بقي من تاليف ميناندر فانهُ يدل على بعض تفاصيل في شان الهونيين والاواريين وبعض اقوام اخر من اسيا ثم ظهر المولف ثيوفيلكت سيموكتة والف تاريخًا عموميًا جعل مبدأهُ نهاية تكملة ميناندر ومنتهاهُ موت القيصر موريس ويقال لهُ مافريكيوس الذي خلفهُ فوقا سنة ٦٠٢م وذكر فيهِ ما لحق هذا القيصر من ظلم خليفتهِ فوقاس المذكور واما في القرن السابع ونصف الثامن فقد قلّ ان ظهر احد من المؤرخين لكن كان كتاب الوقائع

(١) اتيلا هو احد الملوك الونداليين الخشنين وهو الذي صدر منهُ الخراب العام والابادة المستاصلة في القيصرية الغربية حتى انهُ لقب نفسهُ بلاء الله من سنة ٤٣٣ الى سنة ٤٥٢م وسوف ياتي ذكرهُ تحت لقب ملك الهون في الكلام على القيصرية المذكورة

(٢) نونيوس المذكور كان ارسلهُ القيصر يوستنيانوس الى الحبشة والعرب الحميرية وغيرهم ليدعوهم الى مساعدتهِ في محاربتهِ قباذ ملك الفرس وابنهُ كسرى انوشروان سنة ٥٣١م

السنوية بتلك السلطنة له مزية على كتاب الوقائع بسلطنة المغرب نظراً لانسجام عباراته وسلاسة اقلام كتبته لكنهم ذكروا جميع عيوب الوقائع اللاتينية لتصديقهم بالخرافات التي لا يقبلها العقل عدا ما سلكوه فيها من الاغراض والتملق والاوهام الفاسدة

واما فن الجغرافيا فقد حصل له بعض تقدم عند اليونانيين ولكن الفضل في ذلك لمؤرخيهم اكثر من جغرافييهم لان جغرافيي القسطنطينية لم يزيدوا على المعارف القديمة شيئاً ومع ذلك فجغرافية مرقيانوس الهرقلي المساة بريبل اعانت على فهم جغرافية استرابون وبطليموس وكان استفانوس البزنطي نشر قاموساً في اواخر القرن الخامس لو وصلت منه النسخة الاصلية الى المتاخرين لكان نفعه اعم وانما الموجود منه الآن ما لخصه هرمولابوس النحوي وهو لا يشتمل الا على قليل من اسماء المدن وانما كان على عهد القيصر يوستنيانوس تاجر مصري يقال له قسماس (لعله قزما) طاف بلاد الهند بقصد التجارة ووضع كتاباً في القسمغرافيا ذكر فيه ما اكتسبه من المعارف هناك وكان يلقب بهند قوبلوستيس اي خبير الهند، لكن ما ذكره في علمي الطبيعة والفلك دليل على جهالة ذلك العصر بل شهادته هو بجهله في ذلك هي اقوى واتم

واما اللغة فلا يخفى كثرة اللغويين والنحاة ببلاد المغرب لامرين احدهما فساد اللسان اللاتيني والاخر الاحتياج الى فهم المولفات القديمة لكن اليونان لم يتزلوا في الاضمحلال الى هذه الدرجة ولذلك لم تبلغ نحاتهم مبلغ نحاة اللاتينيين فلم يكن بمكتب القسطنطينية العمومي الا تعلم الكلمات التي تتركب منها اللغة وكان عدة معلمي هذا المكتب كتاباً في النحو لمولف يقال له دينيس (لعله ديونيسيوس) فكانوا يقتصرون عليه في تعليمهم وكان ذلك سبباً في تعطيل العلوم اللغوية وحيث كان منشأ علم اللغة عند اليونانيين مكتب الاسكندرية كان اغلب طائفة النحاة القليلة المعروفة في ذلك العصر مصريّ الاصل فقد ألف هيزيكيوس الاسكندراني في اواخر القرن الرابع قاموساً عظيم النفع في

اللغة اليونانية وكذلك هلديوس عصري المولف المذكور وضع قاموساً وكتاباً اخر نظمهٔ من بحر من بحور الشعر اليونانية. وفيلاديوس فيلوكسينوس القنصل ألّف في سنة ٥٢٥ م قاموساً لاتينيًا يونانيًا يبيّن فيهِ الكلمات اللاتينية باللسان اليوناني وهناك رجل اخر يقال لهُ فيلمون الف ايضاً قاموساً عظيمًا يحق التأسف على ضياعهِ وكان يوحنا الستوبي من اهل القرون الاولى من السلطنة اليونانية ألّف مجموعًا يشتمل على نبذ وحكم ومواعظ بقصد تأديب ابنهِ جمع فيهِ بين النظم والنثر وجعلهٔ ٤ اجزا رتب فيهِ نبذًا تتعلق بالعلوم الطبيعية والفلسفة والحكمة والسياسة وقد لخص مجموعهُ ممّا ينوف على ٥٠٠ مولف ضاع اغلبها

واما الفقه فقد كان عند اليونانيين فيهِ عدّة مجاميع مختلفة جمعها فقهاؤهم في عهد القيصر ثاودوسيوس الثاني ويوستنيانوس الاول لكنها كانت باللسان اللاتيني ما عدا القوانين المسماة بالجديدة واعظم مولفي هذه المجاميع العظيمة ٤ اشخاص كانوا يعلمون الفقه بمكاتب القسطنطينية وبيروت وهم ثيوفيلوس وثيودورس ودورطة واناطوليوس وكانوا من اشهر الفقها وكان تريبونيان وزير الخزينة هو المتولي نظارة تأليفها لكونهِ كان فقيهاً واسع الاطلاع لكنهُ كان طماعًا يبيع علمهُ بالاموال ولذلك ما يُرى من التناقض في احكامٍ كثيرة من هذه القوانين يُنسَب الى هذا العالِم وكان اول كتابٍ جمعوهُ يسمى كود. انتشر في سنة ٥٢٢ م وهو ١٢ مجلدًا استنبطوهُ من ترتيبات القياصرة ثم كُتب ثانيةً وانتشر سنة ٥٢٤ م وهو يحتوي على ١٥٠ مسئلة والثاني كتاب القوانين المسمى انستيتو انتشر في سنة ٥٢٢ وهو يحتوي على مبادي الفقه التي استنبطت من الفقه الروماني وكان القصد من جمعهِ ان يُستعمل في مكاتب القسطنطينية. والثالث كتاب القوانين المسمّى بندكت اي الفتاوي وكان انتشارهُ في سنة ٥٢٢ م وهو يبلغ ٥٠ مجلدًا استنبطوهُ من كتب قوانين غريغوريوس وهرموجين وثيودوسيوس ومن ٢٠٠٠ رسالةٍ فقهية وقد وضع ثيوفيلوس عليهِ وعلى القوانين

المساة انستيتو شروحًا لما شبه بالفصول التي في دستور القوانين الاصلي الفرنساوي وكان على هذه الكتب الثلاثة ختم القيصر يوستنيانوس المذكور. ثم ان هذا القيصر امر بجمع القوانين الجديدة الصحيحة فجمعوها في كتاب انتشر سنة ٥٣٤ م ثم انتشر ثانيًا سنة ٥٦٥ م وكان القصد من جمع هذه القوانين المتنوعة مصلحة الحكام المطلقي التصرف وقد اذنت مولفوها بترك قوانين الامبراطورية الرومانية التي تتولد عنها الفتن فكان من صفة قوانين يوستنيانوس المذكورة انها جامعة بين حرية الاهالي والحكم المُطلق لكونها جعلت الاهالي مستوين بالنسبة الى الاحكام الشرعية وقد اشتهرت هذه القوانين باسم هذا القيصر وصارت اصلاً بنى عليه المتاخرون احكامهم

وكما كان يهتم بالقوانين الاهلية كذلك كان يضع ختمه على احكام المجامع الاكليروسية وامر وكيله يوحنا الانطاكي فالف مجموعًا وفق فيه بين احكام المجامع وقوانين القياصرة وكان ألّف مجموعًا في القوانين الاكليروسية

ثم ظهر في عهد يوستنيانوس الثاني ابن اخي يوستنيانوس المذكور كتاب في القوانين العسكرية لمولفٍ يقال له روقوس وتكفل بعض الفقهاء ايضًا بجمع قانون لاهل الارياف (سكان القرى)

واما الطب فقد كانت علماؤهُ من الماهرين لكنه لم يتقدم تقدمًا بينًا من عهد القياصرة الانطونيين الى زمن اول الخلفاء العباسيين ومع ذلك فقد نجح بمكتب الاسكندرية وبرع فيهِ غاليناوس كما برع بوتامون في الفلسفة المنتخبة حسبما سبقت الاشارة الى ذلك في الكلام على المصريين ثم في اوائل القرن الخامس ألّف ثيودورس برسيان كتابًا في الطب باللسان اليوناني وترجمة الى اللغة اللاتينية وهو ٤ مجلدات الاول في الادوية العامة المسهلة والثاني في ما تُعرف به الامراض والثالث في الامراض الخاصة بالنساء والرابع في المجربات الطبيعية وبعد ذلك بنحو نصف قرن ألّف الحكيم ايسيوس الاميدي في هذا الفنّ كتابًا اقتفى فيهِ اثر غالبناوس المذكور غير انه لم يكن اسير عباراته وكان ايسيوس هذا

رئيس الشامسة ورئيس حرس القيصر يوستنيانوس لكن يُشَمّ من هذا الكتاب روائح مذهب افلاطون الجديد لان مولفهُ اقتبس منهُ ما تعلمهُ بمكتب الاسكندرية من الاوهام الباطلة الخيالية فكان يقول بتاثير الطلاسم والسحر وبعض اسرارٍ اخرى . وقد ذهب بعض المولفين بان اعظم قدماء الاطباء بعد بقراط وغالينوس هو اسكندر الترالي صاحب المولفين الشهيرين احدهما في الادوية والثاني رسالة تتعلق بدود الاحشا لم يتبع فيهما من انواع الدلالات الّا التجربة والاختبار ثم ظهر في القرن السابع بولس الاجيني فلخص مسائل الطب في مختصر ضمنهُ سائر الانواع وهو مقبول عند الناس لاسيما الجزء السابع منهُ الذي تكلَّم فيهِ على التشريح وهذا الحكيم هو اوّل من اشتغل من قدماء الاطباء بفن الولادة وفي ايامهِ ظهر اخر شروح كتاب بقراط

واما الرياضيات فكان لطائفة الافلاطونيين الجديدة رغبة واجتهاد فيها وكل ما وصل الى الافرنج من رياضيات القدماء فالفضل فيهِ لمكتب الاسكندرية وكان لبنت تيون براعة في هذه الفنون وكانت تقتفي اثر ابيها فوضعت لتلك العلوم النظرية طريقة الهندسة المضبوطة وخلاصة حديثها مدروجةٌ في الفصل الثالث من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف وقد كان في ذلك الوقت ديوفنت ويقال لهُ ديوفانتوس ايضًا مشتغلاً بتعليم الكميات اللامتناهية وهو اوّل معلّمٍ في ذلك وبهذا كان هو الواضع لعلم الجبر الذي تعلمهُ العرب في ما بعد ونقلوهُ لاهل اوروبا كما هو موضح في حوادث سنة ٨١٢م في الفصل الثامن من المقالة الاولى من كتابنا المذكور هنا وكان منتهى حياة ديوفنت مبدأ وجود بروكلوس المولّف الذي كان ينتصر لمذهب افلاطون الجديد حسبما اوضحنا في ما تقدم عند الكلام على هذا المذهب الذي كان سببًا في نكبة المدارس الوثنية فبذل وسعهُ في قرن الرياضيات بالفلسفة ولهُ تآليف عديدة منها مختصر في علم الفلك ورسالة في مباديهِ وعدّة شروح على كتاب اقليدس وكتاب بطليموس لكنهُ لم يستكشف

في مولفاتهِ هذه استكشافاً عظيماً تتسع بهِ دائرة الفنّ المذكور

واما العلوم النظرية فكان كذلك لمكتب الاسكندرية المذكور بها اعتناء عظيم ايضاً ومنها فنّ الكيميا لكن لما كان هذا الفن فرعاً من فروع الطب سرت اليهِ الاوهام الفاسدة والشعبذات وقد بقي من كتب هذا الفن كتاب للحكيم استفان الاسكندراني من اطباء القرن السابع يدّعي فيهِ ان لهُ قدرة على تعليم عمل الذهب فلا مانع اذاً ان يقال بان مذهب افلاطون الجديد هو اصل اختراع علم الجبر وحجر الفلاسفة يعني الكيميا الكاذبة

واما فن الميقانيقة فقد أَلَّف فيهِ المعمار انتيموس الترالي كتاباً في ايام القيصر يوستنيانوس وهو الذي رسم لهذا القيصر الكنيسة التي بناها واهداها للحكمة الالهية فاشتهرت باسم آيا صوفيا نسبةً الى القديسة صوفيا غير ان كتابة هذا لا يدلّ على تقدم هذا الفن بمقدار ما تدلّ عليهِ تلك الكنيسة العظيمة التي كان بناؤُها بحضورهِ ومباشرتهِ وهناك دليل ثالث اكثر دلالة على ذلك وهي الصخرة الكبيرة التي هي كالتاج لكنيسة راونية(١) المسماة روتوندة وهي ساترة لقبر الملك ثيودوريق الاستروغوطي الذي تملك بلاد ايطاليا من مهاجمي اوروبا المتبربرين

واما الفنون المستظرفة فقد كانت مضمحلة في تلك الاعصر ويكفي دليلاً على ذلك ان اهل القسطنطينية لما ارادوا مكافاة المؤسس الثاني لبلدهم وهو القيصر قسطنطين الذي سبق ذكرهُ على صنعهِ هذا الجميل العظيم معهم لم يجدوا احداً من مهرة الصناع يتخذ لهم من حجر المرمر تمثالاً كبيراً على صورتهِ فاضطروا الى وضع تمثال قديم على عمود ووضعوا مكان رأس هذا التمثال صورة رأس القيصر ولما ارادوا ان يزينوا قوس النصر الذي كانت رومية

---

(١) راونية مدينة من بلاد البابا في ايطاليا كانت في زمن القياصرة المتاخرين كرسي وسط ايطاليا فاتخذها ثيودوريق المذكور دار اقامتهِ لما استولى على ايطاليا وترك رومية محلاً لمشورة السنت ودار اقامةٍ للبابا وذلك في سنة ٤٩٣ م

نصبتة تعظيمًا لهذا القيصر لما هزم مكسلس احوجتهم الضرورة ان يجردوا قوس ترايانوس مما كان عليهِ من التماثيل المنقوشة واخذوا بدلها اثارًا اخرى اقدم من تلك التماثيل . وكذلك كانت قباب كنيسة ماري بولس التي بناها هذا القيصر موضوعة على اعمدة مستعارة رؤوسها مختلفة الاشكال بل كان يُرى هذا الاضمحلال من مشاهدات اخرى غيرها

ومنشأ ضعف الفنون بتلك البلاد هو ان القيصر اورليانوس والقيصر دقليطيانوس اللذين كانا في اواخر القرن الثالث من الميلاد رايا ان اهل اسيا يميلون الى التغالي في الرونق والزينة فاورثا ذلك لاهل ايطاليا ثم لما تمكن منهم هذا الميل اخذت فنونهم الاصلية في الضعف والاضمحلال لتغاليهم في الزخرفة واختلاط التفاصيل عليهم واول ما اضمحل من تلك الفنون فن اتخاذ التماثيل من الاحجار ونحوها فاضطروا حينئذٍ الى تزيين عماراتهم بزخارف اجنبية فكانوا يتلفون المباني القديمة لاجل الابنية الجديدة ويجعلون ما كان لفحول رجال رومية من المآثر الفاخرة لحكامها المولعين في الظهور والمعالي

واما فن العمارة فقد انتقل في زمن دقليطيانوس دفعة واحدة من الغلو في الزخرفة الى غايةٍ من الثقل والخشونة في قواعدهِ الاصلية والى كثرة الخراطات التي لا داعٍ لها ولا تناسب فيها وصارت اصولة نسيًا منسيًّا وكذلك التناسب بين الاوضاع فكان اول زمن الاضمحلال هو زمن قسطنطين الاكبر يعني من سنة ٣٢٣م واما زمنهُ الثاني فهو زمن ثيودوريق الاستروغوطي وسوف يأتي ذكرهُ ومن علامات هذا الزمان ما كان في ابنيتهِ من الكثافة والمتانة وقلّة الزخرفة او عدمها واما زمنهُ الثالث فهو زمن يوستنيانوس وهي نهاية الاضمحلال ثم رجعوا فيهِ الى التغالي في الزخرفة لكن من غير انتظام ولا روية ولا تمييز بين الحسن والقبيح

وكانت ايام قسطنطين الاكبر مقدمة لضعف العلوم والفنون واضمحلالها لكن كانت ايام ثيودوسيوس الاول والثاني (اواخر القرن الرابع للميلاد)

اسوأ الازمنة واشأمها عليها فهي في الحقيقة مبدأ تلاشيها واندراسها ولا سيما فن التصوير والرسم لان كلاً من حمية المسيحيين وجهل الامم المتبربرة قد سببا انعدامهُ فان الديانة المسيحية وان تكن احيت الفنون بعد اندراسها وبلغت بها درجة كمال لكن خدشتها في مبدأ الامر بحيث كان لا يومل جبر ما لحق هذه الفنون من الخلل الذي اوقعهُ بها هذا الدين عندما اباد عبادة الاوثان التي حملت اليونانيين على اتخاذ التماثيل القديمة وتحسينها وزخرفتها والاستمرار على ذلك بواسطة الفنون المذكورة التي كانت تقوم بها ابنية الهياكل ايضاً لان اخر ما ظفر بهِ الدين المسيحي على الموانع التي كانت تعترضهُ هو ابطال احترام الوثنيين الخشنين لاوثانهم وما كان يصدر عن عقلائهم من العبادة لهذه الالهة التي نص عليها شعراؤهم كاوميروس وورجيل وايبل وفدياس وغيرهم وكذلك ثباتهم على التصديق بالتمويهات وغيرها من الاوهام الفاسدة واشغال قرائحهم بذلك فهذه الامور الاربعة هي اخر ما ظهر عليهِ هذا الدين من الموانع

ولما رأى المسيحيون ان زوال هذه الاعتقادات الفاسدة والعبادات الباطلة يتوقف على اعدام الاوثان والهياكل فهدم بعض الاساقفة عدة هياكل ليبنوا بدلها كنائس وكسروا التماثيل المتخذة من الحجارة والتوج (وهو نوع من المعادن) لانها كانت شنيعة ومبغوضة بالكلية عند المسيحيين وكان ذلك قبل ان يصدر امر الملك ثاودوسيوس المقدم ذكرهُ بهدم الهياكل وتكسير الاوثان فكان القديس مرتين الطوري عندما نصر الغليين (قدماء الفرنساوية) يهدم هياكلهم ويكسر اوثانهم ثم ظهر في القرن الذي بعدهُ القديس هليرفجرد ملعب اريس من زخارفهِ وما فيهِ من انواع الزينة وجعل ذلك للكنائس وكسر ما بهِ من التماثيل والاصنام التي كان يستبشعها المسيحيون وتنفر منها نفوسهم لتجردها وظهور اعضائها المخلة بالادب والحيا وكان القديس مرقيل (لعلهُ مركلوس) يطوف مدن الشام والقرى وينفر قلوب الناس عن الاوثان التي كانوا قد عبدوها منذ مدة قليلة وكان وقتئذٍ القديس ثيوفيلوس بطريرك الاسكندرية

يشدّد بتنفيذ الامر السلطاني بهدم هياكل سريبس وتكسير الاوثان التي كان يعبدها اهل الاسكندرية وما اراد ان يبقي منها الاّ تمثال القرد ليكون سخريةً واضحوكةً للناس وقدم ليبنيوس السوفسطائي الى القيصر عريضةً فصيحة العبارة يستعطفهُ فيها ويترجاهُ ان يمسك عن هدم الهياكل فلم تقبل منهُ كما وقع نظير ذلك للامير سماك حيث لم تقبل محاجّتهُ في مجلس مشورة السنت برومية عن محراب النصر وسوف تعلم كيفية ذلك من التفصيلات التي تورد في البحث الثاني لكن كان هناك بعض الاساقفة جيّد القريحة سليم الراي بكونهِ انقذ بعض الهياكل العظيمة من الهدم وجعلها معابد مسيحية ومنهم البابا بونيفانيوس الرابع فانهُ حول هيكل اجريبا الذي يقال لهُ نبطون الى القديسين وهيكل برقليس المسمّى برطينون الى العذراء المباركة من غير ان يغيّر اسمهُ ايضاً

ولا يمكن التوضيح على وجه الصحة عمّا لحق اثار الفنون من التلف والاندراس باغارات الجرمانيين والعرب والعجم فان جميع بلاد الرومانيين قد كثر فيها النهب والسلب في اثناء تلك الاغارات المتعاقبة وسائر مدن الامبراطورية شرقاً وغرباً ما عدا القسطنطينية ذاقت مرارة الحروب لا اقلّ من مرة واحدة. اما الجرمانيون الخشنون الذين رقت طبيعتهم وحسنت بعد الفتوح على ما سوف تاتي تفاصيلهُ فانهم اتلفوا اشيا كثيرة من غير روية ولا تدبر واضروا بالفنون الرومانية ضرراً فاحشاً اكثر مما ينشى عن الحروب التي لا تسوغها الحقوق المليّة واما العجم الساسانيون فانهم لما وصلوا الى اسيا ليمحقوا منها على زعمهم الدين المسيحي خربوا الهياكل التي كان جعلها هذا الدين تحت حمايتهِ ورعايتهِ ثم لما اتى بعدهم المسلمون محقوا ما تركتهُ تقلبات الزمان من الصور والتماثيل التي سلمت من تلك الحروب لانهم كانوا يعتقدون ان الصور والتماثيل سواء كانت للالهة او للبشر من شعار الكفر. واذا اضيف الى ذلك ما طرا من العوارض الخصوصية التي درست اثاراً شهيرة واعدمت مدناً كاملة كالحريق والزلازل ونظرنا الى سلب قسطان الثاني قيصر القسطنطينية لايطاليا لما اراد

ان ينتقم من اليونانيين حيث كانوا يكرهونهُ لاعادتهِ القيصرية الى رومية وجعلها تحت المملكة ثم لما ذهب اليها ويئس من الاقامة بها جردها من التحف العظيمة ونقلها الى سيسليا وبعد موتهِ ارادوا ان ينقلوها الى القسطنطينية ليزخرفوها بها وانزلوها الى المراكب في البحر فوقعت في يد المسلمين ونقلوها الى الاسكندرية التي انعدم فيها مرتين الاثار الباهرة التي نشأت عن البراعة وكان ذلك نحو سنة ٦٧٠ م وكذلك ما وقع من كساري الصور في سنة ٧٣٦ م وتخريبهم كثيرًا من الكنائس والى اهمال القرون الوسطى فانهُ يتعجب كيف بقي بعد ذلك كثير من الآثار القديمة

اما مدينة القسطنطينية فلم يبقَ بها شيءٌ من اثار قسطنطين الاكبر الذي احياها بخلاف مدينة رومية التي اخلاها القيصر المذكور من كرسي السلطنة فانهُ بقي فيها قوس النصر الذي نُصب علامةً على شرفهِ وفخرهِ ولم يجدد ثاودوسيوس الاكبر في مدة اقامتهِ بايطاليا شيئًا يذكر بهِ بعد حياتهِ لكن ابقى في القسطنطينية من اثارهِ باب الذهب الذي صنعهُ والعمود الذي نصبهُ ولدهُ اركاديوس محبةً فيهِ ولا يُنسَب الى ثيودوريق الاستروغوطي من الاثارات الغير الدينية الأسوار بناهُ في سراية راوينه ودار في مدينة تراسينا ولم يبقَ للقيصر يوستنيانوس الاَّ قنطرة سلارو التي على نهر ابنو واصلحها برسيس ولهُ ايضًا كنيسة القديسة صوفيا التي بناها في القسطنطينية وسيأتي ذكرها وحيث انهُ اكثر ما يمكن حفظهُ من التخريبات هو ما كان متعلقًا في الدين فلذا كانت اغلب العمارات والاثار المختصة بهِ محفوظةً الى الان لم يلحقها شيءٌ من تخريبات المتبربرين

واما قواعد الابنية التي خُصِّصَتْ اولاً لبناء معابد المسيحيين فكانت مغايرة بالكلية لقواعد فنّ الابنية التي كان عليها بناء هياكل الوثنيين لان المسيحيين لما حصلوا على حرّية اشهار ديانتهم واحتفا لاتها ارادوا ان يجعلوا كنائسهم على شكل المعابد التي كانوا يتخذونها في الكهوف والمغارات في ايام

الاضطهاد ثم لما جرت عادتهم بجعل الكنائس تحت حماية القديسين صاروا يجعلون لكلّ قديس هيكلاً مخصوصاً في الكنائس الى ان كثرت تلك الهياكل وازدادت فيها المحاريب (الحنيات) بعد ان كان لايوجد في كل كنيسةٍ الاّ محراب واحد ثم بعد ذلك اتخذوا الاضرحة (القبور) والمقامات العديدة في الكنائس ايضاً وصاروا يتباهون بذلك فانعدم ما كان يستحسن من الوحدة في الهياكل القديمة وترتب الاختلال الكلي في اجزاء عمارات الكنائس بعد ان كانت في غايةٍ من التناسب

ولم يزل الى الان عدة هياكل من كنائس المسيحيين التي بناها قسطنطين الملك ككنيسة القديس بطرس الرسول القديمة وكنيسة القديس يوحنا اللطراني وكنيسة القديس ابنيس الكبيرة برومية غيران كنيسة القديس بولس الرسول احترقت عن قريب ومن اثار القديسة هيلانة ام القيصر المذكور دير القديسة كاثرينا في جبل سينا وكنيسة بيت لحم ولم يذكر المولف الاصلي كنيسة القيامة التي انشأتها على موضع قبر المسيح في اورشليم سنة ٣٢٨م ولعل علة ذلك هدمها واعادة بنائها عدة مرات قبل الاسلام وبعدهُ اما ثاودوسيوس واولادهُ فلم تجرَ عادتهم ان يكتبوا اسماءهم على شيء من اثارهم

وقد قيض الله الامم المتبربرين ان يزيدوا في زينة ايطاليا وينوروها ثانياً بمصابيح المعارف والفنون كما نستبين كيفية ذلك في المقالات التالية لان ثيودوريق الاستروغوطي الذي مرّ ذكرهُ كان دائماً يحث على تعليم الفنون وحاز الفخار باصلاحهِ المباني القديمة الشهيرة واحداثهِ مباني جديدة وعين محافظين لحماية جميع الهياكل والقصور والتماثيل واصلح ملعب بومبي وحياض اليانو والسراية السلطانية التي بمدينة راوينة والحمامات والقناوات واسوار المدن الاخرى من ايطاليا ومما يدلّ على ان فنّ نحت التماثيل في عصرهِ كان باقياً على بهجتهِ الاولى هو التماثيل التي صُنعت تعظيماً لهُ على هيئة الراكب في رومية وراوينة ونابلي وباويا وهذه التماثيل التي صُنعت انعدمت بتداول الازمان

كتماثيل يوستنيانوس وثيودورة وبانعدامها بطل الفنّ المذكور مدةً من الزمن ثم تغير فنّ الابنية تغيرًا ثانيًا حيث تغير ما كان فيها من التفاصيل الكثيرة المختلطة باشكال كثيفة كبيرة وكانت المباني التي حدثت في عصر ثيودوريق المذكور محكمة عظيمة مجردة من انواع الزينة والزخرفة نظير ابنية الاطروسكية المستديرة ومنها كنيسة راونية المستديرة المسماة روتوند وقبتها من حجرٍ واحد مقتطع من محاجر ايستريا لكن يُرى في هذه الكنيسة الكبيرة وفي كنيسة القديسة ايولينا عيب اختلال التناسب وخشونة الزخارف ومخالفة القواعد الاصلية من فنّ الابنية فان قواصرها موضوعة على الاعمدة التي عليها القباب من غير ان يكون بين تلك القواصر ورؤوس الاعمدة شيء تستند عليهِ وكان هذا العيب موجودًا في كنيسة ماري بولس ايضًا

ويوجد نوع من الابنية يقال لهُ العمارة الغوطية مكث في اوروبا مدة القرون الوسطى ويأبى العقل ان تكون العلامة المميزة لها حدثت في عهد ثيودوريق المذكور لان القواصر كانت معروفة قبلهُ في زمن قسطنطين وشوهدت في قناة يوستنيانوس على شكل انصاف الدوائر وذكر قسيودور وزير الملك ثيودوريق انهم كانوا يستحسنون في عمارات هذا الملك طول الاعمدة ورقتها وذلك من علامات العمارة الغوطية ويوخذ من كلام ذنجنكور احد مورخي فن الابنية ان استعمال ذلك كان بعد فتح اللنجيارديين لايطاليا بل عباراتهُ تقتضي بان جميع العلامات المميزة للعمارة الغوطية كانت في ذلك العصر ونصّ عبارتهُ على ما رواهُ بعضهم هو هذا كيفية الاوضاع الخارجة من المباني ووضع واجهة الباب على الشكل المخصوص ولاسيما شكل رؤوس الاعمدة وانتخاب زخارفها المشتملة على صور الادميين وغيرهم من الحيوانات وان كانت بعيدة الشبه بالخلقة الاصلية وكذلك الاعضاء والاعمدة المرتفعة من الارض الى السقف الاعلى وتمرّ في داخل الجدران من طبقةٍ الى اخرى من غير رف ولا افريز كل هذه من الامور الفظيعة الغير المالوفة صارت على نوع من انواع العمارات حدث في اخر القرن السادس

وصار عام الاستعمال في القرن السابع والثامن

وقد اعتبر مورخو فنّ الابنية مدة يوستنيانوس بانها هي تميم لمدة ثيودوريق ونهاية اضمحلال هذا الفنّ لانهُ يظهر ان الفنّ المذكور انتعش من ضعفهِ في بناء كنيسة القديسة صوفيا (١) وكان ذلك اخر انتعاشهِ وبهذه الكنيسة العظيمة

---

(١) قال العلامة الفاضل خيرالله افندي المورخ العثماني ان هذه الكنيسة كان امر ببنائها القيصر يوستنيانوس في محل كنيسةٍ كان بناها ثاودوسيوس الملك واحترقت فلما اعاد يوستنيانوس بناها جعل طولها ٢٦٩ قدماً وعرضها ٢٤٣ قدماً واقامها على ١٠٧ اعمدة منها ٨ من السماقي الاحمر السناتي (سناتا مدينة في اقليم لومبارديا) لا يوجد لها تاسع على الارض على ما قيل ارسلتهم ماركية امبراطورة رومية هديةً الى هذه الكنيسة وقت بنائها تذكارًا لها ومنها بعض اعمدة من الحجر الاخضر اللاقوني (لاقونة مدينة في بلاد اليونانيين) اخرجهم قسطنطين امير مدينة اياثلوغ من خرابات هيكل قديم في تلك المدينة وارسلهم هديةً الى القيصر المشار اليهِ ومنها ٤ من المرمر الابيض احدهم من مدينة اثينا والثلاثة الباقون من جزائر البحر الابيض ومنها عدة اعمدة من سماقي تساليا بايالة مكدونيا ومنها بعض اعمدة زرق وسود من ليبيا (ليبيا اسم قديم لاقليم في افريقية توجد فيه الان مدينة طرابلس الغرب) ومنها اعمدة جنوبية من بلاد مصر ومنها ٨ اعمدة كبار من السماقي الاخضر استخرجت من خرابات ايوان هيكل بعلبك من بلاد الشام ومنها ٨ اخر ايضاً مثلهم من هيكل اياثلوغ الذي مر ذكرهُ وكانت حيطانها مرصعة بحجارة مرصوفة رصفاً محكماً تتوافق بهِ تموجاتها مع بعضها واما قبتها المعادلة لقبة الفلك فكان محدبها من خارج مغطى بالنحاس ومقعرها من داخل مرصعاً بقطع من الزجاج المطلي بالذهب والفضة (كالفسيفسة الصغيرة القطع وفوق كل قطعةٍ غلاف بقدرها من الزجاج المقعر لصيانتها) وكانت مخرزات شبابيكها من الذهب وانسطاسها مسبوك من خليط الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ومائدتها ومماخرها من الذهب وابوابها مغشاة بصفائح الذهب والفضة وخارج هذه الابواب ٤ اسود من الحجر السماقي قطعةً واحدة ومنذ تعميرها الى ان صيرها السلطان محمد الفاتح جامعاً كان تهدم منها بعض محلات في عدّة تقلباتٍ حصلت في القسطنطينية وكانت القياصرة تجدد ما انهدم منها وكل من جدد بها شيئاً من هذا القبيل رسم صورتهُ في محلٍ مناسب بالقرب منهُ فلما ترمم هذا الجامع في سنة ١٢٦٥ للهجرة سنة ١٢٤٨م شوهدت صورة القيصر يوستنيانوس باني هذه الكنيسة مرسومةً على الباب المدعو بما معناهُ بالتركية باب السكريّ وبيدهِ صورة هذه الكنيسة يقدمها الى السيد المسيح وكذلك صورة القيصر يوحنا الباليولوغس الذي كان معاصرًا للسلطان ارخان وكان رمم ما بهدم

ضمت الاثار القديمة وهي من صنع انتيموس الترالي وابزيدور المليطي وعلى شكلها بنيت الكنائس التي على شكل صليب يوناني وفي وسطها قباب مركبة على اعمدة ومرتفعة مع الاستدارة وهي على هيئة قبة عظيمة واما قبة كنيسة القديسة صوفيا فانها كانت سببًا لاختراعات جديدة محكمة لما وقع في النفوس ومع ان هذه الكنيسة لاتخلو من العيوب بالنظر الى اجزائها ولم يُراعَ في بنائها اصول الفنّ وقواعده فانها مذكورة في تاريخ فنّ الابنية ولم يبنَ مثلها في عدّة قرون

ثم ومن العجب ان الدهر يفني تماثيل المرمر والنحاس ويبقي تصاوير اخر واهية وذلك ان بعض تصاوير من الآثار القديمة حفظتها مواد جبل ويزوف وتراب القبور من ان يوثر فيها الهواء والضوّ ويعدمها ولايمكن الوقوف على الدرجة التي رقي اليها فن الرسم عند القدماء الاّ بواسطة التصاوير التي على جدران مدينة هرقولانوم ومدفن النازونية وقبور النصاري التي تحت الارض وتصاوير موميات المصريين الملونة وقد انعدمت هذه الوسائط بعد قسطنطين ولم يبقَ في تاريخ فن الرسم الاّ بعض اثار من التزويق والتصاوير الرفيعة الرقيقة

ولما كان فنّ التزويق كنايةً عن وضع مقدار كبير من الاحجار الملونة المتناسبة لم يصل الى درجة الرسم في اللطافة والنعومة بل لم يعرض ذلك للرسم الاّ بواسطة استعمال الزيت في الالوان غير ان لذلك الفن مزية وهي بقاء

منها اخر مرة مرسومةً بجانب نصف القبة الكائن جهة الجنوب الغربي ثم لما استولى الافرنج الصليبيون على القسطنطينية سلبوا ما كان في هذه الكنيسة من الحلى والانسطاس والابواب واواني الذهب والفضة والاسود المذكورة وكل ما كان فيها من احسن الاثار القديمة وارسلوها الى مدينة البندقية ولما جعلها السلطان محمد المشار اليه جامعًا لم يوقع بها تغيرًا الاّ ما كان مغايرًا لاصول الدين الاسلامي فامر باخفاء ما على جدرانها من النقوش الذهبية بالكلس ووضع بها منبرًا ومحرابًا وكرسيًا وابقى ما عدا ذلك على حالته الاصلية وذكر ابرهيم بك الطبيب في تاريخه الدولة العثمانية انهُ لما تولى السلطنة السلطان عبد المجيد الاول في سنة ١٢٥٥ للهجرة سنة (١٨٣٩م) امر بازالة الكلس عن تلك النقوش وبتجديد ما انعدم منها لكي ترجع الى رونقها الاول

الصور التي اتخذها المصورون قدوةً لهم في صناعتهم فهو يحكي صور الاشياء على اختلاف انواعها وينقلها بخواصها واشكالها من غير ان يلحقها زوال او يعتريها اضمحلال وبذلك كان احق ان يُعتبر تاريخًا لما حكاه حيث تبقى اثارهُ ولا تمحى حكاياتهُ ولما الحقهُ ما الحق غيرهُ من فنون التصوير لم يتولد عنهُ في القرن الخامس والسادس والسابع شيء من النتائج المُهمَّة وانما تولَّد منهُ نتائج اخرى متنوعة يوجد عند الافرنج منها مقدار متسلسل وسع دائرة الاثار القديمة بكثير من الخواص والكيفيات وبيَّن لهم على وجه الضبط كيفية مناسك قدماء المسيحيين وملابس القسوس

والفضل على الافرنج ايضًا للتصاوير التي على حواشي الكتب لانها وضحت لهم الكتب القديمة المكتوبة باليد وزينتها وواروِن المولف هو اوَّل من صوَّر صور الرجال الذين تكلَّم عليهم في تاليفهِ وعلَّقها في ممرٍّ ليراها الخاصّ والعام وجميع الآثار تدلُّ على ان كتب العلوم التي قبلهُ والتي بعدهُ كانت مصحوبةً بالصور ثم لما بلغ النساخون في الكتابة درجة كمال التفتوا الى فنّ الرسم ليزينوا بهِ عناوين كتبهم وحواشيها والحروف الكبيرة المسماة بالثلث ومن هاتين الصناعتين اللتين هما النسخ والرسم تركَّب علم الخطّ وهو فنٌّ يحتاج الى مزيد الاعتناء والتأنّي ولم يترتب على ممارستهِ نجاح الّا في الديورة لاستمرار المدوّ فيها وكان سفر الخليقة الذي تكلَّم من ابتداء الدنيا الى اخر القرن السادس عشر مكتوبًا باليدّ في رقّ غزال وهو اقدم ما يوجد من هذا النوع مزينًا بتصاوير صغيرة لما وقع في النفوس سهلة العمل متناسبة ويوجد نظيرها في كتاب ورجيل الشاعر الروماني الذي تقدَّم ذكرهُ في الكلام على اغسطوس قيصر وكتابهُ هذا محفوظ في الواتيكان (ديوان البابا) وهي ايضًا مصنوعة في زمن كان للذوق فيهِ بقية فلم تبلغ منتهى الرداءة بخلاف الصور التي رسمتها باولينية بنت القيصر اولبريوس على كتاب المولف ديوسقريد في وصف النباتات فانها تدلُّ اكثر من غيرها على اضمحلال هذا الفنّ الذي كان لهُ اعتبار عظيم

في ديواني القسطنطينية وراوينة التي هي كرسي ايطاليا وكان القيصر ثاودوسيوس الثاني مستحقًّا للقب الخطّاط وكان تعلّم هذه الصنعة لاجل تزيين السنكسار (يعني سير القديسين)

الخاتمة

في حالة المعارف والآداب منذ القرن التاسع من الميلاد الى انقراض القيصرية الشرقية المذكورة بفتوح آل عثمان مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م

لا يخفى بان هجمات العرب وغيرها من الحروب والنكبات التي احاقت بالقيصرية المذكورة منذ القرن السابع الى اواسط القرن الخامس عشر كادت ان تذهب بالعلوم والمعارف وتلاشيها بالكلّية من هذه المملكة التي اخذت في الهبوط والانحلال منذ ظهرت السطوات العربيّة المذكورة على ما يستبين من التفاصيل المتقدّمة والتالية الى ان سقطت بالكلية نظرًا لِما حصل فيها من الاضطرابات الداخلية الموجبة لاهمال العلوم وعدم الاعتناء بشانها لكن مع كل ذلك لم يخلُ قرن واحد من تلك الاجيال المتتالية بدون ان يوجد فيهِ من حامى عن الفلسفة وقام بخدمتها حتى ان ما حافظت عليهِ القسطنطينية من الزخرفة والمعارف الى اخر دقيقةٍ من وجودها كان مدهشًا الى الشعوب الافرنجية حين سطوا عليها في اثناء الحروب الصليبية وباعثًا مُهمًّا ايضًا في احياء التمدن والمعارف الحادثة في الممالك الاوربية لاسيما بواسطة اهل الفضل الذين هاجروا اليها من اليونان بعد سقوط قصبة مملكتهم المتقدم ذكرها في يد آل عثمان كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

وقد اشرنا في الفصل السادس المتقدم ما كان جرى على المذهب الافلاطوني الجديد من الاندراس بسطوة القيصر يوستنيانوس الأوّل وتعويضهِ بالفلسفة الارسطوطالية وانهُ لازال الحال على هذا المنوال الى ان نجحت هذه الفلسفة في القرن الثامن وكانت تدرس في كل المدارس الموجودة واشتهر فيها وقتئذٍ القديس يوحنا الدمشقي وكتب فيها نبذًا عديدة قصد بها فائدة البسطاء فكانت نبذهُ هذه سببًا لتمسك كثيرين في بلاد اليونان وسوريا في هذه المبادي

ثم في القرن التاسع ولئن كانت حصلت امور كثيرة تمنع اليونانيين عن الاهتمام بالعلوم والمعارف لكن كرم الملوك الذين كان بعضهم من اهل العلم وانتباه البطاركة الذين منهم فوتيوس الشهير بمعارفهِ منعا تجافي العلم هذه الأمّة بالكلية خاصةً في مدينة القسطنطينية فظهر منها في هذا القرن قوم اجادوا في النظم والنثر وألّفوا كذلك تواريخ عصرهم غير خالية من الفوائد ولاسيما منذ ابتدأ الشقاق بينهم وبين اللاتينيين واشتد الجدال فيهِ اظهر حينئذٍ الحذاقة كثيرون ممّن كانوا تاركين كنوز معارفهم تحت ردوم الكسل واستعملوها للتجارة بها مع براعة العبارات وطلاوة التآليف قال بعض المولفين نقلاً عن يوحنا زوناراس ان درس الفلسفة ولئن كان اهمل بين اليونانيين في هذا القرن الّا ان القيصرين ثيوفيلس وابنهُ ميخائيل الثالث احييا ما اندرس منها بواسطة ادارة نسيبهما برداس الذي وان لم يكن عالمًا الّا انهُ كان صاحب فوتيوس العالم العلاّمة العظيم ولاريب في انهُ كان يستشير برأيهِ في هذا الامر ثم وضع برداس المذكور لاون الحكيم الكلّي المعارف الذي صار اخيرًا اسقفًا على نسالونيكية اوّل محام بين العلماء للعلوم اما فوتيوس المقدّم ذكرهُ فانهُ شرح كاتيكوري ارسطاليس (اي الصفات المختصة بالجنس) وميخائيل باسلوس كتب شرحًا مختصرًا لكتب هذا الفيلسوف الاصلية

ان اشهر الذين كتبوا في القضايا الدينية والمنازعات الواقعة بين اليونانيين والرومانيين في هذا القرن والمجادلات على الايقونات الى غير ذلك هم

فوتيوس بطريرك القسطنطينية ذو المواهب السامية والمعارف المتنوعة المواسعة ولا تزال مكتبتهُ ورسائلهُ وكتاباتهُ الاخرا الثمينة جدًّا باقية ونيسيفورس بطريرك القسطنطينية ايضًا وثيودورس ستوديتس وثيودورس الافريطشي ومثوديوس المعرّف وثيودورس ابوكارا وبطرس سكولس ونسطاس داود وغيرهم من الذين لم تكن اسماؤهم تصل الى هذا اليوم لولا ما حصل من المناقشات والمجادلات بين الروم والرومانيين

واشتهر كذلك موسى بارسفاس الذي كان ذا عقلٍ ثاقب ومهارة في الكتابة اكثر من الاكثرين كما تشهد بذلك مولفاتهُ وهو رجل من اهالي سوريا

وهنا يتكلم المولف عن انصباب العرب ايضًا في هذا القرن على العلوم بعد ان كانوا مهليها ومنصبين غاية الانصباب على الفتوحات الى ذلك الحين لكن لما كان صاحب الاصل يتكلم على ذلك كلامًا مختصرًا والوطنية او بالحري الجنسية تحوجني ان اتكلم بالتطويل على قدر ما نصل اليهِ يدي على تقدمات هذه الامة العربية واستدراجاتها مع ما كانت عليهِ في حال بداوتها وما آل اليهِ امرها اذ لا يخفى بان كلاًّ من مشروعات دولها في المشرق والمغرب هو حلقة تربط سريان العلوم والفنون اخيرًا من هذه الاقطار الى البلاد الافرنجية والموضوع لا يستدعي في مثل هذا المركز الاَّ ما كان ضروريًّا في هذا الباب على ان معرفة اصل هذه الأُمَّة ونسبتها واخلاقها وادابها وعوائدها القديمة ضرورية في الاطلاع على اداب اللغة ولطائفها ودقائقها الحديثة كضرورة معرفة الميثولوجيا في فهم اداب اليونانيين القديمة بل الافرنجية الحاضرة ايضًا واستيفاء ذلك هنا يكبّر حجم الكتاب ويزيد في ضخامتهِ وربما اخرجنا عن موضوعهِ الاصلي فقد اهملت ذلك وافرزت لهُ كتابًا مخصوصًا سميتهُ صنّاجة الطرب في تقدمات العرب وجعلتهُ بمنزلة جزءٍ ثانٍ لهذا الكتاب حسبما وعدت في مقدمة كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف

واما القرن العاشر الموصوف بشدّة الجهل في الشرق والغرب نظرًا لما

كان حاصلاً فيها من عظم الحروب والمصائب المكربة فظهر فيه لاون الحكيم الذي تملك القسطنطينية في افتتاح هذا القرن وباشر العلوم بنفسه وحرك لذلك حاسيات كثيرين وابنه قسطنطين بروفروجنيتوس الذي كان اكثر اشتياقاً منه الى احياء الاداب والصنائع وكان ملكهُ نحو ٤٠ سنة يظهر انه عال العلماء من انواع مختلفة بمصاريف باهظة ليعتنوا له بجمع مواضيع كل مكتوبات الاعصار الاولى وكان هو ايضاً مولفاً وحرك اخرين للكتابة وطلب منهم ان يجمعوا له كل ما كان من احسن تاليف القدماء ويرتبوهُ ابواباً كل موضوع على حدته قال بعض المولفين ان الخلاصات التاريخية والمدنية والادبية التي استخلصها كانت ٥٣ باباً مرتبة كل منها في موضوع غير انه لم يبقَ منها الاّ بابان وهما السابع والعشرون والخمسون فالسابع والعشرون يتضمن مداخلة الرومانيين المدنيّة مع الامم الغريبة واما الخمسون فيتضمن الفضيلة والرذيلة وقد طبع فاليسيوس في باريس جزءاً منه سنة ١٦٣٤ م واحيى هذا الملك درس الفلسفة الذي كان قد تلاشى غير ان الذين اتبعوا انموذجهُ من اليونانيين كانوا قليلين جدّاً كما انه لم يوجد احد من الملوك خلفائهِ احب العلم وتثقيف العقل نظيرهُ لكن يظن ايضاً بان هذا الملك نفسهُ مع ان اليونانيين يدعونه محيي كل انواع العلوم قد اضرّ بالعلم على غير قصدٍ منه بل بشدّة غيرتهِ على تقدمهِ لانه بجعلهِ العلماء يجمعون تلك الخلاصات والمختصرات عن كتبة الاجيال الاولى على ما تقدم لكي يوضح فروع المعرفة بانواعها ويجعلها مفيدةً للناس ارتضى اليونانيون الكسالى بهذه المختصرات واهملوا اصل المولفات التي جمعت منها ولهذا فقد كثير من مولفات الاجيال الاولى بداعي تغاضيهم عنها منذ ذلك الوقت فصاعداً

ولهذا السبب لايمكن ذكر الاّ القليلين من مولفي الاجيال التالية يسوغ للعقل الثاقب ان يعتبرهم كثيراً اذ بظرف مدةٍ وجيزة مات ذلك الزرع التعليمي الذي كان يعد بحصادٍ مستقبل والفلاسفة اذا كان وجد بينهم فلاسفة

لم ياتوا بمولفات تُخلَّد او بشيء له قيمة ثابتة بل ان جمهور العلماء اليونانيين كان مولفًا من بعض نحاة وبيانيين قلائل وكم شاعر لايزدري به وجملة مورخين وان لم يكونوا من الرتبة الاولى الا انهم يستحقون الثنا لان اليونانيين ولانخطي اذا قلنا جميعًا كانوا مولعين في تلك المعارف المتعلقة بنوع خاصٍ بالمخيلة والذاكرة والعمل

وكذلك ظهر في مصر التي كانت تئن وقتئذٍ من نير الظلم علماء يزاحمون اليونانيين على العظمة والتقدُّم وحسبنا في ذلك تيخيوس اسقف الاسكندرية بصرف النظر عن غيره لانهُ شرَّف علم الطب واللاهوت بمولفاته المتنوعة وهناك جمهور اخر من الاطباء الماهرين والفلاسفة والعلماء بالعلوم التعليمية اشهرهم يوحنا لاون الافريقي وغيرهُ ممَّن اخذوا علومهم عن العرب

وفي القرن الحادي عشر كانت ظروف المملكة اليونانية لاتسمح لليونانيين ان يتقدموا في العلوم والاداب نظرًا لكثرة مقاوميهم الذين كانوا دائمًا يجردون المملكة من مجدها وسطوتها . وكما ان كل من الاختلافات المدنية والفتن المتواترة وتنزيل الملوك الاغتصابي عن كراسيهم قد اوجب ايضًا خراب وملاشاة ما فات العدو وسلم من يدهِ الاَّ انهُ مع كل ذلك لم يخلُ الامر من وجود افرادٍ نشَّطوا اهل العلم فيهِ كالملك الكسيس كمنينس والبعض من البطاركة والاساقفة لان مجادلات اليونانيين مع الرومانيين لم تكن تسمح لهم ان يهملوا ترويض العقل ومحبة العلوم ولذلك وجد بين هذه الامة بعض اشخاص معتبرين نظرًا لمعارفهم وترويض عقولهم منهم شعراء وبيانيون ونحاة ولئن كانوا ليسوا من الرفع لكن لا بأس بهم غير ان البعض من المورخين كانوا يستحقون الذكر ومنهم لاون النحوي ويوحنا سيلتز وسدرينس وغيرهم ولئن كانوا متمسكين بخزعبلات اهالي بلادهم ولم يخلوا من الاغراض والاهواء . اما ميخائيل سلوس فقد كان رجلاً شهيرًا جدًّا وعلاَّمة عصرهِ في العلوم والاداب ولذلك سعى في ان ينهض الاهلين الى درس الفلسفة ولاسيما الفلسفة الارسطوطالية التي كان

يشرحها ويمدحها بمؤلفاته المتنوعة

واحسن الذين كتبوا ضدّ الرومانيين وغير ذلك في هذا القرن ايضاً ثيوفانس سراميوس صاحب المواعظ التي لا يزدرى بها ونيلس دوكسوباتريوس ونيسيتاس بكتورانس اعظم المحامين عن اراء اليونانيين ضدّ الرومانيين وميخائيل سلوس العالم الشهير الذي مرّ ذكرهُ وميخائيل سرولاريوس بطريرك القسطنطينية الذي جدّد النزاع بين اليونانيين والرومانيين بعد ان كاد يخمد وشمعون الاصغر الذي لا زال يوجد بعض تأملاتهِ على واجبات الحياة المسيحية وثيوفيلكتس البلغاري الذي اشتهر خاصةً بتفسير الكتب المقدسة

ثم في القرن الثاني عشر كانت مطالعة العلوم والفنون مرغوبة جدًّا بين اليونانيين مع ان الاوقات كانت مضطربة والحروب والفتن الداخلية غالبة والسبب في ذلك غيرة الملوك ومحاماتهم عن العلوم ولا سيما الكمنونيون مع اجتهاد بطاركة القسطنطينية الذين كانوا يخشون من ان تفقد كنيسة الروم من يحامي عنها ضدّ اراء الكنيسة الرومانية اذا تغافل كهنتهم عن ممارسة العلم فان حواشي الشروحات التي علقها يوستاثيوس اسقف تسالونيكي العلمية البينة البديعة على اوميروس وديونيسيوس بريجيتز تدلّ على ان اصحاب العقول السامية افرغوا جهدهم على درس علم المنطق والعلوم التعليمية والتواريخ القديمة والمورخين الكثيرين المعتبرين على تقييد حوادث عصرهم لان يوحنا سيناموس وميخائيل غليكوس ويوحنا زونارس ونيسيفورس بريينيوس وغيرهم هم برهان على ان كثيرين من اليونانيين في هذا القرن لم يفتهم شيء من الميل والرغبة في افادة الاجيال المستقبلة ولا من الاقتدار على ان يكتبوا ما يكتبونهُ بحذاقةٍ

وقيل انهُ ما من احدٍ اجتهد في ان يضرم حبَّ الفلسفة في قلوب الناس اكثر من ميخائيل انخيالس بطريرك القسطنطينية وكان مغرمًا على ما يُظنّ في الفلسفة الارسطوطالية لان الفلاسفة كانوا مشغولين في هذا القرن بتوضيح هذه الفلسفة وتثقيفها والدليل على ذلك شرح يوستراتيوس اداب ارسطاطاليس

وتحاليله غير ان فلسفة افلاطون لم تهمل بالكلية بل يظهر ان كثيرين ولاسيما الذين اعتنقوا مبادي العتميين فضلوها على فلسفة ارسطو لزعمهم بانها تليق باصحاب التقوى والرزانة اما فلسفة ارسطاطاليس فتليق بالمجادلين والمتعجرفين وهذا الاختلاف هيج بعد ذلك منازعة اشتهرت بين اليونانيين حيث فضل بعضهم فلسفة افلاطون على فلسفة ارسطاطاليس وفضل اخرون الثانية على الاولى

وكان من كتبة اليونان في هذا القرن ومولفيهم فيلبس سوليتاريوس صاحب الجدال بين النفس والجسد وبوستراتيوس الذي حامى عن اليونانيين ضدّ الرومانيين وشرح بعض كتب ارسطاطاليس وبوثيميوس زيغابينس الذي استحق ان ينظم في سلك اوائل مولفي عصره لاجل سلاحه الكامل ضدّ جميع الهراطقة وشروحه على الكتب المقدسة ويوحنا زونارس الذي وقائعهُ وبعض مولفاتهِ الاخرى محفوظة للان وميخائيل غليكاس الذي اوقف نفسهُ على التاليف في التاريخ وغيره وقسطنطين هرمنيوبولس المولف المعتبر في القوانين المدنية والكنائسية واندرونيكس كماتيرس الغيور في قوة جدالهِ مع الرومانيين والارمن الذين كانوا مقاومين لليونانيين ويوستاثيوس من سالونيكية اعلم يوناني عصره والشارح الشهير لاوميروس وثيودورس بلسامن الذي تعب كثيرًا في تفسير القوانين اليونانية الكنائسية والمدنية

وكذلك في القرن الثالث عشر الذي لم تسمح فيهِ البلايا والويلات الشديدة التي اصابت اليونانيين بفرصةٍ لهم اوعزمٍ على طلب العلوم قد وجد فيهم من المورخين انسطاس كونيانس وجرجس اكروبوليتا وغريغوريوس باكيميرس وبويل الذي لاتزال وقائعهُ موجودة ويظهر من بعض نبذ نيسيفورس بليميدا وغريغوريوس باكيميرس المذكور ان الفلسفة الارسطالية كانت مطلوبةً عندهم غير ان الاكثرين كانوا يفضلون افلاطون وراغبون في مطالعة الفلسفة الجديدة المنسوبة اليهِ زاعمين ان نظامها يوافق نظام

ارسطاليس ولاحاجة الى ذكر كتّاب المواعظ وسير القديسين ومقاومي اللاتينيين وشراح القوانين الكنائسية

وفي هذا القرن ظهر في بلاد سوريا غريغوريوس ابو الفرج ابن العبري مغريان اليعقوبيين الكاتب المشهور وهو رجل ذكي العقل وكثير العلم ولاهوتي ومؤرخ وفيلسوف يحقّ لهُ الاعتبار روى عن نفسهِ في القسم الثاني من تاريخهِ السرياني بانهُ تخرج بمدينة طرابلس ودرس فيها الفصاحة والطب على رجل نسطوري يقال لهُ يعقوب الى ان دعاهُ بطريركهُ ورسمهُ اسقفًا على كوبا في ١٤ ايلول سنة ١٢٤٦ م ويضاف اليهِ جرجس الماسين مؤلف تاريخ العرب

وفي القرن الرابع عشر الذي كثرت فيهِ الاضطرابات العظيمة الداخلية والخارجية في هذه القيصرية والقرن الخامس عشر الذي فيهِ انتهت حياتها وسقطت في حفرة الاضمحلال لم يهمل اليونانيون العلوم الفلسفية وحسبنا في ذلك العلماء وذوو المعارف الذين هاجروا الى بلاد الافرنج بعد ان افتتحت الدولة العلية العثمانية مدينة القسطنطينية قصبة هذه القيصرية في سنة ١٤٥٣ م وكانوا سببًا مهمًّا عظيمًا في امتداد العلوم والمعارف في غربي اوروبا كما يتضح ذلك من التفاصيل الواردة في البحث الآتي

م

البحث الثاني

المعارف في الامبراطورية الرومانية الغربية منذ انفصالها عن المملكة الشرقية في سنة ٣٩٥ ب م الى نهاية القرون الوسطى
وفيهِ سبعة فصول وخاتمة

الفصل الاول

في ما حدث على المعارف في هذه الامبراطورية منذ انفصالها عن القيصرية الشرقية الى ان استولى عليها البربر المهاجون الذين اغاروا عليها ومزقوها واستولوا على اقاليمها في سنة ٤٩٥ ب م

قد ذكرنا في ما سبق كيف قسم القيصر ثاودوسيوس الاكبر المملكة الرومانية في حال حياتهِ بين ولديهِ اركاديوس وهونوريوس واوضحنا ماجريات القيصرية الشرقية التي تخصصت لولدهِ اركاديوس الى ان افتتحها آل عثمان في نهاية القرون الوسطى واما هنوريوس فانهُ تولى المملكة الغربية التي تخصصت لهُ وجلس على كرسيها بعد وفاة ابيهِ في سنة ٣٩٥ ب م وكانت عاصمتها مدينة رومية وتحتوي على بلاد ايطاليا وايليريا الغربية وافريقية واسبانيا وبلاد الغالة

التي سميت اخيرًا فرانسا وبريتانيا التي هي بلاد الانكليز وعدة ولايات في باڤاريا والنمسا وغيرها لكن مع كل هذه الولايات المتسعة التي تدلّ على عظم السطوة لم يعد الرومانيون قادرين على المدافعة عن انفسهم وحفظ بلادهم من غزوات البربر الذين سبقت الاشارة اليهم لان كلاً من انقسامهم وتحزبهم من الجهة الواحدة وانعكافهم على الملاهي والملذات من الجهة الاخرى استأصل منهم تلك الحماسة وجعلهم يرتضون بحالتهم الدنية ويسلمون انفسهم للقدَر وكان هونوريوس بعد محاربةٍ قوية جرت بينهُ وبين الاريك قائد الغوث بايامٍ يسيرة نقل سرير السلطنة من مدينة ميلان الى راڤينا ودامت الحروب بينهُ هو وعدَّة ملوك خلفوهُ من بعدهِ وبين قبائل الغوث والڤندال والهون والهرول وكان ملك الهون وقتئذٍ يقال لهُ اتيلا وله شان وقد مرَّ ذكرهُ في ما تقدم الى ان كان اخر ملك من القياصرة الرومانيين يسمى رومولوس وبهِ انقرضت دولة رومية ومن غريب الاتفاق ان هذه الدولة ابتدأت برومولوس الاوَّل وانتهت برومولوس هذا وهو الثاني بعد ان دامت ١٢٢٩ سنةً

ثم لما استولى هولاء البرابرة على اقاليم السلطنة المذكورة بالتدريج قسموها بينهم الى دولٍ صغيرة عديدة كل دولةٍ منها قائمة بنفسها ومباينة لغيرها في الاخلاق والعوائد واللغات ثم انقطع التواصل بعد ذلك بين هذه الدول وانحلّت من بينها روابط الالفة والمحبة وعلائق المخالطة والتجارة وصارت كلمة اجنبي وكلمة عدوّ مترادفتين بمعنى واحد وصار ارباب الاسفار في سائر الجهات عرضةً للبراطيل والاخطار بسبب عوائد تلك البلاد بل اصولها وقوانينها وانقطعت ممارسة العلوم التي تُبنى عليها الجغرافية والملاحة وتبدلت معرفة البلاد القاصية بالجهل حيث نُسيَت اوضاعها ومحصولاتها بل اغلب اسمائها كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية ومن ذلك الوقت صارت لفظة يوناني ولفظة رومٍ اسمين مترادفين يطلقان على شعوب المملكة الشرقية التي مرَّ ذكرها لكونهِ حُفظ فيهـا تاج القيصرية الرومانية مع عقائد الكنيسة وقتئذٍ غير انهُ

ينبغي قبل ان نشرع في تفاصيل هذه النتائج المختلفة المذكورة المُسببة عن هذه الاغارة العظيمة على سيدة ممالك الارض يقتضي ان نبين اولاً انواع ونسبة واخلاق وعوائد اولئك القوم المتبربرين الذين اثاروها

الفصل الثاني

في بيان انواع ونسبة واخلاق وعوائد القبائل المتبربرة الهاجمة على القيصرية الرومانية الغربية

لا يخفى بان هذه القبائل هي من الشعوب الجرمانية ومركبة من طوائف متعددة وحشية جاءت من شمالي اوربا ومشرقها كالتي ذكرنا اصحابها ويوجد غيرهم مما لا يحتاج الامر الى تعداد اسمائهم لكثرتهم وعدم الفائدة المطلوبة في ذلك بل نكتفي بالاشارة الى الذين يسكنون الآن في مواطنهم الاصلية وهم الدانيماركة والاسوجية واللاهية والروسية والتتار ثم آل امرهم اخيرًا ان يكونوا هم الورثة لعلوم اليونانيين ومعارف الرومانيين وصارت بلادهم او بالحري الممالك التي سلبوها بسيف الخشونة والبربرة تعتبر الآن محط رحال انواع العلوم والفنون وكعبة التمدن والتانس ويُطلق الآن عليهم جميعًا لقب افرنج

ولا يخفى ان هذا اللقب ماخوذ عن اسم طائفةٍ منهم يقال لها افرنك بالكاف الفارسية بدلاً عن حرفٍ موجود في لغتها ينطق به في بعض ظروف كتابتهم كما ينطق بالكاف المذكورة ويسمونه شه فلما تعربت هذه اللفظة قيلت افرنج نظرًا لعدم وجود ما يقابل ذلك الحرف في اللغة العربية ومعنى هذا اللقب على ما قال بعضهم احرار سائبون وهذه الطائفة هي التي استولت من بين تلك القبائل على بلاد الغالة التي هي احد الاقسام الامبراطورية الرومانية

المذكورة ومكثت بها الى الآن فسميت هذه البلاد اخيرًا باسمها فقيل لها افرنسة او فرانسا ثم شمل هذا الاسم جميع اهالي اوربا سواءٌ كانوا من السكان الاصلية او القبائل الفاتحة بل ونزلاتهم الاخيرة في غيرها من اقسام الارض كاميركا وامثالها ما عدا اليونانيين والاتراك لكونهما لم يختلطا بتلك القبائل كما اختلط غيرهما من اهالي اوربا فاذًا والحالة هذه لا يستثنى احد من سكان ذلك القسم من الدخول تحت هذا الاسم الاّ الطائفتان المذكورتان

اما قولهم لهذه الشعوب جرمانية على ما تقدم فمعناهُ رجال الحرب ويطلق على عامة الامة التوتونية التي تعتقد بانها اوكتونية اي متولّدة من الارض ولذلك كانت الارض اوّل آلهتهم ويسمونها بلغتهم هرثة وكانوا يعتقدون ان لهرثة هذه ولدًا يسمى توبست فسموا توتونيين نسبةً لهُ

وقد ذكرنا معبوداتهم في البحث الرابع من المقالة الثانية من كتاب زبدة الصحائف في اصول المعارف وخلاصة ذلك انها تدل على ان خرافات اليونانيين الكاذبة لم تكن مجهولةً عند هولاء القوم غير انهُ لم يكن لهم هياكل ولا اصنام

ونظرًا لانقسامهم الى طوائف عديدة كان الضعيف منها متعاهدًا مع بعضهِ قد كان لكل طائفة منهم حكومة تخصها ولكنها جميعها متشابهة غير ان السكسونيين كان لهم ملوك يتوارثون المملكة اما ما عداهم فكانت روساؤُهُ من القبائل الشريفة ومن ذوي الحسب والانتخاب فيها كما ان رياسة العساكر لا تكون الاّ للشجعان

وكانت ملوكهم مقيدة بتصرف الاعيان وارباب مشورة الاهالي واما في الدعاوي المهمة فكان يتذاكر المجلس الجامع لجميع الرجال الاحرار الذي كان يجتمع اما في اول كل شهر او في نصفهِ وكانوا يذهبون اليهِ متسلحين ليظهروا حريتهم في وقت الاجتماع وكان لجميع الاهالي حق التكلم لكن على حسب السنّ والشرف والفصاحة وكان سكوتهم او دويهم في المجلس دليلاً على عدم رضاهم براي المتكلم واما اذا استصوبوا رايًا فكانوا يرفعون اصواتهم بالاستحسان وتتصادم

اسلحتهم وتسمع قرقعتها

وكانت هذه الجمعيات هي التي ترتب القوانين وتقاص في الجنايات وتعاقب على الموالسة مع الاعدا والهروب اليهم اما بخنق المذنب او صلبهِ وكانوا يعذبون الزانية المتزوجة ويقتلونها ويدفنونها في بركةٍ مملوءة وحلاً وكانوا يدفنون في هذه البركة ايضاً من هرب من العساكر ومن وقع منهُ فعل يوجب الفضيحة والعار واما عقاب غير ذلك من الذنوب فكان بدفع الاموال من الغرامات وغيرها

وكانت روساء العساكر تضبط الجيوش بالترغيب بما يجرونهُ لامثالهم من الرياسة وحسن المكافاة وكان لهم فرقة من العساكر يسمونها لودية تمتاز بالانعامات لكونها واهبة نفسها لحفظ ناموس روساء العساكر

وكان المحارب الجرماني ينشد اشعار النصر والظفر من حين ذهابهِ الى القتال قبل وقوعهِ بالاعداء وكانوا يحترمون شعراءهم احتراماً عظيماً وهكذا الغالية حتى انهم كانوا يعتقدون ان لهم الهاماً الهيّاً.

وبمجرد خروج الشبان من الشبوبية كانوا يحضرون في الجمعيات العمومية ليأخذوا علامة انتظامهم في سلك الحربيين وهي مبدا شرفهم ويلتزمون حينئذٍ بحفظ الوطن ويسلّمون انفسهم لمن يرشدهم الى الشجاعة وفي زمن الصلح يشتغلون بالصيد والقنص ولذلك كانوا لا يهتمون بشان اهلهم وعيالهم بل يفوضون ذلك الى النساء والشيوخ

وكانوا يكرهون اشغال الفلاحة ويكتفون بالصيد فلا يصرفون تعبهم على الارض ولا يظهرونهُ الاَّ في الحرب ولا يختص احد منهم بشيء من الاطيان بل كان الحكام في كل سنةٍ يعطون لكل قريةٍ ولكل عائلةٍ مقداراً من الارض للزراعة لكن في آخر القرن الرابع للميلاد عرفوا حق التملك ومنهم بعض قبائل كالسكسونيين والبرغونيين رغبوا في صناعة الفلاحة والاستيطان

وكان يحاط محل اقامة كل قبيلةٍ منهم صحاري خالية حتى ان مساكنهم في

ذات القبيلة تكون متفرقة عن بعضها على شاطىء نهر حوالي منابع الماء بحافة الغابات وكان فقراؤهم يسكنون مع حيواناتهم في حفرٍ يحفرونها في الارض وكانوا يضعون موناتهم في اماكن مكتومة وبعضهم يسكنون اخصاصاً مبنية بالطين الميبس في الشمس قبيحة المنظر وينقشون جدران مساكنهم بالوان مختلفة ثم لما دخلت عندهم الديانة المسيحية اخذوا يخططون قرى في جرمانيا وبعد ذلك بزمنٍ طويل اخذوا في بناء المدائن

وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الوحوش ومن القماش الخشن ويخيطونها بالليف وبعض الاحيان يلبسون ثياباً ضيقة عليها طراز منسوج ردي وتمتاز النساء بلبس براقع من الكتان وبهيئةٍ قليلة التوحش

ولم يكن تعدد الزوجات مباحاً الاّ لملوكهم وكان الخاطب يقوم بما يرضي ابا خطيبته واما المخطوبة فكانت تعطي الى زوجها طقماً كاملاً من الاسلحة وهو يعطيها اثاث البيت ويعطيها ايضاً هديةً يوم صباحية الزواج وكانت نساؤهم اصحاب عفة وحياء بخلاف نساء الرومانيين ولما كانوا يعاقبون على خيانة الفراش اشد العقاب كان وقوع ذلك عندهم نادراً

وكانوا يقرون الضيف لان اقراء الضيوف امر ضروري للامم الخشنين وتزاهة عند المتمدنين ثم استحال ذلك الى المفاخرة والمباهاة ومنشأً للفساد فكان الانسان منهم يجالس جيرانه وينادمهم في الوليمة ويتجاوزون الحد في الماكل والمشرب لكثرته في المائدة مع الشره المفرط ومع ذلك كانوا يتذاكرون في الوليمة بالامور المهمة الخاصة والعامة لكن من دون ان يبتوا حكمهم فيها خوفاً من مخامرة السكر وما اسعد نديماً قدم لهم في وقت حظهم كاساً مصنوعة من جمجمة من انهزم من ملوك اعدائهم وكان كثيراً ما يقع بينهم القتال بالعربدة الناشئة من السكر وربما آل امر ذلك لتذكرهم في عداوات قديمة كانت بينهم فينسون ما بينهم من المصافاة والصلح وتقع بينهم المحاربات الداخلية

وكانوا يظهرون قوتهم ونشاطهم في الملاعب الصبيانية كلعب البهلوان

والمصارعة ومهارشة الديوك مع بعضها وغير ذلك من الشعبذيات وكانت قلوبهم متعلقة بالاكثر في لعبة النصيب والصدفة (ضرب من القمار) وكان اذا فنيت من احدهم الدراهم يلعب برقبتهِ ويرضون بالامتثال لذل العبودية ويرونها شرفًا في اللعب وكان من يتملك منهم انسانًا في اللعب يستخدمهُ في فلاحة الاراضي مع بقائهِ على حالةٍ يكاد يكون فيها مساويًا لسيدهِ

وكانوا لا يعرفون المفاخرة في الجنائز وانما كانوا يكرمون الحربيين بدفنهم في اراضٍ مخصبة ولا يبكون اعز موتاهم دليلاً على انهم لا يهابون الموت وانما كانوا يتذكرونهُ مدَّةً طويلة واما النساء فكنَّ يبكينَ عليهِ

فهذه هي حالة هذه الامة التي وقع بينها وبين الرومانيين المقاتلات المستمرة الى ان ظفرت بهم وخربت الامبراطورية الرومانية وكان السبب في ذلك برد اقاليمهم وقحط اراضيهم ومحبتهم للسلب مع لطف قطر بلاد الرومانيين وكثرة اثمار اراضيهم الزائدة الزراعة واموالهم وفنونهم التي كانت تجذب اهالي الشمال الى البلاد الجنوبية

الفصل الثالث

في حالة المعارف منذ الفتوح وتملك الملك ثيودوريق الاستروغوطي الى وقت اختلاط الرومانيين بالجرمانيين

ولما تم هولاء الحربيون افتتاح البلاد الرومانية جلس منهم الملك ثيودوريق الاستروغوطي على تخت مملكة ايطاليا في سنة ٤٩٨ مسيحية ومنع الغوطيين من الاختلاط مع الرومانيين في المكاتب ومن لبس ثيابهم خوفًا من ان يسري اليهم جبن الرومانيين واخذ من الرومانيين الاسلحة وابقى لهم جميع الوظائف الاهلية

وقال العلاّمة الشهير روبرتسون المؤرخ الانكليزي ان هذه الطوائف المتبربرة كانت مع جهلها تحتقر الآداب لانهم كانوا يرون سكان الاقاليم الرومانية اهل رخاوة يهابون الحرب وحكى نقلاً عن لويتبرند انهٔ قال اذا اردنا سبّ عدوّ ونسبتهٔ للصفات القبيحة المكروهة نقول لهٔ انت روماني فان هذا الاسم وحدهُ يشتمل على جميع الرذائل كدناءة وجبن وبخل وفسق وفساد وكذب وغير ذلك من النقائص والعيوب ثم اوضح سبب ذلك بقولهِ وما ذلك الاّ لكون هولاء الامم المتبربرين كانوا بجهلهم ينسبون فساد اخلاق الرومانيين لحبهم الاداب وتولعهم بها حتى انهم عند استيطانهم بالاقاليم الرومانية التي فتحوها لم ياذنوا لاولادهم ان يتعلموا شيئًا من انواع المعارف والعلوم لانهم كانوا يظنون ان ذلك يكسب الانسان الخمول والدناءة وضعف القوى لانهٔ اذا كان الانسان يتعود من صغرهِ على الفزع من عصا المؤدب والمعلم فكيف يتاتى لهٔ ان يثبت امام رمح او سنان

وذكر هذا الفاضل ايضًا انهٔ مضت مدة طويلة وهولاء الامم غارقون في التبربر والخشونة يبغضون العلوم والمعارف حتى انهٔ لم يخرج منهم في تلك المدة مورخ فيهِ قابلية لتقييد حوادثهم وتسطير اخلاقهم ورسوم قوانينهم ولذلك لم يبقَ لهم اثار يستفيد منها المولفون فائدةً صحيحة حتى ان المولف يورننديس وبولس ورنغريد وغريغوريوس دوطورس مع انهم اقدم المولفين الذين كتبوا تاريخ هذه الامم واكثرهم صيتًا وشهرة لم يفيدوا فائدةً كافية في شان اخلاق الغوطيين واللومبارديين والفرنسيس ولا في شان قوانينهم وعوائدهم واما الشيء اليسير الغير الموفي في شان مبدأ هولاء الامم المتبربرين فلم يستفد الاّ من مورخي اليونانيين والرومانيين

وكان ترتيب القوانين منوطًا بنفس الملك وكانت مشورة الدولة تسمى كومينه وكانت هي التي تبحث في الاوامر التي تصدر من الملك وكانت اولاً في مدينة راونية ثم اختلطت بديوان السنت في رومية ومن ثم صار هذا الديوان

يتلقى اوامر الملك في المدينة المذكورة التي جعلها الملك دار اقامته وابقى مدينة رومية محلاً لمشورة السنت ودار اقامة البابا

ولم تدون الشرائع في الكتب الاَّ في زمن الملك روثاريس سنة ٦٤٢ م فهو اول من دونها اذ انهُ حمل الشعب في مدينة باويا على استحسان مجموع قوانين اعدهُ لاصلاح قوانين اسلافهِ وتكميلها وقصد بذلك الراحة الدائمة للناس وتمكين حريتهم وتأكيد ملكيتهم فاتسعت هذه القوانين ووقع فيها الاصلاح في زمن خلفائهِ

وهذا الملك كان اريوسيًّا نظير ثيودوريق لكنهُ لم يظلم اهل الكنيسة في شيءٍ وانما جعل في كل ابرشية اسقفين الواحد من الكنيسة والثاني اريوسي وكذلك كان الملك ثيودوريق مع كونهِ اريوسي المذهب مثل قومهِ لم يتعرض لباقي المذاهب بل كان يميل في بعض الاحيان الى مذهب الكنيسة واذن للغوطيين ان يتمسكوا بهِ وكان يعامل الباباوات بالاكرام وابقى مزايا كما تسهم وانعم عليهم بانعاماتٍ جديدة وفي بعض الاحيان كان هو نفسهُ ينتخب البابا لاجل ان يمنع بيع الوظائف الدينية وكان يدافع عن اليهود وعمَّر بيعهم لكن عبدة الاوثان وان كانوا لا يجبرون على تغيير عقيدتهم قد كانوا يعاقبون بالقتل على عباداتهم الوثنية ومناسكهم الدينية

واظهر ثيودوريق الخضوع الى انستاسيوس قيصر القسطنطينية بمكتوب حررهُ لهُ يقول فيهِ اني عرفت الطريقة التي يمكنني بها الحكم على الرومانيين مع العدل تحت رعايتكم وانهُ لا يمكن ان يتولد بين الحكومتين اقل شقاقٍ انتهى ثم انهُ ابقى كذلك صورة القيصر المذكور على المعاملة فبايعهُ القيصر في نظير ذلك على مملكة ايطاليا غير ان هذا التملق لم تطل مدتهُ حيث لم تُخفَ على هذا القيصر خديعة هذا الملك الخشني السياسة

وكذلك ابقى ما كان موجودًا وقتئذٍ من المناصب القيصرية القديمة واعاد ما كان فقد منها وابقى فصل الدعاوي على ما كان عليهِ الاَّ انهُ رخص

للناس ان يرفعوا دعاويهم اليهِ ليكون ذلك حاملاً للقضاة على الاعتناء برؤية الدعاوي وفصلها

ورغب اهل مملكتهِ في الزراعة واعان على تقدمها وتكثير محصولاتها ولما كثرت الاهالي بواسطة الصلح والاطمنان صارت المحصولات المعتادة لاتكفي في مؤونتهم فاضطروا الى احياء الموات من الاراضي وتنشيف بطائح المياه ومع ذلك بقيت الاراضي لاتكفي الزراع بعد ان كانت الزراع لاتكفي الاراضي

ولو ان فنون ايطاليا تقدمت كما تقدمت الزراعة لِما كانت تحتاج الى غير ذلك من انواع العزّ والسعادة لكن لم تتقدم لان الرومانيين كانوا يعتقدون ان ممارسة عمل اليد من وظائف العبيد والعتقاء وانما منظر القسطنطينية ورونقها وفصاحة ارباب المعارف من اهلها حبّب الى الملك ثيودوريق الفنون والمعارف فالتفت اليها ولم يخطر لهُ ان يتعلّم مبادي الاداب بل اهتم بتعليم الناس وفتح سراية راوينة لارباب المعارف على اختلافهم وصار اصحابهُ ووزراؤهُ ابرع اهل عصرهم واجودهم قريحةً ومنهم وزيرهُ قسيودور والقنصل بويسة والاسقف اينوريوس والمولف يورنندبس الغوطي الذي الف تاريخ الغوطيين لكنهُ لم يعهد المدارس القديمة التي تلاشت وكان مكتب رومية لايزال مضمحلاً

وكان هذا الملك يعتني كثيرًا بالمباني العمومية حتى انهُ لُقّب محب البناء ومعمر المداين فرمم الغوطيون الاثار الشهيرة في رومية لان الامم المتبربرة لم تهدمها ورمموا اسوار المدينة وملعب بومبه واصلح هذا الملك مجاري المياه واحدث قصورًا واسعة في مدينتي ويرونه وباويا ووسع دار اقامة القياصرة وزخرفها بزخارف جديدة على ما ذكرنا في الفصل الخامس من البحث الاول الذي مر قال بعض المولفين يخاطب مَن قرأ كتابهُ فاعجب لسكن القياصرة حيث لم يكفِ سكن رئيس امةٍ متبربرة

ونختم الكلام هنا بان هذا الملك لم يستفد اخيرًا مرادهُ من منع الغوطيين عن الاختلاط مع الرومانيين على ما ذكرنا فيما مرّ حيث ابقى لهم الحرية في

الزواج الذي بواسطتهِ اقتدت كل امةٍ منهما بالاخرى في عوائدها وكانت احكامهُ تجعل الامتين متساويتين في الحقوق ايضًا

الفصل الرابع

في حالة العلوم والمعارف بعد اختلاط الجرمانيين بالرومانيين الى ان تولى الامبراطورية الملك كرلوس الاكبر

حرية الزواج التي ذكرناها والمساواة في الحقوق قد اوجبا اختلاط الجرمانيين بالرومانيين اختلاطًا تولد عنهُ تغيير في الاخلاق والقوانين العمومية في هذه الممالك المتسعة التي استولى عليها المتبربرون وحيث لم يكن من موضوع هذا المولف البحث في كيفية تقسيمهم الاراضي والاقطاعات ولا الكلام على الفرق الخشنية التي اختلطت مع الرومانيين في الممالك الجديدة التي اسسها المتبربرون واتحدوا الى ان صاروا فرقتين احرارًا وارقّاء من كل من الفريقين ولا الايضاح عن كيفية الحكومات والادارة وجمعيات الملة والخدم العسكرية فان ذلك جميعهُ من متعلقات التواريخ العامة فلا نذكر منها هنا الاَّ ما كان لهُ دخل في القضايا الادبية

ومن ذلك كيفية فصل الدعاوي الذي كان يجرى على رؤوس الاشهاد وقتئذٍ وقد كان هذا الامر قبل ما افتتح المتبربرون تلك البلاد منوطًا بمشورة العموم وقضاة الاخطاط الذين كانوا يتقلدون مناصبهم من طرق المشورة لكن بعد الفتح تغير ذلك منذ توطنت الطوائف الجرمانية في البلاد وتفرقوا فيها فصاروا هم الذين يفصلون دعاوي الرومانيين المغلوبين فكانت الكونتات والويكونتات وحكام المئات والعشرات يعقدون في بعض الاحيان مجالس

يسمونها الجمعيات السفلى لهذا الغرض وكانت الجنايات تحول رؤيتها الى الحاكم وتتوزع بحسب جرمها وكان في مبدا الامر تحضر جميع الاحرار الى المحكمة لكي يبدوا رايهم بعد ان يسمعوا كلام الخصمين ثم صار الكونتة منهم لا يدعو الى محكمته الا خمسة او سبعة او اثني عشر فكانوا يفصلون الدعاوي ويقدمونها الى الكونتة لكي يثبت الحكم فيها وينفذهُ

وكان المدَّعي عليهِ هو الذي يكتب اولاً ما يثبت براءتهِ ويقدم ذلك الى القاضي ثم يحضر البينة ثم ياتي بمن يحلف له انهُ بريء ثم يمتحن بالامتحانات الشرعية وهي عدة انواع منها انهم يطعمون المدعى عليهِ شيئاً من شجرة سامَّة فان لم يضرهُ ثبتت براءتهِ ويسمون هذا العمل اورديال ومنها امتحانهِ بالنار والماء والصليب ويسمون هذا العمل قضاء الله ومنها المقاتلة الشرعية وهي ان يتقاتل الخصمان فمن غلب فهو المحق واما القسوس والنساء والصبيان فكان لهم امتياز بان يوكلوا من يقوم مقامهم في هذه المقاتلة (وهذه المقاتلة الشرعية هي التي نشا عنها ما يستعملهُ الافرنج في هذه الايام ويسمونهُ دويل) وهذا الامر لم يكن يعرفهُ اليونانيون ولا الرومانيون

واما العقوبات فكانت اما بالقتل واما بالدية او دفع غرامة ولكن العقاب بالقتل كان نادراً والغرامة كانت غرامتين الواحدة لارباب المجلس وكان يوخذ نصفها الى بيت المال والنصف الثاني الى الكونتة (اي الحاكم) والثانية كان ياخذها المجنى عليهِ او عائلتهِ اذا كان قتيلاً وقد بينت قوانين هولاء المتبربرين انواع الدية ولا سيما القانون السالي والقانون الريبووبري من القتل الى السبّ بالكلام او بالاشارة فكانت دية الاسقف ٩٠٠ قطعة من الذهب ودية العبد ٣٦ ودية ما بينهما على حسب انواع القتل وحال القتيل شرفاً وخسةً وقد نصّ القانون السالي ايضاً ان دية المتبربر تكون ضعف دية الروماني المماثل له في الدرجة والرتبة ثم نُسخ هذا الحكم وصارت التسوية بقانون الملك غندبود حيث ان الرومانيين كان لهم دخل في ترتيبهِ واما القوانين اللنبردية فكان فيها دية

القتل ٩٠٠ قطعة من الذهب مطلقًا

وكان اقدم هذه القوانين القانون السالي وهو اصعبها وافظعها رتبة اولاً ٤ من الوكلا باللسان الجرماني واقرّهُ الافرنك الساليين فسمّي باسمهم ثم لما اقتبل الملك قلوويس الفرنساوي الديانة المسيحية في سنة ٤٩٦م خفف منهُ بعض احكام ليطابقهُ مع الدين المسيحي ثم اصلحهُ بعد ذلك الملك تيبري الاول وشلديبرت الاول وقلوتير الاول وداغوبرت الاول وكرلوس الاكبر وكان يقال ان القانون المذكور يمنع الاناث من ارث تخت مملكة فرانسا والحال ان هذا القانون لا يتعرض الى شيء من ذلك واما القانون الريبويري فكان لهُ شبه بالقانون السالي غير انهُ لم يكن ما لوفًا للرومانيين وهناك قانون للبرغونيين وقانون للوسيفوطيين وقانون للاستروغوطيين وقانون للنبرديين وقانون للانكلسكسون وكلها قريبة الشبه من بعضها فلم تكن بالمعنى المصطلح عليهِ الان عند الافرنج وانما كانت تتعلق بالاهالي وخصوصًا بعقوبات الجنايات وحفظ الحيوانات الاهلية واصلاح احوال الامم المتعودة على قطع الطريق وايقاع احترام الاهالي والاملاك في قلوب العساكر ومنع فساد اخلاق الناس وكان فيها اصول فقهية تميز قوانين الجرمانيين المتبربرين من قوانين الرومانيين المتمدنين وهي ثلاثة

(١) ان القوانين ذاتية لا ارضية يعني ان الشخص يحكم عليهِ بقوانين بلادهِ اينما وجد

(٢) هو ما ترتب على ترخيص المتبربرين للرومانيين ان يعملوا بقوانينهم القيصرية اذ انهم صاروا بذلك ممتازين بان ينقادوا للقانون الذي يختارونهُ وصار يمكنهم ان يرتقوا الى درجة الجرمانيين الغالبين وان الجرمانيين الغالبين ينحطون الى درجة الرومانيين المغلوبين فآل الامر الى ان الامم المتنوعة في كل دولةٍ من دول الفاتحين صاروا امةً واحدة بدون فرق واما قوانين القياصرة المذكورة اعني التي كان يعمل بها الرومانيون المغلوبون فهي التي جمعها القيصر ثاودوسيوس الثاني وبقيت معمولاً بها مدةً طويلة في بلاد الغلية وايطاليا

واسبانيا حتى ان معظمها نُقل الى القوانين الكنائسية وامتزج بها

(٣) هو انهُ كان من قواعد المتبربرين انهُ يجوز ابدال العقوبات الجسمانية بالغرامات المالية سواء كان الجرم كبيرًا او صغيرًا ثم بطلت هذه الرخصة على التدريج

واما العلوم والفنون فقد كان الخطر عليها عظيمًا في هذه الاغارة البربرية لولا ان الدين المسيحي وحدهُ هو الذي تكفل بحفظ التمدن والمدافعة عنهُ وكانت المنفعة كلها في مبدأ الامر للجرمانيين المنصورين ويتراءى ان المغلوبين اي الرومانيين اضمحلت معارفهم التي علموها للمنصورين فتحلّى المنصورون بهذه المعارف وتخلوا عن خشونتهم الاصلية من غير ان تزول عنهم فضائلهم الحربيّة وصار الرومانيون ارباب خشونة واستمرّ فيهم الجبن وفساد الاخلاق

ولما تمسك المنصورون بالديانة المسيحية صار هذا الدين يرشدهم الى ما فيهِ صلاحهم فترك المتبربرون لغاتهم الاصليّة واستعملوا اللسان اللاتيني لكونهِ يُستَعمل في العبادة ثم أُستعمل في الشرائع والقوانين لكن لما كانت جلبت هذه الامم المتبربرة في مبدأ امرها الى الرومانيين تصورات وآراء يجهلونها تكلفوا التعبير عنها بالفاظٍ من لغاتهم الاصلية فاختاروا بعض كلماتٍ توتونية ونظموها في سلك لسانهم الاّ انها لم تنسبك في اعرابها مع اللسان اللاتيني فتولد من اختلاط هذه الالسنة باللسان اللاتيني المذكور اللسان العاميّ المسمّى باللسان الروماني ومنهُ تشعبت باقي اللغات الجديدة في اوروبا وبقي اللسان الجرماني مستعملًا في بلاد اوستراسيا وهيبترشيا السكسونية وعند اللنبرديين والعشائر الكبيرة واما اللسان اللاتيني فبقي عند القسوس ومحافلهم ومكاتباتهم وصار هذا اللسان من ذلك الوقت في اوروبا لسانًا مقدسًا يتكلم بهِ القسوس ولا يُمنع تعليمهُ عن العامة وكان ذلك من انفع وسائل التمدن

وكان قد قلّ العمار في هذه الامبراطورية الرومانية منذ نزول المتبربرين بها بعد وفاة القيصر ثاودوسيوس الاكبر على ما سبقت الاشارة اليهِ وخلت

الاراضي عن الزراع وتكاثرت الحيوانات الوحشية بها نظرًا لتناقص الناس وتعذرت التجارة في الاماكن البعيدة فانقطعت علائق الاختلاط بين الاقاليم والمدن والقرى وتعطلت الصنائع واضمحلت على التدريج الفنون الميكانيكية اي فنون صناعة الآلات وتناست فنون الرفاهية والزينة وهجر ارباب الصنائع والحرف مدنهم وطلبوا من اصحاب الاملاك الخلائية ان ينعموا عليهم بحفظ نفوسهم بحيث يكونون بمنزلة عبيدهم في المعيشة والخدمة

واما الفنون العقلية التي لا يعبأ بها عند مثل هذه الامم الفاتحة ولا نفع لها عند المغلوبين فقد حفظها الدين المسيحي وفتشذ تحت كنفه وبقيت محفوظةً في صدور القسوس في ذلك العصر وهم الذين جعلوا بواسطة وعظهم في الدين وكثرة احتفالاتهم في الجامع مجالاً واسعًا الى الفصاحة وعلم المنطق وصار طلبة العلم في الديورة التي تجددت في ذلك الوقت امنين محترمين وصارت العامة على التدريج يحترمون العلم والديانة ومن ذلك الوقت صارت كتب الدين المسيحي كتب التمدن والتأنس

واما الآداب الرومانية في هذه البلاد فانها كانت قد اخذت في الاضمحلال منذ زمن القياصرة الانطونيين الى ان حصلت ٣ حوادث كبيرة عجلت انعدامها بالكلية وهي

(١) اتخاذ القياصرة دار اقامتهم في القسطنطينية فان ذلك جلب الى بلاد المشرق ارباب المعارف وحجزهم فيها لكي يحظوا عند القياصرة بالشرف وعلوّ المنزلة ويقتبس بعضهم من انوار بعض

(٢) سقوط الامبراطورية الغربية الى الحضيض

(٣) هجوم الامم المتبربرة الذي تمزقت به مواد العلوم واصولها فهذه الاسباب افضت بالآداب اللاتينية الى العدم بخلاف الآداب عند اليونانيين فانها عادت يومئذٍ الى مواطنها الاصلية وتقويت فيها بقوةٍ جديدة

وكان الدين المسيحي قد احدث لسانًا جديدًا لم يكن من ذي قبل وحلّ

ما كان بين الاداب والفنون واوهام الرومانيين الفاسدة من الارتباطات والعلائق القوية ومع ذلك كان الشعر المشتمل على العبادة الوثنية في ايام الدولة الثاودوسية مرتفع المنار عظيم البهجة وفي المدة التي كان فيها الشعر في بلاد اليونانيين محصورًا في قصائد هجو مبتذلة قد ظهر في الرومانيين جملة من الشعراء البالغين والبلغاء الحماسيين مثل اوزون وبرودنس وبولين دونوله وقلوديانوس وسدنيوس ابوليناريوس وفورتونات وكان لم يبقَ من هولاء الشعراء على عقيدة الوثنية الا قلوديانوس وهو كان اخر الشعراء الوثنيين وفي مدّة ما كان شعراء عصره مشتغلين بانشاء قصائد في مدح الدين المسيحي كان هو يزاول بشعره احياء ما اندرس من الاوثان القديمة الى ان تعجب اهل ديوان هنريوس وكانوا من المسيحيين الاتقياء حيث سمعوا ذكر بروزربينة المختطفة والاعوان الذين اصيبوا بالصاعقة مذكور في اشعار لطيفة ونظم قصائد اخرى في مدح هنريوس وستيليقون الذي انتقل الى ديوان هنريوس الذي كان اهلهُ من الادباء ارباب الانشاء والبيان وحتى في رومية هذه الاشعار اللاتينية الوثنية التي نظمها هذا الشاعر الذي جاء الى رومية من الاسكندرية لاجل مضادة الانجيل

ثم ان رجلاً من الغليين يقال لهُ روتليوس نومتيانوس لهُ قصيدة نظمها في شان العود الى وطنهِ ومن اطلع على محاسنها يتأسف على كونها ناقصة

واما سدنيوس المارّ ذكرهُ فهو مولود في بلاد الغلية ايضًا ونظم قصائد ليحرض بها الناس على مجانبة التبربر الذي عمّ هذه الامبراطورية ومن اعظمها قصائدهُ التي مدح بها عدة من القياصرة تملق فيها بمدحهم بمحبة الوطن وضمنها الحماسة والحمية والتخيلات المخترعة

وتوجد ستّ قصائد حزنية تتعلق بما يترتب على الهرم والشيخوخة من المضرة كان يظن انها نظم كرنيليوس غالوس والواقع انها نظم مكسيميانوس الشاعر الذي يظهر انهُ كان في عهد الملك ثيودوريق

ومنهم برسيان النحوي الشاعر اللاتيني الذي اشتهر في عصر يوستنيانوس سنة ٥٢٧ م ويوستينوس الثاني سنة ٥٦٥ م بالقسطنطينية وله ثلاث قصائد ما بين انشا وترجمة كان غرضهُ منها التعليم وهي متعلقة بالجغرافية والموازين والمقاييس وعلم الهيئة

ومنهم قوريبوس الافريقي الذي اشتهر في عصر القياصرة المذكورين ايضاً له قصيدة مدح بها يوستينوس ولولا ما اشتملت عليهِ من الوقائع التاريخية وعوائد دولة القسطنطينية ومناصبها لما كانت تستحق ان يُحافظ عليها نظرًا لدناءتها

ومنهم ويناتيوس فرتوناتوس وهو فرتونات المارّ ذكرهُ ولد في بلاد البندقية وصار اسقفًا على مدينةٍ يقال لها بواتيير نظم اشعارًا ذات محسنات بديعية وكلمات لغوية كان يتملق بها كتوريبوس احد الملوك المرونجية وانشا ١٢ كتابًا ايضًا فاق فيها على شعراء عصرهِ وهي في فنون متعددة وترجم بالشعر كتاب سوليبس سوير المتعلق بسيرة ماري مرتين وكان شاعرًا بليغًا

وفي عصر شلبريق ملك فرانسا الذي تولى المملكة سنة ٥٦١ م ظهر سيزيبوت الذي كان عالمًا وشاعرًا حاز جميع العلوم التي كانت في عصرهِ حيث انهُ تخرج على ابزيذورد وسويله الآتي ذكرهُ ونظم الحوادث الجوية واعجوبات اسبانيا

ثم وان يكن عصر الانطونيين الذين سبق ذكرهم يفتخر بوجود المورخين مثل تاسيت وبلوناركة الَّا انهُ مضى بعد ذلك نحو ٢ قرون قلَّ ان وجد فيها مؤرخ لاتيني او حدث فيها شيء من الامور المهمَّة الَّا ان بعض المختصرين للتواريخ المتفاوتين في البراعة والتملق للقياصرة او التشنيع عليهم حكوا عيوب الديوان ومصائب الامبراطورية وبعض سطوات حربية الى ان ظهر في القرن الرابع المولف اميان مرسلين وهو يستحق ان يكون في درجة تيتلوة وسلوست وكان اخر المورخين الوثنيين بل خاتمة من يستحق اسم المورخ وبعدهُ ظهر المورخون

الذين كانوا يجمعون الحوادث السنوية سنةً بعد اخرى

واول من سلك هذا المسلك السهل هو بروسبير داكتينا فجعل تاريخ اوزيب وماري جيروم على شكل الفهرست واستمر يجمع في هذين التاريخين حتى تغلّب الملك جنسريق على رومية سنة ٤٥٥م وبعد ذلك بدئ نسج على منواله ايدفيوس اسقف ليكا فجمع تواريخ سنوية ابتدا فيها بموت والانس سنة ٣٧٨م وانهاها سنة ٤٦٧م ثم تمم هذين المولفين ثلاثة اساقفة وهم فيكتور الافريقي ويوحنا البكلاري ومريوس الاونسي وهذه الوقائع السنوية ومختصر اوتروب هما اصل تاريخ سيلا الذي جمعه المولف بولس ورنغريد اللمباردي في القرن الثامن من الميلاد

ومن زمرة كتاب الوقائع السنوية قسيودور وزير ثيودوريق الذي مرّ ذكرهُ مع انه كان بارعًا في كل شيء وسمحت نفسه بتاليف رسالةٍ في علم الخط تنازل ايضًا لجمع الحوادث السنوية وألّف تاريخ الغوطيين لكنه مملوءٌ من المبالغات وقد اختصرهُ جرناديس ثم اخذ هذا الكتاب ابزيدور دوسويله واستمر فيهِ حتى اكمله وتمم ايضًا كتابًا عموميًا جمعه من الوقائع السنوية

وقد ألّف راهب يقال له جلداس دودونبرتون كتابًا محزنًا يتعلق بخراب بريطانيا وقد عيب عليهِ بعيوب ذكر بعضهم انهم لم يلوموا على مثلها المعلم بيدا رئيس دبرورموث الذي ألّف في القرن الثامن الكتابين الاخرين وهما تاريخ بريطانيا الكبرى ورسالة كبيرة في الاجيال الستة بل نسبوا ذلك لخلوص باطنهِ وحسن طويتهِ لكونه كان يأخذ الاخبار كقضيةٍ مسلمة من دون أن يبحث او يناقش فيها بل مدحوا عباراته بانها واضحة ووجيزة وانه مكث ٦٠ سنة لاجلها منقطعًا عن ابناء جنسهِ من الادباء

ولما افتتح الجرمانيون بلاد الغالة (فرانسا) قبل بريطانيا (بلاد الانكليز) كان لها ايضًا مورخ مثلها يقال له غريغوريوس دوطورس وقد مرّ ذكرهُ مولودًا في مدينة كليرمونت وكانت عشيرته من ارباب ديوان السنت وخرج

منها قبله اساقفة عظام على كنيسة ليونيزة ثم صار هو ايضاً اسقفاً على طورس سنة ٥٧٣ م وهناه بذلك الشاعر فرتونات المقدّم ذكره ووصفه بكونه يضاهي القديسين الشهيرين امبروسيوس واوغسطينوس وكانت دائرة معارفه واسعة بالنسبة الى عصره وكتب تاريخ الافرنك واعتذر فيه بعبارات اوضح فيها قلّة معارفه في فن التاريخ وفي الحقيقة انه اثبت فيه كل ما سمعه واخذه من الاخبار من غير بحث ولا مناقشة وضمنه الامور الدينية والدنيوية من غير ان يكون على نسق واحد واعتمد فيه على اقوال فريجريد وعلى ما كان يعرفه هو من وقائع عصره وبالجملة فان له الفضل على الافرنج بهذا التاريخ الذي لولاه لما عرفوا منشأ وطنهم فهو الذي ارشدهم الى السطوات الحربيّة التي ترتب عليها تأسيس المملكة في زمن الملك قلوديس المؤسس الحقيقي للمملكة الفرنساوية التي تولاها سنة ٤٨١م وهو اول ملك تنصر من ملوك فرانسا وادخل بها الدين المسيحي على ما ذكرنا في ما تقدم واوقفهم على الانشقاق الذي افضى بها الى الانحطاط من ايام اولاد قلوبير الاول الى موت غنتران سنة ٥٩٣ م وهذا المؤلف نعم انه دون تيتلوه الّا انه اعلى من فريديغير الذي زاد في تاريخ الافرنك الى سنة ٦٤١ م وسلك في هذه الزيادة مسلك غريغوريوس دطورس المذكور من ركاكة التاليف وزاد عليه فيها يبوسة الالفاظ ثم اشتغل بعده اخرون بتكميلها فوصلوا بها الى تولية كرلوس الاكبر سنة ٧٧١م

ثم ان مركولف الافرنجي جمع من القوانين الفقهية ما يصلح لازالة جهل الكونتات وفقهاء المرونجيين فكان تاليف هذا الفقيه تكملة وشرحاً لقوانين المذبربرين

واما مهرة القرن الخامس ومشاهير احبار القرون التي بعده فكانوا من الادباء ارباب الانشا وقد كان في القرن المذكور ٢ من ارباب الدولة اقتفوا اثار قيقرون المورخ الروماني المشهور الذي سبق ذكره وبلينوس الشاب بذلوا الجهد في المراسلات الانشائيّة واعتنوا بنسجها على منوال الصناعة الادبية

لتشهد بعلو درجتهم في الادب احدهم الوالي سيماك الذي مرّ ذكرهُ في الكلام على خراب الهياكل الوثنية في الفصل السادس من البحث الاول وكان من كبار الفقهاء ويحامي عن عبادة الاوثان التي كانت اشرفت وقتئذٍ على الزوال ولم يبقَ من انشا آتهِ الا مكاتباتهِ والثاني سدنيوس ابوليناريوس الذي تقدم ذكرهُ في هذا الفصل مع الشعرا وكان فاضلاً وواليًا كالاول ولهُ رسائل مرغوبة بيّن فيها اخلاق بلاد الغالية حين أُغير عليها وحالة دولة الغوطيين بمدينة طولوزة والثالث قسيودور وزير الملك ثيودوريق وقد تقدم ذكرهُ في جملة مواطن من هذا الكتاب ايضًا ولهُ رسائل مشتملة على ١٢ مقالةً ذكر فيها جميع احكام الملك ثيودوريق المذكور

وقد استنبط ايضًا من مراسلات امناء الدين امورًا نافعة للتاريخ الاهلي ومن ذلك مكاتيب القديس جيروم لمشاهير عصرهِ فانهُ ترك بها ما يدل على سيرتهِ وما صدر عنهُ من المشاجرات الدينية ورسائلهُ هذه بلغت ٢٧٠ رسالةً وهي تذكر الافرنج برسائل سينيك (احد الفلاسفة الرومانيين وسوف يأتي ذكرهُ) الادبية التي ارسلها الى لوسليوس

وحيث كان لعلماء الدين اعتناء بهذه الرسائل فحافظوا على انشا آت علماء القسوس والاحبار التي تورثهم الفخر والى الآن توجد عند الافرنج الرسائل المرغوبة التي انشاها اوتيوس اسقف فيانه وويديير اسقف مدينة كهور ومع ذلك فلا شيء منها يضاهي رسائل البابا غريغوريوس الذي كان ذا حافظةٍ عجيبة

ثم انهُ يوجد من التاريخ ايضًا بيان منصب الامبراطوريتين الشرقية والغربية وجدول بوتنجير وهذان المولفان كانا في عصر واحد والاول لهُ شبه بالتقويمات وكان ظهورهُ في عهد ثاودوسيوس الثاني ولم يتعرض لاسماء الاشخاص واما الثاني فقد سمي جدول بوتنجير باسم مالكهِ لكون مولفهُ مجهولاً وهو عبارة عن خريطة الامبراطورية الرومانية ويظن انها أُلفت في سنة ٤٢٣ م

وحين جاءت الفلسفة من بلاد اليونانيين الى ايطاليا على ما اشرنا في الفصل الثالث من البحث الاول كانت علمًا مستكلاً بحيث اكتفى التلامذة الذين تعلموها في رومية بمجرد نشرها من دون ان يزيدوا عليها شيئًا فلم يكن لوقريس وقيقرون وسنيك (اللذان مرّ ذكرهما) ومرك اوريل (فلاسفة رومانيون) الاّ مفسرين لفلسفة ابيكوروس وافلاطون وارسطاليس وزنون (فلاسفة يونانيون)

ثم لما دخلت فلسفة افلاطون الجديدة وصل منها الى الرومانيين بعض معارف واول من نقل هذه الفلسفة الاسكندرانية اليهم باللسان اللاتيني هو ابوليا الافريقي غير انها كانت قليلة الرغبة في تلك البلاد وسائر بلاد المغرب فلم يحصل لها تقدم بل استقل بفهمها قسوس الكنيسة الرومانية فنبذوا منها ما لا يوافق الديانة المسيحية فالتامت بهِ وصار لها بذلك قانون وحدّ لا تتعدّاهُ وقبل العقل احكامها

وكان اكثر هولاء القسوس اعتناء بالتوفيق بين الفلسفة والدين المسيحي القديس اوغسطينوس وكان توقف مدةً طويلة بين مذهبي ارسطاليس وافلاطون ثم ترك مذهب اللاادرية وتبع فلسفة اسكندرية المنتخبة الاّ انهُ مع براعتهِ وجودة ذهنهِ لم يقدر على التباعد بالكلية عن راي القديس يوستينوس والقديس اكليمندوس حيث قال ان تلك الفلسفة الشرقية هي مما أُوحي بهِ الى موسى النبيّ

ثم من عهد ثاودوسيوس الاكبر الى زمن ثيودوريق الاستروغوطي لم يوجد من استحق لقب فيلسوف عند الرومانيين الاّ رجل واحد وهو الشاعر قلوديانوس ماميرتوس الوثني وقد مرّ ذكرهُ وكان خصمًا لفوستوس احد الفلاسفة الذي كان لا يقول الاّ بالمادة فحجهُ قلوديانوس وظفر بهِ

وكان اعظم الفلاسفة في قدماء اللاتينيين واخرهم احد الرومانيين الذين ابدوا حكومة فاتحي ايطاليا المتبربرين وجعلوها عظيمة المقدار رفيعة المنار وهو

رجل يقال له انقيوس منليوس طوركاتوس بوليسيوس ويقال له ايضاً بويس او بويسة وقد سبق ذكرهُ تخرج في الفلسفة الافلاطونية بمكتب اثينا ثم اخذ في تأييد فلسفة ارسطاليس وكانت مقبولةً منذ مدةٍ عند حماة الدين المسيحي وترجم علم حساب نوقماقوس وهندسة اقليدس وعدة رسائل لارشيميدس (١) وافلاطون ولاسيما رسائل ارسطو وله عدة شروح على فلسفة اسطاغيريس استعملها الناس وتداولوها في مكاتب الاجيال المتوسطة من وقت تاليفها وهذه الشروح الفها وهو في السجن ومن طالعها في اية جهةٍ من الجهات حملته على الهدوء والاستقامة والعيشة الطيبة وهي على منوال المخاطبات وكان هذا الفيلسوف من ارباب المشورة وتولى القنصلية مرتين وكان صاحب سرّ الملك ثيودوريق الاكبر ثم قتله هذا الملك لامرٍ اتهمهُ بهِ

ومن النحاة علماء اللغة اللاتينية مقروب اليوناني كان صاحبًا عند ثاودوسيوس وهنربوس وله ثلاثة مولفات احدها يقال له ساترنال وهو في تركيبهِ واسلوبهِ كتاليف اولوجيل المسمى نوي اتيك يشتمل على مخاطباتٍ يتحادث بها العلماء على المائدة في مسائل شتى ادبية وتاريخية وطبيعية وهو وان كان عظيم الموضوع الآن عباراتهِ ليست متناسقة على نمطٍ واحد بل هي خالية من الطلاوة والانسجام والثاني لتعبير رؤيةٍ راها اسقيبون ولعظم هذا الكتاب الذي هو من ملح اداب الفلسفة بقي محفوظًا للان والثالث الفهُ في الفرق بين لغتي اليونانيين واللاتينيين وما بينهما من المناسبة ولم يبقَ منهُ الى الآن الاّ قطعة

ومن النحاة ايضًا سرويوس وهو اشهر الذين شرحوا كتاب ورجيل من القدماء وهو كمقروب المذكور من رجال القرن الخامس وله رسائل عديدة في

(١) ارشيميدس المذكور مهندس شهير من مدينة سيراقوسه احدى بلاد نابلي قتلهُ احد الجنود الذين كانوا محاصرين هذه المدينة في سنة ١٢٨ م لكونهِ لم يجاوبهُ على خطابهِ اذ كان مديم الاشتغال باختراع الآلات الحربية وصنعها للذب عن تلك المدينة

النحو ورسالة في العروض

ومنهم ايضاً قسيودور وزير ثيودوريق وقد تقدم ذكرهُ لهُ كتاب في علم الخط على ما سبقت الاشارة اليهِ نفعهُ لا يساوي رغبة الناس فيهِ وكتاب في علم النحو لا وجود لهُ الآن عند الافرنج ورسالة تتعلق بالفنون السبعة العقلية وهي النحو والبيان والمنطق والحساب والهندسة والهيئة والموسيقى فاكثر من استنساخ هذه الرسالة العالِم القوبن وسوف ياتي ذكرهُ لتستعمل في المكاتب التي انشاها كرلوس الاكبر كما يُعلم ذلك من الفصل التالي وهي لم تزل باقية الى الآن

ومنهم ايضاً برسقيان القيساري ألّف رسالة في اجزاء الكلام الثمانية وهي في الحقيقة اكمل ما ادركهُ الافرنج من كتب النحو القديمة واعظم مولفاته

ومنهم الاسقف ايزيدورد وسويله الذي ذكر في ما سلف ايضاً ولهُ كتاب يسمّى كتاب الاصول شحن الجزئين الاولين منهُ بعلمي النحو والبيان وهو اخر المشاهير من قدماء النحويين

وفي عصر هذا الاسقف كانت العلوم آخذةً في الاضمحلال وكان اهل البراعة يرون ان فخرهم في احياها وتجديد ما اندرس منها ولكن كان هذا الاضمحلال يتزايد بالتدريج حتى عمّ معظم المعارف البشرية ومضت الامم السالفون ومحيت آثارهم التي كانوا ابقوها الى خلفائهم وذهبت بذهاب التمدن غير انهُ بقي بعض بقايا لم يلحقها ذلك مع بعض قواعد تمدنية ليبنى عليها ثانياً فكانت هذه البقايا الواهية واسطةً للقرون المستقبلة في احياء التمدن كما يتضح مما يأتي كيف انهم اهتموا في انقاذ ذواتهم من الخشونة والتبربر

وذلك انهُ كان لم يزل في بلاد الرومانيين وقت الاغارة الكبرى فنون ومكاتب وكتب ومباني شهيرة من الآثار القديمة فلما تخربت بلاد المغرب لم يبقَ من هذه النفائس الّا بعض بقايا قليلة حتى ان القسطنطينية كرسي القيصرية الشرقية التي كانت تفتخر بان سلطنة رومية تبقى فيها الى الابد لم يمكنها ان تحفظ هذا الميراث العظيم لان المكاتب العمومية التي زادها قسطنطين وخرطيانوس

واغرثيانوس ووقفا عليها اوقافًا ضعفت حمايتها في ايام الملوك المتبربرين وقلّ الطلبة بها حيث كان الفقر وتبدد الشمل واخطار الاسفار الطويلة كل ذلك يمنع الطلبة عن الذهاب اليها فانقطعت حينئذٍ الدروس من بعض تلك المكاتب وفي بعضها ضعفت حتى كادت تُنسَى

واما مكاتب اسبانيا وبريتانيا فانها لم تنجح اصلاً وكذلك قرطاجنة بعد ان كانت منبع الاداب الافريقية تسلطنت فيها الفلسفة السكولاستيكية اي المدارسية كما تغلب عليها الونداليون وفي سنة ٣٩٨م منع بعض المجامع الدينية ان يقرأ الاكليروس فيها كتب الاداب البشرية ومن المحقق ان هذه المدينة لمّا خربها المسلمون لم يلحق الاداب ضرر من ذلك

اما بلاد الغلية (اي فرانسا) التي قاسمت افريقية في فخار الاداب التي نشأت بها من اضمحلال الاداب اللاتينية كان فيها عدد وافر من المكاتب الشهيرة لكن لم يبقَ منها بعد الامبراطورية الرومانية الا مكتب ديانة والظاهر ان نهاية مدته كانت يوم الذي منع المجمع المذكور تعلُّم الآداب البشرية في مكتب رومية الذي استمر الى ايامه ولم يصل الى القرن الثامن من الميلاد

وقد ذكرنا في الفصل السادس من البحث الاول المتقدم ما اصاب المكاتب في القيصرية الشرقية فان مكتب اثينا الجديد امر بغلقه يوستنيانوس الاول ولم يبقَ هناك الا مكاتب الفقه والنحو واما مكتب اوكتوغونة الذي كان احدثه القيصر قسطنطين في القسطنطينية لم يمكنه ان يقوم بجبر الخلل الذي لحق بالعلوم من ابطال مكتب اثينا المذكور وكذلك مكاتب اسكندرية وانطاكية وبيروت وقيسارية فان ابوابها أُغلقت منذ رؤيتها لبيارق الاسلام ولم يبقَ هناك الا بعض معارف انتفع بها المسلمون من العلوم اليونانية التي حظيت بعد ذلك بالقبول عندهم

واما نقل العلوم بطريق المشافهة والرواية فانه اضمحل ايضًا وكاد ينعدم بالكلية في كل الجهات ولو بقيت كتب القدماء ربما كان يعود لما كان عليه

ولكن دهم الشرق والغرب خطب لم يسبق نظيرهُ وذلك ان نفائس الآداب آكلتها النيران وكان ذلك في مدة الاغارة الشديدة وتحريق المداين الذي اعدم بهِ كثير من نسخ المولفات اليونانية واللاتينية لانهُ كما فجأ بالقسطنطينية خطب اعدم منها مكتبة اوكتوغونة المذكورة وأكمل ذلك لاون اللوزرياني بايقاده الحريقة التي آكلت ما بقي من الكتب في سنة ٧٣٠م واصاب مكتب الاسكندرية الذي كان اسوأ حالاً من اوكتغونة حيث احرقهُ اولاً (على ما قالهُ بعض المولفين وأنكرهُ البعض الاخر) يوليوس قيصر الذي تولى المملكة الرومانية سنة ٤٧ ق م ثم نال ثانياً نصيبهُ لما امر ثاودوسيوس بتخريب الهياكل الوثنية ثم اباد العرب ما بقي فيهِ ايضاً وما دهم مكاتب الشام من يزيد بن عبد الملك الاموي بعد الذي كان اصابها قبلاً من ملوك العجم وما فعلهُ العرب ببلاد القيروان بافريقية من الخراب الواسع الذي بقيت العلوم النفيسة مدفونة بسببهِ تحت ردوم قرطاجنة وبونة وتغازة كذلك وقع ببلاد المغرب ايضاً فان الاقطار التي تغلب عليها الجرمانيون نعم ان مكاتب مدنها لم تنعدم دفعةً واحدة وانما تشتت ما فيها من الكتب ولزيادة الجهل في تلك الاعصار لم يقدر احد على اعادتها كما كانت وكان في هيكل ابولون بلاتين بمدينة رومية كتب اداب نفيسة لم تزل من عهد اوغسطوس قيصر الى ان احترقت في اخر القرن السادس واتّهم البابا غريغوريوس بذلك فقيل انهُ هو الذي اضاع هذه الوديعة التي جعلها العالِم وارون وقد مرّ ذكرهُ في اخر الفصل السادس من البحث الاول المتقدم في حرز اله الشعر عندهم واستودعهُ اياها

ولكن كان هناك بعض محلاتٍ لم يلحقها التلف وهي مكاتب الرهبان فقامت من مبدإ الامر بواسطة الاداب الدينية مقام المكاتب القديمة حيث انها ورثت عنها ما كان يقرأ فيها ومع ان القانون يومئذٍ لم يلزم الرهبان بقراءة الكتب المقدسة وكتب اباء الكنيسة لكن بطالتهم في الديورة عادت بالنفع على الاداب فكان يتعلم في كثير منها الفنون السبعة التي كانت تشمل جميع اصول

العلوم وكان جميعها لا يخلو عن مولفات اباء الكنيسة ليقراها الرهبان وصاروا يقرأون ايضاً مولفات الاداب البشرية التي كثيرًا ما ذكرها الآباء المذكورون وكان امهر الرهبان الملقب بعالِم الآثار القديمة يتكفل بحفظ الكتب ونسخها

ولم يكن علم الخط وقتئذٍ مقصورًا على تحسين الكتابة واتقانها بل يتضمن ايضًا ما يوضع على حواشي النسخ المكتوبة باليد من النقش والتصوير على ما سبقت الاشارة الى ذلك وكانوا في تلك الاعصر يرونهُ اعظم معارف الراهب الاديب وكان كثير الاستعمال

وذكر بعضهم ان البعض من الناسخين الجهلة كانوا يمحون من رقّ الغزال اشعار ورجيل وخطب قيقرون بخلاً منهم ان يشتروا رقًّا جديدًا ليكتبوا فيه بعض الصلوات وغيرها كما ان البعض من الرهبان كان يفعل عكس ذلك فلما يأمرهُ الرئيس بنسخ اشياء يعيّنها له من الامور الدينية كالمواعظ وغيرها كان يغشّ رئيسهُ كونهُ لامعرفة له بالاداب وينقل من الكتب القديمة ما يستحسنهُ من الاشعار والآداب الفصيحة

وكانت هذه الكتب جميعها دينية ودنيوية مختلطة ببعضها من غير تمييز بينها في مكاتب الديورة وهي تحت رعاية الدين وحمايتهِ الى ان أُخرجت عند احياء العلوم والمعارف لكن قد اندرس منها عدة عظيمة بتوالي الازمنة وما بقي كذلك اشرف على التلف فلم يبقَ منها على رونقهِ الاول الّا القليل قال بعض المولفين ما اعظم هذه الخسارة لولا انهُ بقي هناك ما يجبرها كاهرام مصر وهيكل البرثينون وزهرة ميد يسيس ونحو ذلك

فهذه هي حالة العلوم والفنون والاداب الى سنة ٧٧١ م عندما تولى فرانسا كرلوس مانوس اي الاكبر الآتي ذكرهُ وهو اول من لبس التاج الامبراطوري ايضًا بعد القياصرة الرومانيين القدماء

الفصل الخامس

في حالة العلوم والمعارف منذ تولية شرلمانيا يعني كرلوس الاكبر الامبراطورية الرومانية الى حين وفاته وبهذه التولية يبتدي المورخون بالفصل الثاني من القسم الثاني من التاريخ العمومي المسمى بالقرون الوسطى

هذا القيصر الروماني الجديد هو ابن بيبين لبريف اي القصير اول ملوك الدولة الكرلونجية على فرانسا وتعتبرهُ الكنيسة الرومانية قديساً ويراهُ الفرنساويون اعظم ملوكهم ويعدُّهُ الالمانيون ابن وطنهم والايطاليون امبراطورهم لان البابا لاون سماهُ امبراطور الرومانيين عندما كان في رومية وهو في الكنيسة يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م وقد كان مشغولاً في الصلاة فاخذ البابا المذكور تاجاً من الذهب ووضعهُ على راسهِ وقال اللهمَّ ادم وانصر شرلمانيا قيصر الرومانيين(١)

(١) هذا التاج اول تاج لبسهُ ملوك اوروبا بعد القياصرة الرومانيين وتلاه تاج المملكة الانكليزية في سنة ٨٢٧ ثم تاج المانيا وفرانسا سنة ٨٤٣ ثم التاج اللومبردي سنة ٨٥٣ ثم التاج البيرغوندي سنة ٨٨٨ ثم المجرسي والاسبانيولي والبولوني سنة ١٠٠٠ ثم الدانيماركي والاسوجي سنة ١٠١٥ ثم النوروجي سنة ١٠٢٢ ثم السيسيلي سنة ١١٣٠ ثم البوهيمي وتاج قبرس واورشليم والتاج البورتغالي سنة ١١٣٩ ثم البروسياني سنة ١٧٠١ والبيامونتي سنة ١٧٢٠ والرومي سنة ١٧٢١ والتاج السيسيلي الجديد سنة ١٧٣٩ والنمساوي والبافاري سنة ١٨٠٤ والورتمبرجي سنة ١٨٠٥ والسكسوني سنة ١٨٠٦ ثم الهانوفري سنة ١٨١٤ والهولاندي سنة ١٨١٥ والبلجيكي سنة ١٨٣١ واليوناني سنة ١٨٣٢ والايطالياني سنة ١٨٦١ والالماني سنة ١٨٧١ م

وكان كرلوس المشار اليه اعظم الملوك الذين ظهروا لجد ذلك الوقت من سائر ملوك فانجي هذه البلاد من الجرمانيين وبه ارتقت فرانسا الى اعلا درجات الفخر والعز والكمال الذي لم تنله مرةً اخرى بعد ذلك الا في مدة حكم نابوليون الاول مدّةً قليلة من الزمن وشهرته العظيمة اوجبت الملوك المهابة البعيدة عن مملكته ان تودّ معاهدته حتى ان اشجع الخلفاء الاسلاميين الذي هو هرون الرشيد العباسيّ احب ان يبقى معهُ على المعاهدة فهاداه بمفاتيح القبر المقدس وكتب اليه ان يعتبر هذا القبر من جملة حكومته وكان من جملة الهدية فيل تعجب منه الافرنج وساعة كبيرة دقاقة مصنوعة مع غاية الاتقان تعرف منها الاوقات بواسطة رنين كراتٍ تتساقط على التعاقب في اناء من النحاس وفيها ١٢ تمثالاً على هيئة فرسان لكلّ واحدٍ باب يفتحهُ ويغلقهُ عند تمام الرنة وهي اول ما دخل فرانسا من هذا النوع ومع الهدية ايضاً قرود من بلاد بنغالة وانواع عطريات من بلاد العرب حكى بعض المورخين ان علماء الفرنساوية تعجبوا من انواع الاقمشة التي كانت بجملة الهدية وظنوها من صناعة السحر ولو وافق الملك ارادتهم لكانوا خربوا الساعة ايضاً لكي يفحصوا عن الحركة الشيطانية التي زعموا بانها هي التي تديرها

ومنذ تولى هذا الملك تخت المملكة الفرنساوية شرع في ترتيب قوانينه الاهلية والاكليريكية والادبية فانشا كثيراً من القوانين والاحكام المشهورة عندهم باسم كبيتولير وكان تاليفها بحضور جمعيات الملة وكان يدبر آراء هذه الجمعيات بنفسه وتحت رياسته ويدعو الاحرار المسمّين اريمانيين للجلوس بجانب الاشراف والقسوس وكان اغلب قوانينه في الاحكام الدينية وتعيين الجرائم والخراج والخدم العسكرية وعقوبات مرتكبي الجرائم والذنوب

وكان اغلب القصاص في مادة العقوبات ربما عوض بالدراهم واما طريقة فحص الدعاوي بالامتحانات الشرعية والحكم المسمّى قضاء الله فبقيا في هذه القوانين على ما كانا عليه اولاً ولم يتعرض هذا الامبراطور لنسخها من احكام

الجنايات بل حكم بالسجن والنفي على من امتنع ان يكفر جناية ببذل مقدار معين من الاموال ثم صارت الدية من الامور الواجبة ايضاً لكنه جدد نوعاً اخر من الحكام سماهم الرسل السلطانية فكانوا يمرون بالاقاليم في كل ٣ اشهر ليقيموا العدل عوضاً عنه والقصد من ترتيب هولاء المفتشين كان لكي يتحقق بواسطتهم ان كانت نوابه مستمرين على القيام بواجباتهم ام لا

وكان من جملة تلك الامتحانات المذكورة الحكم الذي يقال له حكم الصليب . وكيفيته تُعرف من صورة دعوى عُملت بحضرة هذا الامبراطور منها يتبين كيف كان تدبير القضايا والاحكام الشرعية في تلك الاعصر بل وفي زمن هذا الملك العظيم وذلك انه في سنة ٧٧٥ م حصلت منازعة بين اسقف مدينة باريس وبين القديس دينيس في شان دير صغير يدّعي كل منهما انه ملكهُ ومع ان كلاً من الخصمين اتى بوثايقه التي تشهد له وتثبت دعواهُ فلم يلتفت الى ذلك بل احيلت دعواهما الى حكم الصليب فقدم كل من المتخاصمين نائباً ليقف هذان النائبان امام الصليب الذي في محراب الكنيسة واذرعتهما ممدودة فكل من تعب منهما اولاً وترك الهيئة التي هو عليها ضاع حق موكله وقد اتفق ان نائب الاسقف كان ضعيفاً عن نائب القديس دينيس فثبت الحق للقديس المذكور

وكذلك لما كانت من الامور المشكلة عندهم وقتئذٍ معرفة ارث اولاد الرجل الذي يموت في حياة ابيهِ من مخلفات جدهم المذكور هل يكون كاولاد الصلب يعني يرثون مثل اعمامهم سواء ام لا فقد وقع لهذا الامبراطور انه عندما انحط رأي الجمهور في المشورة على تفويض هذا الامر للقاضي استحسن هو ان يُحكَم في هذه القضية بالمحاربة بين شخصين نائبين عن كلٍّ من الفريقين فاتفق ان شخصاً كان يحارب عن اولاد رجل ميتٍ من هذا القبيل انتصر على الثاني فحُكم من ذلك الوقت ان الحفدة يقاسمون اعمامهم في تركة جدهم

غير ان هذا الامبراطور قد بذل جهدهُ في حماية الاداب وقد ارشدهُ

الدين المسيحي الى الطريق التي ينبغي ان يسلكها عظماء الرجال وكذلك جميع الرجال الذين اشتهروا في ذلك العصر بمؤلفاتهم ابتدأوا في تلك المؤلفات وانهوها في الكنائس والديورة ثم جمع الملك ما كان متفرقًا من بقايا التمدن القديم ليوفق بينهُ وبين التمدن الجديد وكما هي الاداب مارسها بنفسهِ واراد ان اولادهُ ذكورًا واناثًا ينشأون على تعلُّم الآداب من غير ان يُهمل في تربية الذكور التربية العسكرية وفي تربية الاناث التربية المنزلية المختصة بالنساء فلولا هذا الامبراطور لم تخرج اوروبا من ظلام الجهل

ولما ذهب الى ما وراء جبال الالب ورأى بايطاليا اثارًا عظيمة من بقايا التمدن الروماني جلب منها الى فرانسا عدَّةً من معلمي النحو والحساب فعلّموا الاهالي مبادي العلوم وجعلوهم مستعدين الى ما هو اعظم وكان من جملةُ هولاء المعلمين رجلان يقال لاحدهما بطرس دوبيزه والثاني القوين دويورك الحبر الراهب الانكليزي الذي مرّ ذكرهُ في الفصل المتقدم ولهذان المعلمان الفضل بكونهما علّما هذا الملك مبادي العلوم مع انهُ كان وقتئذٍ ابن ٣٢ سنة ولا يعرف القراءة كما كان كذلك ثيودوريق الاكبر الاستروغوطي اول ملوك ايطاليا من الجرمانيين الذي مرّ ذكرهُ وقد مكث مدَّة عمرهِ لا يعرف يكتب اسمهُ اما هذا الملك الافرنجي فكان اكثر تجلدًا وصبرًا من ذلك الغوطي فانهُ قد بذل همتهُ لكي يعود صوتهُ التودسكي المزعج في الهجاء على قراءة المقاطع اللاتينية واراد ان يتعلّم الكتابة ايضًا لكنهُ لم ينجح في ذلك لان يدهُ كانت يابسة من كثرة استعمال السلاح وتعلم الاجرومية على بطرس دوبيزة المذكور معلم مكتب باديا وتعلم اللسان اللاتيني كلسانهِ الاصلي وقال اخرون انهُ لم يكن يعرف الا اللسان اليوناني وتعلم مبادي البيان والمطق واللاهوت وقواعد دوران الافلاك وكل ما يتعلق بالاجرام السماوية من القديس القوين دويورك المقدّم ذكرهُ الذي بعد ان كان شماسًا من الانكلسكسون صار مشيرًا في المقاصد العظيمة عند هذا الامبراطور

وكان هذا القديس متعلمًا في مكتب يورك الذي قاسم مكتب كنتربري في المعارف التي نقلها الى انكلترة تلاميذ القديس اوغستينوس وتخرج على ايغبير الذي كان مطرانًا وملكًا وورث بواسطة ذلك معارف يدا المحترم واقامة ايغبير المذكور على مكتبهِ وكان يأتي للاستفادة من دروسهِ اهل فرانسا وجرمانيا فضلاً عن اهل جزائر بريطانيا وكان يعتقد في نفسهِ انهُ وجد على الارض ليوسع بعلمهِ دائرة الديانة المسيحية وكان اجتماعهُ مع بطرس دوبيزه في مدينة بارما او باديا في سنة ٧٨٠ م فلما ذهب شرلمانيا الى رومية لاجل بعض مقاصدهِ ترجاهُ ان يصحبهُ ولما جاء من بلاد بريطانيا الكبرى الى بلاد الغلية (فرانسا) لم يأتِ وحدهُ بل نزل معهُ على سواحل فرانسا عدة تلامذة من مكتب يورك

ويمكن ان يُعدَّ ممن جاء معهُ دونغال الخلوتي الذي أُنيط بعد القوين ببيان الحوادث السماوية الكبيرة والاخبار باوقاتها في ديوان الملك وورجيل الارلندي لانهُ كان يفوق اهل عصرهِ في علم الفلك (التنجيم) واكليمندوس الارلندي الذي اعاد الى ايطاليا المعارف التي كانت اخذتها منها فرانسا ولدرادة الذي اخذ كرسي اسقفية مدينة ليون واشتغل فيها بنشر الآداب وتيودلف الذي انعم عليهِ كرلوس الاكبر باسقفية اورليان وورجيل الذي اتحفهُ ايضًا باسقفية سلزبورغ فازال ما انتشر ثانيًا في بلاد كرنتيا من ظلمة عبادة الاوثان

وكان كرلوس الاكبر يكافي الذين جاءوا الى فرانسا بالعلوم والمعارف بما يليق من التشريفات والاموال بل كان ينعم على كثيرين من علماء انكلترة وايطاليا وعلى بولس ورنفريد المورخ الذي كان خارجًا عن اطاعتهِ وحكم عليهِ القضاة بقلع عينيهِ وقطع يديهِ فقال الملك اذا فعلنا ذلك من اين نوجد يدًا مثل يدهِ اكيدةً في كتابة التاريخ ثم انعم عليهِ. فاذا كان هذا فعلهُ مع ورنفريد الذي كان يعصاهُ فما بالك بالاجانب الذين تركوا اوطانهم رغبةً في مصاحبتهِ فلا عجب بكونهِ كافا القوين دويورك على معارفهِ باعظم اقطاعات المملكة وولاه

رياسة عدّة من الديورة اما هويورك المذكور فانهُ اوصى قبل موتهِ بثروتهِ كلها لاعلم تلامذتهِ

فهذه التشريفات التي حظي بها هولاء الاجانب من هذا الملك كانت موثرة في ايقاظ الفرنك الى التولع بالاداب وترغيبهم فيها اكثر من تعليمهم دروسهم ولاسيا الذين كانت رتبتهم تقتضي مصاحبة الملك كزوج برته وعاشق ايما (ولعل احدهما يقال لهُ انجليبرت والثاني يقال لهُ ايجنهارد وهو المورخ الذي كتب مناقب كرلوس وتاريخهُ وسوف يأتي ذكرهما) اللذين حمتهما معارفهما من المواخذة على خرافاتهما المتعلقة بامور العشق اخيرًا آل امر زوج برته بان ذهب الى دير القديس وندريل وعاشق ايما الى دير القديس ركيير وكانت معرفة احدهما في الامور السياسية اكثر من معرفتهِ بصناعة الانشا ولذلك اظهر في بعض انشاآتهِ محبتهِ للشعر فوق قوتهِ فيهِ واما الاخر فكان افصح اهل عصرهِ

ولا يُدرى هل كرلوس الاكبر او غيرهُ الذي خطر ببالهِ ان يجمع فروع العلوم على اختلاف انواعها في دائرةٍ واحدة ليحل فيها الانتعاش والنشاط وانما هذه الفكرة التي كان بها فخر اول الدولة اللاجيدية يظهر انها كانت قائمةً ايضًا بجمعية العلماء التي حدثت تحت حماية ملك الفرنج وكان اربابها جميع المشاهير من ادباء ذلك العصر كما يوخذ من الاسماء الرمزية التي كان يطلقها ادباء السراية على بعضهم ففي مراسلاتهم واشعارهم غيّر هذا الملك اسمهُ المتهير الذي هو كرل وسمّي نفسهُ داود لانهُ كان شهيرًا بالسطوات الحربية والاغاني الشعرية وكنوا عن الاميرة روترودة باسم دلية وعن احبار الرهبان مثل القوين وانجليبرت ونيودلف وركولف وارنون وويزون وفريدجير . بالبينوس واوميروس ونندار ودمتياس واكيلا وكنديد ونثنيئيل وقد كتب القوين في سنة ٧٩٦ م الى اركولف انا كالاب المحروم من اولادهِ فان دمتياس في سكس واوميروس في ايطاليا وكنديد في بريطانيا ومرتين في دير القديس جوس وليس عندي خبر محقق عن ميزوس الذي مرض في دير ماري مرتين . قال

بعض المؤلفين يقال ان كرلوس الاكبر هو الذي احدث مجمع العلماء او مكتب باريس والحال ان هذا المجمع هو اول اختراعات الملوك تشرف بدخوله تحت حماية هذا الملك الذي لعلمه وديانته اراد ان يجعل في كل كنيسةٍ وكل ديرٍ مكتباً لان مواضع التعليم القديمة كان قد تلاشى اغلبها بالكلية وكان السبب في هذه الملاشاة هو ان كرلوس مرتيل الذي حكم فرانسا بعد موت تيدري الرابع من ملوك الدولة المروفجية سنة ٧٣٧م (ومعنى مرتيل المطرقة) جرد الديورة دون غيرها من الاملاك وفرقها على العساكر فتلاشى بذلك التعليم واضمحلت العلوم وفضلاً عن انقطاع التعليم بالمكاتب ضاع مقدار عظيم من ودائع المعارف في تلك الغارة التي كانت مشومةً على التمدن حيث تخربت المكاتب وبقلة الكتب تعطل احياء الاداب حتى انه في بعض الديورة كدير القديس وندريل صار محل التعليم مأوى لكلاب الصيد المعدة لحظوظ الحربيين الذين تغلبوا على الديورة وبعد ان كان التبربر يتقي ابواب الديورة ويخشى منازل القسوس كسر تلك الابواب وظهر منه انه يتغلب على جميع الصعوبات

ولذلك بعد ان نظم القوين التعليم الذي كان في الديورة ببلاد فرانسا وانشا كثيرًا من المكاتب العمومية التي كان اعظمها مكتب السراية الذي علم فيه القوين ذاته اولاد الملوك واولاد الاعيان الاقسام السبعة من الفنون العقلية ثم قام مكانه اكليمندوس الارلندي وكان في ذلك الوقت هبريا في اخر مشتغلاً بهذه الوظيفة في سراية باديا والظاهر ان الترتيب الاصلي كان مخصرًا في هذين المكتبين اللذين كانا معدين لتعليم العموم وضع حينئذٍ شرلمانيا القانون المشهور الذي يُعتبر بانه الاساس لاصلاح اداب القرن الثامن وهذه صورته

قد وقعت المفاوضة بيننا وبين اصحابنا فرأينا ان المصلحة تقتضي بان الكنائس الاسقفية والديورة التي هي تحت نظارتنا تبذل الجهد في تعليم الاداب ليتعلم فيها كل من وفقه الله تعالى للتعليم على حسب طاقته فيجب على كل من اراد ان يكسب رضا مولاه بسلوكهِ سبل الاستقامة مدة حياته ان يرضيه ايضاً

بكونهِ لا يهمل في شيء مما نكون بهِ استقامة لسانهِ وقد اطلعنا على مراسلات عدّة ديورة فوجدناها مستقيمة المعنى لكنها يابسة العبارة فخشينا ان يترتب على قلة المعرفة بصناعة الكتابة ان لايكون في الناس معرفة كافية في فهم الكتب المقدسة فكان ذلك موجبًا لان نشير عليكم بانكم زيادة على عدم الاهمال في تعلّم الاداب تجتهدون في طلبها غاية الاجتهاد حتى يتيسر لكم التبحر في فهم معاني الكتب المقدسة المذكورة فعليكم ان تنتخبوا لذلك من كان جامعًا بين الرغبة والفطنة في التعلم ومتولعًا بان يعلّم غيرهُ اذا تعلم اذ بذلك تستحقون عندنا الحظوة والقبول

ثم بعد ان ارسلت من الجمعية العمومية هذه الخلاصة الى المطارنة ورؤساء الديورة الكبار بامر يتضمن انهم يرسلون منها نسخًا الى جميع الاساقفة والديورة بنحو سنتين ظهر قانون اخر باحداث مكاتب في جميع الجهات لكي يتعلم فيها المبتدئون القراءة والترتيل في الكنائس والحساب والنحو وامر فيهِ الملك امرًا قطعيًا وكان ترتيبهُ في مدينة اكسيلا شبيلا وامر ايضًا ان يُعطى للصبيان كتب دينية صحيحة مضبوطة محررة ولهذا الغرض امر بتاليف مجموع في المواعظ الدينية ولما اطلع عليهِ وراى ما فيهِ من العبارات السلسة الرائقة والمعاني المستقيمة فرح فرحًا عظيمًا حيث زال من مملكتهِ ما كان من اختلال المعاني ويبس العبارات ومخالفة صناعة النحو وكان مولف هذا المجموع رجل يقال لهُ بولس دياكر ثم ارسل الى جميع الكنائس

وكذلك ابن شرلمان الذي كان ملكًا على اكتينا بذل في مساعدة ابيهِ الهمة الزائدة على مقاصدهِ وجلب الى الاقاليم الجنوبية عدّة ممن يعلم القراءة والترتيل وعلماء لتعليم العلوم الدينية والدنيوية وحصل لهُ السرور فيما بعد بتعليم اولادهِ تحت ملاحظة الفنون العقلية والقوانين الاهلية

وقد وافقهُ ايضًا على مقاصدهِ كثيرون من الاساقفة منهم ليدرادة مطران مدينة ليون الذي تقدم ذكرهُ فانهُ انشا في هذه المدينة مكاتب لتعليم الترتيل

ورغب الناس في علم الخط ومنهم تيودلف اسقف اورليان فانهُ بذل جهدهُ في نجاح المكاتب الاربعة الكبيرة التي في اسقفيتهِ احدها سورلوار في مدينة فلوري والثاني في دير القديس اتيان والاثنان الاخران بقرب كنيستي القديس كروا باورليان والقديس ليغرد دومون وارسل قانونًا الى نصارى ابرشيتهِ في سنة ٧٩٧م «و نصهُ» «يجب على القسوس ان يتخذوا مكاتب في جميع القصبات والقرى واذا جاء اليهم احد من المسيحيين أيًّا ما كان يريد تعليم ولدهِ القراءة فلا يردونهُ بل يبادرون لقبول ولدهِ وتعليمهِ حسبما تقتضيهِ المحبة الاخوية وينبغي لهم ان لا ينسوا ما هو مقرر من ان المتعلِّم يحصل لهُ نور كنور النجوم في السماء واما نور مَن يعلِّم الناس العدل والانصاف فهو كنور الكواكب في العالم فيجب عليهم حينئذٍ ان يعلموا الاولاد ولا يطلبوا منهم مكافاة على التعليم ولا يقبلوا منهم شيئًا الاَّ اذا كان على سبيل الهدية من اهلهم بالطوع والاختيار شكرًا لهم على صنيعهم انتهى

وكذلك اعتنى باقي الاساقفة في شبان اسقفياتهم ومجمع اساقفة مهانسة فانهُ بيَّن للقسوس واجباتهم واوصاهم من جملة ذلك على الصلاة والتعليم ليمكنهم ان يكتسبوا معارف كافية ينشرونها بين الناس وان يدعوا الاهالي الى ارسال اولادهم الى مكتب الدير او مكتب كنيسة الخوري ليتعلموا فيهِ الدين والعقائد بلغتهم الاصلية اذا لم يرسلهم اهلهم من تلقاء انفسهم وكذلك كان احبار بلاد سلتيكه واكتينا مهتمين كهذا الاهتمام في تعليم الدين للاهالي حيث امروا الاساقفة ان يترجموا باللسان الروماني والتوتوني اي الجرماني كتبًا تشتمل على العقائد الدينية والاداب الانجيلية

ويستبين من ذلك ان رعايا كرلوس كانوا يتكلمون بلسانين احدهما الجرماني وهو لسان الامة الحاكمة والثاني اللسان الروماني وهو لسان الامة المتمدنة وكان قصد كرلوس المذكور ان ينشر اللسان التوتوني في اقاليمهِ لكنهُ تحقق ان ذلك يؤخر التمدُّن ولذلك لم تكمل الجرومية التودسكية اي الجرمانية

التي كان شرع فيها بنفسهِ وكان يقوي اللسان الروماني اللسان اللاتيني الذي هو لسان القسوس وكان سبب دوامهِ واسطتين عظيمتين وهما التعليم والتبشير

ولما شرع كرلوس في احياء الاداب كانت ديورة الانكلسكسون قد شرعت في ردّ ما اخذتهُ من الارض القارة من الاعانات على تحصيل التمدن ويمكن ان يعتبر القديس بونيفاسيوس الآتي ذكرهُ كانهُ مبشر بقدوم القوين الذي مرّ ذكرهُ لانهُ اعاد الى مدينة اوترخت كرسيها الاسقفي ومكتبها الذي جلب اليهِ تلميذهُ اغرغوار (غريغوريوس) كثيرًا من الفرنج والافريزوتيين والبواريين والسوابيين والانكليز بل ومن متبربري سائر الملل لياخذوا عنهُ العلوم والمعارف

وبونيفاسيوس المذكور هو الذي اسس في سنة ٧٤٤ م دير فولدة الذي انتشرت منهُ العقائد الدينية والاداب في جرمانيا وباقي البلاد التي في شمال اوروبا ثم ان كرلوس اعطى بونيفاسيوس هذا دير ماري مرتين بمدينة طورس في سنة ٧٩٦ م حيث ان بلاد الغلية القديمة وبلاد جرمانيا كانت محتاجة للتعاليم الدينية ومن ثم علّم هذا القديس رهبان الدير المذكور على الاخلاق الحميدة ومحبة الانتظام والشغف بالعلم بعد ان كانوا موصوفين بالشره والنهم والسكر مثل رهبان مدينة فلوري الذين وصفهم البابا ويتليان في القرن الثامن بمثل ذلك ولكثرة اموال هذا الدير جعلهُ اهلهُ بيتًا للضيافة يأوي اليهِ المسافرون ومكتبًا للرهبان

ثم تخرج على القوين وتلميذهِ سيجولف الآتي ذكرهُ جماعة من المشاهير وعلماء الرهبان ومن اعظم الذين تخرجوا عليهِ في مدينة طورس روبان مور الذي جُعل معلمًا في مكتب فولد فاتسعت دائرة المعارف في هذا المكتب بما اكتسبهُ من معارف الانكلسكسون وخرج منهُ كغيرهِ من المكاتب علماء ذهبوا الى ديورة جرمانيا وهي رشينو وهرسوجة واوستبروي وتخصص مكتب اوستبروي هذا منذ انشائهِ بتعليم اللسان اليوناني في سنة ٨٠٤ م لكنهُ لم يصل الى درجة

المكتب السكسوني الذي انشاهُ دير كوربها وسماهُ باسمهِ في عهد خليفة شرلمانيا وكان الغرض منهُ تمدن بلاد سكس ومن جملة مؤسسيهِ القديس انشير الذي تلقب رسول الشمال ومنهم ايضًا بشارزدبير الذي بذل جهدهُ في اثبات الاستحالة وقيل في القرن السادس ان هذه العقيدة من مخترعاته

وكما ان الرومانيين قد جعلوا في الاقاليم التي كانوا يفتحونها قبائل ومكاتب عوضًا عن المحافظين والزموا بذلك المغلوبين ان يتعلموا قوانينهم واخلاقهم ولغتهم بلا اكراه ولا اجبار هكذا شرلمانيا كان يجعل في فتوحاتهِ ديورة صارت مدنًا في ما بعد ومكاتب نشرت بين الناس الدين المسيحي والمعارف

ثم ان الاقاليم القديمة من حكومة الفرنج وكذلك البلاد المفتوحة طلبت ان تستنير بانوار المعارف المصاحبة دائمًا للدين المسيحي فانتشرت تلك المعارف بين اهل المملكة والقسوس فقط وكانت الديورة منبع ظهورها وانتشارها فلزم حينئذٍ ان تعود عقول الناس الى نشاطها الاول الذي كان قد انعدم في بعض الديورة ولم ينتشر الى ذلك الوقت في اغلبها فانعشها القويين في دير القديس مرتين ودير فريير وماري لوب وتيريس وغيرها من الديورة التي دخل بعضها تحت نظارتهِ تدريجًا والبعض دفعةً واحدة

ثم نقل الاحبار ورؤساء الديورة الذين تخرجوا في مكتب السراية الى ابرشياتهم وديورتهم المعارف التي بها تهذيب الاخلاق واصلاح العقول مما تلقوهُ عن معلمهم القويين ومنهم لدرادة اسقف ليون الذي مرَّ ذكرهُ فانهُ حث على التعليم الذي كان مهملاً منذ مدةٍ طويلة عند رهبان جزيرة برية ومنهم تيودلف اسقف اورليان فانهُ اسس ثلاثة مكاتب كبيرة في ابرشيتهِ التي باورليان واكتسب شهرةً عظيمة في مكتب فلوري حيث كان تلامذتهُ في قليلٍ من الزمان تبلغ في العدد الوفًا واما دير ماري وندريل الذي كان متروكًا للعامة وصار محلاً للصيد والقنص انتقل اولاً من هذا الابتذال جروولد رئيس الرهبان ثم بعد ذلك شحنهُ ايجنهارد وقد سبق ذكرهُ بالكتب الثمينة لما اعتزل بهِ واثرهُ

على حظوظ الديوان وديره وعجيه وكذلك انجيزا الذي هو اول من جمع في ديره قوانين شرلمانيا واما دير ماري كيير الذي تربى فيه اواخر الامراء المرونجيين استمر على حالته حيث تربى فيه اولاد الكونتات والدوكات بل واولاد الملوك وصار من اعظم المكاتب في المعارف لما جلب اليه انجليبرت وقد سبق ذكره ٢٠٠ مجلد اشتراها بمبلغ جسيم في سفره الى ايطاليا وقد اقتدى باهل الديورة المذكورة جمعيات اخرى حيث تجدد في القرن الذي بعد قرن شرلمانيا مكاتب بمدينة لوكسولية وسنت غال وسيتو وبروم وستوبلو وغيرها وكان القصد بها مدافعة التبربر الذي كان يومئذ ينتشر في كل الجهات

وكانت اغارات العرب سببًا في انعدام اصول التعليمات الادبية من جنوب فرانسا كما اعدمت منها ايضًا فنون الصنائع والزراعة فمن ثم لم يوجد في ما وراء نهر لوار شيء من الاثار التاريخية العظيمة ولا من وقائع مواساك ما يتعلق بالقرن (٨ و٩ و١٠)

وحيث ان القسوس هم الذين يحفظون ودائع العلوم وينشرونها بين الناس كان اعظم مقاصدهم بذلك تفسير الكتب المقدسة تفسيرًا واضحًا بينًا وحفظ الاحاديث الدينية ولاجل تحصيل هذا الغرض كانت مبادي اغلب العلوم البشرية لا بدّ من اعانتها في ذلك فارسوها حينئذٍ في جميع المكاتب على طريقةٍ واحدة دائمًا حيث ان المقصود في كل الجهات كان شيئًا واحدًا ولذلك كانوا يريدون انهم لا يصلون اليه بطرقٍ مختلفة لان ذلك العصر لم يكن قابلاً للتقدم في العلوم وكان لا بد للتعليم من محاماة الحكم

ثم ان فلسفة ارسطاليس التي تزينت وقتئذٍ باشكالٍ نصرانية واقرّها مشاهير الاحبار المسيحية صار فيها نوع من الصحة المعتبرة شرعًا وتسلطنت في المكاتب مدةً طويلة وكان في منتصف القرن السادس اودع قسيودور وزير ثيودوريق الاستروغوطي في رسالةٍ ألفها علومهُ التي هي الفنون السبعة العقلية

على ما سبق ايضاحه في الفصل السابق وهذه العلوم المعدة للتدريس انقسمت في ما بعد الى قسمين يقال لاحدها ترويوم يعني الثلاثي لانه يحتوي على الثلاث فروع الاولية التي هي النحو والبيان والمنطق وللاخر كدرويوم يعني الرباعي لاشتمالهِ على الفروع الاربعة الباقية وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك وبادرت ديورة ايطاليا لاستعمالها من سالف الزمان ونقلها رسل ماري اوغسطين الى انكلترة في نفس الزمن الذي اشهر فيهِ ايزيدور دوسويله الذي سبق ذكره مرارًا لمكاتب اسبانيا رسائل متنوعة مبنية على الفنون المذكورة والظاهر ان بيدا المحترم رئيس دير ورموت الذي مرّ ذكره ايضًا لم يخرج عن الدائرة التي اودع فيها اسلافهُ جميع العلوم ولما نقل القوين الى فرانسا ما كان نشرهُ في انكلترة من المعارف والقواعد على ما تقدم ايضاحهُ وضع ايضًا ما كان الزم بهِ قسيودور المذكور رهبانه من الاصول على نسق المخاطبات ليستعملها تلميذهُ شرلمانيا وحاشيته ومكاتبه

وقد ذكرنا في ما سبق ايضًا ان قسيودور هذا مع انه كان وزيرًا كما تقدم قد اعتنى اعتناء يظهر الآن انه من داب الاطفال وهو تاليف رسالة في علم الخط على انه في الواقع كان الوقت محتاجًا لذلك لاجل ازالة عيوب الخط لانه كان يخشى منها تغيير اللسان اللاتيني وربما كان ينشأ عنها افساد معاني الكتب المقدسة لانه لما كان لا وجود للمطبعة في ذلك العصر كانت مولفات المولفين التي حازوا بها الشرف والفخار تحت قبضة النساخ الذين لقلة ضبط اياديهم في الكتابة كان يمكن ان تشوه تلك التآليف بالنقص والزيادة فمن ثم كانت صناعة الكتابة من المصالح العامة المهمّة التي تستدعي التفات الحكام اليها فلذا رأى شرلمانيا انهُ لا بد له من ان يحمل الكونتات والاساقفة ورؤساء الديورة على الالتفات الى النوطيراي المنوطين بكتابة السجلاّت وتقييد الحجج والى القسوس الذين من وظيفتهم تقييد الامور الكنائسية والى الرهبان المنوطين بحفظ المولفات الدينية والبشرية لمن بعدهم لكن لما كان لا يكفي لذلك مجرد الضبط

في كتابة الكلمات بل كان يلزم له ايضًا ان تصير الكتب سهلة على القارئين بان يرجعوا الى كتابة المتون اللاتينية بالحروف الرومانية التي كانت مهجورةً منذ مدة طويلة في فرانسا باستعمال حروف الهجاء التوتونية المرونجية كما كانت مهجورةً ايضًا في انكلترة وايطاليا باستعمال الحروف السكسونية واللنبردية اوصى شرلمان القسوس من غير ان يجعل لنفسهِ مدخلية في ما كان واقعًا من المشاجرات في شان الحروف التوتونية والرومانية ان يبذلوا وسعهم في الخط الذي جعلهُ القوين واعلم روساء الديورة بانهُ امرٌ واجبٌ على رهبانهم وكان مبدأ اصلاح الحروف الهجائية في دير وندريل باهتمام الراهب اوون والراهب هردوين وقد ترك رهبان كوربيا ورمس كتبًا ظريفة بخط اليد تدلُّ على اصلاح تلك الحروف وبناء على ذلك لم يكن فنّ الاملا والخط حسبما شوهد في ذلك العصر اقل ثمرات التعليمات الاولية كما في ايامنا هذه بل كان اهم جزء في علم النحو الذي هو مقدمة لسائر العلوم وكان هذا العلم اذ ذاك مقصورًا على اللغة اللاتينية وان كان اهملها العامة وصارت لا تستعمل الاَّ في العبادات والشرائع

ولم يبقَ شيءٌ من اثار الرسالة التي كان الغرض من تاليفها تعلُّم اللغة اليونانية التي كانت شرطة او سانبروك قد الزمت رهبان هذه القبيلة بتعلمها وتعليمها ولكنهم لم ينجحوا فيها الاَّ قليلاً وقد تكلم القوين في بعض مولفاتهِ على متن الكتب المقدسة المكتوب باللغة اليونانية واظهر معرفتهُ بهذه اللغة في مكتوبٍ كتبهُ الى انجليبرت ولا ريب انهُ هو الذي علم شرلمانيا ما كان يتكلم بهِ منها وكان لبولس ورنفريد المورخ المقدم ذكرهُ امام جبال الالب شهرة باتقانهِ هذه اللغة لكن لما طلبوا منهُ ان يجوز فخر تعليم هذا اللسان للقسوس الذين كانوا معدين للذهاب مع الاميرة روترودة وقد سبق ذكرها الى القسطنطينية اعتذر لهم بما كتبهُ في جواب رسالة بطرس بيزان الشعرية حيث قال اذا كان قسوس هذا القطر (اي فرانسا) لا يتكلمون الاَّ باللسان اليوناني فانهم يمكثون بكمًا كالاصنام ويكونون سخريةً بين العالم فتعين ان يبعثوا من القسطنطينية قسوسًا

لتعليم هذا اللسان لتلك الاميرة التي كانت مخطوبة للقيصر قسطنطين الخامس الذي تولى المملكة سنة ٧٤١م فتعلمت من هولاء الاجانب اللسان اليوناني ولا مانع ايضًا من ان معلمي هذه الاميرة علموا بعض تلامذة غيرها لانه من المحقق ان اللغة اليونانية لم تنقطع اثارها في القرون التي بعد هذا القرن فهي ان لم تكن في فرانسا كانت ببلاد المغرب

ومن اطلع على تواريخ تلك الاعصر ووقائعها العامة عرف من يبوسة عباراتها وتراكيبها ان قواعد النحو والبيان كانت مهملة فيها فلم تكن اذ ذاك مستعملة في المكاتب ومن قرأ الكتب الادبية التي تركها بعض المولفين ذهب مذهب اخر لان ما فيها من اختلاط الكلمات اليونانية بالعبارات اللاتينية وسلوك طرق التكلف في العبارات بالاتيان بالفاظ غريبة وعبارات فخيمة تمجها الاسماع لغرابة اساليبها والتساهل في تراكيبها واستعاراتها الغريبة وتاليف كلماتها على نسق وضع الاطفال تدل على ان مولفي الكتب المذكورة كانوا يدعون معرفة علم البيان مع ان بيان ارسطا ليس لاتوخذ منه هذه الامور كلها غير ان قواعده التي تُرجمت ترجمة خشنية ضاعت منها قوة اصلها ولم يترك اباء الكنيسة اللاتينية من القواعد ما يُنسج على منواله في ما يخص الذوق السليم فكان الناس يتعلمون الفصاحة من مواعظ القديس اوغسطينوس وماري سيزير وكانت سير القديسين تكسب من يقراها من الرهبان ذوقًا وادبًا

واما صناعة الشعر فكانت قد انحطت عن درجتها بعد ابوليناربوس وبويسة حسبما سبقت الاشارة الى ذلك وبقيت على اضمحلالها وكان الشعر يتميز عن النثر بعبارات عامية او ثقيلة موزونة باوزان غير مضبوطة في الغالب كالانشا آت التي كانت قبل عصر القوين ولاسيما انشا آت ارملدوس وفلدوار وكذلك القصائد الثلاث الطويلة التي ظهرت في القرن العاشر من غير ان نعلم اسماء ناظميها وكان موضوعها سطوات شرلمانيا وبرانجير ومحاصرة النورمان لمدينة باريس والاشعار الخنيفة ما عدا بعض قصائد لم يظهر منها الاّ بعض

نقوش ناشئة عن التقوى وعنوانات على قبور الموتى والغاز وتطريزات مفردة ومزدوجة وهذا يدلّ على ان سكان الديورة كان عندهم نشاط وكان اعظم فضيلة في الشاعر ان يظفر في شعرهِ بالامور العويصة والمشكلة ولاسيما ان القوين المذكور نظرًا لتقواهُ وتدينهِ نهى عن قراءة ما ظهر في الاعصار المعتبرة من القواعد العظيمة خوفًا من تاثيرها في الشبان حتى انه لام على سيجولف حيث سمح لقسوس مكتب طورس بقراءة كتاب ورجيل (شاعر وثني مرّ ذكرهُ في الفصل الثاني من البحث الاول) وليس ذلك لكونه مثل القديس غريغوريوس يرى ان اسم جوبيتير يدنس افواه امناء الدين المسيحي بل كان يخشى ان يتاثروا ممّا في ذلك الكتاب من وصف عشق ديدون وتشتغل بهِ قلوبهم فلذلك لم تتقدم صناعة الشعر بل انحطت الى الدرجة التي ذكرناها

وحيث ان اباء الكنيسة تمسكوا بمذهب ارسطاطاليس لنفورهم من مذهب افلاطون الجديد فكانت فلسفة ستاغير هي المتسلطة على سائر المذاهب التي في ما فوق الطبيعيات وعلى اشكال الاقيسة وقد اعتقد البابا بولس الاول الذي نصب في سنة ٧٥٧ م انهُ اتحف الملك بيبين لبريف ابا كرلوس الاكبر بتحفةٍ عظيمة حيث ارسل له من جملة مولفاتٍ بعث بها اليهِ في مدة جلوسهِ على تخت فرانسا متنًا يونانيًا يتعلق بمنطق ارسطو وكان موضوع علم المنطق لم يزل الى ذلك الوقت مختصرًا في بيان المقدمات والمقولات العشر والاقيسة ومواد الاستنتاج فاذا تعلّم هذا العلم شاب من القسوس وزاد عليهِ معرفة الكتب المقدسة والموسيقى الكنائسية صار هذا الشاب جامعًا لجميع العلوم التي يحتاج اليها القسوس ولكن كان يُستغنى عنها في الغالب ولم يحز جميع العلوم التي كانت في المكاتب الاّ قليل من الطلبة

وكانت المعارف العالية تشتمل على اعظم فروع العلوم الرياضية التي كانت وقتئذٍ لا تستحق هذا الاسم كل الاستحقاق وكان علم الحساب مقدمة لها وكان هذا العلم لم يزل الى ذلك الوقت غير واضح لما ان الارقام الرومانية

كانت تعوقهُ عن التقدم والانتشار فمن ثم لم تكن فيهِ صلاحية لان يتقدم ويتسع جائزة بل كان يشوش الذهن ويضعف العقل بمشكلاتهِ التي لا نفع لها وما كان لاطائل تحتهُ ما كانوا يستعملونهُ لمعاونة هذا العلم من حساب الاصابع الذي كان مختلطًا اختلاطًا غريبًا لانهُ كان لا يمكن ان تجرى بهِ عملية الاعداد الصحيحة الاَّ بطرقٍ صعبة وكان دائمًا لا يؤثر شيئًا في حساب الكسور ومع ذلك فقد ظفروا مع الهمة والقوة بالعوائق التي كانت تعوق علم الحساب عن التقدم لانهم كانوا مضطرين الى تعيين ايام الاعياد المتنقلة في كل سنةٍ فخوفهم من نسيان طريقة الحساب الكنائسي كان حاملاً لهم على الظفر بتلك العوائق اكثر من تولعهم في الامور العالية

وفي ذلك الوقت كان علماء الهندسة والهيئة يشملان الاقسام الفائقة من الفلسفة وكانوا يتعلمونها في رسالات عديدة علمية تُعزى الى المعلم بيدا رئيس دير ويرموت الذي سبق ذكرهُ وهو الذي نقل في مؤلفاتهِ قضايا اقليدس التي ترجمها بويسة الى اللغة اللاتينية ومذاهب بلينوس وارسطاطاليس وبطليموس في القسمغرافيا (اي علم هيئة الدنيا) والحوادث الجوّية وقد قال القوين في ترجمتهِ لبيدا المذكور ان هذا المعلم الشهير بيَّن لتلامذتهِ ائتلاف الكواكب السماوية وكسوف الشمس والقمر والمناطق الكروية الخمسة والكواكب السبعة السيارة والقوانين التي بها سير الافلاك والحركات الهوائيَّة التي تثير امواج البحر والزلازل الارضية انتهى ولم يكن المعلم بيدا المذكور اجنبيًّا من معارف القدماء الطبيَّة التي الزم قسيودور رهبان ويواريا ان يتعلموها وعلمها المطران ثيودور في مدينة كنتربري وبالاختصار ايضًا على قضيتين من المعارف الطبيعية التي كانوا يتعلمونها في الديورة نقول ان المعلم بيدا عرف سبب المدّ والجزر بطريق الحدس والتخمين وبرهن عليهِ بعدهُ المعلم اسحق نيوطون الفيلسوف وكان ورجيل اسقف سلزبورغ ممن تخرّج ايضًا في مكاتب بريتانيا فبين للناس وجود المناطرين

وجميع ما ذكر من العلوم البشرية كانت تعتبر كآلاتٍ ضرورية للتعليمات القسوسية كما ذكرنا في ما سلف فكانت مستعملة فيها طوعًا وكرهًا وكان لعلم اللاهوت السلطنة على جميع المعارف البشرية وكان لولاً يشتمل على العقائد الدينية واصول الاداب والحكمة ثم دخل فيهِ التاريخ والفلسفة وكانوا لا يتعرضون للبحث عن الحقيقة في الكتب المقدسة الاّ نادرًا خوفًا من ان يضلّوا فيها من غير مرشدٍ يهديهم الى الحق فكانت الشروح التي الفها اباء الكنيسة قاعدةً لجميع العقائد وكان الناس لا يناقشون في احكامها وقد اكتسب كل من بيدا والقوين المقدم ذكرهما شهرةً وبهجةً بتفسيرها الكتب المقدسة ومع ذلك لم يتجاسرا ان يقولا برأيهما الاّ في مواضع قليلة جدًّا بل كان تاليفهما في اكثر المواضع عبارة عن نقل اقوال سلفهما من المولفين وكان كل منهما ينبه في كتابهِ على ما يبدو له من الاستظهارات الناتجة عن حدّة ذهنهِ او ملكتهِ المميزة بين الغث والسمين حذرًا من الخطاء في ما لم يتحققهُ

وكان لا بدّ لعلماء اللاهوت في ذلك العصر من واسطتين للتبحر في العلوم الدينية المتسعة الدائرة وهاتان الواسطتان كانتا مفقودتين اذ ذاك وهما معرفة اللغات الاصلية والمباحثات التاريخية فاذًا كيف يتأتى لهم ان يناقشوا في امورٍ حقة وقع فيها النزاع في آراء مبهمة تتعلق بالعبارات المترجمة التي اقلّ ما يقال فيها انها مشكوك في صحتها كالقوانين الكنائسية اليونانية التي ترجمها دينيس الصغير الآتي ذكرهُ الى اللغة اللاتينية او كيف يمكنهم ان يقفوا على بطلان قضيةٍ منكرة من غير ان يستعينوا على ذلك بالمولفات الموجودة في عصرهم وتحقيقات التواريخ البشرية

ثم لما ظهر مذهب الفلكسية والمشاجرة في شان كسر الصور التماثيل استيقظ علماء اللاهوت الذين كانوا في ذلك العصر الى المناظرة والمجادلة التي كانت من اشدّ المجادلات فاشتهر كل من القوين وبولين واكيليا باظهار الكتب المسماة كاروليين التي جمعا فيها تحت حماية شرلمانيا رسائل متنوعة الفاها في المحاماة

عن الصور وعارض في ذلك البيندو وفيلكس الذي نُسب اليهِ هذا المذهب

وكما ان العلوم البشرية في ذلك العصر لم تكن بالنسبة الى علم اللاهوت مقصودة لذاتها بل تابعة له ضعيفة عن لحوقهِ كذلك الفنون المستظرفة وان كان هذا الاسم غريبًا في تلك الازمنة المتبربرة لم يكن الغرض منها الاَّ الاعانة في ما يكون بهِ رونق العبادة المسيحية وبهجتها وقد حصل للموسيقى تغيير كان يبين لبريف ابوكرلوس قد عزم عليهِ قبل ذلك ولم تظهر له ثمرة الاَّ في كنيسة متز بهمة ماري كرودغنغ ذي المعارف المنيرة وقد شدد قسوس فرانسا في منع خدم القداس الرومانية وكذلك اللحن الغريغوري الذي هو اكمل واتقن من الحان ماري امبرواز (امبروسيوس) وقد شنَّع اهل ذلك العصر على مصلي الغليين حيث وصفوهم بالجهل وعدم المعرفة وهو كما ذكروا فان مخارج الحروف التي كانت فيهم تتزايد دائمًا خشونةً وقبحًا كان يسمع منها اصوات وحشيَّة خشنية شبيهة بدكدكة المركبات المختلة الاصوات وقد اثبت راهب انغوليم على سبيل التفصيل صحة هذا الوصف المضحك وكان هذا الراهب ممَّن الف سيرةً في شان شرلمانيا وذكر ايضًا انهُ بعد المشاجرة التي حصلت في رومية بين مصلي تلك المدينة ومصلي الكابيلا الملوكية (اي معبد الملك) عزم شرلمانيا على ان ينشر الالحان الرومانية في جميع سلطنتهِ وطلب من البابا ادريان الاول الذي نصب سنة ٧٧٢ م ان يبعث اليهِ معلمين ماهرين ليعلموا الترنيم المذكور لمعلمين اخرين في مكاتب متز وسواسون فتعلم مصلُّو الفرنج توقيع الالحان على الآلات وابدلوا الحانهم التي افسدوها باهوائهم وجهلهم بالالحان التي نقلها من رومية ثيودور وبنوات ومع ذلك كان هذا الاصلاح في بعض اقاليم من المملكة غير تام حيث لم تظفر شوكة شرلمانيا القوية بتغيير الحان لوترين

ولم يكتفِ هذا الملك بفخر كونهِ وسع دائرة سلطنتهِ فقط بل اراد ان يملاها بالاثار لتكون لها زينة فامر بانشاء عمارات ومباني عظيمة. ورغب الدوكات والكونتات والاساقفة ورؤساء الرهبان في الفنون وحملهم على الكرم

والسخاء لارباب الصنائع الذين جلبهم من الاقطار البعيدة وكانوا ينزلون اُمهرهم في السراية الملوكية ويحسنون قراه ويكون تحت ملاحظة ايجنهارد وحماية السنشال الاكبر ومن تلك العمارات قنطرة ميانسة التي قوائمها المنفردة اعجبت مورخ سنغال بعد مئة سنةٍ من الحريقة التي احترقت فيها اقواسها التي كانت من الخشب

وقد شرع شرلمانيا في بناء سراية انجليهم بقرب هذه المدينة وقد تكلم عليها ايجنهارد وجعلها في درجة سراية نميغة لكن ليس شيءٌ من تلك العمارات يضاهي في الحسن سراية اكسيلا شبيلا التي بناها على ربوةٍ لم يزل يجري في اسفلها ماء المنبع السلطاني الحارّ وكان لهذه السراية مجاز من خشب يوصل الى الكنيسة السلطانية الكبيرة التي يستبين ان هذا الملك لم يأمر ببناء غيرها فان المباني المعدة للعبادة لم تكن اذ ذاك تُبنَى من اموال الخزينة الملكية بل كان الملك كالملتزمين لم يبنِ في التزاماتهِ الّا كابيلات (كنائس صغيرة) خالية عن الزينة والزخرفة واما كنائس الاسقفية وكنائس الديورة فكانت تبنيها الاساقفة ورؤساء الرهبان لان القسوس كان لهم اوقاف عظيمة تعينهم على ذلك وقد اهتم بعض الاساقفة بتشييد مبانٍ جديرة بالمدح والتعجب الّا انهُ لم يبقَ منها شيء على عهدهِ بل تخربت كلها في عصر الدمار الذي اعقب موتَ لويس ديونير ابن شرلمانيا المذكور بهجوم النورمنديين على مملكة فرانسا في اخر حكم كرلوس الثاني الاصلع سنة ٨٤٥ م وما بعدها

لكن المؤرخون قد بالغوا في عظم ورونق تلك المباني اكثر ما تستحقهُ لان الفرنساويين قد بحثوا عن اثار الابنية المذكورة فوجدوا في آكسيلا شبيلا اثارًا تدلُّ دلالة قطعية على ضعف الفنون في القرن التاسع وتثبت ان شرلمانيا اضطر في بناء تلك الكنيسة الفاخرة الى ان نقل من مدينة راوينة اعمدة الرخام ومواد التزويق التي كانت مزينة مسكن اواخر القياصرة الرومانيين حتى ان راهب سنغال قال ان شرلمانيا امر بهدم اسوار مدينتي فرنكفوت ورانسبونه

ليأخذ من انقاضها ما يحتاج اليه من مواد البناء للزاويتين اللتين امر ببنائهما على غاية من الاتقان وجودة الصناعة في المدينتين المذكورتين فاذاً لا عجب من كون النورمنديين المذكورين حين نزولهم بسواحل فرانسا وجدوا بها من الديورة والرهبان اكثر من الحصون والعساكر

الفصل السادس

في حالة العلوم والمعارف منذ وفاة كراوس الاكبر الى بداءة وقوع المحاربات الصليبية اعني من سنة ٨١٢ الى نهاية القرن الحادي عشر

وبعد موت شرلمانيا اخذت العلوم في الانحطاط حتى ان اغلب المجامع الاكليروسية التي انعقدت بعد موته طلبت من الملوك ان يكون لهم دخل في اعانة المكاتب التي صارت متروكة ومهملة وامر مجمع اكسيلا شبيلا بان الرهبان القانونيين يتعلمون كل انواع العلوم وان اكثرهم علماً وفضلاً يكون منوطاً بملاحظة الصبيان الذين يترددون الى مكتب كنيسة الاسقفية وكان لويس التقي بن شرلمانيا هو الذي اشار على المجمع بذلك وعلى ولده لوتير بالقانون الذي وضعهُ ونشرهُ سنة ٨٢٣ م قاصداً نشر التعليم في ايطاليا لان هذا الملك كان قسم مملكته بين اولاده الثلاثة وهم لوتير وبيبين ولويس فكانت ايطاليا نصيب ولده لوتير

وكان القانون المذكور يامر باحداث مكاتب جديدة وحث المعلمين على الاجتهاد وبذل الهمة في التعليم فامر لوتير بفتح مكاتب في اعظم مدن المملكة اللنبردية لاجل قطع معذرة الشبان اما لفقرهم اولبعد ديارهم وكذلك البابا

اوجانيوس الثاني قد اوصى في سنة ٨٢٦م الاساقفة والقسوس في جمعية انعقدت وقتئذٍ بان يجددوا مكاتب يسهل على كل انسانٍ الذهاب اليها لتعلم العلوم الناسوتية واللاهوتية ومع هذا جميعهِ لم يترتب على ذلك الا ثمرات واهية ان يكن في ايطاليا او في فرانسا وامر هذا الملك وكلاه ان يفتحوا في جميع الاماكن اللائقة للتعليم مكاتب لتربية الصبيان وامناء الدين وتعليمهم لكن لم يدرك ما كان يأملهُ من هذا الامر فتشكى القسوس ثانيًا وترجى مجمع باريس الملك المذكور بان يقفو اثر والدهِ ويفتح مكاتب عامة ولو في المدن الثلاثة التي هي اليق بالتعليم من غيرها من مدن السلطنة وكانت هذه الطريقة من اعظم طرق التعليم نظرًا لقلة المعلمين في ذلك الوقت لان ترغيب شرلمانيا في التعليم لم يكن ترتب عليهِ كبير فائدة حتى ان رومية نفسها كان يشكى فيها من قلة المعلمين كما يستبين من كلام المجمع الذي كان رئيسهُ البابا ليون الرابع الذي نُصب في سنة ٨٤٧م وزاد البابا عليهِ بقولهِ اذا لم يوجد في اخطاط الخوارنة اناس لهم قدرة على تعليم الفنون العقلية كما هو العادة فلا اقل ان يكون في كل محلٍ منها معلم يعلّم الناس الكتب المقدسة والقداس

ثم ان مجمع اساقفة ولنسة نسب الجهل بالدين واضمحلال العلوم اللذين كانا متسلطين في اغلب المحال الدينية الى انقطاع التعليم مدّةً طويلة ومجمع الاساقفة المنعقد في سنة ٨٥٨م في مدينة كييرسي سور وازه اي التي على نهر وازه اشار على كرلوس الاصلع الذي تولى مملكة فرانسا سنة ٨٤٠م ان يعيد في سرايتهِ زهرة تعلم الاداب وبهجتها وكذلك الاحبار الذين اجتمعوا في ساوينير سنة ٨٥٩م طلبوا احياء الاداب البشرية التي ترتب على امتزاجها بالعلوم الدينية اللاهوتية الذي كان بقويّهِ اتقياء القياصرة في سابق الزمان انتشار معارف كثيرة في الكنائس حيث دعا هولاء الاحبار جميع الامراء والاساقفة الى اعانة هذا العلم الذي كان قد اشرف على الانعدام وذكروا ان الكتب المقدسة قليل من الناس من يفهم منها معنى صحيحًا وعمّا قليل لا يكون لمن يفهمها وجود

بالكلية وهذا التشكي لا يدل على اهمال كرلوس الاصلع وعدم اعتنائهِ بتعلم الاداب وانما يدلّ على عجزهِ حيث لم تكن لهُ شوكة الّا في مجرد صدور الاوامر لا في اجرائها وانما اعتنى في دائرتهِ الضيقة التي كانت تنفذ فيها كلمتهُ كديوانهِ مثلاً بتعليم الاداب اعتناء كليًا حتى انهُ كان يودّ ان يقاسم المعلمين في مزية التعليم وهو الذي ألّف كتابًا في عجائب القديس دينيس المارّ ذكرهُ

وكان موجودًا راهب يقال لهُ ابريك منوطًا بادارة مكتب سان جرمان (القديس جرمانس) الشهير بمدينة اوكسيرة اعلن بالشهادة لكرلوس هذا حفيد شرلمانيا بانهُ كان لهُ رغبة عظيمة في العلوم والمعارف حيث كتب لهُ ما معناهُ .

قد تهيات لك اسباب السودد والفخار الدائم باقتفائك اثر جدك الجليل فانك زيادةً عن احيائك لهمتهِ في العلوم والمعارف فقد فقت عليهِ بالهمة التي لا تضاهي وابطلت اعتذارنا بقلّة المعلمين عما نحن عليهِ من الجهالة لاهمالنا وتكاسلنا بكونك اعتنيت اعتناء عجيبًا حيث دعوت من جميع اقسام الدنيا عظماء مشاهير المعلمين ليعلموا رعاياك حتى ضجت بلاد اليونانيين حيث هاجر منها ابناؤُها وبكت على اختصاصها بالعلوم حيث انتقلت منها الى قطرنا ولعمري ماذا اقول في شأن بلاد ارلنده حيث لم يخشَ اهلها اخطار البحر المحيط بل تغرّب معظمهم ونزلوا بسواحلنا مع فلاسفتهم على كثرتهم ليحوزوا فخر خدمتهم لسليمان الثاني وقد سلبت من اغلب الملل معارفهم ومعلميهم ومكاتبهم لتتحلى انت ورعيتك بزينة العلوم والمعارف حتى ان الفنون العقلية بجميع انواعها فاضت كالبحار في ارضك وانتشرت في اقطار سلطنتك احتقارًا لغيرها من الاقطار فتسمية سرايتك بالمكتب العلميّ لها وجه صحيح انتهى

لكن متى قرن القاري عبارة هذا الراهب بما سلف ذكرهُ من كثرة تشكيات مجامع الاساقفة في هذا المعنى عرف ما انطوت عليهِ من الاطراء والافراط في التملق ولاسيما متى عرف ان هولاء المعلمين الذين جاءوا الى فرانسا

من بلاد اليونانيين وجزيرة ارلندة انتقلوا منها الى انكلترة
وذلك لان الفريد الاكبر متولي انكلترة سنة ٨٧١م كان اذ ذاك مجتهدًا في رفع منار العلوم والمعارف بتلك المملكة ونشلها من اوحال الضعف والاضمحلال التي وقعت فيها منذ فارق القوين جزيرته وتغلب عليها الدانيماركيون قال بعض المولفين ان هذا الملك احيا في مملكته العلوم والفنون والاداب والحِرَف والصنائع ومارس العلوم بنفسهِ والف عدَّة كتب وزهت في ايامهِ التجارة والملاحة وعظمت القوى العسكرية البحرية وصارت انكلترة مأوى للعدل والراحة ولهُ عدَّة قوانين عظيمة اسسها على الحكمة والحزم
وبعد انقضاء حكومة كرلوس الاصلع صار لا يطمع احد ان يجد في فرانسا اثر مكتبةٍ من مكاتبها لان النورتمان كانوا احرقوا جميع ديورة المملكة غير ان انقياء الرهبان الذين كان يتتبعهم هولاء السكندينافيون ارباب الصيال حتى كانوا يفرون من ديرٍ الى اخر كانوا ياخذون معهم اثار علوم الاقدمين ويخفونها خشيةً عليها من احتقارها واتلافها ونظرًا لقلتها كان يسهل خلوصها وحفظها ثم لما خربوا ضواحي باريس في سنة ٨٤٠م فتح اهل هذه المدينة ديرًا لحفظ جسد القديس جرمان وكتبهِ واموالهِ فمكث مكتب هذا الدير مدةً طويلة يدافع اكثر من غيرهِ غلبة التبربر وسلطنتهِ نظرًا لمجاورتهِ الى باريس التي كانت لهُ حصنًا حصينًا تمنع عنهُ كيد الاعداء وكذلك مكتب ماري جرمان دوكسيرة فانهُ دافع ايضًا مدةً طويلة لبعدهِ عن العدوّ وكان هذا المكتب في القرن العاشر لم يزل يتردد اليهِ عظماء الطلبة ليستعدوا فيهِ الى درجة الاسقفية وفي هذا الزمن كان دير جرمان ديبريه لم تزل لهُ الرياسة على كثيرٍ من المكاتب تحت ملاحظة الشاعر ايوان
ومع ان علمي الفلسفة والمنطق اللذين كانا يدرسان في هذه المدارس مدة القرن التاسع لا يستحقان الذكر فقد وجد في اماكن مختلفة ولاسيما بين الايرلنديين اناس ماهرون اذكياء يليق بهم ان يسموا فلاسفة اولهم يوحنا اريجينا

الاسكوتي اي الايرلندي صاحب كرلوس الاصلع وكان ذا فهمٍ ثاقب وسامٍ عالماً بالعلوم اليونانية والرومانية شرح فلسفة ارسطاطاليس لتلاميذهِ وكان يتفلسف بدقةٍ عظيمة بدون مرشد وكتبهُ الخمسة في تقسيم الطبيعة لاتزال موجودة وهي كتاب غريص يذكر فيهِ علل كل الاشياء واصولها ونحو هذا الوقت قام انسان اسمهُ مكاريوس من ايرلندا وعلّم في فرانسا بان لكل الناس نفساً مشتركة فدحضهُ رترام ومن مشاهير هذا القرن ايضاً رابانس مورس حصل على اول رتبةٍ في جرمانيا وفرانسا وكان يزدحم على خطبهِ الطلبة ومن المورخين أيجنهارد وفريكلفس وثيفانس وانسطاسيوس وهيمو وغيرهم ومن الذين مهروا في اللغات وثقفوها رابانس الذي كتب بيان اسباب اللغات واصلها وسمارغدس وبرثاريوس وغيرهم ومن الذين عرفوا العلوم العبرانية واليونانية وليم ويوحنا سكوتوس وسرفانس لبس الذي كان ماهراً في الخطابة والبلاغة والانشا ايضاً وايجنهارد واغوبرد وهنكمر وغيرهم

ثم في القرن العاشر انعدمت الآثار الشهيرة من جميع الجهات حتى لم يبقَ اثر للمكاتب وصار العلم غريباً لايجد لهُ مأوى الّا المحاريب لان التبربر كان قد تغلب على جميع الاشياء كما ان اختلال الحكم كان ايضاً قد عمّ سائر الجهات فعند ذلك تأسف اخر الشعراء وضجّ مما كان عليهِ اهل عصره من الجهالة وتكلم على لسانهم مخاطباً شعره

يا شعر حسبك لا تؤمّل حظوةً

قد بار سوقك بعد طول نفاقِ

واكثر المورخين يسمون هذا القرن بالقرن الحديدي نظراً الى العلوم والفنون والشعوب الافرنجية لم ترَ قبلهُ جيلاً اتعس وانكد منهُ ولو ارتاب في ذلك بعض اكابر العلماء فانهُ مثبت ببراهين قويّة لايمكن دحضها بكليتها نعم انهُ كان يوجد مدارس اما في الديورة واما في المدن في اكثر بلاد اوروبا التي كانت مراكز الاساقفة غير ان قلّة عددهم وكتابة احسن الرهبان الذين

اشتغلوا في الامور المفيدة اخبارًا وتواريخ بطريقةٍ دنية ينبيان عن شدّة تعاسة ذلك العصر

وكان التعليم في هذه المدارس مخصرًا في العلوم السبعة ومعلموها هم الرهبان المذكورون الذين اعتبروا قيمة الاداب والعلوم من استعمالها في الامور الدينية فقط ومنهم كأبو ولويتبرند وونيكيند وفلكون ويوحنا كوبا ورائيروس وفلودورد وتكبرس وايثلبرت وغيرهم وكلهم متفاوتون في الفضل الّا انهم يشردون عن حقيقة كيفية كتابة التاريخ وكان البعض من شعرائهم كذلك لايخلون من النباهة غير انهم جميعًا خشنون وهكذا النحاة والبيانيون منهم لايستحقون الذكر لانهم لم يذكروا الّا ما لامعنى له ولم يعلموا الّا تعاليم ناشفة جنونية ولاحاجة لان نذكر شيئًا من هندستهم وحسابهم وحساب الاعياد والفلك والموسيقى التي كانت تُعلَّم في مدارسهم

وكانت الفلسفة عندهم محصورةً في المنطق الذي كانوا بزعمونهُ رأس كلّ حكمةٍ وهذا المنطق المُطنب في مدحهِ كانوا يعلمونهُ بغير رونق ولا وضوح بموجب كتاب الكاتيغوريا المنسوب زورًا الى القديس اوغسطينوس وكتابات بورفري نعم ان تيمبوس كتاب افلاطون ونبذة ارسطاليس في التفسير ومقالاته ومقالات شيشرون وبعض تاليف اليونانيين واللاتينيين كانت موجودة في ايدي البعض غير ان المورخين يقولون انهُ لم يكن هناك من يفهم هذه الكتب

ومن المستغرب كيف في وسط هذه الظلمة تظهر تلك المسألة الحادّة عن الكليات (او التصورات العامة) كما كانوا يسمونها بين الطائفة المسماة ريالست اي الحقيقيين وبين الطائفة المسماة نومينو اي الاسميين وهي ان طائفة الريالست ذهبت الى ان الاشياء كلها جواهر فعلى مذهبهم تكون الاعراض والخصائص كالاستدارة والصلابة مثلاً قائمةً بنفسها موجودةً لافي موضوع بمعنى ان الاستدارة مستقلة بالوجود عن المستدير وكذلك الصلابة مستقلة عن الصلب وذهبت

الثانية المسماة نومينو الى ان الاستدارة والصلابة وغيرها من الاعراض لا تقوم الاَّ بموصوفاتها وباختلاف هاتين الطائفتين اختلف اهل المدارس اخيرًا وتولّد بينهم التفاقم والشحناء من هذا الجدال قرونًا عديدة بل ان اثارها المعقّدة المستطيلة يطّلع عليها في كتابات العلماء حتى هذا القرن

وفي ختام هذا القرن وجد للعلم في اوروبا محامٍ ذو همةٍ واقدام وهو جربرت الراهب الفرنساوي الذي كان مودبًا لاولاد الملك هوغس كابيت موسس الدولة الكابيتية بفرانسا سنة ٩٨٨ م واخيرًا ارتقى الى كرسي البابا وية في سنة ٩٩٩ م وتسمّى سليبسترس الثاني وهو الذي اخترع اول ساعةٍ ذات رقاص ويقال ايضًا بانهُ ادخل ارقام الحساب الهندية الى اوروبا في سنة ٩٩٠ م قال بعض المولفين ان هذا الشهم ذا العقل الثاقب انصب بنجاحٍ على كل فروع العلم ولا سيما التعليميات والميكانيكيات والهندسة والفلك والحساب والعلوم المقارنة لها وكتب هو فيها ونبّه غيرهُ بان يشيدوها ويقووها بكل استطاعتهم ونتائج انعابهِ بين الفرنساويين والجرمانيين والايطاليانيين ظاهرة في هذا القرن والذي بعدهُ لان اناسًا كثيرين تحركوا من كتابات هذا الحبر الفاضل وسيرتهِ ونصائحهِ الى طلب الفلسفة والتعليميات والطب وغير ذلك من العلوم البشرية نعم انهُ لا يقاس بعلماء الهندسة والتعليميات في ايامنا هذه لكن معرفتهُ كانت عالية على ادراك ذلك الجيل البربري لان جهلة الرهبان اعتبروا اشكالهُ الهندسية صورًا سحرية ولهذا وضعوا هذا العالِم مع السحرة ونظموهُ في صف الاشرار

وهذا الرجل العظيم كان اخذ بعض معارفهِ ولا سيما الفلسفة والطبّ والتعليميات عن كتب عرب اسبانيا ومدارسهم لانهُ ذهب الى تلك البلاد في طلب العِلم وكان تلميذًا لعلماء العرب في قرطبة واشبيلية وربما اثرت سيرتهُ في اهالي اوروبا اذ ان المحققين يقولون بان الاوربيين المتشوقين للعلم وخاصةً الطبّ والحساب والهندسة والفلسفة كان لهم من ذلك الوقت فصاعدًا رغبة عظيمة

في ان يقرأُوا هذه العلوم على علماء العرب المتوطنين في اسبانيا وبعض نواحي ايطاليا وتترجم كثير من كتبهم ومؤلفاتهم الى اللاتينية وتقدم كثير من مضامينها الى مدارس اوروبا وذهب كثيرون من الطلبة الى اسبانيا ليتعلموا رأساً من خُطَب علماء العرب ولذلك حق القول بان العرب ولا سيما عرب اسبانيا المذكورين هم اصل وينبوع كل ما عرفهُ الافرنج من الطب والفلسفة والفلك والتعليميات منذ القرن العاشر فصاعداً

وفي القرن الحادي عشر احييت العلوم في اوروبا نوعاً بين المتوحدين من الكهنة والرهبان اما بقية الناس ولا سيما الاشراف والاكابر ازدروا بالعلوم والاداب ما عدا الذين اعدُّوا ذواتهم لخدمة الكنيسة او ارتقوا الى وظيفةٍ دينية ثم انشئت المدارس في ايطاليا بعد اواسط هذا القرن وقام البعض من العلماء المشهورين بالتاليف والتعليم وانتقل جماعة منهم بعد ذلك الى فرانسا وخاصةً الى نورمنديا ليعلموا الشبان المعدين هناك الى الوظائف الدينية المذكورة وقد مُوا جد ولاً يحتوي اسماء بعض اهالي بلادهم الذين رغبوا في العلم وسعوا في تقدمهِ في هذا القرن وبهِ يذكرون ايضاً عدة مدارس اشتهرت بصيت معلميها وكثرة تلاميذها ولا ريب ان الفرنساويين اعتنوا كثيراً بالعلوم والصنائع وكثرت العلماء في بلادهم حين كان معظم ايطاليا غرقان في بحار الجهل لان روبرت ملك فرانسا ابن هوغس كابيت الذي كان تلميذ الفاضل جربرت المقدم ذكرهُ كان عالماً ومحباً للعلم والعلماء وقد انتهى ملكهُ في سنة ١٠٣١ م الآ ان رغبتهُ العظيمة في تقدُّم الصنائع والعلوم من كل نوعٍ لم تكن عديمة النجاح والنورمنديون من فرانسا بعد استولوا على ولايات ايطاليا السفلى وهي ابوليا وكالابريا وسيسيليا اذاعوا نور العلم والآداب في تلك البلاد ولهم تنسب مزية اعادة العلم الى انكلترة لان وليم الظافر دوك نورمنديا كان ذا ذكاء وحكمةٍ تفرد بهما في عصرهِ فشرع بمشروعات حميدة حينما استظهر على انكلترة في سنة ١٠٦٦ م اذ دعى العلماء من نورمنديا وغيرها لينفوا من البلاد التوحش

والجهل اللذين كانا مستوليان عليها مع ان النورمند بين المذكورين كانوا ابطالاً متوحشين واعداء لكل علم قبل ان يعتنقوا الدين المسيحي لكن بعد ان تنصروا احترموا الديانة والعلوم احترامًا عظيمًا

وقد نتج عن الرغبة في العلم التي انتشرت بين شعوب اوروبا الاكثر تمدنًا على التدريج ازدياد المدارس وتحسين معلميها في اماكن متعددة حيثما كانت محصرة عند افتتاح هذا القرن في ديورة اوروبا وكنائسها وكانت الرهبان البندكتيون هم المعلمين الوحيدين في المعارف الدينية والدنيوية انما منذ بداءة هذا القرن اخذ غيرهم من الكهنة والعلمانيين في ان يعلموا العلوم في عدة من مدن فرانسا وايطاليا باكثر ما كانوا يعلمونه هم بل تبعوا نسقًا افضل منهم في تعليم بعض العلوم التي كانوا يعلمونها وكان اشهر هولاء المعلمين الحديثين هم الذين طلبوا العلوم في مدارس العرب باسبانيا على ما تقدم وتلقنوا فيها الفلسفة والرياضيات والطب والفلك وغير ذلك من هذا القبيل على اسلوب اصح واوضح من الاسلوب الذي كان يعلم به اولئك الرهبان في مدارسهم لان مدرسة سالرنو في مملكة نابلي اشتهرت بنوع مخصوص في علم الطب بهذا القرن وكان يأتيها الطلبة من اكثر اقاليم اوروبا وكان معلمو هذه المدرسة اخذوا هذا العلم من مدارس اسبانيا وافريقية ومن مولفات العرب فيه غير ان من هذه المدارس والمولفات ايضًا اخذت كذلك شعوب اوروبا صناعة التفاؤل الباطلة في معرفة مستقبل حظوظ البشر من النظر الى النجوم ويقال له علم التنجيم والهيئة وظاهر الايادي ويقال له علم الفراسة وفشى ذلك بينهم كثيرًا واعتبروهُ اعتبارًا زائدًا مع تمادي الاوقات

وكانت العلوم السبعة التي سبق ذكرها تطالع في اكثر المدارس الاعتيادية فكان الطالب يتعلم اولاً النحو ثم البيان ثم المنطق ومن طلب الارتقاء الى اكثر من العلوم الثلاثة المذكورة تقدم بعد تعلمها رويدًا رويدًا الى العلوم الاربعة وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك ليحصل على شرف العلماء الكاملين غير

ان هذا الاسلوب تغيّر بعد نصف هذا القرن لان المنطق بما انهُ يتضمن على نوعٍ ما شيئًا من الفلسفة العقلية تحسَّن بعناية البعض من ذوي الافكار الثاقبة وصاروا يعلمونهُ مع زيادة الدقة والحماس ومن ثم أُعتُبِر عند الاكثرين اعتبارًا كليًّا حتى انهم اهملوا النحو وغيرهُ من العلوم المعتدة الطليّة وصرفوا كل حياتهم في الدقائق المنطقية والفلسفية لان من كان يعرف علم القياس عندهم وهو المسمّى في ايامنا هذه بالمنطق او الفلسفة العقلية كان يعدّ بانهُ حصل على مقدار كافٍ من العلم ولم يفتهُ شيءٌ بعدم تحصيلهِ شيئًا اخر من كل العلوم الباقية ومن هنا نشأ الازدرا بعلم اللغات والفصاحة وبقية العلوم الادبية واستمر ذلك التوحش الفظيع الآتي توضيحهُ قرونًا عديدة في المدارس الاوروبية وافسد اللاهوت والفلسفة

ومن هنا يتضح بان فلسفة الافرنج في تلك القرون كانت محصورةً في علم القياس المذكور ويقال لهُ ايضًا الاستدلال اما باقي فروع الفلسفة فلم تعرف حتى ولا بالاسم ومع كل ذلك كان هذا العلم عندهم ناشفًا عقيمًا وكانوا اخذوهُ من كتاب المقولات العشر المنسوبة زورًا الى اوغسطينوس او من مقدمات ارسطاليس تاليف بورفري وافروز وهي الجوهر والكم والكيف والاضافة والاين والمتى والوضع والملك والفعل والانفعال وقد جمعها بعضهم في هذين البيتين

زيد الطويل الازرق بن برمكٍ في دارهِ بالامس كان متكي
في يدهِ سيف لواهُ فالتوى فهذه العشر المقولات سوى

مع انهُ لم يكن في بداءة هذا القرن للمدارس مرشد اخر في هذا الفن ولم يكن للمعلمين جراءة ولا مهارة في توسيع التعاليم المتضمنة في هذه الكتب وتحسينها الا انهُ بعد نصف القرن الحادي عشر المذكور اخذ علم الميزان في فرانسا منهجًا جديدًا

منذ دخلت بعض مولفات ارسطاليس في فرانسا من مدارس العرب الاسبانيولية لان بعض اصحاب العقول السامية كبرنغاربوس وروسلن وهلدبرت ثم غلبرت من بورتّا وابلرذ وغيرهم اجتهدوا في توسيعهِ وتكميلهِ بواسطة ما استفادوهُ من مولفات هذا الفيلسوف واشهرهم في تحسينهِ وتصييرهِ نافعًا هولنغرنك الايطالياني الذي صار اسقف كنتربري حتى انهُ لشهرتهِ فيهِ سمّي المنطقي واستعمل مبادئهُ بحماسةٍ ودقةٍ في انهاء النزاع مع خصمهِ برنغاربوس على الافخارستيا وثانيه أنسلَم في محاورتهِ النحوية مع مشروعاتٍ اخرى في انارة هذا العلم وقتئذٍ ولاسيا بحثهُ المخصوص عن المادة وصفاتها اوما يُنسَب اليها والثالث اودو الذي علّم المنطق واشتهر بذلك شهرةً عظيمة وشرحهُ في ٣ مولفات في السفسطة وفي المركبات وفي المادة والكون ولا وجود لهذه الكتب الان واما أنسَلم المذكور فانهُ اجتهد في تحسين هذا العلم وكان رجلاً وازنًا وشهيرًا متفردًا بين الافرنج ابرز الطبيعيات واللاهوت الطبيعي من الخفاء الى حيز الوجود لكونهِ شرح مع الحماسة ماذا يعلمنا العقل عن الله في كتابين احدهما سماهُ منولوجيون يعبر بهِ عن انسانٍ يخاطب نفسهُ والثاني بروسلوجيون يُعبَّر بهِ عن هذا الانسان يخاطب مع الله وهو الذي اخترع القياس القرنيسي الذي يبرهن على وجود الله سبحانهُ من مجرد تصور النفس الطبيعي بطبيعةٍ كاملة للغاية ولما فنّد هذا القياس غونيلو الراهب الفرنساوي ردّ عليهِ أنسَلم المذكور في نبذة كتبها بهذا الشان

هذا ولم يبلغ علم الميزان المذكور حدّهُ الاّ وقام النزاع بين علمائهِ على ما تقدّم وهذا النزاع وان لم يكن في حدّ ذاتهِ شيئًا لكنهُ لمّا كان يضطرم منذ زمان طويل في المدارس صارت نتائجهُ في هذا القرن من الامور الدقيقة العظيمة لان الاحزاب استعملوا قضاياهم المتنوعة حسب تفاسير التعاليم الدينية وكل فريقٍ قذف خصمهُ باغرب النتائج المكروهة اذ انهم اتفقوا جميعًا على ان هذا العلم يبحث عن الكلّيات ومقابلتها لان الجزئيات والافراد من كونها قابلة للتغيُّر فلا يمكن ان

تكون موضوع علم ثابت غير متغير ولكن اختلفوا في انهُ هل هذه الكليات التي هي موضوع علم المنطق موجودة حقيقةً او هي مجرد كلمات واسماء لموهومات فالبعض اعتقدوا بوجودها حقيقةً وسندوا اراءهم على افلاطون وبوئثيوس وغيرهم من الاولين والبعض جزموا بانها لاشيء سواء اسماء لغير مسميات واستشهدوا بارسطاليس وبورفري وغيرهم وسمي الحزب الاول منهم حقيقيين والثاني اسميين ثم كل من هذين الحزبين انقسم مع تمادي الزمان الى شيعٍ متنوعة حسب اختلافهم في تفسير تعليمهم فامتلأت كل مدارس اوروبا من هذه المنازعة قرونًا عديدة ونتج منها احيانًا كثيرة مقاتلاتٌ دموية بين اللاهوتيين والفلاسفة

وبعض العلماء ينسبون اصل هذه المنازعات الى ما وقع من برنغاريوس الذي مرَّ ذكرهُ على الافخارستيا لان رأي الاسميين يصحُّ استعمالهُ في المحاماة عنها اما رأس هذه الشيعة فهو رجل فرنساوي يقال لهُ يوحنا السفسطي ولا يُعلَم الآن عنهُ شيءٌ الاَّ الاسم وتلاميذهُ الاصليون هم روبرت من باريس ورسلن من كمبين وارنلف من لون ومنهم تعلَّم كثيرون هذا المذهب وربما يُحسب بين تلاميذ يوحنا المذكور رمبرت الذي علم في مدرسة ليسل في فلاندرس حيث قيل بانهُ قرأ المنطق لاكليروسهِ لفظًا واودو الذي تقدم ذكرهُ يقرأهُ لتلاميذهِ فعلاً غير انهُ لم يشتهر احد من اسميي هذا العصر اكثر من رسلن ولهذا أُعتبر ولا يزال يعتبرهُ كثيرون موسسًا لهذه الشيعة (هذا ما كان من اخبار الذين تكلموا عن مجرد امتداد المعارف وترقيها ولم يتعرضوا لتفاصيل احوال الجهل الذي كان متسلطنًا على الاكثرين في تلك الاعصر التي نحن بصدد الكلام عليها)

نبذة

في تفاصيل احوال جهالة الاعصار المذكورة

اما ما قالهُ بعض المولفين بشان احوال تلك الجهالة المنوه عنها فهو انهُ كان الملك كرلوس الاكبر في فرانسا والفريدوس الاكبر في انكلترة بحثا عن تشتيت ظلام الجهل وتوصلا ان يدخلا بين الرعايا بعضاً من المعارف ولكن منع من تلك القوة وذلك الترتيب موانع عظيمة بسبب اهل ذلك العصر ثم ان وفاة هذين الملكين كان سبباً في انغماس شعوب اوروبا في بحار الجهالة اكثر ما كانت عليهِ فكانت سكان اوروبا في هذه الاعصار المشومة تجهل ما كانت تحسن بهِ الاعصار المتمدنة من الفنون بل كان لا وجود عندهم للفضيلة اصلاً

وقد كشف القناع بالتمام عن وجه هذه الجهالة واوضحها جليًّا العلامة الفاضل روبرتسون المورخ الانكليزي بما ملخصهُ نعم انهُ وقع من كرلوس مانوس انهُ جمع لوفور عقلهِ تلك الجمعيات المشتتة في جمعيةٍ واحدة (يعني التي اشرنا اليها في الفصل الخامس من هذا البحث) وصاروا على قلب رجلٍ واحد كأنهم عضو واحد واعاد في المملكة النشاط والقوة التي ميزت مملكتهُ على غيرها وصيرت تلك الوقائع اهلاً لتعجب اهل القرون المستنيرة بالمعارف والعلوم لكن هذه الحالة لم تمكث الّا مدةً قليلة وبعد وفاة هذا الملك صار مذهبهُ الواسع المؤسس على الجراءة الذي كان رتبهُ متروكاً لم يُعضد بالحماسة والحمية التي كانت قويةً في اتباعهِ ثم اضمحلت وتمزقت مملكتهُ الى عدّة ممالك حتى صارت

عرضةً للمصائب والفتن ولازالت تتزايد من هذا الزمن الى القرن الحادي عشر ومن حيث ان جميع الامم ما دامت لم تتمتع بمملكةٍ منتظمة يأمن الانسان فيها على نفسهِ فانهُ لا يمكن لها ان تشتغل بالعلوم والفنون وتظهر ذوقها وتحسّن اخلاقها لان زمن الفتن والظلم والنهب لا يمكن ان يكون معينًا على تتميم العلوم والتأنّس والتعيش والاجتماع البشري وحسبك انهُ لم يمضِ قرن من فتوح الامم الخشنية المتبربرة للبلاد الرومانية الاّ واصبحت رسوم المعارف والاداب دارسة منسية لا ذكر لها عندهم فاهملوا وفقدوا علوم الفصاحة التي هي آلة للزينة وهجروا عدّة فنون تكون سببًا في انتظام المعيشة وصلاحها فكانوا في هذه الازمنة المشومة لا يعرفون اسماء علوم الادب والفلسفة واذا كانوا يشتغلون ببعض هذه الاداب فانما كانوا يستعملونها في الاشياء الحقيرة لا في ما ينبغي ان تُستعمَل فيهِ

وكان الاعيان المتقلدون في الوظائف المهمّة لا يعرفون القراءة ولا الكتابة فكانوا يعملون صورة صليب بدلاً عن امضاهم على الوثائق الصادرة عنهم وقد بقي عدّة وثائق الى زمنا هذا صادرة عن بعض الملوك وبعض الاعيان عليها صورة صليب بدلاً عن الامضا وكان الكونتة هربود رئيس المحكمة واعظم قضاة الدولة في القرن التاسع وكذلك دوغسقلين رئيس الجيوش الفرنساوية واول اكابر عصرهِ في القرن الرابع عشر لا يعرفان الكتابة ولا القراءة

وهكذا كان كثير من القسوس لا يفهمون الخطابات التي كانوا ملزومين بتلاوتها عن ظهر القلب دائمًا بل كان بعضهم لا يحسن القراءة واغلب ارباب المناصب منهم لا يمكنهم ان يكتبوا اسماءهم على القوانين التي كانت تتقرر في المجامع التي كانوا يحضرونها ولذلك كان من جملة القوانين انهُ يلزم كل من طلب ان يتقلد منصبًا او وظيفة يسأل هل يعرف ان يقرأ الانجيل والرسائل ويفسّر معناها ولو كلمةً بكلمةٍ من غير نظر الى تفسير الجملة وكان الملك الفريدوس الاكبر ملك بريتانيا وانكلترة (الذي تقدّم ذكرهُ) يتشكى من عدم وجود احد من القسوس في البلاد التي بين نهري هومبير والتيمس بفهم الصلوات باللغة

اللاتينية ويمكنه ان يترجم من اللغة المذكورة ولو العبارات السهلة

وكانت روايات الوقائع الماضية منسيةً عندهم ضائعة لا وجود لها الاّ في التواريخ المملوة من الوقائع والحوادث الباطلة

وصارت القوانين التي ألّفتها الملل التي نزلت باقاليم اوروبا المختلفة متروكةً لا يُعمل بها ولا يعتمد عليها واستعاضوا عنها بعادات فاسدة مخالفة للعادات القديمة

ولمّا تجردت هذه الامم عن الحريّة والحمية والغيرة وتعذرت عندهم ممارسة العلوم وقعوا في ظلمات الجهل ومكثت اوروبا مدة ٤٠٠ سنةٍ من القرن الثامن الى القرن الحادي عشر لا يظهر منها احد من المصنفين يكون اهلاً لان ينتفع بقراءة كتابهِ وحريًّا بان يشهر بفصاحة العبارات وغرابة المعاني فلم يخترعوا في مدة هذا التاريخ اختراعًا يكون نافعًا مفيدًا للجمعية تتشرف بهِ تلك الاعصر

وفسدت الديانة المسيحية المعيشة قوانينها وترتيباتها في الكتب المقدسة بالتدقيق الذي لا يقبل التغيير ولا التبدبل وانقلب في هذه القرون المجهولة الحال الى بدعٍ خشنية لانهُ لما دخلت الشعوب المتبربرة في الديانة المسيحية لم تغير مشربها في العبادة وانما غيرت معبودها فكانت تجحث عن ان ترضي الاله الحق سبحانهُ تعالى بوسائل قليلة الاختلاف عما كانت تستعملهُ سابقًا لتسكين غضب آلهتها الباطلة التي كانت تعبدها

وحسبك في اثبات ذلك حكاية مضحكة مما كان القسوس يفعلونهُ وقتئذٍ من الامور الهزئية التي كانت تُعمل في الكنائس لا على سبيل الاستهزاء واللعب بل على سبيل انهُ امر تعبدي تعملهُ القسوس ونقرّهُ الكنيسة وهو انهُ كان يُعمل محفل في عدّة كنائس في فرانسا تذكارًا لفرار مريم العذراء المباركة الى مصر وكانوا يسمون هذا المحفل موسم الحمار وذلك بان يزينوا بنتًا شابةً بافخر الملابس حاملة فوق ذراعيها طفلاً وراكبة على حمارٍ مسرج بسرجٍ فاخرٍ والناس يقودونهُ الى المحراب مع الزفاف والاحتفال ثم يصلون وهم في محفلٍ وازدحام عظيم وقد

عودوا الحماران يجثو على ركبتيهِ في اوقاتٍ معلومة اثناء الصلاة وبعد الصلاة ينشدون اشعارًا مضحكة ككلام الصغار ثم يصرف القسيس الناس بكونهِ ينهق كالحمار ٣ مراتٍ وكذلك الحاضرون يردون عليهِ الجواب بان ينهقوا مثلهُ ٣ مرات وقد ذكر المورخون كثيرًا من مثل هذه المواسم الموجبة للازدراء والسخرية كموسم المجانين وغيرهِ

وفي بعض المولفات انهُ كان في الاعصر الوسطى جماعة تسمّى التوابين بالسوط لان الانسان منهم اذا تاب كان يضرب نفسهُ بالسوط ليكفر بذلك عما ارتكبهُ من الذنوب وكانوا يعذبون اليهودي اذا تنصّر ولم ياكل لحم الخنزير او صام يوم السبت لانهُ يكون بزعمهم منافقًا وانهُ باقٍ على دين اليهود وذكر بعضهم بانهُ كان من الامثال المضروبة بينهم انهُ من مشى ٦ خطوات في بلاد فلسطين لا يمكن ان يخسر نفسهُ

وقد بلغ بهم الجهل ان يختبروا الاراء المختلفة في الدين بالمحاربة الشرعية كما حصل في مملكة اسبانيا في القرن الحادي عشر عند ما حصل نزاع بين اصحاب الطقس الموزرابيكي الذي كان مستعملاً في كنائس اسبانيا وبين اصحاب الطقس الروماني فاستحسن الملك وقتئذٍ رأي الاشراف بانهاء هذا النزاع الواقع بينهما بالمحاربة الشرعية وقد اتفق ان الذي كان يحارب عن الطقس الموزرابيكي ظفر بمن كان يحارب عن طقس الكنيسة لكن كانت الملكة ومطران مدينة توليدة يميلان الى الطقس الروماني فاشارا بان يصير امتحان اخر بطريقة لا مدخلية لاحد فيها سوى الله تعالى ولا يمكن مراجعتها وهي طريقة قضاء الله فاشعلوا نارًا كبيرة ورموا فيها كتابًا من كل طقس واتفقوا على ان الكتاب الذي يحترمهُ اللهيب ولا تاكلهُ النار يصير معمولاً بهِ في كل كنائس اسبانيا فاتفق ان الكتاب الموزرابيكي لم يحترق واما الكتاب الروماني فصار رمادًا[1]

(١) ان طقس العبادة الجمهورية المستعمل في رومية لم يكن قد ادرج في كل بلدان اوروبا حتى الجيل الحادي عشر فلما الحّ البابا غريغوريوس السابع في هذا الامر لم يوجد في

وقد اعتذر الفاضل روبرتسون عن هذه الحالة المحزنة التي كانت عليها اوروبا في القرن الثامن الى نهاية القرن الحادي عشر بقلة الكتب وندرتها وقتئذٍ وعدم انتشارها بين الناس لان الرومانيين كانوا يكتبون كتبهم على جلودٍ مصقولة او على ورق قشر البابيروس المسمّى عندهم بردى وفيلكون ويقال له ايضاً ورق النيل لانه كان ياتي من مصر وكان ارخص ثمناً من الجلود ولذلك كان اكثر استعمالاً عندهم لكن لما افتتح المسلمون بلاد بر مصر في القرن السابع انقطعت المخالطات بين اهالي مصر وشعوب اوروبا وبطل استعمال ورق النيل فاضطروا الى الكتابة على الجلود وكانت غالية الثمن فلذلك صارت الكتب غالية ايضاً ونادرة جدّاً وكان يصعب تحصيل موادّ يكتب عليها حتى انه يوجد الى الآن بعض كتب من مولفات القرن الثامن والتاسع كأنها منسوخة في جلودٍ ازيلت منها الكتابة القديمة وعوضت بكتابةٍ اخرى جديدة وكان ذلك سبباً في ضياع عدّة مولفاتٍ قديمة ولذلك قلّت بل ندرت الكتب القديمة السابقة على القرن الحادي عشر وقلّ ان وجد في ذلك الوقت اناس يملكون بعض كتب بل بعض الديورة والكنائس كان لا يوجد فيها سوى نسخة واحدة من القنداق لخدمة القداس

وكتب راهب يقال له لوب وكان رئيس دير فيريرس مكتوباً الى البابا في سنة ٨٥٥ م يستحلفه به ان يعيره نسخةً من كتاب شيشرون ومن قانون كنتليان قائلاً انه لا يوجد نسخة كاملة من هذه الكتب في مملكة فرانسا جميعها واشترت كونتية انجو نسخةً من كتاب مواعظ هيمون اسقف هلبرستادة فدفعت فيها ٢٠٠ من الضان و٥ مقادير من الارض مزروعة قمحاً و٥ اخرى مزروعة من الجاودار و٥ مزروعة من الذرة البيضا كما في تاريخ اداب فرانسا ولما استعار الملك لويس الحادي عشر من جمعية الطبّ البشري بمدينة باريس مولفات

شعوب اوروبا من ضادّ هذا المشروع اكثر من اهالي اسبانيا ولما اراد الملك الفونسو ان يمتثل ارادة هذا البابا اعترضه الاشراف ومن ثم جرى هذا الامتحان في سنة ١٠٨٠ م

الفخر الرازي رهن هذا الملك في نظيرها مقدارًا جسيمًا من امتعتهِ الثمينة بل طلب منهُ كفيل يكفالة حتى يردّ هذه الكتب فعيّن لذلك بعض الملتزمين مع ان هذه الاستعارة كانت بالقرب من اواخر القرن الخامس عشر وكان اذا وقف احد كتابًا على كنيسةٍ او دير عدّ ذلك امرًا عظيمًا فكان يدنو بنفسهِ الى المحراب ويضع الكتاب فيهِ لكن لما اخترع فن اصطناع الورق المعتاد اوانهُ وصل الى اوروبا بواسطة العرب الاسبانيوليين في القرن الحادي عشر تعددت بذلك الكتب وسهلت ممارسة العلوم سهولة غريبة بالنسبة لما كانت عليهِ قبلاً

الحروب الصليبية

من سنة ١٠٩٦ م الى سنة ١٢٧٠ م

كأنّ العلوم والمعارف كانت وقتئذٍ ذات هيولى اي جسمٍ مادي متحيز لا يمكنهُ ان يوجد في قطرين متخالفين من اقطار الارض لانهُ منذ القرن الذي نُقلت فيهِ صناعة الورق الى اوروبا على ما ذكرنا استبان من قرائن الاحوال بان العلوم والمعارف اخذت في اهبة الرحيل والانتقال من الاقطار الشرقية الى الاقطار الغربية قال العلاّمة الفاضل خير الله افندي المورخ العثماني بمعرض التشكي من حالة البلاد الاسلامية انهُ من القرن الخامس الى القرن السابع من الهجرة سنة ١١٠٠ — سنة ١٣٠٠ م لم يبقَ بين الناس اعتبار ولا حرمة للعلوم والمعارف بل تلاشى ذلك من افكار العالم بالكلية واعترى العلماء والمورخين الفتور والكسل حتى ان علماء السنّة من المسلمين وهم كبار الائمة اصحاب المذاهب الاربعة مع كونهِ اقتدى بهم الوف من العالم اتصل بهم الضرر وكابدوا من

انواع البلايا والمصائب هم وغيرهم من العلماء ما لا مزيد عليهِ والاماكن العامرة التي كانت زاهيةً زاهرة بالعلوم والفنون استولى عليها المسلمون الذين كانت احوالهم مضطربة في تلك الاعصر نظرًا لهجوم التتار عليهم من كل الجهات وما بقي من اهالي اوروبا كانوا في حالة التوحش والبربرية مشتغلين في الحروب الصليبية والانقسامات الكنائسية الشرقية والغربية فلم تبقَ فيهم وسائل ترغبهم في تحصيل العلوم والمعارف حتى ان الاكدميات التي كانوا ينشئونها ويؤسسونها نظير المدارس التي كانت في البلاد الاسلامية كانت تعيقها المداخلات والتعصبات التي كانت تصدر من الحكام لكن مع كل ذلك حصل نوع تقدم في الحِرف والصنائع بفرانسا (ما ذكرهُ هنا من هذا القبيل سوف نوردهُ في محلهِ عند الكلام على الحرف والصنائع في اخر الفصل التالي)

اما العلامة المعلم روبرتسون المورخ الانكليزي المقدَّم ذكرهُ فانهُ يقول بعد ما حكاهُ وقد سبق تلخيصهُ عن فضائح جهالة تلك الاعصر التي مرَّ ذكرها ان ذلك كان مصداقًا لِما قالهُ المعلم هوم (مورخ انكليزي اخر) وهو ان الانسان اذا وصل الى حضيض الانحطاط او ارتفع الى اوج الارتفاع فانهُ يرجع الى الضدّ لانهُ لما وصلت تلك العيوب الى اقصى درجةٍ في الزيادة عند ذلك اخذ سير الحكومة واخلاقها في التنازل الى ان زال خالُ الترتيب والخشونة وترتب بدلهُ الادب وانتظام القوانين وكان السبب الاصلي في ذلك تلك الحروب الصليبية المشهورة (التي ابتدأت في زمن فيلبس الاول بن هنري الاول ملك فرانسا من سنة ١٠٩٦ م) بقصد استخلاص الاراضي المقدسة من تسلط المسلمين

وذلك انهُ كان ظهر على حين غفلةٍ في اوروبا رأْي عظيم انتشر بين الناس جميعًا وهو انهم تخيلوا ان الالف سنة المذكورة في رؤْيا القديس يوحنا الانجيلي ص ٢٠: ١–٤ قاربت الابتداء وان المسيح سيظهر في اورشليم ليملك على الارض فترك كثير من الناس اموالهم واملاكهم وعيالاتهم واحباءهم وذهبوا بسرعةٍ الى

الاراضي المقدسة غير ان كثيرين من الزوار الذين رجعوا الى بلادهم اخبروا عمّا وقع لهم من معاملة الاتراك الردية (اتباعًا الى الاصل) بعد ان كان الخلفاء المنورون بانوار المعارف الذين كانوا يحكمون هذه البلاد قبل الاتراك المذكورين يعاملون زوار القدس احسن المعاملة ويعينونهم على زياراتهم لِما ان ذلك كان لهم من قبيل التجارة التي تعود عليهم بالربح العظيم الى ان اخذ الاتراك منهم هذه البلاد في اثناء القرن الحادي عشر المذكور

وقولنا هنا اتباعًا للاصل هو لكون ان حكام مصر وبر الشام في القرن الحادي عشر والثاني عشر ايضًا لم يكونوا من الاتراك وانما كان الخلفاء العبيديون الفواطم هم الذين يحكمون هذه البلاد واما الاتراك الايوبية الكردية فلم تتملكها الاّ منذ ظهور السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة ٥٦٧ للهجرة سنة ١١٧١ م واول تجريدةٍ من هذه الحروب كانت في سنة ١٠٩٦ م على ما قد ذكرنا فيكون ذلك في ايام خلافة المستعلي بالله ابي القاسم احمد ولد المستنصر العلوي العبيدي فلا دخل للاتراك في اسباب هذه الحروب وينبغي ان تكون الشكوى من العلويين لامن الاتراك

وقال العلاّمة خير الله افندي المقدَّم ذكرهُ ما ملخصهُ مترجمًا ان سبب هذه الحروب هو عدم امتلاك المسيحيين في ذلك الوقت الحرّية الكاملة حسب مرغوبهم عندما كانوا يتوجهون الى زيارة الاماكن المباركة المختصة بهم في الاراضي المقدسة وزاد عليهِ ايضًا الاعمال الغير لائقة التي جرت بامر الخلفاء الفاطميين كهدم كنيسة القيامة وغيرها من باقي الاماكن الشهيرة المعمورة وقال ابن خلكان ان الذي امر بهدم كنيسة القيامة وكنائس النصارى بمصر هو الحاكم بامر الله العبيدي وكان ذلك في سنة ٤٠٨ للهجرة سنة (١٠١٧ م)

وعلى روايةٍ اخرى ذكرها ايضًا خير الله افندي المشار اليهِ ان سبب تلك الحروب كان الانفصال الذي وقع بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية فكان قصد اهالي اوروبا بفتوحاتهم للاراضي المقدسة ان يبطلوا حقوق

اكليروس الكنيسة الشرقية في ميراث تلك الامكنة المباركة ويتداخلوا هم بها ولذلك لم تكن نساعد نصارى الشرق هولاء الحربيين الصليبيين عندما هجموا على الاراضي المذكورة فصار ذلك داعيًا الى النفور العظيم بين الكنيستين فان هذه الاراضي طالما هي في يد المسلمين تبقى حقوق ميراثها محفوظةً الى الكنيسة الشرقية اعتبارًا الى العهدة المعطاة منهم الى صفرونيوس بطريرك اورشليم ولذلك توجه هولاء الحربيون الى القسطنطينية واستولوا عليها مع انها كانت وقتئذٍ تحت امبراطورية مسيحية ولم يكن بقصد نهب الحارة التي كانت مخصوصة بسكن المسلمين فيها كما زعموا بل بقصد الانتقام من الكنيسة الشرقية ومن ثم استولى عليها عدّة قياصرة لاتينيين نحو نصف قرن من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٥٧ م تحت سلطنة بود وابن كونتة اقليم فلاندرة وذريته ونهبوا كنيسة القديسة صوفيا (آياصوفيا) ونقلوا زينتها وكل ما وجدوهُ من الآثار والتحف القديمة الى مدينة البندقية

ولنترك البحث في الاسباب اذ انها على اية صورةٍ كانت تنتج شيئًا واحدًا وهو اغارة اهالي اوروبا على هذه البلاد وقد ابتدأت هذه الحركة براهبٍ يقال له بطرس أرميطة ومعنى ارميطة العابد الزاهد فكان يطوف اقاليم بلاد اوروبا وبيدهِ صورة المسيح مصلوبًا ليهيج الملوك والرعايا على الشروع في حربٍ مقدّسة حتى ان مجمع بليزنسة الذي كان يحضرهُ اكثر من ٣٠ الف شخص قضى ان مقصد هذا الراهب كان الهامًا الهيًا

ثم ان كلام مولفي ذلك العصر يقتضي ان عدد من حمل علامة الصليب واستعدّ لهذه الغزوة كان ٦ ملايين من المحاربين وبسبب هذه العلامة سُميَتْ هذه الحرب بحرب الصليبيين ومن بعد ما حدث عند اهالي اوروبا العلامات التي يتخذونها الآن الرتب والشرف ولما رأت اميرة يقال لها كومينية هذا الاستعداد العظيم قالت يظهر ان اوروبا انتزعت من مواطنها لكي تنزل بثقلها على اسيا

واستمرّت هذه الحروب زمانًا طويلاً من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١٢٧٠ م حتى سئم منها وصارت ذميمةً ورجعت بقايا هذه الجيوش الى مواطنها الاصلية بلا طائل بعد ان سفكت فيها دماء لا تحصى ابادت عدّة ملايين من الرجال

وكانت تعزية الذين رجعوا وقتئذٍ سالمين الى اوطانهم هي ما استصحبوهُ برجعتهم الى اوروبا من الآثار العتيقة التي اخذوها من اورشليم مثل قطع اخشاب زعموا انها من صليب المسيح بعينهِ وثياب زعموا انها ثيابهُ والآلات التي تالم بها وذرة من النجم الذي رآهُ المجوس في المشرق ومقدار من صوت الاجراس التي في اورشليم وقطعة من السلَّم السماوية التي رآها يعقوب في حلمهِ وعين المخس الذي أُعطي الى بولس الرسول في جسدهِ وآمن العامة هولاء الخداعين وطفقوا يزورون الهياكل التي وضعوا فيها هذه الذخائر كما كانوا يزورون بيت مريم العذراء الذي يزعمون انهُ انتقل بعينهِ بعد استيلاء المسلمين على اورشليم في الفتوح الاول طائرًا في الجوّ من مدينة الناصرة الى مدينة لورتو في ايطاليا وكذلك الحمار المقدس الذي ركبهُ المسيح وهو نازل الى اورشليم فانهُ ابى بعد ذلك ان يقيم في اورشليم فقام وقطع البحر على وجهِ الماء بعد ان زار قبرص وكريد ومالطة وسيسيليا وحلّ اخيرًا في فيرونا وبقي جسدهُ محفوظًا في تلك المدينة على نوعٍ عجيب وفيرونا اسم مدينةٍ من اقليم لومبارديا في ايطاليا ايضًا

ولنكتفِ الآن بما ذكرناهُ مما استصحبهُ هولاء الحربيون من مثل هذه الذخائر الهزئية ونشرع في البحث عما اكتسبوهُ من الفوائد الحقيقية بهذه الغزوات التي هم انفسهم الآن يعدونها من الجنون البشري وبها ينتهي الفصل الثاني من القسم الثاني من اقسام التاريخ ويبتدي بالفصل الثالث الذي هو نهاية القرون الوسطى

الفصل السابع

في حالة العلوم والمعارف منذ اشهار الحروب الصليبية اعني من سنة ١١٠٠ م الى نهاية القرن الرابع عشر

لا يخفى بان الغزوات الصليبية المذكورة كانت اول حادثة اخرجت اوروبا من بحار الغفلة التي كانت غارقة فيها مدة احقاب طويلة لانها حملت اهاليها على بعض تغييرات في حكوماتهم واخلاقهم وذلك عندما مروا في جهة بلاد القدس باراضٍ نضرة اكثر من اراضيهم وبدولٍ متمدنة اكثر من تمدن دولهم وكانوا يجتمعون في مبدأ امرهم في ايطاليا وكانت مدينة بيزا والبندقية وجنويزة ومدن اخرى منها شرعت تجتهد في التجارة واشتغلت بالتأدب

ثم لما توجه هولاء الحربيون الى مدينة القسطنطينية كانت الدولة اليونانية الشرقية بتمامها خالية من الميل الى الحرب والجهاد مدة احقاب طويلة وكان جور الحكام قد محق من تلك الدولة جميع الفضائل العمومية ولكن مدينة القسطنطينية التي هي دار ملكتها لم تخربها الملل الخشنية كما خربت غيرها فكانت اعظم مدن اوروبا وباقي فيها بعض اشيا من التمدن وحسن التربية القديمة وكانت قوتها البحرية عظيمة وكانت مزينة بالمعامل المعتبرة وهي وحدها مخزن بضائع بلاد اوروبا الآتية من بلاد الهند وكانت فيها منابع الغنى التي كانت سبباً في ميل اهلها الى الزينة والعلوم والاشياء الفاخرة ولذلك تعجب المورخون اللاتينيون غاية العجب عندما نظروا امبراطورية المشرق وثروتها وظرفها وبمجرد ما نظر احدهم الذي هو المعلم فولكو دوشرتروس الى

تلك العاصمة صاح اذ تعجب من منظرها قائلاً يا لها من مدينةٍ ظريفة واسعة وما اكثر ديورتها وقصورها البديعة البناء وما اكثر ما يُرى فيها من الورش (المعامل) العجيبة وما كنت اتوهم بانهُ يكثر بها كل انواع الاشيا والنفائس من ذهبٍ وفضة واقمشة متنوعة كيف لا وقد شاهدت ميناها يأتي اليها في كل ساعةٍ سفن موسوقة من جميع الاشياء اللازمة لاستعمال الناس وكذلك غليوم مطران مدينة صور وصف في عدة مواطن بهاء ديوان القسطنطينية وعظمة وذكر ان ما كان يراهُ اهل المغرب في تلك المدينة كان يجل عن ان تحيط بهِ عقولهم. وبنيامين العبراني رجل من مدينة تودلة باقليم نوار وكان مبدأ رحلتهِ في سنة ١١٧٣ م وصف هذه المدينة بعبارات تدلّ على غاية التعجب ومثلهُ المولف برجرون في رحلاتهِ في القرن الثاني عشر والثالث عشر وما بعدهما وتكلم الراهب غونيتير الفرنساوي في تاريخ الفهُ في فتح هذه المدينة بالجيوش الصليبية في القرن الثالث عشر على عظم تلك المدينة وبالغ فيها كغيرهِ وهكذا جرفروا دوويل هردوان من الاشراف المتازين المترفهين وقتئذٍ في بلاد المغرب ذكر عبارةً في هذا المعنى وبالغ في التعجب الذي ادهش بعض عساكرهِ الذين لم يروا مدينة القسطنطينية الا تلك المرّة معهُ فقال يعسر على هولاء العساكر ان يصدقوا بانهُ يوجد في الدنيا بتمامها مدينة ظريفة غنية مثل هذه المدينة حتى نظروا الى اسوارها الكبيرة وحصونها المشيدة العالية وقصورها البهية اللطيفة وكنائسها النفيسة المنيفة فكبر ذلك في اعينهم بحيث لو لم يروها حسيًّا لم يتأتَّ لهم ان يتصوروها بمجرد وصف الواصف

وكانوا قبل ذلك وجدوا في اسيا ايضًا اثار العلوم والفنون التي كان اعان على تحصيلها في بلاد الاسلام الخلفاء العباسيون واكتسبوا من اخلاق الملك صلاح الدين الايوبي وغيرهُ من امراء المسلمين ما اكتسبوهُ فلم يمكنهم ان يجوبوا كل هذه البلاد من غير ان يكتسبوا من علومها ومعارفها فلذا اتسعت اطماعهم وضعفت اوهامهم وتصورت اذهانهم تصوراتٍ نافعة وتاكدوا ان ما كانوا عليهِ

من الاخلاق هو خشني بالنسبة لاخلاق الشرقيين وكانت هذه التاثيرات قوية جدًّا لم تبرح من حافظتهم حين رجوعهم الى اوطانهم وكان بين اهل المشرق والمغرب تجارة دائمة وكانت اخلاط العساكر المجتمعة من الجهات المختلفة ترجع الى محلاتها مستصحبة للعادات التي اكتسبتها في مدةٍ طويلة من الاراضي الغربية

فبعد زمن قليل من الشروع في المحاربات الصليبية ظهرت تحسينات كثيرة في دواوين اوروبا وزينات جميلة في المحافل العامَّة والمجامع المدنيَّة وترفهات جليلة في الاعياد والمواسم وصارت حكاية الحوادث محبوبة لديهم واتسعت دائرتها وانتشرت في جميع بلاد اوروبا شيئًا فشيئًا

وحسبنا ان نورد قياسًا لذلك من تلك التحسينات ما جرى في فرانسا وحدها فانها منذ اكتسبت الحرّية[1] على ما يأتي اسس فيها الملك لويس السابع الذي تولى حكومتها في سنة ١١٣٧م المدارس الجديدة الآتية تفاصيلها وظهرت الشعراء في الاقاليم الجنوبية منها وفي زمن فيلبس الثاني الذي تولى المملكة سنة ١١٨٠م بنيت اسوار باريس وتبلطت اسواقها وبني فيها اسواق جديدة وعدَّة كنائس ودفترخانه لاجل وضع دفاتر المملكة وكان هذا الملك يراعي دواوين العلوم وينعم عليها بمزايا عظيمة وبنى مينا باريس وصيَّر بذلك تجارتها ذات مزية مستمرة واحدث عساكر الورديان المسمَّى بلغتهم ريبود وهو اوَّل خفرٍ احاط بملك فرانسا لخفره

(1) ان لفظة الحرية يُطلق في عرف اهالي اوروبا بازاء معنيين احدهما يسمى الحرية الشخصية وهو اطلاق تصرُّف الانسان في ذاته وكسبه مع امنه على نفسه وماله وعرضه ومساواته لابناء جنسه لدى الحاكم بحيث ان الانسان هضيمةً (يعني مسودًا) في ذاته ولا في سائر حقوقه ولا يحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المتقررة لدى المجالس وبالجملة فان القوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعيَّة والحرية بهذا المعنى موجودة الآن في جميع الدول الاوربية الاَّ في البلاد التي كان يحكمها سابقًا الباباوات والدولة المسكوبية لانهما مستبدتان وهما وان كانتا ذاتي احكامٍ مقررة الاَّ انها غير كافية لحفظ حقوق الامة لان نفوذها موقوف على ارادة الملك اما المعنى الثاني فهو الحرية السياسية وهي طلب الرعايا التداخل في السياسات الملكية والمباحثات في ما هو الاصلح للمملكة

وفي القرن الثالث عشر اوقف الملك لويس الثامن المتولي عليها في سنة ١٢٢٣ م اوقافًا على ٢٠٠٠ مرستان معدَّة للمصابين بداء الجذام الذي كان معتريًا ومات بهِ والَّف الملك سنت لويس الذي تولى سنة ١٢٢٦ م قوانين نهى فيها عن الحروب الداخلية الخصوصية وعن فصل الدعاوي بالمقاتلات الشرعية الّا في بعض صورٍ استثناها وفرق بين الوظائف السياسية والقضائية واحدث للمحاكم الملكية عدَّة ترتيبات حسنة وشرع للتجارة قوانين تجملها وأسس المرستان المسمَّى كانزوت مأوى للعميان

وفي القرن الرابع عشر حُرِمت النساء من لبس التاج الملوكي بفرانسا في زمن الملك فيلبس الخامس الذي تولى المملكة سنة ١٣١٦ استنادًا على القانون السالي مع ان هذا القانون لم يتفوه بشيء من ذلك على ما تقدم في الفصل الرابع من هذا البحث الذي نحن بصددهِ وانما سبب ذلك على ما قالهُ بعض المولفين هو سلطة النساء على قلوب الرجال فاذا تولين المناصب لعبن بالرجال كما يحببن وفي زمن الملك كرلوس لوبيل اي الظريف الذي جلس على التخت في سنة ١٣٢٢ م كانت مملكة فرانسا اجنبيةً عن العلوم والمعارف والفنون التي كانت ابتدأت وقتئذٍ ان تزهر وتزهو ببلاد ايطاليا لكن مع ذلك استدلوا على ان الاداب والفنون شرعت تزهر بجنوب فرانسا بواسطة المدرسة المخترعة التي ترتبت للالعاب بمدينة طولوزة وفي زمن الملك كرلوس الخامس الذي تولى سنة ١٣٦٤ م ترتب علم البحرية وبذلك انتصر على الانكليز وتوسعت التجارة وترتبت قوانين عظيمة وحمى هذا الملك العلوم والفنون والاداب حيث أسس بدار حكومة المدينة مكتبة جلب اليها بعض مجلدات كان جمعها ابوهُ وزاد فيها حتى بلغت ٩٠٠ مجلد واسس مدرسة ومرصد للكواكب للعالم المسمَّى جيرويس وسوف يأتي ذكرهُ الذي كان انشط علماء الفلك في العلم الكاذب الذي كان يعتقدهُ هذا الملك كغيرهِ من الملوك في ذلك العصر وكان يقول لا ارى ان الملوك اسعد من غيرهم الّا بما عندهم من القوة والمقدرة على فعل الخيرات

ويتضح مما تقدم بان الحرية التي ذكرناها كانت هي اول تاثير هذه الحرابة في الامن على الاملاك وابطلت المشاجرات والشرور الخصوصية وشرعت ادارة العدل في ان تأخذ صورة مستحسنة ليس في فرانسا فقط بل في جميع ممالك اوروبا الآتي ذكرها

وما ذاك الّا لان الحكومة السيادية الالتزامية كانت قد استحالت الى الظلم والجور فان الاشراف استعبدوا الرعايا فكان لا يمكنهم ان يتصرفوا في منافع صنائعهم لا بالوصية ولا بغيرها مدّة حياتهم ولا ان يعينوا اوصياء لصغار اولادهم ولا يتزوجوا الّا بعد شراء الاذن من ملتزمهم ولا يمكنهم ان يتمموا صلحًا في فصل الدعاوي ما لم يعطوا الحاكم محصول الدعوى وكان هناك جملة قوانين تمنع تقدم الصنائع عندهم لكن لمّا شرعت مدن ايطاليا في الالتفات الى التجارة وفهمت بعض صناعات نافعة خطر ببالها ان تخرج من تحت ذلّ الملتزمين وان ترتب لنفسها حكومةً مؤسسة على الحرّية والامن على الاملاك ومقويةً للفنون والصنائع ثم بمجرد وقوع ذلك في ايطاليا شرع هذا الامر بالدخول الى فرانسا واجتهد ملكها لويس لوغروس (اي السمين) الذي تولى المملكة سنة ١١٠٨م في عتق الاهالي من ظلم الملتزمين وابطل جميع علامات الاسترقاق وفي دون قرنين بطل الرقّ في اغلب قرى فرانسا التي كانت محرومةً الى ذلك الوقت من الحرّية والحكومة الشرعية والخصائص وهكذا ايضًا شرعت وقتئذٍ مدن المانيا العظيمة في كونها تنسج على منوال فرانسا فانتشرت هذه الطريقة حالاً في اوروبا ودخلت جميع بلاد النمسا واسبانيا والانكليز وابروسيا وسائر الدول التي كانت حكومتها التزامية وصارت المدن منقسمة الى عدّة جمهوريات صغيرة محكومة بالقوانين المعروفة عند الناس والمسوية بينهم ونشأ من ذلك ضعف شوكة الملتزمين ولاسيما بواسطة ذبّ الملوك عن خصوصيات الاهالي ضدّ الملتزمين تقوّت شوكة الملوك بميل الاهالي لهم واعانتهم لهم في الاموال ايضًا ومن ثم اخذ ضبط وربط الحكومة في التكامل كلما ازداد عمران المدن بالاهالي

وكثرت بينهم المعاشرات والمخالطات حتى آل الامر الى ترتيب قوانين جديدة جرى العمل بها مع التدقيق والمواظبة

وكانت جزيرة انكلترة اول مملكةٍ جاء من قراها وكلا رعايا الامم الذين دخلوا في المشورة العمومية الاهلية سنة ١٢٦٥ م وكذلك فيلبس الظريف ملك فرانسا الذي تولى المملكة سنة ١٢٨٥ ادخل في الديوان المسمّى مشورة العموم الاهلية وكلاء المدن التي كانت قد ترتبت جمعيات مدنٍ حرَّة وكذلك المانيا جعلت وكلاء المدن مساوين لعظماء ارباب ديوان الجرمانيين ولمّا عظم اعتبار وكلاء المدن ونفذت كلمتهم صارت المساواة وحسن الترتيب والنفع العمومي وابطال الظلم مقاصد عمومية ومطمحًا لانظار جميع الناس ودخل ذلك في اقرب وقت في قوانين الشعوب الافرنجية واحكامها

ولمّا كثر الاعتاق في سنة ١٢١٥ م وامتد في فرانسا وايطاليا والمانيا وازدادت الرغبة في الحريّة ببلاد الانكليز حتى صار اسم الاسترقاق الشخصي نسيًا منسيًا كثرت الزروعات بما ان الزارع صار يزرعها لنفسهِ وليس لمنفعة غيرهِ

ثم جعلوا وسائط الانتظام والمساواة والقوة في تدبير فصل الخصومات واسسوا لاجل توفية هذا الامر قوانين ترجع الى ٣ وسائط اصليَّة وهي

(١) ابطال الحقوق الخشنية التي كانت الاحاد تزعم استحقاقها وهي محاربة بعضهم بعضًا

(٢) ابطال القتال الشرعي لفصل الخصومات والامتحانات التي يسمونها قضاء الله

(٣) اقامة الدعاوي في محاكم الملوك بعد فصلها في محاكم الملتزمين لكن مع كل ذلك كانت طريقة المقاتلة الشرعية وان اخذت في التناقص على التدريج وصارت قليلة الاستعمال في اغلب البلاد يوجد منها بقايا الى القرن السادس عشر حسبما ذكر ذلك في تواريخ فرانسا وانكلترة فان المولف موربس

ذكر محاربة شرعية وقعت بحضرة دوك بريطانيا سنة ١٣٨٥ م بين روبرند ويومنوار وبين بطرس دوتور نومين وكان بومنوار اتهم تورنومين بانهٔ قتل اخاه فبارزا بعضهما وهزم بومنوار خصمهٔ تورنومين فثبت على تورنومين القتل وحكم عليهِ شرعًا بالشنق في الميدان ولم يعفهٔ من ذلك الأكرم خصمهٔ بومنوار لكونهِ اسقط حقهٔ وعفا عنهُ وكذلك في سنة ١٥٢٢ م اذن الامبراطور شرلكان بمحاربة شرعية في اسبانيا ثم ان اخر واقعةٍ حصلت في فرانسا من المحاربات الشرعية هي المحاربة الشهيرة التي حصلت في سنة ١٥٤٧ م بين جرناك وكستنيرة وفي سنة ١٥٧١ م اذن في انكلترة بمحاربة شرعية ووكل بملاحظتها قضاة محكمة المخاصمات العمومية وكذلك في سنة ١٦٣١ م اذن في انكلترة ايضًا بمحاربة شرعية توكل بملاحظتها قائد جيوش انكلترة ومارشالها الاكبر وبعد ذلك بسبع سنين حصل فيها محاربة شرعية ايضًا

وكان لما افتتح الملك لوثاريوس الثاني ألماني من بلاد ايطاليا في سنة ١١٣٧ م عثر اتفاقًا فيها على نسخةٍ من مجموع كتب قوانين يوستنيانوس التي سبقت الاشارة اليها في الفصل الخامس من البحث الاول وكانت هذه القوانين مجهولةً منذ اجيالٍ كثيرة فأُتي بها الملك الى مدينة بيزا فتقدمت حينئذٍ حالة الجمعية السياسية بعض تقدمات عظيمة جدًا والتجاريب التي حصلت في القرون العديدة وسعت عقول الناس في شان هذه التقدمات فصاروا يتعجبون جدًا حيث اطلعوا على هذا المذهب القانوني الذي عجزت اسلافهم عن ترتيب مثلهِ ومع انهُ لم يكن لهم طاقة على ادراك حلاوة تاليف الاداب وبلاغتها ومعرفة معانيها كانت لهم معرفة كافية في ان يحكموا بفضل هذا المذهب القانوني الذي كان محتويًا على جميع الاحكام اللازمة لوقائع الناس على اختلاف احوالهم واعمارهم مع العدل والاصابة والتدقيق ثم بعد ظهور هذا الكتاب القانوني بسنواتٍ قلائل ترتب في اغلب ممالك اوروبا مدرسون للقانون التمدني وامروا بقراءتهِ في المحافل العامّة

وقبل ان ينتهي القرن الثاني عشر صار القانون الالتزامي مذهبًا منتظمًا وصار كتاب دستور القوانين متسعًا ذا شكلٍ حسن الترتيب لتسهل مراجعته وقد تلقى بعض بلاد اوروبا تلك الشرائع الرومانية بالقبول ليستعملوها بدلاً عن الشرائع المدنية وجميع الاحوال التي لم يقضَ فيها بهذه الشرائع كان يحكم فيها على موجب اصول تلك القوانين الرومانية وكان بعض الامم يمزجون الفقه الروماني والقوانين السياسية بقوانين البلاد وكان كلٌّ منها مساعدًا ايضًا لقوانين البلاد على تكميل تشريع الشرائع وترتيب القوانين والاحكام

وفي سنة ١١٤٧ م اخذ المعلم داكربوس في تدريس الشرائع المدنية بمدينة اوكسفورد وفي سنة ١١٥٠ م ظهر فقيهان بمدينة ميلان كتبا قوانين التزامية على نسق الشرائع الرومانية وفي هذه السنة صحح المولف كراتيان او هو غراتيانوس قانون الشرائع الاكليروسية الذي كان ترتب في اورشليم سنة ١٠٩٩ م واضاف اليهِ زيادات كثيرة وذلك لان الاحبار الرومانيين لما رأوا الشرائع المدنية صارت بين العلوم التي تدرس في المدارس احتسبوا كذلك ادراج القوانين الاكليريكية بينها ضروريًّا وكان غراتيانوس المذكور من الرهبان البندكتيين فجمع من كتابات العلماء الاولين ورسائل بعض الباباوات وتحديدات بعض المجامع ما اضافهُ الى ذلك القانون الى ان صار ملخص ناموسٌ قانونيٍّ يليق بتعليم شبان المدارس فسرَّ بهِ جدًّا يوجينس الثالث بابا رومية وقبلهُ علماء بولونيا وادرجوهُ حالاً في التعليم وتبعهم في ذلك اولاً مدرسة باريس الكلية ثم باقي المدارس الاخر ولما كانت هذه القوانين تقوّي سلطان الباباوات وتسندهُ حازت اعتبارًا زائدًا الى يومنا هذا مع ما فيها من السقطات العديدة والغلط البيّن

وفي سنة ١١٨١ م شرع المعلم غالنويل رئيس المحاكم في انكلترة بتأليف قانونهِ وهو اول من شرع بترتيب شرائع معينة في بلاد اوروبا وبعد ذلك ظهر في بلاد ايقوسيا قانون جديد يُنسَب الى داود الاول وهو على نسق تاليف غالنويل ذكر فيهِ ان بطرس دوفونتين الذي هو اوّل من شرع بعمل قانون

من هذا القبيل الف قانونًا جامعًا لعوائد بلاد ورمندواس في ايام حكم الملك لويس التاسع المعروف بسنت لويس واولهٔ من سنة ١٢٣٦ م وفي هذا الزمن ظهر بومنوار الذي ضمّن كتابهٔ عوائد لويتربس ثم نشرت قوانين الملك وكانت مبينةً للعوائد التي كانت في بلاد الجفا الك (الحقول) الملكيَّة

وبمجرد ما عرف الناس اهمية تسطير الشرائع وتقييدها بالكتابة صارت عادة جميع الناس تحرير كل عادةٍ حدثت وتسطير كل شريعةٍ ظهرت وفي سنة ١٤٥٣ م امر الملك كرلوس السابع ملك فرنسا بجمع هذه الشرائع التي اوجبتها العادة في كل اقليم من اقاليم فرانسا ثم جدد هذا الامر لويس الحادي عشر الذي تولى المملكة سنة ١٤٦١ م

وكانوا منذ تحرروا من عبودية الملتزمين تركوا ما كانوا عليهِ من الكسل والبطالة وازدادت رغبتهم في طلب العلوم والصنائع واهتموا بشان التجارة واخذوا في اظهار رونقها وبالجملة ظهر في تلك البلاد التي مكثت مدةً طويلة محلاً للفقر والظلم الغنى والاستقلال وجرت ثروتهم الى التجمل والرفاهية اللذين يتبعها الزينة عادةً ومع ان هذه الزينة كانت غير مالوفةٍ للذوق نتج منها كثير من الاداب والظرف في اخلاقهم واحوالهم كما يستبين ذلك من الابحاث الآتية

العلوم

لا يخفى بانهُ لمَّا كانت الافرنج في القرن الحادي عشر لا زالوا ينشدقون بالشعر ويتباحثون في ما فوق الطبيعيات وبعض الامور النظرية الصعبة المسائل ما كان لا زال باقيًا عندهم من اثار المعارف التي كانوا تعاطوها قبلاً

وهي وإن كانت غير نافعة في شيء ولا مصيبة كما يستبين مما يأتي في الكلام على كلٍ منها بمفرده الاَّ انها كانت تحث العقول على الاجتهاد وتزيدها رغبةً لكونها جديدة وبسبب غزارتها وجراءتها ولذلك كانت الناس تعتني كثيرًا بمزاولتها فلم يتفق اصلاً في الاعصر المنورة بمصابيح العلوم ان الفلسفة الصحيحة المقبولة اعتني بمزاولتها وممارستها اكثر من هذا وذلك انهُ فتح حينئذٍ في جميع امهات الكنائس واغلب الديورة مكاتب على نسق المكاتب التي كان انشاها كرلوس الاكبر على ما سبقت الاشارة اليهِ ثم منذ القرن الثاني عشر تجددت ايضًا مدارس عظيمة ومجالس لكليات العلوم فتخرج منها جمعيات علماء رخص لها في انهُ لا يجري عليها من الاحكام الاَّ ما شرعتهُ بنفسها ورخص لها ايضًا ان تحكم اربابها بافتناء مخصوص بهم متسع جدًّا وانعم على المدرسين والطلبة بحقوق ومزايا مهمَّة ولاجل اتحاف كلٍ على حسب ما يليق بهِ ومكافئتهِ اخترعوا القابًا تليق بطائفة ارباب العلوم والفنون والمعارف والحرف وحيث كان العلم سلمًا لعلو الدرجات والغنى ذهب الى مجامع العلم وهذه المدارس عدد لا يحصى من الطلبة كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

المدارس

قال بعض المولفين انهُ في جانب عظيم من العالم الغربي صار انتباه بغيرةٍ خارقة العادة لطلب العلم وتثقيف كلّ فرع منهُ منذ القرن الثاني عشر فامدَّهُ بسلطانهم وسخائهم بعض الاحبار الاعظمين والملوك والامراء الذين رأوا منفعة العلم في تحسين حال الجمهور وتوطيدهِ فانتظم جمعيات من العلماء في اماكن كثيرةٍ لتعليم العلوم المتنوعة من العلوم البشرية وبما ان الشبان التجأوا اليهم

افواجًا افواجًا يطلبون العلم نشأت شيئًا فشيئًا المدارس العليا التي سميت في الجيل الثاني مدارس كلية وفاقت باريس كل مدن اوروبا في عدد علمائها وفي مدارسها المتنوعة كما في كثرة تلاميذها ففي نحو نصف القرن الثاني عشر المذكور انشئت مدرسة علمية تشبه اعظم مدارسنا (يعني مدارس القرن التاسع عشر) غير انها كانت حينئذٍ غير كاملة وبلا ترتيب الآن الوقت حسنها ونظمها شيئًا فشيئًا وكملها وبالقرب من هذا الوقت ايضًا تأسست مدرسة للعلوم في انجير بهمة واعتنا الاسقف اوجير وكان لعلم الفقه في هذه المدرسة الرتبة الاولى وكانت مدرسة شهيرة في منتبلير لتعليم الشريعة المدنية والطب ومدرسة بولونيا في ايطاليا التي انشئت قبل هذا القرن قد حصلت الان على شهرةٍ عظيمة فالتجا اليها على الاخص طلبة الشريعة الرومانية والمدنية والكنائسية ولا سيما بعد ان جدد تثبيتها ومنحها امتيازات حديثة الملك لوثاريوس الثاني وكذلك مدرسة سالرنو الطبية التي كانت قبل الآن مشهورةً جدًا في هذه البلاد دخلها في هذا القرن عدد وافر من الطلبة وبينما كانت تشاد المدارس العديدة في اوروبا سنَّ البابا اسكندر الثالث قانونا خصوصيًا بجمع عقدهُ في سنة ١١٧٩ م على ان تقام المدارس في كل مكان ويتجدد بناء ما كان موجودًا من ذي قبل في الاديرة والكنائس اذ ان البعض منها كان اما اندرس او انحط بتغافل الاساقفة والرهبان غير ان ازدياد المدارس العالية التي كانت تتجدد وشهرتها لم يتركا مزيةً لهذا القانون حيث ان الاكثرين كانوا يتزاحمون في الدخول اليها حتى آل الامر اخيرًا الى ان سقطت مدارس الرهبان والكنائس شيئًا فشيئًا وتلاشت

ومن الفوائد التي نتجت عن هذه الجمعيات الكثيرة براعتها ليس امتداد العلوم وانتشارها فقط بل وتقسيم فروعها تقسيمًا جديدًا ايضًا لان كل العلم كان منحصرًا الى ذلك الوقت في ما يدعونهُ بالعلوم السبعة التي سبق تفصيلها في الفصل الرابع من هذا البحث وكان ثلثة منها وهي النحو والبيان والمنطق تسمى بالثلاثية واغلب الطلبة يكتفون بتحصيلها واما الاربعة الاخر المسماة بالرباعية

وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك فلا يرتقي اليها الاّ من اراد ان يُحسَب اوّل عالمٍ فاضيف اليها في هذه المدارس علم اللغات التي لم يرغب فيها الاّ القليلون وعلم اللاهوت (غير العلم القديم البسيط العديم النظام والقرائن المثبت فقط من الكتب المقدسة واقوال الاباء) الفلسفي او السكولاتسيكي اعني المدرسي والفقه او الشريعة المدنية الرسمية واخيرًا الطب الذي كان يسمى وقتئذٍ علم الدول وحيث اقيم مدارس خصوصية لهذه العلوم وضعت في جريدة الدروس المستحقة لانتباه ذوي العلم فتغير بذلك ترتيب العلوم المالوف ومن ثم دخلت العلوم السبعة المذكورة بالتدريج تحت حدّ الفلسفة واضيف اليها اللاهوت والفقه والطبّ وهكذا هذه العمد الاربعة حسب تسميتهم اياها انتظمت في القرن التالي في المدارس الكلّية

وقد ذكر المورخون هذه الكوليجيات (اي المدارس الكبرى) والاينورسات (وهي الجمعيات) التي فيها مدارس العلوم التي هي من اهم حوادث تواريخ العلوم الادبية فقال انه كان في مكاتب الديورة والكاتدرالات يعلمون النحو وكان كل مكتب فيهِ معلم واحد او اثنان لتعليم هذا الفن واما الكوليجيات فكانت تشتمل على عدّة مدرسين معدين لتعليم كلّ علمٍ وفن وكان فيها زمن كل علمٍ مبينًا وكانت تعمل بها امتحانات لمعرفة تقدمات الطّلبة وكان كلّ من ظهرت نجابته كوفي بالقابٍ ومراتب وتشريفات اكدمية اي علمية وفي سنة ١٢١٥ م ابتدأت اوينورسات بلاد اوروبا ان تاخذ اغلب عوائدها وقوانينها من اوينورسة باريس وكمل ترتيب هذه الاوينورسات في سنة ١٢٢١ م واعطي اذ ذاك للمدرسين والمعلمين والعلماء مزايا عديدة حتى انهُ كانت تحصل منافسات بين العلماء وبين امراء الكفالري[1] في شان التصدر وكان يتم الامر

(١) معنى هذه اللفظة فرسان والاصل فيها ان في الحروب الصليبية قام ثلث رتب شهيرة حربية كان شغلهم ان يخلوا الطرقات من اللصوص ويساعدوا الفقراء والمرضى من زوار الاماكن المقدسة ويقدموا الخدمة التي تقتضيها مطاليب الجمهور فالرتبة الاولى فرسان

غالبًا بترجيح العلماء وترقيتهم الى هذه المرتبة مع انها امارة عظيمة وحكم بان العالِم له حق بان يُلقب بامير الكثالري لكتور (اي العلمية) ومن كان في درجتها من العلماء يُسمّى الكثالبير كلرك اي الامير العالِم

اما الذين نالوا اعظم المجد والشهرة بتحزبهم للعلم في القرن الثالث عشر ودعوا العلماء الى اراضيهم ونشطوهم بالجوائز والاكرام ونهجوا السبيل الى اقامة المدارس العالية المذكورة في سائر الامكنة وانعموا بما ذكر من الامتيازات للشبان طالبي العلم فيها ومنحوا هذه الجمعيات مزايا الجماهير المدنية وانعموا عليها بتلك الشرائع الخصوصية فهم الملك فريدريك الثاني الذي كان اشتهارهُ بالعلوم ليس باقل من شهرتهِ في المحاماة بغيرةٍ عنها وهو الذي اسّس مدرسة نابلي وامر بترجمة مولفات ارسطاليس الى اللغة اللاتينية وجمع كل العلماء الى ديوانهِ وبرهن بذلك وبغيرهِ ايضًا على عظم محبتهِ للعلوم والفونسوس العاشر ملك كستيل وليون حيث خلّد ذكرهُ بجميع الجداول الفلكية ومولفاتٍ اخرى غيرها

ثم ان هذه العلوم المعروفة وقتئذٍ لم تكن تحصل باجمعها في تلك المدارس سواء كانت جمهورية او كلية مما أُسّس في بادوا ومودينا ونابلي وكاپو وتولوزة وسالامنكا وليون وكولونيا وغيرها بل يحصل البعض منها فقط او بعض علوم خصوصية انما مدرسة باريس التي فاقت غيرها بعدّة امورٍ كما تفوقت ايضًا بكثرة الطلبة والمعلمين هي التي كانت اول مدرسةٍ درس فيها كل العلوم والفنون ولذلك صارت اوّل مدرسة كلّية او جامعة كما كانوا يدعونها وقتئذٍ ثم بعدها

ماري يوحنا الاورشليمي نسبةً الى بيت صحة كان في اورشليم على اسم ماري يوحنا المعمدان وهم الذين نزحوا اخيرًا الى قبرس ثم رودس ثم مالطة والثانية الهيكلية نسبةً الى بيت بالقرب من هيكل سليمان في اورشليم واخيرًا اغتنت جدًّا وظهر منها شرور واعمال اوجبت بغضتها فابطلها البابا ومجمع فيما يسمى فيلبس الرابع ملك فرانسا في مبادي القرن الرابع عشر والثالثة الفرسان التوتونيكيين لمريم العذراء المباركة في اورشليم ايضًا نشأت في سنة ١١٩٠ في حصار عكا وقيل في اورشليم ثم لما نزحت اخيرًا من الاراضي المقدسة سكنت في بروسيا وليفونيا وكورلند وسيمغاليا الى ان تلاشت نظير غيرها

نسج على منوالها مدارس باقي البلاد وكذلك في هذه التي هي ام كل مدارس اوروبا توزع اولاً المعلمون الى اربع مدارس بحسب العلوم التي يعرفونها ومن ثم تسمت هذه المدارس فاكلتز وتعين لكلّ مدرسة منها رئيس عن رضًى من الباقين لمدةٍ معلومة وكان اسقف باريس هو الرئيس العام لكل المدرسة لكن حيث لم تكن بهِ الكفاءة للقيام بكل واجباتهِ أُقيم معهُ اخيرًا رئيس ثانٍ فاسس مدرسة اللاهوت وكان هناك رجل تقي من الاغنياء ذو مكانة عند لويس التاسع ملك فرانسا المعروف بسانت لويس يسمى روبرت سربني وقف لها اوقافًا في سنة ١٢٥٠ م فنسبت هذه المدرسة لهُ وسميت صربونا الى هذا اليوم

وكان لا يستطيع احد من الطلبة ان يدخل احدى المدارس قبل ان يتمرَّن مدةً طويلة تمرينًا يسمى التمرين المدرسي ويفحص فحصًا مدققًا عدة سنوات والقصد من هذا الترتيب منع كثرة المعلمين الزائدة وصدّ مدعي المعرفة والاختبار من ان يسطوا على واجبات تقتضي اعظم المواهب وادقها اما الذين يتممون ما توجبهُ القوانين ويتقنونها فيدخلون رسميًا في رتبة الاساتيذ ويقامون للتعليم ببعض احتفالاتٍ جهارية تماثل الاحتفالات المستعملة عند جمعيات الصنائع والحرف غير العلمية وكان الذين ادخلوا هذه العادة اولاً في القرن الماضي فقهاء بولونيا ثم امتدت في هذا القرن واتصلت بلاهوتي باريس اولاً ثم الى اساتيذ الطبّ والعلوم وهذا هو الاصل في ما يسمونهُ بالدرجات المدرسية التي شذَّت كثيرًا عن وضعها الاصلي كسائر الرسوم البشرية وهي دائمًا تاخذ في الاختلاف شيئًا فشيئًا

ومع كل ذلك قد كانت اونيورسة مدينة بولونيا في سنة ١٢٦٢ م مشتملة على ١٠ الاف تلميذ مع انهُ لم يكن في هذه المدرسة الاَّ علم الحقوق بمفردهِ وفي سنة ١٢٤٠ م كان في اونيورسة اوكسفورد ٣٠ الفًا من الطلبة ولما اضطربت الآراء في ذلك القرن بمسئلةٍ في اونيورسة باريس اجتمع ١٠ الاف من العلماء في تلك الاونيورسة لاجل حلّ تلك المسئلة وما ذاك الاَّ لكونهِ لم يبقَ في القرن

الرابع عشر المذكور مكان عند الافرنج خالٍ من وسائط تقدم العلوم وتثقيف العقل واقيمت مدارس كلية وجامعة في عدةٍ من المدن الباقية ككولونيا واورليانس وكاهور وبيروسيا وفلورنسا وبيزا لتعليم العلوم والفنون وتفرعت كما في ايامنا هذه الى محل تعليم خصوصية عديدة

اللغات

ومع كل هذا الاجتهاد العظيم والنشاط الكامل لم تنتج التقدمات المهمّة التي كانت تومل منها لكون ان جميع لغات اوروبا كانت مدة هذا القرن خشنية مجردة عن الفصاحة والبلاغة خالية من اللطف والظرافة وما كان احد تصدّى وتقيّد لتكميلها ولا لتحسينها

وكانت القسوس اعدّت اللغة اللاتينية للشرائع والاصول الدينية كلها على ما سبقت الاشارة اليهِ في الفصل الرابع من هذا البحث وقد قضت العادة التي يوازي حكمها الاحكام الشرعية بان الاداب تكتب وتدرس بهذه اللغة ايضًا فترتب على ذلك ان جميع العلوم التي كانت تقرأ في القرن الثاني عشر والثالث عشر صار تعلمها وتعليمها بهذه اللغة وجميع ما الف من الكتب في هذه العلوم كان كذلك بها ظنًّا ان الامور الشريفة ان رُقمت او قرئت باللغة الدارجة على السن العامة حصل لها اهانة وبتلك الاوهام ضاقت دائرة المعارف والعلوم جدًّا على عوام الناس نظرًا لانغلاق ابواب العلم والحكمة عنهم وبقوا غارقين في بحور ظلمات الجهل وزد على ذلك ان احسن ما كان يوجد بين نحاة هذه اللغة في تلك المدة يكون فارغًا موحشًا ومما يوكد هذا الامر هوان اشهرهم اسكندردي

فلاَّ دبي احد الرهبان الفرنسسكانيين الذي كانت تاليفة هي المعتبرة للتعليم في جميع المدارس من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر قد كانت قواعد النحو في كتابهِ بالابيات المدعوة السبعيَّة الذي الفهُ في سنة ١٢٤٠ م معقدة بغباوةٍ اكثر من ان يظنها مَن لم يطَّلع على ذلك الكتاب

ثم اعتنى قليلاً بالعلوم اليونانية رجل فريد في ذكائهِ يقال لهُ روجر باكن ويوحنا بليس وروبرت كابيتو وقليلون غيرهم اما طلبة اللغة العبرانية واللاهوت فكانوا اقل من ذلك غير ان الماهر ريمند مرتيني مولف الكتاب المسمى بيوجوفيدي وباكن المذكور وقليلون ممن سواهم لم يكونوا قاصرين في هذه العلوم وكثيرون من اهالي اسبانيا تعلَّموا اللغة العربية وادابها ولا سيما الرهبان الدومنيكيون الذين قلدهم ملوك اسبانيا تعليم اليهود والعرب المتوطنين هناك ثم في القرن الرابع عشر امر البابا اكليمندوس الخامس بتعليم اللغة العبرانية وغيرها من اللغات الشرقية في المدارس العامة لكي يوجد اناس فيهم الاهلية للبحث مع اليهود والعرب فيرسلهم رعاةً الى بلاد المشرق

وكان الذين انتفعوا من هذه المدارس لم ينتفعوا من الاداب النثرية والنظمية بمقدار ما انتفعوا من فروع العلوم الاخرى لان اكثر الشبان كانوا قد اعدُّوا انفسهم اما للشرائع الدينية واما للشرائع المدنية اللتين فتحتا منهجًا للتقدم والغنى او درسوا الفلسفة فقط لكونها تعدهم بشهرة الدقة والحذاقة ولذلك اشتكى البابا وات الرومانيون والاساقفة تشكيًا بليغًا من اهمال العلوم والاداب وحاولوا عبثًا ان يحولوا الشبان عن مطالعة الشريعة والفلسفة الى درس العلوم والفنون الدينية غير انهُ وجد من كتبة القرن الثالث عشر جماعة لا يمكن لعاقل ان يستخف بهم

وقد اشرنا في ما تقدم الى ما كان باقيًا عند الافرنج من اثار المعارف التي كانت ادخلت في ما بينهم من ذي قبل وان من جملتها كان نظم الشعر غير انهُ كان بطريقة رديَّة جدًّا لكونهم منذ تفرغوا للعلوم الادبية والفلسفة تمكنت

منهم من مبدأ الامر القوى التخيلية قبل ان تتمرن قواهم العقلية وتتدرب على قواعد العلوم النظرية فكانوا يشتغلون بالشعر قبل الفلسفة وكان استشعارهم شديدًا وتأثرهم قويًّا بحيث كانوا يحسنون وصف الاشياء وتخطيطها على وجه بليغ وان لم يكن عندهم من علم الميزان الّا شيء يسير فكانوا ينسجون على منوال اوميروس وهريودوس قبل ان يتشبثوا بحكمة تاليس وسقراط ولذلك وان تكن هذه المدارس والمشروعات لم تنفع الاداب النثرية والنظمية على ما تقدم فان هذه الملكة مع انضمامها الى غيرها مما ذكر وعلى الخصوص في ايطاليا التي كانت ملكة الشعر متمكنة بها جدًّا اوجدت في القرن الرابع عشر ٣ رجال من ذوي النهى أسسوا الاداب فيها وهم دنته وبوكلسه وبتراركه فان دنته حرر اللسان الايطالياني وقرره في شبه اراجيز يتخلد ذكرها وبوكلسه (وفي بعض المولفات بكانشو) وبتراركه سلكا ايضًا طريقةً في النظم والنثر

الفلسفة

اما الذين اجتهدوا في درس الفلسفة رغبةً في الانتظام بسلك العلماء على ما تقدم فقد قسموا في منتصف القرن الثاني عشر الفلسفة الى نظرية وعملية وميكانيكية ومنطقية وفهموا بالفلسفة النظرية اللاهوت في الصورة التي يبحث عنها بارشاد العقل اي اللاهوت الطبيعي وايضًا العلوم الطبيعية والطب وبالفلسفة العملية الادبيات والسياسة المالية ونظام الممالك نظرًا للامور الداخلية والخارجية وبالفلسفة الميكانيكية الصنائع السبعة داخلًا فيها سلك البحار والفلاحة والقنص وقسموا المنطق الى نحو وقياس وقسموا القياس الى بيان

وبرهان وسفسطة وارادوا بالبرهان العلم الذي يبحث عن القضايا العقلية فقبل هذا التقسيم قبولاً عامًّا غير ان البعض ارادوا ان يبزوا الميكانيكيات والنحو عن الفلسفة فقاومهم الآخرون لانهم ارادوا ان يحصروا كلّ العلم في الفلسفة

ومن ثم انشق علماء هذه الفروع العديدة من الفلسفة الى احزاب متنوعة وقع بينهم مخاصمات شديدة فاولاً كانوا يعلمون الفلسفة على ثلثة انواع وهي

(١) الطريقة القديمة البسيطة التي لم تتجاوز تاليف بورفيري واقيسة ماري اوغسطينوس التي اشارت بان دارسي الحكمة يجب ان يكونوا قليلين لئلاً تفسد الحكمة الالهية بجيل البشر

(٢) الطريقة الارسطالية التي بينت وشرحت كتب ارسطاليس لان ترجمات بعض كتب هذا الفيلسوف الى اللغة اللاتينية كانت وقتئذٍ في ايادي العلماء غير انها كانت سقيمة وغامضة وملتبسة حتى ان الذين استعملوها في التعليم تهوروا غالبًا في مناقضاتٍ ومحالات غريبة

(٣) الاسلوب الحرّ الذي يؤاخذ الناس ان يبحثوا عن الحقائق الغامضة بذكاء عقولهم مستندين على قواعد ارسطاليس المذكور وافلاطون غير ان تابعي هذا الاسلوب مهما كان ممدوحًا في حدّ ذاته اساؤوا استعمال حذاقتهم واتعبوا نفوسهم وتلاميذهم بمسائل وتمييزات باطلة فاختلاف اراء الفلاسفة ومنازعتهم ونقائصهم جعلت الكثيرين يزدرون بكل نوعٍ من الفلسفة ويودون لو ينفونها من المدارس

ولم يجادل احد باكثر حدّةٍ من ذوي البرهان الذين اشغلوا انفسهم في مجرّد الكليات وحصروا كل العلم في هذه القضية وشرحوهُ بطرقٍ متنوعة وكان بينهم في ذلك الوقت حزبان اصليان وهما الحقيقيون والاسميون اللذان سبق الكلام عليهما وكانا كلاهما قد انقسما الى اقسامٍ مختلفة غير ان الاسميين في هذا القرن كانوا اقلّ عددًا وسطوةً من الحقيقيين ومع ذلك لم يخلوا من المريدين وأُضيف الى هذين الحزبين حزب ثالث وهو حزب الرسميين الذين توسطوا

بين الحزبين المذكورين على انهم لم ينفعوا بشيء لكونهم لم يوضحوا القضية بل كانوا كأنهم احدثوا امرًا للنزاع فقط اما الذين واظبوا على درس الطب والفلك والتعليميات وما اشبه ذلك فكانوا يذهبون الى مدارس العرب في اسبانيا وترجموا كتبًا كثيرة من العربية الى اللاتينية لان شهرة وصيت العلم العربي مع الغيرة الدينية على دعوة عرب اسبانيا الى المسيحية الجأت كثيرين ان ينصبوا على درس اللغة العربية وعلومها

وكان من جملة الذين ذهبوا الى مدارس العرب المذكورة غرهرد من كريمونا الطبيب الفلكي الايطالياني الشهير الذي ذهب الى طوليدو باسبانيا وترجم فيها كتبًا كثيرة من العربية الى اللاتينية وبطرس مرمت الراهب الفرنساوي الذي ذهب الى اسبانيا وافريقية ليتعلم الجغرافيا ودانيال مرلي او مورلاك الانكليزي الذي كان مغرمًا بالتعليميات وذهب الى طوليدو المذكورة واتى منها بكتبٍ عربية كثيرة الى بلادهِ وبطرس الموقر رئيس دير كلوني الذي ذهب الى اسبانيا وبعد ان تعلّم العربية ترجم القرآن وحياة صاحب الشريعة الاسلامية الى اللاتينية واخبر في كتابهِ الكلونباني انهُ وجد على نهر الايبر في تلك البلاد روبرت رتينس الانكليزي وهرمان من دلماتيا وخلافهما يدرسون علم التنجيم هناك

ثم في القرن الثالث عشر خضع كل الذين كانوا يتفلسفون باساليب شتّى على ما تقدم من الافرنج لسلطة الفلسفة السكولاستيكية اي فلسفة ارسطاليس ومبادئهِ وكان البعض من كتب هذا الفيلسوف ولاسيما طبيعياتهِ تقرأ باللاتينية على ما تقدّم وتشرح علنًا للطلبة في باريس لكن لما ظهر بان المرء ضلّ في امورٍ كثيرة وخاصةً بالذات الالهية بواسطة هذه الكتب امر مجمع سنس بابطالها في سنة ١٢٠٩ م ثم في سنة ١٢١٥ أُعيد المنطق الارسطاليسي الى باريس ورفضت طبيعياتهُ ومعقولاتهُ فقط واخيرًا امر الملك فريدريك الثاني الذي كان محبًّا عظيمًا للعلوم بان يترجم بعض كتب ارسطو وغيرهِ من الفلاسفة

القدماء من اللغة العربية وبعضها من اليونانية الى اللغة اللاتينية اناس ماهرون في هذه اللغات يتخبون لهذا العمل واستصوب احالة هذا المشروع لمدرسة بولونيا وربما الى غيرها ايضاً ومن ثم ازدادت كثيراً سطوة هذا الفيلسوف في جميع مدارس اوروبا وامتدت بواسطة متأخري الافرنج الذين ترجموا بعض كتبهِ كميخائيل سكطّ وفيلبس الطرابلسي ووليم فلمن وغيرهم انما جميعهم كانوا ناقصين في العلم وجاهلين في هذه اللغات

ولمّا اعتنق هذه الفلسفة الرهبان المنذكيين والدومنيكيين والفرنسسكانيين وعلموها في المدارس وشرحوها باقلامهم وصل ارسططاليس الى ذرى المجد والمديح لان الرهبان المذكورين هم الذين كانوا منذ ذلك القرن وما بعدهُ في الرتبة الاولى من العلوم الدينية والدنيوية وتبعهم نحو جميع الذين كانوا يفوقون غيرهم بمعارفهم وكان اول من علّق شروحاً على مقالات هذا الفيلسوف اسكندر هالسّ الانكليزي الفرنسسكاني الملقب بالعلامة السديد في باريس والبرت الكبير الدومنيكي الجرماني اسقف راتسبون وكان رجلاً شديد الذكا وامام عصرهِ ثم بعدهما قام احد تلاميذ البرت المذكور يقال لهُ توما اكويناس الدومنيكي وزاد مجد ارسططاليس حيث كان يشرح كتبهُ مشافهةً وكتابةً وكلّف احد اصحابهِ ان يترجم تلك الكتب ترجمةً لاتينية جديدةً اصحّ واضبط من الاولى ونظراً لسطوة هولاء الاشخاص وقليلين غيرهم صار ارسططاليس هو المنشئ للفلسفة في اوروبا بالرغم عن مقاومات اللاهوتيين وانكار الباباوات الرومانيين .

لكن كان هناك بعض اشخاص في اوروبا من ذوي الحذاقة واصحاب العقول السامية يرغبون في توسيع نطاق المعارف وقد ضجروا من طريقة هذه الفلسفة الماخوذة من كتب ارسطو لكونها عقيمةً فارغة ومن ثم استحقوا اعظم المديح وهم روجر باكن الراهب الفرنسسكاني الانكليزي المدعو العلامة الساحر لكونهِ فاق اهل عصرهِ في الفلسفة والتعليميات والكيميا والميكانيكا وغير ذلك

من انواع العلوم واشتهر باكتشافاته الباهرة وارنلد من فللانوفا الذي يعتقد الاكثرون بانهُ فرنساوي والبعض يزعمونهُ من اسبانيا وقد اشتهر كثيرًا في فن الطب والفلسفة والكيميا والنظم واللغات وغير ذلك وبطرس دي ابينو او دي اپونو من ايطاليا طبيب بودا الشهير بالموفق لكونهِ الّف كتابًا سماهُ بموفق الاختلافات بين الفلاسفة والاطباء وكان ذا دقةٍ وتعمق في قراءة الفلسفة والطب والتعليميات والفلك لكن لسوء الحظ كان السذّج من القوم يضعونهم جميعًا في مصاف السحرة والهراطقة جزاء على معارفهم واجتهاداتهم وكاد باكن المذكوران لا يتخلص من الحريق الّا بصرفهِ سنينًا كثيرة في السجن واما الاثنان الاخران فقد حكم عليهما ارباب التفتيش (السانتوفيش) بعد ان كانا قد توفيا بانهما يستوجبان الحريق

وفي القرن الرابع عشر تعاظم اعتبار الفلسفة الارسطالية المذكورة واقلق جمهور الفلاسفة العظيم اشتكاثر هذا القرن اكثر من ان يزينهُ وامرت الملوك والامراء بترجمة مولفات هذا الفيلسوف الى لغات شعوبهم لكي يزداد عدد طلبة الحكمة وكذلك المنازعات القديمة الكائنة بين الاسميين والحقيقيين اضرمها في المدارس وليم اكوم الراهب الفرنسسكاني الانكليزي تلميذ سكوتوس الكبير واستاذ جمعية باريس بعد ان كانت خمدت زمانًا طويلاً حتى انهُ لم يَعُد بَعدُ ممكنًا انهاء هذه المنازعات وكثيرون من الفلاسفة المذكورين قرنوا صناعة التنجيم والفال بحظوظ الناس ومستقبلهم اذ ان هذين العلمين الكاذبين وَلَع بهما وقتئذٍ كل من القوم على اختلاف طبقاتهم

اللاهوت

ولما كان علم اللاهوت في الكنيسة شرقًا وغربًا تابعًا للفلسفة الارسطالية المذكورة في شرح القضايا الدينية وتعاليمها فكان مدرسو هذا العلم عند اللاتينيين كثيرين جدًّا واشهرهم في النباهة يوحنا دونسكوتوس ودورند من ماري پورسان وليم آكام ونفر قلائل غيرهم ووجد هناك قوم اخرون عوّلوا في هذا الموضوع على مجرد الكتاب المقدس والتقليد لكن جمهور المنطقيين العرمرم غلبهم وكاد يمحيهم ولئن كانوا يظفرون في بعض تلك المنازعات التي جرت بينهم وبين الحزب الفلسفي وخاصةً في المدارس الاعظم شهرةً كمدارس باريس واكسفورد ومن ثم انقسمت المدارس اللاهوتية بواسطة نزاع جرى بين يوحنا دونسكوتوس المذكور وبين الدومنيكيين بسبب طعنهِ على تعاليم توما اكويناس بدعواه انها غير صحيحة ومن ثم نشأت الشيعتان المشهورتان وهما السكوتيوية والتوماوية اللتان لا تزالا الى الآن تشقّان مدارس اللاهوت اللاتينية المذكورة

وفي القرن الرابع عشر المذكور ظهرت تعاليم يوحنا وكلف الانكليزي الذي كان استاذ العلوم اللاهوتية في اكسفورد واخيرًا سيم كاهنًا على لطروث ضادَّ بها القائلين بالفقر الاختياري ففرقة الرهبان باربعة وعشرين اعتراضًا تعين لاجلها مجمعان احدهما في لندن والثاني في اكسفورد فحكما على ٩ منها بالهرطقة و١٤ بالغلط

وحيث كان انقسم الفقه منذ القرن الثالث عشر الى قسمين احدهما الناموس الكنائسي والثاني المدني وطلبهما جمٌّ غفير غير انهم شوهوهما كليهما بما

علقوهُ عليها من تلك الشروح المماة التي لا طائل تحتها وكثيرون اخذوا في جمع رسائل الباباوات التحديدية المتضمنة جزءًا عظيمًا من الناموس الكنائسي وكان اشهرهم في هذا العمل ريمند من بنافورث رئيس الرهبنة الدومنيكية الذي جمع مولفة تحت نظر البابا غريغوريوس التاسع وقسمهُ الى ٥ كتب ثم امر البابا المشار اليهِ بان يُضمّ هذا الى التحديدات العرانينية وبشرح في كل المدارس ونحو ختام القرن الثالث عشر المذكور امر البابا بونيفاسيوس الثامن بعمل مجموع جديد أُضيف الى الكتب الخمسة المذكورة وسمّي كتاب التحديدات السادس

قال العلاّمة روبرتسون المورخ الانكليزي بمعرض البحث في احوال اوروبا قبل اشهار الحروب الصليبية ما ملخصهُ ولمّا توطن البربر في البلاد التي افتتحوها انتقلوا الى الدين المسيحي لكن لم يتلقوهُ كما هو ولم ينسجوا على منوال قواعدهِ بحيث يبقونها على حالها واصلها بل ان عدةً من الواثقين بانفسهم مزجوا هذا الدين السهل الكثير الفوائد بتدقيقات فلسفية تبين في زعمهم اسرار هذا الدين وغوامضهُ وتحلّ مشكلاتٍ خارجة عن طوق العقل البشري فصارت هذه التدقيقات الفلسفية جزءًا من الدين المسيحي بل صارت كأنها الجزء الاهمّ ثم بمجرد ما تشوقت النفوس للترقي الى درجة التفكر والتعقل كان اول اطلاعهم على هذه الاشياء فاشتغلوا بها وصارت مطمح نظرهم

واول ثمرةٍ نجمت عن تدقيق العقول حين اخذها في التقوية ثانيًا ببلاد اوروبا هي علم اللاهوت الذي كان يقرأ في المدارس وكان مشحونًا بالاطناب في المناقشات وبذكر الفروق بين امورٍ دقيقة لاطاقة للعقول البشرية على الجولان فيها وليست هذه الحالة وحدها هي السبب في اختلال عقول هولاء الناس وسلوكهم سبيل الغيّ حين اخذوا ثانيةً في ممارستهم وتمرنهم على هذه الامور التي كانوا قد تركوها مدة احقاب بل هناك اسباب اخر ياتي ذكرها وهي

ان اغلب الذين اعانوا على احياء العلوم الادبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر واهتموا باعادة معالمها كانوا قد اكتسبوا المعارف والاصول

الفلسفية اما من اليونانيين الذين كانوا بمملكة الروم في القسطنطينية واما من عرب اسبانيا وافريقية ومن المعلوم ان علوم هاتين الامتين اي اليونانيين والعرب كانت قد فسدت بسبب افراطهم في التدقيقات لان العرب كانوا قد افسدوا علوم الفلسفة بتدقيقات فاسدة احاطوها بها واما اليونانيون فكانوا قد جعلوا علم الالهيات مذهبًا مشتملاً على قواعد نظرية تحتاج لغاية الفكر والتدقيق وعلى مباحث خلافية لا يقف الانسان لها على حدّ ولا على حقيقة لانهُ لما كانت العلوم كاسفةً بالكلية في غربي اوروبا ومضيئةً بمدينة القسطنطينية وغيرها من مدن الامبراطورية اليونانية تفرّغ اليونانيون بسبب دقّة عقولهم تفرغًا كليًّا الى المناقشات في الامور الالهية وحذا حذوهم اللاتينيون في ذلك وسائر اهالي اوروبا اكتسبوا من اليونانيين معظم معارفهم وعلومهم وكان اليونانيون وقتئذٍ منشأ لعدَّة مباحث مشكلة اختلف فيها العلماء والفلاسفة ولم تزل الى الان شاغلةً بالهم ومطمحًا لانظارهم وافكارهم

الجغرافية .

وكان جهل امم القرون الوسطى بالجغرافيا ووضع البلدان كبيرًا جدًّا فكانوا لا يعرفون شيئًا من الممالك والمسالك واقدم خارطة جغرافية توجد في نسخةٍ من تاريخ القديس دينيس منها يستدل على حالة العلوم الجغرافية في بلاد اوروبا مدة تلك الاعصر فنرى في هذه الخارطة اقسام الارض الثلثة التي كانت معروفة وقتئذٍ موضوعة بحيث ان مدينة اورشليم توجد في وسط الكرة واسكندرية قريبة منها كمدينة الناصرة

وكان لا يوجد في البلاد خانات ولا منازل عمومية للمسافرين نظرًا

لانقطاع المخالطات والاخذ والعطا بين الامم المختلفة عدة قرون منذ استيطان الامم المتبربرة بالمملكة الرومانية فقد ذكر بعض المورخين في وصف ما كان عليهِ الحال الى ذلك الوقت من انقطاع المخالطات بانهُ لما اراد بوشارد ان يبني ديرًا في قرية مود يغوس بقرب مدينة باريس ذهب الى احد روساء الديورة الكبار في بورغوينا وترجاه ان يأتي الى ديرهِ هذا برهبانٍ يسكنوهُ ثم وصف لهُ ما قاساهُ بمجيئهِ اليهِ من طولة السفر ومشاق الطريق ليستعطفهُ باجابة سوالهِ فاعتذر لهُ الرئيس متعللاً بانهُ يشقُّ عليهِ السفر الى اقطار غريبة لا يعرفها مَن يذهب اليها وكذلك في ابتداء القرن الثاني عشر كان رهبان دير قرية فريير في ابرشية سنس لا يعرفون انهُ يوجد ببلاد الفلنك مدينة تسمى تورني وكذلك رهبان المدينة المذكورة يجهلون ايضًا في اي الجهات تكون قرية فريير ثم لما احتاج هذان الديران الى معرفة بعضهما بعضًا اخذ يبحث كلٌّ منهما عن الاخر حتى انهُ بعد بحثٍ طويل عرف كلٌّ منهما صاحبهُ ولكن بطريق الصدفة ايضًا

ومع كل ذلك كان ما ذكرناهُ من التقدمات بما هي عليهِ سببًا في تغيير اخلاق الاهالي في اوروبا ورغبة الناس في البحث عن كل شيء وحثهم على الاشتغال بالحرف والصنائع ايضًا

فوائد التجارة

منذ اشهار الحروب الصليبية الى نهاية القرن الخامس عشر

وقد اعانهم على ذلك التجارات التي كانت آخذةً وقتئذٍ في اسباب التقدم

وهذبت اخلاق اوروبا وادخلت بها الاحكام العظيمة المشتملة على الرأفة بالناس بحسبما تقدم ايضاحهُ وجددت بعض مخالطاتٍ واخذ وعطا بين تلك الامم بعد ذلك الإنقطاع الذي تقدم ذكرهُ اذ ان الرغبة في الفنون ونفيس محصولات بلاد المشرق كانت لم تزل باقية الاثر في قلوب الايطاليانيين بسبب العلاقات والمعاشرات التي كانت بينهم وبين مدينة القسطنطينية وغيرها من سائر مدن اليونانيين وازدادت بسبب الحروب الصليبية التي لم يترتب عليها نفع لغير التجارة وان لم يكن هو المقصود لانهم كانوا يمدون هولاء الحربيين الصليبيين بسفنٍ من سفن النقل ومؤونات وذخائر حربية واكتسبوا زيادةً عما اخذوهُ من الاموال الجسيمة مزايا ومواضع تجارية في بلاد الشام فكان لهم في عكا وصور وطرابلس وغيرها حارات ممتازة لها حكّام من اهلها يحكمون فيها بمقتضى قوانينهم واصولهم وكذلك في القسطنطينية والى الآن يوجد كتب من القوانين التي أُعطيت بها البنادقة واهل بيزة والجنويز الخصائص التجارية في تلك المحلات الافرنجية المتخذة للتجارة والاقامة في اسيا فيحكمون بموجبها وكانت جميع بضائعهم سالمةً من المكوس ثم لما استولوا على مدينة القسطنطينية نقلوا عدةَ فروع مهمَّة جدًّا من التجارة مخصوصة بها الى بلاد الطوائف المذكورة ايضًا وزادت رغبتهم هذه لما كُشفت عندهم بيت الابرة بعد الحروب المذكورة بقليل كما يتضح ذلك مما سوف نذكرهُ حيث صارت بها الملاحة امينةً نامية وسهلت المخالطة بين الامم المتباعدة ففي القرن الثاني عشر والثالث عشر كادت تجارة اوروبا ان تكون في ايدي الايطاليانيين وكانوا معروفين حينئذٍ باسم اللنبردية اكثر من اسم الايطاليانيين وصار تجار اللنبردية في اقرب زمن هم اهل القوافل والصنائع والصيارف في جميع البرّ فكان اهل ايطاليا يجلبون من بلاد المشرق محصولات الهند ورتبوا في بلادهم مانيفاتورات وورشًا بديعة الصنع وحصل لهم تقدم كبير فيها ولاسيما في ورش الحرابر التي كانت مكثت زمانًا طويلاً خاصةً بالاقاليم الشرقية في اسيا

وكانت اقمشة الحرير في مدينة رومية غالية جدًا ولم يكن هناك الاّ اناس قليلون لهم قدرة على شرائها وفي زمن اوريليان او هو افريليانوس القيصر الروماني الذي تولى المملكة سنة ٢٧٠ م كان يُباع رطل الحرير برطلٍ من الذهب ففي سنة ٥٢٢ م حضر الى القسطنطينية راهبان من بلاد الصين واحضرا معهما شيئًا من بزر القز خبأآه في عكازتيهما خوفًا من شريعة الصين المانعة من خروج كل شيء مثل هذا من بلادهم على ما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الخامس من البحث الاول فمن ثم انشا الملك يوستنيانوس في بلاد اليونانيين فن تربية دود القز ومن القسطنطينية تفرّق في بلادٍ كثيرة كغربي اسيا وجنوبي اوروبا وشمالي افريقية ثم امريكا ايضًا ومع انهُ وقتئذٍ كان استعمل اكثر مما كان عليهِ الاّ انهُ كان لم يزل غاليًا ففي سنة ١١٣٠ م ارسل روجير الاول ملك جزيرة سيسيليا الى مدينة اثينا واحضر منها عدّة صناعية من صناع الحرير واسكنهم بمدينة بالرمة وقوّى هذا الملك صناعة الحرير في مملكتهِ ومنها انتقلت الى اجزاء ايطاليا الاخرى على ما ذكرهُ العلاّمة روبرتسون نقلاً عن بعض المورخين في تاريخ نابلي فانتشرت اقمشة الحرير من ذلك الوقت حتى انهُ في اثناء القرن الرابع عشر كان يُرى في محفل من محافل مدينة جنويزة نحو ١٠٠٠ من اهلها لابسين ثياب الحرير

وفي اثناء القرن الثاني عشر جلب الصليبيون من مدينة طرابلس اسيا بعض اعوادٍ من قصب السكر وزُرعت في جزيرة سيسيليا ثم بعد ذلك زرع في الاقاليم الجنوبية من اسبانيا ثم نُقل الى الجزائر الخالدات والى جزيرة مادرة ثم الى بلاد امريكا ولم تكن زراعة هذا النوع من النبات معاومةً في بلاد الهند الغربية الا انها كانت قليلة في القرون الوسطى

وتقدمت شوكة جمهورية البنادقة (اللنبردية التي مرّ ذكرها) بواسطة تجارتها ومهارتها البحرية وتفرغ الاشراف بكليتهم الى التجارة والخدمة في السفن الحربية حتى دخلوا في زمرة التجار والقبابدين وزادت ثروة وطنهم بمهارتهم في

التجارة والصنائع وصارت جميع شعوب اوروبا تحتاج اليها وتاخذ منها بضائع البلاد الشرقية ومحصولات ما احدثتهُ من الورش واتقنتهُ على وجهٍ لم يوجد لهُ نظير في باقي بلاد اوروبا وجمعت مقادير جسيمة من الاموال

وصارت النقود بين ايديهم نوع تجارة يكسبون منها كسبًا عظيمًا حيث كانوا يرتبون بها بانكات وصيارف عظيمة الربح واحلَّ لهم ذلك رأي معمول بهِ عندهم وهوان التجارة لاتروج الّا اذا اعطى المقترض لمقرضهِ بعض ربح في نظير استعمال دراهمهِ التي اقترضها منهُ وترتب هذا الامر الآن شرعًا في جميع البلاد التجارية ويسمونهُ ربح الاموال الشرعي ولما شرعت القسوس بتحريم الربا استنادًا الى عباراتٍ من الكتاب المقدس وسلَّم في ذلك علماء الكلام السكولاستيكي لانهم كانوا يتبعون اراء ارسطاليس على ما هي عليهِ بدون فحص صارت تجارة اللنبرديين ممنوعة شرعًا واذا عُثر على احدٍ عقد عقدًا بمثل الشروط الاولى عوقب فمن ثم صاروا لا يكتفون بالمقدار الذي كانوا ياخذونهُ وقت ما كان اخذ الفائض ماذونًا بهِ شرعًا بل صاروا اذا قرضوا احدًا مقدارًا من الاموال يطلبون منهُ مبلغًا في نظير استعمال المال ومبلغًا اخر في نظير عقوبة الربا لانهُ ربما عُثر عليهِ فلا يسلم من العقوبة

وفي القرن الثالث عشر كان الربح المعتاد ٢٠ في المايةِ وربما بلغ ٣٠ ايضًا وفي سنة ١٣١١ امر فيليبس الرابع ملك فرانسا ان لا يزيد الربح الشرعي عن ٢٠ على كل ماية وفي ارغونيا كان اقلَّ من ذلك وفي سنة ١٢٤٢ م رتب ملكها ياكوس الاول قانونًا جعل فيهِ على كل ماية ١٨ فقط ومن سنة ١٤٩٠ م صار الربح في بليزنسة ٤٠ على كل ماية ولكن الملك شرلكان (كرلوس الخامس) جعل ربح المال في ممالكه التي بمملكة البلاد الواطية لا يزيد على ١٢ في كل ماية

وفي اثناء القرن الثالث عشر اشتغلت عقول امم الشمال ايضًا في شان التجارة والحِرف والصنائع فتعاهدت مدينتا همبورغ ولوبيك لدفع صيال البحريين وهم اللصوص في بحر بلطق لاجل حفظ تجاراتها مع سكان البلاد

المجاورة لهذا البحر وحيث حصلا على ثمرة جزيلة من ذلك اجتمع عاجلاً ٨٠ مدينة من اعظم المدن تحت لواء هذه المعاهدة وفي سنة ١٢٥٩ م تكونت من ذلك المعاهدة الانسياتيقية العظيمة حتى صار اعظم الملوك يجتهدون عن استمالتها والمداومة على المحبة معها والظاهر ان اول منابع غنى المداين الموضوعة على بحر بلطق هو صيد سمك المارنك الذي كان يكثر حينئذٍ على شواطي اسوج والدانيماركة كما يكثر الآن على شواطي بريتانيا الكبرى

ثم اخذت الغيرة اهالي البلاد الواطية ايضًا واشتغلوا مع الجد والاعتناء التام بتكميل فروع معملي الصوف والقطن العظيمين اللذين اشتهرت بهما هذه البلاد منذ عصر الملك كرلوس الاكبر الذي سبق ذكرهُ في القرن الثامن واتسعت التجارة وتقدمت للغاية حتى صار بها اقليم الفلمنك وما اتصل بهِ من الاقاليم المجاورة لهُ في الغنى اعظم بلاد اوروبا واعمرها واحسنها زراعة

واما في انكلترة فكان تقدم التجارة على غايةٍ من التراخي لانهُ وقت ما كانت متقسمة بين ٧ ملوك كانت بريتانيا الكبرى منقسمة الى ممالك كثيرة لا تنقطع الحروب بينها وكانت عرضةً لنهب الدانياركيين وغيرهم ولذلك كانت منغمسة في الجهالة والتبربر ولا قدرة لها على الاشتغال بالتجارة ولا على غيرها ولما اجتمعت هذه الممالك وصارت واحدةً واخذت انكلترة في اصلاح حالها جاءها النورمنديون وافتتحوها وهدموا جميع ما كان أُسِّس فيها وبقيت في حالة الاغماء الى ان صار النورمنديون المتغلبون عليها مع الانكليز كأُمَّةٍ واحدة فسعت حينئذٍ في اثبات دعوى ملوكها ان لهم حق الملوكية في مملكة فرانسا ايضًا فعاندهم الدهر وخسروا في حروب مستطيلة بسبب هذا الامر اعقبها حروب اخرى مهولة بين عائلة يورقة الملوكية وعائلة لنكسترة فكانت هذه الامور بانضمامها الى ما كان في القرون الوسطى من الحكومة الالتزامية والاخلاق البربرية كافية في تعطيلها بالكلية وتراخيها وبطئها ولذلك كان الانكليز من بين شعوب اوروبا هم الذين تاخروا عن اغتنام الفرص وفوائدها التي ابدتها لهم الطبيعة في شان التجارة

وقبل حكومة الملك ايدوارد الثالث الذي تولى المملكة سنة ١٣٢٧ م كان صوف انكلترة كله ما عدا شيئاً يسيراً يشتغله الاهالي جوخاً غليظاً خشيناً يلبسونه يُباع لاهل الفلمنك والبونبرديين لانهم كانوا يشترونه لكن لما رأى هذا الملك حالة الاقاليم اليانعة بثمار التجارة اخذ من ذلك الوقت في تحصيل الوسائط التي بها تتقوى الصنائع بين رعاياه الذين كانوا يجهلون وقتئذٍ ملاءمة بلادهم لذلك اكثر من غيرها ولا يعرفون منابع الغنى ولا يبحثون عن تقليد الورش التي ترتبت بالبلاد الاجنبية مع ان موادها وآلاتها كانت تخرج من عندهم فاحضر هذا الملك عدّة شغالين وصناعية من اقليم الفلمنك لاجل الاستيطان بمملكته وانشا قوانين صالحة لتقوية التجارة وضبطها فتجددت في انكلترة بهمته ورش الصوف وتفرغت عقول الرعايا الانكليزية الى ممارسة هذه الفنون التي ارتقوا بها اعلى درجةٍ بين الملل ذات التجارات والصنائع ولكن مضى بعد ان احضر هذا الملك الشغالين المذكورين مدة طويلة قبل ان يصير للانكليز قدرة على اصطناع بعض الجوخ ليباع للغربا وكان الصوف الذي يُنقل من عندهم بحالته الاصلية الى البلاد الاجنبية هو اعظم تجاراتهم

ولم تتجاسر انكلترة على ان تتاجر بنفسها وتنشر اعلام سفنها في بحر بلطيق الاّ في ابتداء القرن الرابع عشر ولم يصر لها بعض سفن في البحر المتوسط الاّ في نصف القرن الخامس عشر وكانت قبل هذا الزمن بمدةٍ يسيرة ارسلت بعض سفن الى مين اسبانيا والبورتغال

وبهذه التقدمات التجارية والمخالطات في القرن الثاني عشر والثالث عشر كان مبدأ اضمحلال الاوهام والاعتقادات الفاسدة التي كانت سبباً لانفصال الشعوب عن بعضها وحسنت اخلاق الناس فاستعدوا للصلح وتحصيل الاطمنان وكان كلما ازداد الميل الى التجارة في مملكةٍ انتعشت حكومتها وساعدت على ذلك بعقد المعاهدات مع الدول الاخر واشهرت الحروب وعقدت المشارطات وبالجملة والتفصيل كانت التجارة متى دخلت عند امةٍ من امم اوروبا على

اختلافها حملتها الى الالتفات مع غاية الجهد الى الاشياء التي يهتمّ بها الامم المتمدنة والتخلق بالاخلاق المختلفة التي تقتبسها من اربابها

قال خير الدين باشا التونسي في كتابهِ المسمى اقوم المسالك ان ابتداء التمدن عند الاوربيين كان في القرن الثالث عشر فان تلك الحروب الصليبية وان كانت هلكت فيها نفوس عديدة واموال غزيرة بدون الحصول على المقصود بالذات فانها اعقبت نتائج نافعة لهم منها انهم شرعوا في ذلك الوقت بترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم لاهل المشرق صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك وتخلقوا باخلاق الحضر وتعودوا بالاسفار لاستكشاف احوال الاقطار فاطلعوا على احوال اسيا المتوسطة واحوال الصين كما مبين ذلك في تاليف ماركوبولو وبالجملة فبالسبب المذكور وهو مخالطة الاوربيين للامة الاسلامية المتقدمة عليهم في التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عندهم ثم تهذب حتى وصل الى ما هو مشاهد اليوم وانتهت اذ ذاك رياسة العلوم والآداب والفلسفة الى سان برنار بفرانسا وسان توماس بايطاليا والبرت الكبير بالمانيا وريموند ولولو باسبانيا وجان دونسكوت بانكلترة(١) وظهرت الشعراء والمهندسون والكنائس الاصولية والهياكل الفخيمة المنسوبة للقرون الوسطى

الصنائع والمهن

منذ القرن العاشر الى نهاية القرن الخامس عشر

اصطنع البابا سليبستريس الثاني اوّل ساعةٍ ذات رقاص في سنة ٩٩٠

(١) اصحاب هذه الاسماء ذكروا بجملة الفلاسفة في ما تقدم غير انهُ يوجد اشتباه في

وبعدهُ عملت ساعات البكر نودي لبعيد في سنة ١٠٦٥ وعملت الزجاجات العدسية للعوينات والنظارات ومخترع العوينات راهب من مدينة بيزا يقال له اسبينا سنة ١٣٣٠ واصطنعت قساطل لجرّ الماء من الرصاص في سنة ١٢٥٢ وعملت النظارات الطويلة والشمع الكافوري من الشحم سنة ١٢٩٠ والساعات الدقاقات سنة ١٢٩٥ وادخلت طواحين الهوا الى اوروبا في سنة ١٢٩٩ واصطنعت المرائي الزجاجية في بلاد البندقية سنة ١٣٠٠ وانشئت مدرسة للالعاب في طولوزة سنة ١٣٢٨ واخترع البارود راهب نمساوي يقال له شوارتس سنة ١٣٣٥ (١) وابتدأ الفرنساويون بالحروب النارية سنة ١٣٤٥ م وكان ابتدأ بها قبلهم الانكليز اذ ان الامراء الفرنساويين كانوا يزعمون بان استعمال الاسلحة التي تقتل من بعيد مخلّ بالشجاعة . وعمل الورق من الخِرق سنة ١٣٤٦ وكان أُدخل الى اوروبا بواسطة عرب اسبانيا في القرن الحادي عشر واصطنعت المدافع والقنابل في اوروبا سنة ١٣٥٠ ويقال بانها كانت مستعملة في بلاد الصين في سنة ٦١٨ ق م . وصار سحب القصب والتلّي سنة ١٣٦٦

بعض الاسماء نظرًا لاختلاف الترجمات كما هي العادة في اغلب الكتب المترجمة الى العربية ومن اراد فليطلبها ايضًا في الفصل السادس والسابع من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف

(١) قال العلاّمة خير الله افندي المورخ العثماني في كلامهِ على احوال المعارف البشرية من القرن الخامس الى القرن السابع من الهجرة ويظنّ انهُ في هذا العصر أُخترع البارود في اوروبا والحال انهُ في القرن الاول من الهجرة (السابع من الميلاد) عند محاصرة مدينة القسطنطينية (من العرب) اخترع وقتئذٍ احد القسوس الذين كانوا طافوا بلاد المشرق مادةً سريعة الاشتعال (ذكرت في الفصل الخامس من البحث الاول) وكذلك في اواسط القرن السابع للهجرة (الثالث عشر من الميلاد) وكان موجودًا في معسكر هلاكو خان ملك التتار عندما حاصر مدينة بغداد وافتتحها آلة نارية اذ يقال انهُ اطلق على قلعة المدينة المذكورة بنادق كثيرة واخربها وهكذا العرب في اسبانيا كانوا يستعملون آلةً نارية نظير هذه غير انهُ لما اخترع البارود في اوروبا اصطنعت المدافع المتنوعة وبها اكتسبت المحاربات شدةً شديدة وعدة عديدة

واستخرج العَرَق للمشروب سنة ١٢٨٠ ونحو هذا الزمن اصطنع الاصطرلاب والحك ويقال له بيت الابرة وسوف يأتي الكلام بانهُ كان للدوك ايثيريكوس ثالث اولاد يوحنا الكبير ملك البورتغال مداخلة في ذلك ثم عملت دبابيس الابر في سنة ١٢٩٠ واخترع ورق لعب القمار في فرانسا لاجل تسلية ملكها كرلوس بيانيه اسيء المحبوب لما اعتراهُ داء الجنون في سنة ١٣٩٢ ويقال بل نقل اليها ذلك من بلاد اسيا وقال اخرون ان العرب واليهود وغيرهما من الاجناس الشرقية ادخلوهُ الى اوروبا في سنة ١٣٨٥ وشاع استعمالهُ في ايطاليا سنة ١٣٩٩ وعمل معمل الترياق والعقاقير الطبية في مدينة ليسبيا سنة ١٤٠٠ وفي القرن الرابع عشر المذكور احييت صناعة الدهن والنقش ويقال لها بلغتهم البوزار عن يد جيوتو وتشيمابوي في بلاد ايطاليا وفي هذا القرن عينو ايضًا اخذ الروسيون في اظهار صلاحيتهم لان يكونوا من ارباب الحرف والصنائع اذ سبكوا بمدينة موسكا اكبر ناقوس ظهر في بلاد اوروبا وهو اعظم اجراس الدنيا محيطهُ ٦٤ قدمًا وعلوهُ ١٩ قدمًا مع ان هذه المدينة لم تكن وقتئذٍ مستحقة ان توضع في صف المدن حقيقةً الأ من بداءة هذا القرن كما يتضح ذلك مما يورد في الكلام على القرن الخامس عشر قال بعض المولفين لم تكن بلاد دله ولا غيرها مما يجاور بلاد المسكوب اعلا من المسكوب ولم تكن الصنائع اليدية اعظم من ذلك في شمال المانيا وكذلك لم تكن الفنون المستظرفة متقدمةً في ذلك الوقت في بلاد المانيا اكثر من بلاد روسيا المذكورة ويُظنّ بان اصطناع هذا الجرس كان في عهد الملك بوريسغودون الذي تولى المملكة في سنة ١٢١٧م

وفي القرن الخامس عشر اخترع عمل البرانيط رجل سويسري بفرانسا سنة ١٤٠٤ واستعمل التصوير بالوانٍ ممزوجة بالزيت في سنة ١٤١٠ ودخلت صناعة الخزف الشبيه بالصيني الى اوروبا في سنة ١٤١٦ وانشي مرستان للطاعون بالبندقية في سنة ١٤٢٠ وعملت المركبات المسماة بالكاروسه في سنة ١٤٣٦ وفي هذه السنة عينها اخذ الالمانيون في ان يتصفوا بكونهم اصحاب همةٍ

وحرص وامانةٍ وثبات في الاعمال واستنارة في التصرف ويشتهرون بموهبة الابداع والاختراع حيث اخترعوا صناعة الطبع التي طالما قد تنازعت مدن ميانسة وهرلم واستراسبورغ في ادّعا شرف ايجادها والى الآن يوجد في مدينة هرلم المذكورة وهي من بلاد الفلمنك تمثال موضوع في احدى ساحات المدينة لرجل يقال لهُ لورانت كستر يعتقد الفلمنكيون بانهُ هو اول من اخترع طباعة الكتب لكن المحقق الآن ان اختراع هذه الصناعة بما هي عليهِ اعني بالحروف المتنقلة يُنسَب الى يوحنا غوتمبرغ الميانسي نسبةً الى ميانسة يحكى بانهُ كان خطر في بالهِ ان يعمل حروفًا من الخشب الصلب ثم صبّها من الرصاص واشترك معهُ في الشغل رجل من الاغنياء قدم لهُ ما احتاج اليهِ من المصاريف حتى نجحا في العمل وابتدأا في طبع الكتب وكان اول ما طبعاهُ منها الكتاب المقدس باللغة اللاتينية وذلك في سنة ١٤٣٦ المذكورة قال بعض المولفين يحتمل ان لورانت كستر المذكور طبع اولاً في هرلم بالاخشاب المحفورة على اسلوب الصينيين في سنة ١٤٢٠ او قبل ذلك ويوحنا غوتمبرغ اخترع حروفًا معدنية مدقوقة في ستراسبورغ سنة ١٤٣٦ او بعد ذلك ثم بعد ان تشارك مع يوحنا فوسط وغيرهِ ممن يدعون شرف هذا الاختراع اخترع فوسط المذكور حروف الصبّ وانسان اخر اسمهُ بطرس شوفر عمل الابهات والامهات ليسهل صبّ الحروف وشرعت الشراكة تطبع في سنة ١٤٥٠ ثم في سنة ١٤٥٩ م طبعت كتاب دوراتس في ميانسه (وبذلك يكون حصل التوفيق بين جميع المدعين) ولا يخفى بان اصطناع الورق واختراع الطبع هما حادثتان مهمتان من حوادث تاريخ الاداب لان اصطناع الورق من القطن في اوروبا كان مقدمةً لنمو الاداب والفروع الفلسفية على ما تقدم في اخر الفصل السادس من هذا البحث ولاسيما منذ رخصت اسعارهُ باكثر مما كانت عند ما عُمِل من الخِرَق في سنة ١٣٤٦ على ما تقدَّم اما صناعة الطباعة المذكورة فانها اخرجت اوروبا من ظلمات الجهالة ونشرت فيها سواطع الانوار كما يتضح ذلك من الابحاث الآتية

ثم في سنة ١٤٤١ ابتدأت الكوميديات ببلاد ايطاليا وفي سنة ١٤٥٢ اخترع رجل يقال له تومازو فينجير وهو صائغ من فلورنسا فن حفر الصور على القوالب وهو النقش على النحاس والخشب وقيل ان ذلك كان في سنة ١٤٦٠ ثم في سنة ١٤٥٣ صنع لورنزودولبابا من بلاد ايطاليا ساعة بديعة يُعرف بها زيادةً عن معرفة الساعات حركات الشمس والكواكب السيارة والكسوف والبروج وجميع التقلبات السماوية وفي سنة ١٤٥٣ اخترع رجل من الملاحين يقال له هنري فن تخطيط البحور والبحيرات والانهر وسائر المياه بحيث يظهر رسم وشكل شطوط البحور والخلجان والثغور والجزائر والروؤس والاقنية والبواغيز والمجاري والاجوان والاماكن التي يصل الى عمقها مقياس الاعماق في البحار وفي سنة ١٤٦٦ عُمل معمل نسج الحرير في ليون احدى مدن فرانسا وفي ختام هذا القرن اي سنة ١٥٠٠ م اصطنع ساعات العبّ رجل يقال له بطرس هلّه من نورمبرغ ببلاد المانيا ولذلك كانت تسمى قبلاً بيض نورمبرغ

الخاتمة

في امتيازات القرن الخامس عشر

لايخفى بان القرن الخامس عشر المذكور حريٌّ بان يكون مقدمة تاريخ جديد للعالم لان فيهِ حصلت تقلبات ناجمة عن تغيير صورة الدنيا في المشرق والمغرب من عدة وجوه اولها انقراض القيصرية الرومانية الشرقية واستيلاء الدولة العلية على مدينة القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م كما سبقت الاشارة الى ذلك في خاتمة البحث الاول ولذلك يقول بعض المولفين كادت وقائع الشرق تذهب بالعلوم اليونانية الشرقية اما اللاتينيون (الافرنج) فان العلوم والفنون

عندهم عادت بمقتضيات حسنة الى رونقها ومجدها المفقودين منذ القديم فان الاحبار (باباوات رومية) نشطوا اليها الطلبة واشتهر منهم بذلك البابا نيقولاوس الخامس وكثيرون من الملوك والامراء ساعدوا اهل العلم بحمايتهم وعطاياهم الوافرة ومنهم عائلة الميديشي العاملة بايطاليا والفونسوس السادس ملك نابلي وحكام نابلي الاخرون من بيت اراغون فهولاء فازوا بالصيت المخلد على سخائهم وحبهم للعلوم فاقيم مدارس كلية في جرمانيا وفرانسا وايطاليا وجُمعت مكاتب بمصاريف باهظة واغوي الشبان على الدرس بواسطة تقديم الجوائز والكرامات وأُضيف الى كلّ هذه الوسائط تلك المنفعة التي ليس لها شبيه الناتجة من صناعة الطبع (وقد تقدم ذكرها) لان كتب اليونانيين واللاتينيين التي كانت مخفية في مكاتب الرهبان صارت بهذه الواسطة في ايادي الناس وفيما هم يرغبون كثيرين في مماثلتهم والاقتداء بهم في هذا الامر الحسن حسّنوا ذوق كثيرين من الطلبة وكذا سقوط المملكة اليونانية كان من اعظم الاسباب لامتداد العلم في غربي اوروبا لان اعلم رجال تلك الأُمّة بعد افتتاح عاصمة مملكتهم هاجروا الى ايطاليا ومن هناك انتشر بعضهم الى بلاد اوروبا فعلّموا بخلوص اللغة اليونانية وعلومها في كل مكان لاعالتهم وبثوا الرغبة في العلوم والفنون في كلّ العالم اللاتيني تقريبًا ولم يوجد مدينة تعتبر او مدرسة كلية الاّ وكان فيها في ذلك العصر يوناني او اكثر يعلّم العلوم والفنون لكنهم لم يوجدوا في كل مكان بكثرة كما كانوا موجودين في ايطاليا حيث نشطتهم واكرمتهم العائلة الميديشية المذكورة والمدن الاخرى الايطاليانية بسخائهم وغيرتهم الحارّة للعلوم المفيدة ولهذا جميع الراغبين في العلم في سائر البلدان اعتادوا ان يأتوا ليدرسوا في هذه البلاد وكان في ايطاليا واسبانيا كثيرون من المشهورين في معرفة العلوم واللغات الشرقية وسوف نتضح تقدمات باقي فروع العلوم من الابحاث الآتية . اما الفلسفة فكانت كما لا يخفى ويُعلَم من التفاصيل السابقة قبل ان اتى اليونانيون الى ايطاليا على مذهب ارسطاليس لان هذا الفيلسوف كان ممدوحًا عند الجميع

مرفوعًا فوق الحدّ حتى ان كثيرين منهم لم يستحوا من ان يشبهوهُ بيوحنا المعمدان سابق المسيح

ثانيًا بتأسيس الاصلاحات والتقدمات العظيمة السياسية التي فاز بها اغلب الشعوب الافرنجية باسباب ما نشأ بينها من المخالطات المتواترة والمداولات الاكيدة في شان مصالحها الخارجية الى ان آل امرها ان تعتاد بالتدريج على ان لا تفعل دولها شيئًا الّا بمشورة بعضها وادّاها ذلك الى ان رتبت مذهبًا بوليتيكيًا اي سياسيًا بهِ تثبت ميزان تعديل بين تلك الدول يدوم بهِ الامن العام وحفظ الممالك من المتغلبين وكان هذا المذهب في مبدأ الامر زمام الممالك الصغرى الايطاليانية ثم انتقل منها الى غيرها من الممالك العظيمة وهذا الاصل العظيم المبتدع في السياسة لا دخل لبسط اسبابهِ هنا اذ انها خارجة عن موضوع هذا الكتاب ولذلك نكتفي بالاشارة الى كونهِ كنايةً عن توزيع القوّة بين اعضاء جسمٍ واحد مؤلَّفٍ من دول اوروبا حفظًا تامًّا موسسًا على الانصاف

ثالثًا بظهور الاكتشافات العظيمة للاراضي المجهولة وخاصةً نصف كرة الارض الذي هو الدنيا الجديدة المسمّاة بامريكا ولذلك نجعل كلامنا هنا على هذا القرن الذي هو خاتمة القرون الوسطى منحصرًا في قضيتين ادبيتين وهما

القضية الاولى

في خلاصة ما تقدمت تفاصيله عن كيفية استدراجات الافرنج
الادبية عمومًا لحد القرن الخامس عشر ثم ما زاد على
ذلك من ترقياتهم في القرن المذكور بوجه
التفصيل وفيهِ مطلبان

المطلب الاول

في خلاصة ما تقدمت تفاصيله لحد القرن الخامس عشر

•

قد اشرنا في الفصل الثاني من هذا البحث الى انواع ونسبة واخلاق وعوائد الامم المتبربرة الهاجمة على القيصرية الرومانية الغربية وبيّنا ان اسباب اطلاق تسمية افرنج على عامة شعوب اوروبا والحالة هذه ما عدا العثمانيين واليونانيين هي لكونهما لم يختلطا وقتئذٍ بتلك القبائل التي عنها اخذت هذه التسمية ثم ان ما ذكرناهُ هناك من اخلاق اولئك المهاجمين وعوائدهم انما هو بالنسبة لما كانوا عليهِ وقتئذٍ من درجة المعارف التي اتصلوا اليها وهم بعدُ في ممالكهم الاصلية بعد ان كانت دخلت بلادهم قبل ان يخرجوا منها في حوزة الاحكام الرومانية التي كانت تبث علومها والمعارف التي كانت اكتسبتها من اليونانيين في جميع

البلاد التي كانت تستفتحها وتستولي عليها سواء كانت من شمالي اوربا ومشارقها كالالمان والدانيماركة والبروسيان والفلمنك واسوج ونرويج وغيرها من القبائل والشعوب المتوطنة الآن في تلك البلاد التي خرج منها اولئك البربر المقدم ذكرهم الذين استولوا اخيراً على جميع الممالك التي كانت خاضعةً للرومانيين المذكورين او الايطاليان والغالة اعني قدماء الفرنساويين والانكليز وغيرهم من سكان سائر الممالك الرومانية التي بعد ان توزعها البربر المذكورون فيما بينهم واختلطوا باهاليها اخذوا في ان يتدرجوا في ارتقاء المعارف واشركوا معهم بذلك ايضاً في زمن كرلوس الاكبر المقدم ذكرهُ كل الذين كانوا لا زالوا باقين في مواطنهم ولم يخرجوا معهم في تلك الغزوة من سكان بلادهم الاصلية كما يتضح ذلك من مراجعة الفصل الخامس من هذا البحث الذي نحن فيهِ وغيرهِ ايضاً من الفصول السابقة في البحث الاول

واضف الى ذلك المعارف التي كان ورثها الاسبانيول وهم فرقة من الممالك الرومانية الاصلية عن العرب ايضاً اذ لا يخفى بان العرب المذكورين كانوا قد افتتحوا هذه البلاد وطردوا منها الغوثيين احدى القبائل المتبربرة المذكورة وكان ذلك على عهد روريك اخر ملوكهم سنة ٧١٢م ثم بعد ان اقتسموها بينهم الى عدة ممالك صغيرة اضاعوا اكثرها في حروبهم المتتابعة مع اهل البلاد الاصليين ثم انضمّت ممالكها مع بعضها عندما تم افتتاحها فرديند وايزابيلة في سنة ١٤٩٢ م وهي نفس السنة التي اكتشف فيها لهذين الملكين خرستوفوروس كولمبوس اميركا كما يتضح ذلك من الكلام على القضية الثانية

وكانت العرب قد ادخلت الى هذه البلاد معامل وورشاً عديدة عظيمة ونمت بين سكانها العلوم والمعارف وازهرت واتت باثمارٍ لم ياتِ بها غيرهم من اهالي تلك الاعصر اذ انهم اتقنوا علم البحر والتجارة وفن الزراعة ونقلوا الى تلك البلاد زراعة النخل والخرنوب والقطن وقصب السكر وصناعة الورق من القطن في القرن الحادي عشر من الميلاد وعلموا اهاليها صناعة رفع المياه الى

الاعلى بواسطة النواعير وافادوهم ايضًا انواعًا من الطُرَف كالفروسية واللعب بالرماح وتعاطي المعاني الغريبة من الاشعار وكان عبد الرحمن الاخر الاموي المُلقَّب بالناصر ادخل اليها العلوم الفلسفية القديمة لمّا عزم ان يجعل مدينة قرطبة عاصمة مملكتهِ شبيهةً بمدينة بغداد دارًا للخلافة والعلوم ثم لمّا ترجم افرس بن رشد الكردوفي كتاب ارسطاليس وقرىء في مدينة كردوفا قُرِي كذلك في افريقية بين المراكشيين وانصبوا على درسهِ ومن ثم زها في مدارس المسلمين بتلك البلاد علم الجبر والحساب وانصبت الطلبة على العلم من كل ناد وتنافست بهِ بينما كان الافرنج لايعرفون شيئًا من العلوم والفنون غائصين في بحور الجهالة وقلّ من يعرف فيهم ما هي الحروف الهجائيّة حتى اشرافهم ايضًا وانما لما اختلط اهالي تلك البلاد بهم تعلموا منهم ما كان عندهم من المعارف على ما تقدَّم واستمروا على ممارستها والاشتغال بها وخلاصة الامر ان اهالي اسبانيا كانوا في القرن الخامس عشر آخذين جانبًا كبيرًا من معارفهم عن العرب مدّة اقامتهم في الاندلس التي كانت اوّل وسيلةٍ الى دخول العلوم ثانيةً في بلاد اوروبا بعد كرلوس الاكبر وثانيها الحروب الصليبية حسبما يتضح ذلك من التفاصيل المتقدمة ويقال بانهُ لم يزل حتى الآن موجودًا في المكتبة الملكيَّة باسبانيا نحو ۳۰۰۰ مجلد من الكتب العربيّة التي كانت موجودةً بها في زمن الخلفاء فبانضمام هذه الامور الى استمرار التجارة في عدةٍ من المدن الاسبانيولية المعتبرة في ذلك الزمان كان السبب في بقاء الاهالي فيها بكثرةٍ ايضًا واحتوائها على مدن كثيرة اعمر من باقي مدن اوروبا ما عدا مملكتي ايطاليا والبلاد الواطية (دانيمارك)

وهناك قضية اخرى ذات اهميةٍ وقتئذٍ في سطوة البلاد الاسبانيولية المذكورة وهي كما لا يخفى ان الرومانيين القدماء كانوا ينجحون في حروبهم وينتصرون بواسطة صفوف العساكر المشاة لكن في زمن الملوك القياصرة الذين غلبوا وتحكموا على كل البلاد غيروا طريقتهم وصارت الخيالة مطمح انظارهم ولذلك صاروا لا يقدرون ان يقاوموا صدمات المتبربرين لما هجموا على بلادهم وقد

كان يلزم هولاء المتبربرين الذين خلفوهم في السلطة ان يتعظوا بذلك ويحافظوا على تعليم العساكر المشاة التي كانت سببًا في انتصارهم لكنهم هم ايضًا بعد ان استولوا على البلاد ابدلوا عساكرهم المذكورة بجيوش خيالة كالرومانيين اسلافهم وكان منشأ ذلك كبر الاشراف وتعاظمهم وبقيت العساكر المشاة عندهم مهملة التعليم رديّة الاسلحة الى ان تولى على مملكة فرانسا في القرن الخامس عشر الذي نحن بصدده كرلوس السابع واشتهر بنصراته على الانكليز فاحدث جيوش العساكر المشاة على ما ياتي ايضاحهُ في الكلام على فرانسا ورتب المكوس الدائمة لها ثم لما صيرت حروب ايطاليا ترتيب العساكر المنتظمة عموميًا وعرف اهل اوروبا فضل العساكر المشاة في الحروب ترتبت حينئذٍ عساكر المشاة الملية الالمانية وكذلك تنازل الاشراف في فرانسا عن دعاويهم القديمة ودخلوا في الخدمة العسكرية منذ حكومة لويس الثاني عشر الذي تولى المملكة الفرنساوية في سنة ١٤٩٨م ومن ثم ترتب ذلك في اسبانيا ايضًا حيث نظمت عساكرها الجديدة مسلحة بنوع ثقيل من اسلحة النار يقال لهُ الزنبلك ويضرب بواسطة الفتيل فصار لعساكرها هذه المشاة شهرة عظيمة مكث سائر الافرنج يخشون بأسها مدة ١٥٠ سنةً ثم نسجت ايطاليا كذلك على منوال من جاورها من الممالك فخصرت قواها في العساكر المشاة

وكانت البورتغال حصةً من مملكة اسبانيا المذكورة لكنها انفصلت عنها قبل مدةٍ اعني في سنة ١٣٨٢م وصارت دولةً جديدة مستقلة أسسها يوحنا الاوَّل الكبير الملقب لوبيار (اي المغيل) ومن ثم اخذت هي ايضًا في التقدم والنجاح وبواسطة اسفارها البحريّة وتعرضها للاهوال والمخاطر في المحيط الشاسع كما يتضح ذلك في ما ياتي عند الكلام على الاكتشافات الارضية اصبحت ذات سطوةٍ وغنى ثم بانضمام ذلك الى ما كانت ادخلتهُ العرب فيها من التقدمات الادبيّة التي هي المبدأ الاصلي في ذلك كلّهِ منذ كانوا استولوا عليها في سنة ٧١٢م وضموها الى بلادهم التي تقدم الكلام عليها بالاندلس الى ان طردهم منها بالتمام

الفونس الاول ابن هنري البرغوني في سنة ١١٣٩م استمرت على زمانها ولا زالت الى ان اكتشفت طريق الهند من جهة رأس الرجاء الصالح في اخر هذا القرن كما يعلم ذلك من القضية الثانية الآتية بعدهُ

فهذه خلاصة ما تقدمت تفاصيلهُ من وسائل تقدمات الافرنج الادبية لحد القرن الخامس عشر ثم بانضامها الى اجتهاداتهم التالية صاروا باجمعهم والحالة هذه هم الوارثين لعلوم اليونانيين ومعارف الرومانيين والآفان الفريقين اعني الهاجمين الغالبين او المهجوم عليهم المغلوبين لم يكونوا الاّ وحوشًا قبل ان يتدرجا في المعارف بالوسائط المذكورة اذ انهما كانا على حالة الفطرة الاصلية يلبسون غالبًا جلود الوحوش الضارية ويأكلون المآكل الخشنة ومنهم من يتزينون بطلي اجسادهم بعصير بعض النباتات ويوشمونها بصور بعض الحيوانات ومن الرجال من يطوقون اعناقهم بسلاسل من ذهب وكذلك نساؤهم يلبسن اساور ذهبية واكثرهم مولعين بشنّ الغارات في كل جهات اوروبا كالالمان والدانيمارك التي خرج منها الطوائف القمبرية التي اهلكت اوروبا سنة ١٠٠ ق م والنورثمان او النورمند الذين خرجوا من اسوج ونرويج وصاروا قطاعًا للبحر وافسدوا البلاد الغربية وسكنوا في اقليم من اقاليم فرانسا لا زال حتى الآن يسمّى نورمندو نحو سنة ٨٤٥م وفي ذلك الوقت عينهِ اسست طائفة منهم اعني من النورثمان المذكورين يُقال لها الوريغية دولةً عظيمة شهيرة الآن بالسلطنة المسكوبية التي لما لم تصل الى بلادها سطوة الاسلحة الرومانية القديمة في زمن القياصرة السالفين ولا ذاقت لذة طعم الاداب الحادثة في زمن كرلوس الاكبر المقدّم ذكرهُ بقيت على حالة التوحش التام طول هذه المدّة ولم تظهر للوجود الاّ في القرن الخامس عشر كما يتضح ذلك مما يأتي

المطلب الثاني

في تقدمات المعارف والاداب عند بعض الممالك المذكورة في القرن الخامس عشر

روسيا

كانت هذه البلاد التي لم يَعُدْ على سكانها شيء من الفوائد التي نالها اولئك البربر مع انهُ كان اشترك معهم بعض قبائلها في مكابدة مشقات تلك الغارة المنوّه عنها على المملكة الرومانية تسمّى قديمًا روكسلان ثم تسمّت بالمسكوب نسبةً الى مدينة موسكا التي كانت تختًا لها اودارًا لاقامة كبار دوكاتها واما تسميتها روسيا فهو نظرًا لتعدد قبائلها فان معنى هذا الاسم القبائل المشتتة فكان من اقاليمها ما يقال له الروسيا البيضاء والروسيا السوداء والروسيا الحمراء وقد اختار لها المتاخرون اسم الروس دفعًا للالتباس بين روسيا وبروسيا وكان البعض من سكانها يسكنون المغارات والاخصاص ومنهم من هو قاصر العقل خالي البال ولذلك كان لايعتريهم مرض ويعمّرون طويلاً ويقال انهم كانوا يترجون الغرباء ان يدخلوا على نسائهم وبناتهم لاعتقادهم ان الغرباء احسن منهم شكلاً وجنسًا وبنيةً ويرون في ذلك اصلاحًا لعيوب تركيب نسلهم كما كان يقال عن اهل لقدمونيا ببلاد اليونان مع انهم معدودون من الامم اولي الفضائل ومنهم من كان معتادًا على السلب والنهب وقطع الطريق والصيال في البحر ولا يطيقون سكنى النساء في نجوعهم بل تسكن نساؤهم في

جزائر مخصوصة وسط النهر ولا يعرفون الزواج ولا العائلة بل ينظمون الذكور من اولادهم في سلك عساكرهم غير المنتظمة ويتركون الاناث عند امهاتهنّ وكثيرًا ما يفحش الاخ باخته والاب ببنته ويولدون منهنّ الاولاد ولم يكن لهم شرائع ولا قوانين اصلاً ومنهم من كان لا معرفة له بتقويم السنة وإنما يعدُّون اعوامهم بالثلوج ولا يعدونها بسير الشمس الظاهري فكان اذا سئل احدهم عن عمره مثلاً يجيب بقوله انا لي كذا وكذا من الثلوج كما يقال كذا وكذا من السنين

لكن كما ان الشعوب المذكورة في ما تقدم كاملها ما عدا روسيا كان تحسين احوالها نوعًا بواسطة سبق دخول الرومانيين الى بلادها على ما تقدم حيث اقتبست عنهم بعض صنائع وعوائد مفيدة جعلتها متمدنة نصف تمدُّن اعني متبربرة سواء كان ذلك في المعيشة والرفاهية او في الامور السياسية والحربية واصطناع الاسلحة كما حصل ذلك في المانيا وغيرها من الاقاليم الشمالية او تقدمت في امور الزراعة كما حصل في فرانسا اذ ادخل اليها الرومانيون غراسات لم تكن موجودة فيها قبل استيلائهم عليها فانه يقال انهم ادخلوا اليها الكرز والكرم من بلاد المشرق والزيتون والتوت الاسود واللوز والجوز والبطيخ من اسيا والبورتقال والليمون والتوت الابيض من الهند والمشمش من ارمينية والخوخ من بلاد فارس والرمان من افريقية او كما وقع لانكلترة حيث تقدمت بواسطتهم اهاليها تقدمًا نشيطًا في بناء المدائن واتقان الصنائع كذلك ايضًا روسيا اخذت قبائلها الجنوبية مذ القرن الخامس من التاريخ المسيحي في اكتساب الهيئة الاجتماعية من اليونانيين وست مدينةً يقال لها نوغرود واخرى يقال لها كيف اما القبائل الشمالية فانحدت تحت سلطة رجل يقال له روريق في سنة ٨٦٢م وهو من الوريغيين الذين تقدَّم ذكرهم وما زال نسله يتولى السلطنة الى القرن السادس عشر

وكانت ديانتهم وثنية نظير ديانات سائر الامم والشعوب المتبربرة التي مرَّ ذكرها وحيث قد تكلمنا عليها جميعها بقدر ما وصل الينا في البحث الرابع من

المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا نكرر ذلك هنا غير انهُ كما ادخلت كولوتيد وهي بنت اخي امبراريا في الديانة المسيحية الى بلاد فرانسا في سنة ٤٩٦ وادخلتها برثا ابنة تشربرت زوجة اتلبرت ملك كنت اشهر ملوك الانكلسكسون الى انكلترة في ٥٩٦ ودمبروكا ابنة بولصلس زوجة ميسيسلس دوك بولونيا الى بلاد له في سنة ٩٦٥ وزوجة غيصا رئيس الشعب المنكاري الى بلاد المجار في اواخر القرن العاشر المذكور كذلك ادخلت اميرة مسكوبية يقال لها اولغا هذه الديانة الى روسيا في سنة ٩٧٥ م مع انها لم تدخل الى بلاد بروسيا الاَّ في اواسط القرن الثالث عشر بطريقةٍ اغتصابية لا توافق قواعد هذا الدين الاصلية

ونحو القرن الخامس الذي فيهِ استولى البربر المذكورون على الاقاليم الرومانية كان فن القراءة والكتابة غير معروف في بلاد روسيا كما انهُ مكث زمانًا طويلاً مجهولاً في جميع اوروبا الشمالية لكن لما كان اول بطريرك تولى بلاد المسكوب روميًّا استعمل المسكوبيون في لغتهم حروفًا هجائية اخذوا بعضها من اللغة اليونانية

ثم لما تولى المملكة اياروسلاف في سنة ١٠١٦ م وضع لبلاد روسيا قوانين محكمة ومن ذلك الوقت اخذت في مبادي التمدن والعمران لكنها لم تخرج من غوائل الخلل الذي كان اوقعهُ فيها النورمند اوهم النورمان الاَّ في وسط القرن الخامس عشر من التاريخ المسيحي في ايام تملك ايوان الثالث سنة ١٤٦٢ الذي اعتقها من نير التتار وبذل جهدهُ في جلب التمدن الى بلادهِ اذ انهُ كان قائمًا بحماية العلوم والمعارف وفي سنة ١٤٨٢ م جلب من بلاد الدانيمارك جماعة من صناع المدافع والطوبجية والمهندسين واللغمجية والبنائين والصاغة وجلب ايضًا من الاروام والايطاليانيين ارباب حرف وصنائع واحدث في جميع مواضع ادارتهِ نظامًا جديدًا وجعل عساكرهُ على حالةٍ منتظمة حسنة وزاد ايراد المملكة بما غنمهُ من الفتوحات وبما جددهُ من الطرق في ضرب المغارم

واستخراج المعادن وتوسيع دائرة التجارة ورتب في مدائنهِ الضبط والربط والتربية السياسية ووضع في الطرقات البوستة والبريد فكان ارباب السياحات يرون بها خيولاً بعلوفاتها وكانوا لا يدفعون لها اجرةً اذا كانت اوراق الطريق التي معهم متضمنة لذلك وقد اطّلع على الترتيبات القديمة المتعلقة باقضية البلاد المسكوبية واحكامها وجمعها كلها في دستور قوانين امر بنشرهِ في سنة ١٤٩٧م وانشا حصن ايوان غرود في سنة ١٤٩٢م في المحال التي بنيت فيها اخيرًا مدينة بطرسبرغ وبذلك تمّت المشابهة بينهُ وبين الامبراطور بطرس الاكبر الذي سوف يأتي ذكرهُ في محلهِ

وكانت مدينة موسكا قصبة هذه المملكة الى القرن الثالث عشر من الميلاد ليست الاّ عبارة عن مجمع اخصاص يسكنها اناس مساكين يحكمهم جماعة من ذرية جنكيزخان حكومةً ظلمية حتى ان خطّ كريملينا لم يحدث بهذه المدينة الاّ في القرن الرابع عشر بناهُ مهندسون من ايطاليا فانشأ فيها المالك المشار اليهِ مباني وعدّة عمارات لطيفة منها الكنيسة المسماة اسومبيسيون وحصن كريملين الذي هو قصر عظيم وقال بعض المورخين ان هذه العمارات بناها لهُ الايطاليانيون كما بنوا قبلاً خطّ كريملين المذكور وقال ايضًا انهم بنوا عدّة كنائس على الرسم القديم الغوطي الذي كان عليهِ العمل وقتئذٍ في جميع بلاد اوروبا ومن هذه الكنائس كنيستان بناهما مهندس شهير في بلادهِ يسمّى ارسطو كان لهُ صيت في القرن الخامس عشر

فرانسا

وكانت البلاد الفرنساوية قد اخذت ان تتقدم بهذا القرن في العلوم والاداب منذ انقذها كرلوس السابع الذي جلس على كرسي مملكتها في سنة ١٤٢٢م من ايادي الانكليز فان هذا الملك شرع في تقويم اودها واصلاح

شأنها حيث جدد بها كتيبةً من العساكر المستمرّة ونشر اوامر تتضمن عدم التطويل في فصل الدعاوي وامر بتدوين العوائد الجارية في اقليم فرانسا لتكون للحكام قاعدةً يعملون بمقتضاها واشهر قوانينهِ هو القانون الاكليريكي الذي مكث مدةً طويلة مالوفًا ومحبوبًا للكنيسة الغالية وصنع تراتيب وقوانين جديدة لجمعية مدرسة باريس دار العلوم التي كان يوجد بها في ذلك العصر ٣٥ الف تلميذ وفي سنة ١٤٥٨ م شُرِع في هذه المدرسة بتعليم اللسان اليوناني الذي اتى به اليهم اليونانيون الذين هاجروا من القسطنطينية وفي ذلك العصر اخذت التجارة في الاتساع والعظم

وكان نحو هذا الوقت اخترع يوحنا غوتمبرغ الميانسي بالمانيا وقد تقدّم ذكرهُ صناعة الطبع فادخل الى باريس بعض نسخ من الكتاب المقدس مطبوعةً باللغة اللاتينية وباع الواحدة منها بعشر ليرات حالة كونها كانت تباع بنحو ١٠٠ ليرا فصارت حركة عظيمة بين الناس اذ ظنّوا انها مكتوبةً بخط اليد ولم تُعمَل بهكذا سرعةٍ ورخصٍ الّا بقوةٍ شيطانية ولا سيما ان كل الذين اشتروا منها كانوا يجدون نسخهم مطابقةً بعضها بعضًا بالتمام وبما انهُ كان يوجد بها سطور مكتوبة بمداد احمر فبرهنوا على ما زعموهُ بان تلك السطور لم تكتب الّا بدمٍ الشياطين وبعضهم قالوا كيف يمكن للشياطين ان تكتب كتاب الله واخيرًا اشتكوا عليهِ للحكومة مدّعين بانهُ ساحر فامسكتهُ الحكومة هو وشريكهُ ايضًا ولم تطلقهما مشورة باريس الّا بعد ان افشيا لها سرّ تلك الصناعة ليتخلصا ممّا احاق بهما من الخطر(١) لكن لمّا تولّى الملك لويس الحادي عشر المقول عنهُ

(١) هذه القصة تشبه ما نسمعهُ في ايامنا هذه عن سودان افريقية مع انها واقعة في بلاد اوروبا بل وفي المدينة التي تعتبر الان مركز العلوم والمعارف ومنبع التمدن وكان وقوعها من نحو ٤٠٠ سنة مضت فهل من مانع يمنع العقل بعد ذلك عن الامل بان تصير اكواخ افريقية الحالية ماوى لمثل هذه المزايا المذكورة بعد ٤٠٠ سنة مستقبلة او اقل من ذلك طالما دعاة نور العلم في هذا العصر على ما هم عليهِ من الهمة

فاسد القلب نظرًا لاوهامهِ الباطلة وما كان لهُ من العقائد الغريبة الّا انهُ كان يمارس العلوم والمعارف وانشأ مجامع علوم في والنسه وبرجس وكان لهُ معرفة باللسان اللاتيني ويحامي عن العلوم والاداب ويكرم العلماء نقل صناعة الطباعة المذكورة وقتئذٍ الى باريس ٣ من طباعين الالمان وهم اولريك جرنغ وميخائيل فريبورجير ومرتين كرانتزسنة ١٤٧٠م وجعلوا دار طباعتهم بمدرسة لاسربونة فاتسعت بذلك دائرة العلوم وتقدمت في اقرب وقتٍ بنشر الكتب مع السرعة والسهولة بعد ان كانت الى ذلك الوقت قليلة الوجود غالية الثمن حتى ان المتشبثين بمطالعة الكتب لا يمكنهم تحصيلها الّا بشقّ الانفس

وكان علم الطبّ يدرس اولاً في مجامع باريس الّا ان هذا العلم الذي كان قليل التقدّم وكان مخلوطًا بالضلالات والاعمال السحرية لم يكن لهُ مدرسة خصوصية فتجددت لهُ في عهد هذا الملك مدرسة مخصوصة في سنة ١٤٧٢م وبعد ذلك بسنتين انتشر هذا الفنّ باستكشافٍ نافع على ما ذكرهُ بعض المولفين وهو عملية الحجر التي جريت وظهر نجاحها في بعض الرماة من اهالي مودون وكان قد حكم عليهِ بالقتل لجنايةٍ ارتكبها فنجا من الهلاك مرتين بواسطة هذه التجربة الناجحة

وكان لهذا الملك مزيد التفات الى التجارة وكان يتاثر من كون مملكتهِ محتاجة لمحصولات الدول الاجنبيّة فاراد ان يجبر هذا الخلل فاحضر من بلاد اليونانيين ومن بلاد ايطاليا كثيرًا من ارباب الصنائع ليجددوا في مملكتهِ معامل وورش للاقمشة المزركشة بالذهب والفضة واقمشة الحرير وامر بمعافاتهم من جميع التكاليف والمغارم بسائر انواعها وكذلك زوجاتهم واراملهم واولادهم وحرر اشعارًا يتضمن الاذن بالتجارة برًا وبحرًا للقسوس والاشراف وغيرهم بشرط ان من تاجر منهم في البحر لا يأتي بالبضائع الّا في سفن فرانساوية

وفي سنة ١٤٧٠ وضع قانونًا في شأن استخراج المعادن ولم يكن قبل ذلك قانون معيَّن لها وصدر امرهُ بمعافاة كلّ من اتى لهذا الغرض من الشغالة

الاجانب من جميع المغارم مدة ٣٠ سنة وخيرهم اما ان يتنظموا في سلك الفرنساوية او ان يعودوا الى بلادهم

ومن اعظم ترتيبات هذا الملك واتمها نفعًا هو ترتيب البريد ويسمونهُ بلغتهم البوستة وكانت البوستة في مبدإ الامر معدَّة لمصالح الملك والبابا خاصةً ثم اتسعت دائرتها في سنة ١٤٨١ م حتى صارت تُستعمَل في مصالح الاهالي ومراسلاتهم

ورتب ايضًا مجلس البرلمان في غرنويله ثم رتبهُ في بردو سنة ١٤٦٢ م وفي ديجون سنة ١٤٧٧ م ورتب قانونًا انهُ لا يجوز توظيف احدٍ في وظيفةٍ الّا اذا كانت خالية بموت صاحبها او نزولهِ عنها او عدم قيامهِ بادائها

وكان عازمًا على ان يجمع القوانين والعوائد ويؤلف منها كتاب قوانين للمملكة لا يكون العمل على خلافهِ ويختصر طرق فصل الدعاوي ومن كلامهِ مَن لم يعرف المداراة لم يعرف الادارة ومتى سار التكبر وتقدم الى مكان سار خلفهُ الخزي والخسران

ومع كون هذا الملك كان في العلم على درجةٍ لا يصل اليها غيرهُ عادةً كانت انوار معارفهِ مشوبةً بظلام الاوهام كما يقضي بذلك ما صدر عنهُ من الحكم المنكر الذي انهى بهِ المشاجرة الهزئية الشهيرة التي كانت واقعة بين طائفة الريالست اي الحقيقيين وبين طائفة النومينو اي الاسميين ويشهد بذلك ايضًا عقيدتهُ الفاسدة في العرافة والكهانة حيث كان عندهُ ٧ رجال من ارباب التنجيم موظفين بمعاشات على طرفهِ ليخبروهُ بما يظهر لهم من مستقبل الاحوال

وهذه المشاجرات الهزئية المذكورة هنا قد سبقت تفاصيلها في عدة مواضع وعلى الخصوص في الفصل السادس من هذا البحث بجملة احوال القرن العاشر فاراد الملك المشار اليهِ ان ينظر في هذه القضية ويحكم فيها بما يراهُ فرأى ان الاسميين هم المخطئون ومن ثم امر في سنة ١٤٧٥ م بالحجز على كتبهم وحكم بالنفي على كل من تعرض لتأييد هذا المذهب او تصدَّى للانتصار لهُ ثم بعد ذلك

فلك جمز الكتب والمولفين

وفي زمن الملك لويس الثاني عشر الذي تولى المملكة سنة ١٤٩٨م نعضدت شوكة التجارة والزراعة والفنون والاداب ولذلك كان يُلقب بحامي العلوم والاداب وكان كلّما اختلس وقتاً من اوقات اشتغاله بالمصالح العمومية يشغله بمحادثة العلماء او مطالعة اثار الاقدمين وجلب الى فرانسا مشاهير علماء ايطاليا واستمالهم بالانعامات واقام منهم جماعة يعلمون اللسان اليوناني في مدرسة العلوم الجامعة بباريس وحصل نجاح عظيم حتى صار المتعلمون يفسرون مخاطبات افلاطون ثم جمع من مولفات الاقدمين العظيمة مجموعاً كان اعظم الجاميع التي اشتهرت اذ ذاك في اوروبا وطالعها هذا الملك مع التأمّل وجمع منها اصولا وحكماً نافعة وكان يجتهد ان يطبعها في ذهن الشاب كونتة انغوليم الذي كان ولي عهده على المملكة (فرنسيس الاول)

واشتهر بفرانسا في ذلك الوقت كل من المولف جرسون دبلي وكليمنجس وغليوم ويوحنا والآن شربتير شهرةً حميدة

ومن اثار هذا العصر الادبية التي فاقت على اداب العصر الذي قبله اشعار اوكتاويان دوسنت جليس الذي ترجم قصيدتي اوميروس وهما ادويسة وايليادة ورسائل ادويدة ومنها ايضاً اشعار دبلون الذي هو اوّل من حرر فن اختراع الحكايات الموضوعة القديمة وكذلك اشعار كرلوس دوك دورليان الى لويس الثاني عشر وتواريخ مارثيسال دوبرينه المنظومة واشعار الرعاة التي نظمها الملك رينه الطيب لفرط تولعه ورغبته بالرعي حين زهد في الفتوحات والمناصب العالية ورعى مواشيه في مروج بروونسة مع زوجته الملكة حنه دي لوال

وما تجدد في هذا العصر من التآليف المعتبرة المفيدة تواريخ روبرت جاجين ومونسترليت ورسائل اوليوبير دولامرش وقد الف فيلبس دوكومينه رسائل تتعلق بالملك لويس الحادي عشر كاد ان يُعدّ بها من نظراء تاسيت

المؤرخ الروماني الذي مرّ ذكرهُ في الفصل الثاني من البحث الاول في الكلام على السلطنة الرومانية

وكذلك لا مانع من ان يقال بان غلبوم فينشيت رئيس مدرسة العلوم الجامعة في عهد هذا الملك هو الذي احيى فن البلاغة وحسّن اللغة اللاتينية في المكاتب والمدارس الفرنساوية

انكلترة

وفي القرن الخامس عشر المذكور ايضاً ظهر في انكلترة الشاعر المشهور شكسبير قال بعض المولفين انهُ وان لم يخلُ كلامهُ عن الهفوات فلهُ التنفيس من جوهره ويتوصل بفصاحتهِ الى الكشف عن كنه ما يروم وصفهُ والاحاطة بكيفيتهِ الحسيّة والمعنوية ولاسيما في وصف الحروب بحيث ان سامع كلامهِ يكون كالمشاهد لما يصفهُ

ووليم جليبرت من كولشستير كان طبيباً للملكة اليصابات في انكلترة الذي بحث عن الكهربائيّة وذلك قبل موتهِ باربعين سنةً واشار الى نوعيها الموجبين دائماً للاجتماع وقال انهما بخلاف المتماثلين في الطبع فانهما دائماً متنافران وفي ذلك الوقت كان لموت تاليس الفيلسوف اليوناني الذي سبق ذكرهُ في الكلام على اليونانيين نحو ٢٠ قرناً لم تتقدم فيها المعارف الكهربائية بل ولم يسمع كلام عنها الاّ من بلينوس احد فلاسفة الرومانيين حيث يقول ان الكهرباء متى اكتسبت الحرارة والحياة بواسطة الفرك تجذب قطع القش كما ان المغناطيس يجذب الحديد انتهى كلامهُ ولا يخفى ان الكهرباء لفظة فارسية معناها جاذبة القش قال بعض الكتبة ان اليونانيين كانوا يشبّهون هذه الخاصيّة بالتنفس فقالوا ان في الكهرباء حياة تتنفس الأجسام الخفيفة ولندرة هذه المادة شردوا في حقيقتها ومن خرافاتهم ما زعموهُ وهو انها تأتي من دموع عصفور هندي

حزين على موت الملك ماليا كروس اه ثم من بعد ظهور چليبرت المذكور اخذ فحول العلماء من الانكليز والفرنساويين وغيرهم في البحث عنها الى ان اكتشفوا منها فوائد عظيمة كما ياتي ذكر ذلك في محلهِ

ايطاليا

لا يخفى بان هذه البلاد وان تكن قد اضرَّت بها الحروب الصليبية لكنها كانت في القرن الخامس عشر والسادس عشر هي القطر الذي اينعت فيهِ دون غيرهِ من اقطار اوروبا اثمار الاداب والفنون مع مزيد الرونق والبهجة فانها اجتنت معظم ثمرات الغزوات المذكورة على ما سبقت تفاصيلهُ في الفصل السابع من هذا البحث وبالجملة فان الامة الايطاليانية كانت هي المستعدة اكثر من غيرها من شعوب اوروبا لتلقي وتتبع المعارف والاداب التي ساقتها الى العقول الحوادث العظيمة التي حصلت في اواخر القرن الخامس عشر

وقد اشرنا في ما تقدم الى تاسيس الاداب فيها منذ القرن الرابع عشر اما الذي أسسها فهم ٣ رجال من اولي النهي والقرائح الجيدة واسماؤهم دنته وبوكلسه وبترارك وهم الذين تركوا لمن بعدهم من ابناء ذلك العصر لسانًا جديدًا انشأوهُ واحكموهُ من ملحهم وامثالهم واورثوهم ايضًا التولع بمطالعة كتب الاقدمين واستحسانهم اياها فكان ذلك منشأً لجميع الاداب المستحسنة

وقد كانت الآثار القديمة قبل هولاء الثلاثة خيمت عليها عناكب النسيان فلم يكن في خزائن كتب المدارس والديورة التي كانت قد تجددت في عدَّة اقاليم الاَّ بعض كتب في اللاهوت وعلم الاحكام والطب والفلك والفلسفة التي كانوا يقرأونها في المدارس على طبق الالهيات

فحمل هولاء الثلاثة ولاسيما بترارك اهل عصرهم على معرفة كتب الاقدمين

ومطالعتها فاخرجوا بذلك الكتب التي كانت مدفونةً في تراب الديورة البعيدة في الاقطار الشاسعة من حيز الخفاء الى حيز الظهور وحثوا الناس على التسابق الى العلوم واستفراغ الجهد في العلم والمعرفة وتوريث ذلك عنهم جيلاً بعد جيل

وفي اثناء ما كانت اهالي هذه البلاد قد تمكن منها هذا التولع بالعلوم والفنون واذ ظهر فن الطباعة فزاد به تولعها وانتشر حبّ المعارف واتسعت دائرتهُ وهذا الفن المخترع الذي لاتخفى فوائدهُ كان لهُ تاثير عظيم في تغيير احوال البشر وكان ظهورهُ في ذلك الوقت الملائم لانتشارهِ وقبولهِ حيث كان الناس يرغبون في البحث عن الكتب ومطالعتها بالجدّ والاجتهاد على ما ذكرنا

وقد كان انتقال هذا الفنّ من المانيا محل اختراعهِ على ما سبقت الاشارة اليهِ الى ايطاليا قبل ان ينتشر في محلٍ آخر وكان اول ما طُبع فيها كتاب في اشعار اللغة اللاتينية التي عاد الى استعمالها اهل ايطاليا فتكاثرت بها اشعارهم بعد ان كانوا قد تناسوها وهي وان لم تأخذ مأخذها في التوصل بها الى المعاني الدقيقة واللطائف البديعة الّا انها قد رجعت لما كانت عليهِ من الطلاوة وحسن السبك

قال بعض المؤلفين لامانع ان يُطلَق على هذا العصر بالنسبة الى ايطاليا عصر ذهب الشعراء والعلماء والمحترفين فان الجمهوريات التي كانت وقتئذٍ موجودة في ايطاليا والامراء الذين علا شانهم وارتقوا الى الرياسة كانوا يتفاخرون ويتنافسون في المباني والرفاهية والزينة في مواكبهم ويسعون في ما يكون بهِ فلاح دولهم وسعادتها وما ذاك الّا الاداب والعلوم والفنون وكانوا يتسابقون الى حماية ارباب المعارف مع الاستمرار والدوام والبذل والعطاء وكانوا متى ظفروا بعالمٍ جديد تنازعوا عليهِ حتى كانهُ من الفتوحات العظيمة الفاخرة ويبعثهُ الظافر بهِ على ملازمة ديوانهِ مع التشريفات والالقاب الرفيعة ويفاخر بهِ الاجانب ويقلدهُ بالسفارات والحكيداريات حتى كانهُ يريد بذلك

ان يربة لجميع اهل الارض كما سوف يفهم اجتهاد كلٍ منهم في هذه الامور من التاصيل الآتية وهي

لمّا كانت مدينة نابلي على عهد الملوك الاراغونية متولعة بممارسة العلوم ومطالعة كتبها انشأ بها الملك الفونس الاول الذي حكمها في سنة ١٤٤٢م اكدمة (مجمع علماء) اشتهرت في بداءة امرها بالمولف بونتانوس وسوف يأتي ذكرهُ والشاعران كارتيو وسنازار ولاسيما هذا الاخير فان اشعارهُ اللاتينية تشبه احسن ما يجانسها من اشعار المتأخرين وله قصيدة تسمّى اركاديا وصف بها اخلاق الرعاة واتى في وصفهم باخلاقٍ حماسية تنبسط في وصفها النفوس وكان من جملة رجالها ايضًا دوك دواتري ودوك دونروي

وكان الملك المشار اليهِ نفسهُ يحب العلوم ويمارسها فضلاً عن بذلهِ وعطائهِ لاجلها وكان يحضر مجلسهُ العلماء ويقرأون عندهُ كلّ يومٍ شيئًا من المولفات القديمة وكان لا يترك عادتهُ من مطالعة الكتب حتى ولا في اوقات الحروب وكان اذا تغلبت عساكرهُ على مدينةٍ ووجدوا فيها كتبًا اغتنموها اتوا بها اليهِ كأنها اعظم شيء في تلك الغنيمة

وقد اشتهرت ايضًا امراء عائلة ايسته حكام فراره في مبدإ الامر شهرة عظيمة لحبتهم الاداب والعلوم واكرامهم لاهلها ومن جملتهم المركي نيقولاوس الثالث فانهُ جلب الى المدرسة الجامعة في المدينة المذكورة مدرسين ماهرين وقيدهم بقيود احسانهِ وانعامهِ ولما تولى بعدهُ ولدهُ ليونيل سنة ١٤٤١م لم يترك شيئًا مما تكون بهِ هذه المدرسة مضاهيةً في الشهرة لاشهر مدارس ايطاليا وكان هذا الامير معدودًا من مشاهير رجال عصرهِ ويوثر عنهُ بعض اشعارٍ رقيقة رائقة وقد زاد هرقول ديسته في كتب الخزانة التي انشاها عائلتهُ

وهرقول المذكور هو اوّل اميرٍ من امراء ايطاليا جدد في ديوانهِ ملاعب فاخرة يلعبون بها كوميديات يونانية ولاتينية بعد ترجمتها الى اللغة الدارجة ليفهمها العامة وكانوا يلعبونها في تلك الملاعب من غير ان يترك فيها شيء من

مظهر تماثيلات الاقدمين وابهتها ورونقها وكانت تقال وتمارس فيها اشعار الحماسة واشعار ابطال الرجال مع الطلاوة والحسن ومن شعراء الحماسة بها بويار واريوست وتاسة الذين اسماؤهم مخلدة كما ان ملح اشعارهم باقية مؤبدة

قال بعض المؤلفين ان في القرن الخامس عشر ظهر الشاعران اريوست وتاسه (المذكوران) اللذان اشهرا اللسان الايطالياني المستعمل الان وهما في الطبقة الاولى من مشاهير تلك اللغة فاولهما خلّد ذكرهُ باختراع معانٍ لم يُسبَق اليها في الفاظٍ مهذبة مستعذبة والثاني نال شهرةً كشهرة اوميروس الشاعر اليوناني وورجيل الشاعر اللاتيني وبالجملة فان اللسان الايطالياني اخذ في ذلك الوقت ماخذهُ من السلاسة وحسن السبك وأُلفت فيهِ تآليف عديدة في فنون شتى

وكان المونتغليترية في اوربين والغونزاغية في مانتوه والوسكونتية ثم السفورسية في ميلان والباتووغلية في بولونيا حكامًا يحمون الاداب ولم تكن كونتات ميرندولا دون الامراء العظام في محبة الاداب ولااقلّ من مشاهير العلماء في الشهرة بالادب كيف لا وتاليف بوحنا بك[1] الادبيّة تكاد ان تكون جامعةً لجميع انواع الانشاء وصناعة الكتابة وهو من اوّل مَن عارض في علم التنجيم وقال ببطلانهِ وكان هذا العلم مع كونهِ من الاباطيل والاوهام يوجد لخصوص تدريسهِ مقاعد ومدرسون في مدرسة العلوم الجامعة ببولونيا ومدرسة العلوم الجامعة في باد وهاتان المدرستان كانتا اشهر مدارس ايطاليا وقدوةً لغيرها من المدارس

وكان للبعض من البابوات الرومانيين ايضًا التفات الى توسيع دائرة العلوم والمعارف اذ يقال بانهُ كان للبابا اينوكنديوس السادس الذي ارتقى الى الكرسي سنة ١٣٥٢ م وخليفتهِ اوربانوس الخامس الذي تولى سنة ١٣٦٢ م

(١) وهو بيكوس كونتة كونكورديا احد المحامين عن الفلسفة الافلاطونية المذكور في الفصل السادس من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف

وغريغوريوس الحادي عشر الذي خلفه في سنة ١٣٧١ م كاتب انشا من العلماء خدمهم بهذه الوظيفة على التعاقب يسمّى كولكسيو سالوتانو ثم اعقبهُ بهذه الوظيفة ايضًا عند البابا اينوكنديوس السابع الذي تولى الكرسي سنة ١٤٠٤ م كل من بوغجيو بركسيوليني وليونارد ووارينو وغيرهما ممّن امتاز في هذه الصناعة بالفضل والشهرة

ولمّا ارتقى البابا افجانيوس الرابع الى الكرسي في سنة ١٤٣١ م احبَّ العلوم فقرَّب اليهِ مشاهير العلماء وجعلهم ملازمين له بالوظائف التي قلدهم بها واعاد مدرسة العلوم الجامعة برومية وكان قد سعى قبلهُ في ذلك البابا اينوكنديوس السابع المقدم ذكرهُ بدون طائل

ثم لما ارتقى الى الكرسي البابا نيقولاوس الخامس في سنة ١٤٤٧ م وكان ابن طبيبٍ فقيرٍ من مدينة سرزانة ونال هذه المرتبة بواسطة حرصهِ على التعلُّم ومطالعة الكتب فاحضر الى ديوانهِ عددًا لا يحصى كثرةً من النساخين والمترجمين الذين يترجمون الكتب من اليوناني الى اللاتيني وبعث عدةً من العلماء ليبحثوا له عن الكتب المكتوبة بخط اليد في جميع اجزاء ايطاليا والمانيا وانكلترة وبلاد اليونانيين وبلاد المشرق ويشتروها له ومن ثم ترجم له المترجمون ما لا يحصى من الكتب اليونانية كمؤلفات هيرودوتوس وتوسيديد واغزنيفون وبوليب وثيودور دوسيسيليا وقصيدة اوميروس المسماة اليادة وجغرافية اسطرابونيس وابيان الاسكندراني وفيلون اليهودي وكان ذلك اول مرةٍ تُرجمت فيها هذه الكتب وأُضيف الى ما كان يوجد هناك من التآليف عدَّة مؤلفات لافلاطون وارسطاطاليس وثيوفراست

وكان من هذا القبيل ايضًا تاليف اباء الكنيسة ومعلمي اللاهوت الذين كانوا في القرون الاولى من ظهور الديانة المسيحية فترجموا من اليوناني الى اللاتيني كتاب اوزيبيه (لعلهُ اوسابيوس احد الفلاسفة المسيحيين الاسكندرانيين وقد مرَّ ذكرهُ في ما تقدم) وديونيسيوس الذي كان من اعضاء محكمة اريوس

باغوس وقد تقدم ذكرهُ ايضًا في الكلام على اليونانيين وباسيليوس وغريغوريوس النازينزي ويوحنا فم الذهب وغيرهم وحصل اذ ذاك اجتهاد في تعلُّم اللغات الشرقية مع الرغبة وشرعوا في ترجمة الكتب المقدسة على الاسلوب العبراني واسَّس هذا البابا مكتبة الواتيكان (السراية البأباوية) وجمع فيها من الكتب نحو ٥٠٠٠ مجلد وكان هذا المقدار منها في ذلك الوقت يُعَدُّ من العجائب

ثم انهُ من حين وفاة البابا نيقولاوس المشار اليهِ في سنة ١٤٥٥ م الى ظهور البابا لاون العاشر الذي ارتقى الى الكرسي سنة ١٥١٣ م لم تجد لها العلوم في رومية محاميًا ذا غيرةٍ الَّا البابا بيوس الثاني الذي جلس على الكرسي سنة ١٤٥٨ وتوفي سنة ١٤٦٤ م

ولما كانت العلوم مهملة في رومية بعد وفاة البابا نيقولاوس الى ظهور البابا لاون العاشر على ما ذكرنا كانت دولة العلوم اذ ذاك بفلورنسا عاصمة بلاد التوسكانا لانهُ في اواخر القرن الرابع عشر كان يوحنا دوميديشي قد حاز اموالاً جسيمة اكتسبها من التجارة وكان محاميًا للعلوم والاداب والفنون المستظرفة وكان يحث عليها ويرغب فيها حتى في مدة نفيهِ فانهُ امر المعماري الشهير المسمَّى ميشيليود ميشيلوزي وكان قد صحبهُ في النفي ان ياخذ بالرسم صورة اظرف المباني الموجودة بمدينة البندقية وامرهُ ايضًا ان يبني ويزين على طرفهِ خزانة كتب في دير القديس جاورجيوس ببلاد البندقية ثم شحنها بالكتب النفيسة المكتوبة بخط اليد واراد بذلك ان يترك للبنادقة اثرًا من اثارهِ علامةً على شكرهِ لصنيعهم معهُ حيث انهم احسنوا قراه واكرموا نزلهُ في مدة نفيهِ

ثم لما عاد لوطنهِ وتمكنت شوكتهُ تفرغ بالكلية لمرغوباتهِ العظيمة وكان من تلك المرغوبات استكشاف كتب الاقدمين وحيازتها لجمع مقدارًا عظيمًا من الكتب المعتبرة التي لا تدرك لها قيمة في اللسان اليوناني والعبراني والكلداني والعربي والسرياني والهندي وصنع منها خزانة كتب شهيرة زادت فيها ايضًا ذريتهُ من بعدهِ زيادةً بالغة لاسيما حفيدهُ لورانت الآتي ذكرهُ حتى صار لها

شهرة عظيمة في بلاد اوروبا ذات العلوم والمعارف وصارت تسمّى فيها بالمكتبة الميد يشولورانتية ومعناهُ المنسوبة الى لورانت الميد يشي

وكان اذ ذاك بمدينة فلورنسا رجل اخر يقال لهُ نيقولو نيقولي استعمل اموالهُ في مثل ذلك فقد بلغ عدد الكتب التي جمعها ٨٠٠ مجلد ما بين يوناني ولاتيني وشرقي وهو مقدار جسيم بالنسبة الى ذلك العصر واوصى عند موتهِ بان تجعل هذه الكتب مكتبة عامة ينتفع بها عموم الناس وتكون تحت نظارة ١٦ ناظرًا وكان من جملتهم كوسم (قزما) دوميد يشي لكن لما مات نيقولو المذكور كان عليهِ ديون كثيرة فالتزم كوسم هذا بقضائها على ان يكون لهُ التصرف في تلك الكتب وحدهُ ثم نقلها الى دير كان بناهُ وزخرفهُ بابهج الزخارف وسماهُ دير دوميكان سنت مرق (ماري مرقص) لينتفع بها اهل وطنهِ

وكان ممّن امتاز بين العلماء الذين بذلوا وسعهم باعانة كوسم المذكور في البحث عن الكتب المكتوبة بخط اليد ثلاثة رجال وهم بوغجيو بروكسيوليني وقد مرّ ذكرهُ وغوارينو دوويرونه ويوحنا اورسيا فاما بوغجيو فانهُ عثر في ديورة فرانسا والمانيا على مولفات كنتليان وبلوته بتمامها ولم يكن عندهم قبل ذلك منها الاّ البعض وعثر ايضًا على الكتب الثلاثة الاولى من تاليف والريوس فلاكوس وعلى عدّة خطب من خطب قيقرون وعلى تاليف كلرميل وعلى قصيدة لوكريس وقصائد ايستاس وسليوس ايتاليكوس ثم ارتحل من المانيا الى انكلترة وارسل منها الى ايطاليا قصائد في شان الرعاة نظم كلفورينوس وبعض مولفات بترونه واما غوارينو ويوحنا اورسيا فانهما طافا مدينة القسطنطينية وغيرها من مدن المشرق وجمعا مقدارًا عظيمًا من الكتب النفيسة غير ان غوارينو انكسرت بهِ السفينة وهو راجع الى ايطاليا فغرق ما كان معهُ من الكنوز الادبية واما اورسيا فانهُ وصل الى مدينة البندقية ومعهُ ٢٣٨ كتابًا من جملتها مولفات افلاطون وبروكلوس وبلوتين ولوسيان واغزنيفون وتواريخ اريان وديون وثيودوردو سيسيليا وجغرافية اسطرابونيس وقصائد كليماك

وبندار وابيان والقصائد المنسوبة الى ارفة

ولما فتحت القسطنطينية بآل عثمان وهاجر منها عدة علماء الى ايطاليا قصدوا ملجأ في وطن العائلة المديشية لما بلغهم اذ ذاك ما كان حاصلاً في فلورنسا من اكرام معلمي اللغة اليونانية وما كان مشهورًا من اعتناء كوسم المديشي المذكور بشان العلوم والاداب وسعيهِ في تقدمها وتوسيع دائرتها فوجدوا بفلورنسا اكرم نزل واحسن قرى وكان اشهر هولاء العلماء ديمتريوس شلكونديل ويوحنا ارجيرو بيل واندرونيكوس كالستوس وقسطنطين ويوحنا لاسكاريس وكانوا كلهم متمذهبين في الفلسفة بمذهب افلاطون وكان قد احيي هذا المذهب في ايطاليا مرسيل فيسين حيث ترجم مولفات افلاطون وكان مرسيل هذا راهبًا قانونيًا بفلورنسا فتقوى بهولاء العلماء ذلك المذهب بهذه المدينة بحيث صار يمكنه ان ينازع مذهب ارسطاليس في الظهور والسلطة

وكان لكوسم المقدَّم ذكرهُ المظهر العظيم في المباني العامّة العديدة التي زين بها فلورنسا وقد استعمل في بنائها اصالةً كلاًّ من ميشلوز وميشلوزي وفيلبس برونلسكي وكانا من انجب المعمارية وامهرهم حتى ان الثاني غيّر وبدل في فنّهِ وصنعتهِ بل الاولى ان يقال انهُ اعاد ذلك الى اصول الظرافة الحقيقية حيث ابدل صورة العمارة الغوطية باشكال العمارة القديمة اليونانية ويكفي ان يقال في مدحهِ انهُ هو الذي شيّد القبة الفاخرة التي على كنيسة فلورنسا الكبرى

وفي هذا الوقت سبك غيبرتي من معدن الشبة او الشبهان (وهو بالتحريك النحاس الاصفر) ابواب كنيسة ماري يوحنا التي قال فيها ميخائيل انجلو انها جديرة ان تكون ابواب الجنان وكان هناك رجل ماهر في فنّ النقر والنحاتة فكان يصنع بازميلهِ من الرخام اشكالاً ظريفة كانت قد تركت من عهد القدماء وكان كل من مساكسيو وفيليس ليبي بمكانٍ من فن الرسم فكانا يكسبان القماش باقلام رسمها بهجةً ظاهرة وحسنًا بيّنًا لا يوجد نظيرهُ في نموذجات غيدود وسيانا وسيابو وچيوتو

ثم مات كوسم في سنة ١٤٦٤ م وخلفه ابنه بطرس في محبته العلماء واصحاب المعارف ولكن لما ظهر لورانت (او لورينصوص) لوما نيفيك اي الظريف حفيد كوسم المذكور سنة ١٤٧٢ م فاق على فخار جده. فكانت اسعد اوقاته هي التي يصير فيها مجالسة مشاهير العلماء الذين كانوا يجتمعون في سراينه بمدينة فلورنسا او يصحبونه في بيوت متنزهاته التي كانت له في فيزولة وكارفجي وكفجيولو وهو الذي احيا اكدمة بيزة منذ تولى المملكة وكانت قد طرحت في زوايا النسيان بعد ان كانت حازت من الشهرة ما تستحقه مدة قرنين

ولما كان من صغره قد نشا على التمسك باصول فلسفة افلاطون عزم على ان يجدد الموسم الذي كان يُعمل لافلاطون في كل سنة وصمم على ان يعيده على وجه اتمّ في الفخار وكان هذا الموسم لم يزل يُعمَل بعد موت هذا الفيلسوف العظيم الى ان ظهر بلوتين وبورفير وكانا من اتباع مذهبه فتعطل من ذلك الوقت (راجع الفصل السادس من البحث الاول في الكلام على السلطنة الرومانية) مدةً تبلغ ١٢٠٠ سنة وبترتيب هذا الموسم الذي مكث عدّة سنين بقي اعتبار فلسفة افلاطون واشتهرت شهرة عظيمة حتى ان اصحاب دراستها كانوا عند الناس اعظم احترامًا واكثر معرفةً من ابناء عصرهم

وكان التعليم في مدرسة بيزة التي مرّ ذكرها يكاد ان يكون مقصورًا على اللسان اللاتيني بخلاف فلورنسا فان اللغة اليونانية انتشرت فيها بهمة لورانت المقدم ذكرهُ وصار يتعلمها عموم الناس وكان معلموها اما يونانيين اصليين او علماء ايطاليانيين يضاهونهم في المعارف حتى تخرّج في هذه المدرسة كثير من الافاضل الذين نشروا اللسان اليوناني في ايطاليا وفرانسا والمانيا واسبانيا وانكلترة واوّل من علّم في هذه المدرسة من المدرسين هو الشهير يوحنا ارجيروبيل الذي مرّ ذكرهُ ثم خلفهُ جماعة افاضل وهم ثيودور الغزي وديمتريوس شلكونديل وانجلو بولتيان وغيرهم

وبواسطة هولاء المدرسين قطع كل من علمي الفلك والطبيعة علقة الاوهام

التي كانا عليها من قبل ورفع المعلّم بولس توسكانلي لاجل تعيين الانقلابين ميلهُ الذي هو في الواقع ونفس الامر اعظم آلةٍ فلكية وجدت في الدنيا وهذا العالم هو الذي حرر الازياج الالفونسية (وهي تقاويم فلكية جمعها الفونس العاشر) وحرر ايضًا تقاويم العرب وعمل ارصادًا عجيبة تتعلق بحركة الشمس والقمر واستصوب مقاصد كرستف كلمب حين عرضها هذا الملّاح عليهِ

وفي هذا العصر صنع لورنزو دولبابا للورانت الميديشي الساعة البديعة التركيب التي مرّ ذكرها في الكلام على التقدمات الصناعية الى نهاية القرن الخامس عشر

وسعى فرنسيسكو برلنجيري في تسهيل مطالعة الجغرافيا فألّف فيها كتابًا منظومًا

وفي العصر المذكور ظهرت عدّة رسائل في ما فوق الطبيعيات اهدى مولفوها البعض منها للورانت الميديشي

وقد شهد مدرسو الطب المهرة وقتئذٍ بان علم الطب تقدم واتسعت دائرتهُ في عصرهم بهمة لورانت المذكور واعتنائهِ بشانهِ وانهُ لم يتساهل قط في ما بهِ يبلغ هذا العلم درجات الكمال في اقرب وقت وانهُ لم يهمل ايضًا في ما بهِ تهذيبهُ وتخليصهُ منْ الاوهام الباطلة التي كان مشحونًا بها

وفي ذلك العصر ايضًا فاق انطونيو اسكرسيا لابيس جميع اسلافهِ في علم الموسيقى علمًا وعملًا حتى قيل ان لورانت مدحهُ على ذلك بقصيدةٍ

وقد جمع دوناثيلو باجتهادهِ ومهارتهِ مقدارًا عظيمًا من الاثار القديمة واعانهُ على ذلك كوسم الميديشي الذي تقدم ذكرهُ بجودهِ وجزيل انعامهِ ثم ورث بعد موتهِ هذه الاثار ابنهُ بطرس الاول وزاد فيها زيادةً عظيمة ولمّا مات بطرس ورثها ابنهُ لورانت وهي الآن تُعرَف باسم موزوم فلورانتنوم وقد خصص لورانت مبالغ جسيمة من الاموال اعدّها لتوسيع هذه الاثار والزيادة فيها كما صنع ابوهُ قبلهُ بما يعزّ وجودهُ من القطع النفيسة وجعل تلك الاثار واسطةً في ترغيب

ابناء وطنهِ وحثهم على التشبث بالفنون والصنائع وانشأ في بساتينهِ المتصلة بدير القديس مرقس مدرسةً واكدمة لاجل مشاهدة الانتيكات (الاثار القديمة) ومعرفتها ووضع فيها تماثيل وجعل بها صورًا على هيئة الانصاف العلياء من الابدان واشياء اخرى من الاثار القديمة المذكورة

ورتب لكلّ من امتاز من الشبان في حرفتهِ بين الاقران مكافاةً على اشغالهِ فكان ذلك هو السبب الاصلي في سرعة تقدم الفنون والصنائع بفلورنسا على وجهٍ عجيب في اخر القرن الخامس عشر من الميلاد ثم انتشرت من فلورنسا بالتوالي في سائر بلاد اوروبا

وقد تخرج بمدرسة بساتينه اغلب اصحاب البراعة والقرائح الجيدة من رجال ذلك العصر وبالفرض لو لم يتخرج بها الاَّ ميخائيل انجلو بوانارو تي لكان ذلك كافيًا في الوفا بغرض موسسها فان هذا الرجل الماهر كان جامعًا بين فنون الرسم والنقارة والعمارة تعلَّم اصول هذه الفنون في تلك المدرسة ثم زادها حسنًا وبهجةً باعمالهِ الباقية على ممر الازمان

وقد زين لورانت فلورانسا بالمباني العديدة الخصوصيَّة والعموميَّة وهو الذي احيى فنَّ النقش على الاحجار النفيسة وفنّ الرسم والتصوير بقطع الاحجار الدقيقة المتناسبة المتخالفة الالوان بتوفيقها مع بعضها حتى يتركب من مجموعها صورة من الصور وقد كان هذا الفنّ قبلهُ مهجورًا مدَّة القرون الوسطى وحاول احياءهُ بعض الرسامين من المتأخرين فلم يخرج من ذلك على طائل

القضية الثانية

في الاكتشافات الارضية

كان الدوك اينير يكوس دوك دبزو الذي هو ثالث اولاد يوحنا الكبير ملك البورتغال المقدم ذكرهُ لهُ ميل شديد الى السياحة والاسفار وكان من اعلم اهل عصرهِ بالجغرافيا والرياضيات فجعل دار اقامتهِ مدينة يقال لها سجرس بالقرب من رأس سنوسان باقليم الجرف وامر بانشاء مدرسة بحرية يتعلَّم فيها الشبان من اولاد الامراء اعضاء دبوانهِ وكان لهُ مدخلية في اختراع الاصطرلاب وهو اول من عرف منفعة البوصلة اي بيت الابرة التي يقال بانها كانت معروفة عند الصينيين قبل ذلك بزمنٍ طويل لكن لم تعرفها اهالي اوروبا الأَّ بعد ان اخترعوا الزجاجات العدسية فكان هو ودولة اسبانيا التي مرَّ ذكرها سبباً في تينك الحادثتين العظيمتين جدًّا بالنسبة للنوع الانساني على العموم ولاهل اوروبا على الخصوص اللتين ظهرتا بينما كانت التجارة وغيرها من احوال اوروبا الادبية على الصورة التي سبقت تفاصيلها في ما مرَّ فغيرتا في الشوكة والاخلاق والحرف والصنائع والحكومات عند جميع الشعوب والطوائف وهما اولاً السلوك الى بلاد الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح الكائن في جنوب افريقية وثانياً استكشاف الدنيا الجديدة المسماة امريكا

وكان يمكن هنا الاكتفاء بوضع تاريخ واسمي مكتشفي هذين الاكتشافين كل منهما على حدتهِ طلباً للاختصار وتجنباً للتفاصيل التي تزيد في حجم هذا

المولف بل ربما اخرجنا عن موضوعهِ لكن الرغبة في ان يقف من يتنازل الى مطالعتهِ من بني الوطن على مثابرة ارباب المعارف واصحاب المقاصد العظيمة على تحمل المشاق وتضحيتهم صوالحهم الخصوصية للحصول على المنافع العامة وصبرهم على مصادمة الموانع التي تعترضهم اوجبت الى تلخيص ذلك بقدر الامكان بعد ان نحذف ايضاً كل ما كان من تعلقات الامور السياسية والابحاث الدينية وغيرها مما هو خارج عن المقصود وفي ذلك مطلبان وهما

المطلب الاول

في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح

والاصل في ذلك ان هذا الدوك المشار اليهِ سيّر سفينتين من سفنهِ في سنة ١٤١٢ م فجازتا راس نون بستين فرسخاً ثم لم يتجاسر من كان فيهما من الملاحين على اجتياز رأس بيادور الواقع على البعد من دائرة الانقلاب بدرجتين وفي سنة ١٤١٨ م بعث حنا غونزالس وزقسود ترستان وازتكسيرة ليجتازا هذا الراس فالقتهما العاصفة على جزيرة صغيرة سمياها بوردتوسانتو ثم توغلا في لجج البحر وتوصلا الى جزيرة مادرة في سنة ١٤١٩ م وقد اشتهر ان هذه الجزيرة اوقدت فيها النار لتحرق ما كان يسترها من الغابات والاشجار الكثيرة وتكون صالحة بعد ذلك للزراعة فمكثت النار بها ٧ سنين حتى صارت ارضها من اخصب الاراضي واصلحها للزراعة فنقل اليها الامير المذكور قصب السكر من سيسيليا وفسول الكروم من ما لوازية فنجح فيها هذان الغرسان نجاحاً عظيماً حتى انه بعد سنوات قلائل صار سكر مادرة ونبيذها من اعظم بضائع البورتغال التجارية

ولما لم يتيسر للبورتغال الاتصال مع اهالي اسيا بواسطة طريق في البرّ مستقيمة سهلة عزم هذا الامير على سلوك طريق في البحر توصل الى بلاد الهند بالطواف حول افريقية وفي سنة ١٤٣٣م اجتاز البورتغاليون راس بيادور وفي سنة ١٤٤٠م سافر انطوان غوانزليز ونوجنو ترستان ووصلا الى الرأس الابيض ولمّا قدم اهل تلك البلاد الى البورتغال بعد ذلك بسنتين مقدارًا من التبر لكي يطلقوا لهم بعضًا ممَّن كانوا قد اسروهم سمّوا هذا المحل سريودورد وازداد تولعهم بالاستكشافات رغبةً في هذا المعدن فتجددت في مدينة لاغوس سنة ١٤٤٤م كمبانية افريقية وجهزت ١٠ سفائن بالاهبة الحربيَّة واستولت على جزيرة لاس جزراس ونارويتدر وفي سنة ١٤٤٥م وصل غنزالودوسنترة احد روساء عساكر الكمبانية المذكورة الى جزائر حين انتي اشتغل فيها البورتغال بعد ذلك بقليل في التجارة بالذهب واجتاز دينيس فردننديز مصب نهر سنغال ووصل الى الراس الاخضر الذي استكشف جزائرهُ انطونيو دونولي سنة ١٤٦٢م وطاف جزائر اسورة التي كشفها قبلة غوانزليز ولهود وكبرال وكان جميع من لاقاهُ البورتغال من الامم في استكشافاتهم الى نهر سنغال سود البشرة كلون الابنوس فزعموا ان ذلك ناشي من حرارة اراضيهم لقربها من خطّ الاستواء ثم توفي الدوّن اينيريكوس المذكور في سنة ١٤٦٣م واتخذ من شعاره هذه الكلمات وهي الرغبة في الخير خير

وكان ابن اخيهِ الفونسوس الخامس مستوليًا على سرير المملكة من سنة ١٤٢٨م فسافر في ايامهِ يوحنا دوستريم وبطرس دسكالوته حتى وصلا الى ما وراء راس سيرا ليونة واحدثا في شواطي غينا مينا تجارة ذهب وكذلك وصل رجل اخر يقال له فرنند يو الى الجزيرة المسماة باسمهِ ثم استكشف ايضًا غير هولاء من ارباب الملاحة جزيرتي مارتوما وانوبون سنة ١٤٧١م ولمّا تجاوز البورتغال خطّ الاستواء عجبوا من تلك الاراضي التي هي جزء من المنطقة المحترقة حيث وجدوها عامرة كثيرة الخصوبة

ثم ازدادت رغبتهم في عهد الملك يوحنا الثاني الذي خلف الفونس الخامس المذكور في سنة ١٤٨١م وجهزوا عمارةً قوية في سنة ١٤٨٤م واستكشفوا مملكة بنين ثم تجاوزت هذه العمارة خطّ الاستواء باكثر من ١٥٠٠ ميل ووصلت الى مملكة كونغو ثمّ اقلع رجل يسمى ديغوكام في نهر كونغو الذي يسميهِ اهل تلك البلاد زايرة وبنى يوحنا الثاني المشار اليهِ على سواحل غينا حصونًا ليتمكن من استكشافاتهِ هذه الكائنة على شواطي افريقية الغربية وبايعهُ عدّةٌ من صغار امراء البلاد المذكورة بالطوع والاختيار على ان يدفعوا لهُ الجزية والخراج وجبر غيرهم على ذلك بقوة الاسلحة

ثم لما توغل البورتغال جهة الجنوب وجدوا ارض افريقية القارة تضيق وتحني بالتدريج الى جهة المشرق لانها تمتد بالاتساع كما زعمهُ بطليموس قديمًا (وهو صاحب الجغرافية الذي سبق ذكرهُ في الكلام على المصريين) فقوي املهم بالوصول الى بلاد الهند الشرقية من البحر ووثقوا باخبار الاسفار التي وقعت قديمًا من الصوريين حول افريقية (على ما سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على الفونيقيين وعلى نخوس ملك مصر في الكلام على المصريين) بعد ان كانت تعدّ من الخرافات

وبينما كانوا يجهزون ارساليةً جديدة اذ بلغهم من سفيرِ ملك بنين انهُ يوجد في شرقي افريقية مملكة ذات شوكة وملكها مسيحي فاستنتج ملك البورتغال من ذلك ان هذا الملك ينبغي ان يكون هو الامبراطور (نجاشي الحبشة) الذي كان يزعم اهالي اوروبا بانهُ هو القسيس يوحنا [1] لاغترارهم بخطاء روبروقيس

---

(١) في اواخر القرن الحادي عشر هجم كاهن من النساطرة الساكنين في بلاد التتار باسيا بالقرب من كثاي اسمهُ يوحنا على تلك المملكة التي كانت حينئذٍ بدون رئيس اذ مات ملكها المسمى كوارخان او كخان وامتلكها وصار ملكًا على مملكة عظيمة بعد ان كان قسيسًا وتسمى عخان وكان النساطرة يفتخرون بهِ ملوك ذلك المصر الى ان ظهر جنكيز خان وقتل ابنهُ او اخاهُ الذي كان خليفةً لهُ نحو ختام القرن الثاني عشر غير ان

ومرقبول من السواح المخططين (مرقبول هو مركوبولو الذي تقدم ذكرهُ في الكلام على التقدمات التجارية في الفصل السابع من البحث الثاني من الكلام على السلطنة الرومانية) فشرع في اجراء الوصلة بينهُ وبين هذا الملك مؤملاً ان يصلهُ منهُ اخبار واعانات تساعدهُ على نجاح مشروعهِ ثم انتخب اثنين من اولاد الامراء يقال لاحدهما بيترو دوكوفيلام وللثاني الفونس دو بيو وكانا يعرفان اللغة العربية وارسلهما ليكونا سفيرين لهُ عند ملك الحبشة وامرهما ان يجمعا من البلاد التي يطلعان عليها ما يصل اليهما من الاخبار في شان تجارة الهند

وفي مدة ما كان يسعى هذا الملك هذا السعي برًّا كان برتلمي دياز قد اجتاز الراس المرتفع الذي هو حدّ افريقية من جهة الجنوب لكنهُ لما قاسى في هذا المحل من الشدائد وعواصف الرياح ما لا مزيد عليهِ سمّاهُ رأس الشدائد لكن الملك يوحنا الثاني حيث صار لا يشكّ في انهُ عثر على الطريق التي يرغبها غيَّر هذا الاسم وسماهُ رأس الرجاء الصالح وكان ذلك في سنة ١٤٨٦م

ثم تحقق املهُ اخيرًا بالاخبار التي وصلت اليهِ من سفيريهِ اللذين ارسلهما الى بلاد الحبشة لانهما ذهبا اولاً الى الاسكندرية ثم الى القاهرة ثم خرجا منها الى مدينة عدن وافترقا من هناك فاقلع بيو الى جهة بلاد الحبشة وقتل فيها واما كوويلام فانهُ اقلع الى بلاد الهند الشرقية واطّلع على مدينتي كانور وغوا في ساحل ملبار وعلى جزيرة هرموز في الخليج الفارسي ومنها رجع الى سفالة الواقعة على الساحل الشرقي من افريقية ورجع الى القاهرة ثم دخل بلاد الحبشة واقام في ديوان النجاشي عدة سنوات وبعث النجاشي سفيرًا من طرفهِ الى بلاد البورتغال ايضًا وكذلك كوويلام المذكور ارسل الى لشبونة كرسي البورتغال اخبارهُ اليومية فاستنبط الملك المذكور حينئذٍ من ملحوظاتهِ ومن الاخبار التي جمعها ان الانسان اذا طاف حول افريقية من البحر عثر على طريق توصل الى بلاد الهند

اهالي اوروبا كانوا لا زالوا يزعمون بأن بلادهُ هي مركز الراحة والغنى وانها في بلاد الحبشة على ما تقدم

ثم بعد وفاة هذا الملك تولي خليفتهُ ايمنويل لوفورتوني (اي السعيد) فسافر في عهدهِ رجل يقال له وسكو دوغاما سنة ١٤٩٧م ومعهُ ٣ سفن و١٦٠ رجلاً وكابد اهوالاً شديدة حتى جاوز راس الرجاء الصالح ومرّ بساحل سغالية ووصل الى جزيرة موزمبيق فوجد بها اممًا يتكلمون باللغة العربية وظهر له ان الادميين والحيوانات والنباتات قد تغيرت اشكالها من درجة عرض الجزائر الخالدات الى موزمبيق ورأى هناك اناسًا يشبهون اهل الارض القارّة المعروفة وهم مسلمون ووجد ان المسلمين الذين يسافرون من المشرق الى المغرب يتلاقون مع النصارى الذين يسافرون من المغرب الى المشرق في احد اطراف تلك الارض

وكانت جزيرة موزمبيق المذكورة احد مراكز تجارة سغالة والهند وكانت العرب المقيمون بها كالافرنج تقريبًا في فن الملاحة اذ يقال بانهم كانوا يعرفون استعمال البرجل البحري وعندهم بوصلات وخارطات بحرية وآلات فلكيّة لكن وسكو دوغاما المقدّم ذكرهُ هرب منها لخوفٍ لحقهُ من اهاليها وسافر الى جزيرة مونباسة ومنها ايضًا الى مملكة ميلندة فتلقاهُ ملكها بالترحيب واعطاهُ واحدًا من الربانيين (اي روساء البحريين) ليوصلهُ الى كالكتة الواقعة في ساحل مليار فوصل اليها بعد ٣ شهور من خروجهِ من لشبونة وهناك ايضًا استقر راي راموزين كالكتة على قتلهِ بواسطة سعاية عرب افريقية وغيرها من الذين كانوا يتاجرون ويقتنون في بلاد الهند لكنهُ تخلص من هذا الخطر بثباتهِ وشجاعتهِ ورجع الى اوروبا ووصل الى مينا يليم سنة ١٤٩٩م وكان ذلك بعد رحلتهِ بسنتين وشهرين ودخل الى مدينة لشبونة بموكبٍ واحتفال عظيم فجعلهُ الملك اميرال الهند واغدق عليهِ بالاموال مكافاةً له ولقب الملك نفسهُ بلقبٍ جديد وهو رئيس الملاحة والفتوح والتجارة في بلاد الحبشة والعرب والعجم والهند

المطلب الثاني

في اكتشاف الدنيا الجديدة المسماة اميركا

وفي ذلك الوقت حصل مشروع اخر غريب عجيب وكان قد قارب النجاز تحت رعاية الملك يوحنا الثاني ملك البورتغال المقدم ذكرهُ ايضًا وذلك ان ملاحًا جنويزيًا يقال لهُ كرستف كلمب تولع من صغر سنّهِ بفنّ الملاحة اذ كان عمرهُ ١٤ سنة فمارسهُ حتى فاق فيهِ اقرانهُ ووصل فيهِ الى اعلى درجةٍ في الفخار وكان مقيمًا في مدينة لشبونة كرسي البورتغال وتزوج ببنت برتلمي برستريلو احد ربّاني البورتغال ونظرًا لما اكتسبهُ من المعارف عزم على استكشاف طريق اخرى الى بلاد الهند غير الطريق التي كانت السفن البورتغالية اذ ذاك قد سعت في فتحها الى تلك البلاد فعرض على الملك يوحنا الثاني المذكور ان ينجز لهُ ما هو عازم عليهِ تحت الراية البورتغالية من المقاصد العظيمة لكن وقع بحقهِ من الغدر والخيانة الناشية عن الجبن ما الجاهُ الى مفارقة البورتغال فارتحل الى اسبانيا وعرض على ملكيها ايزابيلة وفرديند ما اعرضهُ على ملك البورتغال فاطالاهُ مدةً طويلة ثم سمحا لهُ بثلاث سفن عبر بها المحيط الاتلنتيكي وذلك سنة ١٤٩٢م ووصل بها الى الدنيا الجديدة

ويقال ان السبب في مشروع كلمب المذكور هو امعانهُ النظر وكثرة تأملهِ بانهُ يمكن استكشاف طريق مستقيمة الى بلاد الهند الشرقية اقصر من الطريق التي ارتكب البورتغال فيها المشاق باجتيازهم من الراس الاخضر ووصولهم الى خطّ الاستواء وان من سار من جهة الغرب في البحر المحيط الاتلنتيكي فلا بدَّ انهُ يجد بلادًا جديدة هي على رأيهِ تكون جزءًا من اراضي الهند القارّة ونشأ لهُ هذا

الراي الفاسد الذي بُني عليهِ اخيرًا الامر الصحيح اعني استكشاف امريكا من اسباب هي اولاً لكون الارض كروية الشكل وان مقدار جرمها محدود مع التدقيق والضبط فيستنتج من ذلك عقلاً ان اوروبا واسيا وافريقية ليست الاَّ جزأً من الكرة الأرضية وان الارض القارَّة الواقعة في النصف المعروف من الكرة يلزم ان يوازيها ارض قارة اخرى في النصف المقابل ثانيًا قد عَضَدَ هذا الاستنتاج العقلي بما ابداهُ بعض ارباب الملاحة من المحوظات والتخمينات ومن ذلك ان ربانًا بورتغاليًا كان توغل جهة الغرب اكثر من غيرهِ من اهل ذلك العصر فوجد قطعة خشبٍ منقوشةً عائمةً على الماء تدفعها نحوهُ ريح غربيَّة فاستنتج من ذلك انها آتية من بعض اراضٍ مجهولة واقعة في تلك الجهة ومنها ايضًا ان بعض اصهار كلمب المذكور وجد في غربي جزيرة مادرة قطعة خشب ايضًا ترى فيها صنعة النوع الانساني والريح المذكورة تدفعها اليهِ وكثيرًا ما شوهد على جزائر اسورة بعد هبوب رياح غربيَّة مكثت مدةً من الزمن اشجار مقلوعة وشوهد مرةً جثتا رجلين ميتين لا تشبه سحنة وجوههما سحنة اهل اوروبا وافريقية ثالثًا استند ايضًا على تخطيطات بعض مولفي اليونان كقتزياس ونيارکة واونيز قربطة وبعدهُ المولف بلينوس الطبيعي الذين ظهر منهم التنافس الباطل في توسيع الاقطار الواقعة خلف نهر الكنك وكذلك الشهير مرق بول الذي خطط في القرن الثالث عشر تخطيطاتٍ بديعة العبارة للمكتي قاثاي وسينبغو وعدة ولاياتٍ اخرى فانهُ اورد بذلك ما يدلّ على اثبات مبالغات الاقدمين بالنسبة لامتداد بلاد الهند وبالجملة والتفصيل انهُ استنتج بان اقصر الطرق واعظمها استقامةً من اوروبا الى الاجزاء المتوغلة في الشرق من بلاد الهند هي ان يركب المسافر البحر ويسير فيهِ جهة الغرب وفي كلام بعض قدماء المولفين كافلاطون وارسطاليس وسنيكة ما يصلح لتقوية رأي من يقول بقرب بلاد الهند الى الأجزاء الغربية من الارض القارَّة المعروفة

ثم حيث كان لا بد لكلمب المذكور في تجهيز غرضهِ من حماية دولةٍ من الدول تقوم بمصاريفهِ خطر له ان يجعل فخار ذلك لوطنهِ لكن مشورة السلطة الجنويزية لم تجبهُ الى مطلوبهِ حيث ردّت عريضته وعدّتها من الهوس والهذيان فقصد دولة البورتغال واتخذ ارضها وطنًا له ومن ثم فوض يوحنا الثاني ملك البورتغال المتقدّم ذكرهُ قضية هذه الى ديغو اورتيز اسقف مدينة سبتة واثنين من اطباء اليهود كانا يعرفان علم القسمغرافيا (اي علم هيئة الدنيا) ورسم العالم فغدر هولاء القضاة بكلمب بعد ان اقلقوهُ مدةً طويلة وعيل صبرهُ من مطلهم وارادوا ان يسلبوا منهُ فخر هذا المشروع الذي تصدى اليهِ ووافقهم على ذلك نفس الملك ايضًا ضدًا لما كان يُعهَد فيهِ من مكارم الاخلاق وبعثوا سفينةً امروا ملاحيها ان يسيروا في الطريق التي عينها كلمب لكن لمّا كان رئيسها جبانًا وخاف من اختلاف الرياح عاد الى لشبونة مشنعًا على هذا المشروع العظيم فاغتاظ كلمب من ذلك وترك البورتغال وتوجه في اواخر سنة ١٤٨٤ م الى اسبانيا وعرض مقصدهُ على ملكيها فرديننـد وايزابيلة وارسل اخاهُ ايضًا بعد ذلك بقليل الى هنري السابع ملك الانكليز وبقي كلمب ٥ سنوات وهو مشتغل بردّ المناقشات والاعتراضات التي كان يوردها عليهِ المنوطون بالنظر في تلك القضية ويبين لهم من المعارف ما تزول بهِ جهالتهم وتستنير عقولهم لكنهُ لم يخرج من ذلك على طائل لان فرديننـد وايزابيلة كانا وقتئذٍ مشغولين في الحروب مع العرب فقصد حينئذٍ دوكي مدينة مدونية ومدينة سيلي بسبب كثرة غنائهما لكنهما لم يجيباهُ الى امرٍ لم يجبهُ اليهِ ملكاهما فرديننـد وايزابيلة المذكوران فقصد ان يتوجه الى انكلترة لان اخاهُ كان قد وقع في ايدي ارباب الصيال البحريين فاستأسروهُ عدّة سنوات لكن ترجاهُ يوحنا بيريس رئيس الدير الذي تربي فيهِ اولادهُ ان يؤخر سفرهُ وكتب الى الملكة ايزابيلة ان تلتفت الى مقصد كلمب العظيم الذي لم يخطر لاحدٍ قبلهُ فاثر فيها قولهُ واذ عنت لما ابداهُ من الأدلّة والبراهين واستدعت كلمب الا انهُ بقي مهملًا الى ان فتحت

مدينة غرناطة سنة ١٤٩٢م وحينئذٍ نجح سعي اصحابهِ واعوانهِ وهم كثيلة وسنجيل عند الملكة ايزابيلة في تتميم مقاصدهِ فاستدعتهُ الملكة ثانيةً وكان قد خرج من اسبانيا مصمماً على عدم العودة اليها فلما ان رجع ارهنت هذه الملكة ما في حوزتها من الماس والجواهر النفيسة لان خزاين اموالها كانت قد صارت وقتئذٍ على حالةٍ ردية من جرى الحروب التي اثارتها هي وزوجها على العرب حسبما سبقت الاشارة الى ذالك وبعد مذاكراتٍ قليلة وضع الملكان فرديننsaid وايزابيلة امضاها في ١٧ نيسان سنة ١٤٩٢م على معاقدة تتضمن انهما بوصف كونهما ملكي المحيط قد قلدا كلمب منصب الاميرال الاعظم على جميع البحار والجزائر والاراضي القارّة التي تصدّى لكشفها وان هذا المنصب يكون وراثياً له ولعائلتهِ من بعدهِ وقلداهُ ايضاً بمنصب نائب ملك في جميع ما يكشفهُ من الاراضي وهذا المنصب يكون ايضاً لهُ ولعقبهِ من بعدهِ وان ما يتحصل من الاموال التجارية في الاراضي التي يكشفها يكون له العشر من ارباحها وانهُ مطلق التصرُّف في فصل الدعاوي والخصومات مع ان فردينند الذي امضى هذه المعاقدة مع ايزابيلة لم يكن لمملكتهِ التي هي ارغون دخل في هذا المشروع اصلاً بل كان فتح امريكا من خصوصيات زوجتهِ ايزابيلة المذكورة ملكة قسطيلة لانها هي التي قامت بجميع المصاريف اللازمة على ما ذكرنا واعدت ثلاث سفن لا تُعدُّ في هذا العصر الاَّ من الزوارق الكبيرة ركب كلمب منها واحدة سماها القديسة مريم ورافقهُ في الاثنتين الاخريين المسماتين لابنتا ولانجنا ثلاثة اخوة من عيلةٍ يقال لها بنسون كانوا من اغنياء التجار وخاطروا مع كلمب باموالهم وانفسهم وبلغ مصروف هذه السفن الثلاث نحو ١٠٠ الف فرنك

وفي ٣ آب سنة ١٤٩٢م سافروا جميعاً نحو الغرب على طريق الجزائر الخالدات وبعد ثلاثة اسابيع توسطوا في لجج المحيط وانقطعت عنهم روية الطيور وغيرها من علامات القرب الى البرّ ووقعوا في اليأس والقنوط واخذوا يلومون انفسهم ويفتكرون انهم سلكوا في هذا الامر مسلك المجانين وارادوا الرجوع بل

افضى بهم الهوس والوقاحة الى طلب القاء هذا الاميرال في البحر لكن كلمب سلك مسلكًا سكّن به غضبهم ولاسيَّما لمّا ظهرت لهم الطيور بعد قليل في جهة الجنوب الغربي فقصد كلمب هذه الجهة لكنهُ سافر اياماً ولم يصادف برًّا فيئس الملاحون ثانيةً وقصدوا العود الى اوروبا فالتزم لهم كلمب انهُ ان لم يجد برًّا بعد ٣ ايام يجيبهم الى مطلوبهم

ثم في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الاول اقبل الاسبانيول على جزيرةٍ مخضرة ذات اشجار وغابات وجداول تروي ارضها فعند ذلك اقاموا الصلاة شكرًا لله وبكوا من شدّة فرحهم بهذا الاكتشاف السعيد وخرُّوا على اقدام الاميرال كلمب يطلبون الصفح عمّا فرط منهم بحقهِ ووصفوهُ بأنهُ ملهم من الله وانهُ يفوق البشر بعد ان كانوا جعلوهُ من اوباش الناس واساؤُه بالسب والشتم فخرج كلمب عند طلوع الشمس الى هذه الجزيرة شاهرًا سيفهُ واصحابهُ خلفهُ على نغم الموسيقى العسكرية وكان اهل الجزيرة ينظرون الى هذا الامر الجديد وتملك كلمب الارض لدولة قسطيلة وليون ودعى اسم الجزيرة سان سلوادور وكان اهاليها يسمونها غواناهاني ووجد اهلها يعلقون في انوفهم صفايح من الذهب فسألهم كلمب من اين يستخرجون هذا المعدن فاشاروا لهُ من جهة الجنوب ثم استكشف بلادًا اخر سماها له من كان معهُ في المدينة من اهالي الجزيرة باسم كوبا ثم دلّوهُ ايضًا على جزيرةٍ يكثر فيها الذهب في جهة الشرق وسموها له باسم هايتي فوصل اليها في اليوم السادس من كانون الاول وسماها اسبانيولة فبادلهُ اهلها على ذهبهم باجراسٍ وخرز من زجاج ودبابيس ثم دلّوهُ ايضًا على ان الذهب يأتي اليهم من بلاد سيباو وجهة الشرق فسار اليها فورًا فاذا هي اقليم بحكمهُ كاسيك (اي امير) يُسمّى غواكنهاري وهو واحد من خمسة حكام مقتسمين الجزيرة فبعث اليهِ الكاسيك المذكور بهدايا وطلب منهُ اجتماعًا خاصًا في محلٍّ مخصوص فقصد كلمب ذلك المحل لكن صدمت سفينتهُ صخرة في البحر فغرقت وفرّ ملاحوها في زوارق السفينة الثانية المدعوة لانجنا وبادر الكاسيك

واهل الجزيرة لاسعافهم واكرامهم

وكان لم يبقَ من سفن كلمب الاَّ اصغرها واشدها تلفاً لان سفينته غرقت كما ذكرنا والثانية المسماة لابنتا كانت انفصل عنه بها احد الاخوة البنسونية وكان كلمب يخشي ان يكون هذا الرجل رجع الى اوروبا ليكون اوَّل مخبرٍ بنجاح هذا المشروع ويحظي عند الملكة من الفخر والمكافاة بما هو حق مقترح هذا الغرض العظيم الذي هو ذاته ولذلك بادر بالرجوع الى اوروبا وحيث ان سفينته التي قد ساء حالها لا تسع كلَّ الملاحين التزم ان يترك منهم جماعةً في الجزيرة لكي يتعلموا لغة اهل البلاد ويعرفوا طباعهم واسترضى على ذلك اهل الجزيرة بكونه التزم لهم بالاعانة من طرف الاسبانيول على الكرايب وهي طائفة ذات شجاعة وميل الى الحروب تاكل لحوم الادميين كانت في الغالب تسطو على جزيرة هايتي وتخربها فبني الاسبانيول هناك حصناً لكي يقيموا فيه وساعدهم اهل الجزيرة في بنائه وكان هو اول تذبيرٍ باستعباد اولئك الاهالي المساكين ثم وضع الاسبانيول فيه المدافع الكبيرة التي بقيت بعد غرق سفينة الاميرال كلمب ثم بيَّن كلمب لاهالي الجزيرة قوَّة الاسلحة الافرنجية لكي يقوّي فيهم هيبة الاسبانيول ببعض تجارب غير مضرة من رماح وسيوف وبنادق ولمَّا رأى دهشتهم من ذلك امر باطلاق مدافع الحصن فانكبوا على وجوههم خوفاً واعتقدوا من ذلك الوقت بانه لا يمكن قهر هذه الامة المسلحة بالبرق والصواعق وترمي بها متى شاءت ثم اوصى كلمب من ابقاه في الجزيرة من اصحابه ان يداوموا في غيبته على الاتحاد والالتيام ووعدهم ان يعود اليهم سريعاً وسافر في اليوم الرابع من كانون الثاني سنة ١٤٩٣ م راجعاً الى اوروبا واخذ معهُ جماعةً من اهل الجزيرة وواحدًا من اقارب الكاسيك المذكور

وبعد ان كانت انفصلت عنه السفينة المسماة لابنتا كما ذكرنا في ما تقدم منذ ٦ اسابيع اجتمع بها بعد سفره بايام ولا زال سائرًا مع السهولة واليمن الى اليوم الرابع عشر من اشباط وكان قد قطع ٥٠٠ فرسخ من البحر الاتلنتيكي اذ خرجت

عليهِ ريح عاصف مهولة خاف منها انقطاع حياتهِ وضياع فخرهِ بالغرق فكتب وهو في وجل من خوف هذه العواصف قصة سياحتهِ واخبار سفرتهِ بكلّ ايجازٍ ولفها في قطعة مشمع ووضعها في برميل ثم القاهُ في البحر رجاء بان تقذف الريح هذه الوديعة النفيسة الى شاطٍ من الشواطي فينتفع بها الناس لكن عين العناية الالهية لاحظت هذا الرجل العظيم فسكنت الرياح شيئًا فشيئًا وفي اليوم الخامس عشر من شهر اشباط رسا على جزيرة القديسة مريم من جزائر اسورة ومنها وصل الى لشبونة فقوبل فيها بالترحيب والاكرام وقصّ على ملك البورتغال قصتهُ فتعجب هذا الملك من حكايتهِ وتاسف على ما وقع لهُ وانشرح صدر كلمب ببيان نجاح مقاصدهِ لِمَن كانوا ينكرونها

ثم توجه الى اسبانيا ووصل الى مينا بالوس في اليوم الخامس عشر من شهر اذار وكان لهُ منذ فارقها سبعة اشهر واحد عشر يومًا ومن هذه المينا مضى الى برسلونة وكان بها يومئذٍ فرديننـد وايزابيلة فامرا ان يكون دخولهُ المدينة بموكبٍ عظيم يلايم هذه الحادثة التي يكون بها لايامهما بهجةٌ ورونق لا نظير لهُ وكان في اوائل الموكب الهنود الذين اتى بهم معهُ من امريكا وخلفهم انواع الحلى والزينة الذهبية المصنوعة بصياغتهم الخشنيةْ وحبوب الذهب التي وجدوها في الجبالَ وتبر الذهب الذي من النهيرات وجملة من انواع محصولات هذه البلاد الجديدة وكان كلمب في اخر الموكب وجميع الابصار منجذبة اليهِ فتلقاهُ فرديننـد وايزابيلة وهما على سرير ملكهما وعليهما جميع الشعائر الملوكية وفوقهما مظلة فاخرة ولما دنا منهما قاما لهُ ومنعاهُ من الجثو على ركبتيهِ واجلساهُ على كرسيٍ كان أُعِدَّ لهُ فقصَّ عليهما اخبار سفرهِ مع التواضع مجتنبًا فيها التنميق والتحسين ولمَّا اتمَّ كلامهُ جثيا على ركبهما شكرًا لله تعالى ومنحا كلمب ما دلَّ دلالةً بيِّنة على استحسانهما فعلهُ حيث اقراه هو وذريتهُ على المزايا المقررة لهم في معاقدة سنتافة وانتظمت عيلتهُ في سلك الاشراف

ولما انتشرت اخبار نجاح كلمب المذكور في جميع بلاد اوروبا صاروا يتعجبون

من ذلك ويتساءلون ترى اي قسمٍ من اقسام الارض تُنسب اليهِ هذه البلاد فاضطربت في ذلك اراء العلماء وكان كلمب لم يزل على رايهِ الاوَّل فمضد ان هذه البلاد جزء من ارض الهند القارَّة ونظرًا لمشابهاتٍ بين محصولات هذين القطرين وطبيعتها اتفقت الآراء بان بلاد امريكا جزءٌ من بلاد الهند ولمَّا تبين بعد ذلك خطاهم في هذا الامر لم يزل عنها الاسم الاوَّل بل ما زالت تسمَّى بالهند الغربي واهلها بالهنود الى هذا اليوم

ثم سافر كلمب ثانيةً في اليوم الخامس والعشرين من شهر ايلول سنة ١٤٩٣م وبعد ٢٦ يومًا اكتشف جزيرة الكرايب وجزائر الريح وسمَّاها دي زرادة ثم اكتشف بعدها جزائر دومنيكية وماريا غلنتة وغوادلوب وسانت جان ودبورتوريكو وغيرها ولما وصل الى جزائر اسبانيولة لم يجد احدًا من الاسبانيول الذين كان تركهم فيها بل ان الحصن ذاتهُ قد اندثر بالكلية وكان سبب ذلك ظلم الاسبانيول المذكورين وجورهم الذي الجا الكاسيك كوانابو كاسيك سيبادو ان يجمع رعاياهُ ويحيط بالحصن ويضرم فيهِ النار ولذلك اضطر كلمب ان لا يقتصر على بناء حصنٍ كما صنع اولاً بل بنى مدينةً وسماها ايزابيلة باسم الملكة محاميتهُ واخذ في اظهار الغرابة على اهل تلك البلاد باستعمال الزينة العسكرية ونشر الرايات وضرب الموسيقى وجهلهم الخيول التي لم يروها قبل وصول الاسبانيول اليهم فكانوا يخافونها ويظنون ان الحصان مع راكبهِ قطعةٌ واحدة وانها حيوانٌ ناطق غير الانسان ثم استكشف كلمب بعد ذلك جزيرة يمايكة وجزيرة القديسة مرثا ولما كان محاذيًا للشاطي الجنوبي من كوبا وجد نفسهُ في تيهٍ متكوّنٍ مما لا يحصى من الجزائر الصغيرة فسمَّاهُ بستان الملكة ثم مرض في هذه الطريق حتى صار يخشى عليهِ الموت فعاد الى ايزابيلة فوجد بها اخاهُ برتلمي وكان ماسورًا منذ ١٣ سنة ففرح بلقائهِ فرحًا عجل شفاه ولاسيما بالثلاث سفن التي احضرها معهُ لاسعافهِ من طرف فرديننْد وايزابيلة

ثم اضطر ان يرجع الى اوروبا ليظهر براءتهِ للملك والملكة المذكورين مما

أتهمهُ بهِ حسادهُ بقصد اتلافهِ فترك اخاهُ المذكور وكيلاً على القبيلة وسافر الى اسبانيا وحضر الديوان وهو ثابت الجنان مطمأن القلب فافاض عليهِ الملكان سجال الاعتبار والامتياز واذنا لهُ بأسطولٍ آخر صغير وسائر ما يلزم لترتيب قبيلة اسبانيولية وانزلا في السفن المذكورة جماعةً مهاجرين فيهم من جميع الدرجات والصنائع ما يقوم بحاجة تلك القبيلة فكان فيهم طائفة كبيرة من اهل الزراعة وفرقة من الصناع الماهرين في فنّ استخراج المعادن فسافر بهم كلمب في شهر ايار سنة ١٤٩٢م ووصل في اوّل شهر اب الى جزيرةٍ عظيمة سماها ترينتة (اي جزيرة الثالوث) ثم قصد جهة الغرب محاذيًا للاقاليم المعروفة باسم باريا وكومانا حتى وصل الى ارض الدنيا الجديدة التي كان ما اكتشفهُ قبل ذلك ليس الاَّ من جزائرها فقط وكان اخوهُ برتلمي في مدة غيبتهِ اسس مدينة سنت دومنغ

وفي سنة ١٥٠٠ دفعت الرياح اسطول البورتغال الذي كان رئيسهُ بدرو ألواريس كبرال الى جهة الغرب فرسا على ارضٍ واقعة في الدرجة العاشرة خلف خطّ الاستواء وكانت تلك الارض جزءًا من اميركا فاستولى عليها الاميرال المذكور باسم ملكهِ ودعا اسمها ابرزيل وبعدهُ اكتشف كذلك لورانزو جزيرة سيلان التي كان يسميها القدماء بترومانه

ثم تكررت التشكيات بحق كرستف كلمب من بعض الاسبانيول الذين وجدوا معهُ وخرجوا عن طاعتهِ في اسبانيولة فارسلت الملكة وكيلاً يسمى فرنسيس دوبوادياً لينظر في احوال كلمب ورخصت لهُ في عزلهِ ان ثبت عندهُ صحة التهمة فعزم هذا الوكيل في نفسهِ ان يجعل كلمب مذنبًا على أية صورةٍ كانت ومن ثم امر بالقبض عليهِ وقيدهُ بالسلاسل والاغلال وبعثهُ الى اسبانيا ومعهُ اخواهُ مكبلين بالحديد ايضًا فلما وصل الى اسبانيا غضب الملك والملكة مما لحق هذا الاميرال من المنقصة وامرا بفكهِ من الاغلال وطلباهُ الى الحضور في الديوان فاثبت لديهما براءتهُ ولكنهما لم يعيداهُ الى منصبهِ بل ابقياهُ وارسلا

رجلاً يقال لهُ نيقولاوس دووندو بدلاً عنهُ وكان ذلك في سنة ١٥٠١ م فاغتاظ الاميرال كلمب وصار يحمل قيودهُ الى اي محلٍ ذهب اليهِ ليظهر مكافاة الاسبانيول على صنيعهِ وكان دائمًا يعلّق تلك القيود في حجرتهِ واوصى ان تجعل في تابوت وتدفن معهُ بعد موتهِ

ومع كل ذلك لم تضعف رغبة هذا الرجل العظيم في الاكتشافات بل شرع في سنة ١٥٠٢ م برحلةٍ رابعة اكتشف فيها على غوانيا وهي جزيرةٍ مجاورة لساحل يقال لهُ هندوراس ثم توجه صوب خليج دريان جهة الشرق وعرف في سيرهِ بحذاء الشاطي الاراضي القارّة من راس غراسياس اديوس الى مينا بورتوبيلو

ثم رجع بعد ذلك الى اسبانيا في سفينةٍ اشتراها لهُ رجلان من البكزادات (اولاد الامراء) يقال لاحدهما منديز الاسبانيولي وللثاني وفيسشي الجنويزي كان لهما ارتباط بهِ ولما وصل اليها بلغهُ وفاة الملكة ايزابيلة سنة ١٥٠٤ م فانتقل الى ولادوليدة وانقطع بها الى ان توفي سنة ١٥٠٦ م وعمره ٥٩ سنةً ونقلت جثتهُ الى اشبيلية ودفنت مع الاحتفال في الكنيسة الكبرى ونقش على قبرهِ ما معناه قد اعطى كلمب للمكتي قسطيلة وليون دنيا جديدة وفي سنة ١٥٢٦ م نقل ما بقي من اثارهِ واثار ابنهِ ديغو الى اسانيولة ودفنا في الكنيسة الكبرى بمدينة سندومنغ التي مرّ ذكرها ثم نُقلت اخيرًا الى هوانا بجزيرة كوبا في ١٥ كانون الثاني سنة ١٧٩٦ م

وحيث ان استكشاف امريكا اورث الاسبانيول الميل والرغبة في المشروعات البحرية سافر ليتر ودوبيد بمصروف ذاتهِ وهو احد الضباط الذين كانوا مع كلمب في سفرتهِ الثانية ووصل الى سواحل باريا ثم عاد الى اسبانيا في سنة ١٤٩٩ م بعد ان اطلع على امتداد عظيم من السواحل وكان معهُ في سفرتهِ هذه رجل يقال لهُ امريق وسبوس احد امراء افلورنسة وكان من اصحاب المعارف بعلم الفلاحة وصار لهُ بذلك نفوذ كلمةٍ على اصحابهِ ثم لما عاد الى اوروبا

الف رحلة ضمنها ما وقع له من الحوادث وتجاسر فيها على انه نسب لنفسه فخر اول مستكشف لارض الدنيا الجديدة القارة وسلك فيها مسلك العاقل الفطن وافرغ عباراتها في قالب حسن وكان اول تخطيط اشتهر في وصف تلك البلاد فاخذ الناس يتعودون شيئًا فشيئًا على تسمية البلاد المذكورة باسم امريكا نسبةً له ظلمًا لا يمكن جبر خلله حيث كان يجب ان تسمى كلمبيا نسبةً الى مكتشفها الحقيقي الذي لم تسمَّ باسمه الا احدى الولايات منها فقط

ولا زال الاسبانيول يستكشفون اجزاء هذه الارض الواسعة شيئًا فشيئًا ويستعبدون اهاليها الاصليين وينزلون بهم انواع المصائب والنكبات ويعاملونهم بالظلم والجبر والقساوة الى ان تمموا افتتاحها في ايام الامبراطور شرلكان (كرلوس الخامس) سنة ١٥٥٠م

يحكى ان الكاسيك هاتوي احد حكام البلاد القدماء كان فرَّ من اسانيولة واستولى على الطرف الشمالي من كوبا فحاربهُ الاسبانيول هناك ايضًا واسروهُ وحكموا عليهِ بالحرق حيًّا واذ جاء اليهِ احد الرهبان الفرنسيسكانيين واخذ يرغبهُ في التنصُّر قبل الحرق لكي يرث فردوس النعيم اذا مات مسيحيًّا فاجابهُ الكاسيك المذكور هل يوجد في محل النعيم الذي ذكرتهُ لي اسبانيول فقال الراهب نعم ولكن الصالحون الاخيار فاجابهُ الكاسيك وهل يوجد بينهم صالحون واخيار. حاشا. وانا لا اريد اذهب الى محلٍ يجمعني بهم ثم خرجت روحهُ وهو في لهيب النار

ويعتبر الجغرافيون اميركا نصف الكرة الارضية بتمامها ومن حين اكتشافها اخذت اهالي اوروبا ترحل اليها وصار فيها لممالك اوروبا املاك واسعة وهولاء الدخلاء حاربوا الاهالي الاصليين وطردوهم الى داخل البلاد حيث لم يزل البعض منهم الى يومنا هذا ثم استقلت بعض تلك الاملاك وقامت بذاتها وبقي البعض الاخر تحت تسلط الممالك الاصلية

والقسم الاعظم والاهم من البلاد التي تمت لها السعادة بواسطة استقلالها

ونوال حريتها ويستحق ان نخصّهُ بالذكر هنا هو المعروف بالبلاد المتحدة قال صاحب المرآة الوضية ومن سنة ١٦٠٧ للمسيح فصاعدًا رحل اناس كثيرون من بلاد اوروبا ولاسيما من الاملاك الانكليزية الى بعض الاماكن في البلاد المتحدة ولما كثرت الاهالي هناك واخذوا املاكًا واسعة من الهنود تارةً بالحرب وتارةً بالشراء اخذ الحكم الانكليزي في اجراء المظالم عليهم فقسم البلاد المعمورة اقسامًا شتى وارسل اليها عُمّالاً فاحتمل الاهالي ما احتملوهُ من الاثقال واسترحموا في طلب التخفيف عنهم فأُذِن لهم في اقامة اولئك الحكام بانتخابهم ولكن لم تزل الدولة الانكليزية تجور عليهم في اشياء كثيرة حتى عقدت الاقسام المذكورة ديوانًا في مدينة فيلادلفيا وحضرت اليهِ الوكلاء من كل قسمٍ منها وفي سنة ١٧٧٦ طرحوا عنهم نير الانكليز ونادوا بالحرّية وتعاهدوا على المعاضدة من عموم الجمهور في اتمام ذلك فانتشبت الحروب بينهم وبين الدولة الانكليزية الى سنة ١٧٨١ ثم سلمت لهم الدولة المشار اليها بالحرّية في سنة ١٧٨٣ ومن ثم جددوا المعاهدة بموجب دستور ترتب في ديوان عن يد وكلاء البلاد جميعًا في مدينة فيلادلفيا المذكورة سنة ١٧٨٩

وتحتوي هذه المعاهدة على عدّة اقسامٍ مستقلة كلّ قسم لهُ احكام وشرائع بنفسهِ لكنها كلها متحدة تحت حكمٍ واحدٍ عمومي يلاحظ الامور التي تتعلق بالاقسام المذكورة كافةً وهذا الحكم هو من نوع الاحكام الجمهورية والحكام ينتخبون من قبل الشعب على مدةٍ معينة لهم الاَّ القضاة فانهم ينتخبون على مدة حياتهم ما لم يثبت عليهم ذنب يوجب العزل ولكل عملٍ من اعمالها حكم خاصّ بهِ ايضًا غير ان الجميع يشتركون في انتخاب الحكام العمومية ويرسلون وكلاء الى الدواوين القائمين في مدينة وشينتون وهناك يُلاحظ ما يلزم للخير العمومي وما يتعلق بالدول الاجنبية وللحكم ايراد وافٍ من الكمارك وغيرها ولهُ من العساكر القانونية والرديف والمراكب الحربية قوة كافية تجعل هذه الدولة معدودةً في صف الدول الاولية

وكانت العبودية متسلطة على امريكا منذ دخول المهاجرين اليها فان الاسبانيول كانوا ابادوا نحو مليونين من الهنود الاصليين في حروبهم معهم عندما افتتحوها لحد سنة ١٥٥٠ ولذلك طلب لسكاساس استرقاق العبيد لاجل القيام بخدمة الاراضي ومن ثم تقدم الاسترقاق شيئاً فشيئاً الى أن صار عدد العبيد في سنة ١٨٦٠ اربعة ملايين في البلاد المتحدة دون غيرها ولذلك صدر امر ابرهيم لينكون رئيس جمهورية امريكا بابطال العبودية من الولايات الجنوبية بامريكا وكان ذلك في اول كانون ثاني سنة ١٨٦٣

واهالي البلاد يحسبون من اعلا طبقة بين الشعوب المتمدنة والعلوم والمعارف على اختلاف ضروبها وانواعها مخدومة فيها مع الجدّ والاجتهاد ويوجد فيها من المدارس الجامعة ومدارس العلوم العالية ما هو فوق الكفاية ومن المدارس المتوسطة في كل بلدة وضيعة عدد كثير والكتب رخيصة وقلما توجد بلدة ليس فيها مطبعة لكازتات الاخبار فتكون وسائط المعرفة متيسرة للجميع

م

القسم الثالث

من اقسام التاريخ وهو المعروف بالقرون الاخيرة وفيهِ فصلان

الفصل الاول

في الكلام على المعارف في ممالك اوروبا الافرنجية

القرن السادس عشر

يمتاز هذا القرن بمزيتين متضادتين الاولى حدوث الانقسام الديني في اوروبا بواسطة ظهور المذهب الانجيلي ووقوع المنازعات العظيمة بين الكنيسة الكاثوليكية والشعوب البروتستانتية من جهةٍ وبين ايمة البروتسانت انفسهم من اخرى والثانية الاتحاد العام فيها على طلب العلوم والمعارف مع الجدّ والاجتهاد وكانت المزية في الامرين كليهما للعائلة المديشية التي منها كان البابا لاون العاشر في رومية ورؤساء الدولة الجمهورية بفلورنسا من اعمال ايطاليا ثم صاروا امراءها قال العلاّمة خير الدين باشا التونسي في كتابهِ المسمى باقوم المسالك في معرفة الممالك انهم هم الذين مهدوا سبلها الناس وكان اشتهارهم في هذا القرن المُعبر عنهُ بالقرن الكبير الذي كانت ايامهُ تضاهي باولئك الرؤساء في ايام اغسطوس اوّل قياصرة الرومان في الاشعار وحسن هندسة البناء وبديع اشكالهِ اقتداء

بالرومانيين الذين اقتدوا في ذلك باليونان وقد بحثوا في الخزائن مع البابا لاون العاشر الذي هو منهم عن الكتب القديمة وطبعوها لاستكثار نسخها وجعلوا عليها تعليقات نافعة وملاحظات غريبة وبذلك ارتفع عن وجه محاسن الاقدمين القناع الذي تكاثف بتطاول السنين

وقال بعض الافرنج انه لا يجهل احد بان العلوم والفنون في هذا العصر اوصلتها حذاقة وغيرة الناس الافاضل الى درجة سامية من الكمال لان جميع سكان اوروبا اخذوا من احياء العلوم والفنون فوائد جمّة الى اقاصي العالم والذين كانوا في الدرجة الاولى بين علماء ذلك العصر هم الذين انتبهوا الى طبع كتب مولفي اليونانيين واللاتينيين والى تصليحها وشرحها والى درس الاشياء القديمة والى تهذيب هاتين اللغتين والى تنميق التآليف نظمًا ونثرًا وان الاجتهاد والمسابقة بين الفضلاء والنبلاء في القرون السابقة نعم انهما كانا نافعين جدًّا في امورٍ كثيرة واصلحاها لكن عديدة انما لم ينظفاها بالكلية من الطريقة الردية الوحشيّة النافرة في الكلام على القضايا الكلامية التي كانت غالبةً بين الافرنج في تلك القرون فالكتب المقدسة التي كانت اما متروكةً بالكلية او مشروحةً بسئامةٍ اخذت حينئذٍ مكانًا فسيحًا في محاورات اللاهوتيين وكتاباتهم وكانت الكلمات والاشياء تُمتحن باكثر تدقيقٍ والمواضيع تُفصَّل باكثر عدالةٍ ووضوح والانشا الركيك الذي كانت تستحسنهُ المدارس القديمة نسخهُ جميع الذين تفوقوا على غيرهم في المعرفة

(الفلسفة) وكانت الفلسفة السكولاتيسكية هي المتسلطنة في اغلب المدارس والمكاتب الرومانية وعليها كان يُعوَّل في المناقشات والمحاورات الدينية بين لاهوتيي الكنيسة الرومانية وبين موسسي الكنيسة الانجيلية الذين ظهروا في هذا القرن كلوثيروس وكلفينيوس والذين حذوا حذوهما واقتفوا اثارهما منذ حرم البابا لاون العاشر لوثيروس المذكور سنة ١٥٢٠ م لاسبابٍ سوف يأتي ذكرها

استدراجات مدنية

(ايطاليا) واما العلوم فكانت قد انكسفت شمسها بفلورنسا منذ وفاة لورانت الميديشي سنة ١٤٩٢ وذلك لان الفلورنسيين لما طردوا ابنهُ بطرس الثاني نهبت العامة سراية الميديشيين ومكاتبهم ومحقوا وفرقوا في يوم واحد جميع ما جمعهُ لورانت واسلافهُ باموالهم ومجهوداتهم في ظرف خمسين سنةً لكنها رجعت لما كانت عليهِ عندما عادت هذه الطائفة الى منصبها ولاسيما لما ارتقى في السنة التي بعدها يوحنا الميديشي الى كرسي البابوية وسُمّي لاون العاشر وازداد بذلك رونقها على ما سوف تأتي تفاصيلهُ في محلها

ان هذا البابا المشار اليهِ منذ كان كردينا لاّ قبل ان يجلس على الكرسي البابوي كان اخذًا في ان يعيد الى مدينة رومية الرغبة في الاداب والفنون التي كانت اضمحلت منها منذ عهد البابا يوس الثاني ولاسيما في ايام البابا اسكندر السادس وبولس الثاني وقد استحسن رأيهُ في ذلك اصحاب الصنائع كالرسامين والنقاربن والمعارية الماهرين الذين كانوا وقتئذٍ في تلك المدينة ورغبوا في الفنون مثلهُ وصار يجتمع كذلك حولهُ العلماء والادباء والشعراء ويفتح لهم سرايتهُ وخزانة كتبهِ

ثم لما تولى الكرسي البابوي اراد ان مكاتيبهُ ومناشيرهُ لا تكتب باللسان اللاتيني الذي كان يستعمل في ديوان القنجلير (رئيس الكتّاب) وانما تكتب باللاتيني الذي كان يستعملهُ فيفرون فعيّن لكتابة الانشا عندهُ رجلين يقال لاحدهما سادوليت وللثاني بمبو لكونهما كانا يفوقان اهل عصرهما في الكتابة بهذا اللسان من حيث البلاغة وتنقيح العبارة -

وكان لم يبقَ في رومية من الاحداثات التي تجددت بها لاجل تعليم العلوم

الأخبار (اي مدرسة رومية الجامعة) التي كان احدثها البابا انجانيوس الرابع وكانت قد اضمحلت بالتدريج فاعتنى بشانها ايضاً وشمَّر لذلك ساعد الجدّ والاجتهاد واعاد للطلبة ما كان لهم من المزايا وجعل فيها نحو ١٠٠ معلم حتى تكون حاويةً لجميع انواع المعارف

واهتم كثيرًا بتعليم اللسان اليوناني الذي كان يستعملهُ دمستين واصحابهُ وكان قد اتى قبل مدَّةٍ الى بلاد اوروبا بجملة الذين هاجروا اليها من بلاد اليونانيين عندما افتتح العثمانيون مدينة القسطنطينية ونقلوا معهم كنوز لغتهم ومعارفهم رجل يقال لهُ يوحنا لاسكاريس ادخلهُ لورانت الميديشي بجملة من ادخلهم تحت كنفهِ ورعايتهِ وبعثهُ الى بلاد المشرق ليجمع لهُ منها الكتب القديمة وبعد ان مات لورانت المذكور صحبهُ الملك كرلوس الثامن الى فرانسا وكان من تلامذتهِ فيها بوده الآتي ذكرهُ ثم انتقل منها الى مدينة البندقية فلما تولى لاون العاشر المشار اليهِ دعاهُ الى رومية لانهُ كان لم يزل حيًّا الى ذلك الوقت وجعلهُ فيها مديرًا على الاكدمة التي انشاها لتعليم الاداب اليونانية وملاحظًا على المطبعة التي خصصها لطبع مُلَح هذا الفنّ

ثم اخذ هذا البابا في ان يزيد خزانة كتب الواتيكان التي كان انشاها البابا نيقولاوس على ما سبقت الاشارة اليهِ فاشترى لها البقايا المشتتة التي بقيت من خزانة الكتب التي كان أسسها اباؤهُ في فلورنسا ونقلها الى رومية لكنها أُعيدت بالثاني الى فلورنسا في ايام خليفتهِ البابا اكليمندوس السابع الذي ارتقى الى الكرسي في سنة ١٥٢٣م وقد نحا البابا لاون المشار اليهِ نحو كوسم الاول المقدم ذكرهُ في الترغيب والبحث عن كتب اسيا فكان تعليم اللسان الكلداني والعبراني والسرياني مصاحبًا لتعليم اللسان اليوناني واللسان اللاتيني

ومَن كان في ايطاليا من مشاهير الادباء والشعراء والخطباء ونبغاء علماء الكتّاب كانوا جميعًا في ديوان هذا البابا فكانت تشرق في هذا الديوان شموس اداب كلٍّ من الشاعر تيبالدو والشاعر برنارد أكولتي الذي كان

يُلقَّب بفريد عصرهِ واريوست الذي كان لا نظير لهُ وقد مرَّ ذكرهُ في الكلام على فرارة في القرن الخامس عشر وبرني ومورو وهم الذين اخترعوا الاهاجي الايطاليانية وغيرها

وفي ذلك الديوان شرح كل من توموس وبوتپوناس وبوحنا بيك اوهو بيكوس دولاميرند وله كونتة كونكورد يا فلسفة الاقدمين بعد ان صححها مهاجرو القسطنطينية على ما قد سبقت تفاصيلهُ في الفصل السادس من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف

وفيهِ ايضاً كان كل من بوتتانوس الذي مرَّ ذكرهُ وسلبو كلكينيني ومايتول يطالع العلوم الطبيعية

وفيهِ كذلك ابرز الكونتة بلتزار كستجليوني وماتوبوسو رسائل في الحكم والاداب

وفيهِ الَّف فيلبس دونرلي وياكس نردي وميشاويل او هو مكيافلي وغيشاردين او هو غوتيشرديني ووراس يوده تاريخ بلادهم وفي كتاب اقوم المسالك ان مكيافلي هو اوَّل مَن بين القواعد السياسية بعد سقوط الدولة الرومانية وغوتيشرديني قد بلغ بجودة الفكر وحسن التعبير الى اتقان التصنيف في التاريخ وفرابا وان اشتهر بالمدافعة عن حرّية وطنهِ بقلمٍ غيور منتصف ضد سياسة البابا وات (والظاهر ان هذا الاخير لم يكن بجملة الموظفين في ذلك الديوان حتى استطاع ان يكتب ما قد ذُكِر)

وكان للبابا لاون نفسهُ تولّع بالموسيقى ايضاً فكان يمارسها بذاتهِ الاَّ انهُ كان يؤثر فنون الرسم والنقارة والعمارة على غيرها ويرغّب فيها بالعطاء الجزيل الذي ربما صحَّ عدُّهُ مَن الاسراف والتبذير وكان الايطاليانيون كما انهم اشتهروا منذ القرن الخامس عشر بالاداب وحصلوا ما امكنهم تحصيلهُ من العلوم والفلسفة اشتهروا كذلك بهذه الصناعات المستظرفة المسماة عندهم بالبوزار وهي الدهن والنقش (الذي يقال بانهُ من اختراع اليونانيين استنبطوهُ من

الهندسة من تطبيقات قسم المخروطيات) وهندسة البناء والموسيقى وامتاز بينهم بهذه الصناعات في هذا القرن الذي نحن بصدده كلٌّ من روفائيل وميكلانج وليوناردوونيشي وغيرهم الذين بهم وبتلامذتهم تجدد البوزار المذكور في سائر نواحي اوروبا على ما تقدم ايضاحهُ في ما مرَّ فاراد البابا المشار اليهِ ان يتم بناء كنيسة الرسولين بطرس وبولس (١) التي كان شرع بنائها سلفهُ وكان الذي

---

(١) ذكر صاحب النحلة هذه الكنيسة التي جلّت عن أن تُشفع بمثيل على وجه الارض فقال ان اوّل من وضع اساسها هو البابا يوليوس الثاني وذلك في اليوم الثامن عشر من نيسان سنة ١٥٠٦ م وعنى هو وخلفاؤهُ من الاحبار الرومانيين في انتخاب مهندسين ماهرين ليصرفوا همتهم الى اتقان بنائها وبعد ان تولى امرها عدةُ مهندسين وماتوا فوض البابا بولس الثالث امر بنائها الى ميخائيل انجلو اشهر مهندسي عصرهِ فسعى هذا المهندس في عقد القبة على الهيئة التي استحسنها ولكنهُ توفي قبل ان يُنجز البناء بتمامهِ فتولى العمل بعدهُ المهندس يعقوب ديلابورتا في عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر وكان هذا البابا شديد الاهتمام في انجازها على حياتهِ ولذلك امر بتشغيل ٦٠٠ فاعل ليلاً ونهاراً وكان ينفق على بنائها ١٠٠ الف دينار من الذهب سنوياً وعقب ان توفي المهندس يعقوب المذكور خلفهُ المهندس كارلو مادرنو فكمّل بناء هذا المعبد الجميل وكان تجازهُ بكمالهِ بظرف ١٧٠ سنة وقد اقتضى لتزيينهِ على ما هو عليهِ الان ٣٠٠ سنة وتنصب ٤٣ بابا وماتوا من يوم تاسيسهِ الى يوم كمالهِ وان بعض المدققين عمل معدل مصروف بنائهِ فبلغ احد عشر مليوناً وسماية وخمسة وعشرين الف ليرا انكليزية هذا ما عدا قيمة ٤٠٥٤٥٢ ليبرا من النحاس (خُلعت عن معبدٍ قديم) واستُعملت لصبّ كرسي بطرس الرسول ولعمل القبة التي على ضريحهِ ووصف صاحب النحلة هذه الكنيسة وكان زارها مراتٍ عديدة فقال ان واجهتها تبلغ ١٦٠ قدماً وعرضها ٢٩٦ قدماً وارضها مرصوفة بالرخام الثمين الملوّن بالوانٍ زهية ومقطع بتقاطيع جميلة ومرقوم عليها قياس اعظم المعابد الموجودة في الدنيا مع قياسها هي ذاتها ايضاً وتفاصيل ذلك هي هكذا. طول هذه الكنيسة ٦٠٩ اقدام. طول كنيسة ماري بولس بلندن ٥٢١ قدماً طول الكنيسة الكبرى بميلان ٤٣٩ قدماً . طول كنيسة ماري بولس برومية ٤١٥ قدماً طول كنيسة ايا صوفيا بالقسطنطينية ٣٥٦ قدماً وقد اجمع راي المهندسين طرًّا على ان رواق كنيسة ماري بطرس الوسطاني يُحسب من عظائم البناء في الدنيا عرضهُ ٨٩ قدماً وارتفاعهُ ١٥٢ قدماً الى ان قال ان بناء هذا المعبد العظيم الجميل بكل محاسن الصنائع البشرية مما يُعجز القلم عن وصفهِ وكان هو يعتقدهُ من اعظم اعمال الطبيعة لكونهِ لم يستطع

اختطها مهندس شهير يقال له برامنت الا ان الموت منعه عن مباشرة انشائها

ان يتمّ افكاره ُ ان بناء هذه صفته قد تمكنت العقول البشرية من الاتيان بمثلهِ فان من دخل هذا المعبد ورفع نظره ُ الى سقفهِ العالي اعترى نظره ُ غشيان وراسهُ دوران قبل ان يتمكن من مشاهدة ما فيهِ كان ّ قبة الفلك معقودة على هامتهِ وان جال في عطفات المعبد ضلّ في خلالها وان تمشى في رواقهِ اعتراه ُ التعب قبل ان يتمكن من اتمام الفرجة على ما فيهِ من التحف وما على جدرانهِ من النقوش وان كانت الصلاة قائمة في احدى جهاتهِ وهو في جهةٍ اخرى منهُ لا يدري بما هنالك من الات الموسيقى والانغام الى غير ذلك ،، وان قبة هذا المعبد يصير تنويرها مرتين في السنة ليلة عيد الفصح وليلة عيد ماري بطرس ويكون ذلك من اغرب المناظر واجملها في العالم فان انبثاق اشعة المصابيح من محدّب القبة بغتةً وتناثر الشرارات واللهيب على هيئة نجوم متلونة فوق القبة كاسهم نارية وانعكاس اشعتها الى مياه الحوضين العظيمين في الساحة يشده البصر ويعظّم في اعين الناظر جمال القبة وبناءها الباذخ ويتولى تنوير القبة ٣٠٠ نفر من الناس يصعدون الى ظهرها بسلالم ومنهم من يتسلق بحبالٍ الى قمتها العليا تحت خطر حياتهِ وقد اعتادوا على هذا العمل الشديد الخطر حتى انهم يتمكنون من تنوير القبة باسرها وما يليها من الابنية في نحو ١٥ ثانية اي في ربع دقيقةٍ من الزمان مع ان فيها من المصابيح ما يفوق المليون عددًا ومن المفروض على الذين يتولون تنوير القبة ان لا يشربوا خمرًا ولا مسكرًا ذلك النهار بطولهِ وان يستعدوا للموت ويرتبوا امور عائلاتهم كمن قد دنا اجلهُ وهو على اهبة فراق الدنيا وما فيها اه وكانت روت بعض الجرائد ان هذه القبة سقطت عليها صاعقة اثناء اجتماع المجمع الفاتيكاني المنعقد في سنة ١٨٦٩ م فتزلزل بناؤ ها . قال صاحب النحلة في جريدة تشرين الثاني سنة ١٨٧٧ قد تجدد الخطر على قبة ماري بطرس التي تحسب من عجائب الدنيا ويخشى عليها كثيرًا من السقوط لان الشقوق التي كانت حصلت قديمًا في اعالي القبة قد اتسعت الان وقد عني بتفقد احوالها بعض من جمعية المعارف الروسية فوجدوا اغلب اطراف البناء مشتققة قد اعتراها الخلل وكان المهندسون عنيوا قديمًا بوضع نطاق من حديد حول القبة لصيانتها من السقوط وغشوها بالواحٍ من رخام والان قد تكسر كثير من هذه الالواح بمزاحمة اتساع الشقوق انتهى

وبالقرب من هذه الكنيسة قصر الفاتيكان الذي يسكنهُ البابا ذكر في احدى النشرات المعتبرة انهُ يحتوي على ١١ الف قاعة من ارحب قاعات الدنيا وافخرها ومحاط بشروقٍ لم يحوَ مثلها مكان قط وفيهِ من الجواهر والتحف ما لا يحصى ولا يقوم بوصفهِ قلم من افخر مصنوعات الدنيا واتقنها مرصعة باثمن الجواهر من الماس والياقوت والزمرد وكل حجر كريم وعدد رجال دائرة البابا وخاصتهِ يبلغون بحسب وظائفهم الى ٢٤٥٢ رجلاً

فواظب هذا البابا على ذلك مع الحمية والمصاريف وكان قد تلقى بالقبول والاكرام ميخائيل انجلو وإناطة ببناء كنيسة اخرى في فلورنسا سيما سنت لورانت واستخدم عنده اندريا ديل سرتو وليونارد دوونيسي الذي مرّ ذكرهُ وكذلك في ايامهِ ايضًا نقش روفائيل المذكور جدران الواتيكان وقد نشر هذه النقوش الظريفة مرق انطونيو ريموندي باخذ صورتها على النحاس وكان روفائيل المذكور قد اتقن هذه الصناعة المخترعة في القرن الماضي الى ان بلغت درجة كمال فمن ثم اقتضى الامر لان يستعين البابا المشار اليهِ على هذه المصاريف الباهظة ببيع اوراق الغفرانات فكان ذلك سببًا الى معارضة لوثيروس التي تقابلت من كبريا رومية بعدم الحكمة واوجبت خروجهُ بالكلّية وظهور الديانة الانجيلية المسماة بالبروتستانتية

ثم بعد ان توفي البابا لاون المشار اليهِ وجلس على كرسيّهِ البابا ادريانوس السادس في سنة ١٥٢٢ حصل للاداب والفنون انزعاج وفني برومية لكنهُ لم يمكث الّا اشهر قلايل اذ انهُ لما تولى بعدهُ اكليمندوس السابع وقد مرّ ذكرهُ وكان من اقارب لاون العاشر ازال ذلك الانزعاج واعاد في اوائل باباويتهِ لاكدمية رومية ما كان لها من البهجة والرونق القديم غير انهُ لمّا انتهبت رومية في سنة ١٥٢٧ ام اندثر جميع ما رتّبهُ الباباوات في هذه المدينة من الاشياء النافعة بالنسبة للاداب ومكثت على ذلك مدةً طويلة

لكن في هذه المدة الطويلة المذكورة التي اندثرت فيها الآداب والفنون من رومية كانت تشرق انوارها في فلورنسا على عهد المديشية الذين رجعوا لمنصب الامارة على هذه الجمهورية بعد ان كانوا طُردوا منها على ما تقدم اذ في هذا الزمان صار كلٌّ من الدوك كوسم (قزما) الثاني الذي تولى سنة ١٥٣٧ ام وخليفته فرنسيس الذي تولى سنة ١٥٧٤ ام وفرديناند الذي تولى سنة ١٥٨٧ ام معادلاً في البذل والسخا للورانت لومانيفيك وكوسم الاكبر (الاول) حتى انهم في ظرف ٨٠ سنةً تقريبًا جعلوا مدينة فلورنسا تعادل مدينة اثينا في زمن زهائها

اما باقي دول ايطاليا فقد لحنت فيه تقلبات الدهر وصروفه الاداب والعلوم مدة القرن السادس عشر من الميلاد وذلك انه بعد اجلاء الدولة الارغوانية وانقراض العائلة السفورسية اضمحلت الاداب في نابلي ودوكية ميلان وان كان بعض العمّال الاسبانيوليين قصدوا حمايتها فيها وجبروا بذلك خلل ما كان من غيرهم من كراهتها او عدم الاعتناء بشانها لكن كان جبرهم لهذا الخلل على وجهٍ ضعيف هين وانما بقيت على زهائها في فرارة على عهد هرقول الثاني وازداد رونقها في زمن الفونس الثاني الذي احسن ملاقاة الشاعر تاسه واكرم نزله في ديوانه وعظمت بهجتها اكثر من ذلك في مانتوه على عهد المركي فريدريك وحماها دوكات اوربين وكذلك دوكات سابوه فانهم مع ما حلّ بهم من النكبات والمصائب كان لهم نصيب وحظ في ما ادخله الميديشية في ايطاليا واستغرق فيها مدة القرن السادس عشر من تقديم الاداب والعلوم والاعتناء بشانها وتوسيع دائرتها على وجهٍ عظيم ومنهجٍ قويم

(فرانسا) وكانت ملوك فرانسا قد اقتفت اثار العائلة الميديشية المذكورة فجدّت كذلك في طلب الاداب والعلوم في هذا القرن ايضًا منذ تولى تختها في سنة ١٥١٥ الملك فرنسيس الاوّل خليفة لويس الثاني عشر فانه تلقّب بابي العلوم والمعارف لكونه كان يعظم العلماء تعظيمًا ليس له حدّ ويرى انه مادام العلم معظمًا في المملكة دام عزّها وفلاحها واذا أُهين سقطت الى حضيض الاضمحلال وهو الذي شرع في تأسيس خزانة الكتب الملكية وانشأ مدرسة العلوم ودار الطباعة ايضًا وكان صاحب معارف ومحاميًا لها ومشجعًا لاربابها مثل ماروط وربليس وغليوم بوريه او بورا وغيرهم من العلماء والادبا وارباب الفنون والصنائع واغدق على العلماء بالانعامات ورغبهم بالعطايا الجزيلة حتى بذلوا في تحصيل المعارف بعض مجهودات نافعة فترجموا كتب الاقدمين وترتب على مطالعتها ثمرة عظيمة عادت بالنفع على مولفات الازمنة المتأخرة . واكمل

الشريعات وفصل الدعاوي بامور حسنة وانتشرت اللغة الفرنساوية ببلاد فرانسا بدلاً عن اللسان اللاتيني ورتب غرامةً على لعب القمار ابطلها الفرنساوية عن قريب بدعواهم انها مباينة لمكارم الاخلاق وفي ايامهِ استغنت التجار بسبب تقدم التجارة واحداث البانكة في مدينة ليون واوّل معامل الحرير (وفي بعض المولفات ان اوّل معمل ظهر في ليون لنسج الحرير كان في سنة ١٤٦٦م) وكثرت في ايامهِ ممارسة صناعة الساعات والميكانيكا والعلوم الرياضية واحدث العساكر البحرية الملكيّة وحفر مينا هورة ولما ذهب لمحاربة بلاد ايطاليا اعجبهُ حسنها ورونقها فجلب منها نقاشين ومعمارية ارباب نشاط شيدوا لهُ هياكل وسرايات جديدة بالانتساب الى اسمهِ في اماكن متعددة ومنها قصر فونتنبلو وقصر سان جرمان وقصر شنبور ولوره ونقشوها هم انفسهم او تلامذتهم الذين علوهم بهذه المدينة واحدث المصانع والمعامل واحكمها واتقنها ودعا ارباب الحرف والصنايع الى فرانسا فشرع معمل جوبلين في نسج انواع التوريقات المستحسنة عند جميع اهالي بلاد اوروبا وبالجملة يقال بانهُ من عصر هذا الملك تؤرّخ التقدمات العظيمة السريعة للعلوم والاداب وجميع الفنون العقليّة في مملكة فرانسا حتى جعلتها في اعلى درجات تمدن المتأخرين غير انهُ مع ذلك جميعهِ كان لا زال المنجمون الذين يزعمون معرفة حظّ الانسان من النظر الى السماء والكيماويون الباحثون عن حجر الفلاسفة وهو ما يزعمونهُ من استحالة المعادن ذهبًا لاتخلو دروسهم من الغاغا ولذلك كانت مدرسة العلوم الجامعة ميدانًا للمناظرة والجدال بين هولاء المدرسين الذين لا ينبغي نظمهم في سلك اهل الادب

وبما ان هذا الملك قد نشأ من صغر سنهِ على ممارسة العلوم والاداب باجتهاد الملك لويس الثاني عشر على ما تقدم بيانهُ كان بمجرد جلوسهِ على السرير لا يُرى الاّ والعلماء حولهُ فكانوا يصاحبونهُ في كل مكان ولا يفارقونهُ لا في الصيد والقنص ولا في اسفارهِ ولا في متنزهاتهِ وكان يقلدهم المناصب ويجزل لهم العطا

ويرغبهم في اشغالهم بجوده وكرمه وبكونه يشتغل هو نفسهُ بحيث يكون اسوةً لهم في ذلك واشهر هولاء الناس المجتهدين الذين جلبهم بانعامو حتى ملأ بهم ديوانهُ هو بوريه الذي سُمّي اعجوبة فرانسا وقد مرَّ ذكرهُ فانهُ هو الذي حمل الملك على احداث المدرسة الملوكية وكان الغرض من هذه المدرسة التي جعل لمدرسيها مرتبات جسيمة هو تعلُّم اللغة اللاتينية واليونانية والعبرانية فلذا سُمّيت بمدرسة اللغات الثلاثة ولكن جدد الملك فيها دروسًا اخرى اذ قد أُستنبط من المكاتيب المورخة في سنة ٥٤٠ ام انهُ زيادة على مدرّس اللاتيني ومدرسي العبراني الثلاثة ومدرسي اليوناني الثلاثة كان يوجد اذ ذاك معلم لتعليم الطبّ واخر للفلسفة واثنان للرياضيات وكذلك خلفاؤهُ من الملوك جددوا فيها بالتعاقب فروعًا اخرى اقتضاها اتّساع دائرة المعارف في عصرهم ثم لمّا توفي البابا لاون العاشر الذي مكّن الفنون في ايطاليا واهملها خلفاؤهُ جلب هذا الملك العظيم اهلها من ايطاليا وزين بهم ديوانهُ غير انهُ لم يتمكن من ان يحرم مكتب رومية بولس رومان وانما احرم مكتب فلورنسا من ليوناردو ونيسي الرسام الشهير واحضر المعلم روكس أمهر البنائين وجعلهُ ناظر عموم عمارات فونتنبلو وكان جامعًا لجميع انواع الفنون وكان لهُ معاصر خطير اوسع دائرة منهُ وهو بنوانونوسليني واحضر ايضًا لوبرماتيس من ايطاليا لاجل اشغال فونتنبلو بعد وفاة روكس وهو الذي رسم قبر هذا الملك نفسهِ وابتدأ في رسم قبر هنري الثاني الذي تولى المملكة بعد ان مات ابوهُ المذكور في سنة ٥٤٧ ام ورسم ايضًا صورة قصر مودون وكان لمّا حضر هذان المعلمان روكس ولوبرماتيس الى فرانسا وجدا بها بعض رسامين من الفرنساوية فعلما ذلك الفنّ لجماعة اخرين ومن ذلك الوقت اشتهرت المدرسة الفرنساوية بتلامذتها

وكانت اذواق القرون السالفة سقيمةً وادراكاتهم وتصوراتهم غير صحيحة فافسدوا الشعر اليوناني واللاتيني حيث اخترعوا طريقة الاشعار الليونية المفردة والمزدوجة والمثلثة وطريقة التطريز والتزموا في قصائدهم الكلمات

المبدوءة بحرف واحد وكانت لهم طرق اخرى من هذا القبيل فلما ظهر اهل الذوق الصحيح في زمن الملك فرنسيس الاول المشار اليه راوا هذه الطريقة المتعبة من قبيل الالعاب الصبيانية فعادوا بالتدريج الى ما يسهل على الطبع وبالفة الذوق غير انهم مع كثرة ممارستهم للشعر اللاتيني لم يصلوا في ايام هذا الملك درجة الكمال التي وصل اليها في عهد الملك لويس الرابع عشر الذي تولى المملكة في سنة ١٦٤٣ م كل من راسين وكومبره ولاروشيبيزه وكذلك كان في ايام الملك فرنسيس المشار اليه وما قبله ايضاً لا تعرف الاجزاء التي تتركب منها بحور الشعر الفرنساوية كما ان اصول تجنيس القوافي وايقاع التمازج بينها كانت مجهولة ومهملة وكان ثقل اللفظ (وهو عندهم عبارة عن تلاقي حركتين احداهما في اخر الكلمة والثانية في اول كلمة اخرى بدون حذف لاحدهما) سائغاً مستعملاً ومع هذه العيوب لم تزل قصائد ماروط الذي مرّ ذكرهُ وسنت جليس وبعض ابيات لفرنسيس الاول المذكور يُستلذ انشادها ويُستطاب سماعها الى الان لما امتازت بهِ عن غيرها من اللطف والسهولة وعدم التكلف واما من ظهر بعدهم من الشعراء الى زمن الشاعر مالهرب فلا يكاد يُعرف الاّ اسماؤهم وقلّ ان عُرف لهم شعر

واما كتاب الانشا فمنهم ربليس المارّ ذكرهُ ايضاً فان كتابهُ وان صار بتداول الازمان مغلقاً يصعب فهمهُ لكثرة ما فيهِ من الكنايات والرموز والاشارات الاّ ان ما امكن فهمهُ منهُ يشهد بذكاء مولفهِ وجودة معرفتهِ ويقضي لهُ ببعض الشهرة التي حازها بين ابناء عصرهِ

ومن اثار الكتب الادبية الفرنساوية كتاب تاريخ الشوالي بيار فانهُ من الكتب التي اذا اطّلع عليها الانسان تحسّر على لغة الاقدمين واخلاقهم ومنها ايضاً رسائل المارشال دوفلورنجه فانها بمكانٍ من اللطف حتى ان القاري لا يملّها ولا يسأم من مطالعتها ورسائل الاخوان مرتين وغليوم دوبلاي هي بالنسبة لتاريخ فرنسيس الاوّل كرسائل سولي بالنسبة لتاريخ هنري الرابع الذي تولى

المملكة سنة ١٥٨٩ م ومع ذلك يجب الاعتراف بان هناك بوناً بعيداً وفرقاً كبيراً بين كتّاب هذا العصر وشعرائهِ من الفرنساويين وكتّاب العصر المذكور وشعرائهِ من الايطاليان فان فرانسا اذ ذاك لم يكن فيها من يضاهي من رجال ايطاليا غيشاردين ولاميشاويل ولا دانتي ولا بتراركه ولاار يوست الذين تقدَّم ذكرهم في الكلام عليها

ثم بعد وفاة هذا الملك لم يحدث في زمن ابنهِ هنري الثاني الذي مرَّ ذكرهُ الاَّ واقعة واحدة من وقائع فصل الدعاوي بالقتال الشرعي فابطل هذه العادة الردية الفاسدة وانما في اواخر هذا القرن تقدمت الصنائع في فرانسا على عهد الملك هنري الرابع وقد مرَّ ذكرهُ ايضاً وذلك ان معامل الحرير والتوريق والمرائي والزجاج منها ما أُحدث في زمنهِ ومنها ما حصل لهُ فيهِ تقدم عظيم وانشأ هذا الملك خليج ايبريا ففتحت بذلك طريق حديدة للتجارة وزين المدينة بعمارات جديدة وكمَّل عمل القنطرة المسماة بونوف اي القنطرة الجديدة وصار الشروع في انشاء المجاز الطويل الذي يوصل الى قصر لورة وهو سراية الملوك القديمة بقصر التولري وهو السراية الملكية الجديدة التي احدثتها كاترينا دومنسي وتشيدت قلاع المملكة ووضع فيها مدافع عظيمة مخوفة وازدادت مخازن الاسلحة وأُصلحت جميع الطرق السلطانية وغرست بها الاشجار وبالجملة كان هذا الملك يجلب الى باريس العلماء الاجانب ويبني مدارس جديدة ونقل خزانة الكتب الملكية من قصر فونتنبلو الى باريس وزاد فيها من المولفات العظيمة المطبوعة والكتب النفيسة التي بخط اليدّ

وقد لخَّص صاحب كتاب اقوم المسالك ما اشتهرت بهِ رجال فرانسا من الفنون والاداب في هذا القرن فقال « ومنهم كوجا ودوملان وميشال دولپنيال الذين عمَّروا مكاتب الاحكام والماهر الفصيح فرنل المتسلطن في علم الطب وامبرواز بري اعرف اهل وقتهِ باصول الجراحات . وفيات الذي اختصر كتب الجبر بوضع حروف نائبة عن الاعداد وصيرهُ لعلم المساحة

كالمنطق لسائر العلوم وبيارلسكو الذي هندس بناء اللوفر. وفلبار ولورم الذي هندس قصر مودون وقصر التويلري[1]. لكن وان كانت فرانسا قد بلغت في هذا الوقت ما بلغتهُ من التمدن والتهذيب وفاقت اممًا كثيرة ممن تقدمها الا انها لم تضاهِ نظائرها حيث لم يكن لسانها في ذلك الوقت خالصًا من الشوائب وانما كان من مشاهيرها في تلك المدة رجلان يقال لاحدهما اميو وللثاني مارو (لعلهُ ماروط) فالاول في الانشاء والثاني في النظم تميزًا بسلامة السليقة وقلة التعقيد ومنهم ربليس ويقال ربلي متفنن صياغةِ مثالب الهجو وموتان الفيلسوف الذي سهّل طرق المعاني وادّاها بالفاظٍ راشقة وشرح ماهية الانسان غير محمولٍ بعين الرضى على تحسين معايبهِ ولا بعين السخط على تقبيح محاسنهِ

(روسيا) وكذلك لما تولى تخت السلطنة المسكوبيَّة ايوان الرابع بعد وفاة ابيهِ باسيل في سنة ١٥٣٤ رأى ان الشرائع القديمة التي لمملكتهِ غير كافية فحرر كتاب شرائع وهو وان كان لا يخلو من العيوب الاَّ انهُ اوقع تغييراتٍ عظيمة فيها وسعى ايضًا وان كان بلا طائل في ابطال المقاتلات الشرعية وجعل التجارة زاهية زاهرة وجلب ارباب حرف وصنائع من انكلترة وطلب من الامبراطور شرلكان (كرلوس الخامس) مثلهم. واحدث الطباعة في مدينة موسكا ورتب جيشًا من العساكر المستمرة

وفي ايامهِ كُشفت بلاد سيبيريا وذلك ان تاجرًا غنيًّا يقال لهُ انيكاستر وغونوف اخبر اولاً بوجود هذا القطر ثم تمم استكشافهُ رئيس من رؤساء القزاق يُسمَّى برياك كان مولعًا بالحوادث وبوقع النهب والسلب في سواحل نهر وولغا وفي اكناف بحر الخزر فطردتهُ فرقة من الروس فتوجه الى سيبيريا ومعهُ ٧ الاف قوزاقي واكتسب عدَّة نصراتٍ على تتار تلك البلاد وعلى

(١) قصر اللوفر وقصر التولري هما بباريس يسكن بها الملوك اما قصر مودون فهو بالقرب من باريس

خانهم كونشوم وتغلب على مدينة سيبر التي هي اعظم حصونهم في سنة ١٥٨١ م بعد ان فقد اكثر اصحابهِ ولما راى نفسهُ انهُ لا يستطيع الاقامة فيها بما بقي معهُ من الرجال القلائل اشترى من الجار ايوان الرابع المشار اليهِ السماح والصفح عن ذنوبهِ القديمة بالتنازل لهُ عن فتوحهِ هذا فتملكت العساكر الروسية هذه البلاد في سنة ١٥٨٣ م ومع ذلك لم يتم لها اخضاعها الأ في ايام ابنهِ الجار ثيودورس الاول (فيدورا يوانيتش) الذي تولى المملكة في سنة ١٥٨٤ م وهو الذي بنى فيها مدينة توبولسك في سنة ١٥٨٧ م وصيرها من ذلك الوقت تختاً لتلك البلاد

(اسبانيا) اما اسبانيا فكثرت فيها الفنون اللغوية في هذا القرن الذي نحن بصددهِ وظهر فيها مولفون كثيرون اشتهر منهم الشاعران المجيدان لويس دفيغا وكالدرون اللذان اظهرا من التراكيب الشعرية الطُرَف المستحسنة التي الّفوها في الجامع المعدّة لتهذيب الاخلاق المساة عندهم بالتياترات

(انكلترة) وأُدخلت الى انكلترة صناعة عمل الابر بواسطة رجل جرماني كان هو اوّل من اصطنعها في لندن ويقال بانهُ نقلها اليها من اسبانيا او جرمانيا وكان ذلك في سنة ١٥٤٥ وقيل سنة ١٥٦٥ م وأُستعمل كذلك في هذه المدينة التدخين وعمل السيكارات في سنة ١٥٦٠ م وأُبتدي في طبع الجرائد ونشرها فيها سنة ١٥٨٨ م واصطنع رجل يقال لهُ اراكريت اوّل دولاب لغزل القطن الهندي في سنة ١٥٩٠

(دانيماركه) وفي سنة ١٥٥٩ م وهب فريدريك الثاني ملك دانيماركه الى الفلكي الشهير تيخوبراهي الذي افنى عمرهُ ومالهُ في طلب العلم واقتناص شواردهِ حتى سُمّي بالمحسن الى العلم جزيرةً يقال لها هوين لاجل بناء مرصد

سلطاني لرصد الاجرام السماوية قال بعض المولفين ان تيخوبراهي المذكور وُلد في سنة ١٥٤٦ م في مدينة كنودستربب في اسوج وكانت حينئذٍ تحت حكم الدانيمارك واشتهر في غضون اشتهار راي كوپرنيكوس (الآتي بيانهُ بعدُ) وبلغ من الدقة في الرصد ما لم يبلغهُ غيرهُ فرقّاهُ الملك وجعل لهُ جزيرة هُويني مقامًا وقطع لهُ مبلغًا سنويًا فانشأ هناك مرصدًا سمّاهُ اورنيبرج اي المدينة السماوية لبث فيهِ ٣٥ سنةً يرصد السيارات ومن ارصادهِ كشف الفيلسوف كپلر النواميس التي رتبها الله لتجري السيارات عليها ولم ينقد الى رأي كوپرنيكوس المذكور لزعمهِ انهُ يخالف الكتب المقدسة ولذلك ابدى رأيهُ بخلاف رأي كوپرنيكوس فحطَّ ذلك من سموّهِ درجةً توفي سنة ١٦٠١ م في براك بعد ان نزح اليها من اورنيبرج المذكورة

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

(دورة الارض وثبوت الشمس) وكان كوپرنيكوس المنوَّه عنهُ هنا رجلًا فلكيًا من اهالي ترن او هي طرن ببلاد بروسيا ظهر في سنة ١٥٣٠ للميلاد فحرر القول بان الشمس هي في مركز العالم وان الارض والكواكب تدور حولها قال بعض المولفين بانهُ ليس هو اوّل قائلٍ بذلك وانما الاوّل هو فيلولاوس احد تلامذة فيثاغورس وذلك قبل وجود كوپرنيكوس هذا بالفي عام لكن وقع الانفصال على ان كوپرنيكوس المذكور هو الذي ينبغي ان تُنسب اليهِ مزية الابتكار لهذا القول وان انتفع في الاهتداء اليهِ بقول فيلولاوس المذكور . وفي كتاب اصول الهيئة للفاضل العلاَّمة الدكتور كرنيليوس فانديك الامريكاني ما نصهُ ان الآراء من جهة النظام الشمسي اربعة وهي اولًا الراي البطليموسي نسبةً الى بطليموس من مدرسة الاسكندرية صاحب كتاب المجسطي عاش نحو سنة ١٣٠ ق م فانهُ علّم بان الارض في المركز وكل السيارات تدور حولها اولًا القمر ثم عطارد

ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل اما ارسترخس من جزيرة صاموس فكان في سنة ٢٨٠ ق م فعلّم حسب رأي ارخميذس وفلوطرخس ان الارض تدور حول الشمس فشُكي عليهِ بالكفر وبعد ذلك بنحو ٣٠ سنة علل كلياتوس من اسوس عن ظواهر الاجرام السماوية بثبوت الشمس ودوران الارض على محورها وهو ايضًا شُكي عليهِ امام الحكام لاجل الكفر بسبب مضادّة هذا الرأي الآراء الشائعة . ثانيًا الرأي المصري واختلف عن بطليموس بانهُ جعل عطارد والزهرة قمرين للشمس يدوران حولها وبقي الرأي البطليموسي غالبًا عدّة قرون الى القرن الخامس عشر من التاريخ المسيحي لمّا قام كوبرنيكوس صاحب الراي الثالث في سنة ١٥٣٠ م وعلّم بثبوت الشمس ودوران السيارات حولها اولاً عطارد ثم الزهرة ثم الارض ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل واشهر رايهُ في كتابهِ المعنون بحركات الاجرام السماوية فحكم مجمع الفحص الروماني عليهِ بالهرطقة ونهى عن اشهار كتابهِ وعن قراءتهِ . اما الراي الرابع المستحق الذكر فهو راي تيخو براهي (المارّ ذكرهُ) وقد اشهرهُ نحو سنة ١٥٨٣ م فانهُ جعل الارض في المركز ثابتة ثم القمر يدور حول الارض ثم الشمس تدور حول الارض وعطارد والزهرة وسائر السيارات تدور حول الشمس اقمارًا لها . ثم قام غليلي في ايطاليا سنة ١٦٤٩ م (وسوف يأْتي ذكرهُ) وبيّن صحة الراي الكوبرنيكي (فحُبس ايضًا بامر ديوان الفحص لاعتقادهم ان ذلك يخالف ما جاء في التوراة من ايقاف يشوع بن نون الشمس في محاربة اريحا قال بعض المولفين انهُ في اثناء حبسهِ كان يرسم الحساب على جدران الحبس ويتأمّل ثم يضرب الارض برجلهِ ويقول ومع ذلك فان الشمس هي التي تدور) ثم تبعهُ في اثبات هذا الراي وتبيينهِ كپلر (وهو رجل من جرمانيا صرف مدتهُ في علم الفلك حتى قيل لهُ صاحب الاحكام) في سنة ١٦٥٤ م واسحق نيوطون (وسوف يأْتي ذكرهُ) نحو القرن الثامن عشر ومن ثم صار المعول على الراي الكوبرنيكي واندثرت بقية الآراء كلها

تقويم السنة

ثم في سنة ١٥٨٢ م اصلح البابا غريغوريوس الثالث عشر حساب السنة الشمسية على وجه الضبط بجعلها ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٤٩ ثانية ولا يخفى ما في ذلك من الفائدة بالنظر الى التقاويم والزيوج وغيرها من تعلقات الامور الفلكية ويُفهم مما تقدّم بان اصل التقويم كان من روملوس باني مدينة رومية سنة ٧٥٣ ق م لانه جعل السنة ٣٠٠ يوم مقسومةً الى ١٠ اشهر ثم اضاف خليفته نوما بمبيليوس او فمبيليوس لها شهرين اخرين فجعلها ٣٦٠ يوماً وذلك في سنة ٧١٥ ق م وبعده ظهر تاليس المليطي اوّل فلاسفة اليونان المولود سنة ٦٤٠ ق م وعلّم بان السنة ٣٦٥ يوماً ورتب الفصول وحدّد الشهور اخذاً عن المصريين ثم لما تولى سلطنة رومية يوليوس قيصر اصلح كذلك هذا التعليم بجعله السنة ٣٦٥ يوماً و ٦ ساعات ورتب نظير هذه الستّ ساعات التي ضمّها الى السنة يوماً يُضمّ الى كل سنةٍ رابعة سماها كبيساً ولازال الحال جارياً على هذا المنوال الى ان قام البابا غريغوريوس المشار اليه واصلح الحساب اليولياني بتقويمه المنسوب اليه والحالة هذه على ما تقدم (راجع الكلام على العلوم الطبيعية في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف صحيفة ٢٢٥)

(المغنطيس) وفي تلك الاثنا اعني في سنة ١٥٧٦ اكتشف رجل يقال له روبرت نورمان حجر المغنطيس

(الصناعات) وكان في سنة ١٥٢٠ عمل الزناد للطبنجات وفي سنة ١٥٦٢ عُمِلَت السكاكين والمدى من الحديد وكانت قبل ذلك تُعمل من الصوان والصدف وفي سنة ١٥٧٠ أُصطنعت الطبنجات المضاعفة وفي سنة ١٥٧٩ أُصطنعت آلة تقسيم الموازين وفي سنة ١٥٩٠ أُتقنت المرائي وتلبست ورق التنك الزيبقي

القرن السابع عشر

يمتاز هذا القرن اولاً باتمام معاهدة وستفاليا التي أُبرمت في سنة ١٦٤٨ بانعقاد الصلح بين الكاثوليك والبروتستانت واعطاء القرار بين الفريقين على ان كلاًّ منهما يبقى على دينهِ في استقلالهِ وراحتهِ وان يعيش احدهما مع الآخر على الحب والسلامة مع اختلاف مذاهبهما ووضعت كذلك بين الدول النظامات والقوانين الجديدة في اصول الادارات الدولية المُعبَّر عنها باصول الموازنة البوليتيكية . ويعتبر المؤرخون هذه الاصول نهايةً للقسم الاوَّل وبداءةً للقسم الثاني من القرون الاخيرة كما سبقت الاشارة الى ذلك في مقدمة هذا الكتاب

ثانيًا بعظم مقدار تقدُّم العلوم بين الافرنج فيهِ سواءٌ كان ذلك في الفهم والادراك او بدائرة الاختراع والذاكرة والتصور لانهُ منذ استيقظت عقولهم وزاد انتباههم الى ذلك دلهم على الطريق المستقيم التي يجب ان يقتفوها الفاضل العلامة فرنسيس باكون السيد فيرولم ابولون الانكليزي وخاصةً في ما كتبهُ على شرف العلم وتقدمهِ ومن ثم لا ريب اذا قيل بان جزءًا عظيمًا من التقدم الذي تقدمهُ الاوربيون في كل نوعٍ من المعارف في هذا القرن يُنسب الى آراء هذا العلامة ونصائحهِ ولاسيَّما الذين كتبوا في القضايا الفلسفية والطبيعية اذ ان اغلب الناس في الزمن السابق كانوا يظنون ان المعرفة البشرية تصل الى درجة كمال بمجرد درس افصح مؤلفات اللغة اليونانية واللاتينية وبمعرفة العلوم العقلية والنظرية فلما ظهر هذا الفيلسوف ذو الفكر الوقاد والجد والاجتهاد وكان مولعًا بتجديد العلوم ألف مجموعًا واشهرهُ في سنة ١٦٢٠ ضمَّنهُ آراءً تخالف الفلسفة التي كان عليها المعوَّل في ذلك العصر كل الخلاف وعاكس بها منطق

المشائين مستندًا في دعاويهِ الى التجارب المفرغة في قالب الاسلوب الفلسفي اظهر بها طريقة الاستخراج وهي طريقة للكشف عن الحق لم تستعمل قبل عصرهِ تستخرج بها حقائق عمومية من امورٍ خصوصية لهم فيها شهادة الحواس او شهادة اخرى صادقة (راجع الفصل السابع من المقالة الاولى والبحث الاول من القسم الاول من كتابنا المسمّى بزبدة الصحائف في اصول المعارف صحيفة ٥١ و٩٥) ومن ثم اخذت مهابة ارسطاليس تتدنّى في المدارس واكتسبت الفلسفة صورتها الحاضرة حيث عدل الناس بسطوتهِ عن تلك الاراء وعرفوا انهُ يوجد غذاء اصلح منها لعقل الانسان الحكيم فوصلت بذلك العلوم التعليمية والطبيعية الى درجةٍ عظمى بين شعوب اوربا حتى ان الذين عاشوا قبل هذه المدة كانوا بالنسبة اليهم كانهم اطفال في العلوم

وكان الذي ابتدا بسلوك هذه الطريق غليلي الذي مرّ ذكرهُ في ايطاليا وسندهُ في ذلك امراء التوسكانا ثم تبعهُ من الفرنساويين ريناديكارت وبطرس كاسندي وكثيرون غيرهما ومن الدنيماركيين تيخو براهي الذي تقدم ذكرهُ ايضًا ومن الانكليز روبرت بويل واسحق نيوطون واخرون اقل شهرة منهما ومن الجرمانيين يوحنا كپلر ويوحنا هڤيليوس وكدفري وليم ليبنتز ومن الاسوجيين البرنولي ثم التصق بهولاء العلماء الذين هم من الرتبة الاولى اخرون كثيرون حتى انهُ لم تبقَ امة في اوربا الاَّ وتفتخر ببعض علماء افاضل شهيرين بالهندسة او بالفلسفة الطبيعية او بالعلوم الفلكية (ما عدا الذين لم يتمدنوا) وتهيجت رغبتهم اقتداءً بامراء التوسكانا اعني العائلة الميديشية السابق ذكرها التي كانت حامية كل العلوم خلفًا عن سلف ولاسيما هذه الفروع وبالملكين العظيمين لويس الرابع عشر ملك فرانسا وكرلس الثاني ملك الانكليز ايضًا اذ ان الاول انشأ في باريس والثاني في لندن جمعيةً مركبة من جماعةٍ من العلماء المحققين الذين منحاهم من الكرامات ما يحفظهم من ازدراء البسطاء وبذلا لهم من الهبات ما يقيهم من عوائق الضرورات وكان عمل هاتين الجمعيتين

منحصراً في البحث المدقق عن النواميس وتقوية العلوم التي تثقف العقل البشري في معرفة الحقائق وازدياد الرفاهية والراحة

وكان من جملة ما نجم من فوائد هاتين المدرستين انه لما ازالت معرفة حقيقة التاريخ كثافةً الظلام عن العقول بواسطة البحث والتفتيش المدقق فيها ظهر حينئذٍ للناس ايضاً بان المجادلات الدينية المتنوعة التي ازعجت العالم المسيحي في ما سلف لم تكن ناتجةً الاَّ عن اسبابٍ واهيةٍ جداً نظير التباس بعض العبارات اومن الجهل والخرافات والحسد والتفاخر والرغبة في الترأس وحبِّ الذات وهكذا الذين درسوا العلوم اليونانيَّة والعبرانيَّة وتعلموا لغات الشرقيين واصطلاحاتهم القديمة افلحوا كثيراً في دروسهم وانجلت لهم معاني اياتٍ كثيرة من الكتاب المقدس

(الفلسفة) وكانت الفلسفة قد انقسمت في بداءة هذا القرن الى قسمين ارسطويين اي اصحاب الفلسفة السكولاستيكية المارّ ذكرها وناريين او كيمويين وهم القائلون بالامتحان التحليلي واخذتا كلتاهما في الخصام على الترأس وتفسير بعض المولفات لكن تبوأ الارسطويون منهما كراسي جميع المعلمين في المدارس الكلية والاعتيادية وكانوا ينفرون من جميع الذين يظنون بانهُ يجب اصلاح فلسفة ارسطاليس او رفضها ويحسبونهم خائنين وطنهم واعداء جهاريين للجنس البشري واما الكيمويون الذين كانوا يزعمون ان لاسبيل الى المعرفة الحقيقية والمبادي الاصلية لجميع الاشياء الاَّ بواسطة حلّ الاجسام في النار وتصوروا جميعاً وجود اقترانٍ واتفاق بين الديانة والطبيعة واعتقدوا ان الله يجري مقاصدهُ في مملكة النعمة حسب الشرائع التي يجريها في مملكة الطبيعة ولهذا عبّروا عن تعاليمهم الدينية بعباراتٍ كيموية فاعتقدوا كافَّةً انهُ يوجد نوع من فعلٍ الهي اونفسٍ منتشرة في نظام الكون يسمّيهِ البعض اركيوس والبعض الروح العمومي واخرون غير ذلك وتكلموا بخرافاتٍ عديدةٍ عن علامات الاشياء وعن قوة الكواكب وتسلطها على جميع المواد حتى الناس وعن السحر الى غير ذلك

ثم لما ظهر كارته سيوس ويقال له ديكارت ايضًا تفلسف بخلاف ماذكر اذ انه رفض التعليمات التي كان اعتمد عليها قبلاً واخذ يبحث عن الافكار العامة او العقليات لكي يصل الى الحقيقة التي كان يطلبها وكان يستمد المساعدة من بعض مبادي بسيطة جدًّا يعرفها الناس طبعًا على الفور ومن ثم اخذ اولاً في ان يتصور تصورات بيّنة عن النفوس والاجساد والله والمادة والكون والفضاء وعن الاشياء الاصليّة التي يتالف منها الكون ولما جمع افكارهُ هذه ولخصها في نظام علمي وجهها الى اصلاح الاجزاء من الفلسفة وتحسينها وتوطيدها مجتهدًا دائمًا في ان يجعل ما ياتي مطابقًا لما سبق ويظهر انهُ صادر عنهُ على الفور وعندما طرح تأملاتهِ هذه لدى الجمهور استحسن افكارهُ واعتنقها جمٌّ غفير من الناس الحاذقين في اكثر اوروبا حيث كانوا قد ضجروا منذ زمانٍ طويل من عجيج المدارس وظلمتها ورغبوا كلّ الرغبة في ان يستحسن الطلبة هذه الفلسفة الديكارتية ويرفضوا فلسفة ارسطو ولذلك مدح اغلب مشاهير ذلك العصر اسلوبهُ في التفلسف بدون ان يخضع لمرشدٍ او معلم ولاسيَّما بتقدمهِ مع التأني الى الاشياء المعقدة الصعبة مع المحاذرة بحسبما تقتضيهِ الطبيعة او العقل السليم من التسليم بشيء قبل ان ينظر فيهِ ويفهمهُ حتى انهُ لم يبقَ احد الاَّ واعترف بان هذا الرجل اخترع اختراعاتٍ واوليّاتٍ كثيرة لامعة وجزيلة الفائدة

ومن ثم انقسمت ممالك اوروبا الى قسمَين مشهورَين من الفلاسفة يختلفان قليلاً في القضايا الاكثر نفعًا الى الحياة الانسانية وكثيرًا في مبادي كل الحاجّات الفلسفية او بالحري في اساسات كل المعارف البشرية فالقسم الاول نسمّي بعدلٍ الشيعة النظرية والقسم الاخر تسمّى بالشيعة التعليميّة ولم ترفض روساء المدارس هذه التسمية والاول سلك في خطوات ديكارت والاخر فضّل اسلوب رجل اخر يقال له كسنْدِي اذ ان الاول اعتقد ان الحق يتوصل اليهِ بالاستدلال والثاني قال لا بل بالامتحان والملاحظة الاوَّل قلّ اعتمادهُ على الحواس واتكل بالاكثر على التذكر والتفطن والثاني قلّ اعتمادهُ على الاستدلال واتكل بالاكثر

على الحواس وملاحظة المواد بالفعل الاول استخلص من مبادي نظرية قليلة جريئةً مستطيلة من العقائد التي اوضح بانهُ انفتح لهُ بواسطتها طريق للحصول على معرفة حقيقية عن الطبع الالهي والنفوس والاجساد والعالم باسرهِ والثاني لم يرفض المبادي النظرية غير انهُ انكر كفاءتها لاتمام نظام كامل من الفلسفة محتجًّا بان الاختبار المستطيل وملاحظة الامور باعتناء والامتحان المكرر هم غالبًا احسن مساعدٍ للحصول على المعرفة الراهنة المفيدة . الاول يرتفع الى الجوّ بكلّ جسارةٍ ليمتحن العلّة الاولى والمصدر للحق وحقائق كل الاشياء واسبابها وعند ما يرجع بما اكتشف ينحدر الى ان يشرح بهِ التغييرات الطبيعية ومقاصد الله وصفاتهِ وسيرة الناس وواجباتهم وتركيب الكون ونسيجهُ والثاني باشدّ جبانةٍ واوفر حيآء يلاحظ اولاً باصغاء كلّي الاشياء التي يقع عليها النظر والتي كانها موضوعة عند اقدام البشر ثم يصعد الى البحث في حقائق الاشياء واسبابها . الاول يفرض اشياء كثيرة مفهومة غاية الفهم فيستعد ان يحوّل معرفتهُ الى هيئة نظام مرتب وتامّ والاخر يفرض اشياء كثيرة بعيدة عن الادراك ويعلّم تابعيها ان يؤخّروا كلّ حكمٍ على قضايا لا تحصى الى ان يوضحها الزمان والاختبار بنوعٍ أسطع وابين واخيرًا يفرض ان تركيب النظامات الكاملة اما انهُ يفوق طاقة البشر واما انهُ يجب ان يترك لاهل القرون المستقبلة الذين يكونون قد تعلموا من الاختبار اكثر من اهل عصرهِ وخلاصة الامر ان النظري يزعم بانهُ لا يعرف المعلولات الاّ بعد الحصول على معرفة العلل واما التعليمي فيرى بانهُ لا يدرك العلّة الاّ بعد البحث في المعلولات . فهذا الاختلاف على المبادي الاولى لكلّ المعارف والعلوم البشرية احدث انشقاقًا عظيمًا على القضايا الاكثر اهميةً مثل صفات الله وحقيقة المادة وعناصر الاجساد وشرائع الحركة وكيفية السياسة الالهية والعناية وتركيب الكون وحقيقة النسبة المتبادلة بين الاجساد والانفس

وكان قد كثر في هذا القرن الكفرة مضادّو الاديان ايضًا ويقول الانكليز بانهُ من عهد كرلوس الثاني الذي مرّ ذكرهُ فسدت امتهم بافظع الفواحش

والرذائل فادّت هذه الحالة الى الافراط الزائد في الآراء والجدال في الامور الدينية وكثيرون اخذوا في محاربة الاديان وزعموا بانهُ يجب اتباع ديانة الطبيعة والعقل فقط وكان قائد هذه الجمعية الكفرية بينهم رجل يقال له توما هبص من ملمسبري موصوف بالجسارة والخداع اكثر من العلم والمعرفة ويزعم البعض بانهُ قد تجاسر على انكار الخالق ايضاً لكن يقال بانهُ اقلع اخيراً عن كفرهِ في زمن شيخوختهِ ورفض ما كان نشرهُ قبلاً من معتقداتهِ . وكذلك يوحنا ولمت من روتشستر فانهُ قاوم الله والديانة اكثر من هبص المذكور لكنهُ ارتدَّ اخيراً بواسطة انذار كلبرت برنت وتوفي تائباً ونادماً في سنة ١٦٨٠ م وانطوني اشلي كوبر امير شفتسبري الذي مات بالسلّ في سنة ١٧٠٣ كان من اكبر اعداء الدين ونظراً للطلاوة عباراتهِ وسحر بيانهِ قد طُبعت مولفاتهُ مراراً. ويوحنا طُلَنْد الايرلندي كتب ايضاً عدّة نبذات احتقر بها الديانة المسيحية فاعتبرها كثيرون من البسطاء

اما في فرانسا فقام رجل يقال له يوليوس قيصر ڤانيني أُحرق جهاراً في تولوس (او هي تواوزة) في سنة ١٦٢٩ م لكونهِ انكر واجب الوجود غير ان البعض يحامون عنهُ مدّعين بانهُ أُتهم بذلك زوراً وحسداً ورجل اخر يقال لهُ كسمور كجري الفلورنتيني مات في باريس سنة ١٦١٥ اصرّ على كفرهِ حتى ساعة الموت وقال وهو في اخر نسمةٍ من حياتهِ انهُ يعتبر كلّ تعاليم الناس عن الله والارواح ما هي الاّ خزعبلات باطلة

ثم قام في البورتغال بناديكتوس سبه نوسا الذي مات في هاكو سنة ١٦٧٧ وهو يحسب اوّل جميع الذين في هذا القرن حولوا خالق جميع الكائنات الى مادةٍ قيدتها شرائع الضرورة الازلية على ان هذا الرجل كان يهودياً وتنصّر وعاش عيشةً ممدوحة اكثر من كثيرين من المسيحيين وغيرهم الذين لم يشكّوا ولا ارتابوا في وجود واجب الوجود وما حُقّ على الناس له ولم يجتهد في ان يقود الغير الى الازدراء بالالوهية او الى الاداب الفاسدة لكن كتبهُ ولا سيّما التي طُبعت

بعد موته ظهر جليًا بان قصده كان البرهنة على ان جميع العالم بل والله سبحانه ايضًا شيء واحد وان كل ما يحدث يحدث من شرائع الطبيعة الازلية غير المتغيرة الواجبة الوجود الفعالة منذ الازل وعلى هذا ينتج ان كل شخص هو الله جلّ وعلا ولا ريب بان الذي قاده لذلك هو الفلسفة الكارتسيانية التي مرّ ذكرها لكونه أتبع مبدأ جميع الفلاسفة وهو ان كل الاشياء الموجودة حقيقةً اي كل الحقائق انما توجد في الله جلّ شانهُ واذ حسب راي كارته سيوس رأيًا سديدًا لا ريب فيهِ وهو وجود حقيقتين هما الفكر والامتداد الواحدة تختص بالعقل والثانية بالمادة اقتضى لهُ بالطبع والضرورة ان ينسب الى الله هاتين الحقيقتين اي الامتداد والفكر على الاطلاق ولذلك كان لا بد من ان يلتبس الباري سبحانهُ بالمادة كانهما شيء واحد والاعتقاد بانهُ لا يوجد الأمادة حقيقية واحدة تصدر منها كل المواد الاخرى واليها يرجع الجميع ويعترف احباءُ هذا الرجل بان نظام تعليمهِ لم يكن ذا براهين جلية وليس لهُ طلاوة تسحر الالباب انما لمّا كان يدرك بنوعٍ حسيّ اكثر من ان يدرك بالعقل كان اعظم العقول في خطرٍ من عدم فهمهِ وكان يُحسَبُ في الدرجة الاولى من تلامذتهِ الذين يسمّون بنادكتيين لويس ميَر الطبيب ولوكاس والامير بولنفلير وغيرهم وقد اختار تلاميذ هذا الانتساب لا الى معلمهم لكون اسمهُ بناديكتوس بل الى التعليم الاصلي الذي يعتقدونهُ لان معناهُ كلّ شيء الله

وهنا لا ريب اذا قيل بان الفلسفة التعليمية التي مرّت تفاصيلها قبلاً هي مديونة كثيرًا بتقدمها لرجالٍ قد تخلد ذكرهم ومنهم اسحق بارو ويوحنا والس ويوحنا لوك وروبرت بويل التقي الذي كان يجب ان يذكر اولاً لاشتهارهِ بمؤلفاتهِ العلمية السامية وكذلك لاهوتيو تلك البلاد من الذين يستنكف الفلاسفة ان ينهوهم بمقاومة اعمالهم اغتصابيًا لم يحسبوها صحيحةً وغير مضرّة فقط بل نافعة جدًا ايضًا لتنبيه حاسيات الوقار لواجب الوجود جلّ ذكرهُ وتقويتها وتعضد الديانة وتحامي عنها مع المطابقة التامة لتعاليم الكتب المقدسة ولهذا كلّ الذين

فندوا جهارًا اعداء الله والديانة في الخطابات البويلية نزلوا الى ساحة المناظرة لابسي دروع هذه الفلسفة وشاكي اسلحتها ولكن لم يساعدها قط احد باجتهادٍ وحذاقةٍ ونجح في تقويتها مثل اسحق نيوطون وسوف يأتي ذكرهُ في محلهِ وهو انسان في غاية السموّ والوقار حتى وفي نظر اخصامهِ فضلاً عن غيرهم لكونهِ صرف كلّ حياتهِ الطويلة في تثقيف هذه الفلسفة واصلاحها وتوسيعها وتوضيحها بالامتحانات والحسابات ايضًا ونجح نجاحًا غريبًا حتى كانهُ حولها بيدهِ من الفضة الى الذهب الصافي ويقول الانكليز بانهم عارفون فضل هذه الفلسفة وقيمتها السامية من حقيقةٍ واحدة وهي ان جميع الذين اعكفوا على درسها تركوا لمن بعدهم اثارًا حسنة للطهارة والتقوى الراهنة مع ان كثيرين من الفلاسفة النظريين كانوا بعيدين عن الله سبحانهُ وعن عبادتهِ ومعلّمي اعظم النفاق وناشري اشرّ الفجور

استدراجات مدنية

(فرانسا) وكان في سنة ١٦١٠ تولى تخت المملكة الفرنساوية الملك لويس الثالث عشر واستوزر كردينالاً شهيرًا يقال لهُ ريشيليو فاعان هذا الوزير العلوم والفنون واسس الاكادمية الفرنساوية اي مجمع العلماء وانشأ بستان النباتات في باريس ورمم مدينة سوربونة واحدث كنيسةً اعدَّها لدفنهِ واسس السراية الكردينالية التي سميت اخيرًا بالسراية الملوكية حيث اوصى للملك فيها بعد وفاتهِ وفي زمن الملك المشار اليهِ وضع التمثال على القنطرة الجديدة تعظيمًا لهنري الرابع واحدث القديس وانصان بطرس المرستان لبنات الصدقة

ثم في زمن الملك لويس الرابع عشر الذي تولى المملكة في سنة ١٦٤٣ احدث القديس المذكور المرستان المُعدّ الى اللقطا وكان موجودًا وقتئذٍ مهندس يُسمّى دوبان لم يكن لهُ نظير في المهندسين فشيّد لهذا الملك الحصون والقلاع

المتينة التي شحن بها ثغور فرانسا جهة الشرق والغرب وكان للملك المشار اليهِ وزير يقال لهُ لوواس بن بوطيلة فرتب في فرانسا الجيوش المهابة التي ارهبت ممالك اوروبا واحدث لها مخازن المآكل والملبوسات والمهمات الحربية وصنع المدافع العظيمة التي شحن بها جميع اسوار المملكة وفي هذا الوقت بُنيت سراية ورسالية النفيسة وغيرها من العمارات والاثار العظيمة التي تزيد في رونق فرانسا الآن ومن اهمّها مرستان المتقاعدين فانهُ مأوى مفتوح لكلّ مَن بذل روحهِ في حبّ وطنهِ اذا طعنَ في السنّ ولحقهُ الهرم ومنها خليج لنغدوق الذي يجمع بين المحيط الغربي والمحيط الابيض وبفتحهِ فُتحت طريق جديدة للتجارة ولمّا كان هذا الملك مشرعًا صدرت عنهُ احكام عظيمة في المعاملات الشرعية والجنايات والتجارات والقوانين البحرية العسكرية وفي شان الاسترقاق فاتبعها اغلب ممالك اوروبا لِما فيها من الحكمة والعدالة واحدث ايضًا عدّة ترتيبات في توسيع التجارة فرتب قوافل ممالك الهند الشرقية والغربية وزاد في قبائل فرانسا واعطى الحرية لمينا مرسيليا وميناء دونكيرك بحيث يتيسر فيها التجارة لجميع الناس وانشأ في المملكة عدّة معامل مُهمّة من ذلك دواليب غزل القطن التي استعملت في بلاد الانكليز منذ القرن الماضي ومعامل نسج البسط الرفيعة التي حدثت في فرانسا سنة ١٦٦٧ وساعد على تقدم الصنائع كالدهن والنقش وغيرهِ واعان في تقدم العلوم والفنون والاداب ورتب لذلك جمعية علماء يتباحثون في كل فرع من فروعها فظهر في عصرهِ عدّة مولفاتٍ نفيسة ومصنفات غريبة

وقد جمع الكردينال موري اسماء مشاهير العلماء العظام الذين كانوا في هذا العصر بخدمة الملك المذكور فقال ان منهم قواد جيوشهِ البرية الامير تورين وكوندة ولوكسنبورغ وكاتيا وايكريكي وبوفليرس ومونتسكيو وندوم ووليارس. ومنهم قواد عساكرهِ البحرية شاتورينو ودوكستة وتورويلة ودوغطروان. ومنهم ارباب مشورتهِ الوزير كولبير ولوواس ونورسي. ومنهم وعاظهُ ومرشدوهُ الى ما فيهِ صلاحهُ وهم بوسوة وبوردالو وميسيلبون . وكان رئيس ديوانهِ الاوّل المسمّى

ديوان المنشئ هرمولة ولونيون وكان اربابه طالون واغاصو وكان المهندس دوبان يشيّد له القلاع والمهندس ريكه يحفر له الخلجان والمهندس بيرولط ومنصار يبنيان له القصور وكان بوحه وجيراردون ولوبوسان واوسيور ولوبرون يزخرفون له تلك القصور ويزينونها وكان لونوطر يرسم له البساتين وكان له من الادباء كورنيليه ورسين ومولير وكينون ولافونتين ولابرويير وبووالو فكانوا هم الذين يضيئون عقله بانوار الملح الادبيّة . وكان الذين يباشرون تربية اولاده مونتزيه وبوسوه وبووليرس وفيلون وهوويط وفوليشية وايفلوري فكان هذا الملك في اعلى درجات الفخر وعلو الشان بهذا الموكب العظيم من رجالٍ عظام عرف ما يليق بكلٍّ منهم من الوظائف فاقامهُ فيهِ ولاكثرهم من الشهرة العلمية والادبية ما يتضح مما يأتي

قال صاحب اقوم المسالك ما ملخصهُ ان بوردالو وماسيليون قد اظهرا فصاحةً لم تكن لاحدٍ قبلهما من خطباء الديانة المسيحية وبوسوه هو رجل عريف الحسب والنسب مولود في مدينة ديجون وتوفي في باريس سنة ١٧٠٤ ولهُ مولفات عظيمة بالغ فيها في حسن التأبين (يعني الفطانة ودقة النظر في الامور) وفي خطبتهِ على التاريخ العام السائرة مسير المثل عند اهالي اوروبا درجة لم يبلغها احد بعدهُ وبووالو بيّن قواعد الشعر ولابروار معدود من السابقين في علم التهذيب وفنلون كان اديبًا شهيرًا واذ كان لم يبلغ من العمر ١٩ سنةً صار من الخطابة والوعظ بمكانٍ عظيم وشهد لهُ الناس بالفضل حيث استمال قلوبهم بحسن فصاحتهِ وبديع بلاغتهِ ولهُ تآليف عظيمة في الفلسفة وفوق الطبيعيات وهو صاحب التاليف المشهور المسمّى تلماك الجامع لاسباب التهذيب البشري (وقد سبق الكلام عليهِ في ما تقدم بجملة خرافات اليونانيين في الذين يعتقدونهم اتصاف آلهة توفي فنلون سنة ١٧١٥) اما كورنيليه ورسين فكانا لايقاسان في التراجيديا (وهي محاكاة الحروب والوقائع) الاّ بمشاهير اليونان وكذلك موليير في الكوميديات (وهي محاكاة امور في قالب الهزل) ومثلهُ

لاقونتين في الامثال وهذان الاخيران قد تقدما مَن كان قبلهما (وذكر ايضاً رجالاً آخرين لم يذكروا بجملة من ذكر قبلاً) كباسكال الشهير بفن الحساب والطبيعيات والانشا والف كتاباً سماهُ بما ترجمتهُ مكاتيب اهل القرى وهو من اشهر ما أُلف في الارسال تعرَّض فيهِ للقدح في سيرة الرهبان اليسوعيين الذين كانوا يدافعون عن السياسة البابا وية. وديكارت المعدود في الطبقة الاولى من مخترعي العلوم الرياضية واتقان التصرُّف في علم الفلسفة وهو من اشهر العلماء الذين هذبوا اخلاق البشر (راجع الفلاسفة في الكلام على امتيازات هذا القرن)

(روسيا) اما روسيا فكان قد اعتراها تغييرات وانقلابات منعت من اصلاح حالها وتهذيب اخلاقها وادخال العلوم والفنون فيها منذ قتل ديمتريوس اخر الملوك الروريقية في سنة ١٥٩٧ الى ان تولى المملكة القيصر بطرس الاكبر في سنة ١٦٨٢ وهو من العائلة الروما نوفية التي ظهر منها اخيراً انها ترغب في تهذيب اخلاق الدولة وتمدنها على انهُ كان في خلال هذه المدة اجتهد البعض من ملوك هذه العائلة في ادخال اصلاحاتٍ كثيرة لكنها لم تاتِ بطائل فان الكسيس والد بطرس الاكبر المشار اليهِ كانْ مذ تولى المملكة في سنة ١٦٤٥ وضع دستوراً للقوانين والشرائع الاّ انهُ غير وافٍ بجميع الاحكام وادخل في ممالكهِ صنائع الاقمشة والحرير لكنها لم تمكث زماناً طويلاً وجعل الاسرى الذين اسرهم من قبائل لسبانيَّة ولاهية وتتارية لزراعة الاراضي لان العادة كانت في ذلك الزمان ان الاسارى يكونون ارقّاء لمن وقعوا في اسرهِ وبذل جهدهُ في ادخال التربية العسكرية في جيوشهِ وفي تعليم الاهالي الفنون والصنائع وجَلَب معلمين وعملة من بلاد الفلمنك مقتدرين على صناعة السفن قاصداً ان يعمل اساطيل في الانهر الكبيرة التي تصّب في بحر الخزر والبحر الاسود لكن لم يكن في عمرهِ فسحة كافية لتتميم مشروعاتهِ بل توفي في سنة ١٦٧٧ وبموتهِ

اختلّ نظام هذه الاشياء

وكذلك لمّا تولى عوضه ابنه فيودور (ثيودورس) شرع في تمرين مدينة موسكا وحسن ترتيبها فبنى فيها عدّة بيوت عظيمة بالاحجار لكنها لم تكن منتظمة البنيان ورغّب اكابر ديوانهِ في البناء واقرضهم ما يلزم لذلك من الاموال واعطاهم ايضًا المهمات اللازمة وهو اوّل من اهتمّ بانشاء اصطبلات للخيول الجياد وبعض تحسينات نافعة وبعض قوانين تتعلق بالضبط والربط والسياسة العمومية غير ان مثل هذه المساعي الهينة لم تكن ذات تاثير في تقدم بلاد مثل بلاد روسيا انما المعوّل عليها بالاجماع هو ان هذه المملكة لم تخرج من بحور الجهالة الى سواحل الانوار حقيقةً الاَّ مذ تولى عليها الامبراطور بطرس الاكبر المقدّم ذكرهُ لانهُ عرف كيف يمدنها ولذلك قد دُعي بحقٍّ اب سلطنة روسيا وأَحد العقول في العالم اما اعماله العظيمة ومشروعاته الجسيمة فلا يسع هذا المولف تفاصيلها بالتمام وانما ملخصها هو انهُ اول ملكٍ مسكوبي ارسلت في ايامهِ سفراء الى بلاد فرانسا بل الى سنة ١٦٨٧ م التي فيها ارسل الامير بازيل غالتزين الذي كان رئيس عساكر الدولة ومديرها وامين الختام هذه الارسالية لم يكن وقع تعارف بين دولة فرانسا ودولة روسيا فاشهرت جمعية الاثار القديمة بالديار الفرنساوية تلك الارساليات حين قدومها بنيشان مخار على صورة النقود مكافاةً لها وكان الامبراطور بطرس المشار اليهِ متوسط القامة عليهِ سمة الاكابر يمشي الخيلاء وبهِ نشاط وفطانة مهابًا ذا حماسةٍ في كلامهِ وفصاحة منطق وخطابة بين جندهِ واهل مشورتهِ فكان سلطانًا وخطيبًا معًا وهاتان الصفتان صيرتاهُ مهابًا في بلادهِ وكان لا يحب الزينة والزخرفة في امورهِ ولا في ديوانهِ ويشتغل كثيرًا ويشرع في مهماتٍ عظيمة ومقاصد جسيمة لا يكل عزمهُ ولا تمل همتهُ يحسب زمنهُ بالدقيقة ولا يضيع وقتًا من الاوقات الاَّ في اشغالهِ لا تفزعهُ المشاق ولا تزعجهُ الاخطار وكان مع حسن شكلهِ حادّ البصر صحيح المزاج قوي البنية وموصوفًا باصابة الراي التي بواسطتها يكون الانسان متبحرًا في جميع المعارف الحقيقية

وكانت فكرتهُ دائمًا شغالة ويختار الوسائط الغريبة السريعة التوصل الى المطلوب ليظفر بهِ . مثلًا اذا اراد احداث شيء مثل تعليم العساكر على طريقة الافرنج برًّا او بحرًا ابتدأ التعليم بنفسهِ ودخل في ادنى المراتب ولما امر باقامة جماعة لاغاثة الحريق واطفاء النيران التي كانت متواترة في بلاد المسكوب كان يذهب هو ذاتهُ بعض الاحيان معهم للاطفاء ويباشر وسائط ذلك بيدهِ واذا اضطر الى السفر في بعض اقاليم مملكتهِ سافر حالًا من غير اتباع واسرع في سفرهِ ولو كانت المسافة بعيدة وكان من صغر سنهِ مصابًا بداء النفور من الماء وبغض البحر حتى كان يتصبب عرقًا باردًا ويعتريهِ من شدة الفزع تشنج الاعصاب حين يركب نهرًا فعالج هذا الداء بقذفهِ نفسهِ في الماء الى ان صار من عظماء الملاحين ومهرة البحارة ببلاد الشمال وركوب البحر احبُّ الاشياء اليهِ ولكنهُ كان مطيعًا لكثير من شهواتهِ التي اعتاد عليها في صغرهِ فكان اذا انغض اهلك وانتقم واتبع حظوظ نفسهِ وكان كثير السكر فهدم ذلك بنيتهُ وهيج دمهُ واعتراهُ شدة الغضب والحمية حتى انهُ كان اذا غضب لا يعرف احدًا غير زوجتهِ الثانية وهي الامبراطورة كاتريبا الاولى فهي التي كانت تسكّن غضبهُ وتدعوهُ الى المروة والفضيلة فاذا افاق استحى من هذا الغضب الجبري ويصبح متأسفًا نادمًا على افعالهِ قائلًا اني اقدر ان اصلح امة بتمامها ولا اقدر على اصلاح نفسي وكان تزوج بامرأتهِ المذكورة بعد ان طلق زوجتهُ الاولى المسماة اودكسيا ثيودورة بنت مير الاي يقال لهُ لابوشين في شهر حزيران سنة ١٦٨٩ م لكونها كانت غير موافقة الى مشربهِ وتعارضهِ في كثير من مشروعاتهِ والزمها ان تترهب في دير وابدل اسمها بهيلانة وكان لهُ منها ولد يسمى الكسيس امر ايضًا بقتلهِ بسبب انهُ تعدى اوامرهُ وجاوز حدود القوانين مع انهُ لم يكن لهُ وارث سواه وقد انتهى امر هذا القيصر ان صار اعلم اهل مملكتهِ فتعلّم عدّة لغات وبرع في العلوم الرياضية والجغرافية وربما تعلم شيئًا في الجراحة والعلاج بنفسهِ وكانت امة المسكوب قبل سلطنتهِ من اصحاب الخشونة والجهل فقلبها الى حالة التمدن والمعارف بواسطة مجازفة

عقلهِ وجسارتهِ وشدة ميلهِ الى الامور الغربية حتى انهُ لم يكتفِ بارسال ٦٠ نفراً بعثهم الى مملكة ايطاليا لتعليم العلوم البحرية وانشاء السفن في مدينة البندقية ومدينة ليغورنا و ٤٠ اخرين الى بلاد الفلمنك ليتعلم بعضهم معاملها واشغالها والبعض الاخر التعليمات العسكرية في السفن الكبيرة الحربية وطائفة ثالثة ايضاً الى بلاد النمسا لتتعلم حركات الجيوش البرّية ويتمرنوا على التعليمات العسكرية النمساوية وكان انتخبهم جميعاً من ٥ الايات عساكر نظامية جديدة ابتدأ في تعليمها واعدها لابطال عساكر الاستريلج الذي كان اشبه في عساكر اليكجرية في بلاد الدولة العلية العثمانية وجعلها تحت ادارة رجل يقال لوفورت من اهل ايطاليا كان استامنهُ هذا القيصر لجودة عقلهِ ووفرة ذكائهِ بل نزل هو نفسهُ عن كرسيهِ وذهب الى البلاد الغربية ليشتغل في معاملها مثل احاد الشغالين المستاجرين متخفيًا حتى لا يعرفهُ احد ولا يتميز من الصناعية لاجل ان يتعلم مبادي العلوم والفنون والصنائع ويدخلها الى بلادهِ فذهب الى مملكة الدانيمارك واقليم برندبرغ وبلاد الفلمنك ومدينة ويانه ومدينة البندقية ومدينة رومية ولم يعزم على الذهاب الى اسبانيا لان ما كان يطلبهُ اذ ذاك من الفنون كان مهملاً فيها ولا الى فرانسا لان الفنون التي كانت بها وتنشأ كانت موسسة على الاتساع والزينة وكان سلوك ملكها لويس الرابع عشر منافيًا الى سلوكهِ وكان بينهُ وبينهُ منافاة حيث انهُ لم يقم بحقوق السفارة التي كان ارسلها اليهِ الجار المذكور في سنة ١٦٨٧ م على ما تقدم كما ينبغي

ثم بعد ان سافر من بلادهِ في سنة ١٦٩٨ م دخل الى بلاد الفلمنك ولما وصل الى امستردام سكن في بيتٍ صغير انتخبهُ لنفسهِ في الترسانة (وهي المحل الذي يبنون فيهِ المراكب على شاطي البحر) وسلك في معيشتهِ مسلك الشغالين واصلح بنفسهِ صاري مركب مكسور واشتغل معهم في ورش الحديد والحبال والطواحين الكثيرة التي كانت محيطة بقرية سردام وهي معدة لنشر الاخشاب ولعصر الزيت وصناعة الورق وعمل السلوك من المعادن المتطرقة وتلبد في

دفتر الترسانه مع جملة الشغاله مسميًا ذاته بطرس ميخائيل وكانوا يدعونه بالاوسته بطرس وتعلم عدّة فنون في قرية سردام المذكورة كالاستحكامات والملاحة ورسم المناظر وتخطيط البلاد وكان يدخل دكاكين الشغالين ويبحث في جميع المعامل والورش من غير ان يفوته شيء ثم تعلم فن التشريح في امستردام وعمل بها عمليات جراحية متلمذًا الى رجل يقال له رويش وكان من مشاهير علماء هذا الفن وكان يتعلم الجغرافيا وعلم الطبيعة والمواليد الثلاثة في منزل برغمسترروستان وهو رجل مشهور بين الاهالي ثم ذهب الى بلاد الانكليز قاصدًا روية غليوم ملكها بمعية لوفورت المارّ ذكرهُ وكان ارسالهُ اليهِ سفيرًا فشاهد بطرس كيفية دخول السفراء الى الديوان ورسوم تلقيهم وما يصنع لهم من التشريفات والاحتفالات وكيفية معاملة الملك اياهم ورجع الى امستردام وعاد الى ما كان عليهِ من الاشغال وتمم سفينةً ذات ٦٠ مدفعًا وكان اتقن في انكلترة فنّ مدّ السفن لانهم كانوا يمدونها على مقتضى القياسات الهندسية وشرع هناك في مدّ سفينةٍ على منوال سفن الانكليز فجاءت من اعظم السفن السريعة السير وتعلّم قواعد صناعة الساعات واصولها لانها كانت قد تكاملت بمدينة لوندرة ولم يترك شيئًا من الصنائع البحرية عظيمها وحقيرها من سبك المدافع الى فتل الحبال الاّ باشرهُ بيدهِ وكان في اثناء اشتغالهِ في امستردام يدخل في خدمتهِ الهاربين من الفرنساوية والسويسة والنمساوية وارسل الى موسكا قصبة مملكتهِ كثيرًا من ارباب الصنائع المختلفة الذين كان يعاين شغلهم بنفسهِ وقلّما فاتهُ شيء من دقائق الصنائع والحرف الاّ تجرفيهِ وكان يشتغل بجميع الاشياء لاسيما اصلاح خارطات علماء الجغرافية الذين كانوا يرسمون اوضاع مدن دولتهِ وانهارها بمجرد الحدس والتخمين لانها لم تكن معروفةً لهم وقتئذٍ حق المعرفة وادخل كذلك في خدمتهِ ارباب صنائع وحرف من بلاد الانكليز وخاصةً ارباب العلوم الرياضية ومنهم المهندس الماهر فرغسون الايقوسي الذي رتب العمليات الحسابية ودواوين المالية في بلاد الروسيا وكانوا قبل ذلك لايعرفون

في هذا المحلي الآ طريقة التتار وهي العدّ بحبوب مستديرة ينظمونها في سلك من النحاس وهي وان كانت تسدّ مسدّ الكتابة الّا انها تشوش الذهن وتوقع في الحيرة وربما تطرّق اليها الخطا لان بعد العدّ بها لايمكن للانسان ان يعلم هل اخطأً في عدّه ام لا وكان الفرنساوية تعلموا من العرب الرقوم الهندية في القرن التاسع واما دولة روسيا فلم تتعلمها الّا بعد نحو ٨٠٠ سنة . وكان بطرس الاكبر يرصد الكواكب ويحسب كسوف الشمس والقمر مع فرغسون الذي مرّ ذكرهُ ويعرف حق المعرفة حركات الاجرام السماوية وقوانين تثاقلها وتجاذبها وسيرها واحدث رصدًا عظيمًا للعلوم الفلكية بعد رجوعهِ الى بلادهِ وقد كانت هذه القوانين والنواميس التي بها تتقارب النجوم السيارة وتتجاذب وتبقى على تناسبها في افلاكها مجهولة قبل ظهور المعلم نيوطون الآتي ذكرهُ فما خرجت من حيز الجهالة والخفاء الى حيز الظهور واليقين الّا وصارت من المألوفات لهذا القيصر مع ان البعض ممّن يدعي العلم في وطن غلليلي كان لازال يامر العامّة باعتقاد ان الارض ثابتة . ولما كان في بلاد الانكليز دفع لهُ بعض تجارها ١٥ الف ليرا استرلين ليعطي لهم رخصةً ببيع الدخان في بلادهِ فرخص لهم في ذلك مع ان الاكليروس الروسي كان يحرّم ادخالهُ ولما اراد الرجوع منها الى امستردام اهدى لهُ غليوم ملك الانكليز هدية تليق بمقام المهدي والمهدى اليهِ وهي سفينة ذات ٢٥ مدفعًا من اعظم السيارات البحرية فجميع اهل هذه السفينة عرضوا للملك ان ياذن لهم في الذهاب الى بلاد المسكوب وكانت هذه السفينة محكمة الصناعة ظريفة الشكل فركبها القيصر وعاد الى بلاد الفلمنك في شهر ايار سنة ١٦٩٨ م واخذ معهُ ٣ من قباطين السفن الحربية و٢٥ من روساء السفن و٤٠ صابطًا من الملازمين و٣٠ جراحًا و٢٥٠ من الطوبجية واكثر من ٣٠٠ نفر من ارباب الحرف والصنائع وكان في مدة اقامتهِ بهذه البلاد ونقلهِ العلوم والفنون منها الى بلادهِ دخل في خدمتهِ كثيرون من ارباب الصنائع من مدينة رومية ومملكة ايطاليا بواسطة الضباط الذين كان ارسلهم

الى تلك الجهة فجميع هولاء الرجال الماهرين في صنائعهم بعد ان وصلوا الى بلاد روسيا توزعوا الى محال لزومهم ثم سار القيصر الى بلاد النمسا ووصل الى مدينة ويانه مع من بقي من اتباعهِ وكان مرادهُ مشاهدة ما عند النمساوية من الضبط والربط العسكريين لانهُ كما كان غرضهُ من الاسفار تعلُّم العلوم والفنون كان مرامهُ ايضاً معرفة الامور السياسية وتقابل مع ليوبولد وامبراطور النمسا لا بزي الملوك بل كالاحاد فتحادثا قائمين اجتناباً للتكليف وبمدة اقامتهِ هناك لم يشاهد بها من الامور الغريبة والالعاب العجيبة الاَّ الموسم المسمَّى موسم المضيف والمضيفة اي صاحب المنزل وصاحبة المنزل وهو موسم قديم يقع عندهم من نوع التياترو الاَّ انهُ لم يقع في ايام ليوبولد وفجددهُ تعظيماً لبطرس

وبينما كان هذا القيصر متاهباً للسفر الى بلاد البندقية ليتمم التعلم واذ بلغهُ وقوع فتنةٍ في بلادهِ اضطربت منها ممالكهُ كان السبب فيها بعض امراء البلاد الطاعنين في السنّ الذين كانوا لا يميلون الاَّ الى العوائد القديمة وبعض القسوس الذين كانوا يعدُّون العوائد الجديدة من قبيل الكفر والالحاد فهاجت بذلك عساكر الاسترليج الذين كانوا منتشرين في بعض الاقاليم متعصبين لاختهِ الاميرة صوفيا وقصدوا مدينة موسكا بقصد اجلاسها على كرسي المملكة ومنع بطرس من الرجوع الى بلادهِ حيث تجاسر على هتك حرمة العوائد القديمة بذهابهِ الى البلاد الاجنبية ليتعلم علومها فسافر حينئذٍ القيصر سرًّا من ويانه في شهر ايلول سنة ١٦٩٨ م ودخل مدينة موسكا وكانت عساكرهُ الجديدة التي سبقت الاشارة اليها قد طردت قبل دخولهِ اليها عساكر الاسترليج الهاجمة عليها وهزمتها بعيداً عنها بنحو ١٠ فرسخاً فتعجب جميع اهلها من وجودهِ بين اظهرهم وكافا العساكر الذين كانت لهم النصرة على الاسترليج وعاقب هولاء العصاة بقدر جسامة ذنوبهم عقاباً مهولاً واقام اعمدة من الحجر بقرب الدير الذي كانت مقيمة فيهِ الاميرة صوفيا ونقش عليها جناياتهم وعقوباتهم وبدد شمل من كان معهم بمدينة موسكا من اولادهم ونسائهم فانتشروا ببلاد سيبيريا ومملكة

ازدرهان وازاق وترتب على معاقبتهم ونفيهم لتلك الجهات انتفاع الدولة بتعمير الاراضي الخالية من الاهل والعمران وبعد ان دمر هذا الوجاق رتب الايات العساكر المنتظمة شبيهة في الهيئة بالعساكر النمساوية حيث البسهم جميعًا ملابس قصيرة على نسق واحد بدلاً عن الملابس الطويلة التي كانوا يلبسونها قبل ذلك ورتب لهم طرق تعليم الحركات العسكرية وجعلها في غاية الاحكام والانتظام وادخل فيها اولاد امراء دولته وحكمداريتها واخذ بعد ذلك في تنظيم المشورة الملكية والخزائن المالية وتحرير القوانين الدينية وشرع في ما يكون به نظام الاهالي ويكسبهم التمدن والتأنس والتربية وشوهدت اول مرة السفن المسكوبية بالبحر الاسود وبحر بلطق والمحيط ونظرت ابنية مرتفعة عظيمة الترتيب شُيّدت بين الاخصاص المسكوبية قد ترتب فيها مدارس ومجامع علماء ومطابع وخزانات كتب وبستانًا جامعًا مشتملاً على جميع النباتات للدراسة عليها وصارت المدن متمدنة وحسنة وتغيرت الملابس والعوائد على التدريج وان كان ذلك بصعوبة وعرف المسكوبيون مع التقدم حقيقة التأنس وبطلت الاوهام الفاسدة ثم تقلد بنفسه رياسة الدين وابطل الرتبة البطريركية مع انه لو فعل ذلك غير هذا الملك ممن كان اقل تصرفًا منه لكان يخشى عليه لان البطاركة كانوا ينازعون بعض الاحيان الحكومة ويريدون ان يكون بايديهم ما هو مختص بالتاج الملوكي من الحلّ والربط وكان الاساقفة يزعمون ان لهم حق السيف اعني حق الحكم في الحدود والجنايات فمنعهم هذا القيصر في اخر القرن السابع عشر منذ توفي البطريرك ادريانوس وابطل هذا المنصب اي رتبة البطريركية على ما ذكرنا وضبط عائداته للجانب الميري ورتب مجمعًا من الاساقفة لاجل اجراء ما رتبه من القوانين الاكليروسية واملاها عليهم وامر انه من الآن فصاعدًا لا يدخل احد ديرًا لاجل الترهب الا اذا بلغ عمرهُ ٥٠ سنة ثم عدل عن ذلك الى سن ٣٠ سنة وان لا يقبل في الدبورة من كان مستخدمًا في الخدم الميرية ولو بلغ من العمر ما بلغ وان كل راهب يجب ان يباشر بنفسه عملاً من

الاعمال الصناعية وان الراهبات لا يسوغ لهنّ الخروج من الديورة اصلاً ولا يترهبن الاّ في سن ٥٠ سنة واذا طلبن الزواج قبل ذلك اجبن اليه وامرهن ان يشتغلن جميعاً باشغال يدية تناسبهن والتزمت زوجته كاترينا ان تحضر لهنّ من بلاد الفلمنك نساء صناعية لاجل تعليمهن ولما حضرن وزعتهن على تلك الديورة وبعد ذلك بقليل تزينت هذه القيصرة المشار اليها وغيرها من خواتين دائرتها باشياء ما صنع في تلك الديورة وكان من جملة ما ترتب ايضاً ان اقوياهنّ يتعينّ لخدمة البساتين ولخدمة المرضى من النساء والبنات اللاتي يؤتى بهن الى الديورة من المحلات المجاورة لها كما ان العساكر السقط يوزعون على الاديار ويعين لهم من الرهبان من يتعهدهم ويقوم بخدمتهم وان الاقويا من الرهبان يزرعون اراضي الديورة ثم عين عدّة من ديورة الرهبان والراهبات لدخول الايتام وتربيتهم فيها ومنع ايضاً ان يشرك احد من الخوارنة اكثر من واحد من اولاده في خدمة الكنيسة خوفاً من ان كثرة عائلته تجحف باهل محلته ما لم يطلب ذلك اهل المحلة انفسهم لكن في بعض النشرات المطبوعة في سنة ١٨٦٩ ذكر بان هذا الجار جعل الكهنوت وراثةً حتى صار كل اولاد الخوارنه خوارنة وبهذه الواسطة كثر عدد الكهنة حتى صار اعظم اشغال الاساقفة الاعتناء باحتياجات اجواق الاكيروس وصارت اوقاف الكنائس متجهة الى اعالة عيالهم ولهذا السبب لم يعُد يدخل في زمرة القسوس احد من ارباب العلياء الاّ نادرًا فلذلك امر الحكم في هذه السنة اي ١٨٦٩ المذكورة بابطال وراثة وظيفة الكهنوت من الاب الى الابن وان لا يرتسم خوري الاّ بعد بلوغه سنّ ٣٠ وبهذه الواسطة قلّ عدد الاكليروس وزادت معاشاتهم

وكان القيصر المذكور قد رتب لطغمة الاكليروس امورًا نافعة اكثر ممّا سلبه منها جعلها بواسطة ذلك الترتيب على غايةٍ من الانتظام والمهارة والمعارف حيث انشأ في مدينة موسكا ٣ مدارس لتعليم اللغات والزم كل من كان معدًّا للقسوسيّة ان يتعلّم فيها وامران يتعلم في الديورة الباقية ايضاً الفلسفة وعلم

اللاهوت(1) وانما رخّص لروساء السفن والجيوش بترك الصيامات

وكان لكمال عقله وجودة قريحتهِ قد تباعد عن اوهام اهل بلادهِ وبدعهم واخلاقهم واحكامهم اذ انهُ بعد ان كان لا يوجد في اقطار مملكتهِ الواسعة التي كان يبلغ امتدادها في عصرهِ نحو ٣٠٠٠ فرسخ كنيسة لاتينيّة اباح التعبد في بلادهِ بالمذهب اللاتيني والبروتستانتي وسمح لكلِّ انسان ان يعبد الله عزّ وجلّ على ما تطمئن اليهِ نفسهُ ويختارهُ لها من تلك المذاهب بشرط ان يؤدّي ما يجب عليهِ للدولة حقّ التأدية لكن لما اراد الرهبان اليسوعيون المداخلة في دولتهِ صدرت اوامرهُ بطردهم من بلادهِ في سنة ١٧١٨ بعد ان كانوا استوطنوا فيها من سنة ١٦٨٥ م

(انكلترة) اما انكلترة فانها كانت في هذا القرن ذات يدٍ طولى في العلوم الرياضية والحكمية والكلامية وافتخرت بسموّ درجة علمائها ولا سيما فلاسفتها العظام الذين منهم فرنسيسكو باكوس السيد فيرولم ايولون الذي اسّس الفلسفة الجديدة ورفع منارها بما وضعهُ لها من القواعد الراسخة الصحيحة على ما سبقت الاشارة اليهِ عند الكلام على امتيازات هذا القرن في ما تقدم . فليراجع. قال العلاّمة خير الدين باشا التونسي في كتابهِ المسمى باقوم المسالك قد صحّت تسمية تاليف هذا الفيلسوف بحالة العلوم الجديدة حيث ان فنّ الطبيعيات قد صار بما اخترعهُ من القواعد كما ينبغي ان يكون

ومنهم المعلم اسحق نيوطون المعاند القوي للفلسفة الكارتسيانيّة على ما سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على الافاضل الذين قدموا الفلسفة التعليمية في هذا القرن وقاوموا الكفار الذين ظهروا فيهِ ولد هذا الفيلسوف في انكلترة سنة ١٦٤٢

(1) يقول بعض الكتبة في ايامنا هذه ان اكثر الترتيبات المختصة بالديورة لم تستمر بل نُسِخَتْ بعد القيصر بطرس الاكبر المشار اليهِ وانما بقي منها ابطال رتبة البطريركية واستيلاء الدولة على ايراداتها

ورغب في الفلسفة وبرع فيها وألّف تاليفاً كبيراً اشتهر بهِ اشتهاراً انسى ذكر من تقدمهُ اذ انهُ احدث في الفلسفة تغييراً غريباً وبرهن على انهُ يجب الترقي الى معرفة العلل من المعلولات والمفعولات الطبيعية وانهُ لا يجوز للفيلسوف على وجه الاطلاق ان يعيّن العلة ما لم يقدر ان يبرهن عن حقيقتها اما بالبرهان العقلي واما بالاختبار الحسّي ومن ثم سقطت تخيلات كارته سيوس المذكور بالكلية اذ قبل ذلك جميع العلماء الافاضل كما قبلوا تعاليم فرنشيسكو باكوس المتقدّم ذكرهُ ولهذا الفيلسوف اثرجايل سوف يذكر في الكلام على الاكتشافات العلمية

واشتهر كذلك من الذين برعوا في علم الفلك والهيئة بينهم المعلم هالي الذي شرح خواص الهوا واسرار مدّ البحر وجزره واسرار المغناطيس وحركات النجوم ذوات الاذناب وارتكب المشاق والاخطار في طلب العلم من نوازح الاقطار حتى بلغ جزيرة سانته الينه في البحر المحيط ورسم على صخورها خريطة نجم القسم الجنوبي من الهيئة وبذلك ارتفع شان رصد غرنيتش في انكلترة

ومنهم فلامستيد الذي بيّن ملاحظات عديدة في علم الفلك تلقاها اربابهُ بالقبول

وممن برعوا كذلك في الطب وابقوا لهم ذكراً جميلاً بما اكتشفوهُ من الاثار الجميلة التي سوف نذكرها في محلها المعلم وليم هارفي الفيلسوف والمعلم بريستلي والمعلم ساوري

وظهر من شعراء الانكليز البارعين درايدن وبوب ومن كتّاب الانشاء الماهرين ادسون

ولعلّ البعض من الافاضل المذكورين اوامثالهم كانوا اعضاء في تلك الجمعية العلمية التي رتبها الملك كرلوس الثاني الذي تولى المملكة في سنة ١٦٦٠ كما فعل لويس الرابع عشر ملك فرانسا ايضاً لاجل البحث في النواميس الطبيعية وتقوية جميع العلوم المثقفة للعقل البشري على ما سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على امتيازات هذا القرن

(المانيا) وبينما كانت انكلترة تفتخر بعلمائها المذكورين افتخرت كذلك المانيا بكوتوفيردوس غوليلموس ليبنيسيوس العالم الشهير المولود في له يبسيا سنة ١٦٤٦ وكان من المتقدمين في علم التاريخ والطبيعيات ولاسيَّما الرياضيات والفلسفة وهو ايضاً طرح جملة مبادي من الفلسفة السكولاستيكية واصلح في كثيرٍ من قواعدها واوضح بذلك ما كان مغلقاً عليهِ من تلك الصور المختلطة وميّزهُ جليًا وازال ما كان فيها من الالفاظ اللاغيّة التي لا معنى لها واستعان على ذلك بالاسلوب الهندسي وواضح ما اخترعهُ من هذه القواعد في مولفاتهِ التي منها كتابة المسمّى ثاودكسيا ومولّف اخر في الطبيعيات الجديدة التي اثار بها هذه الفلسفة وخاصةً في ما يتعلّق بالمنطق الآلة قد سمح في القياسات المجردة باكثر من اللازم ولذلك لم يخلُ من السقوط في اراء مخالفة للقياس وفاسدة (راجع الفصل السابع من المقالة الاولى من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف)

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

(النظارات) وكان في القرن السابع عشر المذكور قد شُرع في اختراع النظارات الفلكيّة وهي على نوعين الاول يسمونهُ التيلوسكوب وهو الذي تُنظر بهِ الاجسام التي في غاية البعد والثاني هو النظارة المعظمة التي بها يظهر للناس ما خُفي عن ابصارهم حتى انهُ في نقطةٍ واحدة من الماء يرون الوفاً من النباتات والحيوانات الدقيقة وغيرها ويسمونها الميكروسكوب

فالنوع الاول الذي هو التيلوسكوب هو على انواعٍ ايضاً واول نوعٍ منهُ اخترعهُ رجل يقال لهُ غريغوري وقيل يوحنا ليبرسهي من مدينة ميدلبورغ في هولاندا وكان ذلك في سنة ١٥٩٢ وقيل في سنة ١٦٠٨ ثم شرع في اتقانهِ

واستعمالهِ غاليلي الذي مرّ ذكرهُ وبواسطتهِ اطّلع على كواكب غير معهودة ومن جملتها ٤ اقمار او توابع للمشتري وكان ذلك في سنة ١٦١٠ وبعدهُ ايضًا اتقنهُ حق الاتقان رجل يقال لهُ هيفوليوس ثم زاد في اتقانهِ رجل اخر يقال لهُ رويبرهوك واخيرًا هرشل الفلكي الانكليزي الشهير الذي جعل طول نظارتهِ ١٨ ذراعًا وقطرها نحو ذراعين واكتشف بها اورانوس احد الكواكب السيارة في سنة ١٧٨١ واما نظارة الامير هوراس فكان طولها ٢٢ ذراعًا وقطرها ٣ اذرع وهي اكبر نظارات العالم استطاع ان ينظر بها في القمر الجسم الذي يكون قياسهُ ١٥٠ ذراعًا على كل جانب وكشف بها اكثر من ٢٠٠ مليون من النجوم حالة كونهِ لا يُرى منها بمجرد النظر اكثر من ٥ الاف نجمة

واما النوع الثاني المسمى بالميكروسكوب فقد اخترعهُ رجل يقال لهُ زخريا جانسن وقيل بل هو كرنيليوس دربيل وكلاهما من هولاندا ايضًا وسماهُ بعضهم مسّيوس ولم يذكر بلدهُ وكان ذلك في سنة ١٦٠٨ وقيل بل في سنة ١٦٢٤ وكانت آلتهُ هذه تكبّر الشيء ١٦٠ مرةً زيادة على مقدار جرمهِ ثم تهذبت حتى صارت تكبّر من ٣٠٠٠ — ٢٠٠٠ مرة ثم في سنة ١٧٤٠ ابتدأ المعلم سيللخ بتوقيع الزجاجات الاكروماتية على هذه الالة وهي نفس السنة عينها التي فيها اخترع المعلم ليبركهن في برلين عاصمة بروسيا الميكروسكوب الشمسي وسُمّي بذلك لان استنارة الجسم المراد رؤيتهُ فيهِ لا تكون الا بضوء الشمس الذاتي لا الذي في الظلّ

وفي سنة ١٦٧٤ اخترع المعلم شارل الميغاسكوب اي نظارة الاجسام التي يُراد رسمها وهي نظارة مهيئة لتحصيل صور الاجسام القليلة الامتداد

(الثيرمومتر) وكان دربيل المارّ ذكرهُ هنا قد اصطنع ايضًا ميزان الحرارة المسمى بلغتهم تيرموميتر وذلك في سنة ١٦٢٨ ثم صنع بعدهُ ايضًا ريور اورييور الدانياركي تيرموميترهُ بفرانسا كما صنع فهرنهيت تيرموميترهُ في ازلانده

(الكهربائية) وهناك رجل اخر من هولاندا ايضًا يقال لهُ اوثون دغريقه

او اوتود يغريك اصطنع في سنة ١٦٥٠ اوّل آلةٍ كهربائيّةٍ ميّز بواسطتها دوفاي الطبيعي الفرنساوي الكهربائيّة المذكورة الى نوعين زجاجية وراتنجية ولمّا كانت هذه الكهربائيّة توجد في بعض الاجسام مفرطة وفي بعضها قليلة سموا الاولى موجبة والثانية سالبة

(طلمبة الهوا) ثم اخترع اوتود يغريك المذكور ايضاً الآلة المفرغة للهوا اصطنعها في مغدبرج من بلاد بروسيا في سنة ١٦٥٤ وتسمى بلغتهم انبوماتيقية يعني طلمبة الهوا ثم اتقن هذه الآلة پاپين الطبيب الفرنساوي وسوف ياتي ذكرهُ اتقاناً زائداً بحيث لم يحصل بعدهُ في تركيبها الاّ تغيير قليل

(ساعات البندول) وكان غلليلي الايطالياني الذي يقال لهُ جاليلو ايضاً وقد مرّ ذكرهُ اخترع البندول فجعله المعلم هوجينس احد المشتغلين في العلم الطبيعي والميخانيكي مقياساً للزمان وصنع بهِ اوّل ساعةٍ منتظمة السير وكان ذلك في سنة ١٦٥٦ وبعد ذلك بيسير وصلت الساعات الى درجةٍ عالية من الاتقان مع ان الفكر في اتقانها كان قبل ذلك بزمن طويل

(البارومېتر) وغلليلي المذكور وتلميذهُ ترويشلّي هما اوّل من عرف وزن الهوا وان طلوع الماء في الطلونبة مسبب عن ضغط الهوا لسطح الماء وان نهاية صعودهِ ٣٢ قدماً حيث ان هوّة عمود الهوا النازل على سطح الماء لا تتجاوز القدر المذكور فلا ينجذب اليها الماء الى اكثر من ذلك وهو يعادل ايضاً عموداً من الزيبق ارتفاعهُ ٢٨ قيراطاً فكان ذلك اساساً لوضع البارومېتر اعني الآلة التي بها يُعرف ثقل الهوا على حسب حالة الجوّ ومن ذلك الوقت اخذت العلوم الطبيعية في التقدم والنجاح واشتغل ديوان علماء فيرينسا عاصمة بلاد التوسكانا الذي كان اسسهُ ليوبولدو الدوك الاعظم في سنة ١١٤٦ بعلم السماع وخواص الضو والحرارة وما يحصل في الانابيب الشعرية وقبول الماء للانضغاط ونحو سنة ١٦٥٠ اظهر ريمير الذي مرّ ذكرهُ سرعة سير الضوء واوضح ماريوط في فرانسا الفرق الحاصل بين سرعة سير الاجسام حال سقوطها على حسب مقاومة

الهوا وحجم الجسم وفي سنة ١٦٥٥ عُملت زجاجة يُعلم منها حصول المطر وفي سنة ١٦٧٥ عُملت زجاجة اخرى جلابة للضوء وفي سنة ١٦٨٣ تكلّم رجل يقال لهُ كسيني على الضياء المنطيقي وفي سنة ١٦٨٧ عُملت مرائي الحريق

(المساحة) وكانت عُملت طاولة المساحة في سنة ١٦٢٠ فادخل بعد ذلك ديكارت الفيلسوف الفرنساوي وقد مرّ ذكرهُ مرارًا قواعد الجبر في فنّ المساحة المذكورة ايضًا

(دورة الدمّ) ولما تحقق المعلم وليم هارفي الفيلسوف الانكليزي حركة دوران الدم في الاجسام اشهرها في سنة ١٦٢٨ قيل عنهُ انهُ افتكر بها من سنة ١٥٩٨ لكنهُ كتمها الى ان رددها في فكرهِ ٣٠ سنةً ووثق بها غاية الوثوق

(الاوكسيجين) ثم بعد ذلك اكتشف المعلم بريستلي الطبيب الانكليزي ايضًا الاوكسيجين وذلك في سنة ١٦٧٤

(المغناطيس الصناعي) واخترع المعلم ساوري الطبيب الانكليزي المغناطيس الصناعي في سنة ١٦٩٠

(الجاذبة والدافعة) ولما رأى المعلم اسحق نيوطون الفيلسوف الانكليزي الشهير وقد مرّ ذكرهُ وهو جالس ذات يوم بالقرب من شجرة تفاح سقوط تفاحةٍ من تلك الشجرة كان ذلك كافيًا لهُ في اظهار القوة الجاذبة اعني الناموس الضابط لانتظام العالم باسرهِ واضاف الى ذلك القوة الدافعة وهي قوة مضادّة للاولى ليحصل التعادل وكان ذلك نحو اواخر هذا القرن

(البخار) ولما عرف بابين الطبيب الفرنساوي الذي مرّ ذكرهُ ايضًا قوة البخار وادرك منافعهُ شرع بعمل الآلات البخارية في سنة ١٦٩٠

(الصنائع) اخترع دولاب تسهيلاً لضرب العملة في سنة ١٦١٧ م واكتشف تاجر يهودي من مدينة ليون يقال لهُ اوكتا فيومي طريقةً لصقل المنسوجات الحريرية في سنة ١٦٦٣ وأُدخلت صناعة الشيت والمادام من الهند الى اوروبا في سنة ١٦٧٦ وعُملت الغمن للمراكب في سنة ١٦٩٠

القرن الثامن عشر

يمتاز هذا القرن بالاكتشافات النافعة العظيمة اذ ان القواعد الاساسية التي وضعها في القرن الماضي العلاّمة باكوس الانكليزي واقتدى بها المدققون من الفلاسفة على ما سبقت الاشارة اليهِ قد انارت العقول واحكمتها في جميع ابحاث العلوم الطبيعية التي ازهرت في هذا القرن

(الفلسفة) وقد كان الكفر قلّ في اوروبا حتى ان شيعة ناكري الالوهية تكاد بان لا توجد في معظم هذا القرن اما شيعة ناكري الوحي او الذين يقذفون في حق جميع الاديان الكتابية فقد وقع فيها الشقاق والانقسام الى احزابٍ متنوعة لان مورالت الذي الف الكتاب الفرنساوي الحديث الفصيح وسمّاهُ جوهر الدين قد زعم فيهِ بان كل الدين ينحصر في ثلاث قضايا وهي

(١) وجود الله

(٢) هذا الاله معتنٍ بالبشر

(٣) خلود النفس وان غاية المسيح في مجيئهِ تقرير هذه الحقائق بسيرتهِ وتعاليمهِ وكذلك الحرّية المطلقة التي يتمتع بها الانكليز في طبع افكارهم ونشرها بدون حاجز وفي عبادة الله حسبما يستحسن كلّ احدٍ من الناس قد انتجت انقساماتٍ ومنازعاتٍ دينية مستمرّة لايمكن لاحدٍ ان يستوفي تفاصيلها بدون ان يسكن في انكلترة ويعاشر اصحاب تلك الآراء ونظيرهُ ايضًا اطلاق عمومية حرّية الفحص للعقل البشري في فرانسا قد عمّ كل الامور فيها كالدين والسياسة والفلسفة المحضة والهيئة الاجتماعية والطبيعة الادبية والمادية وصار ذلك موضوعًا للدرس والشك ومحالاً للراى الى ان افسد مبادى العلم القديمة وعوض عنها

بمبادي علوم جديدة فعاد ظلام الكفر وغشى مصابيح انوار الدين في فرانسا وانصبّت انكلترة الى التغافل عنهُ وجرمانيا الى التخيلات العقليّة ومن ثم امتدت الآراء الكفرية بواسطة مولفات ولتير وروسو بين علماء اوروبا الى ان اشرفت ممالكها على ثورةٍ عامة تهدد الدين والسياسة بالخراب العمومي كما يتضح ذلك مما يأتي

استدراجات امكانية

(اوستريا) في النصف الثاني من هذا القرن قد تعاقب على تخت مملكة النمسا امبراطوران وهما يوسف الثاني الذي تولى سنة ١٧٦٥ وبعدهُ اخوهُ ليوبولد والذي جلس عوضهُ سنة ١٧٩٠ وكانا كلاهما من ارباب العقول الثاقبة قال بعض المولفين انهما لم يسبقا بمثلها في هذه الامبراطورية الواسعة حيث لم يتركا شيئًا عرفا منفعتهُ لاهالي المملكة الّا وادخلاهُ اليها حتى انهما ساحا في البلاد زمانًا طويلاً لهذه الغاية وكانت امهما ماريا تريزا شرعت في عمل قانون لعتق الفلاحين من ظلم الامراء وتعديهم لكنها ماتت قبل ان اكملتهُ فتممهُ ولدها الامبراطور يوسف المشار اليهِ ولا زال يتتبع هذا الامر تدريجًا الى ان رفع مظالمهم عن الفلاحين بالكلية وامر الحاكم بان ترى الدعاوي على وجه الحق والمساواة بدون فرق بين الكبير والصغير والغني والفقير وانشأ في بلادهِ المستشفيات للمرضى والمدارس للتعليم وكان يهتمّ خاصةً بتعليم اولاد الفقرا ومن جملة ذلك مدرسة باويه التي لا يوجد لها نظير في سائر ممالك اوروبا وقد اشتهرت مدّة حياتهِ اشتهارًا عظيمًا لكونهِ شحنها بافاضل العلماء البارعين في كل انواع العلوم والفنون ورتب لهم المعاشات الوافية ليكفيهم مأونة الاهتمام لذواتهم فيتفرغوا الى التعليم كما رتب ايضًا يوميات الى البارعين في فن الزراعة ومهّد كذلك الطرق

الى الاساكل البحرية والمدن البرية لتسهيل نقل البضائع التجارية ورفع الكمارك الداخلية وابطلها وكان يكرم العلماء الايطاليانيين اكراماً لم يُسبَق لهم نظيرهُ في التواريخ حتى انهُ ارسل وزيرهُ الكونت ديغرميان وكيلاً من طرفهِ الى بلاد ايطاليا ليقوم مقامهُ في رعاية علمائها واحترامهم وملاطفة اهاليها وترفيه احوالهم مع تهيئة الاسباب الموجبة لعمار البلاد وراحة العباد وبنى بعض ديورةٍ وكنائس واطلق الحرية الدينية للاهالي الغير كاثوليكيين وامر اساقفة بلادهِ بان لا يخضعوا لامرٍ ما يأتي اليهم من طرف البابا ما لم يتناولوهُ من ايادي حكام البلاد وكان قد سعى قبلهُ اسلافهُ في هذا الامر بدون طائل وكانت جرت العادة منذ القديم بان قسوس الرعية في بلاد النمسا تكون خاضعةً راساً لاوامر الاحبار الرومانيين فابطل هذه العادة لضررها وامر بان يكونوا خاضعين الى نفس اساقفتهم الموجودين داخل المملكة فقط وابطل الديورة المختصة في الراهبات ولم يبقِ منها الاَّ ما كان مُعدًّا لتهذيب البنات وتربيتهن ورتب ايرادات الكنائس والديورة وما يلزم من المعاشات الى القسوس بوجه المساواة بحيث لا يكون بينهم غني وفقير وامر بانفاذ ذلك جميعهِ حتماً الى ان اضطر البابا ان يحضر بذاتهِ الى مدينة ديانا ويخاطب الامبراطور المشار اليهِ شفاهاً ليمنعهُ بفصاحتهِ وبراعتهِ وحرمة مقامهِ عن هذه الامور المضادّة لقواعدهِ والضارّة بمزايا وظيفتهِ لكنّهُ عاد الى رومية راجعاً بدون ادنى فائدة

(ايطاليا) لاريب في ان المناقشات والمحاورات الدينية التي جرت بين اهالي اقسام ايطاليا في اواخر هذا القرن قد مهدت سبيلاً موافقاً الى مستقبلهم الذي حصلوا عليهِ في القرن التالي بواسطة اتحاد كلمتهم الى ان صاروا جميعاً مملكةً واحدة كرسيها هو نفس مدينة رومية وانتظموا بذلك في سلك الممالك العظيمة لانهُ في نفس السنة التي جلس فيها الامبراطور يوسف الثاني المشار اليهِ في ما مرّ على تخت الامبراطورية النمساوية ارتقى كذلك الامير ليوبولد وعلى تخت اقليم التوسكانا وقد اطنب بعض مورخي ايطاليا في مدح هذا الامير الى ان

فضلوهُ على افاضل الفلاسفة السالفين من ارباب السياسة حيث قالوا نعم ان اصول الاحكام التي كان رتبها سولون الفيلسوف في بلادهِ كانت حرّة الا انها لم تكن خاليةً من الاختلال وهكذا الحرية التي كان أسسها ليكورغه الفيلسوف فانها كانت ثقيلة كما ان رومولوس الملك ما افاد اهالي بلادهِ شيئًا غير جعلهِ اياهم كلهم حربيين لكن ليوبولد والمشار اليهِ قد ساس بلادهُ كلها مع الامن والراحة ولم يكن ينظر لما فيهِ منفعتهُ الخصوصية بل لما فيهِ النفع لرعاياهُ الذين مع كونهِ اطلق لهم العنان قد اصلح القوانين القديمة التي كانت جاريةً في بلادهِ خاليةً من العدل والانصاف لكونها مبنيةً على التمييز وعدم التساوي بين الناس في المواد الحقوقية وناقصةً في كل احوالها حتى ان فقراء الاهالي كانوا يتركون حقوقهم كيلا يدخلوا تلك المحاكم التي اذا أُصيب احدهم بمصيبةِ الدخول اليها كان لابد له من بيع املاكهِ ليصرفها في المحاكمة واخيرًا يخرج منها بدون الحصول على شيءٍ من حقهِ وكانت القوانين السياسية شديدة للغاية ايضًا وحرفة الزراعة مهملة بدون ادنى التفات وامور التجارة بغاية الاختلال ولم يكن احد آمنًا على امواله واملاكهِ ولذلك كانت الاهالي بحالةٍ يرثى اليها من الفاقة وتراكم الديون وخاصةً من التكاليف الاميرية الخارجة عن طوق الاحتمال فاعتنى هذا الامير بازالة هذه الامور جميعها وكان اول ما شرع بهِ انهُ عزل الحكام المشهورين بعدم الاستقامة ونصب عوضهم رجالاً من اهل العدل والانصاف ورفع كذلك عن الاهالي سلطة الظالمين الذين كانوا يجورون عليهم بتوزيع الاموال والضرائب وسمح للمديونين بالديون التي كانت تطلبها منهم الخزينة وباع الاراضي الاميرية الكائنة في الجبال واملاكهُ هو ذاتهُ وما كان اعطاهُ صداقًا لزوجتهِ ووفى بما تحصل من اثمان ذلك جميعهُ الديون التي كانت تطلبها الناس من الدوائر الميرية ثم بعد ان تمَّ مشروعهُ هذا انشأ محكمةً عادلة لرؤية الدعاوي بوجه المساواة بين الامير والحقير والغني والفقير واحترم النفوس الناطقة بحيث لا يُسفك دم احدٍ مهما كان مرتكبًا من الجرائم ولو كان قاتلاً

وابدل ذلك بالاعمال الشاقة في السجن المؤبد ما دام ذلك القاتل حيًا والغى القصاص بضبط الاملاك ومصادرة الاموال وابطل اليمين الذي جرت العادة بان تحلفهُ وجوه البلاد على الطاعة وعدم الخيانة عند جلوس الملوك في اوروبا على كراسي ممالكها وامر بان تحفظ المبالغ التي تؤخذ خرج اقلام او جزاء نقديًا من كلٍّ من ارباب الجرائم بقدر ذنبهِ في صندوقٍ مخصوص لتصرف حين الحاجة على الايتام واولاد الفقرا ومن يلتجي الى الدولة من الضعفاء والمحتاجين وامر رجلين من ذوي المعارف يقال لاحدهما وروناجيني وللاخر جانِّي وكانا من المتبحرين في القوانين بان يرتبوا قوانين صالحة للقضايا المذكورة فقاما بما امرهما بهِ مع الدقة التامة وعند ذلك جرت الاحكام على الوجه الذي رغب فيهِ هذا الامير من العدل والانصاف وتبدَّل ما كان بين الاهالي والحكام من الوحشة بالاستئناس وراجت امور التجارة والزراعة وامر الفلاحين اصحاب الاراضي بان يحوطوا مزارعهم بحواجز تناسبها لاجل حفظ محصولاتهم وابطل تلزيم الاعشار وغيرها كالدخان والعرق والحديد لتحققهِ ما يفعلهُ الملتزمون من الاضرار ورخَّص للناس باخراج المعادن والغى الرسم الذي كان يؤخذ على بعض امورٍ تتعلق بالبيع والشراء وخفَّفَ اثمان الاوراق الصحيَّة وغير ذلك من الامور التي كان يُظنّ بان ابطالها يوجب نقصًا كبيرًا في واردات الخزينة لكنها جاءت بعكس ذلك اذ ان الفوائد التي نجمت من عمار البلاد ورواج التجارة وكثرة المحاصيل قد سدَّت ذلك النقص ولاسيما منذ ابطل هذا الامير الكمارك الداخلية واهتم بتمهيد الطرق وفتح الترع وتعمير الاساكل ومحلات الكورنتينا ورخص للناس في التعبد بأَيّ مذهبٍ اختاروهُ زادت محصولات الحرير واشغالهُ حيث صار ما يرد منهُ من الخارج لايتكلف لازيد ما يتكلفهُ الحرير الناتج في نفس البلاد الى ان بلغ ما ورد منهُ في سنة ١٧٨٣م ٢٠٠ الف رطل بعد ان كان الوارد منهُ في سنة ١٧٨٠ ١٦٣١٧٨ رطلاً وكثرت الزراعة حتى لم يبقَ في اقاليمهِ ارض موات وفتح منافذ الى البحيرات والرامات التي كانت تجمع فيها

مياه السهول والامطار وبنى على بعضها القناطر والجسور ولاسيما بجيرة مارمة سانبي التي يبلغ طولها ٧٠ ميلاً وعرضها من ٥—٨ اميال فانهُ امر امهر المهندسين وهم كيمنس وفروني وفانطوني بتنشيفها وعمل جسور بينها وبين نهري اومبرونه وبرونه اللذين كانا يصبان وقت فيضانهما فيها وحيث كان يعلم بان الاماكن القليلة السكان متى كثرت سكانها يتحسّن هواءها امر بان كل من يرحل من بلادهِ ويسكن في اقليم بارمه يُعطى لهُ ربع ثمن ومصاريف البيت الذي يعمرهُ لسكنهِ وتعطى لهُ الاراضي والمزارع التي يريدها بارخص ثمنٍ واذا احتاج الى الاستقراض تقرضهُ خزينة الدولة ولمّا اعلن ذلك الى الاهالي كثرت السكان بهذه الواسطة في الاقليم المذكور وعمرت اراضيهِ بالكروم والحدائق والبساتين والمزارع فصلح مناخهُ ثم صرف بعد ذلك جلّ اهتمامهِ على انشاء المستشفيات للمرضى والمدارس للتعليم واتقانها بحيث اكتسبت مدارس مدينتي بيسا وسنيا شهرةً بالغة بما وضعهُ لها من النظامات وبنى قصوراً جديدة وشيّدها واصلح ما كان منها عتيقًا وزينهُ واصلح الطرق العامة وخاصةً ما كان للمتنزهات وزاد في خزائن الكتب واعتنى بتقديم الطب وغرس بساتين نباتات مقابل المستشفيات بحسب العوائد الجارية في اوروبا وزرع فيها من جميع انواع النباتات وبالجملة والتفصيل قد عمل اعمالاً خارجة عن طوق البشر ثم نشر اعلانًا في سنة ١٧٨٩ بيّن فيهِ للاهالي مقدار ايرادات اقليم التوسكانا ومصاريفهُ وما سمح بتنزيلهِ من المرتبات الميرية وماصرفهُ مع الادارة التامة على اصلاحات بلادهِ الداخلية ومع ذلك لم يهمل الاعتناء بتجديد بعض كنائس وديورة للعبادة مع اصلاح بعض الامور الكنائسية ايضًا اذ انهُ اولاً ابطل ما كانت تعطيهِ قسوس بلادهِ من العوائد الى القسوس الاجانب ثانيًا امر القسوس الذين لهم مداخيل وليس لهم كنائس ان يعاونوا قسوس الرعية في القيام بواجبات وظيفتهم الدينية ثالثًا امر بان تُعال القسوس المرضى والعاجزون من ايرادات اوقاف الكنائس رابعًا حوّل ايرادات ما كان لا لزوم لهُ من الديورة الموجودة داخل

المدن وخارجها الى الكنائس لكونها اكثر لزوماً للشعب منها خامساً احدث بدل رهبان تلك الديورة الملغاة الجمعية المُعبَّر عنها بلغتهم قومبانيه د بقرينا وهي جمعية مولفة من ارباب الصنائع للقيام باعالة الذين يرضون او تصادفهم بلية من فقراء المملكة العاجزين عن التعيش لذواتهم سادساً امر القسوس المفوضين بخدمة الرعية بان يكونوا خاضعين رأساً الى اساقفة ابرشياتهم سابعاً منع دخول احد من الذكور في الرهبنة ما لم يبلغ سنّ ١٨ سنة وان لا يرتسم قسيساً الاّ بعد ان يبلغ سن ٢٤ سنة وكذلك النساء لا يدخلن الرهبنة الاّ متى بلغن سنّ ٢٠ ولا يرتسمن الاّ بعد ان يبلغن سنّ ٣٠ ايضاً ثامناً ابطل المحكمة المسماة سانت اوفيجيو وامثالها من الامور الغير اللائقة تاسعاً امر بان يجتمع القسوس الموجودون في بلاده ويعقدون مجمعاً مرةً في كل سنتين للنظر في ما يحدث من الامور المضادة لاداب الدين والسعي في منعهِ ... وكان اجراء هذه الاصلاحات الكنائسية التي احدثها هذا الامير في بلادهِ بموازرة ريجي رئيس اساقفة التوسكانا لان هذا الاسقف كان مخالفاً في بعض ارائهِ لاراء الاحبار الرومانيين فاستقبلها الاهالي بكل ترحابٍ لكونهم كانوا قد أَلِفُوا مطالعة كتب ارنولد ونيقول ودوكنت وغورلن وكزنل فتجرأ حينئذٍ الاسقف ريجي المذكور بان اضاف الى هذه التعاليم عتق الاساقفة من نير السلطة الرومانية وانهم لا يحتاجون في تنفيذ ما يرتأونه من القضايا المذهبية الى اجازةٍ من البابا وات لكونهم مساوين لهم في السلطة الروحية وابطل عقيدة المطهر واتخاذ اكثر من محرابٍ واحد في الكنائس والصلوات باللغة اللاتينية واوجب بان تكون باللغة الدارجة المفهومة وان تتلى بصوتٍ مسموع وانكر استحقاقات القديسين واستحسن الاربع قضايا التي كان صرّح بها مجمع الاساقفة المجتمع في باريس سنة ١٦٨٢ بشان تحديد سلطان البابا وات ومزاياهم وان احكام المجامع تعلو على احكامهم وحيث ان ذلك جميعهُ هو من القضايا المُضادّة لمعتقدات رومية نشر البابا اعلاناً يخالف هذه التعاليم الجديدة اجتهد فيهِ كل الجهد بابطالها فلم يُلتفت الى اعلانهِ هذا في

ذلك الوقت ولم يحصل على مرغوبهِ الاَّ بعد مدةٍ ولذلك شاعت بسرعةٍ في باقي اقاليم ايطاليا واوجبت اضطراباتٍ وقلاقل ليست بقليلة بين الاهالي وشرع علماء الدين في تآليفٍ يضادّ بها بعضهم بعضًا بشأنها ولكن لما كان اكثرهم من حزب رنجي المارّ ذكرهُ فتغلبت اراؤهم على اراء المتعصبين للباباوات

ومن ثم شُرع في نابولي ايضًا بتأليف مذهب يقرب من مذهب رنجي لان اهاليها كانوا راغبين وقتئذٍ في التملص من صرامة السلطة الباباوية وكانت ملوكهم مساعدةً لهم في ذلك ايضًا وكان للملك فرديننذ الرابع الذي تولى المملكة بدل ابيهِ الذي صار وقتئذٍ ملكًا على اسبانيا في سنة ١٧٥٠ مستشار من الافاضل يقال لهُ تانوجي فشرع باشارتهِ بعمل قانون ابطل بهِ سطوة الامراء ورفع مظالمهم وتعدياتهم عن الاهالي وصان بهِ الاموال الاميرية التي كانوا يخصصونها لذواتهم من رسوم الكمارك والاعشار وابطل الضرائب التي كانوا ياخذونها باسم اجرة قدم واذ في ذلك الوقت نفسهِ ظهرت ايضًا مولفات الفيلسوف فلانجيري وانكبت الناس على مطالعتها مع الرغبة الزائدة فكان ذلك سببًا في تقوية المذهب التوسكاني المارّ ذكرهُ وتاسيسهِ في بلاد نابولي والتفات علمائها الى اصلاح تلك القوانين المختلطة التي كانت عندهم ماخوذةً عن النورمانديين واللونبارديين وعمّا كان ترتب في ايام ملوكهم السالفين والاجانب الذين حكموهم من ملوك اراغون واسبانيا والنمسا وكان يستحيل احقاق الحقوق بواسطتها فلما توجه ملك نابولي المشار اليهِ الى اقليم لونبارديا بقصد الفرجة على المفترجات الكائنة في صحاري بارمه ولودي ورجع الى بلادهِ وامر بانشاء نظيرها في سانلوشيو طلب عند ذلك الاهالي منهُ بان يصلح لهم القوانين التي هي اهمّ مّما عداها فاجاب طلبهم وامر بتنظيم قوانين للزراعة جعل بها اهالي هذه الحرفة تحت حمايتهِ الخصوصية فلا يتسلط عليهم احد غيرهُ ثم لمّا راى بان قوتهُ تضاعفت وزادت عما كانت عليهِ بواسطة هذه الحماية امال بسمعهِ واصغى الى نصائح عقلاء رجال الدولة وابطل محكمة النونسباتور وهي محكمة تكون عند

سفير البابا الموجود في عاصمة ايّة مملكةٍ كانت لترفع اليها الدعاوي المختلطة اعني التي تقع بين القسوس وغيرهم من احاد الناس بحيث لا تسمع في المحاكم البلدية وكذلك الغى سلطة الباباوات على اكليروس بلاده وجعل تفويض الاسافقة الذين ينتخبون عوضاً عمّن يتوفون منوطاً بالملوك لاحاجةً الى الترخيص لهم من طرف الباباوات المذكورين وامر بان الخراج الذي جرت العادة بتقديمه عن يد معتمد مخصوص من طرف ملوك نابولي الى الباباوات في كل سنةٍ يوم عيد ماري بطرس وهو ذهب واحد قيمتهُ خمس ريالات لا يسمّى بعد الان خراجًا ولكن صدقةً وان تبطل عادة حضور المعتمد المخصوص من طرف الباباوات لاجل وضع التاج على راس الملك حين جلوسهِ على التخت وان تُقلّل مهما امكن طغمة الرهبان الشحاذين وابطل الرهبنة اليسوعية راساً وباع جانباً من اواني الكنائس واملاكها وجهز بهِ عمارةً بحرية ولذلك قام النزاع على قدمٍ وساق بين البابا وبينهُ واخذ كثيرون من المولفين في تأليفاتٍ ينتصرون بها الى الملك حتى ان وزيرهُ كارلوس دي ماركو اهتمّ بان يلغي سلطة الباباوات بالكلية ومن ثم صارت مملكة نابولي مثل قسمي التوسكانا ولومبارديا محلاً للمناكفات والمخاصمات مع كرسي رومية

وامتدت هذه الحالة الى اقليمي بارمه وبياجنسا حيث اقتفتا اثار خطوات نابولي بالتمام ورتبتا لها قانونًا مطابقًا لقانونها ثم جمع دوتليو وزير الدون فيليب الذي كان يحكم الاقليمين المذكورين وقتئذٍ افاضل علماء ايطاليا وكان من جملتهم قونتيني المشهور بالمعارف الدينية واخر من اذكياء القسوس يقال لهُ توركي كان من مضادي الباباوات (لكنهُ لما صار اخيرًا بابا كفّ عن ذلك) وزين هذا الوزير بهم بلادهُ حتى صار لا يوجد نظير العلماء الموجودين فيها في باقي اقاليم ايطاليا بل ولا في غيرها واحضر من رومية رجلاً يقال لهُ باشا ودي ليرتب لهُ المدارس فاحسن ترتيبها وانشأ عدة كتبخانات ولم يكتفِ بكثرة العلماء المذكورين بل جلب اليها من المدرسين ايضًا ونيني ودروسي وبوروني

وفوندليق ومليوث وبازول وعينهم للتدريس فيها ثم اهتم الملك المشار اليهِ ايضاً بانشاء الورش والمعامل اللازمة الى ارباب الصنائع وتسوية الطرق والمتنزهات وهكذا تمَّ كل اعمالهِ بواسطة وزيرهِ دوتليو المارّ ذكرهُ مع الراحة والسكون الى ان توفي وتولى عوضهُ الدون فرديننند وكان صغير السنّ فتأمل البابا برجوع سلطتهِ على هذه البلاد لكن لما كان الوزير الموما اليهِ لا زال باقياً في وظيفتهِ وامتنع من اعطاء العوائد والخراج المرتب عليها الى البابا فحرم البابا هذا الاقليم ومن ثم اعترض كثيرون من المولفين على هذا الحرم ومن جملتهم قونتيني المارّ ذكرهُ فانهُ الّف كتاباً مخصوصاً في هذا المعنى سمّاهُ حافظ اقليم بارمه من حرم البابا ولذلك حنق على الوزير المذكور كثيرون من اهل الاكليروس المتعصبين الى البابوية وانتظروا الى ان بلغ هذا الدوق سنّ ١٨ سنة وقبض على زمام الحكومة بنفسهِ فاستمالوهُ بمداخلاتهم الى ان عزلهُ من وزارتهِ بل انهُ هو ذاتهُ صار نظير واحدٍ منهم لا يفرق عن الاكليريكيين في ملازمة الكنائس والقيام بفروض العبادة والترتيل مع المصلين حتى ان اكثر اشغالهُ كان يتممها وهو في الكنيسة

اما بلاد الكنيسة فكان البابا فيها وقتئذٍ بيوس السادس الذي جلس على الكرسي في سنة ١٧٧٥ وكان ذا طالعٍ سعيد بخلاف سالفهِ اكليمندوس الرابع عشر الذي كان صار بابا في سنة ١٧٦٩ وهو من احاد الرهبان وفقرائهم عاش كل ايام حياتهِ كما كان يتعيش في زمان رهبنتهِ ولا يميل الى شيء من الفخفخة والعظمة ولذلك انتخبت جمعية الكردينالية البابا بيوس المشار اليهِ بعد وفاتهِ لكونهِ كان من امرائهم واسمهُ براسكي وهو مغاير في كل صفاتهِ الى البابا اكليمندوس المارّ ذكرهُ بالتمام بحب الابهة والافتخار فصيحاً بليغاً بشوشاً جميل الصورة غير انهُ كان حادّ الطبع يتكدر من ادنى شيء يقع على غير رضاه ويسعى كل السعي في ما يأول الى اتساع سلطة الكنيسة وفي ايامهِ ارتأى مجمع الكردينالية وباقي امراء الكنيسة برأي احدهم المسمّى اورسيني على ان يعقد ملوك اقاليم ايطاليا

وحكامها اتفاقاً تاماً مع بعضهم ويكون هذا البابا رئيساً على هذا الاتفاق غير ان اورسيني المذكور كان من ارباب المعارف ولاحظ اخيراً بدقة عقلهِ بان الاوقات الحاضرة لا تساعدهُ على هذا المشروع فعدل عنهُ لما يوجب الشهرة والافتخار والسخا فاقنع البابا بان يسعى قبل ذلك في تنشيف الغدير المسمَّى بونتنا وكان طولهُ نحو ٢٧ ميلاً وعرضهُ من ٥–١٠ اميال فامر المهندس بيواريني بهذا المشروع وصرف على ذلك اموالاً غزيرة ومع انهُ لم يتم لهُ ما قصد بالتمام فقد نشَّفت منهُ محلاتٍ كثيرة صارت قابلة للزراعة وحسن مناخها وفتح فيها عدَّة طرق لابناء السبيل وانشا كنيسةً صغيرة ظريفة للغاية بالقرب من كنيسة ماري بطرس غير انهُ لما كانت هذه الكنيسة على غير رضى الشيوخ لكونهِ هدم هيكلاً عتيقاً للزهرة من اثار الرومانيين وعمرها في محلهِ سعى في ان يستميلهم ويرضيهم بانشاء حجرةٍ داخلها للاثار القديمة وجمع فيها من ذلك مقداراً عظيماً جدًّا وسمَّى هذه الحجرة بيوقليمنتينو وامر اودديقومري وانيوكوويريني وويسقونتي بان ينظموا صفوف هذه الاثار في محلات تناسبها من هذه الحجرة ويحرروا على كل قطعةٍ منها هذه من اثار كرم بيوس السادس وحاصل الامر انهُ زاد في تزيين مدينة رومية وتحسينها حتى صارت تقصدها الملوك الاجانب للفرجة ورؤية ما فيها من التحف الغريبة

واما اقليم ساردينيا الذي فاز اخيراً بضم جميع اقسام ايطاليا تحت سلطة ملكهِ فيكطور عمانوئيل كما ياتي الكلام على ذلك في القرن التالي قد كان في اثناء هذه المقالات والاختلافات المذهبية الثائرة في سائر اقاليم ايطاليا خالياً من الاضطرابات واهاليهِ على غاية ما يكون من السكون والراحة وكانت ملوكهُ قادرة على تنفيذ احكامها كما تريد مع اللطف والليونة وعلى قيادة عساكرها بنفسها حسب العادة القديمة ونظراً الى لطف احكامها وكثرة قواها العسكرية وادواتها الحربية كان لا يمكن لاحدٍ من الاجانب ان يطمع في التسلط على كرسي مملكتها ومع ذلك ما خلا الامر من شروع البعض من هولاء الملوك ببعض اصلاحاتٍ مهمَّة فان ويكطورا اميدي الثاني الذي تولى سنة ١٦٧٥م كان اخذ

له كان بطرس يجلب منها رعاةً واغنامًا ليجزّ اصوافها ويصنع منها الجوخ الجيّد وانشا انوالاً للاقمشة ومعامل للورق وامر باحضار الحدادين وصانعي السلك الاصفر والقوندقجية والسباكين واشتغل باستخراج معادن سيبيريا

وبعد ان اخذ هذا الامبراطور في تجديد القوانين وتحسين الامور الملكية والعسكرية عمل عرسًا لاحد مضحكيهِ دعا اليهِ جميع امراء دولتهِ رجالاً ونساء واجرى هذا العرس على مقتضى العوائد والاوهام القديمة ليبين فيهِ شناعتها فحضر المدعوون اليهِ بالملابس القديمة ووضعت لهم الموائد على منوال ما كان جاريًا في القرن السادس عشر ولم توقد مدة ذلك العرس نار حسبما كانت العادة عندهم ولو في زمن شدّة البرد وشربوا فيهِ شراب العسل والعرقي لانهم كانوا لا يشربون النبيذ ايضًا فتشكوا اليهِ من هذا الامر فاجابهم متهكمًا اليس هكذا كانت تفعل اسلافكم

واحدث دار طباعة جعل حروفها مسكوبية ولاتينية جلب آلاتها من بلاد الفلمنك وكان اول ما طبع فيها بعض كتب ترجمت الى اللغة المسكوبية تشتمل على اداب وفنون وجدد المعلم فرغسون الذي مرّ ذكرهُ مدارس لتعليم العلوم الهندسية والفلكية والبحرية

وجدد القيصر المشار اليهِ مرستانًا كبيرًا يشتغل فيهِ العاجزون من الشيوخ والشبان بحيث لا يخلو من مكث بهِ عن العمل لئلاً يعتاد على الكسل والبطالة

ولما ظفر بفتح قلعة نيانتزاوينا بالقرب من بحيرة لادوغا كان برتبة ملازم اول في الخمبره جيه وترقى الى رتبة بوزباشي تحت رياسة رئيس عساكرهِ المسمى شرمتوف فكافاه قبودان باشي بنيشان افتخار لقبهُ بهِ بلقب شوالية ماري اندراوس

ثم بعد استيلائهِ على القلعة المذكورة عزم على بناء مدينتهِ المسماة بطرسبرغ على مصب نهر نوى الذي على خليج فنلندة فوضع اساس هذه المدينة في فضاء تلك الارض السبخة التي لا تتصل بالبرّ الاّ من طريقٍ واحدة واحضر من مدينة

موسكا وازدرهان وقزان واوقرينه ارباب حرف وصنائع ليشتغلوا فيها فلم يمض من تاسيسها ٥ اشهر الا وحضر اليها سفن فلمنكية بقصد التجارة وبنى بالقرب منها مدينة اكرنستادت على فم نهر نوى المذكور وهي المينا الاصلية التي الان بها عمارات السفائن المسكوبية وتم صب المدافع وانشأ سفن الامارة البحرية وتم اصلاح الطرق الكبيرة وتحسينها وجدد سفنًا اخرى وحفر خلجانًا وتم ايضًا جمع التجارة والمخازن واخذت تجارة بطرسبرغ تتقوى وتتسع ومن ثم امر بنقل مشورة السنت من مدينة موسكا اليها فانتقلت في شهر نيسان سنة ١٧١٣م وصارت هذه المدينة الجديدة تخت مملكة روسيا بعد ان جلب اليها ١٣ الف عائلة تسكنها ثم احدث من الرتب التشريفية رتبة القديسة كاترينا تعظيمًا لزوجته كاترينا ونال هو نفسهُ رتبة قبودان باشي ثاني مكافاةً لهُ على ما ابداهُ من الخدامات لوطنهِ

ثم شرع بتنظيمات جديدة بحرية وترتيبات عسكرية وتجارية وقوانين سياسية واصول مربوطة مرعية والف بنفسهِ قوانين عسكرية تخص العساكر المشاة وفي سنة ١٧١٥م اسس بمدينة بطرسبرغ اكدمة بحرية اي جمعية علماء بحرية وكان في مملكتهِ مهندسون يرسمون الخارطات في سائر اجزاء الدولة

وبعد ان تم ذلك عزم على رحلةٍ ثانية الى بلاد اوروبا ولكن ليست كالاولى التي كانت رحلة متعلم للفنون بل رحلة ملك يبحث عن اسرار جميع الدواوين ليعرفها حق المعرفة فاستصحب معهُ زوجتهُ كاترينا ولا زال ينتقل من مدينةٍ الى اخرى الى ان وصل الى فرانسا وقوبل فيها بما يليق من الرسوم التشريفية اللائقة بمقامهِ ولما رجع الى روسيا جاء معهُ بعدَّةٍ من الفرنساويين اصحاب الحرف والصنائع كما اتى بمثل ذلك من انكلترة لان جميع الممالك التي كان يسافر اليها كانت ترى انها تتشرف باعانتهِ على تنجيز غرضهِ من نقل جميع الفنون الى وطنهِ الجديد ومساعدتهِ على الابداع والاحداث وبعد وصولهِ اليها طبع قانون الجهادية الذي قننهُ بنفسهِ ورتب مجلس حقانية لينظر سلوك مدبري دواوينهِ

ويلاحظ احوالهم ولينظم امور المالية

وفي سنة ١٧١٨م حرم هذا الملك ابنهُ البكري الكسيس من ولاية العهد وحق وراثة الملك وحكم عليهِ بالقتل بموجب قرار المجالس وافتاء القسوس الذين عينهم لمحاكمتهِ للاسباب التي ذُكرت في ما سبق فاصاب هذا الامير السيّئ الحظ داء التشنج عندما تليت عليهِ صورة هذا الحكم لشدّة ما اعتراهُ من الخوف والوجل واظهر الندم بحضرة ابيهِ الذي كانت دموعهُ تذرف على خدّيهِ عندما شاهدهُ وهو في تلك الحالة المحزنة واظهر لهُ الصفح والعفو الذي كان يلتمسهُ منهُ ثم مات في اليوم الثاني وحينئذٍ ظهر للناس ان بطرس ليس الاَّ ابا وطنهِ وانهُ كان يعتبر رعاياهُ مثل عائلتهِ لكونهِ لم يكلّ ولم يفتر عن جلب المنافع لهم لاسيَّما لَمَّا رأوهُ جدّد في هذهِ السنة عينها ايضًا من الفنون والصنائع على اختلاف انواعها والمعامل والورش ما لم يروهُ قبلاً واحدث في دولتهِ فروعًا من التجارة التي اخذت في الرواج وحفر خلجانًا وصلت بين الانهار والبحار واوقعت الوصلة والمخالطة بين الاهالي بعد ان كانوا منفصلين بمقتضى اوضاع بلادهم وجعل للدولة اميرًا كبيرًا ضابطًا عليها في ما يخص الضبطية الداخلية وعين اقامتهُ بمدينة بطرسبرغ رئيسًا على محكمةٍ مامورة ببقاء الانتظام والضبط والربط بدولة المسكوب من اولها الى اخرها ومنع مع التشديد استعمال الزينة في الملابس وكذا لعب القمار الذي هو اشدّ خطرًا من الزينة وانجز تاسيس مدارس حساب بجميع مدن الدولة كان قد امر باحداثها في سنة ١٧١٦م وكذا المرستانات المخصصة للايتام واللقطة وعتق جميع المدن الكبيرة من الجمّ الغفير الذي كان فيها من الشحاذين المبغوضين الذين لا يريدون ان يتخذوا لهم صنعةً اخرى بل يرغبون في المعيشة على طرف غيرهم وجبر الاغنياء على بناء بيوت منتظمة في مدينة بطرسبرغ وسهّل عليهم ذلك بكونهِ امر ان تنقل مهمات البنا اليها بدون اجرة بواسطة السفن والعربات التي كانت تعود قبل ذلك الى المدينة المذكورة فارغة من الاقاليم المجاورة اليها وعيّن مقادير الاوزان والمقاييس والمكاييل

وجعلها منتظمة مستوية في جميع الاماكن وسعّر اثمان البضائع اللازمة للاكل ورتب بمدينة بطرسبرغ القوانيس التي كان لويس الرابع عشر اول من اخترعها لمدينة باريس فصارت تنير حاراتها مدة الليل ورتب كذلك فيها الطلمبات لاطفاء الحريق وشيّد ابواب المدينة وامر بتبليط اسواقها ومسالكها مع المتانة وجميع الاشياء التي تخص الامن والنظافة والانتظام والضبط وتسهيل التجارة الداخلية والمزايا للاجانب والاغراب والقوانين التي تمنع ارباب هذه المزايا من تجاوز الحدود كلّ ذلك حصل بمدينة موسكا ومدينة بطرسبرغ على نسقٍ جديد حديث وحسّن معامل الاسلحة تحسينًا زائدًا وكان يلاحظها بنفسهِ كما انهُ يذهب بذاتهِ لاجل ان يامر جميع متعهدي طواحين الحبوب والسحق ونشر الاخشاب ونظار معامل الحبال والقلوع ودقّ الطوب وحجر الأردواز ونظار انوال الاقمشة بما يلزم. واحدث مجلس تجارة جعل نصف اعضائهِ من اهل دولتهِ والنصف الاخر من الاغراب

ومن ثم احدث احد الفرنساوية بمدينة بطرسبرغ معمل المرائي واحدث فرنساوي اخر شغل السجادات والبسط القائمة السداء حسبما يشتغل بورشة غوبلان الشهيرة بباريس لكن لما احدث فرنساوي ثالث معملاً لشغل القصب المتخذ من الذهب والفضة امر القيصر ان لا يشتغل بهذا المعمل في السنة الا ٤ آلاف مرك (والمرك مقدار من الذهب او الفضة يساوي ٨ اواق يعني ٦٤ درهمًا وذلك لئلاَّ تنقص الفضة او الذهب من ممالكهِ واعطى ايضًا ١٥٠ الف فرنك وجميع الادوات والآلات اللازمة للذين شرعوا في احداث انوال الجوخ وغيرهِ من اقمشة الصوف فترتب على ذلك انهُ صار يمكنهُ ان يلبّس عساكرهُ من الجوخ المصنوع في بلادهِ وخلاصة الامر انهُ صار يصطنع في بلاد المسكوب اقمشة نفيسة تضاهي اقمشة بلاد الفلمنك وعند وفاة هذا القيصر وجد في مدينتي موسكا وحارسلان ١٤ معملاً من معامل التيل والكتان ونجحت صناعة اقمشة الحرير وضاهت ما يصنع بمدينة اصفهان من بلاد العجم وكانت معادن الحديد

تستخرج استخراجًا جيدًا ولما حصل استكشاف بعض معادن الذهب والفضة احدث هذا القيصر مجلسًا مخصوصًا ليتذاكر باثبات وتحقيق ما يستخرج منها هل يفيض عن المصاريف اللازمة لاخراجهِ ام لا

وبنى في السنة المذكورة مدينةً جديدةً سماها لادوغا الجديدة وعين جماعةً من المهندسين الذين كانوا بمدرستهِ البحرية التي احدثها في سنة ١٧١٥م ليسيروا بجميع اقاليم دولتهِ ويرسموا خرطاتها مع الضبط والصحة لكي يطّلع سائر الناس على اراضي بلادهِ المتسعة التي اكسبها بجهدهِ واتعابهِ التربية والرفاهية والغنى والثروة

ثم ابطل هذا القيصر المجلس الذي كانت اعضاؤُهُ من زمرة البويارد اعني الاشراف تفصل فيهِ الحكومات وتحكم فيها الحكم الاخير الذي لا ينقض وكان لا يدخل في زمرة اربابهِ الاَّ من كان لهُ درجة اعتبار بكونهِ صاحب حسب ونسب بدون التفات الى العلم والمعرفة وضم الى الوكيل العمومي الذي نصبهُ في المملكة ٤ نواب في كل حكومة من الحكومات الاربع التي بدولتهِ وناطهم بملاحظة سلوك القضاة الذين هم فرع من فروع مشورة السنت التي احدثها وكان بيد كل من هولاء القضاة نسخة من كتاب الشرائع والقوانين ومنع القضاة من اخذ المحصول على الدعاوي وكل من اخذ شيئًا من ذلك كان عقابهُ الموت واهتم بجعل مصاريف الدعاوي هينة جدًّا وباجراء العدل على وجه السرعة ورتب للقضاة والكتاب معاشات من خزينة الدولة ومنعهم بذلك من شراء مناصبهم وكان تكميلهُ مجموع قوانينهِ الذي رتبهُ وصار العمل بموجبهِ في سنة ١٧٢٢م فكان من جملة ما فيهِ ان كل عسكري ارتقى الى رتبة ضابط ينتظم في سلك ارباب الشرف وكل بويار ارتكب ما اوجبت بسببهِ القوانين ترذيلهُ يصير بذلك من رعاع الناس وعامتهم

واخيرًا تممت الامبراطورة اليصابات ابنة هذا القيصر مجموع الاصول والقوانين المذكورة الذي ابتداهُ ابوها من قبلها وسرى لطف حكومتها اليهِ

ايضاً اذ ازالت منهُ وصمة الثقل والتشديد حيث اخذت على نفسها عهداً وميثاقاً بانهُ لا يُعاقب احد بالموت في مدة حكمها ووفت بذلك فهي اوّل ملكة احترمت النفوس البشرية وحقنت دماها فكان كل من اقترف ذنباً عظيماً يحكم عليهِ بالشغل في المعادن ونحوها من الاشغال الشاقة ولا يخفى ما في ذلك من الزجر للناس الاشرار بتوارد هذه الاشغال عليهم كل يوم بخلاف الموت الذي فيهِ راحة لهم

اما ابوها الامبراطور بطرس المشار اليهِ فبقي متمادياً في الاشغال التي كان ابتداها بملكهِ ورتب بمدينة بطرسبرغ جمعية علوم على انموذج ما في باريس ولوندرة وصرف كثيراً من الاموال لاجل جلب العلماء والحكماء الذين منهم دليله وبولفنجير والهرمان والبرنولية وولف المشهور الماهر في انواع الفلسفة ولا زالت هذه الجمعية موجودةً حتى الآن واهلها هم فلاسفة المسكوبيين فزهت بها الفنون وازهرت في كل جهةٍ من بلادهِ وقويت الصنائع وصارت مرغوبة وزادت القوة البحرية وكذا الاعتناء بشان الجيوش ولوحظت القوانين والشرايع فكان يمتنع مع العدو والصلح بخبارهِ الى ان توفي في اليوم الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٧٢٥م

ومن غريب ما اتفق ولم يسبق بمثلهِ انهُ جلس بعد هذا الامبراطور على تخت السلطنة المسكوبية ٤ نساء على التوالي حافظنَ على العمل في جميع ما ابدعهُ وكمّلنَ وحسّنَّ جميع ما شرع في فعلهِ وهنَّ زوجتهُ كاترينا الاولى التي تولت التخت بعد وفاتهِ وابنة اخيهِ حنه ارملة دوك قورلانديا التي استولت على المملكة بعد وفاة بطرس الثاني بن الكسيس في سنة ١٧٣٠م واليصابات ابنتهُ من كاترينا المذكورة التي جلست امبراطورة في سنة ١٧٤٠م وكاترينا الثانية زوجة بطرس الثالث التي خلعت زوجها وتملكت في سنة ١٧٦٢م

وفي ايام كاترينا الثانية المذكورة زهت العلوم وانبعث ببلاد روسيا فقد قال كستر الذي كان سفيراً لدولة فرانسا في بطرسبرغ والف كتاباً في تاريخ

هذه الامبراطورة بالغة الفرنساوية ثم ترجم الى اللغة التركية ما معناهُ وكانت كاترينا فضلاً عمّا هي عليهِ من فرط الجمال وحسن الطباع والخصال متزينة بحلى الذكاء والفراسة ذات عقل وافر وعلم متكاثر نشأت في جوار مجمع ارباب معارف وعلوم مثل دار مملكة الفيلسوف الشهير فريدريك الاكبر ملك بروسيا وكانت تتكلم بعدّة لغات بحيث تقدر تفيد عن مقاصدها بكل سهولةٍ الى ان قال في موضعٍ اخر من كتابهِ وكانت تعلم بان تفوّق الشعوب والملل الموجودة في اقطار الربع المسكون على بعضهم بعض لايحصل من مجرد الارجحية في الحروب بل ان وسائل الشهرة القوية هي المهارة في العلوم والفنون ولذلك انتخبت جماعة من ارباب المعارف وارسلتهم الى الجهات الجديدة بالاعتناء من بلادها ليحرروا اوضاعها ومواقعها الجغرافية بكل ضبطٍ وتدقيق ويختبروا طبيعة اقاليمها ويعرفوا انواع محاصيلها وامزجة سكانها واخلاق اهاليها ويحرروا ذلك على وجه الصحة وبذلت مساعيها ايضاً في تحسين احوال المدارس القديمة التي كانت موجودة من زمن اسلافها وجددت مدارس ومكاتب ومرستانات اخرى وغير ذلك من الامور النافعة في كل المحلات ووضعت رأس مالٍ معلوم المقدار مخصصاً لمعاش اشخاصٍ عينتهم لترجمة الكتب اللازمة التي اعتنت بجلبها من جميع اللغات الى اللسان المسكوبي وعفت عما كانت احدثتهُ من الضائع على رسوم معامل الحديد والنحاس وانوال الاقمشة المستعملة في المعامل الكبيرة وعند افراد الناس والغت ايضاً الرسومات القديمة التي كانت توخذ على الجلد المدبوغ ومعامل الشمع والزيت المستخرج من الزيتون واذنت المحاكم الموجودة في جميع بلادها ان تعطي اعلامات في فصل الحكومات كيلا تتحمل اصحاب الدعاوي مشقة السفر من المحلات البعيدة لاجل روية دعاويها في بطرسبرغ او موسكا ولكنها وضعت قانوناً ايضاً بانهُ اذا كان احد الخصمين لايقبل ما حكمت بهِ هذه المحاكم فلهُ حق ان يرفع دعواهُ الى بطرسبرغ او موسكا لاجل الاستئناف بشرط ان توخذ جريمة بقدرٍ معلوم من المتمرد وجعلت ذلك

ذيلاً للقوانين القديمة وسجلتهُ في قيود مجلس السنت بمدينة موسكا

وكانت طائفة التجار في هذه المملكة تنقسم الى خمس اقسام باعتبار راسمالاتها اولها من كان راس مالهِ لا اقل من ١٠٠ الف روبله والثاني من كان راسمالهُ ٥٠ الفًا والثالث ٢٠ الفًا والرابع ١٠ الاف والخامس هم اصحاب ٥٠٠ روبلة فقط وكان كل واحد من اصحاب هذه الاقسام يدفع الى خزينة الدولة قدرًا معلومًا مرتبًا في كل سنةٍ بحسب راسمالهِ فارادت الامبراطورة المذكورة ان تضاعف رغبة الاهالي في التجارة وتزيد في تقوية هذه الصناعة التي كانت تصرف ذهنها على ايجاد الوسائل والوسائط الموجبة لنموها وتكثيرها فامرت بان التجار يكونون معافين من الجزية ومن الخدمة العسكرية وان كلَّ من اراد من الاهالي ما لم يكن من زمرة العبيد ان يكتب نفسهُ في ايّ قسمٍ ارادهُ من هذه الاقسام المذكورة بشرط ان يعطي عن راسمالهِ (١) في المئة فلهُ ذلك وبناء على هذا النظام صار كل من الاهالي يتقدَّم الى الاكتتاب في المرتبة التي يختارها ويقرر عن المقدار الذي يدَّعي امتلاكهُ ويعطي الرسم المقرر عليهِ سنويًا رغبةً في الحصول على تلك الامتيازات فتزايد امر التجارة وخاصةً بفتوح الطريق الموصلة الى البحر الابيض على مقتضى المعاهدات الجديدة التي عقدتها مع الدولة العثمانية ثم اعتنت في امر الزراعة وتكثيرها وبذلت جهدها في استحصال اسباب تنشيطها وفي احداث المعامل والورش واستعمال انواع الصنائع والحرف وتسهيل وسائط الاخذ والعطا . واحدثت بانكة في اقليم سيبريا راسماله مليون وخمساية الف روبلة لاجل تسهيل المعاملات التجارية التي كانت قد انقطعت منهُ منذ مدةٍ بسبب طغيان بوهاجف وهو احد المتمردين وسعت في تعمير القصبات والقرى التي كان خربها العاصي المذكور وكانت جلبت قبل ذلك من بلاد الالمان ١٠٠ الف نفس لاجل تعميرها . وانشأَت في سنة ١٧٧٠ مستشفى شهيرًا للايتام بمدينة موسكا . وبنت مدينة كرسون على نهر اوزى في البحر الاسود وكان وضع اساسها في سنة ١٧٧٨ فلم تمضِ برهة يسيرة حتى صارت محتوية على ٤٠ الف نفس

منذ قرن مما كان بيد الرهبان اليسوعيين من المكاتب وعيّن للتدريس فيها جماعة من العلماء منهم بازيني وبرنا وباويزيو الذين صرفوا جهدهم في تدريس الكتب المؤلفة للمحافظة على المذهب الجديد ومنهم وازلي الذي وضع هذه الكتب في مكتبة نفس الملك ايضًا ثم لما تولى بعده ويكطوراميدي الثالث في سنة ١٧٧٣ كان يظهر منه بانه نظير سلفاه في رعاية العلم والعلماء لكن ظهر اخيرًا من كلامه بانه رجل حربي فقط حيث كان يقول بان عنده الترمبته جي من العساكر افضل من العالم ولذلك افرغ ما في خزائنه في سبيل جمع العساكر وترتيبها واضطر اخيرًا الى تزييد الضرائب والاموال الاميرية على رعاياه بل تراكمت عليه الديون ايضًا الى ان بلغ مقدارها في سنة ١٧٨٩ م الى (١٢٠) مليونًا من الفرنكات وحيث كان لا يميل الى النزاع مع البابوات امر اهالي بلاده بالامتناع عن قراءة القضايا الاربع التي مرّ ذكرها وعن التوجه الى مدرسة باويه لاجل تحصيل العلوم فيها فكان هذا المنع على ما جرت به العادة سببًا الى زيادة رغبة الناس وتولعهم في الحصول على ما منعهم عنه ولا زال الحال على هذا المنوال الى ان حصلت الثورة الفرنساوية الآتي ذكرها في ختام هذا القرن ونالت اقاليم ايطاليا المذكورة قسمًا كبيرًا من وخامة نتائجها

(فرانسا) وكانت اذ ذاك مدارس التعليم مفتوحةً في فرانسا لتعليم الصبيان مجانًا وتأسست المدرسة العسكرية ليتعلم فيها على طرف الدولة ٥٠٠ نفر من اولاد الاشراف الفقراء وارسلت الدولة عدّةً من العلماء الى ما تحت خطّ الاستواء وجهة القطب للتحقيق في البحث عن شكل الارض وتاسست في باريس المدرسة الخيرية التي هي من الابداعات النافعة لتعليم الصمّ البكم والعميان القراءة والكتابة والرياضيات واقتدى بذلك باقي ممالك اوروبا حتى انه يوجد بها اليوم من الاماكن المخصوصة بتعليمهم نحو ١٥٠ محلاً غير انه كان في بداءة هذا القرن اعني في سنة ١٧١٨ م اخترع رجل من الطفشونية الايفوسيين

مسمى بالعدة لولاسة الى الملك لويس الخامس عشر الذي تولى المملكة في سنة ١٨١٥ اوراق النقود وفي سنة ١٧٢٠ ظهر للناس عدم منفعتها عندما لحق البعض من العائلات الافلاس الفاحش والفقر البليغ

وقد اشتهر في هذا القرن من فحول الرجال الفرنساوية عدة ممن تركوا اثارًا جليلة تخلد ذكرهم سوف يذكرون بجملة اصحاب الاكتشافات العلمية في ما يأتي خمسة اشخاص حازتهم فرانسا من مشاهير الكتبة بذلوا جهدهم في ايضاح طرق الفلسفة وتشييد مبانيها وهم فونتيل الذي انسجمت مكاتيبة فيها وبوفون الذي كان مشتغلاً بتأليف تواريخهِ الطبيعية في عصر الملك لويس الخامس عشر الذي مرّ ذكرهُ ويوصف بانهُ كان مشفع افلاطون وبلين الذي كسا علم الفلسفة رقة التعبير في كتابهِ الذي خلد ذكرهُ واعرب عن رقة طبعهِ ودماثة اخلاقهِ ومونتسكيو الذي صرف همتهُ في كتب السياسة وابانت تصانيفهُ عن غاية براعتهِ فيها قال بعضهم وكفى شاهدًا على ذلك ما كتبهُ في سبب ارتفاع وانحطاط الدولة الرومانية وهو كتاب عجيب يحتوي على تعليقات صادقة وعبارات راشقة وكتابهُ الاخر المسمّى روح الشرائع الذي بيّن فيهِ الحقوق الانسانية وقسمها الى ثلاثة اقسام

اولها الحقوق المعتبرة بين الامم في خلطتها السياسية والمتجرية

وثانيها حقوق الدولة على رعاياها وبالعكس

وثالثها حقوق الاهالي فيما بينهم ثم قسم حال الدول الى ثلاثة اقسام ايضًا

الاول الدول الوراثية خلفًا عن سلف المطلقة التصرُّف بلا قيد

الثاني الدول الوراثيّة المقيدة بالقوانين

الثالث الدول الجمهورية المقيّدة بالقوانين ايضًا . (والجمهورية هي كناية عن انتخاب الامّة رئيسًا للدولة يتصرّف في ادارتها بمقتضى القوانين مدة حياته او لمدة معلومة ثم يُنتخب غيرهُ) وبيّن ما ينشأُ عن هذه الاحوال الثلثة من الخير والشرّ وهو معدود عند اهل اوروبا قانونًا صحيحًا في الاحكام ومن تمثيلاتهِ البديعة

تشبيه المستبدّ في احكامهِ بمَن يتوصل الى اجتناء الثمرة بقطع الشجرة من اصلها وله غير ذلك عدّة تآليف تلقاها الناس بالقبول من جملتها المراسلات الفارسيّة وهي اشبه بميزانٍ يشنّع فيهِ على عوائد الشرقيين والغربيين ليظهر مذام كلّ منهم ومحامدهُ وكان ساح في بلاد اوروبا ليلاحظ في سياحتهِ ما يلايم كلّ مملكةٍ من المالك فقال ان بلاد المانيا تليق للسياحة وبلاد ايطاليا للاقامة وبلاد فرانسا للمسرّة وطيب العيش. ثم ان رابع هولاء الخمسة اشخاص الذين نحن بصدد الكلام عليهم هو دلمبير صاحب التأليف المحلى بقلائد القواعد الحاوي باوضح بيان ما كاد يأتي على سائر الفوائد وخامسهم كندليك الذي بسط اشعةً التحقيق على تاليف لوك الانكليزي في علم الفلسفة ويلي هولاء الخمسة جان باتيست روسو صاحب الاشعار ذات المعاني الرائقة والمعلم ساج صاحب التاليف البارع المعروف بجيل بلاس المحتوي على المقالة الفلسفية وهو احسن ممّا أُلِّف في بابهِ

ومن مشاهير هذا القرن ايضًا ولتير قال بعض المولفين ان هذا الرجل هو ممّن اخذ راية الكتابة باليمين وبالشمال واشتهر في فنونها شهرةً بالغة ولو لم يجملهُ انحلال العقيدة على عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرتهُ اتمّ والنفع بهِ اعمّ وقال اخرون ان الشيء اذا تجاوز الحدّ رجع الى الضدّ وكما ان الجهل مضرٌّ فكذلك مقابلهُ اذا صاحبتهُ اساءة الغير وذلك ان هذا العالِم افضت بهِ غزارة علمهِ الى القدح في الاديان وفي كثيرٍ من ملوك عصرهِ فعوقب بالطرد عن وطنهِ وعن كلّ موضع اراد النزول بهِ مات في سنة ١٧٧٨ وله مولفات عديدة تُرجم منها مولفان الى العربية وطبعا في مصر الاوّل يسمى مطالع شموس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر وهذا الملك هو ملك اسوج المشهور بالمحاربات الشديدة بينهُ وبين بطرس الاكبر امبراطور روسيا والثاني يُسمّى الروض الازهر في تاريخ بطرس الاكبر وهو الامبراطور المشار اليهِ ولكن قلّ من يثق بتآليف هذا الرجل غير ان لسوء الحظ نجد كثيرين من الذين تعلّموا

اللغات الاجنبية في بلادنا يرون بان ما من فائدة مما تعلوهُ الآن يطالعوا كتبة وامثالها بلذةٍ ويقتفوا خطواته برغبةٍ لينالوا حق التصدر بين صفوف المتمدنين

ومنهم جانجاك روسو وهو نظير وولتير المذكور في الشهرة ولهُ من حسن التعبير ما لا تستقر معهُ الاوهام وهذا الرجل مع وولتير المذكور قبلهُ هما اللذان انشأا الثورة التي اتت بالمصائب الآتي ذكرها الى فرانسا وهيأا اسبابها واستعجلا وقوعها

وهذه الثورة هي ما وقع في سنة ١٧٩٢ من الاضطرابات بين الاهالي وقتلهم ملكهم لويس السادس عشر الذي كان تولى المملكة في سنة ١٧٧٤ وامرأتهُ وشقيقتهُ وتسليمهم ولدهُ الى رجل اسكاف ليربيهُ وتلوثهم فخار تمدنهم العظيم بهذه القساوة الوحشية وبما اشتهروا به من الفواحش والرذائل والفتن العظيمة التي لا يمكن استيفاؤُها هنا وانما نذكر من تاثيرها الردي بعض الامور الآتية وهي

اولاً انهم ابطلوا في تلك المدة كثيرًا من القضايا والاحكام القديمة

ثانيًا ابدلوا التاريخ الميلادي واسماء الشهور بغيرها مما اخترعوهُ فيها

ثالثًا ابطلوا الديانة المسيحية واقاموا لهم ديانةً اخرى لكنهم لم يتفقوا عليها اذ انهم في اثناء الثورة اتوا بفتاةٍ بديعة الجمال وهي من فتيات الرقص والتشخيص والغنا وكانت من اللواتي يتجاوزن حدود الحشمة في ملابسها واقاموها على مذبح كنيسة نوتردام الكاتدرالية في باريس وقالوا للجمهور الغفير المجتمع انها المعبودة المسماة بمعبودة التمييز واصابة الحكم وعند ذلك قال لهم رجل يقال لهُ شومت وهو احد مقدمي رجال الثورة يا ايها البشر السائرون الى الفناء لا ترتجفوا بعد الآن عند سماع رعودٍ غير مضرّة نسبتموها الى اله خلتمهُ مخاوفكم فانهُ ما من الهٍ فلا تعبدوا بعد الان غير التمييز وهذا هو (مشيرًا الى تلك الفتاة) رمزها الانقى والاشرف فلا تعبدوا غير معبوداتٍ مثلها وكان لما سمع الجمهور منهُ هذا الكلام سجدوا لتلك الفتاة وخرجوا ليغوصوا في ما يخجل القلم ان يقرر وصفهُ

ثم رجعوا عنها واقاموا عوضها ديانةً اخترعها لهم بعض الاكابر والعلماء وهي ان يعبدوا الله عزَّ وجلَّ حسب اصول الديانة او بالحري الاحساسات الطبيعية واستعملوا الكنائس اماكن لعبادتهم وكان دستور ايمانهم بسيطًا حاويًا قضيتين كبيرتين وهما وجود الله وخلود النفس وكانت شريعتهم الادبية حاويةً كذلك مبدأين كبيرين وهما محبة الله ومحبة الناس وكانت مناسكهم تحتوي على صلواتٍ وتسابيح مكتوبة لارشاد العابدين في العبادة . ثم في اجتماعاتهم كان يخطب بعض الاعضاء ولكن لا يُسمح بتقديم خطابٍ للجمهور الاَّ بعد فحصهِ من المناظرين وقد أُضيف الى هذا بعض طقوسٍ بسيطة كوضع طبق اثمار وزهور على المذبح وكانوا يستعملون الموسيقى بالاصوات والآلات في اجتماعاتهم وجدُّوا كل الجدّ في ادخال هذه العبادة الى كل مدن فرانسا المشهورة وانتشرت مقاصد جمعيتهم الى بلادٍ اخرى وتوجه كتابهم الى جميع الاقطار الفرنساوية بامر وزير الامور الداخلية وكان قد اشار البعض منهم باقامة الديانة على طريقة ديانة قدماء الفرس (المجوس) وهي ان يُشار الى الجوهر الالهي بنارٍ دائمة وان يُقرَّب لهُ قرابين من الاثمار والزيت والملح وان تُسكب سكائب من الخمر الى العناصر الاربعة ورسم ان تُمارس العبادة يوميًّا في الهياكل وان كل يومٍ تاسع يكون سبتًا للراحة وان يشترك الجميع بالرقص والملاهي في اعيادٍ معلومة وكان أتبع هذه الديانة بعض انفار في باريس وغيرها ولكن لم يُلتفت اليهم ثم بعد برهةٍ يسيرة انقرضوا وطُفي خبرهم

وقد اتفق المورخون بان هذه الثائرة الفرنساوية تكون نهايةً للقسم الثاني من القرون الاخيرة على ما قد سبقت الاشارة اليهِ في المقدّمة

(روسيًّا) وكانت عادة المسكوب وقتئذٍ ان يجعلوا اول السنة شهر ايلول اقتداءً بالاكليروس عندهم اذ لا يخفى بان التقاويم السَّنوية معدودةٌ من الامور المهمة وكان المنوط بها هم روساء الاديان دون غيرهم من قديم الزمان بجميع

الاقطار وليس ذلك لمجرد المواسم والاعياد الدينية فقط بل ولندرة معرفة غيرهم بعلم الميقات فابطل ذلك بطرس الاكبر وجعله كانون الثاني كما هي العادة عند ممالك اوروبا المتمدنة وكان هذا التغيير من ابتداء القرن الثامن عشر الذي نحن بصدد الكلام عليهِ فتعجبت العامة من هذا التغيير كيف امكن فيهِ لبطرس ان يغيّر كيفية مسير الشمس وانتقالها . وانما لم يرضَ هذا القيصر بالتقويم الغوريغورياني الذي سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على الاكتشافات العلمية في القرن السادس عشر بل ابقى حساب السنة على الزيج القديم (ولعلّ ذلك ناشٍ اما اقتداء بعلماء الرياضة من الانكليز لانهم كانوا اهملوهُ في ذلك الوقت واما رعايةً الى الاكليروس حيث ان الكيكلس الارثوذكسي لا يسمح بوقوع عيد الفصح المسيحي الاَّ قبل عيد الفصح عند اليهود كما سبقت الاشارة الى ذلك في صحيفة ٢٢٦ من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف)

وكانوا منذ تعلموا طريقة المكاتبات والمراسلات في اوائل القرن الخامس من الميلاد كما سبقت الاشارة الى ذلك يكتبون في بطاقاتٍ من ورق الاشجار او رقّ الغزال ثم بعدهُ بمدةٍ طويلة كتبوا في الورق فوضع لهم بطرس الاكبر قانونًا يامرهم فيهِ ان لا يسلكوا في الكتابة الاَّ على نسق الفرنساوية وابطل ما كانوا يستعملونهُ في مخاطبات ملوكهم وعرضحالاتهم من تعبيرهم عن انفسهم بلفظ عبدكم وابدلهُ بلفظ رعيتكم ليذيق رعيتهُ حلاوة ما ابدعهُ من التحسينات

وكان الزواج في الدولة المسكوبية على منوال ما هو جارٍ في بلاد الترك والعجم فكان الرجل لا ينظر مخطوبتهُ الاَّ بعد الزواج ويرسل اليها من جملة هدايا العرس مقدارًا من العصي بقدر قبضة اليد ايقاظًا لها بانهُ عند اوّل فرصةٍ توجب عقابها ينالها منهُ تأديب خفيف وكان من قانون المملكة اذا قتل الرجل امرأتهُ لا يقتل فيها واما الزوجات اللاتي يقتلن ازواجهنّ فانهنّ يدفنّ احياء فاراد بطرس الاكبر ان يعود رعيتهُ على عوائد الامم الذين ارتحل الى بلادهم واتى منهم باناسٍ يعلمون اهل مملكتهِ على ما تقدم فشرع اولاً في تغيير

ملابس اهل بلادهِ وجعلها مثل ملابس سائر الافرنج لان الانسان بطبعهِ ينفر من الاجانب لاسيما اذا كانوا يخالفونهُ في الملابس وكانت ملابسهم في المحافل والمواسم شبيهةً بملابس التتار وقدماء اللاهيين والمجار وكانت على ما يقال مقبولة ومستحسنة واما ملابس الاهالي ورعاع الناس فكانت شبيهة بالدلوق وبالثياب ذات الانكاشات والطيَّات مما يحاذي الوسط وبالجملة فقد كانت الثياب الطويلة سابقًا لباسًا لجميع الملل لانها لاتحتاج لكثير مصرف ولاصناعة وكان المسكوبيون لايحلقون لحاهم بل يتركونها تسترسل لهذه العلة بعينها ولم يشقَّ على بطرس الاكبر تعويد اهل ديوانهِ ودائرتهِ على الملابس الافرنجية وحلق اللحا بخلاف تعويد الاهالي على ذلك فكان من اصعب الامور عليهِ حتى انهُ اضطران يضرب غرامةً على كل مَن لبس ثيابًا طويلة ولم يحلق لحيتهُ وعلَّق على ابواب المدينة انموذج الملابس الضيّقة التي يلزم الاهالي لبسها وكلّ مَن امتنع من دفع هذه الغرامة حكم عليهِ بقطع ثيابهِ وحلق لحيتهِ لكن كان اجراءُ هذه الامور وتنفيذها مع الملاطفة ولين الجانب فكان ذلك سببًا في الانقياد وعدم التعصب ثم ادخل بعد ذلك في بلادهِ الجمعيات التأنسية وامران يحضر تلك الجمعيات النساءُ مع بناتهنَّ متزيّيات بزيّ اهالي جنوب اوروبا وجعل لهذه الجمعيات التي هي اشبه بمواسم صغيرة قوانين واصولاً تتبع وبالجملة فكل شيءٍ حدث في دولة بطرس الاكبر حتى اداب المخالطة والاجتماع

فمن ثم حلّت الظرافة والرقة في كل الامور ببلاد المسكوب محل الخشونة والتبربر واحدثت مجالس المسامرة عندهم بعد ان كانوا لايعرفونها اصلاً وتجددت الالعاب التياترية حتى ان الاميرة نتاليا احدى اخوات هذا القيصر ألّفت باللسان الروسي مقامات تياترية تتعلق بذكر الحوادث المحزنة وكانت اقرب شبهًا بما ألّفهُ الشهير شكسبير الانكليزي الذي مرَّ ذكرهُ في الكلام على القرن الخامس عشر

وقد أدّت بطرس الاكبر همّتهُ الى تحديد المسافات السفرية بوضع اعمدة

صلبة من الخشب في طريق مدينة موسكا الى مدينة ويرونيز من كل عمودٍ لمثلهِ
مسافة فرسخ مسكوبي ٧٥٠ قدمًا وانشأ في كل ٢٠ فرسخًا منزلاً للمسافرين

واحدث في ديوانهِ نوعًا من الزينة والزخرفة وهو وان كان طبعهُ لا يالف ذلك الّا انهُ رآهُ مما لا بدَّ منهُ واحدث ايضًا نيشان درجة ماري اندراوس وهي من رتب الافتخار التشريفية الجارية في دواوين اوروبا وكان قبل ذلك جميعهِ احدث نيشان افتخار كان اول نيشان صنع في بلاد المسكوب وكتب على احدى دائرتيهِ ما معناهُ بطرس الأوّل امبراطور المسكوب العظيم دائمًا وعلى الاخرى ازاق مع هذه الكلمات منصور بالمياه والنيران وكان ذلك عندما دخل مدينة موسكا مع الأبهة والاحتفال ومرَّ بجيشهِ الذي كان يحارب في بحر ازاق ورجع منصورًا تحت اقواس النصر التي صُنعت لهُ قبل ان ساح في بلاد اوروبا

وقد استحسن ارباب العقول الراجحة من اهل دولتهِ كثيرًا من هذه التغييرات والابداعات النافعة وتلقوا ذلك بالقبول بعد ان كان وقع اللغط بين الناس في مبدأ هذا التغيير وكتب بعض القسوس في رسائل طبعها ان بطرس هو المسيح الدجّال لانهُ كان يأمر بنتف لحاء الاحيا وتشريح اجساد الموتى وابطل الرتبة البطريركية فصار بذلك فنّ الطباعة الذي كان هذا القيصر يسعى في تقويتهِ معينًا على ما كان يقال فيهِ من القدح والذمّ لكن ردَّ على هذا القسيس قسيس اخر قائلاً ان بطرس ليس هو الدجال اذ ليس في حروف اسمهِ ما في اسم الدجال من عدد ٦٦٦ وكذلك لفقد علامات الوحش المذكور في سفر الرؤيا

ولما كان هذا القيصر مشتغلاً بحروبهِ مع كرلوس الثاني عشر ملك اسوج لم تفتر همتهُ في اثناء تلك المحاربات من جلب المنافع الى بلادهِ اذ انهُ بعد ما لحقهُ من المصائب بانهزام عسكرهِ امام مدينة نروا اشتغل بوصل كلٍّ من بحر البالطق وبحر الخزر والبحر الاسود ببعضها بواسطة خلجان واخذ في حفر خليج عميق واصل من نهر طنائس الى نهر الاتل وبينما كان كرلوس المشار اليهِ يخرب مملكة

وتُبنى في ترسانتها السفن التجارية والحربية وكانت بنت قبل ذلك بسنتين اعني في سنة ١٧٧٦ امدينة اودسّا او فوجه بك على مصب نهر دنستر فصارت اعظم اساكل البحر الاسود تجارةً وانشئت فيها جملة ابنية واماكن جميلة شهيرة وتجددت فيها معامل الصابون والباروت واقمشة الحرير والحديد ومعامل البوزة واعظم متجرها في الحبوب ولاكمرك على متاجرها

(اسوج) وكانت بلاد اسوج الواقعة في شرقي بلاد المسكوب تحت حكم الدانيمارك الى ان قام غوسطاوزا وهو رجل من نسل الملوك القديمة لتلك المملكة ومن الرجال العظام الذين يندر وجود مثلهم حسن الخلقة فصيحًا هرب من سجن كرستيارن الثاني ملك الدانيمارك الذي كان ظالمًا عسيفًا وجهز في قليلٍ من الزمن بعض عساكر حربيّة بربريّة استخلص بها بلادهُ من يد هذا الظالم وحررها وتملك عليها في سنة ١٥٢٣ م وكما انه خلصها من يد المتغلبين الظلمة ادخل اليها المذهب البروتستانتي ايضًا وخلصها بذلك من ظلم الاكليروس الذي كان ذا شوكةٍ قويّةٍ مهولة يستولي على اموال البلاد وينفقها في ظلم الرعايا ومحاربة الملوك

ثم بعد ذلك تقوّت هذه المملكة في زمن غوسطا ادلفوس الذي كان تولى عليها في سنة ١٦١١ م حيث افتتح بلادًا كثيرة من المانيا وبانتصاراته ساعد على انحطاط بيت اوستريا وان كان هذا الامر يعزى ويُنسب فخرهُ الى الكردينال ريشيليو وزير الملك لويس الرابع عشر في فرانسا ثم توفي قتلاً في محاربتهِ خلف نهر الطونه وتلقب بعد موتهِ باسم الاكبر

ولما اتصل الملك بالملك كرلوس الحادي عشر وكان ظالمًا جدًّا جرّد هذا الملك اهالي البلاد من مزاياهم وخصائصهم وابطل مشورة السنت فصارت مشورة الملك بعد ان كانت مشورة المملكة واستولى على املاك اكثر رعاياهُ بواسطة محكمةٍ رتبها بشوكتهِ وبمجرد رأيهِ سماها ديوان القبض ومن جملة ما يحكى

عنهُ انهُ لما اضرّت تلك الحكمة بعدد عظيم من الاهالي والاشراف والتجار واصحاب الاطيان والارامل واليتامى كانوا يجتمعون في حارات استوكهلم ويصيحون على باب قصر الملك فكانت الملكة تعينهم بما تملكهُ من الاموال والجواهر والامتعة والملبوس ولمّا فقدت ما كان في يدها ولم يبقَ عندها شيء تعطيهِ لهم بكت ووقعت على زوجها تترجاه بان يشفق على هولاء المساكين فاجابها بوجهٍ عابس لم نتزوجك لتنصحينا بل لتلدي لنا وبقي الحال على هذا المنوال الى ان مات في سنة ١٦٩٧

ولما تولى بعدهُ ابنهُ كرلوس الثاني عشر كان قاصرًا اذ كان لم يبلغ من العمر اكثر من ١٥ سنةً فكانت جدتهُ ام ابيهِ تحكم بالنيابة عنهُ وبمعيتها في الحكم مشورة مركبة من خمسة اعضا وكان حفيدها كرلوس المشار اليهِ يمضي زمنهُ في الصيد اوكان يشتغل بعدّ الجيوش وترتيبها ويتعلّم بعض الاحيان الحركات العسكريّة لكن لم تطل المدّة حتى تولى زمام المملكة بنفسهِ وكان لمّا تتوّج بعد موت ابيهِ بشهرين لم يقبل بكون مطران اوبسال يضع التاج على راسهِ كما هي العادة بل هو جذب التاج من يد المطران وتوّج نفسهُ بيدهِ ودخل مدينة استوكهلم راكبًا على حصانٍ ادهم مندو بالفضة وفي يدهِ صولجان الملك وكان من الذهب والتاج على رأسهِ وكان راسهُ هذا مملوًّا من تصورات اسكندر الاكبر وقيصر فعزم ان تتدي بهما الاّ في الحرب فلم يكن يعرف الزينة اصلاً ولا اللعب ولا الراحة وصار قنوعًا جدًّا في الاكل والشرب ولايلبس الاّ مثل نفر من عساكرهِ وصمم على عدم شرب الخمر والابتعاد عن النساء مدة حياتهِ وكان اوّل كتابٍ تعلمهُ كتاب صموئيل يوفندروف ليعرف وهو في صغرهِ اوضاع بلادهِ والممالك التي حواليهِ ثم تعلم اللسان الالماني فكان يتكلم بهِ مثل لسانهِ وكان يحسن ركوب الخيل وتعجبهُ الرياضات الشديدة العنيفة لكن كان لهُ عناد لا يطاق فلا تمكن استمالتهُ ولا عطفهُ الاّ بترغيبهِ في الفخار ثم تعلم اللسان اللاتيني والفرنساوي غير انهُ لم يرد ان يتكلّم بهذا اللسان الاخير مع احدٍ اصلاً مدة حياتهِ وكان مولعًا

بفن الحروب واشتهر فيها من سنة ١٧٠٠ الى سنة ١٧١٨ بما ابداهُ من الشجاعة العظيمة في الوقائع المهولة التي كانت قائمةً ساق على قدم بينهُ وبين امبراطورها بطرس الاكبر الذي سبق ذكرهُ في الكلام على مملكة روسيا وكان لزيادة هوسهِ فيها امر بترجمة كتاب كونت كرس لكونهِ اعجبهُ بالنظر الى موضوعهِ اكثر من حسن عباراتهِ وهو تاريخ الفهُ هذا الرجل في اسكندر المكدوني الملقب بالاكبر الذي مرَّ ذكرهُ ثم الف هو نفسهُ نبذةً في فن الحروب وفي غزواتهِ من سنة ١٧٠٠ الى سنة ١٧٠٩ عندما كان مقيمًا في بلاد الدولة العلية مهزومًا من امام بطرس الاكبر المشار اليهِ وملتجئًا الى حمايتها منهُ ويقال بانهُ اراد ان يغيّر طريقة العدّ بالعشرات ويجعل بدلها (٦٤) لان هذا العدّ يشتمل على مكعب ومربع واذا نصّف تناقص حتى يرجع الى الاحاد وهذا يدلُّ على انهُ كان مولعًا بالاشياء الغريبة الصعبة ايضًا ثم توفي اخيرًا قتيلاً تحت اسوار مدينة فريدريكهال عندما كان مشتغلاً بفتح بلاد نروج في سنة ١٧١٨م

وعند ذلك رتبت المملكة الاسوجية قانونًا جديدًا جعل للحكومة الملكية حدًّا تقف عندهُ واثبت الحرية للاهالي فكان من احكامهِ ان لايكون للملك مداخلة في ترتيب القوانين ولا في التصرُّف في شان الحرب والصلح ولا في تغيير النقود ولا في فصل الدعاوي ولا في جمع عساكر من المملكة ولا في احداث سفن او حصون ولا في ترتيب الاموال ولا في تقليد المناصب أيًا كانت بل كان ذلك جميعهُ منوطًا بتلك المشورة التي كانت تعقد في اوقات الاقتضا وكان قصدهم بذلك منع تلك المظالم والجور من المملكة لكنهُ صار سببًا لايقاع الفشل فيها وانقسام اهالي المشورة المذكورة الى فرقتين فرقة تميل الى الفرنساويين ويقال لها فرقة البرانيط لان الفرنساوية يلبسونها وفرقة تميل الى المسكوبيين ويقال لها فرقة القلنسوات لان المسكوبيين كان من عادتهم لبسها ولا زال الامر في اختباط وارتباك منذ وفاة كرلوس المشار اليهِ الى ان تولى المملكة غسطاوة الثالث في سنة ١٧٧١م

ومن ثم رتب هذا الملك قانونًا جديدًا اكره اعضاء المشورة الاهلية المذكورة على قبولهِ وهذا القانون الجديد لم يبطل هذه المشورة بل كان لا يقدّم الملك على تشريع قانون او نسخهِ الاّ برضاها ولكن كان من خصائصهِ بمقتضى هذا القانون تعيين وقت عقدها ومنعها ان تزيد على الثلاثة اشهر المعينة لمكثها وانهُ هو الذي ينصب اعضاء مشورة السنت ولا تكون اراؤها نافذة الاّ بعد ان يسمعها الملك ويبتّ الامر فيها بنفسهِ وانهُ هو الذي يعقد الصلح والهدنة والمعاهدة سواء كانت للدفاع او للهجوم واما عمل الحرب فلم يكن مختصًّا بهِ بل كان منوطًا براي الجمعية وكانت قيادة العساكر البحرية والبرّية منوطة بهِ كما ان سائر الوظائف الملكية والعسكرية كذلك وقد خصهُ القانون ايضًا بان تدفع لهُ جميع الضرائب لكن لا يحق لهُ ان يجدد غير ما هو موجود منها الاّ اذا كان هناك حرب للمدافعة عن المملكة او اذا اقتضى الحال لجلب الامن الداخلي ثم تلغى متى انقضت الاسباب وتبقى القديمة على حالها

ومنع هذا الملك ان يتفوَّه احد من الناس باسمي البرانيط والقلسوات وابطل ما كان مرتبًا في المملكة من انواع العذاب وازال جميع المحلات والآلات التي كانت معدة لذلك واحدث بمدينة استوكهلم قصبة مملكتهِ دارًا لاشغال مختلفة ليشتغل فيها من لا صناعة لهُ ولا جهة يتعيش منها وكان انشاؤها في سنة ١٧٧٣ م ولا يخفى ما في ذلك من المنفعة لهم وللدولة وبعث الى سائر الجهات اطباء وكان يقوّي هممهم باتحافهم بالرتب والانعامات وتبرع على الاهالي بالادوية من غير مقابل وعافى من فردة الرؤوس جميع الفلاحين والعملة وارباب الحرف والصنائع والعساكر البرّية والبحرية الذين يكون اقلّ ما للرجل منهم ٤ اولاد طلبًا لازدياد عدد اهالي المملكة وكان يعتني بادارة مواضع الايتام وسائر المرستانات وكان يحافظ على العدل وحسن الادارة ولما راى ان حرّية الطباعة واطلاقها هما اعظم الوسائط في محافظة وكلاء الدولة على واجباتهم وفي اطلاعهِ على مرغوبات الاهالي وضروراتهم اعان على توسيع دائرة هذه الحرّية النفيسة

واجتهد ايضاً اجتهاداً تاماً في توسيع دائرة التجارة والصنائع وتقدم صناعة استخراج المعادن وتضاعف محصولاتها وحرّض اهل مملكتهِ على شغل المادة المتالية الخامية وكان الى ذلك العصر لا يشتغل بها الاّ في الممالك الاجنبية وجلب من بلاد أوروبا الى مملكتهِ من مهرة الصناع والمحترفين من كمل معادن الحديد والبولاد ورتب بحسب ادارتهِ الامانة بين الناس بحيث يأمن بعضهم بعضاً في القرض وبهذا حصل لهم النجاح التام في امر التجارة وانعم بالحرية والاطلاق على مينا مارشنند فصارت تاتي اليها السفن من سائر الجهات وقوّى الملاحة الاهلية باوامر اصدرها في سنة ١٧٧٧ م عافى بها جميع ملاحي السفن التجارية من فردة الرؤوس ورتب جمعية تجارية في بلاد اغرونلند باميركا فصارت تقتسم مع غيرها من الطوائف الاخرى الارباح الجسيمة التي تحصل من صيد الحيتان وصارت ايضاً كانها مدرسة لشبان البحريين

ولم يهمل هذا الملك امر الزراعة ايضاً بل اهتم بشانها حيث وسّع في اجال اجارة الجمالك الملكية العديدة ترغيباً للفلاحين في الاعتناء باراضي الزراعة والنصح في خدمتها بطول انتفاعهم بها وعقد مع البعض منهم ان زراعة اراضيهم تكون لاولادهم البكريين من بعدهم وصدرت اوامرهُ بابطال عدّة مواسم لانفع لها فترتب على ذلك توفير ٢٣ يوماً للشغل في كل سنةٍ ورتب لتحسين الزراعة جمعية من ارباب الخبرة لتبحث عن طرق تحسينها وزيادتها بحيث تكون اقوات بلادهِ من ذات اراضيها ولا تحتاج للبلاد الاجنبية وانعم بالحرية في تجارة الحبوب

وكان يتريض في اشغال الدولة بممارسة العلوم والاداب وكانت لهُ مخاطبات علمية مع كثيرين من علماء اوروبا واعاد بهمتهِ لمجمع العلماء بمدينة اوبسال ما كان لهُ سابقاً من الشهرة والرونق وكان قد زال منهُ ذلك بفقد الحكيم لنيه ورتب مشورة لتربية صبيان الاهالي وامرها بتجديد صورةٍ بها يكمل نظام التعليم في المدارس الصغيرة والكبيرة ورتب ايضاً جمعية لطبع الكتب الاولية

وغيرها من الكتب النافعة فظهر في جمعية العلماء بمدينة استوكهلم مهارة ونشاط جديد وتركت ما كانت عليهِ من دعوى العلم التي لا طائل تحتها وعرضت على علماء اوروبا مسائل عديدة نفعها بيّن عام وقد حصلت من هذا الملك الاعانة للفنون المستظرفة ايضًا فجعل لاكدمة النقش والتصوير رونقًا جديدًا ورتب للعمارات جمعية للمحافظة على ان جميع العمارات الجديدة ولاسيما العمارات السلطانية تُبنى مع المتانة واللطف . ومن ثم ظهر من مهرة المولفين ببلاد اسوج مَن اشتغل بالعلوم الادبية مع الاعتناء التام وزينوها بعدّة مولفاتٍ نفيسة سطعت بها انوار اللغة الاسوجية وصار لها من الرونق والبهجة ما لم يُعهد فيها من قبل ومنهم لناوس الشهير في العلوم الطبيعية

واصلح هذا الملك ايضًا الجيوش والسفن وكانت اذ ذاك على اشنع حالةٍ وكان يذهب من اقليمٍ الى اخر لاجل تعليم العساكر وزاد في المدافع زيادةً عظيمة وصنع اسلحة وباروت وزاد في عدد العساكر البحرية وانشا مرفاءً واسعًا في مينا قولوقرون لتدخل اليهِ السفن الحربيّة حفظًا لها من عواصف الرياح

وبعد ان قمع طائفة الاشراف في سنة ١٧٨٩ اشهر قانونًا جديدًا كان قد رتّبهُ مع وكلاء الطوائف الثلاثة ما عدا الاشراف ومنهُ ان الملك بمفردهِ هو الذي لهُ الحق في ادارة المملكة والذبّ عنها بمقتضى رايهِ من غير ان يراجع احدًا في ذلك وهو الذي يعمل الحرب والصلح ويعقد المعاهدات ويفصل الدعاوي ويجري العدل ويوزع الوظائف السلطانية وان ديوان السنت لا يكون لهُ دخل في شيء من امور الدولة وانما يكون ديوان المحاكمات الاعلى وبما ان الاهالي الاسوجيين كلهم مستوون في الاهلية والحرّية في مملكةٍ واحدة لزم ان يكونوا جميعًا على حدٍّ سوا في التمتع بالحقوق والمزايا تحت رعاية القوانين الشرعيّة وان الوظائف على اختلافها جليلةً كانت او حقيرة لا تناط الاّ بالمعارف والتجربة وحبّ الوطن فلا يُنظر الى عظم المقام وشرف النسب الاّ في ما لا بدّ لهُ من ذلك بموجب القوانين وان جميع الاسوجيين يتمتعون تمتعًا تامًّا بالحرية الشخصية

الكاملة وانهم جميعًا لهم حق في تملك الاراضي وغيرها من الاملاك أيًا كانت

(المانيا) وفي هذا القرن ظهر ببلاد المانيا الشاعران المجيدان غوتي وشلر فالاول فاق اقرانهُ في محاسن الاداب والثاني استحق ان يسمَّى مجدد لتياترات الالمان فانهُ ركب العابًا معتبرة يُنشد فيها مستظرفات الاشعار ولهُ تآليف في التاريخ شاهد بتقدمهِ في ميادين الافكار

(انكلترة) اما انكلترة فكان تقدمها فيهِ بالاعمال اليدّية والزراعية والتجارية وكلّ ما يجلب ثروة البلاد ويوجب سعادتها منذ اصطنعت فيها معامل صب الحديد في سنة ١٧٤٠ وغير ذلك من الوسائط التي تسهّل الاشغال وتسبّب الاقتصاد في تكاليف الاعمال وتوسع دائرة التجارة ولاسيما منذ اخترع جامس وات في سنة ١٧٨٢ آلة بخارية لدولاب غزل القطن الذي كان اخترعهُ اراكريت (في اواخر القرن السادس عشر) تُعدُّ من العجائب قال بعض المولفين ان هذا الرجل اخترع الكيفية العجيبة في الانتفاع بالآلة البخارية التي كان اخترعها اولاً ينوكمن (ولعلهُ بابين) في اواخر القرن السابع عشر كما ظهرت كذلك الخدامات العجيبة الهائلة على يد المهندس برادلي وتضاعفت بواسطتها طرق المواصلة بانكلترة وفتحت الخلجان العديدة في الاماكن التي كانت معطلة وبذلك تمت نتائج الايدي واتسعت دوائر المتجر والثروة في بلاد الانكليز وارتفع شان السياسة وكثر استخراج معادن الارض بسهولة المناولة والمواصلة وكذا جلب القطن والكتان وغيرها واصطناع الاقمشة منها في اقرب وقت وكلّ ذلك بمعاونة الآلات البخارية المذكورة فكبرت بلدان انكلترة الصغيرة لاتّساع نطاق المتجر فيها حتى صارت من اعمر البلدان المعتبرة وحسبنا مثال جزئي منهُ نعلم درجة التبدلات العظيمة الواقعة في احوال تجّارتها وهوان قيمة ما كان يخرج من القطن المصنوع فيها لم تكن في اوائل القرن الثامن عشر تتجاوز ٥٠٠ الف

فرنك في السنة وفي اواسط هذا القرن (يريد صاحب الاصل القرن التاسع عشر) بلغت قيمة ما يخرج من ذلك ٥٠٠ مليون فرنك انتهى كلامهُ وكان افتتاح هذه التقدمات الصناعية فيها بهذا القرن ظهور معدن الصحون الانكليزية الابيض في سنة ١٧٠٧ وبعدهُ بسنةٍ واحدة ظهر المعدن الاسمانجوني ايضًا

ومن اثار اهتمامات هذه الامة في امر الزراعة ادخالها زراعة الرز الى بلاد امريكا قبل ان خرجت من تحت سلطتها ببضع سنين اعني في سنة ١٧٦٩م

ثم عدا عن رجالها العظام الذين جعلوا لهم ذكرًا مخلدًا في صفحات التاريخ بما اظهروهُ من الاكتشافات العلمية النافعة للجنس البشري وسوف تذكر اسماؤهم مع ما اكتشفوهُ في ما ياتي ظهر ايضًا فيها المورخون الثلثة الشهيرون الذين زاد بهم مجد وطنهم وهم غليوم وهوم وروبرتسون اما هوم فانهُ ولد سنة ١٧١١ من عيلةٍ فقيرة واشتغل بالفقه والاحكام ثم تعلّق بالاداب والفلسفة وصرف همتهُ في السياسة حتى انهُ استخدم في ما بعد بوظيفة كاتب سرّ سفارة الامير سنت كلير وغيرهِ ثم تخلّى بالكلية عن المصالح وتوفي سنة ١٧٧٦ ولهُ مولفات عظيمة في الفلسفة والاداب والسياسة والتواريخ بل وفوق الطبيعيات وتُرجمت كتبهُ من لغتهِ الانكليزية الى غيرها لكونها كثيرة الفوائد نفيسة الثرائد واما روبرتسون فهو صاحب كتاب اتحاف الملوك الالبّا في تقدم الجمعيات باوروبا الذي جعلهُ مقدمةً لتاريخ الامبراطور شرلكان الذي ألفهُ هو ايضًا وقد ذكر في هذه المقدمة مع الايضاح جميع الوقائع والحوادث التي كانت سببًا في التغييرات المتوالية التي اعترت حالة اوروبا السياسية منذ انقراض الدولة الرومانية الى ابتداء القرن السادس عشر ومولفاتهُ هذه ترجمت الى العربيّة وطُبعت في مصر سنة ١٢٥٨ للهجرة سنة ١٨٤٢م

وممن ينبغي ان لا يهمل ذكرهم ايضًا المعلم آدم سميث الذي فاق اقرانهُ في علم الرياضيات والاقتصاد السياسي المُبترعة بعلم توفير المصاريف والجراحان الشهيران هنتر واخوهُ

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

(الطبيعة) ثم في هذا القرن الذي نحن بصدد الكلام عليه وجد رجل يقال له المعلم سوسور ولعله فرانساوي فكان هو اول من تجرّ في علم كائنات الجوّ واخترع الآلات الايغرومترية اي آلات مقياس الرطوبة . وبيّن كذلك الآراء الصحيحة الباحثة عن النداء والمطر والثلج وتوفي في سنة ١٨٠٠

وكان في سنة ١٧٥٠ ابتدأ الجغرافيون بتقسيم انواع اراضي الكرة الارضية الى اراضي اولية وثانوية وثالثية الى غير ذلك مما هو شائع في عرفهم الآن

(مانعة الصاعقة) وفي سنة ١٧٥٢ اوجد بنجمن فرانكلن الامريكاني الذي خلد اسمه ببيان الامور المتعلقة بالجاذب المغناطيسي الآلة التي تجذب الصاعقة من السحاب وتدخل بها في جوف الارض وكان اوّل من تجاسر وقال لها هل انت الّا شيء كهربائي ثم وضعت الآلة المذكورة اولاً فوق البيوت بمدينة فيلدلفيا من البلاد المتحدة الامريكانية في سنة ١٧٦٠ وينسب المورخون هذه المأثرة للانكليز لان الشعب الامريكاني كان وقتئذٍ لم يزل تحت احكامهم

(آلة الخياطة) وفي سنة ١٧٥٥ اخترعت آلة الخياطة في بلاد الانكليز

(الهيدروجين) وفي سنة ١٧٦٦ اكتشف المعلم كاونديش الطبيب الانكليزي الهيدروجين ويقال الايدروجين ايضاً ثم بعد ذلك اعني في سنة ١٧٧٦ اكتشف المعلم ماكير تركيب الماء من الاوكسجين الذي سبق ذكر اكتشافه في القرن السابع عشر ومن هذا الهيدروجين وصنعه منهما وبعده ظهر الشهير البوزييه الذي كال كيماويي فرانسا بتاج الشرف والفضل حيث ابدى المعارف الصحيحة المتعلقة بالتحليل والتركيب الثانوي الماء وكان ذلك سبباً لتولد الكيميا الغازية

(انبوبة حمل الماء) وفي سنة ١٧٧٣ اخترع المعلم جون هوَيتهرست انبوبة الحمل المائي لرفع الماء من الانهر ثم حسَّنها موتيكولفيه الفرنساوي

(النتروجين) وفي السنة المذكورة عرف الطبيب روثفور الانكليزي النتروجين اي مولِّد النطرون ويسمّونهُ ازوت ايضاً

(فن التنويم) وفي سنة ١٧٧٦ اخترع الطبيب مَسمر الالماني فنّ التنويم وفي هذه السنة ايضاً وقيل بل في غيرها اخترع الطبيب ادوارد جنَّر الانكليزي تطعيم الجدري من البقر فانعمت عليهِ الدولة الانكليزية بمبلغ ٣٠ الف ليرا استرلين

(سيارات جديدة) وفي سنة ١٧٨١ اكتشف المعلم هرشل الفلكي الشهير الانكليزي كوكباً سيارًا سمّاهُ اورانوس وهو اوّل الكواكب المكتشفة حديثًا وقد مرّ ذكر هذا الرجل الفاضل في الكلام على النظارات في القرن الماضي قال بعض المولفين ان هذا المعلم كان قد اتقن التيلوسكوب اتقانًا عجيبًا تمكنت بواسطتهِ الابصار من الروءية من مسافات لا نكاد تدرك من اقصى السماوات بحيث لو وجد انسان اخر امكنهُ ان يتقن هذه الآلة كاتقانهِ لجوز العقل ادراك اقرب الكواكب الينا ادراكًا كليًا حتى يعلَم ان كان فيها سكان او نبات او غير ذلك ثم بعدهُ اي في سنة ١٨٠١ اكتشف رجل اخر يقال لهُ بياظي كوكبًا آخر سمّاهُ سريس وبعد ذلك بسنةٍ اكتشف رجل يقال لهُ اوالبرس كوكبًا ثالثًا سمّاهُ بلاس ثم بعدهُ بسنتين اكتشف فلكي اخر يقال لهُ هاردنق كوكبًا رابعًا سماهُ وستة وبالاجمال لازال الفلكيون يكتشفون نجمًا بعد نجم الى ان صار والحالة هذه عدد ما اكتشفوهُ الى وقتنا هذا يتجاوز ٢٠٠ نجمًا غير المعروف قديمًا

(اجنحة الطيران) وهي اجنحة صناعية يتمكن الانسان بواسطتها من الطيران والمسير في الهواء واول من اخترعها كان حدادًا فرانساويًّا يقال لهُ باسنيه ثم اشتغل باتقانها بلانشار وهو رجل فرانساوي ايضًا ولازالت تتداول عليها افكار المجتهدين الى ان تمموها في سنة ١٨٧٨ على ما رونهُ بعض الجرائد

(البالون) وفي سنة ١٧٨٣ تحقق الاخوان مونتيكولفيه الفرانساويان خفة الهوا بتمدده من حرارة النار فخطر لهما عمل القباب الطيارة المسماة بالبالون وصعدا فيها الى الجوّ في تلك السنة وبعد زمنٍ تجاسر بعض الناس على الارتفاع فيها وكان ذلك أولاً بواسطة النار ثم لما ظهر الهيدروجين المارّ ذكرهُ خطر بالبال استعماله بدل النار فاستنبط الماهر شارل المشهور بمسافر الهوا قبةً من الحرير مصنوعةً بكيفيةٍ لا ينفذ الغاز من مسامها وملأ القبة بتلك المادة التي هي الطف من الهواء وارتفع فيها الى الجوّ هو ورجل اخر من اصحابهِ يُسمّى رويبل جالسَين في زورقٍ معلّق فيها ومن ذلك الوقت اشتغل الناس باتقانها الى ان صعد فيها الماهر غاليوساك في سنة ١٨١٤ صعودًا عجيبًا لم يفعلهُ احد قبلهُ فبلغ في الجوّ اكثر من ٧ الاف ميتر ورأى في هذا البعد ان السماء التي نشاهدها زرقاء سوداء مظلمة وعسر عليهِ التنفس جدًّا وكان يتكلم بصوتٍ عالٍ فلا يسمع من كلام نفسهِ الاَّ يسيرًا

(المطابع) وفي سنة ١٧٩٠ اخترع رجل يقال لهُ نيكولسون من انكلترة المطبعة الميكانيكية وهي تطبع من ذاتها بدون مساعدة الايادي . ثم في سنة ١٧٩٩ اخترع رجل يقال لهُ لويس سَنِفلدر من مدينة براغ بالمانيا المطبعة الحجرية المسمّاة بلغتهم ليطوغرافيا

(الكهربائية) وفي السنة المذكورة ايضًا اظهر طبيب من بولونيا يقال لهُ غلواني او كلفني الكهربائية الحيوانية فنسبت اليهِ وقيل لها الغلوانية وهذه الكهربائية تحصل باللمس ثم وضحها المعلم فولطه ووضع العمود الكهربائي الذي ادّى كرويكس هانكس الانكليزي لعمل الحياض الكهربائية على ما يذكر ذلك في القرن التالي وكان قبل ذلك اصطنع المعلم كوينوس الجرّة الكهربائية ويقال لها زجاجة ليد نسبةً الى القرية التي عُملت فيها

(الپيل) وفي سنة ١٧٩٤ اصطنع رجل يقال لهُ ولتا من فرانسا الپيل الذي يُستعمل للتذويب وللتلغراف الكهربائي

القرن التاسع عشر

يمتاز هذا القرن بتقدم العلوم والفنون والمؤلفات العمومية والمباحث التاريخية تقدماً يفوق جميع الاعصر السابقة ثم وباتفاق جميع الدول المتمدنة في اوروبا على ابطال الاسترقاق والغاء استعباد النوع البشري على وجه الاطلاق وعقدت لذلك بينها معاهدات قوية اشتركت فيها الدولة العلية العثمانية والخديوية المصرية وبالجملة حكومة زنجبار الكائنة على شطوط افريقية الشرقية ايضاً

(الفلسفة) غير ان الفلسفة الجرمانية العقلية التي ابتدأت في القرن الماضي قد كانت في بداءة هذا القرن اضرّت بالديانة في اوروبا وتسلط الكفر بوقاحةٍ على اشهر مولفات الممالك المتمدنة حتى ان الفلسفة والسياسة كادتا ان تقوما مقام الدين لولا ظهور بعض العلماء الكبار مثل شَلَيرمكَر وحان وديفتي وهنكستنبرغ وتولوك الذين حاموا عن روح الديانة بحرارةٍ وبقي الحال على هذا المنوال الى اواسطهِ ومن ثم تغيّر نوعاً وظهر شيء من النشاط في فروع الديانة المسيحية الثلاثة اعني الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة الارثوذكسية اليونانية والكنيسة الانجيلية البروتستانتية واخذت جميعاً في بث التعاليم الدينية ونشرها في اقطار الارض على ما يذكر ذلك في ما يأتي

وقد كان شرع كثيرون من كفرة الفلاسفة في ايجاد مبدأ فلسفي لتاريخ العالم العمومي اي ايجاد الغاية التي لاجلها وجد الجنس البشري وبموجبها تحدث جميع حوادث التاريخ لكن حبطت مساعيهم وفشلت اراؤُهم اذ انهم لم يقدروا

ان يحصلوا على مبدأ كلي نظير الموجود ضمن دائرة الدين قال صاحب الاصل انه لا نظام هردر الذي جعل تقدم الجنس البشري هو الغاية العظمى ولا نظام شليغل الذي جعل الاتحاد المقدس في اثبات الحكم المطلق في السياسة والديانة هو المبدأ الكلي. ولا راي هيغل البروسياني الذي وجد هذا المبدا في نمو الحرية الموافقة للعقل محتجاً بان هذه الحرّية قد تمت في الحكومة البروسيانية. ولا نظام كومتي الفرنساوي الذي انكرَ الفلسفة العقلية واللاهوت وجميع العلل الاصلية الفعالة ونسب الى العلم الايجابي المطلق قوّة تجديد الجنس البشري ولا تعليم السوشياليين اي الكومون الذين يجعلون كل شيء مشتركاً ويحسبون موازنة الحقوق والعواطف الطبيعية الغاية الوحيدة للتاريخ البشري. ولا نظام اخر من النظامات العالمية امكنهُ ان يفسّر الحوادث التاريخية باسرها كما يفسرها كتاب الله وحدهُ . وتُقسم الفلسفة الشائعة في هذا القرن الى عدّة اقسامٍ وهي

(١) الفلسفة الفرنساوية التي تقدم ذكرها عند الكلام على فرنسا في القرن الماضي كان ظهورها في سنة ١٧٩٦م وهي فلسفة مادية تنكر وجود الله وتعلّم الناس العبادة على اساس الديانة الطبيعية ورفض كلّ اعلانٍ الهي وكان انعقد لها في باريس عشر جمعيات تحت ادارة رجل يُسمّى ليبو تسمت جمعيات المحبة الالهية والانسانية واستمرّت الى سنة ١٨٠٢ عندما نهض شاتوبريان احد رجال الفرنساوية للمحاماة عن الايمان ولئن كان الكافر الشهير فولتير لا يزال ينادي بان كلّ عقلٍ وكلّ فكرٍ انما هو مشتق من المادّة

(٢) الفلسفة الاكليتيكية وهي ان فيكتور كوسان في خطاباته سنة ١٨٢٨ حوّل مجرى التفلسف الفرنساوي حيث علّم بسلطان الحق المجرّد وقاوم الفلسفة المادية المذكورة حتى خرقت فلسفته وان كانت غير منتظمة عقول الفرنساويين اجمع ونسبة هذه الفلسفة الى الدين هي سلبية لا ايجابية اذ انها ترفع شان العقل المطلق واما الشهير اوغسط كومتي الذي مرّ ذكرهُ فاختلف مبداهُ عن مبدإ هذا المذهب العقلي حيث انه ذهب بان الطريقة الوحيدة للتفلسف هي استنتاج

المبادي من مجموع الحوادث والاختبارات وانكر جميع العلل الاصلية وجميع المفاعيل الفعالة وكل اللاهوت والعلوم العقلية على ما ذكرنا انفاً حتى انتهى الى انكار وجود الله سبحانهُ بكلّ وقاحةٍ

(٣) فلسفة فرانسا الكثوليكية وهي فلسفة تقليدية واصحابها يقاومون التفلسف العقلي واشهرهم ديبونال وبوتين وديستير وكراتري واما ديلامني فرفض في نظامهِ الفلسفي مبدا التقليد الذي كان قد حامى عنهُ بفصاحةٍ

(٤) الفلسفة في سكوتلاندا وانكلترة وهي ان علماء الانكليز اشتهروا في الفلسفة العقلية جدًّا في هذا العصر واظهر وريد في سنة ١٧٩٦ اراء سديدةً أحيت فلسفةً اتصل في فرانسا وايطاليا ثم حامى دوكال سفورت عن هذا النظام بخطاباتٍ فصيحة في سنة ١٨٢٨ وكان توما برون قد ضادَّهُ قبل ذلك اعني في سنة ١٨٢٠ بدون نجاح واما السيد وليم هاملتون فقد حدَّد الفلسفة السكوتلاندية بدقةٍ عجيبة وعلمٍ تامّ اذ انكر كلَّ معرفةٍ ايجابية ومجردة من جهة ما هو غير محدود ومطلق وجعل الايمان اساسًا للفلسفة وللديانة معًا واما تشالمرس فدافع عن المسيحية مهاجمات العلوم الطبيعية

(٥) المذهب الحسيّ في انكلترة اشتهر فيهِ يوحنا ستوردميل الذي تبع كومبي وكولريج واحيى روح التخيلات العقلية غير انهُ لم يؤسس مذهبًا فلسفيًا والكنيسة العريضة في انكلترة (وهي غير العالية والواطية) تنتسب بداءتها الى فلسفتهِ

(٦) الفلسفة الجرمانية وهي الاستبدادية والتخيلية المنكرة للوحي التي ظهرت في القرن الماضي وقد تجددت قواها في هذا القرن من ادبيات كنت اذ انهُ جعل العقل الحاكم الاعلى من جهة الحق بانكارهِ على امكانية معرفة الامور في حدّ ذاتها معرفةً موكدةً وجعلهِ طبيعة الانسان الادبية اساسًا لكل برهانٍ على وجود الله والحرية وخلود النفس واما يوحنا فشتي الذي ولد في سنة ١٧٦٢ ومات سنة ١٨١٤ فجعل ذاتية الانسان هي المقدّمة المسلَّم بها في الفلسفة ثم شرح تعليم التصوُّر الداخلي وفي بداءة تعليمهِ جعل النظام الادبي في العالم الهًا ولكن

سلم اخيرًا بوجود اله حقيقي وفريدريك يعقوبي الذي مات سنة ١٨١٩ حاجَّ في الحاسيات الدينية واعتقد ان لكل انسان تصورًا داخليًا يقدر على ان يتصور به الاله وضادَّ التعليم التخيلي والباتيستي . وشلين ذهب الى ان الارادة مطلقة والله حرٌّ لكن فيهِ تعالى سبب واساس يستلزمان وجود الطبيعة التي تخرج منها ضرورةً . ثم قام هيكل سنة ١٨١٨ وعلم بان الله لم يشعر بشيء قبل وجود الانسان وان اصل كل فلسفةٍ وكل وجودٍ هو مجرد التصوُّر وقاوم البراهين على وجود الله والحرّية والخلود التي بناها كنت المارّ ذكرهُ على التعقل العملي وانصبَّت فلسفتهُ الى كفرٍ مبين . واما ستروس وهو من تلاميذ هيكل فشرع في انتقاد الكتب المقدسة وحوَّل الانجيل الى حكاياتٍ وامثال اذ اعتقد انهُ لا يمكن تصديق وجود معجزةٍ او نبوَّة او رمز ثم ظهر فريدريك بور ورفض التاريخ الانجيلي وركب تاريخًا جديدًا يوافق فلسفتهُ ورفض بعض ما ورد في الانجيل والرسائل وتصرَّف في الكتب المقدَّسة تصرُّفًا وقحًا مضادًّا لكل المبادي التاريخية والعقلية

(٧) الفلسفة الايطاليانية وهي ان كالوبي الذي ولد سنة ١٧٧٣ وتوفي سنة ١٨٤٦ علَّم في نابولي فلسفة ريد والاب فنتورا فسَّر كلَّ نوعٍ من الفلسفة أيًا كان بحسب ما تقتضيهِ قوانين المجمع التريدنتيني . واما الفيلسوفان الايطاليان وهما جيوبرتي الذي توفي سنة ١٨٥٣ وسرباني الذي توفي سنة ١٨٥٥ فانهما حاميا عن الديانة ضد الفلسفة العقلية والباتياسنية ومما قالهُ جيوبرتي ان علة كل وجودٍ وجودٌ وان تصوُّر وجودٍ اسمى اخر تصور العقل

(٨) الفلسفة السوشيالسنية اي الكومون وهي اشتراك الكل في كل شيء فالكونت سانسيمون الذي مات سنة ١٨٢٥ شرع في انشاء مسيحية جديدة بواسطة رفع حقوق اصحاب الاشغال وتجديد حقوق الجسد فنظم نظامًا سياسيًا هاج بهِ قومهُ تحت رياسة بازارد وانفانتين على حكومة فرانسا وعصوها فاخضعتهم الحكومة سنة ١٨٣٢ ثم ظهر روبرت اوين ونظم جمعية لاجل تجديد نظام

الاشغال والهيئة الاجتماعية وتبعة نحو نصف مليون من الناس في انكلترة . وفي سنة ١٨٥٤ علّم بمجاورة ارواح الموتى . واما نظامة الادبي فليس هو الاّ خراب وفساد . وهناك رجل اخر يقال لهُ كارلوس فوريرجمع جمهورًا في رامبولي سنة ١٨٣٥ قدرهُ ١٨٠٠ شخص لاجل امتحان مبادي العيشة المشتركة فجعلوا كل شيء مشتركًا ولكن هذه التجربة ذهبت سدى . ثم ان لويس بلانك شرع في الثورة الفرنساوية التي وقعت في سنة ١٨٤٨ بان يتم بالفعل هذه المبادي وبذلك جعل الانقلاب ونادى برودون بان كل ملك سرقة وليس لاحد حق ان يقتني راس مال ثم ظهر الكومون الذي انتشر حديثًا بجمعية الانترناشنال التي جلبت على ذاتها العار وبغضة الجنس البشري لما بما ارتكبتهُ من الفواحش البربرية في احراق مدينة باريس سنة ١٨٧١ كما يتضح ذلك مما ياتي

وهنا نذكر في مقابلة ذلك توضيح ما اشرنا اليهِ في ما مرّ من النشاط الذي اظهرتهُ فروع الديانة المسيحية في بث التعاليم الدينية وذلك بواسطة جمعيات خيرية ترتبت في اوربا لهذه الغاية وكما انهُ لا يوجد في عصر من الاعصار السالفة امتداد للكفر بهذا المقدار يحاول اربابهُ نشرهُ في العالم كذلك لا توجد جمعيات هذا مقدارها لتأييد الديانة ونشرها في الربع المسكون عند كل البشر اذ انهُ يوجد نحو ٢٠٠٠ كاهن معينين لهذا العمل من الكنيسة الرومانية و١٥ جمعية لها ١٥٨١ مبشرًا و١٢١١ مساعدًا لهم يصرف عليهم نحو مليون ونصف ليرا استرلين من الكنائس الانجيلية. اما الكنيسة اليونانية فلها في روسيا جمعية لانتشار الكتب المقدسة ومبشرون لاجل تبشير الامم في الصين واليابان وبلاد الفرس والقوقاس وسيبيريا وكمشتكا وهم جميعًا سائرون على قدم النجاح بين الوثنيين هناك

اصول شعوب الدول الافرنجية الحاضرة ومراكز تقدماتها الحالية في القرن التاسع عشر وفيه مطلبان

المطلب الاول

في الكلام على دول اوروبا القديمة التي تاسست من الشعوب المتبربرة الهاجمة على الامبراطورية الغربية

(ايطاليا) وكانت ايطاليا لحد اواسط القرن التاسع عشر منقسمة الى سبعة اقسام كما يستبين ذلك مما تقدم من الكلام عليها الى نهاية القرن الثامن عشر وهي اولاً ساردينيا او ساردو ثانيًا لومبارديا ثالثًا بارما رابعًا موديا خامسًا توسكانا سادسًا بلاد الكنيسة الرومانية سابعًا نابولي وسكانها جميعًا تُعرَف اصولهم مما ورد في الفصول السابقة ايضًا وجه ١٢٩ و٢١٦

وكان من اشهر هذه الاقسام قسم نابولي الذي من مدنهِ كستل امارة المشتهرة بموت بليناس القديم فيها بالهرم واغريجان التي بجزيرة سيسيليا المسماة بجزيرة صقلية وقد خرج منها امفيدوكل الفيلسوف الذي تكلم على الجوهر الفرد بعد فيثاغورس ومدينة سيراقوسة وطن ارشيمدس المهندس الذي قتلهُ احد الجنود الذين كانوا محاصرين هذه المدينة لكونهِ لم مجاوبهُ على خطابهِ اذ كان مديم الاشتغال باختراع الالات الحربية وصنعها للذب عن تلك المدينة في

سنة ١٢٨ ام ومن مدنهِ ايضاً ترنتة التي بالقرب منها توجد عناكب تسمى ترنتولة كانت سبباً لكثير من الحكايات المفتعلة ثم تبين الآن ان سم هذه العناكب ليس خطراً الاّ على بعض هوامّ تغتذي بهِ

وكان هذا القسم بعد اجلاء الدولة الارغوانية محكوماً بملك من عيلة بربون ملوك فرانسا وكرسيهُ مدينة نابلي التي يُنسب اليها وهي من مدن اوروبا الظريفة واكبر مدينةٍ في ايطاليا وبها كثير من المباني العظيمة وبيوتها وقصورها من اظرف البيوت والقصور لكنها لا تصل الى درجة رومية وبها برابي ظريفة واهرام حسنة وحنفيات تأتي اليها الماء من عيون بالجبل وحاراتها نظيفة مبلطة بحجر اسود تقذفهُ جبال النار وبها ديوان علوم جامع ومدارس علوم وعدّة مجالس مشورة للعلماء وكتبخانات ملكية ورواق فيهِ اثار القدماء المستغربة وفابريقات للحرير والكتان والقطن والجوخ والورق والآلات الحديدية وصاغة للذهب والفضة ومعامل للشعيرية المسماة مقرونه وهي كثيرة التجارات واهلها ٣٥٠ الف نفس وفي مدينةٍ اخرى من توابعها يقال لها سلرنة مكتب طب شهير من القرن الخامس للميلاد وفي مدينة غيرها تسمّى كوزنزة اكدمية (اي مجمع علما) من اشهر اكدميات اوروبا

وقسم ساردينيا الذي من مدنهِ جنوبزه التي خرج منها كرستف كلمب الذي اكتشف بلاد امريكا في القرن الخامس عشر وكرسي هذا القسم كان مدينة تورين الظريفة تحتوي على ٩٠ الف نفس ويوجد فيهِ من المدارس الجامعة ثنتان واحدة في تورين المذكورة والاخرى في مدينةٍ يقال لها كغلياري واخيراً جمع هذا القسم كلّ ممالك ايطاليا وجعلها مملكة واحدة كما يتضح ذلك في ما يأتي

وقسم لومبارديا ويقال لهُ لنبرد البنادقة او مملكة ونديق الداخلة تحت حكم النمسا خرج منهُ عدّة مشاهير في الزمن القديم كالحكيم بليناس الذي مرّ ذكرهُ في الكلام على نابولي وهو من مدينة يقال لها ورونة لازال يوجد بها ميدان

عظيم كان الرومانيون القدماء ينصبون فيهِ القتال بين الوحوش وخرج منها ايضاً المورخ تيتلوه الذي مرّ ذكرهُ في الكلام على المعارف عند الرومانيين والمعمار بلديو الذي تعلم الهندسة من المباني القديمة الموجودة في مدينة ويسنسة التي هي وطنهُ والشاعر ورجيل وقد مرّ ذكرهُ مع تيتلوه المذكور

وكان كرسي هذا القسم مدينة ميلان وتحتوي على ١٤٠ الف نفس خرج منها عدّة باباوات وغيرهم من اكابر الافرنج وقد اضمحلت منها الاداب منذ انقراض العائلة السفسورية في القرن السادس عشر كما اضمحلت فيهِ ايضاً من نابلي بعد اجلاء الدولة الارغوانية غير انها لا زالت الى الآن من اظرف مدن ايطاليا وفيها عدّة كنائس جميلة كانت سلاطين النمسا تلبس تاج مملكة ايطاليا في واحدةٍ منها تسمّى سنت امبروازة وبها تياترو عظيمة ومن توابعها مدينة البندقية التي اليها ينسب القسم بتمامهِ مبنيةً على ٧٢ جزيرة فيمكن للانسان ان يسلك في جميع جهاتها بزوارق صغيرة وفي هذا القسم يوجد مدرستان جامعتان واحدة في قسم مملكة بادوه والثانية في مدينة بادية ومعامل للمرائي والبلور في مدينة مورانو

اما بلاد الكنيسة الرومانية فكان كرسي مملكتها مدينة رومية التي بعد ان كانت فيما سلف قصبةً لاعظم ممالك الارض كما يُعلم ذلك من الابحاث التي مرّت في كثيرٍ من محلات هذا الكتاب وخرج منها عدّة من مشاهير الرجال العظام لم تكن لحد سنة ١٨٦٩ الاّ قصبة لهذا القسم فقط على ما ذُكر ومركزاً للاحبار الرومانيين روساء الديانة الكاثوليكية وكان من توابعها مدينة فينزا التي حدث فيها الخزف المطلي الذي يسمّونهُ الفينس نسبةً اليها وتيبولي ذات الوضع العجيب حتى ان هوراس الذي مرّ ذكرهُ في الكلام على المعارف عند الرومانيين اتخذ لهُ فيها بيتاً في الخلا ومدينتا بولونيا واوربين اللتان كانتا وطناً لكثير من مشاهير الافرنج على ما تقدم

واما شهرة رومية نفسها قديماً وحديثاً فهي غنية عن الاسهاب وهي لا زالت

احدى مدن الارض الغربية بكثرة مبانيها العجيبة وجمال هياكلها الفاخرة وقصورها العظيمة وما فيها من اثار القدماء وحوزها للتحف المستظرفة التي هي ثمرة الصناعة حتى ان القنوات التي يجري فيها الماء اليها عدّها بعضهم من عجائب الدنيا السبع على ما سبق ذكر ذلك في محلهِ قال بعضهم ان عدتها ٢٤ واطولها يبلغ نحو ٦٠ ميلاً فانهُ في بعض المواضع جبال شامخة مثقوبة لاجلها وفي مواضع اخرى تقطع اودية عميقة على قناطر عظيمة يبلغ ارتفاعها ١٩٠ قدماً وفي هذه المدينة ايضاً كنيسة الرسوليين بطرس وبولس التي تم بناها البابا لاون العاشر كما ذكرنا ذلك في ما مرّ وهي اظرف كنائس الدنيا واجملها واكبرها

ويوجد في هذه المدينة مدارس كبيرة للطائفة اللاتينية وكانت دولة فرانسا انشأت فيها مدرسة لتعليم الفنون المستظرفة ايضاً وكذلك يوجد في بولونيا التي مرّ ذكرها مدرسة جامعة من اقدم مدارس ايطاليا واكدمة علوم ومع كل ذلك قد ذكر في بعض النشرات بانهُ في سنة ١٨٦٤ كان يوجد في الايالات المختصة بهذا القسم من كل ١٠٠٠ نفس ٩١٢ نفساً لا يعرفون القراءة والكتابة بمقتضى دفاتر الحكومة بعد احصاء كل الشعب والباقي القليل يُحسب بجملتهِ اهل الاكليروس ما بين اساقفة وقسوس ورهبان وراهبات يوجد منهم نحو ٦٠٠٠ نفس في ذات مدينة رومية وحدها

واما قسم التوسكانا فكانت قاعدة دوقيتهِ لحد سنة ١٨٥٩ مدينة فلورنسا وهي موضوعة في وادٍ نضر ظريف وفيها عدّة اكدميات وكتبخانات وقصور منيفة وبساتين انيقة ظريفة ومن مبانيها كنيستها الاصلية وكنيسة سنت لورانت التي بناها البابا لاون العاشر وقد ذكر ذلك في محلهِ مما مرّ وسراية الدوق الاكبر المشتملة على مجمع التصاوير والتماثيل العظيمة واثار القدماء وبها كثير من انوال الحرير وقماشة يسمّى فلورنس وتجارتها عظيمة وهي وطن امريق الذي دخل بلاد الدنيا الجديدة وعرفها وألّف فيها رحلةً فاشتهرت باسمهِ على ما تقدم ايضاحهُ في الكلام على اكتشاف امريكا ويوجد في البلاد التابعة لهذا القسم من

المدارس الجامعة واحدة في سيانة واخرى في بيزة التي يوجد فيها ايضاً قلعة عجيبة مبنية من ثمان طبقات مائلة على احدى جانبيها كأنها آخذة في السقوط فيخاف الغريب ان يمرّ بجانبها ذكرها بعض المؤلفين فقال هي كنيسة عظيمة ذات صومعة تسمّى المائلة وفي بروج النواقيس وبها مقابر تسمّى كمبوسنتو نقل اهل بيزة ترابها من بلاد القدس في ٥٠ غليونًا ومن بيزة هذه خرج جالينوس الطبيب ايضاً

وكان قد طرأ على سكان اغلب هذه الاقسام المذكورة الرقّ والاستعباد ما عرض على حكامها من التغيير والانقلاب حتى صاروا في حالةٍ شتّان ما بينها وبين ما كانوا عليه من قبل نعم ان بعض العلوم والفنون كان لا زال مخدومًا في بعض اقسام منها لكن بهجته ليست في رونقها الاوّل قال بعض المؤلفين ان سبب عدم نمو العلوم في هذه المملكة (بهذه الازمنة الاخيرة) هو فقد الحرّية ولذلك ترى اكثر اهاليها الان مع ما هم عليه من الحدّة والفكاهة في حالة الجهل والغباوة وترى رهبانها الكثيرة من الذكور والاناث وهم على ما قيل واحد في كل مائة رجل يتمتعون بخيرات تلك الاراضي المرويّة بالترع العديدة وغيرها من الوسائط الاخر المنسوب استنباطها الى الرومانيين القدماء لاجراء الماء من مكان الى اخر ويخطرون في طرقها الشهيرة التي اصطنعها اولئك الرجال العظام فهي تخرق الجبال بسراديب طول بعضها ٣٦ ميلاً وعلو بعضها ٨٠٠٠ قدم وتقطع الاودية بجسورٍ معتبرة ويسكنون في تلك الابنية الفاخرة البهية والقصور الواسعة السلطانية التي لا يوجد مثلها في العالم

غير انه لا بدّ ان يرجع اليها شيءٌ من رونقها القديم اذ انه بعد ان انضمت اقسام توسكانا ونابلي وسيسيليا الى ساردينيا في سنة ١٨٥٩ وصاروا جميعًا مملكةً واحدة تحت سلطنة الملك ويكتور عمانوئيل ملك ساردينيا بسعي ونشاط الجنرال يوسف جاريبالدي انضمت اليها كذلك رومية وسائر البلاد التابعة لها بعد خروج العساكر الفرنساوية الذين كانوا يحافظونها منها عقيب سقوط

نابوليون الثالث عن عرش المملكة الفرنساوية في سنة ١٨٧٠ وصارت جميع اقاليم ايطاليا مملكة واحدة تحت تملك الملك ويكتور المشار اليه وقد كانت حُسبت الديورة الموجودة في قسمي سارد ينيا ونابلي فقط عداه عن باقي الاقسام فوجدت ٢١١٩ ديرًا للذكور و٢٧٢ ديرًا للاناث وكانّ عدد الرهبان الساكين فيها من الذكور والاناث نحو ٢١٠٠٠ وايراد هذه الديورة جميعًا نحو ٥٢٢ الف ليرا فامر هذا الملك بضبطها وبترجيع الرهبان والراهبات الى عيالهم وعيّن هذا الايراد المذكور لانشاء مدارس كبرى وصغرى لتعليم الشعب في الاماكن التي كانت تسكنها الرهبان واقام لها وزيرًا خصوصيًّا لمناظرة احوالها فجلب هذا الوزير اليها من بلاد بروسيا وامريكا احسن نظام واحسن الكتب ويوجد الان فيها على ما ذكر في بعض النشرات المطبوعة في سنة ١٨٧١ ٢٥ الف مدرسة تحتوي على ٢٢٠ الف تلميذ واباح ايضًا هذا الملك في بلاده التعبد في جميع الاديان وكان قبل ذلك لا يُباح فيها الاّ التعبد بالمذهب الكاثوليكي ومن ثم اخذت اهالي المملكة الذين يبلغون والحالة هذه نحو ٢٧ مليونًا من النفوس في التمدُّن والتهذيب

(فرانسا) واما فرانسا فهي البلاد التي كانت تسمى سابقًا غالة ودخلت تحت حكم الرومانيين منذ افتتحها يوليوس قيصر الروماني ومكثت تحت حكمهم ٥٠٠ سنةٍ فادخلوا بها غراسات كثيرة لم تكن موجودة فيها جلبوها اليها من عدَّة اقاليم مختلفة كما هو دأبهم في البلاد التي كانوا يفتتحونها على ما ساقهُ الحديث فسبقت الاشارة اليهِ عند الكلام على حالة روسيا في القرن الخامس عشر ثم في القرن الخامس بعد الميلاد غلبت عليها قبائل جرمانيا المتبربرة وامتلكتها طائفة منهم تسمى افرنك فتسمت حينئذٍ فرانسا ومن ذلك الوقت الى الان لم تدخل في يد دولةٍ من الدول الغربية وقد سبقت تفاصيل تقدماتها الى نهاية القرن الماضي ثم بعد الثورة التي جرت في هذه المملكة عند ختام القرن المذكور على ما تقدم ايضاحهُ قام فيها

نابوليون الاوّل من عائلة بونا بارته بصورة رئيس او هو قنصل اوّل على الجمهورية الفرنساوية ثم بالتالي تولى امبراطورًا في سنة ١٨٠٤ وكان في مدة قنصليته اعاد الى فرانسا مهاجرى الفرنساوية الذين كانوا نزحوا منها في زمن الثورة وردهم الى اوطانهم واعاد كذلك الديانة ورتب المدارس والمواد التعليمية ترتيبًا جديدًا ونظم المدرسة التي كانت احدثتها مشورة السنت الاهلية وهي مدرسة كلّيات العلوم ورتب عمارة الانستيتوت وهو مجمع العلماء الذي انشأتهُ الحكومة الادارية وجمعت فيهِ مشاهير العلماء العظام واكابر الادباء الاعلام واحدث رتبة الشرف المسمّاة ليجيوند ينور وجعل لها علامة تشريفية تعطى لمن نصح في خدمتهِ للوطن واصلح الطرق والمواني والقلاع في المملكة وشرع في انشاء مجموع شرائع وقوانين (وهو الكونيشي) اخذتهُ اغلب الممالك الافرنجية انموذجًا وعملت بهِ

ثم في سنة ١٨١٤ سقط هذا الامبراطور عن عرش الامبراطورية وتولى عوضهُ كرلوس العاشر من عائلة بوربون وصار حكم فرانسا من نوع الملكي المقيَّد ولكن لم تطل المدّة حتى تعدى هذا الملك شروط المملكة وابتدأ في المظالم فقام عليهِ الشعب وخلعوهُ من الملك في سنة ١٨٣٠ واقاموا مكانهُ لويس فيليب من عائلة اورليان وهي فرع من العائلة الملكية المذكورة ثم في سنة ١٨٤٨ طردوهُ من الملك فهرب الى بلاد الانكليز وعاد الحكم الى النوع الجمهوري تحت رياسة لويس نابوليون الذي صار اخيرًا امبراطور الفرنساويين وتسمّى نابوليون الثالث وفي ايام هذا الامبراطور ارتقت فرانسا الى اوج الفخار ماديًا وادبيًا وزهت زهاء لم يسبق لهُ نظير حتى صارت باريس في ايامهِ عبارةً عن محكمة تُفصل فيها منازعات قوّات الارض

وهذه المملكة التي كانت تحتوي على ٢٨ مليونًا و٢٨٣ الفًا من النفوس يتحكم فيها المذهب الكاثوليكي وبها كثير من البروتستانت والحرّية مباحة فيها لسائر الاديان واهلها لطفا بالطبع واصحاب نخوةٍ وشجاعةٍ في الحروب وهم من المروءة وشدّة البأس على جانب عظيم ولهم رغبة في الملاهي والملاعب والغنا والرقص

ولا يرغبون في السفر ولذلك كانت الطرق في بلادهم غير جيدة الى ان اخذوا منذ اكثر من ٣٠ سنة في اصطناع طرق الحديد المنتشرة الان في اغلب جهاتها

وقصبة هذه المملكة مدينة باريس وهي الثانية من مدن اوروبا بالنسبة الى الاتساع والسكان فيها اكثر من مليون من النفوس ومحيطها ٢٠ ميلاً وهي مركز تمدن الافرنج وعلومهم وادابهم المستظرفة خرج منها مشاهير كثيرون من عظمائهم وهي جميلة البناء مشحونة بالقصور والجنائن ومراسح اللهو والطرب ومواضع التنزه وبها قصر اللوفر الذي كان يحتوي على تحفٍ جميلة ثمينة وكنائس واديرة عظيمة ولشدّة اعتناء اهلها بكثرةٍ في العلوم والفنون توجد بها مدارس عديدة ومكاتب مشهورة في كلّ مكان يوجد فيهِ العلم ومن هذه المدارس مدرسة كلّية كانت تحتوي على ١٠ الاف تلميذ ومكتبة يقال بانهُ كان فيها مليون من المجلدات لحد سنة ١٨٦٧ ما عدا المكاتب الاخرى التي تحتوي كتباً كثيرة حتى يبلغ عدد الجميع نحو خمسة ملايين وهي مشهورة ايضاً بكثرة المطابع وسهولة اكتساب العلوم لان اكثر المدارس والقاعات الخطابيّة تكون مفتوحةً لافادة الجمهور والدخول اليها مباح لكلّ من اراد استماع الخطاب من غير مانع وكان انشا بها الامبراطور نابوليون الثالث المارّ ذكرهُ المعرض العمومي وهو قصر عظيم من البلور معدّ للفرجة على جميع محصولات العالم واعمالهِ وصنائعهِ كما يتضح ذلك من الكلام على الصنائع في ما ياتي وكان شُرِع بعمل هذا المعرض في لندن قصبة مملكة الانكليز قبل باريس لكن لما زاحمتها عليهِ فرانسا واعتنت بهِ الدولة اعتناء زائدًا واتقنتهُ حق الاتقان وكانت بلادها اقرب من غيرها لوجود اساكلها على بحر الروم فازت بهِ وبمنافعهِ اكثر من غيرها

وما ذكرناهُ هنا جميعهُ هو بالنظر لما كانت عليهِ هذه المدينة قبل ما فعلهُ فيها الكومون بعد انتهاء محاربتها مع المانيا في سنة ١٨٧٠ من الخراب والفظائع البربرية بحقهِ منها اكثر ما تزينت بهِ من الابنية الجميلة والاثار الجليلة التي تقدرت قيمتها بنحو ٢٠٠ مليون من الفرنكات مع ان الالمانيين لم يريدوا ان

يجوروا في اطلاق كرات المدافع عليها كيلا يحتشوا جالها بخراب او تلف شيء من محاسنها اما الكومون المذكور فانه عمل فيها اعمالاً احزنت نفس اعدائها بحرقه قصر التويلري ومحل نظارة المالية وبالي روايال اي السراية الملوكية وسراية الحكمة ومكان ادارة البوليس ودار القضا وقصر الليجيوند بنور ومجلس المحاكمات ومحلة الحسابات وقصر اللوفر المارّ ذكرهُ الذي كان يشتمل على غالب التحف والاثار النفيسة كالتمثال المسمى ابا الهول وهو من الصوان مُستجلب من الديار المصرية والصور والتماثيل البديعة الصناعة التي اشتغلها المعلمان انكرود ولاكروا والنقوش الحجرية التي وجدت في خرابات نينوى وبدائع اخرى من اشغال الرومانيين واليونانيين وجواهر واحجار كريمة منقوشة نقوشاً عجيبة في القرون الوسطى واواني فخارية من صنع المعلم برنردوس الشهير وكسروا عامود فاندوم المقام تذكاراً لنابوليون الاول وهدموا الكنيسة المقامة تذكاراً للويس السادس عشر وغير ذلك من حريق جملة تياترات شهيرة وقشل عسكرية وطرق حديدية وحارات بجملتها فضلاً عن البيوت المنفردة التي اختصوها بالحريق كبيت موسيو تيرس وغيره

لكن روساء الجمهورية الفرنساوية الذين تولوا تنفيذ الاحكام في هذه المملكة بعد انتهاء الحرب بسقوط نابوليون الثالث اسيرًا في يد الالمانيين واولهم موسيو تيرس المارّ ذكرهُ فانهُ اجتهد في ايفاء الضريبة التي ضربتها المانيا على فرانسا في نظير مصاريف الحرب وقدرها خمس مليارات فرنك لاجل ان تقوم العساكر الالمانية من بلاد فرانسا قبل حلول الاجل المعين لدفعها وثانيهم المرشال ماكاهون الذي تولى بعدهُ ولا زال حتى الان فانهُ اخذ على نفسهِ اصلاح احوال هذه المملكة وترميم شعثها واعادة ما اندثر من مفاخر مدينة باريس وزينتها وبذلك اظهرت الامة الفرنساوية صبرها وعظم اقتدارها لانها مع ما قامت بهِ من ايفاء هذه الضريبة الفاحشة وخسارتها مقاطعتي الالزاس واللورين اللتين تحتويان على ١٤١٦٨٠ من النفوس بضمها الى مملكة المانيا

على مقتضى شروط المصالحة التي ابرمتها المانيا عليها قد ظهر منها الان من الجد والاجتهاد في اتمام هذه المشروعات العظيمة وغيرها ما يعدُّ من خوارق العادات والمكنة البشرية كانها لم تعبأ قط بشيء من هذه النوائب بل قد روت بعض الجرائد ايضًا انها بنت حديثًا قبةَ جرسٍ في كاتيدرال روان علوها ٤٩٢ قدمًا من الحديد المصبوب مع ما هي فيهِ من الحالة التي اشرنا اليها

ومن مدن فرانسا ايضًا مدينة ليون التي هي من امهات مدن هذه المملكة وثاني مدينةٍ من مدنها نظرًا لعمارتها وبراعتها في الصنائع والتجارات ويوجد بها من المعامل ٣٤ الف عدّةٍ او دولاب وكذلك في مدينة مرسيليا ذات المينا العظيمة على بحر الروم تسع الفًا ومائتين سفينة وهي اقدم مدن فرانسا بناها مهاجرو اليونان سنة ٦٠٠ ق م توجد معامل كثيرة ايضًا ومحل الكرنتينا يعدُّ من منتزهات اوروبا ومنها خرج عدّة من مشاهير الفرنساوية ويلي هذه المدينة مدينة بردو وهي ايضًا ذات مينا تسع الف سفينة ويمكن السفر منها الى بحر الروم بواسطة ترعة لنغدوك وفيها يُصطنع الخمر المشهور وهي ذات تجارة عظيمة واغنى مدن المملكة ومن مدن فرانسا ايضًا مدينة طولوزة ذات المدرسة العظيمة التي هي اقدم مدارس اوروبا وتسمّى مدرسة الالعاب انشاها اكلمنس بزورة فكانت اوّل اساس وضع في فرانسا للفنون وللاداب ومن هذه المدينة خرج كذلك عدّة من اكابر الافرنج ومنها مدينة متس او متز وفيها مكاتب للعساكر الطوبجية والهندسة الحربيّة ومدرسة سلطانية ومجمع علماء عظام وخزانة كتب تحتوي على ٦٠ الف مجلد ورواق للطبيعيات ومراتبها الثلاث وبها ابنية مشيدة منها كنيسة عظيمة مبنية بالبناء القديم ومنها مدينة اجاشيا بجزيرة كورسيكا التي ولد فيها نابوليون الاوّل ومنها مدينة استراسبورغ ذات المباني العظيمة وفيها احدث يوحنا غوتمبرغ الميلسي الطباعة. وهذه المدينة ومدينة متز المارّ ذكرها ليستا من المدن الفرنساوية وانما الحقتا الى فرانسا في القرن السادس عشر وقد خربتا خرابًا مريعًا في حرابة سنة ١٨٧٠ حتى ان ستراسبورغ هذه خصّص لها امبراطور

المانيا ٥٠ مليون فرنك من اصل التضمينات التي اخذها من فرانسا نظير ما اصابها من الاضرار بعد ان سلخها عن فرانسا وضمّها الى بلاده

وفي هذه المملكة توجد ابراج وقصور وحصون وابنية حسنة جدًّا ليس لها نظير في الدنيا وكثيرٌ من الآثار القديمة مثل قبور وسراديب وهياكل ومجاري للماء وحمامات من بناء الغالة والرومانيين القدما و٢٤٠ نبعًا معدنيًّا اكثرها تحت مناظرة اطباء مقامين من طرف الحكم لاجل صحة المرضى الذين ياتون اليها

وذكر في احدى الجرائد المنتشرة في سنة ١٨٧٠ بان دولة فرانسا كانت صرفت في سنة ١٨٦٥ (٧٣) مليونًا من الفرنكات في سبيل التعليم وكان عدد المدارس العمومية والخصوصية في سنة ١٨٦٦ (٧٠٦٧١) مدرسة يوجد بها من التلامذة ٤٥١٥٦٧٦ وعدد المدارس الرشدية فيها ٣٢٥٨٣ وعدد تلامذتها ٨٣٩٥٢٥ وقامت الدولة بمصروف ١٧٦٧٣٥١ تلميذًا اما المدارس العالية جدًّا فقد أُقيم منها جديدًا مدرستان لتعليم القوانين (الشرائع الفرنساوية) في دوي وفي نانسي وثلاث مدارس لعلم المعاني والبيان والمنطق في كلرمون ودوي ونانسي وخمس مدارس للفنون والعلوم التعليمية في كلرمون وليل ومرسيليا ونانسي ولويتير وعدد تلامذتها جميعًا في سنة ١٨٦٧ كان ٧١١٥ تلميذًا

واكثر اهالي البلاد يعتنون في الفلاحة والزراعة وقد بلغوا درجةً عالية في هذه الصناعة ومع انهم لا يرغبون في التجارة فقد تقدموا فيها كثيرًا من برهةٍ ليست اكثر من نصف قرن حتى صاروا من اشهر اهالي اوروبا في الامور المتجرية ولهم انوال وورش ومعامل عديدة لاربابها اليد الطولى في الصنائع الدقيقة ولكن اكثر معمولاتها يُقصد به الظرافة اكثر من المنفعة والمتانة اللتين تعتمدها الانكليز واصول هذه المعامل هي معامل السبك والحدادين وورش الاسلحة والقناديل الافرنجية وفبريقات الساعات والطوخ والصاغة والقزاز والفخار والصيني والبلور والثلجيات والصيدلانيات وورش الصباغة والورق والطباعة

والحرير والكتان والشبيكة (التول) والجوخ وقماش القطن والصوف والسجادات والبسط والعرق والزيت والصابون وتكرير السكر والملح ومعامل النشادر والدبغ والخلّ والطواقي الافرنجية وبرانيط النساء وحروف الطباعة والكتب والحلى وامتعة البيوت التي تُعمل من اخشاب غاباتها مثل الصناديق والطاولات الافرنجية والكراسي والاسرّة وغير ذلك ومن اشجار هذه الغابات ايضًا نوع من شجر البلوط قشرهُ هو الفلّين

(اسبانيا) واما اسبانيا فكانت في الزمن القديم جزءًا من المملكة الرومانية ايضًا استمرّت خاضعةً لها مدّة ٤٠٠ سنةٍ ثم استقلّت بذاتها الى ان استفتحها العرب في الجيل الثامن لما دخلها طارق بن زيد في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان سادس الخلفاء الامويين لكنهم لم يملكوا على البلاد كلها بل بقيت الاهالي الاصلية في شمال المملكة وفي الجبال والاماكن المستوعرة وكانت الخلفاء من بني اميّة يرسلون اليها عمالاً من دمشق الى ان انقرضت دولتهم وخلفتهم الدولة العباسيّة فقام عبد الرحمن بن معوية بن هشام بن عبد الملك الأموي وتقلّد الملك بها وعصى الخلفاء بني العباس فصارت الخلافة الاموية في المغرب والعباسية في المشرق وسمّوا تلك البلاد بلاد الاندلس وكان تختهم في مدينة قرطبة واستمروا على ذلك الى اوائل الجيل الثالث عشر حينما تقوّى عليهم اهل البلاد الاصليون وطردوهم منها ومن ثم اخذت اسبانيا في الارتقاء والتقدّم وقويت شوكتها جدًّا وامتلكت املاكًا واسعة في امريكا عندما اكتشفها كرستفس كلمبس بمساعدة المملكة ايسابلاً على ما تقدمت تفاصيل ذلك في الكلام على القرن الخامس عشر

ثم بعد ذلك اخذت هذه المملكة في الانحطاط حتى صارت الان لا تُحسب بين الاقران المعتبرة واهلها في حالةٍ يُرثى لها وذلك من جراء الحروب الداخلية وكبرياء الاهالي والتعصب الواقع بينهم ولغتهم ممتزجة من اللاتيني وبعض لغات

قبائل شمالية كانت تغلبت على هذه البلاد وسكنت بها وانما لا زال عندهم كثير من الاشعار والفنون اللغوية وكان ظهر بينهم خلق كثير من المولفين المشهورين اخذوا جانبًا كبيرًا من علومهم عن العرب وبواسطتهم دخلت العلوم الى بلاد اوروبا على ما سبق ايضاحهُ في المطلب الاول من امتيازات القرن الخامس عشر ·

وكرسي هذه المملكة الآن مدينة مادريد وهي مدينة حسنة اهلها نحو ١٧٠ الف نفس وبها ابنية فاخرة من الدور والكنائس والمدارس والمكاتب والقصور وفيها كتبخانة سلطانية لا تزال يوجد بها ٢٠٠٠ مجلد من خزانة كتب الخلفا وعلى مسافة ٢٢ ميلاً منها دار من دور الملك تُحسب من افخر ابنية الدنيا ومن توابع هذه المملكة مدن واماكن كثيرة مشهورة في الكتب العربية واهالي البلاد جميعًا نحو ١٧ مليونًا والدين المتحكم بها هو المذهب الكاثوليكي وكان لا يُباح بها التعبُّد بغيرهِ اما الان فالحرّية مطلقة بها لسائر الاديان

(البرتوكال) وكذلك بلاد البورتغال كانت خاضعة للرومانيين في الزمن القديم مثل اسبانيا وكان اسمها عند اليونانيين والرومانيين لوسيتانيا واهاليها من اصل اهالي اسبانيا ويشبهونهم في اللغة والاخلاق والعوائد ثم استقلت بنفسها سنة ١١٢٩ واشتهرت في الجيل الخامس عشر وامتدت املاكها في الشرق وفي امريكا وهي التي اكتشفت طريق الهند بحرًا على رأس الرجاء الصالح كما سبقت تفاصيل ذلك في المطلب الثاني من امتيازات القرن الخامس عشر وصارت في القرن السادس عشر مملكةً قويةً جدًّا ولكنها أُضيفت الى مملكة اسبانيا بعد وفاة الملك سبستيان سنة ١٥٧٨ اذ كان لم يترك وارثًا له ثم قام اهلها سنة ١٦٤٠ واستقلّوا غير انهم لم يحصلوا على ما كانوا عليهِ قبلاً من الحرّية والسطوة والقوّة برًّا وبحرًا وكان لعهدٍ قريب لا يمكنْ ان يدخل احد من اليهود الى بلادهم ولا الى بلاد اسبانيا البتة

ومن اعظم مدن هذه المملكة مدينة ليسبون وهي قصبة البلاد وفيها ابنية فاخرة جميلة وقصورها اجمل قصور اوروبا وبها ١٤٠ كنيسة و٧٥ ديرًا ومكتبة فيها ٨٠ الف مجلد وسكانها نحو ٢٦٠ الف نفس

واهالي المملكة جميعًا نحو ٣٥٠٠ الف نفس واراضي بلادهم مخصبة حسنة وفيها معادن غنيَّة ولكنها قلَّما تُطرَق نظرًا لتهاونهم وكسلهم كما انهم لا يعتنون بالفلاحة والزراعة ولا يوجد فيها الآن الاَّ قليل من المتجر والصنائع لسبب الحروب والمخاصمات التي ابتدأت فيها من سنة ١٨٢٠ والديانة المتحكمة هي الديانة الكاثوليكية وفيها ٣٦٠ ديرًا للرهبان فيها ٦٠٠٠ راهب و١٢٨ ديرًا للراهبات فيها ٦٥٠٠ راهبة ولا يوجد بها سوى مدرسة كلّية في مدينة كويمبا وفي غيرها قليل من المدارس العامَّة ولذلك كانت علماؤُها قليلة

(انكلترة) اما انكلترة فهي الجزيرة التي كانت تسمى بريتانيا ولما تغلَّب عليها البرابرة الهاجمون على الامبراطورية الرومانية في سنة ٤٤٨ م تسمَّت انكلترة باسم طائفة الانكلسكسون الذين تملكوها وفي سنة ١٠٦٦ تغلَّب عليها الملك غليوم الفاتح دوق نورمنديا وعمَّرها بالنورمنديين ومن ذلك الوقت الى الآن لم يتغلَّب عليها احد من الغرباء وقد سبق الكلام على تقدمات هذه المملكة الى نهاية القرن الماضي

وهي الآن تحتوي على ٢٧ مليونًا من النفوس عداء عما يوجد من السكان في املاكها الخارجيَّة كالهند وغيرها والديانة المتحكمة فيها هي المذهب الانجيلي البروتستانتي وفيها كثير من الكاثوليكيين والحرية مباحة لجميع الاديان وفيها من الحرّية والانصاف ما لا يوجد بغيرها من الممالك الافرنجية

وقصبتها مدينة لندن وتسمى لندرة ايضًا سكانها نحو مليونين من النفوس فهي اعظم مدن العالم ما عدا بكين قصبة مملكة الصين طولها ٧ اميال وعرضها ٥ وفيها ١٠ الاف سوق مبنية على نهر يسمى تيمس والناس يعبرون من احد

جانبيها الى الاخر على خمسة جسور منهم ٢ من الحجر و٣ من حديد وكذلك يوجد تحت ارض النهر دهليز معقود بالحجارة واسع بحيث يمرّ فيهِ اكبر العربانات وهو طريق لهم تحت الماء وفي هذه المدينة كثير من الابنية العظيمة ومن اشهرها كنيسة مار بولس وكنيسة وستمنستر التي فيها مقابر العائلة السلطانية واكابر علماء الانكليز وصومعة وهي هيكل متّسع قديم يضعون فيهِ صولجان ملك الانكليز وتاجهُ وفيها مجلسان احدهما للاشراف ويدعى مجلس السادات واعضاؤهُ ٤٠٠ نفر والثاني مجلس العوام واعضاؤهُ ٧٠٠ نفر وهما يرتبان القوانين التي أُقيم لها محاكم ومجالس في كل بلدةٍ ومقاطعة

وروت الجرائد الاخيرة بانهُ عن عهد قريب أُقيمت فيها ساعة اكبر من سائر ساعات العالم قطر ميناها ٤٠ قدمًا ومساحتها ١٢٠٠ قدم وثقل عقربيها وما يوازنهما قنطار وطول عقرب الدقائق ١٩ قدمًا اي نحو ٨ اذرع وينتقل كلّ ثانية ٣/١ قيراط فيقطع في الاسبوع ٤ اميال ولم تختلف في ١٧ يومًا اكثر من ٨ ثوانٍ

ومن هذه المدينة خرج عدّة من اكابر المؤلفين مثل فرنشيسكو باكوس واضع القواعد الصحيحة للفلسفة العقلية وملتون وبوبه وغيرهم منهم من قد ذكر في ما مرّ ومنهم من سوف ياتي ذكرهُ

ويوجد في باقي مدن المملكة الانكليزية ٩ مدارس جامعة منها واحدة في مدينة ايدمبرغ التي ولد فيها المؤرخ الشهير هوم وهي دار علماء مشهورين واشهر مدارس الطب في بريتانيا وكان يدرس بها المعلم روبرتسون ومدرسة اخرى في مدينةٍ يقال لها غلاسكو كان يدرس بها المعلم آدم سميث وقد مرّ ذكرهم جميعًا في الكلام على تقدمات هذه المملكة في القرن الماضي . وتوجد غير ذلك ايضًا مدارس متوسطة كثيرة والكتب رخيصة وصحائف الاخبار متعددة نظرًا لما في بلادها من المطابع الكثيرة

وطرقات هذه البلاد مهمة وتكثر بها طرق الحديد وسلوك التلغراف وقد

بلغ بامصارها الى اعلى طبقة في جميع انواع الصنائع والمعامل التي هي اشهر معامل الدنيا تُصطنع فيها جميع انواع الاقمشة القطنية والصوفية والبسط والآلات الحديدية وتباع بارخص الاثمان نظرًا لاستخدام الالات البخارية في عملها ولذلك كانت تجارتها اعظم تجارات العالم على ما تقدمت تفاصيله في القرون السالفة

المطلب الثاني

في الكلام على الدول التي حدثت بعد ذلك في الاقاليم الشمالية والشرقية التي كانت خرجت منها تلك القبائل التي سبقت الاشارة اليها في تعريف المطلب الاوّل

(المانيا) لايخفى بان المانيا هي البلاد التي كان يُطلَق عليها سابقًا اسم جرمانيا وكانت قديمًا دخلت تحت حكم الرومانيين الّا انهم لم يتغلبوا عليها كلّها بل بقي منها ما لم يدخل في قبضتهم ومنها خرجت قبائل الهَمَل المتوحشين الذين لايمكن عددهم كطائفة السويوة والافرنك والسكسون والوندال والقبردية وغيرهم ممّن سبقت الاشارة اليه في صحيفة ٢١٦ وخربت بلاد اوروبا مدّة مديدة قال بعض الجغرافيين ان هذا الجنس الجرماني لا يُعرَف اصله ولا من اين اتى اولاً

ثم لمّا افتتح كرلوس مانوس (اي الاكبر) هذه البلاد التي هي مصدر اجداده الاصليين اجتهد في ادخال الدين المسيحي اليها وفي تمدين اهاليها ونشر العلوم والمعارف التي كانت شائعة في تلك الاوقات بينهم وكان ذلك من بداية القرن التاسع للميلاد على الوجه الذي سبقت تفاصيله في الفصل الثاني من البحث

المذكور ومن ذالك الوقت صارت السلاطين النمساوية تحكمها الى سنة ١٨٠٦ عندما نزل سلطان النمسا عن كونه سيّد معاهدة هذه البلاد ولُقّب ملك النمسا او ملك بلاده اوستريا وبطلت الاحكام الجرمانية ونشأت معاهدة بلاد الرين (الرين اسم نهر) تحت حماية فرانسا وبقيت الى سنة ١٨٢٠ ومن هذا الوقت أُقيمت المعاهدة الجرمانية وهي مركبة من ٣٩ قسمًا بادخال ما هو من الاقاليم تحت حكومة النمسا وبروسيا والفلمك ودانيمارك منها ذوات ملوكٍ اعظمهم ملك باقاريا ومنها امراء وكان الحدّ منها القسم الشمالي تحت حماية ملك بروسيا في سنة ١٨٦٧ وتسمى دولة المانيا الشمالية ثم في سنة ١٨٧٠ اتحدت باقي الولايات مع المانيا الشمالية في اثناء محاربة فرانسا لدولة بروسيا وقدمت جميعًا تاج الامبراطورية الالمانية الى غليوم ملك بروسيا عندما كان على حصار باريس عن يد ملك باقاريا المشار اليه

وتحتوي هذه الولايات جميعها على ٣٩ مليونًا من النفوس منها ٢٤٫٣٥٣٫٠١٨ بروتستانت و ١٤٫٥٥٠٫٦٥١ كاثوليكيون خلا ما أُضيف اليها مؤخرًا من سكان الالزاس واللورين الذين سلبتهم من فرانسا بواسطة المحاربة المذكورة وتختلف احكامها من نوع الملكي المطلق الى نوع الحكم الجمهوري وكل فريقٍ من اقسامها يرسل وكيلاً الى الديوان العمومي الذي ينعقد في فرانكفورت

واهالي هذه البلاد اصحاب همةٍ وحرص وامانةٍ وثبات في الاعمال واستنارةٍ في التصرُّف ولهم موهبة الاختراع التي اشتهروا بها منذ القرن الخامس عشر للميلاد والعلوم منتشرة بينهم انتشارًا بليغًا وخرج منهم علماء كثيرون مشهورون بالغيرة في تاليف الكتب وقواميس اللغات والتدقيق في مباحث العلوم ومن هانورة احدى مدنها التي كانت في حكم الانكليز خرج المعلم هرشل الفلكي الشهير

ولهولاء العلماء المذكورين ٢٠ مدرسة كلية يجتهدون فيها غاية الاجتهاد على ايجاد الفوائد للناس و ١٥٠ مكتبة فيها ٥ مليونات من الكتب ومن العلماء

المولفين ١٠ الاف رجل يكتبون في كل سنة ٥ الاف كتاب وعدهم مدارس عديدة ووسائط لتسهيل المعرفة ليست بقليلة ومن هذه البلاد انتشر المذهب الانجيلي في القرن السادس عشر وهو المتحكم ببلاد الشمال كما ان المذهب الكاثوليكي متحكم في بلاد الجنوب وانما في جميعها يُباح التعبدُ بكلّ الاديان وفي بعض مدنها تكثر التجارات والبيع والشراء في الكتب وفي بعضها يوجد ايضاً ورش ومعامل من جملتها معامل لتكرير السكر وفي مدينة نورمبرغ تُعمل اشياء كثيرة للعب الاطفال

(النمسا) واما بلاد النمسا التي ذكرنا في ما تقدم بان سلاطينها كانت تحكم على بلاد الالمان فكانت تحتوي على ما كان يُسمى سابقًا اورتيا ونوريكا وباثونيا وداسيا او دافيا ولمّا تملّك كرلوس الاكبر بلاد نوريكا سمّاها اوستريا ومعناهُ بلاد المشرق ومن ذلك الوقت اخذت سلاطين هذه المملكة تدعي بالخلافة عن قياصرة رومية لان كرلوس الاكبر كان لقبهُ البابا بهذا اللقب عندما وضع على رأسهِ تاج الامبراطورية وسمّاهُ بالامبراطور الروماني في افتتاح القرن الثامن للميلاد على ما سبقت الاشارة اليهِ في الفصل الخامس من البحث الثاني من الكلام على المعارف عند الرومانيين ومع ذلك لم تكن تحسب هذه المملكة شيئًا الى القرن الثاني عشر ثم في اوائل القرن التاسع عشر اخذت تتقوّى وتتمدّ حتى صارت الآن تُحسب من الممالك العظيمة

وهي تحتوي الآن على ٣٧ مليونًا من النفوس والديانة الغالبة فيها هي المذهب الكاثوليكي لكن بها كثيرون من الروم السلاو والبروتستانت ويوجد بها ٨٠٠٠ دير للرهبان ويُباح بها التعبد بسائر الاديان وقصبتها مدينة فيانا ويقال ويانه ايضاً جميلة المنظر وبها ابنية فاخرة و١٨ ساحة للاجتماع و٢٠ ديرًا و٥٠ كنيسة واهلها ٢٠٠ الف نفس ويوجد في كل المملكة ست مدارس كلية ومدارس متوسطة عديدة ونظرًا لبعدها عن الابحر الكبار لم تكن تصلح لتجارةٍ

واسعة ولكن لها حظ في التجارة البرّية وفيها عدّة معامل غير ان اهلها ليس لهم حذاقة في الصنائع ومن اعمالها اقمشة الصوف والكتان ويُصنع بها القرطاس والآلات الحديدية والخزف والزجاج وامتعة البيوت اما الفلاحة والزراعة فقليلة نظرًا لعدم خبرة اهالي البلاد فيها

(بروسيا) واما بروسيا التي هي الآن عوضًا عن المملكة المذكورة في امبراطورية بلاد المانيا فكانت قد تغلّبت عليها في ما سلف طائفة تسمى التونيقية ثم ادخلوا فيها الدين المسيحي في اواسط القرن الثالث عشر من الميلاد واول من جعل لها الشهرة كان الملك فريدريك وليم الاول الذي تولى المملكة سنة ١٧٠١ ولكنها لم تُحسب من الممالك العظام الى بعد سقوط نابوليون بونابارته الاول عن امبراطورية فرانسا في سنة ١٨١٥ ولم يعلُ شانها الى بعد ان اسقطت نابوليون الثالث عن عرش الامبراطورية المذكورة ايضًا في سنة ١٨٧٠ وصار ملكها غليوم امبراطورًا على المانيا حسب ما تقدم ايرادهُ في الكلام على تلك البلاد وسكانها الآن نحو ١٥ مليونًا من النفوس والديانة المتحكمة بها هي المذهب الانجيلي وفيها كثير من الكاثوليكيين واليهود والحرّية مطلقة لجميع المذاهب

وقصبتها مدينة برلين اهلها نحو ٣٥٠ الف نفس جميلة المنظر واسواقها واسعة مستقيمة وابنيتها فاخرة وهي مقام العلماء وبها مدرسة كليّة ومدارس اخرى عديدة ويشتغل فيها الفغفوري الجيّد والعربيات العظيمة ويوجد في باقي مدن المملكة ٦ مدارس كلية تُحسب من احسن مدارس اوروبا وعدة مدارس متوسطة و٢٢ الف مدرسة عمومية وكل انسان يلتزم ان يرسل اولادهُ الى المدرسة ولا يوجد مملكة مثلها في اوروبا نظرًا الى المعرفة العمومية وعساكرها احسن عساكر اوروبا وجميع اهاليها يبقون رديفًا الى سنّ الثلاثين وينصبون خيامهم ثلثة اسابيع في السنة لاجل التعليم ولذلك قيل لها ارض المدارس والقشل لكن ليس لهم حق الخبرة في امور الفلاحة وانما لهم معامل لاقمشة الصوف والكتان والقطن وصناعة الفخار

ومطابعها عديدة ورائجة ومتجرها في المواشي والحبوب غيران متجرها البحري هو في ايادي الغربا

ومن مدنها كورنغسبرج وهي مدينة حسنة يحيط بها سور حصين عظيم طوله نحو ٧ اميال وفيها كنيسة كبيرة مشهورة فيها ارغن له خمسة الاف انبوبة وبها قصر للملك على شكل مستطيل طوله ١٢٦ خطوة وعرضه ٧٥ وفيه محل طوله ٢٧٤ قدمًا وعرضه ٥٩ ومنها خرج الفيلسوف كنت. ومنها ايضًا مدينة كولونيا يُصطنع فيها ماء روحيٌّ معطَّر يُعرَف بماء كولونيا او ماء الملكة وبها كنيسة عظيمة جيدة البناء العتيق. ومنها كذلك مدينة مغدبرج التي اخترع فيها اوتود يغريك طلمبة الهوا (راجع الاكتشافات العلمية في القرن السابع عشر) ومنها مدينة ترن او طرن وطن كبرنيك الفيلسوف الذي اثبت دوران الارض وثبوت الشمس (راجع الاكتشافات العلمية ايضًا في القرن السادس عشر)

(الفلمنك) واما الفلمنك ويقال لها هولاندا وتسمّى ايضًا نثرلاند اي البلاد الواطية فان اهاليها من جنس اهل جرمانيا وبعد ان جرى عليها تقلبات كثيرة استقلت منذ سقوط نابوليون الاول في سنة ١٨١٥ واهلها يبلغون ثلاثة ملايين من النفوس واكثرهم من البروتستانت والباقي من اللاتينيين واليهود وهم مشهورون في النظافة التي تقيهم ضرر هوا بلادهم الذي كابدوا مشقات كثيرة بسبب رداءته ورداءة تربة البلاد ومائها ايضًا الى ان صيروها من اخصب بلاد اوروبا حتى انهم اصطنعوا طلمبات تدبرها الرياح لتدفع المياة الكثيرة التي ترشح من البحر الى الانهر والترع الكبيرة التي اصطنعوها لذلك وقصبة هذه المملكة مدينة هاك اهلها ٦٠١ الف نفس وفيها عدّة من القصور والمجالس لترتيب الحكم ومنها خرج دربيل مخترع الميكروسكوب والتيرمومتر ومن توابعها امستردام وهي اعظم مدن الفلمنك واعمر مدن اوروبا ذات مينا يمكنها ان تسع ١٠٠٠ سفينة وكانت قديمًا ملكة البحر واعظم مدن العالم في التجارة والقوّة

البحرية والى الان يوجد فيها مدارس كثيرة ومكاتب وقاعات للخطب ومحافل لغرائب الصنائع والنوادر . ومنها مدينة اخرى تسمى ليدن مشهورة بمدرستها الكلية وعلمائها الذين هم من افاضل المدرسين عند الافرنج ويوجد لهم مدارس اخرى كلية غيرها في باقي البلاد كمدينة لوبين ومدينة اغرنتغة ومن مدينة هرلم خرج لورانت كستر الذي يعتقد اهل الفلمنك بانهُ هو اوّل من احدث الطباعة ولذلك اقاموا فيها صورتهُ على ما سبق ايرادهُ في محلهِ

واهل هذه المملكة يرغبون في العلم ويسهل عليهم اكتسابهُ لكثرة المدارس وهم اقويا في الاعمال يعتنون بها جدًّا واكثرهم مغرمون بشرب التبغ والنظافة والحرص وعمل الخير والاحسان وبناء المدارس وطرقهم جيّدة وقراهم حسنة واسواقهم واسعة نظيفة ومن البان مواشيهم يستخرجون السمن اللذيذ ويصطنعون الجبن الدسم المعروف بالفلمنكي وكان متجرهم سابقًا متسعًا جدًّا لكنهُ قلّ الآن بسبب الحروب الكثيرة التي حدثت في اوروبا وعندهم معامل وورش عديدة تُعمل فيها اقمشة الصوف والكتان والحرير والادم والقصبات لشرب التبغ ومن هذه المعامل ما هو لنسج المخمل والمشجر في مدينة اوترخت والى الان يُشاهد في قرية ساردام الكائنة بالقرب من امستردام البيت الصغير الذي كان ساكنًا فيهِ بطرس الاكبر سلطان روسيا لما كان يتعلّم بها عمارة السفن البحرية (راجع الكلام على امبراطورية روسيا في القرن السابع عشر)

(بلجيكا) وكذلك بلجيقا يقال لها بلجيوم او البلجيك ايضًا فانها استقلت بعد بلاد الفلمنك المذكورة بمدة جزئية اعني في سنة ١٨٣١ وكانت قبل ذلك دخلت تحت تسلط عدّة ممالك واهلها نحو ٤ ملايين من النفوس والديانة المتحكمة بها الآن هي الكاثوليكية وبها كثير من البروتستانت

ومن امهات مدنها بروسيل ويقال بركسيلة واهلها نحو ١٠٠ الف نفس وهي مدينة معتبرة حسنة المنظر مشهورة بصناعة البسط وانواع الاقمشة الصوفية

وقصبـ الذهب والفضة والشبابيك الظريفة وبها مكتبة فيها ١٠٠ الف مجلد ومدرسة كلية وفي باقي مدنها مدرستان غيرها ايضًا وتحصيل المعرفة عندهم سهل للخاص والعام وقد بلغوا الدرجة القصوى في صناعة الفلاحة واكثر زراعتهم من الحبوب ولهم اليد الطولى في التجارة والصنائع فهم يصنعون لطائف كثيرة ولوجود الحرّية في المتجر يمكنهم بيعها بثمن ارخص مما يبيعها غيرهم ويلي هذه المدينة مدينة انتورين وهي ذات ابنية فاخرة وكنيسة على شكل البناء الغوطي بها منارة علوها ٤٠١ قدمًا

(الدانيمارك) واما بلاد دانيماركه فكانت تسمى سابقًا شرزونزة قمبريك ومنها تولدت الطوائف القمبرية التي اهلكت اوروبا سنة ١٠٠ قبل الميلاد ثم بعد كل ما صادفته من التقلبات لازالت الى الان مستقلة وتحتوي على مليونين من النفوس والمذهب الانجيلي هو المتحكم بها والحرية مباحة لجميع الاديان

وقصبتها مدينة كوبنهاغن او كونهاغ ويقال قبنهاق مشهورة بحسن منظرها وابنيتها الجميلة وفيها مدرسة كلية ومدارس اخرى عديدة ومرصد سلطاني لرصد الاجرام السماوية (راجع الكلام على هذه المملكة في القرن السادس عشر) وجنينة عظيمة فيها اكثر النباتات الموجودة على وجه الارض وبها مكتبة تحتوي على ١٠٠ الف مجلد واهلها نحو ١٥٠ الف نفس وتجاراتها عظيمة ممتدّة في غالب بلاد الدنيا حتى انه يكاد ان تكون جميع صناعات الدانيماركه وبراعة فنونهم مجموعةً في هذه المدينة فهي مركز تجارات وصنائع هذه المملكة

وتوجد لهم عداء عن المدرسة الكلية المذكورة مدرسة كلية اخرى في مدينة كيال ويوجد في جميع المملكة اكثر من ٥ الاف مدرسة متوسطة وفي قلعة كريستانبرغ قصر فيه كثير من التصاوير البديعة ولهم مكتبة فيها ٢٠٠ الف مجلد ويعتنون بتعليم اولادهم كثيرًا ومنهم خرج كثير من اصحاب المعارف السامية كرييمير الذي اظهر سرعة سير الضو وغيرهُ ولكنهم للآن لم يتقدموا في التمدن

مثل باقي طوائف اوروبا

(السويسه) ويسميها العثمانيون اسويجر ويطلق عليها اهالي بلادنا اسم سويسرا وكانت تسمى سابقًا هلوتينية جرت عليها تقلبات كثيرة ودخلت تحت عدّة حكومات ثم لما ابتدأت ملوك جرمانيا في ان تظلم اهاليها قام رجل من الفلاحين يقال لهُ وليم اوغليوم تل ومعهُ البعض من اهالي البلاد واستخلصوا بلادهم وعقدوا معاهدات بينهم دخلت فيها بقية المقاطعات واحدة بعد اخرى وهي الان جمهورية مستقلة تحتوي على ٢٫٣٠٠ الف نفس النصف منهم بروتستانت والنصف الآخر كاثوليك والى الآن يوجد في مدينة الطرف او الترف حنفية ماء عظيمة موضوعة في محلٍ مكث فيهِ وليم المذكور لمَّا اراد ان يرمي على ما قيل تفاحةً وضعها هدفًا على رأس ابنهِ بضربة رمح وسبيل ماء اخر موضوع محل شجرة سوسن كان وضع عليها حين ذلك ابنهُ الصغير المذكور وكان اجبرهُ على هذا الامر حاكم المدينة املاً بان يخطي سهمهُ فيقتل ابنهُ ويكون ذلك بمنزلة انتقام منهُ لشهرة بأسهِ لكنهُ اصاب المرمى وكان هذا الاقتراح سببًا في هيجانهِ لتخليص بلادهِ على ما ذكرنا

واوّل مدينةٍ في هذه الجمهورية هي مدينة جنيفة او جنيورة ويقال جينوا وهي مدينة عظيمة ذات ابنيةٍ فاخرة شهيرة بنصب التعليم العام بها وبمعاملها خصوصًا معامل الساعات فان فيها هي وحدها فضلاً عن غيرها من البلاد ثلاثة الاف ساعاتي يصنعون كل سنةٍ نحو سبعين الف ساعة وبها اكثر متجر البلاد وهي وطن عدّة من مشاهير الفرنساوية مثل جنجاك روسو وغيره

واهل هذه البلاد مشهورون بالرغبة في اكتساب العلوم والمعارف واصحاب الفلاحة منهم لهم نباهة في صناعتهم حتى اصلحوا اراضيهم الى الغاية مع انها ردية التربة في الاصل ولهم انوال يُصطنع فيها اقمشة الحرير والقطن والكتان وآلات الحديد والصياغة وزعم بعضهم ان صناعة الورق أُخترعت في بالة التي هي من

مدن هذه الجمهورية ولهم نجاح معتبر في الامور البحرية

(اسوج ونروج) اما بلاد اسوج الواقعة في شرقي بلاد روسيا فكانت معمورةً سابقًا باهل اوائلة الذين لم يزل جنسهم باقيًا الى الان في الشمال منها بقرب لابونيا ثم سكن بها طائفة الغوثة او الغوطة الشهيرة كثيرها من المتبربرين الهاجمين على المملكة الرومانية بافساد ارض اوروبا ومنها خرج ايضًا قطّاع الطريق المسمّون بالنرمندية الذين خربوا البلاد الغربية منها وسكن قوم منهم في اقليم من اقاليم فرانسا يُسمى الى الآن اقليم نرمند في نفس الوقت الذي فيهِ اسست طائفة اخرى منهم يقال لها الوريغية (او الروريغية) السلطنة المسكوبية واخيرًا استولى الملك غليوم الفاتح دوق نورمنديا (اي اقليم نرمند المذكور) على مملكة انكلترة كما سبقت الاشارة الى ذلك في محلاته ثم دخلت هذه البلاد تحت حكم دولة الدانيمارك التي تقدّم الكلام عليها وبقيت الى ان تخلصت واستقلت بذاتها في سنة ١٥٢٣ ومن ذلك الوقت اخذت اولاً في الاشتهار ثم في التقدّم على ما ذكرنا ذلك بتفاصيلهِ عند الكلام عليها في القرن الثامن عشر

وفي بداءة القرن التاسع عشر الذي نحن بصددهِ تولى عليها كرلوس الثالث عشر في سنة ١٨٠٩ وفي زمنهِ انضمّت اليها مملكة نروج حيث استخلصها هذا الملك من سلطة الدانيمارك ايضًا وذلك في سنة ١٨١٤ ومن ثم تسمت المملكة باسم مملكة اسوج ونروج وصارت الفنون والصنائع والتجارة فيها زاهيةً زاهرة وانشأ هذا الملك في مملكتهِ تحخانة ومدرسة عسكرية وتبنّى جنرالاً فرانساويًّا يقال له برنادوت وجعله ولي عهدهِ حيث لم يكن له وارث يخلفه فتولاها بعد موتهِ وتسمى كرلوس الرابع عشر

وسكان هذه البلاد الآن نحو خمسة ملايين من النفوس ويتحكم بها المذهب الانجيلي ويُباح بها التعبد بسائر الاديان ولازال في جهة الشمال منها قبائل صغيرة تعبد الاوثان

وقصبتها مدينة استوكهلم اهلها نحو ١٠٠ الف نفس مبنية على سبع جزائر في بحيرة يسمونها ملارو وهي ذات معامل كثيرة ومركز تجارة المملكة بعامها وبها يقيم الملك ومجلسا الاحكام واهالي البلاد جميعًا يعتنون باشهار العلوم ولهم مدارس عامة في كل بلدةٍ ولاسيا في نروج و٢٣ مدرسة متوسطة و٣ مدارس كلية من جملتها مدرسة اوبسال التي كان يدرّس فيها لنيه (راجع القرن الثامن عشر) واكثر الفلاحين بها يعرفون القراءة والكتابة ويتصفون بالكرم والامانة والحشمة والبشاشة والشجاعة والميل الى الحروب ومحبة اوطانهم

(روسيا) اما بلاد روسيا الواقعة غربي بلاد اسوج التي تقدّم ذكرها فقد سبق الكلام عن اصل اهاليها واحوالهم القديمة في المطلب الاول والثاني من امتيازات القرن الخامس عشر ثم في ما تلى القرن المذكور قد تتبعنا تقدماتها تفصيلاً الى نهاية القرن الثامن عشر فلا حاجةً لتكرار شيءٍ من ذلك هنا

وكذلك قياصرة هذه الدولة الذين جلسوا على تخت المملكة من بداية هذا القرن التاسع عشر حتى الآن قد بذلوا جهدهم في سبيل تقدم البلاد وتمدّن الاهالي ونجاحهم وتوسيع دائرة ثروتهم فان اسكندر الاول الذي تولى الايمبراطورية في سنة ١٨٠١م قد كان في اول امرهِ من اهل الحماسة ليّن العريكة خاليًا من العناد بسيطًا في معيشتهِ يتجنب الابهة والعظمة عقد معاهدات تجارية مع كثيرٍ من الدول وقرر نظامات جديدة للسفر في البحر ونشّط البضائع واذن لاصناف الرعية كلها ما عدا العبيد الذين كانوا ملكًا خصوصيًا ان يشتغلوا ويتجروا كيفما شاءوا فاخذت محاصيل البلاد الروسية وبعض مصنوعاتها تظهر في اسواق اوروبا وبنى في سنة ١٨٠٩ ثلاث مدارس كلية واحدة في بطرسبرج واخرى في كركوق والثالثة في قازان ثم اضاف اليها مدرسة اخرى بناها في دربات للولايات الجرمانية المجاورة بحر البلطيك ونظم مدرسة ولنا لتهذيب رعاياهُ البولونيين وكان في ذلك الوقت يعاملهم بكرامةٍ ورفق واقام

عدَّة مدارس عالية وادبية وامر بان يزداد عددها حتى تبلغ ٢٠٤ مدارس وبأن يقام ٢٠٠٠ مدرسة غيرها لتعليم الاشياء الابتدائية وكان يطوف في انحاء البلاد ويقابل كبارها وصغارها ويصغي الى احاديثهم وتشكياتهم واستمرّ يجري الاصلاحات في داخلية بلاده وطرد اصحاب المعامل الانكليزيّة منها فتنشطت بذلك الصناعة الوطنية وفي سنة ١٨١٠ م الف ديوان المشورة وثماني وزارات منفصلة بعضها عن البعض وحدّد قيمة النقود وجعل لفنلاندة نظامًا جديدًا وفي سنة ١٨١٨ اشرع في عمار كنيسة القديس اسحق وهي من الابنية الهائلة في بطرسبرج وفي ايامهِ زهت تجارة روسيا وصناعتها وانتشرت الثروة في البلاد وشرع في ابطال الرقّ فحرر الارقاء من ولايات البلطيك الجرمانية الا انهُ لم يسمح للفلاحين بالانتقال من ولايةٍ الى اخرى لكن في اواخر عمرهِ تسلطت عليهِ السوداء وجعل للجرائد قوانين صارمة وصار حزينًا كثير الظنون والشكوك وبعد ان كان عضوًا نشيطًا للفرن ماسون استأصل الفروع التي امتدت منها الى روسيا وفي سنة ١٨٢١ م طرد اليسوعيين لانهم نشروا المذهب الكاثوليكي بين بعض عيالٍ روسية غنيَّة وسلم ديرهم الى الدومنيكيين في بطرسبرج واخيرًا توفي سنة ١٨٢٥ وتولى بعدهُ اخوهُ نقولا الذي اقام مستوليًا على التخت الى سنة ١٨٥٥ م وتوفي والبعض يسمون مدة حكمهِ التي ناهزت ٣٠ سنةً بالعصر الحديدي حيث ما افادت المملكة شيئًا بل حملت الأمة الروسية اثقال الادارة الحربية التي كانت شغلت دوائر الدولة كلها وخلفهُ ولدهُ الاسكندر الثاني الحالي الذي اقام باصلاحات لم يستطعها غيرهُ اذ انهُ وضع حدًّا لاعمال ابيهِ التي كانت تجاوزت حدود الاعتدال على ما تقدم فخفف عن الامة تلك الاثقال وفصل نظارة المعارف عن نظارة الحرب واقام عوضًا عن الضباط المتقاعدين الذين كانوا يتعينون معلمين للمدارس رجالاً متثقفين صالحين للتعليم والتهذيب وجعل للمطبوعات قوانين تؤذن ببعضٍ الاعتدالِ واعاد جمعية انتشار الكتب المقدسة التي كان اسسها عمهُ الامبراطور اسكندر والغاها ابوهُ الامبراطور نقولا واصدر

اوامرهُ برفع الموانع عن اعمال المرسلين الى اليهود في مملكتهِ وعددهم نحو ٣ ملايين واطلق للقلم في روسيا عنان الحرّية ومنع التجسس ووضع قوانين لفساد المأمورين وسمح باعلان نقائصهم للناس ورقّى الشبان في فروع الادارة العمومية مكان الذين لا فضل لهم الاّ كونهم وجدوا فيها من زمن طويل وساعد على امتداد صناعة البلاد وتجارتها وجدّ في زيادة عدد السفن التجارية الوطنية وحمل التجار الروسيين على مدّ علائقهم ومواصلاتهم الى المالك الاجنبية وابطل النظامات التي كانت تمنع الاهالي من زيارة البلاد الاجنبية وعفا عن المجرمين السياسيين من البولونيين والروسيين وارجع المنفيين الى سيبريا الى اوطانهم وسمح للفارّين بالرجوع الى منازلهم وامر بمدّ السكك الحديدية في ممالكهِ لتقريب المواصلات واعظم الاصلاحات التي اقام بها هو تحرير الارقا الآتي ذكرهم لكنهُ رفض ما كان طلبهُ اشراف موسكو القدما في سنة ١٨٦٥ م من اقامة مجلس نواب (مبعوثين) وابطل نظام الخلافة القسيسية ونظم جيوشهُ على نسق الجيوش الالمانية واتخذ وسائل شتى لنشر التهذيب في مملكتهِ التي لا يوجد لها مماثل في اتساع اراضيها على ما يستبين ذلك من الشرح الآتي

ذكرت النشرات المطبوعة في سنة ١٨٧١ انقلاً عن كتابة نشرها وزير الحرب الروسي لجهة مساحة هذه البلاد واهاليها ما نصهُ ان مساحة اراضي روسيا كانت في سنة ١٧٢٥ (١٧١ و٢٧٥) ميلاً مربعاً منها (٦٨٧ و٨٣) ميلاً في اوروبا و(٨٨٤ و٠٣ و١) ميلاً في بلاد اسيا وقد زادت منذ ذلك الزمان الى الان زيادةً كلية بواسطة الفتوحات فصارت (٢١٠ و٨٩ و٢) اميال مربعة منها (٩٥١ و٠٦ و١) في اوروبا و(٢٥٩ و٨٣ و٣) في اسيا ومنها ٦٨٠ و٩ ميلاً مغطاة بمياه بحر قزوين وبحر اورال ومن هذه الاراضي البلاد الشمالية المقفرة التي يسكنها قليل من البشر اما البلاد المخصبة الماهولة فهي نحو ٣٠٠ الف ميل مربع وهي تزيد عن مساحة اوروبا بتمامها نحو ٣٢ الف ميل مربع وبالاجمال فان هذه الاراضي جميعها مقدرة بنحو ١/٧ من كرة الارض

وسكان هذه الاراضي يبلغون ٦٥٨٦٠٠٠ اغلبهم من الروسيين ويوجد بينهم ١٦ مليونًا من البولونيين و ٨٠٠ الف من الفنلانديين و ١٠ ملايين من السيبريين والقوقاسيين واكثر من مليون من الاتراك لكن البلاد الماهولة اكثر من الجميع فهي البلاد التي يسمونها مملكة بولونيا فان في ولاية وارسو الروسية يسكن كلّ ميل مربع ٢١٠١ من الاهلين اما في ولاية موسكو فيسكن ٢٥٩٨ وفي ولاية بطرسبرغ ١٤٤٦ وفي ولاية الاربانجل ٢٠ وفي ولاية امور ٢ واكثرهم من طائفة الروم الاورثوذكسيين فانهم يبلغون نحو ٥٢ مليونًا والباقون من طوائف مختلفة منهم لاتينيون وروم كاتوليك وارمن كاثوليك وبروتستانت ويهود واسلام ووثنيون وعبدة نار انما الدين المتحكّم فهو مذهب الروم الاورثوذكسي والحكومة من النوع الملكي المُطلَق

وفي اخلاق الاهالي القناعة وسهولة المعاشرة وسرعة التناول ويحبون البذخ واللهو والحوادث الجديدة والاكابر منهم يرغبون في الملاهي ولهم حدّة في اخلاقهم وبعضهم بلغ درجةً معتبرة في التمدن والادب وكانوا ينقسمون الى اربع رتب وهي الشرفاء والاكليروس والعامة والفلاحون غير ان الفلاحين كانوا بمنزلة عبيد للملك وللاشراف الذين يبلغون نحو ٨٠٠ الف ولهم حقوق خاصة لاينازعهم فيها احد لكن لما تولى الامبراطور الحالي اسكندر الثاني في سنة ١٨٥٥ اصدر امرًا امبراطوريًا بعد جلوسهِ بنحو ثلاث سنين بابطال الرقّ والاستعباد وقد ذكروا النفوس التي تحررت فقالوا انها ٢٣ مليونًا من النفوس منها تسع ملايين كانوا ملك الدولة والباقون كانوا ملك ١٢٧ الف سيّد من الاشراف وغيرهم

اما مدارس هذه المملكة فهي على مقتضى ما نشرهُ وزير الحرب في سنة ١٨٧١ كثيرة فان الامبراطور اسكندر المشار اليهِ منذ جلوسهِ على تخت المملكة اخذ في اصلاحها وتنشيطها ومنها ثمان مدارس عمومية في بطرسبرغ وموسكا وكايف وفاركوف واودسا ودوربا وهنكفور وفي هذه المدارس ٥٥٧٦ تلميذًا ومنها ايضًا ثلاث مدارس خطيبةً عدد تلاميذها ٣٩٠ اما اكثرية المدارس الوسطى بالنظر

الى نسبة عدد الاهالي فهي في بولونيا فان فيها مدرسة لكلّ ١٧٥٠٠ من الاهالي وفي ولاية بحر بلطاق كذلك مدرسة لكلّ ٢٠٠٠٠٠ وفي ولايات الفلاند مدرسة لكل ٦٠٠٠٠ وفي ولاية موسكو مدرسة لكل ٧٢٠٠٠٠ وفي ولاية كازان مدرسة لكلّ ١٢٠٠٠٠٠ وعدد مدارس الأمة ٩٩٥٥ فيها ٢٨٠ الف تلميذ ومع كلّ هذه الوسائل والوسائط المختلفة لنشر المعارف يكاد لا يوجد في الالف من الجنود واحد من الذين يعرفون القراءة والكتابة وقال غيرهُ ان هذه المدارس العمومية والمتوسطة هي في اكثر البلاد لكنها كانت لعهدٍ قريب مخصرة بافادة اغنياء الشعب عندما كانت الرعية بمنزلة عبيد للاكابر الذين يستعبدونهم عبوديةً عنيفة ولا يرغبون في تعليمهم وتقدمهم ولكن بعد الان لا بدَّ ان تتغير احوالهم وتترقى نظرًا لما حازوهُ من اطلاق حريتهم (ولا سيَّما بعد ان اصلح الامبراطور اسكندر المشار اليهِ احوال العساكر ورتب تعليمها على اصول التعليم الالماني والزمها بان تتعلّم ليس القراءة والكتابة فقط بل واللغة الالمانية ايضًا)

وذكر في بعض المؤلفات ان الكتب التي الفها المؤلفون المسكوبيون في هذا القرن لحد سنة ١٨٥٧ كان عددها ١٤٢٥ مؤلفًا واما التي ترجمت من غير لغات وطُبعت بلغة الروسيين فهي ٢٠٠ مؤلَّف

اما امهات مدن الروسيا فهي اولاً مدينة بطرسبرغ التي هي قصبة المملكة بناها بطرس الاكبر على ما تقدم ايضاحهُ في القرن الثامن عشر وهي الآن افخر مدن اوروبا في الحسن والظرافة وفيها مدرسة كلّية معتبرة ومكتبة مشتملة على ٤٠٠ الف مجلد وفيها تمثال راكب مصنوع من نحاس اصفر موضوع على صخرةٍ من الصوان يزن ٣٠٠٠٠٠٠ او ثلاثة ملايين من الارطال أُقيم تذكارًا للامبراطور بطرس الاكبر المقدَّم ذكرهُ وفي سنة ١٨٥٨ تمَّ بناء كنيسة القديس اسحق الذي كان شرع في انشائها الامبراطور اسكندر الاول على ما ذكرنا قبلاً وهي كنيسة فاخرة جدًّا يقال بان مصاريفها بلغت ٧٠ مليونًا من الريالات

المسكوبية تبلغ قيمتها الآن نحو ١٢٦٠ مليونًا من الغروش ويُقال بان سكان هذه المدينة يبلغون ٥٠٠ الف نفس ويليها مدينة موسكا التي كانت قصبة المملكة قبل بطرسبرغ المذكورة واعظم مدن اوروبا قبل مهاجمة الفرنساويين تحت راية نابوليون الاول سنة ١٨١٢ وحينئذٍ احرقها اهلها كيلا تجد الفرنساوية مكانًا تشتّي فيهِ وكان قبل ذلك محيطها ٣٠ ميلاً ومن غرائبها الجرَسُ الكبير المشهور الذي اصطنعهُ اهاليها وقد سبقت الاشارة عنهُ عند الكلام على الروسيا في القرن الخامس عشر والى الان تتوّج ملوك المسكوب فيها لانها قصبة المملكة الاصلية واليها تُنسب البلاد وفيها قصور اكابر القدماء ومكاتب وقاعات للعلوم ومدرسة كلّية واهلها يبلغون ٣٠٠ الف نفس ثم مدينة ريغا وهي بعد بطرسبرغ اتجر مدن روسيا ومن غرائب ما فيها قنطرة من الخشب على النهر عرضها ٤٠ قدمًا وطولها ٢٦٠٠ قدم ترفع في ايام الشتاء وفي مدينة قازان مرصد لرصد النجوم ايضًا

ونظرًا لكثرة المعادن ووفرة المحاصيل في بلاد روسيا راجت تجارتها رواجًا عظيمًا فان في البلاد الداخلة في حوزة هذه السلطنة من قسم اسيا وخاصةً سيبريا التي هي غنية بالمعادن والحجارة الكريمة والجواهر كالزبرجد والماس والبلاتين وحجر الفتيلة والبلّور واللازورد والنطرون وملح البارود والنفط والذهب والفضة والحديد وحجر المغناطيس والنحاس والخارصيني والبزموث والزرنيخ والكوبلت توجد مسابك الحديد وخاصةً في مدينة كتَرينبورغ يوجد مسبك حديدي يقلّ نظيرهُ في الدنيا وهناك يُصطنع شيء كثير من آلات الحديد وفي مدينة تلمينسك معامل الزجاج واقمشة الصوف والكتان وفي كاسان معمل للبارود وفي ايلتسكى معمل لاستخراج ملح الطعام وفي مدينة استرخان عدّة انوال ايضًا لاصطناع اقمشة القطن ومعامل للبارود واستخراج الملح وصبغ الاقمشة واما في بلادها الكائنة في قسم اوروبا فيعمل كثير من انواع الأدَم مشهورة في الغاية واقمشة الكتان والحبال واللباد والصابون والجوخ

والزجاج وقد أغرس في بلاد روسيا شجر التوث فنما واتخذت له اهاليها دود الحرير ومن محاصيلها ايضًا انواع الفرا والجلود واخشاب البناء والسمك فان في نهر ولغا فقط يوجد ١٥ الف قارب لصيد السمك ويُصنع منهُ زيت السمك والخبياري ويُرسل الى الافاق وكذلك الحبوب فانها تزيد عن احتياج الاهالي فيُتجر في ما زاد منها تجارة ليست بقليلة كما يُتجر ايضًا في ما يخرج ببلاد كرجستان من الخمر والزعفران والافيون والنفط الذي يخرج من مدينة باكو وهي تُحسب عند مجوس الفُرس والهند مقدَّسة فيحجُّون اليها لاجل ما فيها من فوَّارات النفط المذكور التي تشتعل من ذاتها حتى تغمر وجه الارض بالنار الى مسافةٍ بعيدة ومن الاسباب العظيمة ايضًا لاتساع نطاق تجارة روسيا اتساعًا زائدًا عدم وجود الكمارك ووجود الترع والانهر ولاسيما سكك الحديد المستجدة التي اخذ الامبراطور اسكندر الحالي المارّ ذكرهُ في تمديدها في بلادهِ بعد انتهاء حرب القرم سنة ١٨٥٦ لان بها يسهل انتقال المحاصيل وبضائع التجارة من اطراف البلاد

اكتشافات علمية وتقدمات صناعية

هذه الاكتشافات قد كان افتتاحها منذ بداية هذا القرن بعمل الآلات العظيمة المتعددة الانواع التي شملت منافعها عامة الجنس البشري ولذلك نبتدي بذكرها على مقتضى تاريخ ظهور اوَّل نوعٍ منها بحيث نتبع بعدهُ ذكر ما وصلت الينا اخبارهُ من نوعهِ الى نهاية الوقت الذي نجز فيهِ تاليف هذا الكتاب ثم نلتفت بعد ذلك الى غيرهِ بحسب التاريخ ايضًا ولو كانت درجتهُ ارفع وفوائدهُ اعمّ وانفع ومن ذلك

(آلات ميكانيكية) في سنة ١٨٠١ اخترع رجل حائك من مدينة ليون

يقال لها جاكر آلة للنسج ميكانيكية تنسج بذاتها بدون مساعدة الايادي فاورثت نيلها كثيرًا في هذه الصناعة ورفع اهل المدينة المذكورة صورة هذا الحائك ببطحائها اظهارًا لممنونيتهم له

ثم روت جريدة المقتطف المنتشرة في سنة ١٨٧٧ بان رجلًا من برلين يقال له برنستين اصطنع آلةً لعدّ الدراهم ونقدها فاذا وضع فيها ليرات وكان زائفًا وضعت الزائف وحده والصحيح وحده

واصطنع هنري دانيال سوفت آلةً لعمل مغلفات المكاتيب وهي تقصّ الورق وتضع عليه صمغًا وتطويه طيًّا محكمًا

واخترع رجل من مدينة نيويورك بامريكا صنفًا من المغلفات لا يتيسر فتحها سرًّا فان حاول احد فتحها ظهرت عليها في الحال كلمات افشت بجنايته فانه قد طُبع على ظهرها بمادٍ كيماوي ابيض اللون لا يُرى برأي العين هذه العبارة „ قد حاولوا فتحي “

واصطنع صموئيل هدصن ويوحنا بلتن آلةً لعمل البراميل يقدّم لها الخشب والمسامير فقط فتخرج البراميل منها كاملة

واخترعت كذلك آلة خفيفة سريعة العمل متقنة الصنع تفتح من ذاتها عرى للازرار وتخيطها وتكمل منها من ١٨٠٠ الى ٣٠٠٠ عروة في ٩ ساعات

واصطنع رجل من شيكاغو آلةً لنضح الماء فوق النار نقطًا صغارًا جدًّا قال ان بخار الماء المتكوّن حينئذٍ ينحل الى عنصريه الاكسجين والهيدروجين ويحترق بحرارة عظيمة فتشتعل النار بسرعةٍ لا مزيد عليها

(آلات بخارية) وكان قبل ذلك اعني في سنة ١٨٠٧ ظهرت اوّل باخرةٍ من السفن البخارية سافرت في البحر من نيويورك الى فيلدلفيا قال بعض المولفين طالما تنازع مورخو الانكليز والفرنساوية والامريكان في اختراع هذه الآلة البخارية فكلٌّ يدّعي ذلك لاهل وطنهِ اما الذي حررهُ اراغو الفلكي الفرنساوي هو ان الماكينه جي هيرون الاسكندراني (وقد تقدّم ذكرهُ في الكلام

على المدرسة البطليموسيَّة في الاسكندرية) كان فكر في قوة البخار والمنافع التي يمكن تحصيلها به وكان ذلك في سنة ١٣٠ ق م ولكن بقي هذا الراي عقيمًا عدَّة قرون ثم في سنة ١٥٤٣ كتب بلاسكو دي غراي الاسبانيولي الاصول التي يمكن حصولها من تلك القوَّة وفكر في استعمالها وكتب مثل ذلك سلمون دوكس الفرنساوي في سنة ١٦١٥ ثم في سنة ١٦٦٣ اشتغل بهذا الشان ورشستر الانكليزي الاَّ ان ما انجبه فكرته لم يكن كافيًا في حصول الانتفاع بتلك القوَّة ثم في سنة ١٦٩٠ فكر في شانها دينيس باپين الفرنساوي (الذي تقدم ذكرهُ في الكلام على اكتشافات القرن السابع عشر) الى ان ركَّب في سنة ١٦٩٥ الالة البخارية بالبستون وهو شيء يشبه مدقّ المحلة وهو اوَّل من ظهرت له القوة القابلة للبسط في آلةٍ نارية حيث ان البخار ينبسط عند شدَّة الحرارة وينقبض عند البرودة ثم اعتنى جامس وات الانكليزي وقد ظهرت اعمالهُ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (راجع الكلام على انكلترة في القرن المذكور) بتوجيهه العناية لهذه المأثرة وبحثهِ عن سائر اجزاء الآلة البخارية حتى ارتقى في ذلك درجةً تنيله منصب الاختراع لها وقد كان دينيس باپين المذكور اشار الى امكان السفر بها في البحر وبيَّن كيفية ذلك بغاية الايضاح وفي سنة ١٧٣٦ اخذ جونثان هلس الانكليزي الاذن من الدولة في استعمال الآلة المذكورة لسفينةٍ لكن لم تتم له الواجبات فكانت جدوى فعلهِ قليلة وفي سنة ١٧٧٥ صنع الماكينه جي بريا الفرنساوي السفينة الاولى البخارية وبعد ثلاث سنين اخترع جوفروى الفرنساوي الآلة المذكورة والقاها على وادي دوب بفرانسا وفي سنة ١٧٨١ القى على وادي صون بفرانسا ايضًا سفينة كبيرة من ذلك النوع وسارت ثم استغلَّ بالمأثرة المذكورة جماعة في انكلترة ونجح سعيهم فيها منهم ميلر في سنة ١٧٩١ ثم في سنة ١٩٠٣ اجرَّب فلطن الامريكاني بباريس علة بتلك الآلة فرأى مخايل النجاح وكان معهُ من اهل وطنهِ ليونسطن فوضعا على وادي صون الذي مرَّ ذكرهُ اوَّل وابور تامّ بالعجلات وذلك في التاسع من آب من السنة المذكورة لكن لم يتفق انجاز ذلك

بعزائم الهمم واعتناء الدولة به في ذلك الوقت فلما ايس فلطن من نجاح سعيه هناك حمل مخترعهُ الى وطنهِ امريكا واشهرهُ بها ولذلك يقول الفرنساويون ان من سوء الحظ عدم انجذاب بال الدولة وقتئذٍ لهذه النتيجة الباهرة وفي سنة ١٨٠٦ سافرت السفينة البخارية المسمّاة كلرمونت من مدينة نيّويورك الى مدينة فيلادلفيا (كما ذكرنا) في البلاد المتحدة بامريكا وفي سنة ١٨١٤ شرع المذكور في استعمال الفرقاطة البخارية الاولى وتوفي قبل اتمامها وفي حياتهِ صنع بتلك المملكة عدّة وابورات صغار منها المسمّى فلطن الذي التقى بالسفينة الشراعية التي كانت ذاهبة بنابوليون الاول الى جزيرة سانته الهنه التي بقي فيها بعد سقوطهِ من عرش الامبراطورية فلما رأى الوابور المذكور ودخانهُ يتصاعد في الجوّ ندم على اعراضهِ عن تلك المآثرة التي تمّ ظهورها في غير بلادهِ وجميع التحريرات البخارية مستنبطة من قواعد فلطن المذكور لانهُ كان مهندسًا حاذقًا لبيبًا ثم انتشر هذا المخترع في سائر جهات اوروبا

واما استعمال آلة الذنب المسماة بلغتهم اليس بدلاً من العجلات (ويقال لها في بلادنا الآن الدفاش) فاوّل من فكر فيها كان دوكي الفرنساوي سنة ١٧٢٧ وبوكتون سنة ١٧٦٨ ثم في سنة ١٨٠٢ اخذ شارل ولري الرخصة في عمل الآلة المذكورة الاّ ان سعيهُ اذ ذاك لم ينجح لعدم وجود المبالغ اللازمة من المال فاغتنم التفرّغ لهذا العمل اريكصون الشهير من اهالي اسوج وكان في الممالك المتحدة الامريكانيّة من سنة ١٨٢٦ الى سنة ١٨٤٤ فتمّ واُستعمل في سنة ١٨٤٥ ثم شاع العمل بهِ ايضًا

وكان قبل ذلك اعني في سنة ١٨١٤ اُصطنعت المكابس البخارية

وفي اثناء تلك المدة كان المهندسان جورج وروبرت ستيفانسون بانكلترة يصنعان اوّل مركبةٍ تامّة بخارية تجري في الطرقات على الحديد فسافرت اولاً من ليفربول الى مانجستر في سنة ١٨٢٩ .

ثم في سنة ١٨٧٧ اخترع مانوئيل مرتينز من جزيرة كوبا قضبان حديد

لسكك الحديد يمكن وضعها على الارض في حالتها الطبيعية ثم ترتفع عند الاقتضا وتنقل من مكان الى اخر بسهولة (المقتطف)

واخترع رجل اخر يقال لهُ جون ايتون نوعًا من الارتال يسير في سكك الحديد اذا كانت المسافة بين قضبانها واسعة او ضيقة ولا يخفى ما في ذلك من الاهمية لانهُ بذلك قد زالت كلفة النقل واحتمال المشقة فيهِ عندما يكون البعد بين قضبان الواحدة ليس مثل البعد بين قضبان الاخرى (المقتطف)

ومنذ زمنٍ قريب أُستعملت في فيلادلفيا ايضًا الآلة البخارية في المركبات الصغيرة التي تسير في الشوارع عوضًا عن الخيل (المقتطف)

(السينوغراف) وكان في سنة ١٨١٦ اخترع رجل يقال لهُ رامزي من سكوتلاندا بانكلترة السينوغراف وهي كلمة يونانية مركّبة معناها كتابة ضيقة او مختصرة وهي طريقة يتمكّن بها السامع من استيعاب كتابة كل ما يسمعهُ او ينطق بهِ اللسان السريع بسهولة (الجنان)

واخترع رجل في لندن آلة للكتابة بها يصغر الخط الاعتيادي الى جزء من الف الف جزء منهُ فلا يقرأ الَّا بواسطة نظارة مكبرة وقال انهُ يستطيع ان يكتب الكتاب المقدس كلهُ العهد القديم والعهد الجديد ٢٢ مرةً في مساحة قيراط مربع (الاسبوعية)

واخترع توماس اديسون من نيويورك حبرًا يتمكن بهِ العميان من الكتابة الى بعضهم وهو دواة يُصبُّ فيها ماء ثم يُكتب على قطعة ورق ولون ذلك الماء سنجابي اصفر ثم بعد دقيقة تأخذ تلك المحال المسطرة بذلك الحبر في الجفاف وترتفع حتى تنفر عن وجه الورق فيضع الاعمى يدهُ عليها ويشعر بنفرة حروفها

واخترع رجل من اسبانيا علاجًا اذا عولج بهِ الورق صار غير قابل الاحتراق ولو مهما اشتدّت حرارة النار وجهد ما تفعل بهِ ان يصير فحمًا فان طُرح فيها درج ملفوف يفحم خارجهُ ويبقى داخلهُ صحيحًا وتبقى الكتابة مقروءة في الحالين . (المقتطف)

(الطبيعة) وفي سنة ١٨٢٠ اخترع المعلم ارستيدت الطبيعي من كوبنهاغن قصبة بلاد اسوج الايليكترو ديناميك وهو فرع من العلم الطبيعي غايتهُ معرفة الحوادث الصادرة من تفاعل الكهربائية والمغناطيسية في بعضها

وهناك رجل اخر يقال لهُ كولونب اشتغل بالمغناطيسية ايضاً واظهر انهُ يوجد جملة معادن قابلة للتمغطس وعيّن وجود عنصر الحرارة المتحد والخفي وكان تكلّم عنهُ رجل قبلهُ بنحو قرن يقال لهُ استال وسمّاهُ فلوجيستيك اي اي عنصر اللهب ثم اثبت رجل اخر يقال لهُ شيل تشعشعهُ على خطٍ مستقيم وانعكاسهُ من سطح المرآة المعدنيّة وانحصارهُ في نقطةٍ اذا كانت المرآة مقعرة

وذكر في المقتطف بان اهل اليابان اكتشفوا على طريقة معرفة وقوع الزلازل قبل حدوثها بواسطة اكتشافهم على ذهاب قوّة المغطيس ذهاباً وقتياً قبل حدوث الزلزلة فاخترعوا لذلك آلةً من مغنيط نضوي وجرس صغير تحتهُ وثقل معلق بهِ فاذا فارقت المغنيط قوتهُ غلب عليهِ الثقل فسقط على الجرس فيرنّ منذراً بالخطر فيبادرون الى الفلاء

واستنب للمعلم يُنْك الانكليزي من مدينة هانوفر عمل آلةٍ كهربائية لقياس حركة الاجرام الفلكيّة (النحلة)

واكتشف السيد هوجِس على ان العناصر والمواد المكونة للنجوم الأشدّ نوراً لا تختلف بتةً عن المواد والعناصر المكونة لجرم الشمس واهتدى الى ذلك بدليل التصوير اذ ان تصوير الشمس (وسوف يأتي ذكرهُ) يتمّ بقوّة تاثير اشعة النور المنبعثة من الشمس في بعض مواد كيماوية او بتاثير نور منبعث من اشتعال مادةٍ مغنيسية فصوّر هذا العالِم قرص الشمس والنجوم فوجد تاثير نور الشمس في المواد الكيماوية كملح الفضة وباقي اليودورات لا يفرق شيئاً عن تاثير النجوم في المواد المذكورة فلخّص ان ما استوى في وحدة المفاعيل استوى في وحدة الجوهر والطبع لا محالة ثم اكتشف الدكتور هنري دابر الامريكاني بواسطة التصوير الشمسي ايضاً ان الاكسجين هو علّة اشتعال المواد الملتهبة في سطح الشمس فان

الثابت عند علماء الهيئة ان سطح الشمس المذكور بحر عجاج من النيران المضطرمة الحادثة من اشتعال معادن وعناصر اخرى كالحديد والنحاس والزنك والمغنيس والهيدروجين وغيرها غير انهم كانوا في حيرةٍ من سبب اشتعال هذه المعادن والعناصر المذكورة فيها فاكتشف ذلك حديثًا الدكتور هنري المذكور واكتشافهُ هذا كلي الاعتبار عند علماء الهيئة وغيرهم ويوطد الآمال باتصال الانسان في مستقبل الاجيال الى درجةٍ لا تخطر اليوم على بال

(النحلة . المقتطف)

واخترع الانكليز آلة تُعرَف بها مدة اشراق الشمس واستعملوها مدة سنة كاملة بالقرب من لندن فاستدلوا منها على ان الشمس اشرقت عندهم في تلك السنة ١٢٠٠ ساعةٍ فقط (النحلة والمقتطف)

وأُصطنعت مناديل تدلُّ على المطر بناء على خاصة كلوريد الكوبلت في اللون حسب رطوبة الهواء فصوروا فيها صورة رجل حامل ظلّة (شمسية) مصوغة بهذا الكلوريد فاذا كان الطقس حسنًا ناشفًا ظهرت الظلة زرقاء وان اختلفت صارت رمادية وان امطرت صارت بيضاء وان غُسِلَتْ زال لونها تمامًا

وكان في سنة ١٨٢٤ عمل اريو الطبيعي الفرنساوي فهرست الحجارة والحديد والغبار والجواهر الرطبة الساقطة من الجوّ من سنة ١٤٧٨ ق م الى سنة ١٨٢٤ ب م زعم فيهِ انها تزيد عن ٢٥٠ سقطة فانكر عليهِ بعضهم صحة ذلك بدليل وقوعها بظرف ٢٠ سنة بعد سنة ١٨٢٤ المذكورة اكثر من ٥٠ مرةً (الجغرافية) وفي هذا القرن ارسل الانكليز سفينةً تسوح بقصد الاكتشاف فقضت في الاسفار ثلث سنين وستة اشهر وسارت مسافة ٦٨٩٢٠ ميلاً فجابت الاتلانتيكي مرارًا والباسيفيكي مرةً وكان اعمق قياس قاسته في المحيط ٤٥٧٥ باعًا بين جزائر ادميرالتي ويابان واعمق قياس قاسته في الاوقيانوس الاتلانتيكي ٣٨٧٥ باعًا الى شمالي جزيرةٍ في الهند الغربية ولما رجعت الى بلاد الانكليز كان معها اشكال غريبة من نوع السرطان منها شكل يطفو

على الماء لي الأشفاف تظهر كل اعصابهِ وعضلاتهِ وباقي دقائق جسمهِ وكل راسهِ الاَّ القليل عين لهُ ومنها شكل اخر شبيه بسرطان الماء العذب عديم العيون ولما قاربت جزيرة امستردام في الاوقيانوس الهندي الجنوبي اصابت غابًا متسعًا من الاعشاب البحرية الكبيرة الحجم جدًّا قالت ان منها ما يبلغ الالف قدم طولاً وغلظهُ غلظ الانسان وفيما هي تسافر في الاوقيانوس المتجمد الجنوبي ثلجت ثلجًا شديدًا وكان الثلج بلورات نجمية الشكل اذا اصابت الجلد كوتهُ كما تكويهِ النار واكتشفت هناك على سيال غزير من المياه ينصب دائمًا من جهة بحر خط الاستواء في خلجان بحر القطب الشمالي وعلى نباتٍ اسمهُ فلوره قد انقلب الى حالةٍ حجرية معدنية فاستدلوا من ذلك على ان الاراضي الكائنة في القطب الشمالي والآن هي مغطاة بالجليد كانت في البدء واقعة تحت المنطقة المعتدلة ومزهرة ومثمرة كاراضينا الى ان حدث الطوفان وسبب انقلاب كرة الارض وجعل ما كان منها في المنطقة المعتدلة ان يضحي قطبًا لما في الحاضر

(المقتطف والنحلة)

وقد تمكن علماء الهيئة بأيد المراعاة الجديدة من رسم وطبع خارطة جديدة تعطي تفاصيل قعر البحر المحيط في كل جهاتهِ فيروي رسم الخارطة المذكورة ان البحر المحيط مكوَّن من ثلثة اودية واسعة جدًّا تفصلها عن بعضها اراضٍ مرتفعة على شبه قارات مغمَّرة بالمياه وكانت هذه الاراضي في البدء يبسًا ومتصلة بالقارات الحالية وهذا الاكتشاف الجديد سهَّل للناس الاطلاع على طريقة انتقال بعض الحيوان والنبات من قارةٍ الى اخرى قبل طغيان المياه عليها (النحلة)

وفي سنة ١٨٧٥ أُكتشفت منابع النيل عن يد ستنلي الامريكاني بعد ان كان صرف العالَم في البحث عنهُ اكثر من الفي سنةٍ

واكتشف نردنسجكورد طريقًا تصل بين اوروبا وشمالي اسيا ما يلي المنطقة الشمالية قال صاحب المقتطف ان لهذا الاكتشاف اهمية تجارية عظيمة لان بهِ يسهل الاتصال الى بلادٍ اوسع من كل أوروبا خلا املاك روسيا

انما الاعظم من ذلك جميعهُ هو فتح خليج السويس اذ ان حفر هذه الترعة التي فصلت افريقية عن قارَّة اسيا وصيرتها بمنزلة جزيرةٍ هو اعظم دليل على اقدام الانسان وكان ذلك بواسطة اهتمام موسيو دوليسبس العلاَّمة الشهير الفرنساوي وبهِ تسهلت طرق التجارة الى الممالك الهندية وغيرها وزالت تلك الاخطار والاثقال التي كانت تكابدها السفن في مسيرها على طريق راس المرجاء الصالح لحد نهاية سنة ١٨٦٩ التي بها تم هذا العمل العظيم

(الكهربائية) وبعد ان كان عمل المعلم كرويكس هانكس الانكليزي في سنة ١٨٠٤ الحياض الكهربائيَّة (راجع اكتشافات القرن الثامن عشر) اظهر كذلك رجل اخر يقال لهُ سيبيك الكهربائيَّة بالحك في سنة ١٨٢١

(الساعات البرقية) وفي سنة ١٨٢٩ اخترع رجل يقال لهُ ستاينهل من مونيخ عاصمة باقاريا الساعات البرقية وبعد ذلك بسنةٍ اتقنها المعلم وإنستون الانكليزي

(التلغراف) ومعناهُ الكتابة عن بعدٍ كان مستعملاً من عهدٍ قديم جدًّا بعلامات وإشارات مُتفق عليها يراها الناس عن بُعدٍ فيعرفون الاغراض الموضوعة لها ولم يقتصر استعمالها على الامم المتمدنة بل كان شائعًا بين الامم المتوحشة ايضًا وإشهر العلامات التي استعملت لذلك الرايات في النهار والنيران في الليل وقد اتصلوا بها في القرن الماضي الى درجةٍ عالية من الاتقان الاَّ ان استعمالها كان محصورًا في مصالح الدول وكانت ايضًا عرضةً للخطاء وخصوصًا حينما يتكاثر الضباب. ولازال العلماء باذلين جهدهم في اتقان تلك التلغرافات الى ان بزغت شمس التلغراف الكهربائي فاختفت تلك التنجيمات واشترك الناس اجمع بفوائد آلةٍ يعجز القلم عن القيام بوصف المنافع التي نالها العالَم منها على ان نور هذا الاختراع العظيم لم يشرق بغتةً بل جاء من حيّز العدم الى الوجود تدريجًا كغيرهِ من الاختراعات وقد تتبع صاحب المقتطف

تاريخ هذه المأثرة من بزوغ الشعاعة الاولى منها الى ان صارت بدرًا كاملاً فقال ما ملخصهُ

جاء في كتب الاخبار ان تاليس المليطي الشهير (اول فلاسفة اليونان) الذي كان قبل المسيح بست مئة سنةٍ لاحظ ان الكهربا اذا فُركت تجذب اليها الاجسام الخفيفة كالخيوط والهباء وما اشبه وعرفوا في نحو ذلك الوقت ان لبعض انواع الحديد خاصة جذب الحديد وسمّوا الحديد الجاذب مغنطيساً نسبةً الى مدينة مغنيسيا التي وجد بقربها ولا نعلم اذا كان القدماء عرفوا من خصائص الكهرباء والمغنطيس اكثر من ذلك وجلّ ما نعلمهُ انهُ حتى الجيل السادس عشر لم يكن يُعرَف سوى ان الكهرباء تجذب الاجسام الخفيفية اذا فُركت والمغنطيس يجذب الحديد ويتجه الى الشمال والجنوب وفي الجيل السادس عشر وما بعدهُ اخذت شمس المعرفة والحرية تشرق في اقطار اوروبا فقام كلبرت الانكليزي (ويقال جليبر او جليبرت على ما اوردناهُ في الكلام على القرن الخامس عشر) وكتب كتاباً في المغنطيس والكهرباء مبنيًا على امتحاناتهِ وعرفوا حينئذٍ ان خاصة الجذب لا تقتصر على الكهرباء بل توجد في مواد كثيرة كالزجاج والكبريت والشمع الاحمر وكل المواد الراتنجية وفي سنة ١٦٧٠ اصطنع الفيلسوف أتوفون كيوركي النمساوي آلةً من كبريت لاظهار الكهربائية وهي كرة من كبريت تدور على محورها بدولاب ثم ابدلوا كرة الكبريت باسطوانة او بقرص من زجاج وصنعوا منها آلاتٍ كثيرة جدًا انفقوا عليها اموالاً لا تحصى بقصد جمع مقدار عظيم من الكهربائية والبحث فيهِ وبعد البحث المدقق وجدوا ان الكهربائية على نوعين نوع يظهر على الزجاج فسمّوهُ الكهربائية الزجاجية او الموجبة ونوع يظهر على الراتنج سمّوهُ الكهربائية الراتنجية او السالبة (راجع الكهربائية في القرن السابع عشر) وان كلاًّ منها يجذب نقيضهُ ويدفع مثيلهُ وان الكهربائية توجد في جميع المواد وان من المواد ما يصلح لنقل الكهربائية وسمي موصلاً ومنها ما لا يصلح فسمّي فاصلاً او غير موصّل ومن

الاول المعدن والحيوان والنبات ومن الثاني الزجاج والراتنج والشمع والزيت والحرير فهذه هي الدرجة الاولى من اختراع التلغراف على نوعٍ ما وتُسمّى هذه الكهربائية الفرك (او الحك على ما ذكرناها اولاً)

ولا يخفى ان للكهربائية افعالاً يُعرَف بها وجودها ومن هذه الافعال جذب الاجسام الخفيفة كما تقدّم ومنها ايضاً هزّ الاجسام الحيوانية وتفريق المواد الخفيفة المكهربة من نوعٍ واحد وخروج نور مصحوب بصوتٍ وغير ذلك

وفي سنة ١٧٣٩ اكتشف موسيو له مونيه ان افعال الكهربائيّة هذه تجتاز على شريطٍ موصّل في برهةٍ قصيرة جدًّا لانهُ جعل الهزّة الكهربائية تجتاز من مكانٍ الى اخر على شريطٍ طولهُ ٦٠٠٠ قدم في اقل من ربع ثانية ثم في سنة ١٧٤٦ اكتشف الاستاذ كونيوس من مدرسة ليدن ما اقتادهُ الى عمل القنينة الليدنية التي يحفظ فيها السيال الكهربائي مدةً طويلة (وهي الجرّة الكهربائية او زجاجة ليد التي ذكرناها في القرن الثامن عشر)

ولما كان لا يظهر فعل للكهربائية ما لم يصر اتصال بين الموجبة والسالبة كان يقتضي لاظهار الفعل الكهربائي شريطان احدهما يتصل بالسالبة والاخر بالموجبة وفي سنة ١٧٤٧ اكتشف الدكتور وطسن الانكليزي ان الارض والماء صالحان لايصال الكهربائيّة وانهُ يمكن استخدامها عوضاً عن احد الشريطين الموصلَين للكربائية فمدّ تلغرافاً في لندن طولهُ ١٠٥٠٠ قدم مستعملاً فيهِ شريطاً واحداً قائماً على اعمدةٍ وكمّل الدائرة الكهربائية بالارض كما يُشاهد في التلغراف المستعمل الان الّا انهُ استعمل كهربائية الفرك (او الحك) التي لم يكن معروفاً غيرها وهي قصيرة الاقامة لا تدوم الّا برهة يسيرة ولو جُمعت في القنينة الليدنية المارّ ذكرها ولا جرم ان اكتشاف هذا الفاضل مُهمّ جدًّا في التلغراف الّا انهُ لو وقفت الاكتشافات عندهُ لم يبلغ الناس الغاية المطلوبة

وقال الجرنال الاسكتسي المطبوع سنة ١٧٥٣ انهُ وردت اليهِ رسالة بتاريخ اوّل اذار من تلك السنة يذكر فيها ثلاث طرق لعمل تلغراف مؤلف من ٣٦

سلكًا بعدد حروف الهجا عندهم ويدار بكهربائية الفرك وحيث كانت امضا صاحب هذه الرسالة غير واضحة بقي مجهولاً ولا يبعد ان يكون هو المخترع الحقيقي للتلغرافات الكهربائي وبحسب ذلك مدّ لهُ ساج الفرنساوي تلغرافًا في جنوا سنة ١٧٧٤ اي بعد تاريخ الرسالة المذكورة بعشرين سنة وكانّ تلغرافهُ مولفًا من ٢٤ سلكًا طمرها في الارض بعد ان ادخلها في انابيب زجاجية منعًا لافلات الكهربائية

وقال ارثر بن الانكليزي انهُ كان في فرانسا سنة ١٧٨٧ فراى ان موسيو لامُند صنع تلغرافًا وكان يتكلم بهِ مع امرأتهِ من مكانٍ الى اخر وفي تلك السنة مدّ بيتانكور الفرنساوي تلغرافًا في اسبانيا بين ارانجوز ومدريد وبينهما ٣٦ ميلاً ويظهر من الجرنالات المطبوعة سنة ١٧٩٧ ان رجلاً يقال لهُ فرنسيسكو سلفا صنع تلغرافًا اخر في اسبانيا وعلى هذا المنوال صنع كثيرون تلغرافاتٍ متنوعة في بلدانٍ مختلفة وكل منهم يجهل ان غيرهُ سبقهُ الى ذلك ولكنهم استخدموا كهربائية الفرك التي لا تدوم الاَّ مدةً قصيرة ولا يتيسر الحصول عليها في كل حين

وفي اوائل هذا القرن استتب لرجال العلم تكميل هذا النقص بايجاد مجرى مستمر من الكهربائية وذلك ان المعلم كلفني معلم التشريح في مدرسة بولونيا من اعمال ايطاليا كان يبحث سنة ١٧٩٠ في كهربائية الجوّ ليرى تاثيرها في اعصاب الضفدع فوجد انهُ اذا اتصلت بعض اعصاب ضفدع ميتة وتُعرف بالصفيرة القطنيّة بعضلات ساقيها بواسطة قضيب معدني يتشنج ساقاها تشنجًا شديدًا وكان قد رأى قبلاً ان كهربائية الفرك تشنج اعضاء الضفدع الميتة ايضًا فنسب تشنجها حينئذٍ الى سيال كهربائي في اعضائها وزعم انهُ السيَّال الحيوي فمن ثم قام فولطه معلم الطبيعيات في بافيا ودقق البحث عن سبب تشنج اعضاء الضفدع فوجد انها لا تتشنج تشنجًا شديدًا ما لم تتصل بالاعصاب بمعدنين مختلفين كالنحاس والتوتيا فنسب ذلك الى فعلٍ كيماوي ينتج كهربائية وبناء عليهِ صنع رصيفًا من صفائح نحاس وتوتيا بينها قطع من الجوخ مبتلة بماء ملح

ووصل الطرفين بسلك معدني فجرى عليهِ مجرى كهربائي من الرصيف ثم ابدل الرصيف بكؤوس ووضع فيها صفائح صغيرة من النحاس والتوتيا ووصل صفيحة النحاس التي في الكاس الواحدة بصفيحة التوتيا التي في الكاس الاخرى ووضع في الكؤوس سيالاً فيهِ حامض وملح فحصل من ذلك مجرى دائم من الكهربائية (راجع الكهربائية في القرن الثامن عشر)

ولما شاع هذا الاكتشاف في اقطار اوروبا تأهل بهِ العلماء وبادروا الى استخدامهِ للتلغراف فصنع المعلم سومرين الباڤاري تلغرافًا يدار بالكهربائية الكلڤانية وذلك سنة ١٨١١ الآلة ركبة من ٣٥ سلكًا ٢٥ منها للحروف الهجائية وعشرة للاعداد الاوائل وكان ناقصًا منبهًا ينبه المخاطب بابتداء المخاطبة فجبر هذا النقص عالم اخر يسمى شفيكر وفي سنة ١٨١٦ اشار الدكتور درمن كوكس الاميركاني بتلغراف كالمتقدم ذكرهُ غير عالم ان سومرين سبقهُ اليهِ وكيف كان الامر فلم يكن هذا التلغراف وافيًا بالغرض ولو وقفت الاختراعات على هذا الحدّ لأُلغي من عين اصلهِ او انحصر استعمالهُ بالمصالح الدولية والاعمال الكبيرة ولكن ما كان من رجال العلم ليكتفوا بهِ على نقصهِ فاعملوا الفكرة في تكميلهِ على الوجه الآتي

وبين سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٠ رأى الاستاذ ارستدان السلك الذي تجري عليهِ الكهربائية يحرف الابرة المغنطيسية عن وضعها فاخذ هذا الموضوع امبر الفرنساوي وبحث فيهِ البحث المدقق وكاد يصنع تلغرافًا متقنًا الى الغاية وفي سنة ١٨٢٣ الف رولندس الانكليزي كتابًا يقول فيهِ انهُ مدّ تلغرافًا الى مسافة ثمانية اميال ينتهي بابرة مغنطيسية فعندما تصل الكهربائيَّة الى الابرة تحرك فتحرك دائرة مرسومة عليها الحروف الهجائيَّة فيستدل من حركاتها على الحرف المطلوب وفي سنة ١٨٢٥ اصطنع وليم سترجيون الانكليزي المغنطيس الاول الكهربائي من حديد لين على ما اشار امبر الفرنساوي وفي سنة ١٨٣٠ قال الاستاذ هنري الانكليزي بطريقةٍ لازدياد قوة هذا المغنطيس وذلك بلف

السلك الكهربائي عليهِ لفّاتٍ عديدة وفي سنة ١٨٢٤ لاحظ الاستاذ فراداي الشهير انهُ اذا تحرَّك الحديد اللين الملتف عليهِ سلك منصول امام قطبي مغنطيس يحدث في السلك مجرى كهربائي وفي سنة ١٨٢٤ امدّ ويركوس تلغرافًا يُعمل بالكهربائية المغنطيسية الحاصلة من آلة فراداي المارّ ذكرها وجميع انواع الكهربائية التي استعملت الى ذلك الحين كانت قصيرة الاقامة ولا تصلح للاستعمال في كل مكان الى انهُ في سنة ١٨٣٦ اخترع العلاَّمة دانيال البطرية المنسوبة اليهِ وعلى مبداها اُصطنعت بطرية كروف وبنصن وسمي وغيرها من البطريات المستعملة الآن فاُعدّت والحالة هذه جميع الطرق المؤدية الى غاية مشتهى هولاء الاعلام ولم يبقَ بينهم وبينها الاَّ خطوة واحدة فخطاها مورس الامريكاني ونال اكليل الظفر لانهُ في سنة ١٨٣٧ قام مورس هذا في امريكا وستانهيل في باڤاريا وهويتستون وڤريس في انكلترة ووضع كل منهم تلغرافًا خاصًّا مخالفًا لما سواهُ وادَّعى بشرف الاختراع ففضِّل تلغراف مورس لبساطتهِ وسهولة ماخذهِ وفي سنة ١٨٤٨ نصب السلك الاول بين واشنطون وبالتيمور على ما ذكرنا ومن ثم استعملهُ اكثر دول اوروبا ما عدا انكلترة فانها لم تستعمل الاَّ الطريقة التي وضعها المهندس الانكليزي واتستون وفي سنة ١٨٥٠ انتظم اول تلغراف بحري بين فرانسا وانكلترا وفي سنة ١٨٥٧ وضع اول شريط تلغراف في البحر الاتلانتيكي

ثم بعد كل هذه الاتعاب يقال ان رجلاً يقال لهُ موسيو فيلاريت شاسلس وجد كتابًا ايطاليًا تاريخ نشرهِ سنة ١٦٦٢ فيهِ اشارة الى التلغراف الكهربائي وقد ذكرت ذلك مادام دوديفان ايضًا فان كان ذلك صحيحًا فيكون التلغراف اقدم مما هو معهود الآن لان ما جاء في كتب القوم عن التلغراف كان بعد ذلك بكثير بل لم تكن الكهربائية الكلڤانية معروفة وقتئذٍ

(البوستة الهوائية) وهي انابيب من الحديد اخترعت في انكلترة وبرلين يضعونها على عمق متر في الارض ليستعملوها في ارسال رسائلهم بواسطة الهواء

وطريقة ذلك انهم يأخذون الرسائل معينة الحجم ويجعلونها رزماً عشر بن عشرين ثم يضعون كل رزمة في صندوق من الحديد ويضمون عشرة أو خمسة عشر من هذه الصناديق الى بعضها ويضعونها في فم الانابيب المذكورة ثم يلطفون الهواء من امامها او يكشفون من ورائها فيسوقها امامه في الانابيب على معدل الف متر في الدقيقة قال بعض المؤلفين لاغرابة في انه يأتي وقت ولعله غير بعيد حينما ينتقل الناس على هذا الاسلوب العجيب من بلادٍ الى اخرى ببضع دقائق

(التليفون) ومعناهُ التكلّم من بلدةٍ الى اخرى. ذكرت اصحاب الجرائد ان المعلم ارستاد اهتدى الى اختراع آلةٍ كهربائية للمراسلات البرقيّة بسلك الاشارة منذ خمسين سنةً ونيف ثم تبعهُ كثيرون من العلماء في اختراع اوائل شتى لتسهيل المراسلات البرقية واتقانها ولا جرم انهم برعوا في ذلك براعةً استحقت الثناء عليهم ولا سيما العالمان الشهيران السيد اليشع غراي الامريكاني من جند شيكاكو والسيد لاكور الدانيمركي من جند كوبنهاغن قد ادهشا العالم باختراعاتهما منذ ثلث سنوات خاصةً فكان اختراع السيد غراي قائماً في تركيب آلةٍ توصل بسلك الاشارة دقّاتِ الانغام وإشاراتها حسب اصطلاح الموسيقى الاوربيّة وتبلغ قدوداً مختلفة بمجرد عددٍ معلوم من هزّات السلك البرقي من بلدةٍ الى اخرى وطريقة ذلك اذا وضعنا في قصبة الارغن سيّالاً كهربائيًا وادخلنا فيها طرف سلك معدني ودقينا الارغن في لندن مثلاً فالسلك المعدني يوصّل الانغام بدقاتٍ محكمة الى طرفهِ الاخر في اية جهةٍ من جهات الكرة الارضية ولكن قد فاقهُ اضعافًا ما اخترعهُ السيد ابراهيم غراهام بلّ الاسكوسي في امريكا الشمالية فقد استنبط لهُ تركيب آلة برقيّة توصل صوت المتكلم وكلامهُ مفصّحًا من بلدةٍ الى اخرى « ونعريف هذه الآلة » طبلان صغيران على شكل نصف دائرة قطر كل منهما قيراطان وثلثة ارباع القيراط تكتنفهما دفتان من جلدٍ رقيق مثل غشاء الامعاء وعلى جلدة الطبل دائرة صغيرة من الحديد الرقيق اللّين على قدر بارةٍ ملصوقة بغراء فاذا وضع هذان الطبلان الصغيران

تجاه طرفي قضيب معدني مشرّب بالكهربائية المغناطيسية وجعل المتكلم فمه في فوهة احد الطبلين من جهة الفراغ وتكلّم كلامًا فصيحًا او غنّى قدودًا متقنة سُمع كلامه وغناه مفصّحًا مَن كان واقفًا عند الطرف الاخر من القضيب تجاه الطبل الاخر واذا كان المتكلّم في لندن والسامع في الهند اقتضى امتداد القضيب المعدني مثل سلك الاشارة من لندن الى الهند ليسير الصوت به بهزّات الكهربائية واذا غنّى اثنان في فوهة احد الطبلين سوية سُمع صوتُ كلٍّ منهما صريحًا عند الطبل الاخر وقد نال المعلم غراهام بِل المشار اليه من الدولة الانكليزية براءة التوحد بالعمل لمدة اربع عشرة سنةً واجرى المعلم بارِت امتحان هذه الآلة في دار التحف بلندن فاعجب الحاضرين اتقان هذه الآلة ومفاعيلها وقال سر وليم طمسن ... واشهد بان لا سابقة لهذه الآلة في صف الآلات الكهربائية . ويقال بان الامريكانيين مصممون على امتحان استعمال هذه الالة في حاضرتهم وذلك من نيتهم ان يشيّدوا معبدًا من الرخام في ساحة المدينة المسمّاة يونيون اسكوار ويضعوا فيه انابيب كهربائية تتفرع على شبه سلك الاشارة وتتصل الى جميع معابد وكنائس المدينة ولما يجتمع الناس نهار الاحد لقيام الصلاة كالمعتاد لا يحتاج الامر الى امام او قسيس ليخطب عليهم ولا الى مرتلين وضاربين بالارغن وغير ذلك من آلاتٍ موسيقية ولكن سيكتفون بتوجيه نظرهم وسمعهم الى فوهة بوقٍ عظيم مفتوح في نصف صدر المعبد فيصعد خطيب فصيح ذو صوتٍ جهير على المنبر المنصوب في المعبد الرخامي المشيّد وسط في الساحة المارّ ذكرها ويوجّه صوته وخطابه نحو فوهة بوقٍ عظيم يتفرّع منه نحو ٥٠٠ انبوب وكل انبوب يمتدّ الى معبد من معابد المدينة فتنقل الكهربائية كلامه وتموجات صوته الى مسامع كلٍّ من الحاضرين في معابد المدينة على مسافة اميالٍ عديدة وذلك بتصريحٍ يغني عن حضور الخطيب بنفسه وكذلك الموسيقة الكنائسية يصير استعمالها على هذا المنوال بواسطة اليريفون وذلك بوضع ارغن ذي انابيب نحاسية مكهربة تنقل دقات الانغام وقدودها بتصريحٍ وجلاوةٍ ودقةٍ لا مزيد

عليها الى جميع معابد المدينة وبواسطة هذا الاختراع سوف يتمكن الناس من استماع موسيقية دينية وموعظة ادبية وهم جالسون في منازلهم اذا اختاروا ايصال انبوب من انابيب المعبد الرخامي الى حجرهم ومخادعهم

وقد نشرت غازتة باكين وهي اقدم جرائد العالم باسرها فصلاً كتبة المعلم چين هود قال فيه ان الذي اخترع التليفون كان الفيلسوف كونك فوهونيك الذي عاش سنة ٩٧٦م وما زال هذا الاختراع معروفًا في الصين باسم نوم تسين وهما كلمتان صينيتان وقال اخرون بان سودان كامرون وهم قبيلة في غربي افريقيا يستعملون آلة يسمونها الاميق استعمال الافرنج للتليفون فيتكلمون بها عن بعد اميالٍ بسرعةٍ كلية واستعمالها عندهم قديم ويقال ان الطُرش اذا كُلِموا بالتليفون يسمعون الاصوات فاذا امسك الطرش اسلاكهُ باسنانهم سمعوا الاصوات باكثر وضوحٍ

(النحلة)

(الفونغراف الناطق) وهو آلة اخترعها توماس اديسون الذي مرَّ ذكرهُ نسبك الصوت وتجسمهُ للعيان كما تُسبَك المعادن بحيث تلمس الانامل وترى الاعين ما لا يشعر بهِ الاَّ السمع بل يحيي اصوات الموتى فضلاً عن ترديدهِ اصوات المغنين والحان المرنمين وهو ينطق بكل لغةٍ حتى لغة العرب ايضاً

(المقتطف)

(الميكروفون) آلة اخترعها المعلم هيوز الانكليزي لاستماع صوت صغار الاشياء وادقها كدبدبة رجل النملة واحتكاك خرطوم الذبابة وهي آلة صغيرة ساذجة التركيب حتى انهُ لو وضعت ذبابة صغيرة حية تحت قدح من بلور ووضعت هذه الآلة بملامسة القدح سمع الانسان حركة مشي الذبابة ودبدبة نقل ارجلها الست وقيل انهم سمعوا صوت فرك خرطومها ايضاً

(النحلة)

(الفونسكوب) وهو آلة استنبطها المعلم هنري ادمندس لاظهار تموجات الصوت وطبقته بتغيير في النور المُسمّى بنجم غانسيوث

(النحلة)

(الفونديسكوب) آلة اخرى اخترعها مستر تيلر لاظهار فعل امواج الاصوات بالاغشية السائلة الرقيقة

(النحلة)

(الستيريوسكوب) وكان في سنة ١٨٣٨ اخترع المعلم واتستون الانكليزي الستيريوسكوب وهي نظارة ذات عينين تُجسّم بها الصور وتستعمل في البيوت لاجل الفرجة

(الفوتغراف) وفي سنة ١٨٣٩ اخترع رجل يقال لهُ يوسف نيسفيور نبالسي الفوتغراف اي التصوير الشمسي وكان ابتدأ بهِ في سنة ١٨١٢ ثم تممهُ بالاشتراك مع داغير الباريزي على الصفائح النحاسية في السنة المذكورة حينما اخترع فوكس تالبوت الانكليزي اخراج الصورة على الورق ايضاً واشتهر ذلك في سنة ١٨٤٥ وبهذه الصناعة فوائد جمة في الطبيعيات والفلك

واخبرت بعض الجرائد عن الطبع الالبرتي وهي طريقة يمكن بواسطتها نقل الصورة الفوتوغرافية بواسطة مطبعة الحجر بسهولةٍ كلّية واتقان عظيم وكان قد حُفظ هذا الاختراع سرّياً الّا انهُ قد انتشر الآن وعُرِف

(الالكتروغراف) وهو اقل اهميةً من الفوتوغراف والتليفون الّا انهُ لا يخلو من الفائدة وهو مؤلَّف من قلم متصل برصيف كهربائي ويُعرض عليهِ نوع من الورق فيثقبهُ الوفاً من الثقوب يمكن بواسطتها ان تنقل صورة تحرير او صورة شخص او كتابة او غيرها دفعات عديدة

(الجنان)

واتصل السيد بنيت العالم الشهير الى الاكتشاف على طريقةٍ غريبة يصور

بها الاشياء بسرعة عجيبة لم يسبقهُ اليها احد فقد صور نقطة ماء وهي ساقطة على زهرة والصاعقة وهي منقضة والرصاصة وهي خارجة من فم البارودة (النحلة)

(ورق الحيطان) أُصطنع في بلاد الانكليز ورق مزيَّت تُبطَّن بهِ الحيطان ويُغسل بالماء والصابون فلا يتغيَّر لونهُ ويُستعمل مقدار ٣٠ سنةً

(مواد للاسراج) وكان في سنة ١٨٠٤ ام استخلص رجل يقال لهُ مردوك الغاز من الفحم فابتدي في اسراجهِ بلندن في سنة ١٨١٦ ثم في سنة ١٨٥٨ صار اكتشاف زيت البترول المسمى في بلادنا بالغاز غلطًا

واخترع رجل من علماء الانكليز طريقةً لاستخراج غاز الانارة من الماء وذلك بامرار الماء على الحديد الحامي ويشتعل بنورٍ قليل وحرارة زائدة فيصلح لكلّ غرضٍ يحتاج فيهِ الى حرارة عالية مثل الطبخ وما يشبههُ وبهِ يُغلى ٤ ارطال ماء بكلفة ٤٠ بارات ثم اذا مرَّ هذا الغاز في البترولِيوم اي الغاز الاعتيادي يكتسب منهُ كربونًا فيصلح للاضاءة وهو اذ ذاك ارخص من غاز الانارة الاعتيادي ٤٠ في المائة (الجنان)

واخترع مستر اديسون الذي مرَّ ذكرهُ آلةً كهربائية يصدر عنها نور كهربائي ساطع يسرّ الانسان بالنظر اليهِ فانهُ صافٍ غير متحرك خالٍ من الاكدار ومصروفهُ ينقص الثلث عن مصروف الغاز ولا تصحبهُ اخطار كاخطار الغاز وذكر في بعض النشرات ان موسيو رينه اصطنع قنديلاً لهذا النور الكهربائي قليل النفقة بحيث يمكن استعمالهُ في البيوت والمعامل الصغيرة

(الزجاج) ومنذ برهةٍ يسيرة اصطنع مستر تومس دكنن اسطوانة من زجاج علوها خمس اقدام ومحيطها ٧٤ قيراطًا وهي اكبر اسطوانة صنعت من زجاج في العالم

واخترع موسيو دي لابستي نوعًا من الزجاج لا ينكسر لا بالطرق ولا بالحرارة بل يتسمر بالمسامير ايضًا وهو ابيض شفاف كالبلور النقي ذكر في احدى الجرائد الاسبوعية المنتشرة في سنة ١٨٧٥ بان هذا الاختراع كان سبق

اليه رجل في حضرة الملك طيباريوس قيصر فقتله هذا الملك خوفًا من انحطاط ثمن الذهب والفضة بسبب اختراعهِ هذا . وفي المقتطف انهُ قد عُمل لهُ الآن معمل في جنوبي بركلين من الولايات المتحدة الامريكانية

واخترع موسيو غاستون بلانته الحفر على الزجاج بواسطة الكهربائية

(آلات للحرب) ومن الآلات الحربيَّة الفتَّاكة المستعملة في هذا القرن التوربيد ويقال التوربيل ايضًا ومعناهُ الرعادة وهي آلة نارية توضع في ممر المراكب لاحراق البوارج وسائر السفن الحربية واعدامها قال صاحب المقتطف انهُ كان اخترع هذه الآلة رجل يقال لهُ داود بشنَل امريكاني في سنة ١٧٧٦ ثم تلاه رجل اخر امريكاني في بداءة هذا القرن يُعرف بروبرت فلتن واصطنعها في سنة ١٨٠٥

ثم اخترع رجل امريكاني اخر طريقةً لوقاية السفن المرقومة من فعل التوربيد المذكور

وكذلك اصطنع رجل من اهل فرنسيسكو مدفعًا يطلق ٧٠ طلقًا في ٤ ثوانٍ و١٠٥٠ طلقًا في الدقيقة ويهلك على بعد ١٠٠٠ يرد وآلاتهُ بسيطة جدًّا ولا يحتاج الاَّ نفرًا من الرجال ويمكن لرجل واحد ان يديرهُ كيف اراد واذا ثبَّتوهُ مكن كانهُ صخر في الارض لا يتزعزع

واخترع رجل اخر مدفعًا يطلق مع الكلَّة سيفًا حادًّا يمرّ في الهواء مسلولاً على طولهِ فيقطع صفوف الاعداء تقطيعًا فاذا أُطلقت كلَّة قطرها ٨ قراريط كفت لان تحمل سيفًا طولهُ ١٤ قدمًا مسافة ٦٠٠ يرد

(تحنيط الموتى) اختراع رجل جرماني يسمى لول وطريقة ذلك هي ان ينشف اجسادهم بغازٍ يدخلهُ اليها فتبقى كما هي محفوظةً من البلَى والفساد وتغيير اللون وقد امتحن ذلك بمحضر جمهور من العلماء

(الموسيقى) وركب السيد نيدهام الماهر في فن الموسيقى آلةً موسيقية عبارةً عن صندوق في هيئة ارغن صغير يتيسَّر لايّ من كان ان يضرب بهِ جميع

الحان الموسيقي ولو كان صبيًا اميًا او اخرس او اطرش لايفهم شيئًا من فن الغنا وما عليهِ في استعمالها الآن يضغط برجلهِ دواسات قد ركّبَتْ في اسفل الصندوق بمثابة منفاخ يملا باطن الصندوق بهواء يضغط اشارات الموسيقي وحينئذٍ تبدو من الصندوق انغام حسب المطلوب لاتخل بقدود الموسيقي ادنى خلل . (النحلة)

واستنبط في بلاد الانكليز ورق يفعل كالباروت بل هو اقوى منهُ ويمتاز عن الباروت المعتاد بكونهِ لا يبقي اثرًا على البنادق والمدافع ودخانهُ اقلّ وصدمتهُ الى خلف اضعف

(واقيات الغرق) واخترع رجل يقال لهُ ستونور من اميركا لباسًا للوقاية من الغرق وهو ثوب من الفلين ورداء من المغيط يلبس فوقهُ وقد جرب اختراعهُ هذا في نهر السين امام جمع غفير هو ورجل وامرأة غيرهُ فلبس هولاء الثلاثة تلك الاثواب والاردية ونزلوا في الماء وكان الرجلان يدخنان التبغ والمرأة نقرأ جريدةً اولاً ثم جعلوا يتناولون الاطعمة في جوف المياه وبعدما لبثوا في الماء ساعتين ونيف خرجوا وكان لباس المرأة حتى ادقّ زينة ثيابها صحيحًا سالمًا وكان زوجها قد لبس قبعةً من الورق قصدًا فلم يلحقها ادنى بلل

واخترع مسيو دومانو توماسي الباريزي سفينةً مركبة من سفينتين احداهما تغرق في الماء والثانية متصلة بها بانبوبين كبيرين وتطفو على وجه الماء وتكون مرتفعة عنهُ بعض اقدام ومزيّة هذه السفينة على السفن الاعتيادية هي . اولاً ان الانواء لاتوثر فيها . ثانيًا ان آلتها البخارية تكون في القسم الاسفل والركاب في الاعلى فاذا انفجرت انية البخار لا يصل ضررها الى الركاب . ثالثًا يمكن ان تُبنى السفينة الحربية على هذه الكيفية فاذا ضُربت بالمدافع لاتصل الى آلاتها ولاتعطلها واذا اصابت صخرًا او رقارقًا يُرفع قسمها الاسفل حتى يلتصق بالاعلى والانبوبان متصلان بالقسم الاعلى انصالاً لايمكن فكّهُ بسهولةٍ فاذا عرض للقسم الاسفل عارض ما ولم يمكن دفعهُ ولا اصلاحهُ يُفك الانبوبان ويسير القسم

الاعلى لكثيرٍ من السفن

واخترع موسيو توسلي اختراعًا لنشل السفن من قعر البحر وهو كناية عن أجربة من الكاوتشوك (كذا) متصلة ببعضها تنزل الى السفينة الغرقى ويمكّن طرفها بها ثم تُلفّ حولها وتملأ هواء بواسطة آلةٍ هوائيّة فترتفع هي والسفينة

واخترع رجل امريكاني اختراعًا بديعًا تساق بهِ السفن الى الامام والوراء وتدور على نفسها او تُردُّ من جهةٍ الى اخرى كيفما اراد ربانها

واخترع ضابط مجياري يقال لهُ زونس آلةً تمكن الخيل من السباحة وتمنعها من الغرق اذا اقتضى ان تقطع نهرًا وقد عبر نهر الطونه راكبًا على فرسٍ ومتسلحًا في ٦ دقائق مع ان المسافة ٦٠٠ متر نحو ١٢٠٠ ذراع

(الواقيات من النار) واخترع رجل اسوجي يقال لهُ استبرج ثوبًا يلبسهُ الانسان على كل جسدهِ داخلهُ مصنوع من المغيط (اللستيك) وخارجهُ من الجلد الانكليزي وخوذةً يلبسها على راسهِ وانبوبةً من الجلد ضمنها انبوبة اخرى اصغر منها تشدُّ على وسطهِ الاولى تملأ ماء والثانية هواء بواسطة آلات معمولة لذلك وقد روت صحف الاخبار بان رجلًا يقال لهُ القبطان الستروم اقتحم النيران في قصر الكسدرا بلندن وهو لابس الثوب المذكور وجعل يتمشى على حزمٍ من قرامي الحطب اليابسة جدًّا وملتهبة اشد الالتهاب بما صبوهُ عليها من زيت البترول (الغاز) وبعد ان بقي في النار ١٠ دقائق يخطر متبخترًا واللهيب يعلوهُ تارةً وينخفض اخرى اخذ كرسيًّا مشتعلًا وجلس عليهِ امام الجمهور يدخن سيكارتهُ حتى اذهل كلّ من حضر مع ان حرارة النار كانت لا تطاق على بعد ٤٠ ذراعًا ونيف الى جهة الريح وتقهقر عنهُ الوقوف كثيرًا

واخترع رجل انكليزي يقال لهُ تندال آلةً بديعة يتيسر بها التنفس مدّةً لا اقلّ من نصف ساعة في وسط اكثف ما يمكن ان يكون من شدّة كثافة الدخان وفائدتها العظمى لاصحاب الطلمبات في طفي الحريق (المقتطف)

(حروف الكتابة القديمة) وكان في سنة ١٨٢٢ اهتدى المعلم شمبوليون

العالم الفرنساوي الشهير بالحذاقة الى قراءة كتابة المصريين المسمّاة بالحروف الهيروغليفية فاعان هذا الاكتشاف ماريبت بك المأمور على دار التحف المصرية على تأليف تاريخ مصر الذي استنبطهُ مما استخرجهُ من الآثار القديمة المدفونة في اراضيها ·

واهتدى السواح الفرنساوية والانكليز الذين طافوا اكثر انحاء بلاد اليمن واحتفروا كثيرًا من خرائب المدن الى معرفة القلم العربي القديم المعروف بالمسند من الآثار الكثيرة التي اكتشفوها منقوشًا عليها بالقلم المذكور بواسطة مقابلتها بالخط الحبشي والكوفي والفينيقي والعبراني الى ان اتصلوا الى قراءتها وترجمة بعضها وقد كتب مولفو جريدة المقتطف عن قطعة من البلاط وجدها مسيو كلدوير في اميان الى جهة الشمال الشرقي من عدن شيئًا يسيرًا من هذا الخط وتتبعوا ما اكتشف وقُرِي من هذه الكتابات لغاية تموز سنة ١٨٧٥ فاستخرجوا منها حروفًا تقابل كل الحروف العربيّة ما عدا خمسة منها وادرجوا ما كتبوهُ واستنتجوهُ في الجزء الاول من جريدتهم المذكورة

واهتدى سِر هنري روبنصن والسيد سميث الانكليزيان الى معرفة القلم الاشوري وخاصة السيد سميث المذكور فانهُ درس اللغة الاشورية وبرع فيها وتضلّع في اصطلاحاتها اللغوية حتى صار يقرأ بطلاقةٍ كلّ كتابةٍ وجدها مسطورةً في الآجرّ الاشوري وكان مقتفيًا في ذلك الطريق التي سبقهُ اليها العلاّمة شمبوليون المارّ ذكرهُ في معرفة القلم المصري وقد طُبعت صورة هذه الحروف الاشورية مع ترجمة العلاّمة المذكور في جريدةٍ من جرائد النخبة المطبوعة في لندن سنة ١٨٧٧

تقدم الصناعة بالنسبة الى العلوم ومركزها في القرن التاسع عشر

لا يخفى بان العلوم والصنائع هما صاحبان متلازمان بل شقيقان توأمان اذ

ان افكار البشر لم تلد حقيقة علمية الاَّ وتمخضت معها بدقيقةٍ صناعيةٍ ولا اشعرت بحاجةٍ صناعيةٍ الاَّ والتجت فيها الى الارشادات العلمية . قال صاحب المقتطف ان نمو الصناعة وتقدمها وتنشيطها واتقانها والتفنن فيها وفي انواعها جميع ذلك لا يتأتى حصولهُ واجتناء اثمار فوائدهِ الاَّ بوسائط متسلسلة يتوقف بعضها على بعض فان اتقان الصناعة والتفنن فيها وفي انواعها يتوقفان على الاكتشافات النافعة والاستظهارات المفيدة وهذان الامران لا يمكن ادراكهما والحصول عليهما ايضاً الاَّ بواسطة العلوم التي توسّع دائرة معرفة الحقائق التي بها يرتقي العقل البشري الى درجةٍ سامية فتنكشف لهُ اسرار الطبيعة الكائنة تحت استار الخفا فيستخرج منها كلَّ ما هو نافعاً ومفيداً لاعمالهِ ومساعداً لهُ في ادراك مقاصدهِ وحينئذٍ يبرز ما يمكن تصديقهُ من تصورات عقلهِ ويخرجهُ من حيز القوة الى الفعل فالفلسفة اذن تبحث في خواص الموجودات والعلوم تحقق للعالِم ما يتصورهُ عقلهُ من منافعها وفوائدها والصناعة تتكفل بابراز ذلك من حيز التصور الى قوة الفعل اه

والالتفات الى هذه الحقيقة عينها جعل اوروبا امّاً للعلوم والمعارف ومصدراً للتحائف واللطائف ومركزاً للتجارة وثروتها ومجمعاً للقوى المادّية والادبيَّة وصولتها الى غير ذلك من الامور التي بها تنحصر ثروة العالم وقوَّة الممالك العظمى ومجد الشعوب المتمدنة ايضاً اذ انهم لم يتمتعوا بشيء من خيرات العالم ولم يسلبوا ثروةَ امةٍ من الامم بواسطة الصناعة التي تكفلت لهم بالقيام في كل ما تحتاج اليهِ اجناس البشر من ضروريات معايشها كليةً كانت اوجزئية الاَّ وتعهدت لهم صفحات التواريخ بانها تتزين بذكر مناقبهم وفضائلهم وتحلّى بما لايديهم البيض من الاعمال النافعة العائدة لخير النوع الانساني حتى لم تبقَ مملكة من ممالكهم بل ولا امة من اممهم الاَّ وذكر لها فيها من المآثر الحميدة والمبرّات العديدة ما يلقي الغير في زوايا النسيان ويجعلهُ في خبر كان وما ذاك جميعهُ الاَّ من اثمار قيامهم حق القيام بخدمة ما ذكرناهُ من العلوم واعتنائهم في اتقان المدارس التي اسسوها

لكلّ منطوقٍ ومفهوم سواءٌ كان من العلوم العقلية او الفنون الصناعية وشحنوا بها بلادهم ليتخرج عليها كبيرهم وصغيرهم جليلهم وحقيرهم غنيهم وفقيرهم

واضفْ الى ذلك القاعات العظيمة المخصوصة باجتماع علمائهم ايضًا يجتمعون فيها للمذاكرات العلمية وتلاوة الخطابات التي يؤلفونها في اي فنٍّ كان من الفنون والبحث في ما تبعث بهِ اليهم مراسلوهم في اقطار الارض من المخابرات والمداولة في ما اجروهُ او سيجرونهُ من العمليات وما ظهر لهم بواسطة التجريبات او لاح في افكارهم من الظنون والحدسيات

وزد عليهِ خزائن الكتب السلطانية فقد ذكر صاحب كتاب اقوم المسالك بان نتالي الذي كان وزير المعارف العمومية في ايطاليا قد عمل جدولاً ببيان كميتها بعد تمام بحثهِ عنها في سنة ١٨٦٧ فبلغت ما يأتي (ولعلهُ بعد كل ما اغضى عن ذكرهِ

مجلدات	
٤١٤٠٢٨١	الموجود بخزائن ايطاليا واغلبهُ من الكتب القديمة المتعلقة بالديانة
١٧٧١٤٩٣	" " بريطانيا العظمى
٣٠٠٠٤٨٨	" " بلاد النمسا
٣٠٤٠٤٥٠	" " بروسيا
٨٥٣٠٠٠	" " الروسيا
٥٠٩١٠٠	" " بلجيكا
١٣٦٨٥٠٠	" " باويرا
٤٨٩٠٠٠٠	" " فرانسا
١٧٤٧٣٣١٢	

وقال ان في باريس وحدها ثلث العدد الموجود بمملكة فرانسا كلها ففي قاموس العلوم المحرر في هذه السنين الاخيرة ان الخزانة السلطانية بباريس بها

من الكتب على ما تحرر في سنة ١٨٦٣م مليون من الكتب المطبوعة وثمانون الف مجلد بخط اليد وغاية ما كان فيها وقت تاسيسها سنة ١٢٨٠م ٩١٠ مجلدات. وهذا القدر الموجود الان هو غير اربعين الف خريطة في فن الجغرافيا وعدد كثير من الرسائل ونحوها ما لا يطلق عليه اسم مجلد وقال رفاعة بك الطهطاوي ان هذا كله من تاثير الحرية فيها ويوجد في باريس ثلاثون خزانة غير الخزانة المذكورة متفاوتة في الكبر كما توجد خزائن معتبرة نظيرها في سائر مدن اوروبا وهذه الخزائن جميعها تُفتح في ساعاتٍ معلومة بالنهار ومنها ما يُفتح بالليل ايضًا للطلبة وللراغبين في الاستعارة او لقصد مجرد الاطلاع وحولها بيوت للتعلم وهي محتوية على آلات الكتابة ما عدا الورق فانهُ يأتي بهِ من اراد الاستنساخ ويطلب الكتاب الذي يريدهُ ببطاقةٍ يدفعها الى المكلف بذلك واذا احتاج الى اكثر من كتاب يبين السبب فيها فيحضر لهُ في الحين ما طلب وحين خروجهِ من ذلك المحل يسلّم للمكلف المذكور ما اخذهُ من الكتب وهذه المنحة مبذولة لكل راغب سواء كان من الاهالي او من الاجانب واما من كان من المولفين المشهورين فيسوغ لهُ نقل الكتب للانتفاع بها في مهلةٍ اقصاها عام اذا طلب ذلك بالكتابة وبيّن السبب الداعي لاخذ الكتاب وعند مضي المدة اما ان يرجّع ما اخذ او يطلب تجديد التسويغ مدةً اخرى هذا عداء عما يوجد عند الاهالي من المكاتب الخصوصية فانهُ قلّ ان وجد انسان لا يعرف القراءة والكتابة في اغلب ممالك اوروبا المتمدنة وكل من كان كذلك كبيرًا كان او صغيرًا غنيًا او صعلوكًا لا بد لهُ من خزانة كتب على قدر حالهِ وفي اغلب هذه المكاتب الخصوصية كثيرًا ما توجد بعض الآلات الهندسية وغيرها مما يلزم الى معاناة العلوم والفنون ومن الآثار القديمة والغريبة ما يشوّقهم للدرس والمطالعة واعمال الفكر في دقائق الصناعة

ومع كل ذلك لا يُسمّى عالمًا عندهم الا من كان متضلّعًا في معرفة الحقائق بارعًا في كثير من العلوم والفنون اما من كان لا يعرف الا علمًا واحدًا فلا

يدعونه عالماً ولو كان من امناء الدين فان امناء الدين عندهم لا يوصفون بالعلم متى كانت معارفهم مقتصرة على الامور الدينية فقط وكذا العارفون بقواعد اللغة كالنحو وغيره لا يعدّون عندهم من العلماء الا اذا كانوا يعرفون علوماً غيرها تساعدهم على بلوغ مآربهم وتتميم مقاصدهم

وبهذه الطريقة قد صارت المشاهير بينهم بالعلوم والصناعات اكثر من ان يحصوا والساعون فيما يزيد انواع البشر تحسيناً اجلّ من يضبطوا لان الطلبة في اوروبا يقصدون المدارس لا لتعلّم لغة اجنبية يتيهون بها عجباً على ابناء وطنهم اوتدبّ بواسطتها خمرة الكبر في رؤوسهم فيهملون قبل كل شيء لغتهم الاصلية لزعمهم بانها لم تعد لائقة باناس نظيرهم قد ارتقوا الى درجة سامية من المعارف والعلوم التي لا تسمح لهم ان يتنازلوا بعدها الى التعيش من الصناعة ولو كانت صناعة آبائهم واجدادهم وانما تقضي عليهم بان ينظموا ذواتهم في سلك العلماء الذين لا يعرفون منهم غير ولتير وجانجاك روسو ورينان وامثالهم فيتخذون نتائج افكارهم بدون الوقوف على السفسطات التي اوصلتهم اليها ليموهوا بذلك على اترابهم بانهم قد صاروا اهلاً لاقتباس عوائد الافرنج وملابسهم ويسوغ لهم حينئذٍ ان يستهزئوا باسلافهم ويقدحوا في عوائد بلادهم وآداب آبائهم نظراً لما وصلوا اليه هم من درجات التمدن وسمو الافكار التي لا يمكن انتظارها ممن لم يمزج كلامه مع ابناء وطنه الذين لم يتعلموا لغات الافرنج بشيء من الالفاظ الاعجمية بل يقصدون المدارس لكونها هي الواسطة الوحيدة لتحصيل معرفة الحقائق التي ذكرناها ليتوصلوا بها الى الكشف عن اسرار في الطبيعة تمكنهم من ادراك غاياتهم التي يقصدون بها لا مجرد اتقان الصناعة فقط بل وايجاد وسائط لسهولة عملها فترغب الناس فيها لرخص اثمانها وتعرض عن مصنوعاتها المحلية نظراً لغلاوتها بحسب اكلافها وبذلك يحصلون هم على الغنى الذي يؤمن لهم اسباب الرفاه في المعيشة على ما تقدم ولذلك قلّ ان وجد انسان صاحب صناعة من اهالي اوروبا غير متخرج في اتقان صناعته على المدارس المعدّة لتعليمها كما

انه لايعلم ايضاً يستنكف من معاطاة الصناعة عند الاحتياج اليها

وهذه المقاصد نفسها هي التي جعلت الملوك يرغّبون الناسَ في الاخذ باسباب التمدن وينشطونهم بالجوائز وبعلامات الشرف والافتخار وبوضع صور مشاهيرهم في الجامع العامة لا لتوفير الكفر بل لتوفير دواعي البحث عمَّا يمكن ان ينفع جنسهم ويخلد ذكرهم فتعمر مما لكهم وتمتلىء خزائنهم بواسطة الصناعات واتساع دائرة التجارات

ولذلك تكاثرت الفلاسفة في اوروبا حتى لااظنهُ يخطي من يقول انهم صاروا اكثر عددًا من امي سوريا واخذوا يطوفون البرور والبحار ويتوغلون في شواسع الاقطار ويرتكبون المشاق والاخطار ليبحثوا في كل ما هو داخل دائرة الوجود جليلاً كان او حقيرًا غير مبالين في ازدراء المتبربرين الذين حتى الآن نراهم يقهقهون عليهم ضحكًا عندما يرونهم في اغوار البلاد وانجادها مشتغلين في رصد حركات ما يقع تحت ابصارهم ولو كان من ادنى الحيوانات وجمع ما هان او رَذُلَ في ابصار اهالي الشرق من الاتربة والاحجار بل وادنى النبات او اقذر الحشرات ولاسيما عندما يستدلون على قلّة عقولهم بما يظنون انهم اغتنموهُ منهم من الدراهم والدنانير عوضوهم عنهُ ما زعموا ان لاقيمة او لانفع لهُ مما استخرجوهُ بواسطة حفر الاراضي من الاحجار المشغولة او ما باعوهُ لهم بثمنٍ مناسبٍ من الكتب والمولفات فالبث القوم حتى سلبوا البلاد حلاها الثمينة وجميع ما كان فيها من اثار معارفها القديمة ولسان حالهم يتمثل بقول القائل

لو كنت تعلم ما اقول عذرتني ... او كنت اجهل ما تقول عذلتكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني ... وعرفتُ انك جاهل فعذرتكا

وبمثل هذا الاجتهاد قد فاز السواح منهم ايضًا بفك طلاسم الامم القديمة اذ عرفوا الحروف الهيروغليفية المصرية والفينيقية والاشورية والحميرية . واستخرجوا من دفائن الخرابات معارف قدماء الامة المصرية وهم الان يشتغلون في البحث

عن اثار بابل وبمباي واستخراجها من خراباتها العظيمة (بمباي بلدة في ايطاليا خربت ببركان يزوف) فاستخرجوا كثيرًا من غرائب وتحف يعجز اللسان عن وصفها واستدلوا من فحصها على حالة تينك المدينتين الادبية والسياسية والعلمية والصناعية ولم يثنهم عن عزمهم واقدامهم على ما يتصورونهُ وتحقق لهم علوهم او ظنونهم انهم ينالونهُ لوم الانداد ولا مقاومة الحساد ايضًا كما وقع للدكتور هنري شليمن الجرماني في الكشف عن الكنوز التي ذكرها اوميروس الشاعر اليوناني بانها دفنت مع الملك اغا ممنون الذي غزا تروادة واخربها ولما لم ترضَ معهُ دولة اليونان بان تساعدهُ في مصاريف بحثهِ عنها في خرائب مدينة مسيني قبل معها بان يصرف تلك المصاريف من مالهِ فسمحت لهُ حينئذٍ ان يستخرجها بحيث تبقى للدولة اليونانية فلا يستولي على شيءٍ منها فقنع حينئذٍ بمجرد نسبة اكتشافها لهُ في سجلات البلاد واظهر من تلك الدفائن الثمينة ما يبهر العقول وتتباهى بالاستيلاء عليهِ تلك المملكة الصغيرة المتحلية بكثيرٍ من الآثار التي هي من هذا القبيل فانهُ يحكى بان دولة انكلترا ارادت ان تسمح لهذه المملكة بكل ما لها عليها من الديون في مقابلة بعض اثار قديمة رغبت فيها من الموجود عندها فلم تقبل ومن اعظم فوائد هذه الآثار عند الافرنج وضعها في المعارض العمومية التي احدثوها لاجل المباهاة في الصنائع والاشغال فيحصل التنافس فيها ويزاحم بعضهم بعضًا على اتقانها والفوز في اكتساب شهرة التقدم في اعمالها

وقد بلغ من معارفهم وثقتهم في اصابة افكار عظمائهم ان يقدموا على عظائم الامور التي يؤملون بانها تعود عليهم بالنفع ولذلك لم يتأخروا عن ان يمدوا موسيو دوليسبس باموالهم لانجاز مشروعهِ في حفر ترعة السويس غير ملتفتين الى التمويهات التي كان يهددهم بها رقباؤهُ عن الطوفان الذي زعموا انهُ يحدث من اختلاط البحر الاحمر بالبحر الابيض ويقال بان في نية رجل اخر يقال لهُ موسيو ما ينير حفر ترعةٍ مثلها تصل الاوقيانوس الاتلانتيكي ببحر الروم وتعرف بترعة دوميدى وكذلك في قصد جمعية امريكانية حفر ترعةٍ تصل بحر

قزوين بالبحر الاسود وربما اعقبها وصل نهر دون بنهر فولكا

ولم يقتصروا في البذل والسخاء على امور نظير هذه يوملون اقله التمتع من حصة اسهام اشتراكهم فيها فضلاً عن رواج متاجرهم الخصوصية بل يبذلونها ايضاً في سبيل تقدم الصنائع على اية صورةٍ كانت فانهُ يقال بانَّ تاجرًا امريكانياً وهب خمسين فدانًا من الارض وخمسين الف ريال لاقامة مدرسة عالية يُعلَّم فيها الطبخ على اصول وقواعد علمية في ولاية مسشوستر من الولايات المتحدة وعقدت كذلك جمعية كيماوية في الولايات المذكورة جلّ مقصدها تنشيط الكيماويين ومساعدتهم لترقية اسباب المعارف الكيماوية

واوقف خمّار من خمّاري دانيمارك ٧ ملايين و٢٨٠ الف غرش لاجل انشاء معامل لترقية العلم والصناعة بالبحث والتجريب وجعل على هذا المال ٥ من الوكلاء الامناء يبذلون قسمًا من دخلهِ السنوي في سبيل ما انشأوهُ حديثًا من المعامل الكيموية والفيسيولوجية ويبذلون القسم الاخر بعد وفاته ووفاة زوجته في سبيل العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة والتاريخ وعلم اللغات

واشتهر رجل من زوريك بفن الكيميا فلما درت الحكومة بمبلغ علمهِ وبعد صيتهِ وكبر نفعهِ منحته قطعة ارض واسعة و٦٠٠ الف فرنك لبناء معمل كيماوي هناك ولما رأى اهل البلد صنيع حكومتهم تكفلوا هم ايضًا بتقديم كل ما يقتضي لهُ من النفقات فوق ما ذُكر

فمن هذه المثالات ونظائرها تحقق ما للصناعة من الشرف عند اهالي اوروبا ومقدار اعتنائهم بها فلا نحصر المجد العظيم الذي لعلماء الطبيعة في مجرد اذلال العناصر وتطويعها لخدمتهم كتسخير المادة التي كان اقام لها اليونان الهًا من اولاد جوبيتير معبودهم ليهيء لابيهِ منها الصواعق فجعلوها هم بمنزلة البريد لايصال مخابراتهم ولا في خرقهم حرمة تلك المقاسمة التي زعموا بانها جرت بين ذلك المعبود واخويهِ حيث سلبوا من ابلوطون السلطة على النار واستخدموها لامتطاء متون العواصف المائية والتيارات البحرية بل واصبحوا قادرين ايضًا

على ما يظن الجاهلون به بانهُ من خوارق الطبيعة ويقرنوهُ بعمل اصحاب الكرامات كالمشي على وجه الماء والجلوس في وسط لهيب النيران على ما قد سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على الاكتشافات العلمية والتقدمات الصناعية في هذا القرن الذي نحن بصدد تقدمات الصناعة فيهِ بل يلزمنا ايضًا ان نعرف ما لهم من ذلك الجد في ما قد اقاموا بهِ من حقوق الصناعة ايضًا واتقانها حق الاتقان حتى بلغ اصحاب المعامل في اوروبا ان يعملوا اعمالاً لولا انهم يبن اظهرنا لابرمنا الحكم عليها بانها من صنع الجان

حكي بان امبراطور المانيا الحالي دخل ذات يومٍ الى معمل من معامل الابر في مملكتهِ يريد ان يعرف مبلغ الانسان من الدقة في الاعمال بالحرف التي يستعملها لها والآلات التي اخترعها لمعونتهِ وبينما هو يتنقل في المعمل وقع نظرهُ على ابرٍ دقيقة الى الغاية اذا وزن الوف منها ما زادت على الدرهمين او الثلاثة فاخذهُ العجب ولاسيما لما رأى عاملاً يثقبها ونظرهُ غير مستعين بآلةٍ فقال لهُ العامل اني اري جلالتكم ما هو اعظم من ذلك وطلب منهُ شعرةً من شعر راسهِ فاعطاهُ فوضعها تحت المثقب وللحال ناولهُ اياها وفي سمها خيط فخرج الامبراطور وهو يثني وقد اعترتهُ دهشة مما رأى وكذلك ابرة اخرى عند الامبراطورة فكتوريا ملكة الانكليز الحالية اراد المتاخرون ان يباهوا بها اعمال المتقدمين فنقشوا عليها نقوشًا كثيرة منقولة من حياة الملكة المشار اليها كما كان المتقدمون ينقشون على الاعمدة التي ينصبونها لمن يشتهر منهم وكل ما هو منقوش على الابرة نافر على غاية ما يمكن من الدقة ولا يرى الاَّ بمنظر مكبّر والاغرب من ذلك ان ضمن الابرة ابرًا ادقَّ منها بعضها ضمن بعض وجميعها منقوشة كالابرة الكبرى هذا ما كان من امر اتقانهم النكات الصناعية الدقيقة ونظير ذلك في الاشياء العظيمة الجرم ايضًا كتلك الساعة العظيمة المهولة التي ذكرنا في ما مر انهم اقاموها في لندن عاصمة المملكة الانكليزية وقبة الجرس الحديد العجيبة التي اشرنا كذلك بانهم انشأُوها لكاتدرال روان في المملكة الفرنساوية

واصطنعت كذلك في باريز ساعةً للمعرض متقنة الصناعة تدلّ على الساعات والدقائق والثواني وايام الاسبوع واشهر السنة واوجه القمر وتغييرات الثيرمومتر والبارومتر

وبلغ من تحسين عمل الساعات في سويسرا انهم اخترعوا للكتابة الارقام على الميناء مادةً تنير في الليل فتقرأ ليلاً كما تقرأ نهارًا وانما تحتاج ان ترى نور الشمس ساعةً من الزمان

وعلى هذا يمكنا ان نقيس باقي معمولاتهم الصناعية التي ادهشوا بحسنها واتقانها امم المشرق وسلبوا منهم الثروة والغنى سواءٌ كانت من المعادن او غيرها من الاتربة وسائر العناصر الارضية كآنية البلور والمرائي وانواع الفخار الظريف والبلاط فضلاً عن اواني الذهب والفضة وانواع الحلى التي منها ما يرصعونه بانواع الحجارة الكريمة وما يصنعونه من معادن الحديد والرصاص والقصدير والتنك كاواني البيوت وخاصةً ادوات الصنائع والاتها للنجارين والمعارية والحلاقين والقوافين والات العزف الموسيقية والآلات الهندسية والفلكية وما تفنن فيه الالمان والفرنساويون من ادوات الحرب والاتها المهلكة التي اخترعاها واعداها لحاربتهما الاخيرة من الطبنجات المضاعفة وبواريد الابرة والصاشبو ومدافع المترانيوز والكروب ولاسيما المدفع المخترع اخيرًا بعد الحرابة المذكورة وقد ذكرت صفاتهُ في ما تقدم والرعادات المسماة بلغتهم توربيد او توربيل المخترعة لاجل اتلاف البوارج المصفحة واحراقها والآلة التي اختُرِعَت في بلاد الانكليز ضدًّا لها وغير ذلك من الوسائط الفعَّالة المتكفلة بافناء الجنس البشري ايضًا

وقد عرف كل فردٍ من اهالي بلادنا ما للقوم من البراعة في ما يصطنعونهُ على الانوال ايضًا بمساعدة الآلات البخارية من اقمشة الكتان والقطن والصوف والحرير على اختلاف انواعها ونقشها بالالوان الجميلة كيف لا وهي سبب تعطيل حرفتهِ وباعث فقرهِ وفاقتهِ ومنها انواع الغزل والمنسوجات الساذجة كالبزّ

الابيض والمناديل والمحارم والشيت والتدويرات والكفوف والجوارب والبرنجك والتول والاناويز والاطلس والجوخ والجوالات والحبال والخيطان والبسط والسجادات الرفيعة والشاش والدامسقو والشالات التي يقلدون بها صناعة الكشمير وغير ذلك من الاقمشة الصوفية الساذجة الرفيعة لاثواب النساء والفانله والمخمل حتى الخام المصبوغ والديما بل والطرابيش التي كان يجب ان نشتغلها نحن اقلما يكون لذواتنا اذ انهم هم لا يلبسونها

واخترعوا حديثاً في باريس صناعة عمل الجوخ من ريش كافة الطيور البيتية والخلوية على ارفع منوال واعظم مثال على انه من ٧٠٠–٨٠٠ جرام ريش يمكن استخراج متر مربع جوخ اخف من الجوخ الصوفي ٥ مرات ومدفي عنه قدر ٣ مرات ويمكن صبغه بكافة الالوان

وبالاجمال نقول انهم لم يتركوا لنا شيئاً نحتمل ثقلة عمله من ضرورياتنا حتى الذُبالة التي نحتاجها لاسراج مصابيحنا لا بزيت البترول المعروف عندنا بالغاز الذي يرسلونهُ لنا من بلادهم فقط بل وبالزيت الناتج من بلادنا ايضاً فانهم يرسلونها لنا مع الادوات النارية اللازمة لاشعالها عداء عما يلزمنا من الكراسي والمقاعد والطاولات وسائر الاشياء الخشبية

ولئلاّ يظن بعض مطالعي كتابنا بان الجمعية التي اشرنا قبلاً الى اهتمامهم بترتيبها وانعقادها حديثاً لاجل تنشيط الكيماويين في ترقية صناعتهم هي ناشئة عن تأخرٍ واقع فيها يقتضي ان ندرج هنا ما ورد في احدى جرائد المتقطف حيث تقول وقد بلغ الكيماويون (في اوروبا) درجة سامية في استغلال الذهب والفضة ليس من معادن اخرى يحولونها الى هذين المعدنين كما يتوهم الطاعون بل مما كان يُطرح على الدمن وتاباهُ الطباع كراهةً واشمئزازًا من قذره وكراهة رائحتهِ فانهم يستخرجون من الجبن المنتن وزيت الفيوسيل والاوخام الجارية من حظائر البقر العطورات الطيبة التي يتدهن بها الاشراف والعظماء وغيرهم من رجالٍ ونساء فيضعها التجار في آنية مزخرفة ويلفقون لها اسماء تستحبُ كزيت

الاجاص وزيت التفاح وزيت العنب وزيت اللوز المرّ وزيت الكنياك وماء الزهور. ومن قطع القصدير التي تتساقط تحت مقص التنكاري والخرق العتيقة وما يُقشر عن حوافر الدواب الصباغات الزرقا ومن الاتارات الحديدية الحبر. ويستعملون العظام في عمل الانصبة لآلات القَطْع على اختلاف انواعها وفي اللون الاسود العظمي عند الملونين والطالين بالفرنيش ولتزبيل الارض عند الفلاحين ولحاجات عند الصباغين ومتممي الاقمشة ولعمل الشحيط المعروف بشحيط كونكريف بما بها من الفصفور ولها منافع عديدة. ويستخرجون من الخرق الصوفية العتيقة نوعين من الغزل يغزلونها وينسجون منها الثياب. ويصطنعون من الثياب الصوفية الرثة البالية ورقًا لتغطية الحيطان ويتخذون حشوًا للفرش ويستخرجون لونًا ازرق يُعرف عند الملونين بالازرق البروسياني. وكذلك يتخذون مما يلي من الثياب المنسوجة من قطن وصوف مما تلبسهُ النسا صوفًا للاستعمال ثم يزبل الفلاح ارضه بما يبقى من تلك الخرق الصوفية ولا يصلح لان يستخرج منهُ نوعا الغزل المشار اليهما. ويتفنن الكيماويون كل التفنن بانواع استعمال القرون والحوافر. ويصطنعون من دهن الكلاب زيت السمك المغشوش. ومن الاوساخ الباقية من تنقية الاصواف وغزلها شمعًا يُعرف بالاستيارين. ومن عيون السمك ازرةً للزهور المصطنعة. ومن المثانة والامعا اوتارًا لآلات العزف وصامات مانعة لنفوذ الهوا فيسدُّ بها على الهوا وعلى ما يُراد حفظهُ منهُ. ويستخرجون من ارجل العجول والغنم زيتًا عطرًا الى الغاية. ويتخذون من السمك المنتن زبلاً جيدًا للارض. ومن الروث صباغًا اسمر. ومما يُلتقط من فضلات القطن في المعامل والورش الشراشف واغطية الفرش الافرنجية وقرطاس المطابع ونوعًا من الورق الصلب. ومن اعشاب البحر اليود والورق واغطية سقوف البيت وحيطانها. ومن حبوب كثيرة علفًا للمواشي بعد ان يعتصروا زيتها او يستخرجوا المسكرات منها. ومن قشور العنب لونًا اسود تصنع بهِ احسن انواع الحبر واجلها. ومن رماد التبغ مسحوقًا للاسنان. ومن الثفل

الراسب في الخمر زبدة الطرطير. ومن القطران الفحمي الذي يوخذ من معامل الغاز الملح النشادري وكبريتات النشادر وحبر المطابع والنوزور ومضادات الفساد والبنزول وشمع البارافين وكل انواع الانيلين الجميلة في الصباغ ونقش الاقمشة. ومن مسامير نعال الدواب القديمة احسن حدائد البنادق المعروفة. ومن قشور الحمض الارواح وهي تعطى ايضاً علفاً للماشية ويستعملون دمَّ الثيران في تنقية السكر وعمل الفحم الحيواني والصباغ الاحمر المعروف بدمّ العفريت. والنخالة في الدباغة ونقش الشيت وعمل صحون التنك. ويعملون من حكاكة الخبز المحترق مسحوقاً للاسنان وقد يستعملها الفرنساويون عوض القهوة. ويتخذون ما يبقى في المدابغ بعد الدبغ لتزبيل الارض. وقطع الفلين او ما يحاتُّ منهُ لحشو الامتعة ونحو ذلك وهي مرغوبة جدًّا عندهم. ويطحنون الجلود العتيقة وما يقص منها قطعاً صغيرة عند المشتغلين بها ويعملونها غراء. وتستعمل مرارة الثور عند صابغي الالوان ومنظفي الاثواب. وعماشيش الزبيب في ترويق الخلّ وهي افضل شيء لذلك. ويصطنعون من دقيق الكستنا المعروفة بكستنا الحصان الماكروني وهي طعام معروف. ومن البطاطا والارز والحنطة التي لحقها الفساد النشا. ومن النشارة الورق ويستقطرون منها الحامض الاوكساليك ايضاً ويدخنون بها السمك ويجلون بها المصاغ ويحشون اللعب ونحوها ولها ايضاً فوائد اخر عديدة. ويستخرج اهل نروج زيتاً من كبد سمكٍ يُعرف عندهم بالسمك الكلبي ويستعملون جلدهُ بعد ان يجففوهُ لصقل الخشب والعاج. ومنهُ نوع اخر يستخرج الفرنساويون من كبدهِ زيتاً ايضاً يستعملونهُ للدواء ويكون كزيت السمك الخالص في منفعتهِ على ان كلّ ذلك كان مهملاً عندهم من قبل. وقد عقد الفرنساويون شراكةً في فرانسا لجمع فضلات اللحمة التي تطرح عندنا والكلاب والقطط الفاطسة والدهن الذي تدهن بهِ السكك الحديدية بعد استعمالهِ ويعالجون ذلك جميعهُ بالبخار وضغط السائلات ويستحضرون منهُ الستيارين. ويطحنون القطع التي يقشرها الاساكفة عن الجلد في عمل الاحذية

ويطبخونها ثم يمدونها جلدًا جديدًا يُسمّى بالضبان يستعمل للنعال الداخلية واهل امريكا يصنعونها على طريقةٍ اخرى ويجمعون الجلود العتيقة وما يقطعهُ الدباغ من زعانف الاديم ويغرونها حتى تصير على سمك قيراط ثم يكبسونها بين محدلتين كبسًا شديدًا جدًّا فتخرج جلدًا جديدًا يُستعمل للكعاب وللنعال الداخلية والمقسيات . ويستخلص الذين يطبخون الجلود ما يكونون قد استعملوهُ في طبخها من زيت السمك والشحم بعد ان يكونوا قد قشروا تلك الجلود قشرًا رقيقًا فيبيعون القشور لمن يشتريها اما الزيت فيصنعون منهُ صابون زيت الحوت المُستعمل عند المشتغلين بالصوف لتنظيف الاقمشة واما الشحم فيصنعون منهُ صابون الشحم ثم يصنعون من القشور التي تبقى بعد ما تبرد اقراصًا يوقدونها لاستخراج الزيت والشحم من قشورٍ غيرها وما زاد عن المطلوب يبيعونهُ وقيدًا او زبلاً . وكانوا فيما سلف يطرحون ما يتلف من الورق الذي يتشرب الالبيومن او يُدهن بهِ ليستعملوهُ في تصوير الشمس فانهُ يتلف منهُ كثير في مجرى اصطناعهِ واما الآن فانهم يلونون الالبيومن بالوان الانيلين على طريقةٍ معروفة عندهم فيتحول الى ورقٍ كالرخام شكلاً . وكذلك كانوا يهملون كل سنةٍ نحو اربعماية الف قنطار تبقى من القطن والكتان عند نسج الاقمشة واما الآن فلا يهملون منها شيئًا بل ينتفعون بها كلها واذا زيد عليها ما يُنتفع بهِ في هذه الايام من بقايا الصوف والحرير زادت قيمة المنفعة كثيرًا . وبطلي الفرنساويون كيزان الصنوبر وعرانيس الذره بعد نزع الحبوب عنها باية مادةٍ كانت راتنجية ويستعملونها لاشعال النار . وفي باريس توجد جمعية تشتري الفضلات النباتية التي كانت تطرح خارجًا من ٣٥ مستشفى بها ويطبخونها على البخار ليعلفوا بها الخنازير . ويستخرجون من الثفل الاسود الذي يبقى بعد تصفية بزر اللفت ونحوهِ من نبات فصيلتهِ دهنًا ابيض حسنًا ويصنعون ما يبقى بعد معالجة ذلك الثفل طلاءً رخيصًا . ويستخرجون الدهن الذي يبقى في اقراص الكسب بوسائط كيماوية ويحولونهُ الى سنيارين فاخر . ويشترون الدفاتر القديمة

والمكاتيب والسندات وكل الاوراق المكتتبة (لا المطبوعة) التي لا يُحتاج اليها ليمزجوها بموادّ اخرى ويحولوها قرطاساً جديداً تُطبع عليه الجرائد البخسة الاثمان . واقاموا في ايطاليا وورتمبرج والولايات المتحدة الامريكانية وغيرها من البلاد معامل كبيرة لاصطناع القرطاس من اوساخ القطن والورق العتيق والقش والعشبة الاسبانيولية والخشب عداء عن الخرق القطنية والكتانية كما انهم يصطنعونه ايضاً من الخشب بواسطة طحن الخشب في دواليب خشنة كحجر الرحى ثم يعجنونه ويمدونه على طريقة اصطناع الورق وفي بنسلفانيا في الولايات المتحدة معمل يعدّ كلّ يوم ٣٠ الف ليبرا من الخشب والنشارة واستعماله اخذ الآن في الاتساع ففي اكثر الجرائد الالمانية قليل منه ويقال بان جريدة دبلي تريبون في نيويورك يُصنع ورقها من خشب البمبو وان ورق غيرها من الجرائد الامريكانية اكثرهُ من ورق قصب برّي يكثر على ضفتي نهر مسيسبي ويستخلصون من الخشب بعد اصطناع الورق منه روحًا من الارواح يُنسب الى بعض الكيماويين الجرمانيين ويصنعون من النشارة علبًا وصناديق مزخرفة توضع فيها الحلى وصانعها رجل فرنساوي . ويتخذون من البزور التي في علب القطن وقيدًا للغاز وزيتًا للضوء في القناديل وشحمًا صلبًا حسنًا اوستياريتا للصابون والشمع ويستعملونها عوضًا عن زيت الزيتون وعلفًا للماشية عوضًا عن اقراص الكسب . وكذلك يتخذون من ثفل الدبس المصنوع من سكر الشمندور الكحول الكثيرة الاستعمال ومنه متبلورًا املاح البوتاسيوم . ومن خشب الصباغ بعد استخراج اللون منه وقيدًا فان بعض اصحاب المعامل الواسعة بفرانسا يمزجهُ بدردي القطران ويجعله اقراصًا للوقود . ويتخذون من اوراق الصنوبر ما يُعرف عندهم بالصوف الشجري ويستعملونه لحشو الارائك عوض الصوف وينسجون منه الثياب الداخلية كالقمصان ونحوها وهم يشتغلون بها في فرانسا واسوج وهولاندا وغيرها وما بقي منها بعد ذلك كبسوهُ كومًا وباعوهُ وقيدًا ويستخرجون منه المادة الراتنجية التي فيها الغاز واذا عالجوها معالجات اخرى استخلصوا منها زيتًا طيارًا

يُستعمل في الروماتيزم والامراض الجلدية وزيتًا اثيريًّا يستعمل شافيًا ومذوبًا وسائلاً يُستعمل في عمل غسول طبيّ. ولما فكر بعض الانكليز بان الفحم المذخور في الاراضي لا يدوم الى الابد التفتوا الى ما يتلف منهُ من الدقّ والغبار على فوهات المناجم ولاسيما لما اشتغلت بالجيوم بتدبير ذلك ومن ثمّ عقدوا جمعية لتدبيرهِ فيغربلونهُ الان ويمزجون كل مئة جزء منهُ بثمانية اجزاء من القطران الفحمي ثم يحمونهُ بالبخار الى درجة ٣٠٠ حتى يصير في قوام العجين فيصنعونهُ اقراصًا واساطين يستعملونها وقيدًا للارتال ومراكب النار. ومن غريب ما يأتي بهِ الجد ان البلدان التي يعوزها البلاط عندهم يفرشونها بالحديد وذلك انهم يذيبون ثفل الحديد الذي يطرحهُ الحداد ويجرونهُ الى حفرٍ قطر الواحدة منها ٨ او ٩ اقدام ويتركونهُ حتى يجمد صفائح رقيقة فيستعملونها عوض البلاط. ويعالجون اباريق التنك والطناجر العتيقة البالية وغيرها من الاواني التي لم تعُدْ تصلح للاستعمال وما يُقصّ من التنك في عمل الصحون فيستخرجون منهُ تنكًا خالصًا وحديدًا والنشادر والازرق البروسياني وقصد يرات الصود يوم ومنافعها كبيرة عند الانكليز واهل ويلس حيث يُصنع من الصحون ما يساوي مليوني قنطار من التنك. وما يفيض من المواد في تلبيس المعادن بالكهربائية كالبورق رائج جدًّا عند الماحصين وفي عمل الدهون للتصوير. وقد اكتشفوا منذ برهةٍ جزئيَّة على طريقة استخراج السكر من الحشيش لان المادة السكرية توجد بكمياتٍ مختلفة في كلِّ نوعٍ من النبات والبقول اما الحشيش الذي عليهِ معاش الخيل وسائر الدواب في اوروبا ففيهِ مادة سكرية فضلاً عن باقي النبات وقد قرر الذي اكتشف علي هذه الطريقة انهُ قادر على استقطار ١٧ رطلاً سكرًا من قنطار حشيش وقد عوّلَ اربابُ الصنائع على اجراء هذا الامتحان في فرانسا

واستتب للاستاذ بَيَر من اساتيذ مورنيخ ان يعمل النيل عملاً وهذا يُعدّ من اعظم اثمار الكيميا الاَّ ان طريقة عملهِ لم تزل كثيرة النفقة وليس لهذا الاكتشاف مثيل الاَّ عمل القوّة الذي اكتشفهُ الاستاذان غراب وليبر في سنة ١٨٦٨ م

وأستعملت في الصباغ

(المقتطف والنحلة)

ومع كل ذلك ما فترت هممهم ولا قلت رغبتهم ولا خارت قواهم ولا ضعف اعتناؤهم في البحث عن الاسباب والوسائل الموجبة لنمو الصنائع وتحسينها وتقدمها وترويجها وأعظم الوسائط المخترعة لهذا المقصد العظيم هي المعارض التي سبقت الاشارة اليها في ما تقدّم والمعارض جمع معرض وهو قصر عظيم من البلور تجتمع فيهِ كل الانواع من البضائع والمحصولات والاوائل والكراخين وكل شيء مصنوعٍ بيد الانسان من جميع الممالك والقبائل البشرية وتقصدهُ ملوك الارض وعظماؤها وكثير من الناس على اختلاف طبقاتها لاجل التفرج لان الذي يحضر ذلك المحضر العظيم يكون كانهُ زار المسكونة بتمامها في يومٍ او اسبوعٍ واحد ويسمع كلّ انسانٍ لغتهُ ويرى كل انواع مصنوعات بلادهِ وينظر اناساً لابسين ملابسهُ ويجد حوانيت فيها كل نوع من المأكولات والمشروبات المناسبة لكلِّ شعبٍ وامةٍ ويرى ايضاً في تلك المكاتب العظيمة كلّ انواع الكتب الموجودة في كل لغات العالم ودارًا فيها خريطات رسم الارض ومساطر اصنام الوثنيين من كل القبائل ونسخ من الكتب الوثنية ايضاً وبالجملة كل ما تتشوق النفوس الى رؤيتهِ والاطلاع عليهِ ولا بدّ ايضاً من ان يكون بالقرب من هذا المعرض معابد وقهاوي وحمامات تلائم اغلب الطوائف الاجنبية التي تاتي للفرجة. وكان اول معرضٍ شرع بعملهِ في مدينة لندن قصبة المملكة الانكليزية وتلاها فيهِ الدولة الفرنساوية في عهد الامبراطور نابوليون الثالث ومن ثم اخذت باقي الدول في متابعتها لِما في ذلك من تقدم الصناعات بواسطة ترغيب أربابها ليتنشطوا في اعمالهم ويزيدوا من الاعتناء باتقان اشغالهم وحسبنا برهاناً على ذلك انهُ كان في جملة ما بُعث بهِ منذ بضع سنين من محاصيل بلادنا السورية الى المعرض العمومي في باريس حصةٌ من الدخان الناتج في قريةٍ من قرى مقاطعة الكوره التابعة لجبل لبنان ومربوط عليها ورقة صغيرة تُعلن اسم صاحبها واذ في

السنة التي بعدها طُلب الرجل المذكور الى بيت الدين مركز المتصرفية وسلمهُ دولة المتصرف وقتئذٍ وهو المرحوم فرانقو باشا اوراق شهادات وامتيازات ارسلت لهُ من فرانسا علامةً على تقدمهِ وبراعتهِ في زراعة الدخان فجعلها في محفظةٍ وعلقها على ما قيل في صدرهِ كعلامة امتيازٍ يتباهى بها بين انداده في عصرهِ فكيف اذن لا يبذل بعد ذلك هو وامثالهُ بل وجميع من عرف ذلك من ارباب الصناعات مزيد الكد ونهاية الجد باتقان ما يمارسونهُ من الاعمال الى ان يبلغوهُ درجة الكمال في الجودة

ولكي تُعلَم شدَّةُ اعتناء القوم في هذه المعارض ومقدار ما يبذلونهُ عليها من الاموال نذكر هنا ما قد حُكِي في الجزء الثامن من المقتطف ايضاً بان الفرنساويين سيقيمون معرضاً عمومياً في سنة ١٨٧٨م والمسموع انهُ سيكون من المعارض العظيمة جدًّا وقد عيَّنوا برسم هندستهِ ٩٤ مهندساً من باريس فامتاز فيهم ستة نال كل منهم ٦٠٠ ريال امريكاني جائزة وستة اخرون نال كل منهم ٢٠٠ ريال جائزة وستشغل ابنية المعرض ٦٨ فدانًا من الارض ويصرف عليها ٧ ملايين من الريالات ويُعين للفرنساويين نصفها والنصف الاخر لسائر شعوب الارض وذكر ايضاً في الجزء الثاني عشر من الجريدة المذكورة بانهُ سيُصنع في هذا المعرض حوض للسمك يسع ٤٠٠ الف جالون من الماء و٤ ملايين ليبرا من السمك وسيصرف على اصطناعهِ ٤٠,٠٠٠ ليرا انكليزية ويرتبونهُ ترتيباً عجيباً جميلاً الى الغاية بحيث يقدر المتفرج ان يرى كل ما فيهِ من الحيتان والاسماك ويشاهد مساكنها وحركاتها كما تكون في لجج البحار وسيسيّرون فيهِ سفينةً محمولها نحو ٤٠ قنطارًا ويغرقونها في الماء ويرفعونها بالآلات فيتفرج الناس مطمأنين على ما يجرى امامهم من الاهوال التي يميل الانسان الى رؤيتها (فليتأمل اهالي بلادنا)

الفصل الثاني

في الكلام على المعارف في بلاد الدولة العليّة العثمانيّة

لا يخفى بانهُ لما كانت مدينة القسطنطينية التي هي عاصمة المملكة الامبراطورية الرومانية الشرقية موسسةً على صخر السعادة وقد اعتادت منذ حصلت في عالم الوجود على الترأس والسيادة فلم تطق الذلّ والنكال بعدما نشأت عليهِ من رونق العز والابهة والجلال ولذلك كان من امرها ما سبقت الاشارة اليهِ في خاتمة الجزء الاول من هذا الكتاب باوجز عبارة وهو انهُ لم يسعها الآن تتملّص من ايادي قوم لم يراعوا قدرها ولا عرفوا كيف يحسنوا صيانة ثغرها ومن ثم ارتأت برايها السديد ان تدخل في قبضة سيدٍ تبلغ بسطوتهِ القاهرة ما تشا وتريد فخاطبت ذاتها بلسان المرشد الناصح ان المعوّل عليهِ في هذا الامر لا يكون الاّ السلطان محمد الفاتح فخرّت للحين حصونها الحصينة على الاقدام وسلمت لهُ ولذريتهِ مقاليد امورها على الدوام وهو كذلك مدّ لمساعفتها على ما ارادت يدهُ اليمين ولبى نداء طالعها السعيد الهاتف نحو جيوشهِ الجرارة ادخلوها بسلامٍ امنين وجعلها كرسي ممالكهِ العلية من سنة ٨٥٧ للهجرة الموافقة الى سنة ١٤٥٣ مسيحية فنالت بذلك ما كانت تتمناهُ اذ انها بقيت حافظةً للزايا التي امتازت بها دون غيرها من العواصم بكونها كرسي مملكةٍ عظمى وصاحبها لهُ رتبة اولى بين ملوك الارض وسلاطينها

وكان هذا الفاتح من العائلة العثمانية التي قد امتازت بفخر لا ينحصر في قدميتها وشرف اصلها فقط بل من وجوه اخرى عديدة ايضاً منها انها لم تسد

بوسائط ردية كارتكاب نقيصةٍ ضد ساداتها او خيانةٍ بحق مواليها بل استمرت على مراعاة حقوق السلطنة السلجوقية والخضوع لاوامرها منذ استولى سليمان شاه الجدّ الاعلى لآل عثمان على بلاد ارمينية الكبرى في سنة ٦٢١ للهجرة (سنة ١٢٢٤ م) الى ان انتقل زمام الملك اليها طبعًا من يد الدولة المشار اليها على ما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

ثانيًا انهُ منذ استيلائها على تخت السلطنة الى الآن لم يتغلب عليها احد اصلاً

ثالثًا ان جميع الدول التي سلفتها كالامويين والعباسيين والفاطميين لم تقدر ان تحافظ على خصائصها كما حافظت هي على ذلك ولاسيما من زمن السلطان سليم الاول الذي جلس على سرير الملك في سنة ٩١٧ للهجرة سنة ١٥١١ م وفتح بلاد مصر والشام التي كانت وقتئذٍ بيد الجراكسة سنة ٩٢٢ للهجرة (سنة ١٥١٦ م) وجمع بين الخلافة والسلطنة فصار هو وخلفاؤهُ امراء المومنين وائمة المسلمين

وكان العثمانيون في الاصل من القبائل الرحالة النزالة جاءوا الى هذه البلاد من بلاد التتار وتملكوا في الاناطولي واول من تملك منهم الامير عثمان الغازي الذي اليهِ ينتسبون وكان ذلك في ايام سلطنة غياث الدين مسعود بن كيكاوس السلجوقي وكان هذا الامير في اول الامر بوظيفة قائد العساكر السلطانية عند السلطان المشار اليهِ

ولما ارسل اليهِ هذا السلطان طبلاً ونفيرًا وعلمًا وصلوا اليهِ في اليوم السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٦٨٧ للهجرة (سنة ١٢٨٨ م) وقت العصر فانتصب حينئذٍ واقفًا على اقدامهِ وضربت النوبة بحضرتهِ فمن ثم جرت العادة في ضرب هذه النوبة كل يومٍ وقت العصر ووقوف السلاطين عند ضربها الى ان بطل الوقوف في زمن السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية الذي تولى على المملكة سنة ٨٥٦ للهجرة (سنة ١٤٥٢ م) ثم بطلت عادة ضرب النوبة راسًا في زمن

السلطان محمود الثاني الذي تولى السلطنة سنة ١٢٢٣ للهجرة (سنة ١٨٠٨م)
ولما اتحف السلطان غياث الدين المشار اليهِ الامير عثمان بسكة ضرب المعاملة وامر ان يُخطَب باسمهِ على المنابر ايضًا لُقِّبَ من ذلك الوقت بلقب خان ثم لما تولى السلطنة السلطان علاء الدين كيقباد بن فرامر السلجوقي ارسل الى هذا الخان الجديد منشور السلطنة مع الطبل والعلَم الابيض المخصوص بالسلاطين السلجوقية تقليدًا الى الجنكيزية فاستقرّ استقلالهُ من تاريخ هذا المنشور وكان ذلك في سنة ٦٩٢ للهجرة (سنة ١٢٣٥م) ومن الاتفاق العجيب ان لفظ آل عثمان يوافق في حساب الابجدية عدد سني الهجرة المذكورة . ثم لما فرّ السلطان علاء الدين المذكور خوفًا من التتار والتجى الى الامبراطور ميخائيل الباليولوغس قيصر القسطنطينية وتوفي هناك انقرضت عائلتهُ بموتهِ فارتقى حينئذٍ عثمان خان المشار اليهِ الى رتبة السلطنة في سنة ٦٩٩ للهجرة (سنة ١٢٩٩م)

وجعل هذا السلطان كرسيهُ اولاً في مدينة قرا حصار ثم بنى مدينة ودعى اسمها بكي شهر ومعناهُ المدينة الجديدة ونقل تخت المملكة اليها الى ان تولى السلطنة بعدهُ ابنهُ ارخان في سنة ٧٢٦ للهجرة (سنة ١٣٢٥م) فنقل كرسيهُ الى مدينة بروسا ولما تولى السلطان مراد بن ارخان سنة ٧٦١ للهجرة (سنة ١٣٥٩م) بنى سرايةً في ادرنه ونقل تخت السلطنة اليها فدامت على ذلك الى ان افتتح السلطان محمد الفاتح مدينة القسطنطينية وجعلها دار السلطنة العثمانية حتى الان

وكان لما افتتح هذا الفاتح هذه المدينة سمح ببعض كنائسها الى الاهالي وجعل المعتبرات منها جوامع ومن ذلك كنيسة ايا صوفيا التي مرَّ ذكرها في الفصل السابع من البحث الاول في الكلام على المعارف عند الرومانيين ولم يوقع بها تغييرًا الاَّ ما كان مغايرًا لاصول الدين الاسلامي فامر باخفاء ما على جدرانها من النقوش الذهبية بالكلس ووضع لها منبرًا ومحرابًا وكرسيًّا وابقى ما عدا ذلك على حالتهِ الاصليَّة غير ان بعض المولعين يقول بانهُ لما تولى السلطنة السلطان عبد المجيد الاول في سنة ١٢٥٥ للهجرة (سنة ١٨٣٩م) امر بازالة الكلس عن

تلك النقوش وتجديد ما انعدم منها لكي ترجع الى رونقها الاول (والعهدة على الراوي)

ثم ان السلطان محمد الفاتح المشار اليهِ اخذ هو وخلفاؤُهُ من بعدهِ في ترميم ما كان خرب في مدة الحصار بهذه المدينة من الابنية وتجديد غيرها ايضًا وكان اول ما شرع بهِ بناء جامع ابي ايوب الانصاري الذي كان قتل في اول هجوم هجمتهُ العرب على القسطنطينية في ايام خلافة يزيد بن معاوية الاموي سنة ٤٩ للهجرة (سنة ٦٨٨م) ورجعوا عنها بلا طائل بعد حصار ٦ سنوات ولما تمَّ بناؤُهُ وأُقيمت فيهِ الصلاة قلّدَهُ شيخ الاسلام بيدهِ سيفًا فجرت العادة منذ ذلك الوقت ان يذهب السلطان عند جلوسهِ على تخت المملكة الى هذا الجامع ويتقلد فيهِ السيف فيكون لهُ ذلك بمنزلة التتويج عند ملوك النصارى

ثم بنى بعد ذلك السلطان سليمان الثاني الذي تولى المملكة سنة ٩٢٦ للهجرة (سنة ١٥١٩ م) مباني عظيمة جليلة ومدارس كثيرة من جملتها جامع السليمانية المشهور وكذلك السلطان احمد الاول الذي جلس على التخت سنة ١٠١٢ للهجرة (سنة ١٦٠٣م) فانهُ بنى جامع الاحمدية ذا الستّ منارات ويقال بانهُ لما حُسِبَتْ نفقتهُ وجدان كلّ اوقيةٍ من الحجر كلَّفت درهمًا من الفضة وبنى ايضًا بركة الطوبخانة وكذا السلطان احمد الثالث الذي تولى السلطنة سنة ١١١٦ للهجرة (سنة ١٧٠٣ م) فانهُ بنى الكاغدخانه وهي قصر عظيم في مرجةٍ خضرا تحيط بهِ جنة ظريفة مشحونة بانواع الزهور وفيها قناة الماء العظيمة الشهيرة ثم بنى السلطان مصطفى الثالث الذي تولى سنة ١١٧١ للهجرة (سنة ١٧٥٧م) الجامع المعروف باللالي ويُدعى نوري عثمانية وانشا ايضًا جمعية علماء تُعرف باسمهِ ومكتبةً مشهورة وكان وزيرهُ راغب باشا رجلًا بارعًا في العلوم والمعارف ولهُ عدَّة تآليف وديوان شعر سماهُ سفينة العلماء فانشا كذلك مكتبة شهيرة تُعرف باسمهِ ومدرسة للعلوم ومطبخًا للفقراء وتربة جميلة بالقرب من مدرستهِ ثم بنى السلطان عبد المجيد الاول وقد مرَّ ذكرهُ طوله بغجه الشهيرة قال بعض المولفين

انها من الاعمال العجيبة ويقال بانهُ صرف على بنائها نحو ۲۰۰ الف كيس وانشأت والدتهُ بالقرب من ساحة هذا المحل مكانًا لمعالجة المرضى مجانًا واقامت لهُ مصاريف ومباشرين واطبا لمعالجة كل من يحضر اليهِ من المرضى فيمكث فيهِ المريض الى ان يتعافى بدون ان يتكلف لشيء من الادوية والاطعمة والخدمة وحيث لا يمكننا ان نستوفي هنا كل ما احدثهُ سلاطين آل عثمان من الابنية والعمارات في قصبة المملكة وخارجها فلا ينبغي ان نطيل الشرح باكثر ما ذكرناه من المحلات المشتهرة داخل القسطنطينية بل نعدل الى ذكر اوصاف هذه الامة فنقول

ان العثمانيين هم شعبة من الاتراك الذين يسكنون في بلاد الخطا والختن ودشت وقبجاق وهم بيض الالوان سود العيون والحواجب جفاة قساة ولذلك يطلق عندهم هذا الاسم (اي ترك) على الحبايب ايضًا ومنهُ تسميتهم الغنا توركى چاغرمق وتفسيرهُ الحر في نداء المحبوب ومع كل ذلك هم ينفرون من هذا الاسم ويأبون ان يسمّوا اتراكًا لان هذا الاسم عندهم الان يرادف كلمة برابرة او خشنين فيماثلون في هذا المعنى كثيرين من الامم الذين ينفرون الآن من اسمائهم القديمة التي كانت تطلق عليهم في زمان بربريتهم

وقال ملطبرون بان لغتهم التركية يبدو منها في قواعدها تشابه عظيم للسان التتار وكادت تمحي من العالم في بداءة امرهم لان كتابة ديوان السلجوقية وغيرهِ من البلاد التي كانت تحت سلطة الاتراك والتتار كانت باللغة الفارسية وكان لا يوجد من نفس الاتراك من يعرف القراءة فضلاً عن الكتابة حتى ان السلطان عثمان المقدم ذكرهُ هو ذاتهُ كان أُميًا مثل والدهِ قال العلاّمة خير الله افندي انهُ لما اراد ان يتزوج ببنت الشيخ اده بالي اوقف قريةً يقال لها ايت بوروني (اي منخار الكلب) على والدها واولاده ولما لم يجد في قومهِ من يعرف الكتابة ليحرر لهُ بها حجة الوقفية اعطى الامير المشار اليهِ سيفًا ومشربة تذكارًا لهذا الامر وقد بقيا محفوظين في عائلتهِ لحد القرن التاسع من الهجرة (الخامس عشر من الميلاد) ولذلك منع السلطان المشار اليهِ التكلم في اللغة

الفارسية وغيرها وامر بان جميع التحريرات والاوامر السلطانية وكل ما تلزم كتابته يحرر باللغة التركية وهكذا الدفاتر والحاسبات ايضاً فانها كذلك كانت تكتب بالعربية والفارسية لحد سنة ٦٧٦ للهجرة (سنة ١٢٧٧م) فمن ثم اخذت هذه اللغة في الانتعاش من ابتداء هذا التاريخ اه وادخل فيها علماؤها كثيراً من الكلمات والتعبيرات الماخوذة من اللغتين المذكورتين اي لغة العرب واللغة الفارسية الجديدة ولذلك كانت تُلقَّب بالمقلّمة او المحجّلة وما ادخلوهُ من هاتين اللغتين على ما ذكرنا نظموهُ على شكل الاراجيز الشعرية ليسهل حفظهُ على الطلبة فلا يمكن لاحدٍ منهم ان يكون كاتباً او ينظم الشعر ما لم يدرس هذه الاراجيز ويحفظها ليعرف معاني هذه الكلمات الغريبة كما انهُ لا يقدر ان يفهم قواعدها النحوية وتصريف الافعال فيها بل ولا سبك عباراتها الاَّ من الممارسة بالتلقين والاخذ من افواه المتمرنين اذا كان لا يدرس قواعد اللغتين الاصلية حيث لم تكن لهم قبل الآن كتب تكفي في ذلك لحد زمن السلطان عبد المجيد الاول الذي في زمنهِ جُمعت هذه الكلمات الماخوذة من اللغتين المذكورتين في كتابٍ سموهُ منتخبات اللغات العثمانية وهو يحتوي على ١٨٨٩٧ لفظةً عربية و٦٧٦١ لفظةً فارسية وطبع في المطبعة الحجرية سنة ١٢٦٩ للهجرة (سنة ١٨٥٢م) وجعلوا في اولهِ مقدمة تشير الى معرفة بعض قواعد تلزم معرفتها في استعمال هذه الالفاظ ثم اشهروا بعد ذلك مولفاً اخر مستوفياً للقواعد التي تلزم معرفتها من نحو وصرف وغير ذلك يستحق مولفوهُ مزيد الشكر حيث سهّلوا تحصيل هذه اللغة على الطلبة تسهيلاً كافياً وقد ترجمهُ بعضهم منذ برهةٍ يسيرة الى اللغة العربية فكافأتهم الدولة بنياشين من الرتبة المجيدية الرابعة

وبناءً على ما ذكر كان نظم الشعر بمجرد اللغة التركية الاصلية ليس لهُ رونق ولا بهجة كما يكون لهُ في لغتي العرب والفرس ولم يتقدم عند العثمانية نقدٌ ما يعتدُّ بهِ ويعجب الاجانب بخلاف الانشا فانهُ بلغ عند فحول الكتبة منهم مبلغاً من الحسن واللطف والرقة والظرف ولا سيما بعد ان مارسوا تعلُّم اللغة الفرنساوية

واستمدوا منها كثيرًا من المعاني الرائقة والعبارات الراشقة وابطلوا ما كانوا يستعملونهُ قبلاً من الالفاظ المستهجنة والمعاني المتلونة والتكلفات التي لا طائل تحتها ·

وقال مَلطبرون ان رجال الامة العثمانية يوصفون بالهيبة والوقار والشهامة والكبريا غير ان كبرياءَهم كانت شديدة منضمة الى خشونة تأذى منها كثيرون من ارباب الاسفار وكانت كتابات السلاطين الى ملوك النصارى تحتوي على شيء من البخس في قدرهم واهانتهم فضلاً عن كونهم لا يلقبونهم بالقاب عالية حسب ما تقتضي مراتبهم اه واحسن ما خوطب بهِ ملك نصراني من سلطان عثماني ما كتب بهِ من الالقاب السلطان احمد الثالث الذي تقدم ذكرهُ الى كرلوس الثاني عشر ملك اسوج عندما كان هاربًا من وجه بطرس الاكبر سلطان روسيا وملتجئًا الى الدولة العثمانية وبالجملة فان اطلاق لقب امبراطور على من كان من ملوك الافرنج معروفًا بهِ لا يحصل الاَّ بوسائط صعبة متعبة فان السلطان احمد الاول وقد تقدم ذكرهُ لمَّا استرجع البلاد التي كانت اخذتها دولة النمسا من اسلافهِ بشرط ابطال الثلاثين الف دوكة (نوع من المعاملة) التي كانت تعطيها دولة النمسا الى العثمانية خراجًا سنويًا أُشترط عليهِ وقتئذٍ بان تكون تحاريرهُ لهذا الامبراطور محتوية على الاعتبار والحب ككتاب اب لولدهِ وان يلقبهُ بالقيصر الروماني عوضًا عن لفظة قرال (واظنها لفظة مصحفة عن غران لفظة افرنجية معناها كبير) وكذلك في ايام السلطان محمود الاول الذي تولى المملكة سنة ١١٤٣ للهجرة (سنة ١٧٣٠ م) لما ترخص للروسيين ان يتجروا في البلاد العثمانية ويكون لدولتهم سفير ذو اعتبار في القسطنطينية نظير باقي الدول كان من جملة شروط الدولتين بان الدولة العثمانية تعطي كاترينا الثانية لقب امبراطورة حيث انها لحد ذلك الوقت لم تلقبها بذلك على ان الدولة العثمانية لم تكن وقتئذٍ كدولة فرانسا أو غيرها من الدول التي تخشى نتائج هذا اللقب كطلب اصحابهِ تقدم موظفيهم على موظفي غيرهم من الملوك

في الدواوين الاجنبية او غير ذلك . قال بعض المولفين انه بانضمام مثل هذه الامور الى غيرها من الاسباب التي تشاكلها كانوا يوصفون الامة التركية بتمامها الى التبربر والخشونة ومع ذلك يعترفون لها بالحنو ولين الجانب نظرًا لما يرونهُ من الرأفة التي تشمل الحيوانات ايضًا فان الكلاب والهرّات في البلاد العثمانية تعيش بارغد عيش في حالة الشبع اكثر من فقراء البشر في بعض البلاد الافرنجية ويشاهد الحمام والطيور المائيّة التي تعمر شطوط خليج القسطنطينية تسرح وتمرج بدون ان يتعرض لها احد حتى ولا من الاولاد الصغار بالاذية

وكان العثمانيون في ما سلف يحافظون اشدَّ المحافظة على ادابهم واخلاقهم وعوائدهم التي كانت تميزهم عن غيرهم وكانوا ياكلون يسيرًا من الغذاء الذي يكون معظمهُ من النباتات ولا يشربون الخمر الّا النادر منهم ويعتادون على رياضة الجسم كركوب الخيل والتمرن على استعمال السلاح ويكرمون الضيف ويسلكون في ذلك سبيل الجدّ والاحتفال واعطاء الرسوم حقها وكثرة الصمت ويسكنون في مساكن غير مزينة بدون هرج ولا كثير حركة ويتخذون بساتين بسيطة منعزلة منفردة ولا يعرفون التنقلبات والتلونات التي تكون في جمعيات الافرنج ولا الحركات والمبادرة في الامور ويتلذذون بشرب الدخان والقهوة بكثرة ومنهم من يتعاطى شيئًا من الافيون قال بعض المولفين لم تبتدي العثمانية بشرب الدخان في القسطنطينية الّا في زمن السلطان احمد الاول لمّا جلبهُ اليها اهالي هولاندا في سنة ١٠١٤ للهجرة (سنة ١٦٠٥ م) وعلموهم شربهُ فتولعوا بهِ ولعًا شديدًا الى انهُ افضى الامر بان اخرج المفتي فتوى بابطالهِ فهاج الشعب ولم يقبلها لكونهِ لا يعدُّ من المسكرات

وكانت ملابس هذه الامة واسعة مثل ملابس العرب وكان السلطان عثمان الاول المقدَّم ذكرهُ يتعمم على بُرك خراساني من الجوخ الاحمر ويلبس فراجية من الجوخ المذكور ايضًا فلما تولى ابنهُ السلطان ارخان عقد مجلسًا في بروسا لوضع بعض قوانين ونظامات فكان من جملة ما ترتب فيهِ ان البُرك الاحمر

يكون للعساكر واما نفس السلطان وخواصة من الاعوان والانصار الذين يطلق عليهم لقب عثمانية فيكون البُرك الذي يلبسونه ابيض فمن ثم صار المتصفون بوصف عثمانية في الخدمات السلطانية المخصوصة يلبسون البُرك الابيض واما العساكر المعروفون بالانكجرية والاتراك والاكراد فيلبسون البرك الاحمر ولكن ضباط العساكر يتعممون على اسكوف ذهب بعمائم معقدة غير انهُ مع تمادي الزمان فسدَ زي تلك العمائم وكذلك الاسكوف صار على نوع اخر. قال البكري في تاريخهِ ان البُرك بضم الباء وسكون الراء يكون من اللباد الابيض وينثني الى خلف سمَّاهُ بذلك السلطان مراد الاوّل وهو اوّل من اتخذ الينكجرية اي العسكر الجديد من المماليك اه اما العمائم فقد قال العلاَّمة خير الله افندي المورخ العثماني بانها كانت نُعلِن وقتئذٍ على نوعٍ ما بانهم من شرقي اسيا وقد نُظرت عمائم مثل عمائمهم هذه التي يتعمم بها اليوم اهل خراسان على روُس التصاوير التي توجد في خرابات مدينةٍ تُسمى جهل منار (اي الاربعين عمودًا) كان افتتحها الاسكندر المكدوني في بلاد العجم قبل الميلاد باكثر من ثلاثة قرون وحاصل الامران هذا البُرك كانت الروم تلبسهُ مذهبًا ويتعممون عليهِ ولذلك ترتب لهُ معامل مخصوصة في بجيك تصطنعهُ وتنسج ايضًا الشاش الذي يتعممون بهِ عليهِ اه ثم لما ابطل السلطان محمود الثاني العساكر الينكجرية وغيرها من الوجاقات العسكرية القديمة على ما سوف يذكر ذلك في محلهِ ابطل ايضًا ما كانوا يلبسونهُ الى عصرنا هذا من تلك الملابس الواسعة المذكورة وما كنا نراهُ من القواويق المضرَّبة التي كانوا يضعونها على رووسهم اشبه بالتيجان والعمائم التي كانوا يتعممون بها عليها من الشاش الابيض وما كانوا يتعممون بهِ على الطرابيش الحمر من الشالات الكشميرية والاغاباني وغير ذلك من الفراجيات والشخاخير الحمر والنعال من التواسيم او البوابيج والخفاف الصفر وما كانت تحملهُ القواسه والجاويشية بايديها امام الحكام من العصي المفضضة والجوكلانات ذوات الاجراس وما كانوا يتزينون بلبسهِ في ايام المواسم والاعياد والمواكب الحافلة من الكبابيت

والسراويل المحمل الملون المقصبة والاسكوف المذهب وكان على شكل الكلاه اللباد الذي تلبسهُ حتى الان الدراويش المولوية وشيء آخر من اللباد يُلبَس في الراس وينثني الى القفا منسدلاً من اعلى الراس الى قرب الاقدام وعرضهُ نحو شبر وازيد (ولعلهُ البُرك المارّ ذكرهُ) وابدل جميع ذلك بالملابس الاوربية الضيقة المعروفة بالساتري والبنطالون الملايمة للرشاقة الحربية العسكرية ومن ثم اخذت سكّان المملكة من تبعة الدولة العلية في التلبس بهذه الملابس ايضًا

والحينما تولى السلطنة السلطان محمد الاول في سنة ٨٠٤ للهجرة (سنة ١٤٠١م) وهو اوّل سلطان ارسل الى شريف مكة صرة من الذهب ليوزعها على فقراء الحرمين لم يكن شائعًا بين العثمانية استعمال الحلى والمصاغات والاواني الثمينة واول من ابتدا بذلك كان هذا السلطان فانهُ جعل اواني مائدته كلها من الفضة فانكر العلماء عليهِ ذلك لكونهِ مخالفًا للسنّة فلم يعمل بعدهُ احد من خلفائهِ مثلهُ الى زمن السلطان بايزيد الثاني الذي جلس على التخت سنة ٨٨٧ للهجرة (سنة ١٤٨٢م) فانهُ صنع نظيرها من الذهب والفضة ولما تولى التخت السلطان سليم الثاني في سنة ٩٧٤ للهجرة سنة (١٥٦٦م) ارسل اليهِ شاه العجم هدية عن يد سفيرهِ وهي لؤلؤتان وزن كل واحدة منهما ٤٠ درهمًا وياقوتة بقدر التفاحة الصغيرة فلما تولى السلطان محمد الرابع في سنة ١٠٣١ للهجرة (سنة ١٦٢٢م) جعل معالف خيولهِ وسلاسلها وارسانها من الفضة واخوهُ السلطان ابرهيم الذي جلس على التخت سنة ١٠٤٩ للهجرة (سنة ١٦٤٠م) جعل لنفسهِ زورقًا مرصعًا بحجارةٍ من الماس وهكذا الى ان صار التزين بالجوهرات وترصيع سروج الخيل بالحجارة الكريمة من شعار الدولة العثمانية الى ان اخذ في تخفيض ذلك السلطان محمود الثاني وكان اول ما شرع بهِ في هذا الباب ان اخذ كثيرًا من حلى جواريهِ وفك ما كان من حجارة الماس على سروج خيولهِ ورصع بها علامات الامتياز ونياشين العساكر النظامية هذا ما كان من جهة السلاطين واما ما كان من جهة غيرهم فهو حيث كانت العادة بانهُ اذا مات

احد من الاتراك ولم يترك اولادًا فيرثهُ السلطان واما اذا كان لهُ اولاد ذكور فيكون العشر من مخلفاتهِ فقط للسلطان يستولي عليهِ نائبهُ في الاحكام الشرعية وهو القاضي لكن المستخدمون من رجال الدولة وكبرائها عندما يموت احدمنهم فكان يرجع كل ما هو في يدهِ الى الخزينة السلطانية ولذلك كان مثل هولاء الرجال يعتنون باقتناء الحلى والمصاغات دون الاملاك والعقارات ليسهل على الورثة اخفاؤُها والامن عليها من الضبط للميري اوان يعمل الانسان منهم بها اوقافًا تعود الى احد المساجد بعد انقراض ذريتهِ فتصير بذلك عقارًا ثابتًا لا ينزع من يدهِ ولا من ايادي ورثائهِ من بعدهِ

ويكثر الاغنياء والامراء من العثمانية تعدد الزوجات والتسرّي بالجواري بقدر ما شاءُوا فيطربونهم بالغنا والرقص على نغم الآلات وقد يقع ان بعض النساء الغنيات يشترطنَ على ازواجهنَّ بان لا يتزوجوا عليهنَّ اصلاً وكانت السلاطين العثمانية في ابتداء امرهم يتزوجون من بنات قبيلتهم او من بنات ملوك النصارى كالسلطان ارخان فانهُ تزوّج تيودوره بنت الملك يوحنا كونتا كوزين وابنهُ السلطان مراد تزوج ببنت سيجموند ملك البلغار والسلطان بايزيد الاول الذي تولى السلطنة سنة ٧٥٨ للهجرة (سنة ١٣٥٦ م) تزوج بنت لازار صاحب السرب والسلطان محمد الفاتح تزوج بفيلي بنت الملك ديمتريوس الباليولوغس اخي قسطنطين اخر قياصرة الروم ومن ثم بطلت هذه العادة وترتب قانون لا يجوّز للسلاطين العثمانية ان يعقدوا زواجًا صحيحًا شرعيًا كغيرهم من الناس وانما يقتصرون على التسري بالجواري الارقا وهذا القانون هو حتى الآن من القوانين المعتبرة في هذه الدولة ويعدّونهُ من الاسرار التي لا يُعلم سببها واما بعض الافرنج فينسبونهُ الى ما وقع من تيمورلنك سنة ٨٠٤ للهجرة (سنة ١٤٠٢ م) في حق ديسبينة زوجة السلطان بايزيد من الاساءة لما اسرهُ واحضرها امام عسكرهِ تكاد تكون عريانة وبعضهم يقول لا بد لذلك من سببٍ سيامي اهمّ من هنا وقال بعض الكتبة من المصريين في هذا العصر بانهُ

لما تنبهت العثمانيون في بلاد اوروبا خافوا من ان يصير لدول الافرنج في ما بعد تأثير وكلمة في الدولة ودخل في احكامها فرتبوا هذا القانون الذي به انقطعت المصاهرة بين سلاطين الاسلام وملوك النصارى

ومساكن النساء تكون عندهم منعزلة لا يقربها انسان لاحترامها وتسمّى الحرم ولا تخرج النساء منها الّا مستورات كسائر نساء الاسلام واعظم مسراتهنّ وافراحهنّ يكون في الحمامات وخاصةً اذا كانت تلك الحمامات في بيوتهن ويشبهن الرجال في شرب القهوة والتدخين ولكنهنّ يتزيّنّ باحسن الملابس والاثواب الفاخرة الرفيعة ويتحلين باللآلي والجواهر النفيسة وحيث لم يكن لاغلبهنّ نصيب بمعرفة القراءة والكتابة كانت الالغاز بواسطة باقات الزهور التي يرتبنها ترتيبًا مخصوصًا تعوض عليهنّ ما فاتهنّ من ذلك وكما انهنّ لا يذهبنَ الى الجوامع والمساجد بقصد العبادة اصلاً حيث ان الدين الاسلامي لا يوجب على النساء صلاة الجماعة كذلك ليس من عادتهنّ الرقص في المحافل كما يفعل نساء الافرنج بل للرقص نساء مخصوصات عندهم يسمّينَ بالرقاصات يحضرونهنّ متى شئنَ ليرقصنَ لهنّ والرقص الذي يرقصنهُ مثل هولاء في البلاد العثمانية لا يدّان يكون مخلاً بالحيا كالغوازي في بلاد مصر اللآتي يرقصنَ في المراسح العامة والشوارع وقد يكون بعضهنّ من الرجال يزيلون ما على وجوههم من الشعر بعلاجات يصطنعونها لذلك ويتزينون بحلى النساء وملابسهنّ وما يطلينَ بهِ وجوههنّ ويشاركونهنّ في الرقص ويسمون الخَوَل وقد خرج نابوليون الاول من مصر متحسرًا حيث لم تساعدهُ مدة اقامتهِ القصيرة فيها على ابطال هذا الرقص القبيح منها

ولسراية الحرم الملوكي خدم يسمون بسناجية كانوا دائمًا متقلدين الاسلحة كالمستعدين للقتال واما اغاوات الحريم فيكونون من الخصيان السود ووظيفتهم الخدمة وحراسة السراري ورئيسهم منهم يُسمّى قزلراغاسي ومعناهُ بالعربيّة مولى البنات وهو غالبًا موتمن سر السلطان وسميرهُ وذو قبول عظيم في الدولة

ونفوذ كلمتهِ لا يكون لغيرهِ اصلاً

ومن اصول الدولة العثمانية بان اولاد السلطان الجالس على التخت الملوكي هم وحدهم الذين يشهرون في المملكة وتُعلن اسماؤُهم للناس بفرامين سلطانية فتزين البلاد وتظهر الاهالي افراحها بهم لبقاء سلسلة هذه العائلة وظهور شهزادات منها لا بدَّ ان يؤمل بعضهم يوماً ما للجلوس على كرسي السلطنة واما المولودون لغير السلطان ان كانوا من اخوتهِ او اعمامهِ سواءٌ كانوا مخلوعين من السلطنة او شهزادات لازالوا ما ارتقوا على السدَّة الملوكية اذا امكن انهم بقوا في قيد الحياة فلا يمكن ان يُعرفوا الاَّ اذا قُدِّر لآبائهم بعد ذلك ان يستولوا على التخت وحينئذٍ يصدَّر ابوهم فرمان البشارة بما كان ولد لهُ من الاولاد مع التصريح باسمائهم وتعيين تاريخ ولادتهم وكانوا يتربون في السراية التي هي منشاهم مع غاية التشديد والتضييق تحت ادارة احد اغاوات الحريم الذين سبقت الاشارة اليهم قال ملطبرون انهُ لابد لاولاد السلاطين من حفظ القرآن حفظاً جيدًا مع تعلمهم اعرابهِ وتفسيرهِ حتى يكون لهم اقتدار على شرح احكامهِ ويجب ان يتعلموا تاريخ الخلفاء وتاريخ العثمانية والتاريخ العام والجغرافيا ومبادي العلوم الرياضية واللغة التركية والعربية والفارسية ويتعلموا غالبًا الموسيقى واللغة اللاتينية

وقولنا هنا اذا امكن انهم بقوا في قيد الحياة هو لكون ان المبايعة للسلاطين من هذه العائلة لاتكون الاَّ على سبيل الانتخاب فيما لو توفي السلطان او خلع مثلاً وكان لهُ اخوة او اولاد فكان اهل الديوان ينتخبون من كان صالحًا للحكم منهم فيتفق ان يولوا الاخ دون الابن او الصغير دون البكري بحسب ما يشاهدونهُ من حالة كلٍّ منهم قبل انتقال المتوفى فلما ان تولى السلطان بايزيد الاول قتل اخاهُ يعقوب لكونهِ كان البكر وصاحب الاستحقاق في ارث السلطنة بعد ابيهِ ولمَّا لامهُ على ذلك رجال دولتهِ قال ان امير المومنين الذي هو ظل الله على الارض يجب ان يكون واحدًا فيها كما ان الله واحد في السماء فمن ثم جرت العادة بين السلاطين العثمانية بقتل اخوة السلطان او سجنهم في حبوسٍ معدَّة

لم تصب الحفظ وكذلك لما عُزل السلطان مصطفى الاول الذي تولى السلطنة سنة ١٠٣٦ للهجرة (سنة ١٦٢٣ م) وحجروا عليهِ في مكانهِ الاول ترتبت العادة ايضًا في قتل الاولاد الذين يولدون لهم في مدة سجنهم وبقي ذلك مستمرًا الى ان ابطلهُ السلطان عبد المجيد الاول كما ابطل جميع ما كان من مثل هذه العادات المكروهة

ومع ان اطلاق اللحى سُنَّة من سنن الديانة الاسلامية التي هي ديانة الدولة العثمانية فقد جرت العادة بان سلاطين هذه الدولة لا تطلق لحاها الّا عند جلوسها على تخت الملكة ولكن السلطان سليم فاتح مصر خالف هذه العادة ايضًا فكان هو اوّل سلطان لم يطلق لحيتهُ

ولما كان السلطان بايزيد الثاني ذاهبًا الى حرب الارنبود والسرب عن طريق مناستر لاقاهُ رجل من الدراويش فتقدم اليهِ واراد ان يضربهُ بخنجرهِ فابتدرهُ من كان حولهُ من الجنود وقتلوا ذلك الدرويش فصارت العادة من ذلك الوقت بان لا يدخل احد على السلطان بسلاحهِ اما احد مورخي العرب فيقول بان السلطان مراد الاول لاقاهُ في اثناء فتوحاتهِ امير من امراء النصارى اسمهُ بلواش فتقدم ليقبل يدهُ مظهرًا لهُ الطاعة ولما قرب منهُ ضربهُ بخنجر كان اعدّهُ في كمهِ فقتلهُ فصار القانون العثماني من ذلك اليوم بان لا يدخل على السلطان سفير او غيرهُ بسلاح وان تفتش ثيابهُ ويدخل على السلطان بين رجلين

ونشأ عن وجوب الوضو والاغتسال كثرة السبل والحنفيات والمغاطس والحمّامات والميضات في بلاد هذه الدولة ومن المبرات عندهم بناء المقابر العظيمة المحفوفة بالازهار ويظللها شجر السرو فتتقي بهِ حرّ الشمس في وسط النهار اما الصور والتماثيل فهي عندهم من المكروهات يحكى بانهُ لمّا افتتح السلطان سليمان الثاني فتوحاتهِ العظيمة كان جلب وزيرهُ ابرهيم باشا من بلاد المجار ثلاثة تماثيل من الحجارة ونصبهم في ات ميدان تذكارًا لفتح تلك البلاد فانكر عليهِ ذلك جماعة

ومنهم شاعر نظم قصيدة قال في احد ابياتها ما معناهُ ان ابرهيم الخليل قرض الاصنام وابرهيم هذا يريد اعادتها فلما بلغ السلطان ذلك امر بقتلهِ . لكن في هذا العصر الذي نحن فيهِ قلَّ في البلاد العثمانية من تغشى قريحتهم ظلمة الوساوس والاوهام فلا يميزون بين الحلال والحرام لان الانصاب رجسٌ اذا اتخذت للعبادة وليسَ اذا كان القصد بها مجرد الزينة او التذكر والاستفادة ولذلك كانت صورة السلطان ورجال دولتهِ العظام هي الآن موضوع حلية المنازل وزينة المجالس والمحافل منذ زمن السلطان عبد المجيد خان

ومع كثرة الاديان واختلاف المذاهب وتنوع المعتقدات الموجودة في بلاد هذه الدولة كان لا يُباح في ما سلف التظاهر في التعبد بأيّ مذهبٍ كان بل كما انهُ لا يجوز ان تتظاهر سائر الفرق الاسلامية بغير مذهب السنّية ومن تظاهر منها بغيرهِ أُهرق دمهُ كذلك كان لا يجوز للنصارى ان يتظاهروا بأيِ مذهبٍ كان من المذاهب المسيحية وخاصةً المذهب الكاثوليكي حذرًا من ان يجرّ تابعيهِ للانحياز لجهة الافرنج في الاغراض السياسية ايضًا ولذلك كانت الفرق الخاضعة الى الكنيسة الرومانية من الروم والارمن وغيرهما تبقى تحت سلطة اساقفة كنائسها القديمة المعروفة من الدولة العثمانية لان السلطان محمد الفاتح لما استولى على القسطنطينية كان احضر جناديوس سخولاريوس بطريرك الروم واقرَّهُ على منصبهِ واعطاهُ بنفسهِ عكاز البطريركية وخاتمها كما كانت تفعل قياصرة الروم قبلهُ ثم يلي هذا المذهب مذهب الارمن وكذلك القبط الذين عرفتهم الدولة منذ افتتح السلطان سليم البلاد المصرية فكان من أتبع غير ذلك من المذاهب النصرانية او كان يهوديًا وخرج عن الديانة اليهودية قتل ما لم يَحقِنْ دمهُ بقبول الدين الاسلامي ومع كل ذلك وانضمامهِ الى ما كان لبطاركة هذه الفرق المعروفة من الدولة ولكثيرٍ من روسائها الروحيين ورهبانها ايضًا من الامتيازات كالمعافية من الجزية وسائر التكاليف التي لم يُعفَ منها غيرهم ولم يكن للقضاة ايضًا دخل في تقسيم مواريث ابناء مذاهبهم ولا في امر

تزويجهم او تطليق نسائهم وبعض امورٍ اخرى تتعلق بمصالحهم كان لا يُباح لأيّة فرقةٍ كانت من تلك الفرق ان تظهر شعائر دينها ولا ان ترمم ما تشعث من معابدها فضلاً عن ان تجدد كنيسةً الاّ بصعوباتٍ كليّة وخسائر بليغة خارجة عن تحمل اصحابها وكان لا يُسمع في المدن والقصبات بل ولا القرى المأهولة بالاسلام صوت ناقوس يُضرب في الكنائس وبالاختصار لم تكن حرّية هذه المذاهب المعروفة التي ذكرناها الاّ محصرة في الترخيص لمن كان من ابنائها ان يجاوب اذا سُئِل عن ديانتهِ بانهُ روم او ارمني مثلاً لكن اذا كان ذاهبًا الى الكنيسة ليصلي وسُئِلَ عن الغرض الذي هو قاصدهُ فالاليق بهِ ان لا يقول الى الصلاة بل الى الكنيسة لان الصلاة ليست من شعار اهل الكفر الذين يطلقون عليهم لفظة كاور ومعناها في لغتهم كافر حتى ان الجزية التي ياخذونها منهم في كل سنةٍ فداء عن قطع الراس يسمونها جزية كبران وهذه اللفظة معناها باللغة الفارسية جزية الكفّار ايضًا ولا يلاطفون احدًا منهم باكثر من ان يلقبونهُ بهواجه بالهاء فلا يقولون خواجا بالحا لان هذه اللفظة تعادل عندهم لفظة افندي التي معناها سيّد واما ينادونهُ بلقب جوربه جي ومعناهُ مطعم الشوربا وهو من الالقاب التي لا مزيد عليها في اكرام النصراني وكان قبل الآن من الالقاب المختصة باليكجرية وكانوا لا يكتبون اسم النصراني على صحتهِ بل اذا كان اسمهُ يوسف مثلاً كتبوهُ ياسف او ابرهيم كتبوهُ ابرام وعبدالله عبضلا واسحاق ايساق وهكذا الخ واذا تكرر ذكرهُ في الكتابة فيشيرون اليهِ بلفظ المسفور فلا يقولون المذكور فضلاً عن الموما اليهِ او المشار اليهِ فان ذاك وامثالهُ لا يكون لغير اهل الاسلام وخاصةً العثمانية ويعتبرون من احوجتهم الضرورة الى استخدامهِ من النصارى كالاناء النجس الذي يضطرون الى اقتنائهِ وكثيرًا ما كانت تصدر اوامر السلاطين فضلاً عن نوابهم في الايالات باذلال النصارى فانهُ يقال بانهُ في زمن السلطان احمد الثاني الذي تولى السلطنة في سنة ١١٠٠ للهجرة (سنة ١٦٩٠ م) مُنعت النصارى بتدبير وزيرهِ احمد باشا من لبس الاثواب الملونة وقلابق

السمور والبابوج الاصفر وركوب الخيل في المدن والزمهم بلبس السواد وان يضعوا في اعناقهم علامةً تميزهم عن المسلمين وذكر بعضهم وقوع مثل ذلك في ايام السلطان مصطفى الثالث وبقي الحال على هذا المنوال الى عصر السلطان محمود الثاني الذي كان سلك هذا المسلك عينهُ في بداءة امرهِ وخاصةً في ايام قيام اليونانيين وطلبهم الاستقلال لكنهُ اخيرًا عدل عن تلك السياسة حتى ان ابنهُ السلطان عبد المجيد الاول منح منذ جلوسهِ على تخت المملكة حقوقًا متساوية لجميع الاديان فعرفت منذ ذلك الوقت المذاهب الكاثوليكية وبعدها ببرهةٍ وجيزة اعني في سنة ١٨٤٧ م عُرفت ايضًا الكنيسة الانجيلية المعروفة بالبروتستانتية وأُبيح التعبد بها فاستقل اصحاب المذاهب المذكورة من الروم والارمن وباقي الطوائف الشرقية وتحرروا من سلطة اساقفة كنائسهم الاصلية وفي سنة ١٨٥٦ م أُعطيت الحرية التامة لمطلق الاديان والمذاهب من اي نوعٍ كانت وأُبيح لاصحابها التظاهر في الشعائر وانواع الاحتفالات التعبدية جهارًا في الشوارع والاسواق وأُعتقت الضمائر من قيود الاسترقاق فلم يبقَ حرج على مَن اراد ان يتظاهر بما استراح اليهِ خاطرهُ من الطرق التي يظنّ بها الفوز بمرضاة خالقهِ وصدرت كذلك الاوامر السلطانية بمنع الالفاظ المهينة التي جرت العادة بالتلفظ بها او بكتابتها بحق بني النصرانية وصار التشديد الكلي خاصةً بمنع لفظة كاور وأُعفيت النصارى من الجزية ومن بعض الغرامات الخصوصية التي كانت مضروبةً على كنائسهم تؤديها في كل سنةٍ ومن تذكرة الاذن التي كان لا بد للرجل منهم ان ياخذها من القاضي متى اراد الزواج اذنًا الى القسيس بان يعقد زواجهُ او ليدفن لهُ ميتًا توفي من اقاربهِ وشرع في اعطاء المتوظفين في الخدامات الاميرية من النصارى وغيرهم من الاكابر القابًا نظير القاب انداد هم من العثمانية كلقب بك وافندي واغا واشركوهم معهم ايضًا في المخاطبات الرسمية كتابةً وفي النياشين المعتبرة على اختلاف مراتبها وتميزت روساؤهم الروحيون باعتبارٍ لم يعهد نظيرهُ من قبل ولاسيما منذ تولى السلطنة السلطان عبد العزيز في ختام

سنة ١٢٧٧ للهجرة (سنة ١٨٦١م) فانه امر باقامتهم في مجالس ادارات الايالات والالوية عداء عن الاعضاء الموظفين رسمًا من طوائف المسيحيين وحصل التساوي بين عموم تبعة الدولة في الحقوق والامتيازات الوطنية فارتقى بعض النصارى الى المراتب العالية والوظائف السامية والمناصب الداخلية والخارجية من اية طبقة كانت ملكية او عسكرية بما فيها الوزارة ايضًا غير انهم اعفوا من الخدمة العسكرية بالفعل واكتفي باخذ بدل نقدي منهم عن الانفار التي يجب ان يقدموها وهذا البدل يوزعونهُ هم ذواتهم على انفسهم وبعد ان يحصلوهُ من محلاتهِ يدفعونهُ الى صناديق الاموال عن يد روساء مذاهبهم

وكانت عوام العثمانية في ما سلف تحتقر المعارف المتعلقة بالتمدن والتحضر والفنون النافعة وكذلك كان تقدُّم خاصتهم في مثل هذه الامور قليلاً ايضًا ولكن مع كل ذلك كان يوجد في الجوامع السلطانية الموجودة في ادرنه واسلامبول وبروسا مدارس يقصدها الطلبة من جميع اجزاء المملكة ليتعلموا فيها العلوم الشرعية من توحيد وفقه وحديث وتفسير وكانوا يُمتحنون فيها فمن وجد بينهم صالحًا للتدريس أُجيز عليهِ وهذه المدارس أسَّسها عدَّة من السلاطين العثمانية واول مدرسةٍ منها هي الجامع الذي بناهُ السلطان ارخان في ازنيق واعظم منهُ جامع السليمانية الذي ذكرنا في ما مرَّ بان السلطان سليمان بناهُ في القسطنطينية ولهذين الجامعين ترتيبات تكفي لنحو ثلاثة الاف تلميذ وكانت تلامذتهما بعد تعلمهم فيهما يتقلدون وظائف القضا ونحوهِ او وظائف اخرى في خدمة الدولة وظهر بينهم بعض علماء مشهورين الفوا مولفاتٍ معتبرة تتعلق بالعلوم العربية والفارسية والفلسفة والادب وعلم السير وجغرافية اقاليمهم ومنهم الحاج حسن الادرناوي الذي كان قاضيًا في بغداد فانهُ الف كتابًا سماهُ بهجة الاسرار ترجمة رجل يقال لهُ مرديني الى اللغة العربية سنة ١٠٠٧ للهجرة (سنة ١٥٩٨م) ومنهم رجل مورخ يقال لهُ بلغيري الادرناوي ايضًا الف كتابًا في تاريخ ادرنه والروم ايلي سمَّاهُ انيس المسافرين وذلك سنة ١٠٤٥ للهجرة (سنة ١٦٣٥م) واخر يقال لهُ

شرف بن شمس الدين الكردي الف كتاباً في تاريخ السلطان محمد الفاتح وقره جلبي زاده عبد العزيز الف كتاباً في تاريخ السلطان سليمان القانوني صاحب السليمانية سماهُ سليمان نامه وكثيرون غيرهم كنشانجي محمد باشا الذي كان في عصر السلطان المشار اليهِ وصولاق زاده خواجا سعد الدين صاحب كتاب تاج التواريخ ونشري جلبي صاحب التاريخ المسمّى جهان نما وهناك تواريخ لم نقف على اسماء مولفيها كدرر الاثمار وعالم اراء وغيرها ومنهم الشيخ ابو بكر بن بهرام التركي الذي ظهر في القرن الحادي عشر للهجرة المقابل للقرن السابع عشر للميلاد وكان جغرافيًّا فالف كتاباً في جغرافية البلاد العثمانية وتوفي قبل اتمامهِ فاكملهُ الحاج خليفة الشهير الذي الف ايضاً كتاباً في جغرافية ارمينية وسوريا والاراضي الواقعة بين النهرين الّا ان هذه المولفات التي الفوها يندر فيها وجود بعض معارف صحيحة وفوائد مهمّة ولم تكن تصل ايادي اغلب الناس الى اقتنائها لما ان الذين يتعيشون من نساخة الكتب كانوا يعارضون في طبعها ويساعدهم على ذلك بعض العلماء لكن في ايام السلطان عبد المجيد الاول الذي تقدّم ذكرهُ ترتب في اغلب البلاد العثمانية مدارس تسمّى بالرشدية لتعليم اللغة التركية ودرس بعض العلوم النافعة التي توهل الرعايا للقبول في الوظائف والخدمات الاميرية وقد ترخص لهم وللافرنج من اية ملةٍ كانت بفتح مدارس لتعليم اللغات الشرقية والاوروبية وغير ذلك من انواع العلوم فصار لكل طائفةٍ من الطوائف النصرانية مدارس خصوصية وعمومية لتحصيل العلوم الرياضية واللغات المارّ ذكرها وفي ايام اخيهِ السلطان عبد العزيز كثرت المدارس في مدينة بيروت كثرةً بالغة وانشئت فيها المدرسة الكلية الانجيلية التي اسستها جمعية خصوصية امريكانية واقيم فيها بيت للرصد تحت ادارة الفاضل العلّامة الشهير بانواع العلوم والمعارف الدكتور كرنيليوس فانديك وكثرت كذلك المطابع وانتشرت الجرائد والتراجم المفيدة بل والمولفات العظيمة في اغلب قصبات المملكة وخاصةً القسطنطينية وبيروت ولم تحجز الحرّية في ما يراد طبعهُ من المولفات والنشرات

بانواع اللغات كالتركية والعربية والرومية والارمنية والفرنساوية وغير ذلك الاّ ما كان منها بقصد تشويش الراحة العمومية او مخلاًّ بالامور السياسية والدينية والادبية او متعرضاً لامورٍ خارجة عن وظائف العامّة وأُعلن باعطاء الامتيازات المشوقة والجالبة لرغبة ذوي البراعة في التآليف والاختراعات والاحداثات العلمية والصناعية المفيدة لخير المملكة

وكان السلطان محمود الثاني احدث نياشين الافتخار فجدد ابنهُ السلطان عبد المجيد النياشين المجيدية واخوهُ السلطان عبد العزيز النياشين العثمانية ومن ثم اخذ سلاطين العثمانية وملوك الافرنج في اظهار علائم المحبة المتبادلة بين الطرفين بواسطة اتحاف بعضها بعضاً بالنياشين الفاخرة وفي التكرم بها على كثيرين من تبعة الجانبين ايضاً غير ان سخاوة الدولة العلية الموقوفة على اغراض الولاة لم تنتصر في ذلك على من ظهرت صداقتهم وتحققت امانتهم من الموظفين في الخدامات الاميرية والعسكرية وذوي البراعة من صنوف الرعية فقط

وكانت الفلاحة في البلاد العثمانية مطروحةً في زوايا الخمول والذبول والفلاحون لا يريدون ان يجيدوا زراعة الارض خشيةً على محصولها من ارباب الصيال على انهُ يوجد بينهم ارباب زراعة ماهرون ولكن في ايام السلطان عبد العزيز اخذت في التقدم نوعاً نظراً للامنية التي حصلت في اكناف البلاد وقطع دابر ارباب الصيال والفساد والرفق من جانب السلطان وحدهُ باحوال الرعيّة ورغبتهُ في تعديل الاموال الاميرية وحسن ترتيبها اذ انهُ وضع لذلك قوانين وخاصةً لتقوية الزراعة ونموها ولكيفية تصرُّف الاهالي والاجانب في الاراضي الزراعية بالطابو وتملك الغراسات والعقارات مع ما يوطد امنية الزراعين ويوجب راحتهم وثروتهم ونمو محصولات اراضيهم برفع ما كان عليها من المرتبات القديمة المضادّة لاصول العدالة اذ انها كانت توخذ منهم مالاً راتباً سنويّاً سواء اقبلت زراعاتهم او امحلت ورتب عوض ذلك الاعشار الشرعية التي توخذ عن مقدار الناتج فقط عيناً ووضع كلاًّ من ذلك تحت قانون معتبر في غاية

الجودة لو لم يكن امر انفاذهِ منوطًا برحمة الملتزمين واعتناء الولاة ومن دونهم من الحكّام

واما المهارة في اشغال المعامل والورش فانها مقصورة على عدّة مدنٍ اعظمها القسطنطينيّة ويليها في اسيا دمشق وحلب والموصل وانكورة وقسطموني وبروسا وازمير وفي اوروبا سلانيك وادرنه وروسجق واصول ما يخرج من هذه المعامل السجاجيد والسختيان واقمشة الحرير والقطن ومنسوجات قصب الذهب والفضة ونوع من السلك يسميهِ الافرنج خيط الترك والسلاح الابيض ومنهم من لهُ براعة في الجوخ والاسلحة والدباغ وغير ذلك من بعض اشغال البولاد والنحاس وصباغهم يعادل صباغ الافرنج اذ قد بلغوا فيهِ درجة كمال ويوجد فيهم خياطون واساكفة ونجارون ومعمارية بارعون في صنائعهم ويصنع في نواحي اورشليم وبيت لحم كثير من المسابح والصور من الصدف المسمى بعرق اللؤلوء الذي يجلبونهُ من البحر الاحمر وكثيرًا ما ترصّع بهِ اهل دمشق الاسرَّة والموائد وغير ذلك من الاواني التي يصطنعونها من الخشب المعتاد والابنوس ترصيعًا متقنًا ويُرسل من ذلك جانب عظيم الى ايطاليا وفرانسا وفي ايام السلطان محمود الثاني عُملت في جبل لبنان معامل لتصفية الحرير على طريقة اوروبا وكذلك معاصر في اكثر المحلات لعصر الزيت مثل معاصرها ايضًا وكانت تجددت فبريقة لغزل القطن في الشام في زمن ابيهِ السلطان عبد المجيد ولكنها لم تنجح كما نجحت فبريقة العصب في بيروت ومعمل الورق في ازمير ولولا غلط الاهالي برغبتهم الزائدة في مصنوعات اوروبا على اختلاف انواعها ولو كانت ما يوجد نظيرهُ من نوعهِ بل وامتن منهُ قماشًا من مصنوعات بلادهم لكانت الصناعات تتقدم في هذا العصر تقدمًا عظيمًا ويستردون بواسطتها شيئًا من الثروة التي خطفتها منهم ايادي الغرباء الذين لم يسمحوا لهم بترك شيءٍ يصطنعونهُ لانفسهم حتى ولا فتائل السرج ونظائرها مما يحتالون على استجلاب رغبتهم فيهِ بالزخرفة وسهولة المناولة على ما قد سبقت الاشارة اليهِ في بابهِ

على ما ذكر كان معظم استمداد التجارة وزيادتها في البلاد العثمانية من نقل المحاصيل الغشيمة وحملها منها لتباع في غيرها كالصوف والحرير والقطن والجلد والدخان وبعض المعادن ولاسيما النحاس والخشب والزيوت والادهان والتين والتمر واللوز والزبيب وغير ذلك من انواع الفواكه والحنطة وسائر الحبوب التي تنقلها التجار الى البلاد الافرنجية وكذلك دودة الصباغة والعفص والشاب وعدة اطيان واتربة مخصوصة ولاسيما ما يُسمى بالطين المختوم وزبد البحر ثم منذ ترتبت شركات المراكب البخارية المسماة وابورات واستعدت لحمل البضائع ونقلها من الاساكل العثمانية الكائنة على شواطي بحر الروم اتسعت دائرة هذه التجارة اتساعًا زائدًا ولاسيما منذ عُملت طريق المركبات البخارية في بعض انحاء هذه المملكة وتمهدت طريق مركبات الخيل بين الشام وبيروت وامتدّ الموصل البرقي المعروف بالتلغراف في اقطار المملكة في زمن السلطان عبد العزيز امتدّت كذلك هذه التجارة بنوعٍ لم يُسبق له مثال في هذه الاقاليم حتى صار العنب الزيني الشهير في دمشق يُنقل منها طريًّا الى الاساكل برسم التجارة وانواع الليمون تُنقل من طرابلس في المراكب البخارية الى اودسّا على شواطي البحر الاسود بكثرة بالغة فضلاً عن غيرهِ من نوعهِ مع ان تجارة هذه المدينة الكثيرة الفواكه كانت محصورة في الحبوب والحرير والدخان والسفنج والزيت والصابون الذي يُصطنع في معاملها اما فواكهها فكانت لخصوص اهاليها كما في صيدا ويافا وسائر امثالها من الاساكل الشامية وبذلك تعوّض عليها ما كانت خسرتهُ قبلاً بواسطة تعطيل انوال منسوجاتها الحريرية وخاصةً الزنار الشهير بالطرابلسي منذ ابدلت الدولة العلية ملابسها القديمة بالملابس الاوربية واتّبعها الاهالي في ذلك

وقبل ان نتكلم عن تلك القوانين التي وضعت منذ زمن السلطان عبد المجيد وخلفائهِ لاصلاح الاحكام يلزم ان نبسط الكلام قليلاً على ما كانت عليهِ تلك الحكومة قبل ذلك فنقول ان الدولة العثمانية وان كانت مطلقة التصرّف لكن

السلطان نفسهُ لم يكن يتباعد عمَّا في الكتاب والسنَّة غير انهُ كان يقلّد فقط المناصب المدنية والعسكرية لمن يريدهُ ويصرّفهُ في ذلك كيف شاء فكان غالبًا يوجد بين ارباب المناصب من ليس هو اهلاً للوظيفة التي تقلدها ونظرًا لعدم انتظام الاحكام السياسية التي كان عليها المعوّل وقتئذٍ كان كل متوظف او صاحب منصب في الدولة يمكنهُ كذلك ان يعطي قدرتهُ لايّ انسان ارادهُ ليقوم مقامهُ مثال ذلك ان السلطان الذي هو خليفة صاحب الشريعة الاسلامية كان يعطي قدرتهُ الى الوزير الذي هو نائبهُ في الاقليم الذي يوليهِ عليهِ ثم ان كلّ من ولاَّهُ ذلك الوزير على عملٍ من الاعمال كانت لهُ قدرة ذلك الوزير نفسه في ذلك العمل وهكذا الى ما لا يمكن تناهي سلسلتهِ الاَّ بتناهي سلسلة التولية وحيث لم يكن هناك قوانين لهولاء الحكام ثابتة غير متغيرة فكانت احكام كثيرين منهم احكامًا عسكرية شديدة الظلم اشبه بجيشٍ منصور غالب حطَّ في وسط امم مغلوبة منهزمة يعاملهم معاملة المدينة الماخوذة عنوةً بحدّ السيف وليس كما ينبغي ان تعامل الحكام ابناء اوطانهم فصار كل ما يصدر عنهم من الجور والتعدي وسوء الاحكام يُنسب عند الاجانب الى الشريعة الاسلامية كانها هي التي تجيزهُ او تامر بهِ ولذلك أنفوا من قبول احكامها حتى ان نفس الرعايا ايضًا نفرت وصار من يمكنهُ الالتجاء الى الاجانب من ذوي الوجاهة منهم لا يتأخر عن ذلك ليحتمي من المظالم التي كان يجريها اولئك الحكام الجائرون الذين كانت تعطى لهم الولايات اشبه بالتزامات في مقابلة بدل مقرر سنوي يدفعونهُ الى الخزينة السلطانية رأسًا او ليصرفوهُ في عملٍ من الاعمال ثم ما فاض عن ذلك من ايرادات تلك المناصب فيكون لمتولي الايالات من الوزراء الذين هم ايضًا يعاملون من كان ضمن دائرة حكوماتهم من متسلمي البلاد وغيرهم بمثل هذه المعاملة عينها ولذلك كانت مناصبهم هذه كأنها مشتراة بالثمن ليتمتعوا بخيراتها وبما ان مدّة حكوماتهم تكون في الغالب قصيرة ايضًا فكانوا بمجرد وصولهم الى مراكز ولاياتهم يبادرون بدون توقف الى اخذ ما كانوا قد صرفوهُ على تحصيل

مناصبهم من الرعايا بطريق البلص والجرم او مصادرة اموال الناس لذنوبٍ يخترعونها لهم. ومع ان السلطان نفسهُ لا يامر بقتل احدٍ بدون مراجعة الشريعة واعطاه فتوى بذلك من شيخ الاسلام كان المتسلمون ومن دونهم من الحكام ايضًا فضلاً عن الولاة يسفكون دمَّ من ارادوا قتلهُ من الرعية بمحض ارادتهم استنادًا الى ذنبٍ صوريٍ لهُ او وشايةٍ صدرت من احدٍ بحقهِ

وكانت مراتب هولاء الوزراء على انواعٍ بحسب اهمية مناصبهم فكان منهم مَن لهُ ثلاثة اتواغ ويُسمَّى وزيرًا ويراد بالتوغ اللواء وهو رمح طويل يعقد عليهِ شي من شعر الخيل ويعطى للباشاوات منهُ ثلاثة على ما ذكر تحمل امامهم علامةً على الوزارة ومنهم من لهُ توغان فقط ويُسمَّى بكلربكي ومعناهُ امير الامرا وكان هذا اللقب يُطلق سابقًا على وزيرين من وزراء الدولة احدهما باشا الروم ايلي والثاني باشا الاناطولي ومنهم من يكون لهُ توغ واحد ويقال لهُ امير اللواء وكان لكلّ باشا عساكر على قدر رحالهِ يعولهم من ايراد ولايتهِ ورئيس هولاء الوزراء هو الصدر الاعظم اوّل وكلا السلطنة بل الوكيل المطلق للسلطان ومعهُ ختم المملكة وعليهِ تكون امارة الجيوش ايضًا ويتصرّف في اموال الخزينة كيف شاء ويوجّه جميع المناصب الملكية والعسكرية وعليهِ درك جميع ما يقع في الدولة من الخلل والقحط والحريق وانهزام العساكر في الحروب وقيام الرعايا للعصاوة وامثال ذلك من الضمانات التي جعلت قلَّ ان يموت احد من اصحاب هذا المنصب حتف انفهِ

وكان رئيس مشورة الدولة يُسمَّى رئيس افندي يعني الافندي المترأس على زمرة الافندية ارباب الاقلام فان هذه الزمرة كان لها كلمة نافذة في الدولة لكونها تحتوي على فضلاء الامة العثمانية واكثرها معرفةً في الادبيات والسياسيات

اما العلماء اصحاب العلوم الشرعية فهم المحافظون على ناموس الشريعة الدينية في المملكة ويُلقّبون افندية ايضًا ويعلمون الناس امور دينهم ويفتون في

مواد المعاملات والجنايات ورئيسهم هو شيخ الاسلام الذي يستفتيه السلطان في الامور الشرعية ولا يعقد حربًا او يضرب ضريبةً على الرعية الاَّ بفتوى منهُ وهو الذي يولي القضاة الذين يحكمون في الدعاوي بين الخصمين واحكامهم تكون موسَّسةً على ما يستدلون بهِ من القرآن او يستندون اليهِ من الحديث او من كلام الفقهاء ولهم ان يقيموا الحدود ويحكموا بقتل القاتل وترتيب جزاء السارق وغيرهِ من ارباب الجنايات وقلَّ ان حوكم جانٍ تأدب لجريرةٍ او عُرِفَ سببُ قصاصِهِ الاَّ اذا كانت جرت محاكمة وترتب جزاؤهُ بمعرفة هولاء القضاة ولمَّا كان في معسكر السلطان عثمان الاوَّل يجري حكم القضاة في اقامة الدعوى نظير حكم مشورة عسكرية اهلها رحالة نزالة لُقب كل من القاضيين العظيمين في المملكة وهما قاضي روم ايلي الذي هو قاضي بلاد الدولة التي في اقليم اوروبا وقاضي اناطولي الذي هو قاضي بلادها التي في اقليم اسيا بلقب قاضي عسكر مع انهما في الحقيقة قضاة مدن وليسا قضاة عساكر وقال بعض المولفين ان اول من جعل قضاة العساكر اثنين واحدًا في الروم ايلي والاخر في اناطولي هو السلطان محمد الفاتح

وكما ان شيخ الاسلام يعين القضاة المومأ اليهم لا بدَّ له كذلك من ان يخصص مفتيًا لكل بلدةٍ من البلاد التي يعين لها قاضيًا ويكون من المتضلعين بمعرفة الامور الشرعية لمراقبة ما يجريهِ ذلك القاضي من الاحكام الشاذَّة او ليستعين بهِ القاضي في القضايا المشكلة فلا يبرم فيها حكمًا الاَّ من بعد ان يستشيرهُ ويحصل على جواب ممضي ومختوم منهُ مبني على نصٍّ شرعي يوثق بهِ

اما نقابة الاشراف فهي وان تكن من الوظائف العلمية الاَّ انهُ لم يبقَ لها من الاهميَّة ما كان في ازمنة الخلفاء من العرب لانحصارها في المحافظة على سلسلة انساب الذين ينتمون الى العصابة الهاشمية وكانوا يتوصلون بها الى الخلافة او الاستحقاق في بيت المال

وكانَ من اصعب الامور معرفة مقدار ايرادات الدولة ومصاريفها على

وجه الصحة والتدقيق بل ان ما يصل من الاموال الى السلطنة كان موكولاً الى الدفتردار الذي هو امين خزينة المملكة ويُجمع تحت يدهِ ما يتحصل من بيع تلك المناصب العظيمة وما يعطيهِ اصحابها عند تقريرات الابقا في اوّل كل سنةٍ وما يؤْخذ من اصحاب الاقطاعات والملتزمين وما يتحصل من الخراج اي جزية الذميين والتزام بعض المكوس والكمارك وهناك شخص اخر غيرّ الدفتردار المومأ اليهِ يقال لهُ وكيل الخزينة ويكون من الخصيان السود موكلاً بتدبير الخزينة السلطانية الداخلية التي تدخل فيها الاموال التي تضبط من اربابها بذنب من الذنوب والتي يرثها السلطان ومنها تكون مصاريف السرايا السلطانية وهذه الخزينة هي ايضاً غير خزينة السلطان التي لاموالهِ الخاصة فان تلك تكون تحت يد احد غلمان السرايا الذين يأْتمنهم ويُلقَّب خازنها بلقب خزينه دار وايرادها يكون من دار الضرب وتزيد دائمًا بما يوفرهُ فيها اغلب السلاطين

وليست معرفة مقدار ايرادات المملكة ومصاريفها كانت مجهولة فقط وغير محققة عند الدولة على ما ذكرنا بل ان كثيرًا من المحلات والامكنة الملحقة الى الايالات ولم تكن اشغالها متصلة بكرسي المملكة كانت اما غير معروفة بالكلية او لم يكن لاسمائها قيد على وجه الصحة في دفاتر الميري نظرًا لما كان يقع بها مع مرور الازمنة من التصحيف الناشي من اقلام الكتبة كلّما اوجب الامر تجديد قيودها . اما عدد نفوس الاهالي فلم يُلتفت اليهِ في هذه المملكة اصلاً الى ان جرى نظام قيد النفوس في زمن السلطان عبد العزيز

وكانت العساكر الخيالة في الزمن القديم معتبرة عند العثمانية اكثر من المشاة كما كان ذلك عند ملوك الافرنج ايضًا وكانوا يلبسون في رؤُوسهم مغافر من الحديد ودروعًا منهُ على اقفيتهم ايضًا ويسمون اقبنجية لكن في زمن السلطان ارخان اهتم اخوهُ علا الدين باشا بترتيب جانب من المشاة ورتب لكل نفرٍ منهم اقجه واحدة علوفةً في كل يوم (والاقجه ربع درهم شرعي) وكذلك كان في زمن السلطان المشار اليهِ قاضي عسكر يقال لهُ قره خليل استحصل منهُ امرًا

ذلك فلم يعد فأدّى ذلك الى عزله وقتله ثم في ايام السلطان عبد الحميد الاول الذي تولى السلطنة سنة ١١٨٨ للهجرة (سنة ١٧٧٤ م) لواد كذلك ابطاله وجلب الى مملكته ضباطًا فرنساوية ورتب فيها التعليمات العسكرية والسفن الحربية وجدد العساكر الطوبجية وطوبجية القنبرة والرماة بالبندق لكن لما اراد خلفه السلطان سليم الثالث الذي تولى السلطنة سنة ١٢٠٣ للهجرة (سنة ١٧٨٩م) ان يحذو حذو سالفه المشار اليه في هذا الامر وبرتب العساكر التعليمية صار ذلك سببًا في عزله وقتله وخلاصة الكلام انه لم يفز بهذا المقصد العظيم الا السلطان محمود الثاني الذي تولى بعده فانه هو الذي نجح في هذا المشروع بعد ان اباد وجاق الينكجرية المذكورين ودمره بموازرة العلماء والاهالي لكونهم كانوا انفوا للغاية من رذائل هذا الوجاق الردية وقطع كذلك شأفة العساكر المسماة باليمق التي كانت تميل اليهم وألحق بهم الدراويش البكتاشية ورتب العساكر التعليمية الجهادية الجديدة الموجودة اليوم وادخل فيها جميع الوجاقات العسكرية القديمة (يُراد بالوجاق في اللغة التركية موقد للنار يبنى بالطين والحجر لطبخ القهوة في القهاوي كان يوجد نظيره في مراكز روساء العساكر القديمة حيث يجتمعون للمشاور والمذاكرات فيكون لكل فرقة منها مثل هذا الوجاق في محال اجتماعاتها واحتفالاتها الرسمية لتُطبخ عليه القهوة لاجل شرب انفارها فينتسب اليها ويقال اوجاق الينكجرية واوجاق الدالاتية وهلمّ جرًّا ولذلك تسمت تلك الفرق بالوجاقات اخذًا عنه كما كان يقال للآغا من الينكجرية جوربه جي يعني صاحب الشوربا او طعّام الشوربا نسبةً الى الشوربا التي كانت جارية العادة بطبخها في ايام رسمية معينة في قشلة (اي مشتا) العساكر الينكجرية لنفرات هذا الوجاق وكان يترتب على تعمد قلب مراجلها المسماة بلغة الاتراك قزغانلر جمع قزغان الثورات العظيمة التي كانت تؤدّي احيانًا الى خلع السلاطين وقتلهم ولذلك جرى المثل على السنة العامّة من اهالي البلاد بقولهم فلان قلبوا له القازان يعنون بذلك طرده من مسنده او تنكيسه بتدني منزلته فلما ابطل

السلطان محمود المشار اليه العساكر المذكورة امر ايضاً بابطال عمل هذه الوجاقات المعدّة لطبخ القهوة من القهاوي بمدينة القسطنطينية لينسى ذكر الوجاق من اصله فصاروا من ذلك الوقت لايطبخون القهوة في القهاوي الّا على المناقل المعتادة)

وكانت آلات حروب العثمانية في زمن السلطان عثمان الاوّل القوس والنشاب والسيوف والسكاكين والحراب وكانوا يضربون اسوار المداين والقلاع بحجارة كبار يضعونها في المجنيقات ويطلقونها عليها فيهدمونها كما يضربون داخلها بالحجارة الصغار في المقاليع وكان احسن تلك الآلات القوس والنشاب والسهام التترية الكبار على العربانات مع ان الباروت كان ظهر في زمن هذا السلطان الفاتح لكنهُ كان لازال ما اشتهر ولذلك لم يستقرّ حال ما تجدد بعدئذٍ من معامل المدافع المسماة بلغتهم طوبخانات وورش البنادق وغيرها التي شُرِع في انشائها عدّة مرار ثم تبطل باسباب الضرائب التي كانت تجدد لاجل مصاريفها الّا في زمن السلطان سليم الثالث

اما قوّة العثمانية البحرية فكان تجديدها في زمن السلطان محمد الفاتح الذي هو اوّل من رتب العساكر البحرية في هذه الدولة ثم عظمت قوتها وشوكتها في زمن السلطان سليمان الثاني لكنها اخذت في الانحطاط منذ القرن الثاني عشر للهجرة المقابل للقرن الثامن عشر من الميلاد واخيرًا اعتبروا في عمارتها طرق الانكليز وقلدوهم في ذلك على ما كان نواهُ السلطان سليمان الثالث الذي جلس على التخت في سنة ١١٠٤ للهجرة (سنة ١٦٩٣ م) وبحريتها غالبًا كانت تكون من الاروام وقد اخذت في الرجوع الى ما كانت عليهِ من القوّة في بداءة امرها منذ زمن السلطان عبد العزيز الاوّل الذي البسها حلل الرونق والبهجة بما زادهُ فيها من البوارج البخارية والشواني المصفحة الحديدية

ولم يكن عقد المجالس للتشاور ووضع القوانين الادارية مجهولاً عند الدولة العثمانية في ابتداء امرها اذ قد سبقت الاشارة الى المجلس الذي كان عقدهُ

السلطان ارخان في بروسا لما تولى السلطنة بعد ابيهِ السلطان عثمان الأوّل لوضع بعض قوانين ونظامات تلايم احوالهم البدوية مع طنطنة السلطنة والدولة وكان ذلك المجلس مركبًا من علاء الدين باشا اخي السلطان المشار اليهِ والشهزاده سليمان باشا والسلطان مراد وغيرهم من الاعيان والاكابر فرتبوا فيهِ اولاً امر الملابس على ما سبقت الاشارة اليهِ في صحيفة ٥٣٦

ثانيًا منعوا فيهِ تداول المعاملة التي كانت متداولة وقتئذٍ في ايادي الناس من ضرب السلاطين السلجوقية وان تضرب معاملة جديدة غيرها باسم السلطان ارخان وبعلامة الدولة فمن ثم ابتدي بضرب السكة باسمهِ في محرم سنة ٧٢٨ للهجرة (سنة ١٣٢٧م) وكُتب عنوانُها امير وسلطان الروم وبقي يكتب عليها هذا العنوان لحد زمن السلطان بايزيد الاول المُلقَّب بيلديرم ومعناهُ في التركية البرق لُقّب بذلك لخفتهِ في الحروب وقيل ان السبب الاصلي فيهِ هو لكون ان اسمه هذا الذي هو بايزيد لم يكن فيهِ حرف الميم خلافًا لما اعتادهُ آل عثمان من الاسماء تيمنًا بوجود الحرف المذكور فيها ولذلك لقبوهُ بهذا اللقب لوجود هذا الحرف فيهِ ولم يقلّ اعتبار هذه العادة الاّ في زمن السلطان محمود الاول وابنهِ السلطان عبد العزيز ولنرجع الى ما كنا بصددهِ من امر السكة وضرب العملة فنقول ثم تغير ذلك العنوان عن المعاملة بعد فتوح البحر الابيض والبحر الاسود وكتب عوضهُ سلطان البرين وخاقان البحرين ثم لما افتتح السلطان سليم الاول مصر والحجاز ضُمّ الى ذلك خادم الحرمين الشريفين (يعني مكة والمدينة) وكُتب عليها احيانًا سلطان سلاطين زمان ولا يلزمنا استقراء كل ما كُتب عليها ولا مقدار انواعها وكيفية ما وقع من التغيير والتبديل في عياراتها واوزانها بل ينبغي العدول الى ما هو اهمّ اعني الاصلاح العظيم الذي جرى فيها في زمن السلطان عبد المجيد الاوّل فانهُ امر بضرب الليرات الذهبية والريالات الفضية المنسوبات اليهِ خالصاتٍ من الزغل تحت عيارٍ ووزن معلوم لا يتغيران بقيمةٍ عادلة بحيث لا تزيد عن اثمانْ الذهب والفضة الخالصَين الاّ بما قلّ في

نظير اجرة السكة فقط واكتفى بوضع الطغراء السلطانية من الجهة الواحدة ومحل ضربها ان يكن القسطنطينية او مصر او غيرها من القصبات المأذونة بضرب المعاملة من الجهة الاخرى (والطغراء هي اسم السلطان يكتب بصورة مخصوصة نظير العلامة)

وكان لم يترتب في مجلس بروسا الذي كنا بصدده من الامور المهمة غير ما ذكرنا الا اقامة نواب من طرف السلطان للخطابة في الجوامع وقت صلاة الجماعة يوم الجمعة نيابة عنه وان السلطان يامر بالمكافاة لمن يخدم بنصح وبالمجازاة لمن كان بعكس ذلك وان تتعين مراتب مخصوصة الى اصحاب الخدامات السابقة الذين اوفوا خداماتهم في باب الدولة بالصدق والاستقامة وان تحصل المبادرة بجمع العساكر الخيالة والمشاة وغيرهم وامثال ذلك من القوانين التي جددوها باتفاق الاراء لتظهر لهم حقوق دولية فيما بين السلاطين والملوك المجاورة لهم

فلما تولى السلطنة السلطان سليمان الثاني وضع قوانين اخرى لُقب بسببها بالقانوني أُخذتْ بعضُ احكامها من قوانين ملوك الروم ممزوجةً باحكام الشريعة الاسلامية وانما لا توجد بها قوة لضبط ارباب المناصب ولا احكام تتكفل بتنفيذ تلك القوانين

اما القوانين العظيمة والاحكام المتكفلة بانفاذها على وجه اتمّ واكمل بما فيها من الاصول العادلة والترتيبات النافعة العائدة للدولة خصوصاً وللتبعة عموماً وقد ذُكرت بعض نتائجها بالمناسبة في ما مرّ فان الفخر كل الفخر فيها للسلطان محمودْ الثاني الذي هو اوّل شارع فيها منذ اعتق مملكتهُ من ظلم اليكجرية وغيرهم من تلك الوجاقات العسكرية المقوتة لجورها وتصديها للسلاطين ومنعها اياهم عن انفاذ مأربهم وتتميم مقاصدهم في اصلاح احوال المملكة وتقوية شوكتها وسعادة اهاليها وراحتهم

وبهذا العمل المبرور قد مهد الطريقَ لابنه السلطان عبد المجيد الاول

الذي منذ جلوسهِ على التخت العثماني عاهد الله بقسمٍ في حجرة الخرقة الشريفة على صيانة دماء الرعايا واعراضهم واموالهم وحفظ ناموسهم ثم انهُ اخذ هذا العهد عينهُ ايضاً بقسمٍ على العلماء وجميع الوكلاء والوزراء وبعد ان أُعلن ذلك بفرمانٍ عالٍ مورخ في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ للهجرة الموافق الى ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٣٩م تُلي في المحل المعروف بكلخانة في مدينة القسطنطينية وأُرسلت صورتهُ الى سفراء الدول الاجنبية ايضاً اخذت قوانين التسوية بين الرعايا والترتيبات التي سُمّيت بالتنظيمات الخيرية ان تظهر شيئاً فشيئاً في جميع اقطار هذه المملكة الواسعة بفرامين عالية واوامر سامية متتابعة

ولا زال الحال على هذا المنوال الى ان ظهر دستور القوانين السلطانية وطُبع مرتين في زمن اخيهِ السلطان عبد العزيز والطبعة الثانية كانت حاوية على كلِّ ما تجز وضعهُ وترتيبهُ ليخرج من القوة الى الفعل مما قد ترخص بعملهِ الوكلاء والمامورون الذين قد أُنيط بهم هذا العمل المجيد سواء كان ذلك مما ورد في نصوص الفرمان العالي المشار اليهِ او في غيرهِ من الاوامر الملوكية الصادرة في اوائل شهر جمادي الاخرة سنة ١٢٧٧ للهجرة اواخر كانون الثاني سنة ١٨٥٦م وغير ذلك من التواريخ وتثبت اخيرًا بالخط الشريف السلطاني الصادر الى مقام الصدارة العظمى عقيب الجلوس الهمايوني بتاريخ ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٧٧ للهجرة (٣٠ حزيران سنة ١٨٦١م) وهاك ملخص مضامينها العلية التي بها أُلغيت احوال السياسة القديمة التي كانت الدولة مجبورة اليها في عصر تلك العساكر البربرية على ما هو مندرج في فاتحة الدستور المذكور وقد كنت منذ مدة ترجمت منهُ مجلدين كبيرين وهما الاول والثاني الى اللغة العربية خدمةً للدولة والوطن نقدما الى دار السعادة على يد صاحب العزة خليل افندي الخوري مدير المطبوعات ولا زال العارفون بذلك يتوقعون سنوح الترخيص بطبعهما ونشرهما ليعرف كلٌّ ما عليهِ وما لهُ مما تكفَّلت لهم بهِ التصول الآتي ذكرها وهي

اولًا ابطال ما كانت تجريهِ العُمّال من المظالم الآتي ذكرها وهي

(١) البلص ومصادرة الاموال
(٢) سفك الدماء بغير وجه
(٣) العوائد والقوانين الخشنة القديمة
(٤) حرم الورثة حقوقهم في ارث المتوفي من ايَّة رتبةٍ كانوا
(٥) حجز محصولات المملكة واحتكارها بيد شخصٍ واحد يتمتع بارباحها وحدهُ
(٦) اخذ اقارب المذنب بجريرتهِ
(٧) الالفاظ المهينة والعبارات السخيفة التي كانت تستعمل لفظًا وكتابةً وخاصةً بحق من كان على غير دين الاسلام
(٨) حجز حرّية الضمير في الامور التي بين الخالق والمخلوق

ثانيًا اباحة مراحم اما كانت مخصوصة واما مفقودة بالكلية وهي

(١) اباحة الحرّية في استعمال الشعائر الدينية لاي مذهبٍ كان
(٢) اعطاء المناصب والمراتب الداخلية الملكية والعسكرية لاصحاب اللياقة والاستحقاق من ايَّة ملةٍ كانوا من الرعايا
(٣) ترتيب المحاكم وتعيين المعاشات للقضاة على طرق خزينة الدولة
(٤) ترتيب التأديبات لمن يرتكب الرشوة ووضع قوانين الجزاء لكلٍّ من سائر اصحاب الجرائم والقبائح بحسب استحقاقهِ
(٥) ترتيب معاشات كافية للمأمورين وجميع مستخدمي الدولة بحيث لا يبقى لهم عذر في قبول الرشوة وابتلاع الاموال
(٦) تقييد الحكام بقوانين معتبرة يجرى عليها تصرفهم في كليات الامور وجزئياتها بحيث لم يترك شي لاجتهادهم الخاص

(٧) ربط هذه النظامات كلّها بدواوين يجتمع فيها كبار البلاد ووجوهها ذوو الاعتبار من جميع التبعة على اختلاف مذاهبهم للتشاور والنظر في الامور الملكية والمالية والجزائيّة والاصلاحات البلدية والقضايا التجارية وكل متفرعات الاحكام هذا عداء عن المجالس المخصوصة الموجودة في عاصمة المملكة لتنظيم القوانين النافعة والاحكام العدلية العائدة لخير الملك والشعب

(٨) وضع القوانين التي يلزم ان تجرى عليها عملية هذه المجالس في كل الامور والقضايا المحالة الى عهدة اهتمام اعضائها بحيث ان كل حكم أُبرم فيها غير مستندٍ الى قانونٍ صريح فلا يكون نافذًا ولا يعمل بهِ اصلاً بل لكل انسان حق المدافعة عن نفسهِ بقوة هذه القوانين والاستناد اليها فاذا خسر احدٌ حقّهُ بجهلهِ اياها فلا يكون لومهُ الاّ على ذات شخصهِ

(٩) ترتيب الاموال والعائدات الاميرية وكيفية تحصيلها على وجه السهولة وراحة الاهالي بحيث يكون توزيعها على كل شخصٍ بقدر احتمالهِ بطريقة الاعشار الشرعيّة

(١٠) تخصيص الصناديق البلدية ببعض عائدات رسومية كانت توخذ الى خزينة الدولة لتصرف في الاصلاحات المحلية كتمهيد الطرق واصلاح القناطر والجسور واقنية الماء وغير ذلك من الامور الموجبة اصلاح احوال المدن ونظافتها

(١١) ترتيب المدارس الرشدية لتعليم الاهالي وتهذيبهم وتاهيلهم للقبول في خدامات الدولة ومناصبها السامية

(١٢) مساواة الاهالي على اختلاف مذاهبهم ايضًا بالاجانب الذين يحصلون على شيء من الامتيازات في الامور المتجرية

(١٣) حفظ ناموس الرعية وتمتع كل انسانٍ منها باموالهِ واملاكهِ وسائر وجوه تمتعاتهِ بدون معارض

(١٤) تطهير المحبوس وتنظيفها ورعاية المسجونين والمحافظة عليهم مما

يوجب الاضرار على صحتهم والقيام بالقوت اللازم لذوي الفاقة منهم الى غير ذلك من الامور التي لاتسعنا تفاصيلها ومن هنا يعلم القاري بان ما صدرت الارادة السلطانية بابطاله قد كان جاريًا من ذي قبل وما اباحته قد كان اما مخصصًا واما ممنوعًا وما احدثته قد كان معدومًا بالكلية

ثم في زمن السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى العرش في سنة ١٢٩٣ للهجرة (سنة ١٨٧٦ م) وضعت النظامات الاساسية التي بها تكرمت الدولة بابطال السلطة الاستبدادية اي التسلط المطلق الذي يتسلطه شخص واحد او اكثر ومنحت الحرية والعدالة والمساواة لكل الطوائف المختلفة التي تتألف منها الهيئة الاجتماعية في بلاد الدولة العلية واعلنت بفرمان عالٍ مؤرخ في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ للهجرة (٢٣ كانون الاول سنة ١٨٧٦ م) وهي تحتوي على ١٢ فصلاً

(١) يتعلق بالسلطنة العثمانية او بممالك الدولة العثمانية تبيينًا لها ويتناول بعض متعلقات الذات المالكة وحقوقها وسائر السلالة العثمانية الملوكية

(٢) حقوق تبعة الدولة العلية العمومية

(٣) في وكلاء الدولة

(٤) في المامورين

(٥) في المجلس العمومي

(٦) في هيئة مجلس الاعيان

(٧) في هيئة مجلس المبعوثين

(٨) في المحاكم

(٩) في الديوان العالي

(١٠) في الامور المالية

(١١) في الولايات

(١٢) في موادّ شتى ولا يسع هذا المختصر تبيين تفاصيل المواد المدرجة

تمت هذه الفصول بافرادها بل نقول على وجه الاجمال ان الدولة العلية منذ تولى السلطان عبد المجيد الاول الى زمن السلطان عبد الحميد الثاني الحالي لم تكف قط عن بذل السعي والاجتهاد في سبيل راحة الاهالي وترفيه احوالهم وسعادتهم وصيانة ارواحهم واعراضهم واموالهم ووقاية ناموسهم ولم يبقَ شيء ناقصاً الاّ ما كان عملهُ من متعلقات القدرة الالهية القادرة وحدها ان تحوّل اخلاق العمّال المنوط بهم انفاذ القوانين عن بعض امورٍ مخلّة في شرف النفس الى العمل بموجب النظامات السلطانية كما تمنّ علينا نحن ايضاً بتحويل طباعنا عن التعصبات الدينية والاغراض المذهبية وعن صرف اوقاتنا مع الجدّ والاجتهاد على الاتّصاف بوصف اوّل لعيبٍ حاذقٍ مثلاً في اللعبة العلانية الى الرغبة في اكتساب شرف الاتصاف بفضيلةٍ من فضائل الاداب والمعارف الحقيقيّة

يقول مولفهُ الفقير نوفل بن نعمة الله بن جرجس نوفل هذا اخر ما امكنني تعليقهُ في كتابي هذا الثاني المسمّى بزبدة الصحائف في سياحة المعارف ممّا وصلت اليهِ يدي التقاطاً من تلك الكتيبات والرسالات والنشرات التي اشرت اليها في مقدمة كتابي الاول ويليهِ الكتاب الثالث المسمّى بصنّاجة الطرب في تقدمات العرب

والحمد لله اولاً واخراً

م

اصلاح غلط

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٤	٨	وعلى مقتضى	على مقتضى
٥	٣	ابتدي	ابتدى
١٠	٢٤	وتاليو	وتأليه
٢٣	١٠	منغطا	منفطا
٣١	١٩	يحب بالوطن	يحبب بالوطن
٧٣	١٧	بعضهم من علها	بعضهم زمن علها
٧٤	٣	ابونيس	انوبيس
٧٤	٤	ايونيس	انوبيس
١٠٣	٤	فلاسغوس	فلاسفوس

يوجد غلط في عدد الصحائف الآتي ذكرها وترويسها

خطا		صواب	
١٣٧	المعارف عند الرومانيين	١٣٩	المعارف عند اليونان
١٣٨		١٣٠	
١٣٩	المعارف عند الرومانيين	١٣١	المعارف عند اليونان
١٤٠		١٣٢	
١٤١	المعارف عند الرومانيين	١٣٣	المعارف عند اليونان
١٤٢		١٣٤	
١٤٣	المعارف عند الرومانيين	١٣٥	المعارف عند اليونان

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٤٤			١٣٦
١٣٩			١٣٧
١٣٠			١٣٨
١٣١			١٣٩
١٣٢			١٤٠
١٣٣			١٤١
١٣٤			١٤٢
١٣٥			١٤٣
١٣٦			١٤٤
١٥٧	٢٤	بوقامون	بوتامون
١٦١	٧	اذان الدرويديون	اذان الدرويديين
١٧١	التعريس	القياصرة الرومانيين	المعارف عند الرومانيين
١٧٨	٣١	ذلك وقت من	ذلك في وقت من
١٨٤	٢١	الرهبان كانوا	الرهبان لانهم كانوا
١٩٦	٢١	ولما اراد وان ايزينوا	ولما ارادوا ان يزينوا
٢٠٨	١٢	على تقدمات	عن تقدمات
٢١٠	١٣	وكما ان	كما ان
٢١٥	التعريس	الامبراطورية الغرقية	الامبراطورية الغربية
٢٤٣	٨	بايطاليا	في ايطاليا
٢٤٤	٢٠	ورنغريد	ورنفريد
٢٥٣	١٩	ورنغريد	ورنفريد
٢٥٧	٢٣	وبولين واكيليا	وبولين داكيليا
٢٦٤	٢١	جيلاً القس	جيلاً اتعس

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٢٦٦	الترويس	٢٣٦	٢٦٦
٢٦٧	٢٠	بعد استولوا	بعد ان استولوا ه
٣٠٦	٧	سوالو	سؤله
٣٤٠	١٣	ميشلوز وميتسلوزي	ميشيلود وميشياوزي
٣٩٤	٧	عساكر	عسكر
٤٠٧	٦	استدراجات امكانية	استدراجات مدنية
٤٠٨	٣	ديغرميان	ديفرميان
٤١٧	الترويس	٤٣٥	٤١٧
٤١٧	١	منذ قرن مما كان	منذ قرن ما كان
٤١٨	الترويس	٤٣٦	٤١٨
٤١٩	"	٤٣٧	٤١٩
٤٢٠	"	٤٣٨	٤٢٠
٤٢٠	١٢	من تاثيرها الردي بعض الامور الآتية وهي	من بعض تاثيراتها الردية هذه الامور الآتية وهي
٤٢١	الترويس	٤٣٩	٤٢١
٤٢٢	"	٤٣٠	٤٢٢
٤٢٣	"	٤٣١	٤٢٣
٤٢٤	"	٤٣٢	٤٢٤
٤٢٥	"	٤١٧	٤٢٥
٤٢٦	"	٤١٨	٤٢٦
٤٢٧	"	٤١٩	٤٢٧
٤٢٨	"	٤٢٠	٤٢٨
٤٢٩	"	٤٢١	٤٢٩

5395 / 51A